

# الإدب فى العصر الفاطمى

■ ٢ ■

الشعر والشعراء

دكتور

محمد زغلول سلام

الناشر // **مكتبة** دار الفكر  
بجلاال حزى وشركاه  
الاسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حمزى وشركاه

٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون /فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣







## الفصل الأول

### حال الشعر والشعراء



## بسم الله الرحمن الرحيم

### حال الشعر :

يبدأ العصر الفاطمي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وهو القرن الذي ارتقى فيه الأدب العربي عامة وازدهر الشعر والنثر ، فأخرج كبار شعراء العربية أمثال أبي الطيب المتنبي والشريف الرضي ومهيار الديلمي والصنوبري وأبي العلاء المعري من شعراء الشرق والشام ، كما أظهر من شعراء الغرب ابن هاني وغيره من شعراء الأندلس .

وفضلاً عما خرج في هذا القرن من كبار الكتاب أمثال أبي هلال الصائبي ، وأبي حيان التوحيدى ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وبديع الزمان الهمداني ، والخوارزمي ، ومن الأدباء والنقاد وعلماء العربية الكبار كالأمدي ، والقاضي الجرجاني ، وأبي هلال العسكري والحائمي .

وما تلا ذلك من القرنين الخامس والسادس كان امتداداً للقرن الرابع وما أفرزه في ميادين الحضارة والفكر والأدب . وإن اختلفت الدرجة ، وتغيرت الملامح تبعاً لتغير ظروف العصر .

وكان للشعر في القرنين الخامس والسادس دوره الكبير في الحياة الأدبية وإن نافسته الكتابة وحاولت أن تتقدم عليه ، وتدفع به إلى مكانة متأخرة ، ذلك أن الشعراء الكبار الذين كانوا يفرضون وجودهم على الرأي العام الأدبي ، يابداعهم المتفوق ومكانتهم الفنية قد قلوا بل ندر وجودهم ، على غير الحال في القرون السابقة . ولهذا لم نجد اسماً بارزاً في هذين القرنين يستطيع أن يحتل المكانة التي احتلها المتنبي مثلاً في القرن الرابع ولا أبو تمام والبحترى وابن الرومي في القرن الثالث اللهم إلا من كان علامة ظاهرة كأبي العلاء المعري .

ومن هنا كان الشعراء في هذين القرنين من الطبقة الوسطى في فئمة الشعرى ومكانتهم الإبداعية . كان ذلك لأسباب كثيرة .

وظهر في هذين القرنين طبقات من الشعراء غير « المحترفين » — إذا صح هذا التعبير — لم يتكسبوا بالشعر ، وإن غلب على معظم الشعراء التكسب ، ومن بين غير المحترفين جماعة من الكتاب نظموا الشعر إلى جانب الكتابة ، وألحقوا هذا



النظم بكتاباتهم فاختلط فيها النثر بالشعر وكانت ظاهرة هذين القرنين التي عمت من بعد واتبعها الكتاب في العصور التالية .

وكانت الدولة الفاطمية في مصر ، وقد حكمت خلال القرون الثلاثة ما يقرب من مائتي عام — قد اهتمت بالشعر والشعراء اهتماماً فاق اهتمام الولاة والحكام السابقين في عهد الطولونيين والإخشيديين ، حتى إن عدد الشعراء الذين قيل لهم وقفوا على قبر أحد وزرائهم لثرائه وهو ابن كلس بلغ مائة شاعر (١) .

« وشجع الفاطميون الشعر والشعراء لأن خلفاءهم كانوا عرباً يتذوقون الأدب والشعر ويقولونه . وقد رويت أشعار لمعظمهم ، كما قام على تشجيع الشعر والشعراء وزراء الفاطميين الكبار أمثال يعقوب بن كلس ، والأفضل بن بدر الجمالي ، والصالح طلائع بن زريك ، وجمع بلاط هؤلاء جماعة من الشعراء ، إلى توافد الشعراء وتكاثرهم حول بلاط الخلفاء ، وإلى مجالس الوزراء وكبار رجال الدولة من القادة ، والقضاة . وأجزل هؤلاء العطاء للشعراء . ورتبت الدولة لهم ديواناً جعلوا عليه قِيماً . وكان الوزراء والقادة يعتبرون شعر المدح ضرباً من الخدمة التي يتقدم بها الشعراء لساحتهم ، كما كان الخلفاء يعتبرونه كذلك . ولم تكن مناسبة من المناسبات دينية أو اجتماعية أو عيداً من الأعياد العامة كعيد وفاء النيل أو كسر الخليج والنيروز ، وما إليها تمر دون أن يقول الشعراء فيها . وقد خصص الخليفة الأمر في أحد مناظرة طاقات بأسماء الشعراء في خدمته منها يأجلون الجائزة المقررة وعليها صور كل منهم (٢) .

ولما جاء الأفضل إلى الوزارة أجزل للشعراء الجائزة وفق ما يسمع منه فيطريه . قال المقرئزي : « فإن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية .. ولا فيما قبلها على الشعر جار ، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستجاشه للشعر من الشعراء منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة » .

« وما دعا إلى ازدهار الشعر أن القائمين على شعون البلاد اتخذوا منه وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية . وكانوا يشجعون الشعراء في مدائحهم على الحديث عن

(١) المخطوط ٨/٢ .

(٢) روى المقرئزي أنهم كانوا يُجرون لبعض الشعراء رواتب جارية من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير ، المخطوط ٢٤٣/٢ وراجع ٤٨٦/١ .

المذهب وأصول الدعوة الفاطمية، وعقائدهم في الأئمة والعلم الباطن، وكما يتحدثون عن حجتهم السياسي في الخلافة.

وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من ألسن تمجيدهم والذود عنهم. أمام أعداء كثيرين أقوياء، فأغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التي جعلت الشعراء يحرصون على إتقان الشعر مع الأكثر من الإنشاء، فكثرت الشعراء وكثرت انتاجهم<sup>(١)</sup>.

ويقول أحمد أمين<sup>(٢)</sup> « وفي الحق أن الشعر في العهد الفاطمي في مصر كان أول شعر مصري قيم من عهد فتح العرب لمصر، إذ كان قبل ذلك ليس له قيمة إلا للوافدين على مصر من الخارج، أما شعر المصريين أنفسهم فكان محاولات أولية، حتى إذا جاء الفاطميون جاء الشعر وجاد ».

وشعراء العصر لم يكن لهم استقلال في مواردهم المالية، أو موارد العيش غالبا، وإنما كان معظمهم يتكسب من الشعر، ولهذا كان الشعراء يلجأون إلى كسب ود ذوى النفوذ والأمر.

ومن هنا كنا نرى بين شعراء العصر من يبذل نفسه لأجل نيل الحظوة عند هذا أو ذاك من الخلفاء والوزراء والأمراء، على أساس أن المديح وقول الشعر بين يدي فلان أو فلان كان حرفتهم التي يرتزقون منها.

واتخذهم الخلفاء والولاة أدوات للمباهاة بالسلطان، فضلا عن الدعاية السياسية التي أشرنا إليها. وكان مثلهم في ذلك مثل ما تضم مجالسهم من ألوان الترف، وما يجمعون من أسباب النعيم، فالشعراء كانوا عند هؤلاء من ضروب الزينة والمتعة والمسامرة أو التسلية، يبذلون لهم ما يريدون كي يرضوا نزعاتهم، ويشبعوا رغباتهم، ويلبوا طلباتهم فيما تهديه إليه مخارقتهم وشطحاتهم.

ونجد في هذا العصر — لا في مصر وحدها — بل في سائر بلاد العرب والمسلمين ودولهم شرقا وغربا — شعراء يغدون على قصور السادة، ويذلون لهم — وينفذون ما يطلبون منهم، وتنقلب بهم الأهواء، فيتقلبون بتقلبهم معهم، ونسمع كثيرا عن شعراء يمدحون أناسا، ويعودون فيدمونهم، ثم يمدحون آخرين أعداء

(١) محمد كامل حسين في أدب مصر الفاطمية، ص ١٥٩.

(٢) ظهر الإسلام ٢٠٥/١.

لهم . والعكس ، قد يكون عدواً في عصر يهجوونه فيعودون لمدحه لأن المنفعة تمل عليهم ووحى الشعر ونظمه .

يقول الدكتور باغى عن شعراء القبروان في العصر نفسه<sup>(١)</sup> :

« والثراء الرخى أو الثرف المثرى يدفع بنوئه إلى صنوف كثيرة من الفراغ اللاهى حين يتاح لهم أن يخلدوا إلى الفراغ ، فلم يكن يجد المعز ( بن باديس ) مضيفة للوقت في أن يعقد مجلسا ويستدعى شعراء ، لا لشيء إلا لينظموا في وصف طعام من الأطعمة أو شراب من الأشربة أو صنف من الفاكهة . وما زال يحول بين السلطان ، وبين تسخير الشعر لفراغه حين يركن إلى الفراغ ، ولطوه حين يطلب اللهو ، ولذته حين يطلب اللذة ؟ وهو الذى سخر الشعر في شتونه السياسية وجعل من الشعراء ألسنة تلهج بالمدح الذى يجد فيه متاعا ، وبما يصلح أن يسليه حين تنزل به نازلة أو تصيبة كارثة .

وقد كاد السلطان أن يجعل الشعراء لا يحبون إلا له ، ولا يقولون إلا فيه ، ولا يعبرون إلا عما يدور بخلده .

فكان الشعراء إذا بعض حاشية السلطان ، لا يرضيه أن يتجه الشاعر بالخدمة إلى غيره ، وهذا ما حدث لابن مكنسة الشاعر المصرى في عصر الأفضل بن بدر الجمالى أيام الخليفة المستعلى .

فقد ذكر أن ابن مكنسة لم ينل الخطوة لدى الأفضل لأنه مدح أحد الرجال العاملين بمصر وهو أبو مليح جد الأسعد بن ممان الشاعر المشهور ، وكان أبو مليح هذا من كبار موظفى الدولة الفاطمية ، وكان نصرانيا . وأكثر فيه المدح ، وقصر شعره عليه قبل الإتصال بالأفضل ، قال أمية : « فلما أنتقل الأمر إلى الأفضل تعرض لامتداحه ، فلم يقبله ، ولم يقبل عليه ، وكان سبب حرمانه ما سبق من مديحه لأبى مليح ، ولاسيما قوله فيه :

طويث سماء المكرما      ب وكورت شمس المديخ  
ما كان بالنكس الذيب      نى من الرجال ولا الشجيع (٢)

(١) حياة القبروان ، ص ٧٩ .

(٢) الرسالة المصرية .

ويبدو أن الأفضل استكثر أن يمدح ابن مكنسة غيره بهذا القول ، لما مكن من نفسه في الدولة ، فعال الحاكم الأمر ، ولم يكن معقّب على قوله ، حجج الخليفين المستعين والأمر .

ومع ذلك فقد كان الأفضل يجمع في مجلسه كثيرا من الشعراء ، وكان يقد إليه الشعراء من المشرق والمغرب . قصده بن جَيُّوس من الشام ، وأمّية بن أبي الصلت من الأندلس وغيرهما كثيرون .

يقول المقرئ (١) : « وله مروءة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه أمداح كثيرة ، مدحة ظافر الحداد وأمّية بن أبي الصلب وغيرهما » .

« وعرف كثير من رجال الدولة الفاطمية بتشجيع الشعراء وتقريبهم ، وإجزال العطاء لهم مثل مكين التولة ابن أبي الحديد قاضي الإسكندرية أيام الأمر .

وكان الوزير الخطير والشاعر الأديب طلائع بن رزيك يعقد في منزله مجلسا في ليالي التجمع ، يجمع بعض جلسائه من المقرئين من الأدباء والشعراء والفقهاء ، ويضم هذا المجلس كثيرا من الشعراء المصريين وغيرهم كالمهذب بن الزبير وعمارة اليمنى والقاضي الجليس ، وأسامة بن منقذ ومجبر بن محمد بن مجبر الصقلّي .

---

(١) الخطط ١ / ٤٨٥ .

## موضوعات الشعر

وخاض الشعر في كثير من قضايا العصر ومشكلاته واهتمامات الدولة فضلا عن الموضوعات السائدة والتقليدية من مديح وغزل ورتاء وهجاء ووصف ، كما كثر في هذا العصر حديث الشعراء عن صور مباحج الطبيعة ، وزينة الحياة ومسراتها من منازة وأعياد ، ووصف للروض والزهر ، والغناء والآله ، والموسيقى والرقص ، وألوان المتعة .

وأول ما نعرض له حديث الشعراء عن الدعوة الفاطمية ، وما تناولوه في هذا الحديث من معان وتردد كثيرا في أشعار الدعاء وبعض شعر المديح لقادتهم وخلفائهم . وبعض هذه المعاني تكثر في شعر ابن هاني الأندلسي في مدائحه للخليفة المعز لدين الله قبل مجيئه إلى مصر .

فإلى جانب الصفات العامة في المديح التي مدح بها ابن هاني المعز لدين الله ونجده قد مدحه أيضا ببعض الصفات الدينية التي خلعها الفاطميون على أئمتهم فقد سمي المعز ( وصي الأوصياء ) :

نَزِمَ وَصِيَّ الْأَوْصِيَاءِ وَدُونَهُ صُدُورُ الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتُ الْبَوَاتِكُ

وقد ذهب في هذا الشعر مذهبه الشعري في المبالغة — وكذلك قوله :

رَأَى أَنْ سَيُسَمَّى مَالِكُ الْأَرْضِ كُلِّهَا فَلَمَّا رآه قَالَ : ذَا الصُّمْدِ الْوَتْرِ  
وَأَرْجَحُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتْ بِلَفْظِ الْوَتْرِ إِلَّا لِلْقَافِيَةِ ، وَلَوْ لَمْ تَكُن الْقَافِيَةُ أُنَى بِلَفْظِ الْقُرْآنِ  
« الْأَحَدُ الصُّمْدُ » .

وكذلك وصّف الإمام المعز بصفات الله تعالى التي وصف بها نفسه في القرآن كقوله :

مَا شَعَتْ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ فَأَحْكَمَ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١)

ويقول الدكتور محمد كامل حسين : « قد يكون لابن هاني بعض الأعذار في أنه مدح الإمام بمثل هذه الصفات ، فقد ذكرنا كيف نفى الفاطميون هذه

(١) الدكتور محمد كامل حسين — ديوان داعي الدعوة ، ص ١٦٠ ، طبع دار الكتاب .

الصفات عن الله تعالى ، وقالوا أنها صفات المبدع الأول الذى هو ممثل الإمام ، وهذا مدح ابن هانىء إمامه بصفات المبدع الأول الباطنية «(١)» .

وذكر ابن هانىء كثيرا من المعانى الفاطمية ومصطلحاتهم الباطنية التى جرت بها تأويلاتهم وعقائدهم ، كالتأويل وأصحابه ووجوب ستره ، وضرورة وجود الإمام فى كل عصر ، وأن الدنيا خلقت للإمام ، كما خلق الجسم للنفس ، وأنه معصوم إلى غير ذلك من الآقاويل (٢) .

وقد نهض بالحديث عن تلك المعانى والتبشير بها فى الشعر جماعة من شعراء الدعوة وبخاصة « داعى الدعوة المؤيد شمس الدين » (٣) .

واهتم شعراء الفاطميين فى مدائحهم للخلفاء والقادة بإبراز جهادهم ضد أعداء الإسلام والملة من خوارج ، وروم وفرنجية ، وكان للعداء بين العباسيين والفاطميين دور كبير فى هذا الجدل الشعرى السياسى والدينى . يقول تميم ابن المعز ، وهو يرد على ابن المعتز فى ادعائه حق العباسيين فى الخلافة ووراثته النبى فى قيادة الأمة وهدايتها :

أتى رسبم لآلِ هِنْدٍ ودارِ درساَ غيرَ ملعبِ ومَنارِ  
يقول فيها ذاكرًا الخليفةَ العزيزَ بالله أخاه :

هاشميَّ إذا نسبتَ ومُخصو صَّ يَبِيَّتْ من هاشمٍ غيرِ عارِ  
أَحْزَلُ الغَيْظُ فى قَلوبِ الأَعادِي وَأَحْلَى الجَبَّارِ دارِ الصَّغارِ  
ويقول مخاطبا العباسيين :

يا بَنِي هاشمٍ ولَسنا سِواءَ فى صِغارِ من العَلا وِكيارِ  
إِن نَكُنْ نَنتمى لجدِّ فإِنا قد نَسبناكُم لِكُلِّ فَخارِ  
ليس عَباسُكُم كَمثَلِ عَلى هَل تُقاسُ التُّجُومُ بِالأَقمارِ

وركز شعراء الفاطميين على وصاية على ، وهللوا واكثروا من الحديث عن يوم « غدِيرِ حُجَم » الذى يعتقدون أن النبى ﷺ أوصى فيه لعلى رضى الله عنه ،

(١) دوان داعى الدعوة ، ص ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه وراجع له كتاب أدب مصر الفاطمية .

(٣) سيرة الحديث عنه بعد .

ويجعله من بعده إماما ولكن أبا بكر وعمر اغتصبا حقه — فيما يدعون —  
 وأشادوا بفضل يوم « غدیر خم » فجعلوه عيدا كما ذكرنا وقللوا من شأن العباس ،  
 وأشاروا إلى أنه لم يكن سابقا إلى الإسلام كعلي ، بل جاء إسلامه متأخرا رغم ما  
 أشاع العباسيون من فضله ودوره .

ولا نريد الخوض في تفصيلات موضوعات هذا الشعر ، فقد سبق إلى تفضيل  
 الحديث فيه غيرنا .

ومن موضوعات شعر المدح للأئمة الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وقادتهم  
 موضوع الجهاد والحروب ، فترى ابن هانيء يشيد بحروب المعز لدين الله في  
 أفريقيا ضد أعدائه حتى دانت له البلاد ، كما أشاد بحربه مع الروم ومناوئيه من  
 الأمويين ملوك الأندلس .

وكذا فعل تميم بن الميز في مديحه لأبيه وأخيه بمصر . يقول في أخيه العزيز  
 مشيرا إلى تصديه لحرب الخوارج والثائرين بالشام من الأتراك والحمدانيين  
 والقرامطة<sup>(١)</sup> :

نهضتَ بها إذا عجزتَ كل ناهض  
 ومزَنَ رداها ينهمي ويصوبُ  
 وقد حَلَّتْ أرضَ الشَّامِ وقائعا  
 قبائلٌ من مُراقِها وشعوبُ  
 ويقول فيها :

وما حاربتك التُّركُ إلا وبينها  
 وبينَ البهْدَى والمكرَماتِ حُرُوبُ  
 وما جَحَلُوا الحقَّ الَّذي لكَ فضلُه  
 ولكنَ بهم عنه عَمي وهُرُوبُ  
 وإن يُصِبحُوا تُركاً ورُجاءَ وذيلاً  
 فأنْتَ إمامٌ للنَّبيِّ نَسِيبُ

وعارض تميم ابن المعتز في القصيدة التي يدعم فيها حق العباسيين في الخلافة  
 ويقول مطلعها<sup>(٢)</sup> :

إلا مَنْ لِنَفْسِي وأوصابِها  
 ومن لدموعي وتسكابِها  
 فيقول :

(١) ديوانه ص ٥٤ .

(٢) ديوان ابن المعتز .

ورَامَ اللِّحَاقَ بِأَرْبَابِهَا  
 أَرْوُسَهَا مِثْلَ أَذْنَابِهَا  
 وَأَوَّلَ هَادِمِ أَنْصَابِهَا  
 فَخَلَّوْا الْمَعَالِيَ لِأَصْحَابِهَا  
 إِذَا أَبَدَتْ الْحَرْبُ عَنْ نَابِهَا  
 يَذُودُ الْكُتَائِبَ عَنْ غَايِهَا  
 بَيْنَ جِهَادٍ وَمَالِكٍ أَسْلَابِهَا  
 وَمُعْطَى الرَّغَابِ لَطَلَابِهَا  
 تِ وَفَتْحِ مَقْفَلِ آبَائِهَا  
 غَيْرِ الْمَقَالَةِ كَذَابِهَا  
 م ، وَيُحَكِّمُ تَنْمِيقَ أَذْهَابِهَا  
 وَلَكِنْ بَنُو الْعَمِّ أَوْلَى بِهَا  
 بَنُو الْعَمِّ ، أَتَى لُغْصَابِهَا  
 أَنْعَمُونَ عَنْ نَصِّ إِسْهَابِهَا  
 ه ه وَقَاسَ الْمَطَايَا بِرِكَابِهَا (١)

أَلَا قُلْ لِمَنْ ضَلَّ مِنْ هَاشِمٍ  
 أَوَّسَاطُهَا مِثْلَ أَطْرَافِهَا  
 وَأَوَّلُهَا مُؤْمِنًا بِالْإِلَهِ  
 بَنَى هَاشِمٍ قَدْ تَعَامَيْتُمْ  
 أَعْبَاسُكُمْ كَانَ سَيْفَ النَّبِيِّ  
 أَعْبَاسُكُمْ كَانَ فِي بَدْرِهِ  
 أَعْبَاسُكُمْ قَاتَلَ الْمُشْرِكِ  
 أَعْبَاسُكُمْ كَوْصِي النَّبِيِّ  
 أَعْبَاسُكُمْ شَرَحَ الْمُشْكِلَ  
 عَجَبْتُ لِمُرْتَكِبِ بَغْيِهِ  
 يَقُولُ فَيَنْظِمُ زُورَ الْكَلَامِ  
 (لَكُمْ حُرْمَةٌ يَا بَنِي بَنِيهِ  
 وَكَيْفَ يَجُوزُ سَهَامُ الْبَيْنِ  
 بَدَا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْقُرْآنِ  
 لَقَدْ حَارَفَ الْقَوْلَ عَبْدُ الْإِلَهِ

ويشير الشعراء إلى تحاذل العباسيين أمام أعداء الأمة الإسلامية ، وانصرافهم  
 إلى ضروب اللهو والعبث ، بينما الأعداء يتكالبون عليها من كل جانب على عكس  
 الفاطميين الذين نذروا أنفسهم للجهاد ، والتصدي للخارجين في كل مكان .  
 ويصور تميم بطولة العزيز في ميدان القتال ومناجزة الأعداء فيقول (٢) :

بَدَا لَهْمٌ دَارِعًا فِي الْعَجَاجِ      كَصَبْحِ بَدَا طَالِعًا مِنْ دُجَى  
 يَكْرُ وَيَسِيمُ فِي مَوْقِفٍ      هُبُوسِ الْكَمَاةِ بِهِ قَدْ بَدَا  
 وَلَمْ يَخْلُ السَيْفُ مِنْهُ بَدَا      وَلَمْ يَسْكُنِ الرُّوْعُ مِنْهُ حَشَا  
 يَقُودُ إِلَى الْحَرْبِ مِنْ جُنْدِهِ      أَسْوَدُ رِجَالِ كَاسِدِ الشَّرَى

ويقول في مناسبة أحد الانتصارات بالشام مفتخرا :

(١) يقصد بعبد الاله عبد الله بن المعتز .

(٢) ديوانه ص ١٠ .



وإِنَّا لَتَقَعُّمُ نُرُوعُ الرِّمَانِ  
 وَمِنَّا الإِمَامُ العَزِيزُ الَّذِي  
 سَعَى لِلشَّامِ وَقَدْ أَصْبَحَتْ  
 وَلَمَّا تَقَابَلَتِ الجُحُفَلَاتُ  
 وَلَمْ يَبْقَ فِي الصِّفِّ مِنْ قَائِلٍ

وَلَسْنَا نُرَاعُ إِذَا مَا سَطَا  
 بِهِ عَادَ سَيْفُ الهَيْدَى مُتْتَضِي  
 بِهَا الحَرْبُ نَزَاعَةً لِلشُّرَى  
 وَعَادَ كَجَنَاحِ الظَّلَامِ الصَّحَى  
 هَلَمَّ وَلَا مِنْ مُجِيبِ أَنَا

ويقول ذاكرة العزيز ومنندا باليوميين حكام بغداد (١) :

أرَيْتَهُمُ وَقَعَاتِ تَزِيدُ  
 بِيغْدَادَ مِنْ ذَكَرَهَا جَوْلَةٌ  
 فَأَنْفَسُ دَيْلِجَهَا تَغْتَلِي  
 إِذَا سَمِعُوا بِالإِمَامِ العَزِيزِ  
 يَخَافُونَ مِنْ بَأْسِهِ وَقَعَةٌ  
 ينادى بِيُوبَةَ بِنِيهِ بِهَا  
 وَقَدْ قَرَّبَ الوَقْتُ فليأذُنُوا

عَلَى وَقَعَاتِ الدُّهُورِ الأَلَى  
 تَلُودُ عَنِ المَارِقِينَ الكَرَى  
 وَتُصْبِي عَلَى مِثْلِ جَمْرِ العَضَا  
 أَسَاءُوا الظَّنُونَ وَحَلَّوْا العِجَابَا  
 تَلُورُ عَلَيْهِم بِقَطْبِ الرِّجَابَا  
 وَيَنْدُبُهُمْ وَهُوَ رَهْنُ البِلَابَا  
 يوشِكُ الزَّوَالِ وَسُوءِ القَضَا

وكذا يتكرر هذا المعنى ، في مديح الشعراء للخلفاء الفاطميين وهذا داعي الدعاة شمس الدين وقد جاء بعد تميم بن المعز بأكثر من نصف قرن من بلاد فارس ليمدح الخليفة المستنصر بالله ، ويدور في مديحه حول معاني ابن هانيء وتمام بن المعز ، وإن أمعن في ذكر عناصر العقيدة وبيان مكان الأئمة من الأمة ، ووجوب الطاعة على الرعية ، وضلال المخالفين المعاندين ممن ينكرون دعوتهم .

ومن ذلك قوله بولاية الفاطميين (٢) :

وَهُمْ أَوْلُوا الأَمْرَ أئمةَ الهَيْدَى  
 مفروضة طاعتهم على الأئم  
 إقرأ أطيعوا الله والرسولاً  
 ثلاث يطاعاتٍ غَدَّتْ معلومة

عصمة من لآذ بهم من الرَّذَى  
 قاطبةً من عربٍ ومن عَجَمٍ  
 ثم أولى الأمرِ بهم موصولاً  
 في آيةٍ واحدةٍ منظومة

وهو ترجمة لقول المعز لدين الله : « إن الله قد فضّلنا وشرّفنا واختصّنا واصطفانا واقترض طاعتنا على جميع خلقه ، وجعلنا أئمة على جميع عباده » .

(١) ديوانه ص ١١ .

(٢) ديوان داعي الدعاة ص ٧١ .

ومنه تأويل بعض آي القرآن لصالح عترة النبي ﷺ كتأويلهم النجوم بأنهم أهله في قوله تعالى : ( فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم ) (١) . فقال المؤيد بذلك في شعره (٢) :

وبه في القرآن قد أقسم اللـ ه ، وحقّ بمثله الأقسام  
إن معنى مواقع الأنجم الزهـ ير ، هم العترة الهداة الكرام

### موضوعات الشعر التقليدية :

وطبيعي أن تظل موضوعات الشعر التقليدية مجالا لقرايح الشعراء ، ويظل المديح على رأس تلك الموضوعات كثرة ، واهتماما من الشعراء ، لأن المخترفين منهم خاصة كانوا يعتمدون عليه لكسب أرزاقهم .

ومن هنا كان مديح النكسب أول درجات المديح ، وأعمه بين شعراء العصر وكل العصور المتعاقبة ، ومن بعده مديح التملق والقرى من الرؤساء ابتغاء الرضا والقبول ، ومنه مديح الصداقة والعلاقة بين الأدباء أو مديح الوفاء والرجاء .

وعلى رأس من مدحهم الشعراء خلفاء الفاطميين ، وكانوا يفهمون الشعر ويتلقونه ويجزون عليه الجوائز السنوية .

ومديح الخلفاء تدور معانيه حول معاني الإمامة الدينية ، وأحقيتهم في وراثة النبي ، ومن بعد هذه المعاني الخاصة ، تأتي المعاني العامة التي اعتادها الشعراء في المديح من الصفات الأخلاقية ، والسداد ، وحفظ الرعية ، والدفاع عن حوزة المسلمين وحماتهم ، ومناصرة الدين والعمل على منافحة أعدائه ، والعدل في الرعية ورعاية شئونهم ، وتوفير أسباب الطمأنينة لهم .

ومما خصّ به خلفاء الفاطميين من معاني المديح بلاغة المنطق ، وإجادة الخطب كإشارة تميم بن المعزّ في مديح أخيه العزيز بالله ، بقوله :

(١) سورة الواقعة آية ٦٥-٧٦ .

(٢) ديوانه ص ٧٦ .

وقمت بهم في منبر المنك خاطباً  
وأفصحت حتى ليس إلاك مُفصِحٌ  
نُبشِّرُ طوراً بالإله وتارة  
بيانا ووعظاً قد تناهيت فيهما  
وأثبت في الأسماع برهان حكمة  
لأنك في بحر البلاغة مُعْرِقٌ

بما لم يقم ملك سواك فيخطبُ  
وأسهيت حتى ليس إلاك نسهبُ  
تخوف من عصيانه وثرهْبُ  
كأنك لم يسبقك قسٌ ويعرْبُ  
يقصر فيها من يقول فيطنبُ  
وفي باحتي أرض النبوة منجبُ

ويركز تميم في مديحه لأخيه الخليفة على عروته ، وأنه يتصدى لغير العرب من  
الزنج والترك والديلم الذين كادوا للإسلام وأضروا بما ارتكبه من فتن وثورات .  
يقول :

وما حازتلك الترك إلا وبينها  
وما جحدوا الحق الذي لك فضله  
فإن يصبحوا تركاً وزنجياً وديلماً  
وبين الهدى والمكرام حروبُ  
ولكن بهم عنه عمى وهروبُ  
فأنت إمام للنبي نسيبُ

ومدح الشعراء كبار الدولة ، وقادة جندها ووزراءها .  
وكان يعقوب بن كلث من المدحيين ، مدحه كثير من شعراء العصر ، يقول  
أبو الرقعمق :

لم يدع للعزیز في سائر الأرز  
ولهدنا اجتباه دون سواه  
لم تُشيد له الوزارة مجداً  
بل كساها وقد نخرمها الذهب  
هكذا كَلَّ فاضل : يد تُمسب  
فاستجره فليس يأمن إلا  
ض عدوا إلا وأحمد نارة  
واصطفاه لنفسيه واختاره  
لا ولا قبل رفعت مقداره  
رُ وكُد الخطوب بالبدل غارة  
سى وتضحى نفاعه ضرارة  
من تقياً بظله واستجاره

ومن موضوعاته التقليدية الهجاء ، وتناول الشعراء بألسنتهم رجال الدولة الكبار  
وبعض الموظفين ، والقائمين بأعمال إدارية كالقائمين على تحصيل المكوس  
الخماسيين وغيرهم . كما تهاجى بعض الشعراء . من ذلك هجاء الشاعر عبد الودود  
القرطبي في ابن قادوس الدمياطي (١) :

(١) خريدة القصر ١/ ٤١٥ بتحقيق عمر الدسوقي .

تسلّ فلأيام بشر وتعييس  
فلا التعمى تدوم ولا اليوم  
وهي قصيدة طويلة يقول فيها :

وقالوا ابن قادوس تقدّس اسمه  
أيا من غدا ضدا لكل فضيلة  
ومن هو قادوس ، فلا كان قادوس  
ونجمه في طالع السعد منكوس

ويعدّ الواساني من أشهر الشعراء المهجائين في العصر . وهو شامي يشبه في هجائه ابن الرومي لكثرة تعريضه بالعمرات ، فقد هجا الوزير المصري منشأ الذي عينه الخليفة العزيز بالله مستولاً عن أعمال دمشق والشام فضائق الناس . وكان منشأ هذا يهودياً ، كرهه أهل الشام وناووه حتى اضطر العزيز إلى عزله ، قال الواساني (١) :

إن منشأ قد زاد في التيه  
فلا ابن هند ، ولا ابن ذى يزن  
وهو مغبظ على الوصي ومن  
يذكر أيام خيبر بهم  
وزاد في شامنا تعديه  
ولا ابن ماء السماء يدانيه  
يعزى إليه ومن يواليه  
وهم قد جال في مآقيه

وهجا بعضهم القضاة لجورهم في الأحكام أو ميلهم مع الهوى ، أو تقاضهم الرشوة . قال أبو الشرف الدجرجاوي (٢) :

قاضي إذا انفصل الخصمان ردهما  
يئدي الزهادة في الدنيا وزخرفها  
مهلل الدهر لا في وقت هيلة  
وما أسمى لكتي نعت لكم  
إلى الخصام بحكم غير منفصل  
جهراً ويقبل سرّاً بعة الجمل  
ويلزم الصمت وقت القول والعمل  
نعتاً أدلكم فيه على الرجل

ومن الشعراء المهجائين الحسين بن بشر (٣) :

واكثر من هجاء الوزير يعقوب بن كلس ، وعرض برفع العزيز للنصارى وأهل الكتاب بمشورة وزيره . يقول :

(١) بئمة الدهر ١ / ٤١١ .  
(٢) الخريدة ٢ / ٦٦ ( قسم شعراء مصر ) .  
(٣) الواقي بالوفيات ١٢ / ٣٤٣ .

تَنْصُرُ فَالتَّنَصُّرُ دِينٌ حَقٌّ      عليه زماننا هذا يدل  
فيعقوبُ الوزيرُ أبٌ ، وهذا الـ      عزيزُ ابنِ ، وروح القدس فضل

الوصف :

والوصف هو أقرب موضوعات الشعر إلى الفن ، وإلى روح الشعر .  
ففيه تتجلى أحاسيس الشاعر ، ومواقفه من الأشياء ، وتذوقه لمجالي الجمال في  
الطبيعة .

وحظيت بعض منارة القاهرة ومعالمها ، بل معالم مصر شمالا وجنوبا ومشاهد  
الطبيعة ، وعناصر حسنها وبنائنها بقدر كبير من اهتمام الشعراء ، وتجليات  
قرائحهم .

يأتى النيل ومناظره ، وشواطئه ، ومهرجان وفاته وكسر الخليج في مقدمتها .  
قال تميم بن المعز (١) :

نظرتُ إلى النَّيْلِ في مَدَّة      بموجٍ يزيدُ ولا ينقصُ  
كَأَنَّ معاطِفَ أمواجِهِ      معاطِفَ جارِيَةٍ تَرَقُّصُ  
ويقول (٢) :

يَوْمٌ لَنَا بِالنَّيْلِ مَخْتَصِرٌ      ولكلِّ يَوْمٍ مَسْرَةٌ قِصْرُ  
وَالسَّفْنُ تَصْعَدُ كَالنُّجُومِ بِنَا      فِي مَوْجِهِ وَالْمَاءُ ، يَنْحَلِرُ  
فَكَأَنَّمَا أَمْوَاجُهُ عَكَنٌ      وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُرُرُ

وجدير بالملاحظة احساس المتعة في شعر تميم ، وربطه لذة المتعة بالنيل بلذة  
النساء في مجالها ، فيشبه موج النيل بمعاطف الجارية الراقصة ويجسد المرأة عارية ،  
وما يجتذب مرأى الرجل فيه من متعة جس ؛ عكن وسرر .

ويصف مشاهد النيل في حلوان فيقول (٣) : ( يصف نزهة في مركب نيلي  
بحلوان ) :

(١) ديوانه ص ٢٥٥ .  
(٢) ديوانه ص ٢٤١ .  
(٣) ديوانه ص ٢٢٤ .

ياحبنا حلوان فالتليل  
رحت ومركبي به أدهم  
كأنه في النيل زنجية  
والنيل في روتق شمس الضح  
حتى إذا ما درجت الصبا  
فهو لمن أبصره جوشن  
أو حبك ترصيعها جوهر

ربع بحسن اللهب مأه  
على جناح للريح محمول  
لها من الموج أكابيل  
سى سيف صيقل والتن مسلول  
ماج منه العرض والطول  
على مهاد الأرض مسلول  
مبدد فيهن محلول

ومن الشعراء الوافدين من المغرب أو المشرق من وقف أمام نيل مصر معجبا  
كالفقيه أبى الفضل يوسف المعروف بأبن النحوى ( ولد سنة ٥١٣ هـ ) .  
قال (١) :

أين مصر وأين سكان مصر  
حدثاني عن نيل مصر فأبى  
رق قلبي حتى لقد جئت للقي  
ما ترائى أبكى على كل ربع  
روشن من رواشن (٢) النيل خير  
ومن القصر قصر شداد ذلك المش  
إن مصرا لها معان لعمرى  
هذه الأرض إنما هي زا

بيننا شقة التوى والبياد  
منذ فارقت إلى الماء صادى  
ه عين أيدى الزوار والعواد  
ما ترائى أهيم في كل وادى  
يعد من دجلة ومن بغداد  
رف المرتقى ، ومن سيناد (٣)  
قد تابث على جميع البلاد  
ذ البكا حاجتى إلى الإسعاد

ويبدو النيل أجمل وأبهى في أيام الإحتفالات والمناسبات والأعياد ، وفي يوم  
الإحتفال بوفاء النيل ، وكسر الخليج والمهرجان . ووصف الشعراء هذا فقال أمة  
بن أبى الصلت يوم المهرجان وإحتفال الوزير الأفضل بن بدر الجمالى له فقال ،  
وكتب بها إلى الوزير (٤) :

أبدعت للناس منظراً عجباً  
جمعت بين الضدين مقتديراً

لازلت تُحجى السرور والطربا  
فمن رأى الماء خالط اللهباً

(١) خريدة القصر قسم شعراء المغرب ١/ ٤٠٦ .

(٢) الروشن : الشقة .

(٣) شداد ملك من ملوك اليمن بنى قصرا مشهورا في التاريخ وأما ستاد فقصر عظيم كان بالكوفة .

(٤) الخريدة ١/ ٥ قسم شعراء المغرب تحقيق عمر الدسوقي وعبد العظيم .

كَأَمَّا النَّيْلُ وَالشَّمْعُ بِهِ      أَفْقَى سَمَاءٍ تَأَلَّقَتْ شَوْهِنَا  
 قَدْ كَانَ مِنْ فِضَّةٍ فَصِيرَهُ      تَوَقَّدَ النَّارِ فَوْقَهُ ذَهَبَا

ويسجل الشاعر هنا منظر النيل وقد أوقدت على شواطئه الشموع ، واحتفى الوزير فأوقد من الشموع على شاطئه ما تلالأت أضواؤها على مياهه ، فبدت سماعا تناثرت فوقها الشهب .

وكان الخلفاء والوزراء في مصر أيام الفاطميين يحتفلون بيوم كسر الخليج . قال المقرئ (١) : « يجلس الخليفة في خيمته الكبيرة غربي النيل قرب قنطرة السكرة ويتقدم إليه أحد رجاله ويسمى النائب فيقدم الشعراء حسب منازلهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الإنشاد . وفي إحدى تلك المناسبات تقدم شاعر يقال له ابن جبر وأنشد :

فَتَحَّ الخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ المَاءُ      وَعَلَتْ عَلَيْهِ الرَّاْيَةُ البِيضَاءُ  
 وَصَفَّتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَأَنَّهُ      كَفَّ الإِمَامُ فَعَرَفَهَا إعْطَاءُ

فانتقد الناس عليه في قوله : « فسال منه الماء » ، وقالوا : أى شيء يخرج من البحر غير الماء ؟ فضيغ ما قاله بعد هذا المطلع .

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير ، وأنشد :

مَبَازِلَ هَذَا السَّدِّ يَنْظُرُ فَتَحُهُ      إِذْنَ الخَلِيفَةِ بِالتَّوَالِ المَرْسَلِ  
 حَتَّى إِذَا بَرَزَ الإِمَامُ بِوَجْهِهِ      وَسَطًا عَلَيْهِ كَلَّ حَامِلٌ مِعْوَلِ  
 فَجَرِي كَانَ قَدْ دَيْفَ فِيهِ عَنَبٌ      يعلوه كَافُورٌ بِطَيْبِ المُنْقَلِ

فانتقدوا عليه أيضا قوله في البيت الثاني ، وقالوا أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه ، وإن كان يقصد فتح السد ، بالمعاول ، لكن نظمه كان قلعا . ثم تقدم شاعر شاهد يقال له كافي الدولة أبو العباس أحمد وأنشد قصيدة شهد له جماعة منهم القاضي الأثير ابن سنان ، فإنه عملها بحضوره بديها :

لَمَنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي ذَا المَشْهَدِ      لِلنَّيْلِ أَمِّ لَكَ يَا ابْنَ بِنْتِ مُحَمَّدِ  
 أُمَّ لاجْتِمَاعِكُمْ مَعًا فِي مَوْطِنِ      وافِيئِمَا فِيهِ لأَصْدُقُ مَوْعِدِ

(١) المخطوط ١ / ٤٧٨ .

ليس اجتماع الخلق إلا للذي  
شكروا لكل منكما لوفائه  
ولئن إذا اعتمد الوفاء فقبله  
هذا يفي ويعودُ ينقصُ تارة  
وقواه إن بلغ النهاية قصرت  
فالآن قد ضاقت مسالك سعيه  
فاذا أردت صلاحه فافتح له  
وأمر بفضيد العرق منه فمأشكنا  
واسلم إلى أمثال يومك هكذا

فأمر له على الفور بخمسين ديناراً ، وخلع عليه ، وزيد بجارية .

ومن مشاهد الطبيعة المصرية التي حظيت باهتمام شعراء العصر بركة الحبش (١) . وما اهتموا به بعض الأديرة ، وكان موضوع الأديرة ، وما حولها من منازة وبساتين وما فيها من شراب ، وما يدور من احتفالات دينية .

كان هذا كله يستهوى شعراء العصر كما استهوى الشعراء في بغداد وغيرها من البلاد العربية . ومن أشهر الأديرة التي نالت حظوة الشعراء واستأثرت بقصائد عبرت عن مناسبات مختلفة لهم فيها « دير القصير » بالمقطم قرب القسطنطينية (٢) . قال الشاعر محمد بن عاصم الموقفي من شعراء اليتيمة (٣) :

إن دير القصير هاج اذكاري  
وزماناً مضى حميداً سريعاً  
عرفتني ربوعه بعد نُكْرِي  
ولو أن الديار تشكو اشتياقاً  
ولكادت نحوى تسير لما قد  
وكأني إذ زرتُه بعد هجر  
إذ صعودي على الجياد إليه

هو أيامي الحسان القصار  
وشباباً مثل الرداء المعاري  
فعرفت الربوع بالإنكار  
لشكت جفوتي وبعد مزاري  
كنت فيها سيرت من أشعاري  
لم يكن من منازل ودياري  
وانحداري في المصعدات الجواري

(١) راجع ماجاء عنها في الجزء الأول من الكتاب .

(٢) راجع ما جاء عنه بالجزء الأول من الكتاب .

(٣) بيتة الدهر ١ / ١٢ .



بصقورٍ إلى الدماء صوارٍ  
 منزلاً لسْتُ محصياً ما لِقَلْبِي  
 منزلاً في عُلُوهُ كَسَمَاءِ  
 كم خلعتُ العذار فيه ولم أر  
 كم شربنا على التصاوير فيه  
 صورة من مصورٍ فيه ظلت  
 أطرقتنا من غير شدوٍ فأغنت  
 لا وحسن العينين والشفة اللَّمب  
 لا تخلفتُ عن مزارِي ذيراً  
 فسقى الله أرضَ حلوانٍ فالتخل  
 كم تنهتُ من لذاذةِ نومي  
 والنواقيسُ صائحاتٌ تُنادي  
 قبل أن يُبلى الجديدُ الجديد  
 إنما هذه الحياة عوارٍ

وكلابٍ على الوحوشِ ضواري  
 ولنفسِي فيه من الأوطارِ  
 والمصاييحُ حوله كالدراري  
 عَ مَشياً بَمَفْرِقِ المِسطارِ  
 بصغارٍ مَحْثُوثَةٍ وكِبَارِ  
 فتنةً للقلوبِ والأبصارِ  
 عن سماعِ العيذانِ والمزمارِ  
 ساءَ منها وتَحَدَّها الجُنارِ  
 هي فيه ولا نأى لي مزارِي  
 فديرَ القَصيرِ صوبَ العِشارِ  
 بنعيرِ الرُّهبانِ في الأَسْحارِ  
 حَيِّي يانائماً على الابتكارِ  
 سدَّ بليلٍ مُعاقِبٍ بنهارِ  
 وعلى المستعيرِ رَدُّ العواري

والقصيدة هنا حُلم يقظة يسترجع فيها الشاعر أوقاتاً سعيدة له قضاهها بدير  
 القصور ، مستعرضاً مشاهد متعته به ويرحلته إليه ، وما كان يفعله من تصيد  
 بالخيول والطيور الضواري وكلاب الصيد في تلال المقطم ، والشار إلى النيل مصعداً  
 إلى حلوان على الجوارى السابحات ، أو تنزه بمنازه حلوان وبساتين النخيل من  
 حولها .

ونحس بالحديث الدير ، فوصف وضعه مشرفاً على مكان عالٍ : « منزلاً في  
 علوه كسماء » .

ويستترعيه ضوء المصاييح من حوله تلبو كالدراري أو كالنجوم .

فالصورة التي يرسمها له مقبلاً عليه ، تستدعي صورة السماء بنجومها ،  
 فالسماء للعلو والرفعة ، والنجوم للمصاييح المتألثة حوله أو تطل أنوارها من  
 منافذه ويستترعيه من جناته وبساتينه صوت الطيور ، واعتماده أصوات الطيور  
 لبعث الإحساس بالبساتين والشجر من حوله تحوّل بمخاطبة الوجدان ، أو تمثل  
 مشاهد الجمال من مدارك البصر إلى مدارك السمع ، ويستخدم اللفظ المناسب

للطير تعبيراً عن الأثر النفسى فيقول : « فطارت بفؤاد المتيم المستطار » وإن بدت في تراكيبه وأبنية لفظة بعض الكلفة .

وينتقل إلى داخل الدير ، وما كان يفعله من تحرر من قيود الحياة وتكاليف العمر ، فهو قد غادر سن الشباب ، سن المتعة ، والأخذ بأسباب الحياة ، إلا أن الدير وما فيه من مغان قد استفزه ، وعاد به إلى الشباب فخرج عن ثوب الشيب ليعود من جديد إلى حياة الشباب ، اللهو ، والشراب والمتعة .

ويصف الشراب ، ويعود إلى مشاهد البصر فيسترعيه التصاوير على جدران الدير ، وتفتنه الصور ، وصنعة المصور فيقف أمامها وقفة مستمل مستمتع ببهجة الجمال الذى يطرب صامتا ، وهنا يمزج بين فتنة البصر وفتنة السمع :

« أطربتنا من غير شذو فأغنت  
عن سماع العيدان والمزمار »

ويعضى الشاعر في وصف صور الدير :

ولا وحوير العينين والشفة اللّيب  
سأ منها وخجدها الجُنّارِ  
لا تخلفُ عن مزارى ديراً  
هى فيه ولا نأى بى مزارى

ويدعو لهذا الدير وما حوله من منازه حلوان بالخير ، لأنه أسعده في حياته كثيرا ، فكم تنبّه من نومه على صوت الرهبان يرتلون بالأسحار وصوت النواقيس تفرع في البكور .

ويحتتم بتذكر آنية الحياة ، وقصر العمر ، وأن تعاقب الزمان بآيته الليل والنهار سيختم هذه العارية ، وتعود الحياة إلى بارئها :

إنما هذه الحياة عوارٍ  
وعلى المستعير رُدّ العوارى

وهذه القصيدة الوصفية لدير القصير جنوى الفسطاط تمثل نموذجاً فذاً في هذا اللون الوصفى ، فقد نفّض الشاعر فيها أحاسيسه واجترّ ذكرياته وانطباعاته ، ثم ارتد بعدها إلى نفسه ليعبر عن آنية الحياة ، ذلك الإحساس الذى يؤرق الإنسان — كل إنسان على الأرض .

وهذا الدير قديم ، يقول عنه الشابى :

« دير القصير قرب حلوان ، هو على رأس جبل مشرف على النيل ، وغاية في النزاهة والحسن ، وفيه صورة السيدة مريم ، وفي حجرها المسيح ، كان خمراوية بن أحمد بن طولون يكثر غشيانه للشرب على الصورة . وقد أمر الحاكم بأمر الله بهدمه لكثرة ما يقع بالدير من آثام !! » .

وصف مباحج الفاطميين وقصورهم :

ومن ذلك وصف مواكب الخلفاء في الأعياد ، وكانوا يحتفلون بها ، ويكسبون الأعياد مظاهر البهجة والأبهة تتجلى في قول تميم بن المعز يصف موكب الخليفة العزيز بالله يوم عيد الفطر من قصره إلى المسجد لصلاة العيد . يقول (١) :

من الله للمرضيِّك فيه بشيرُ	هنيئالك العيدُ الذي أنت بالرضا
تكاذُ به الأرضُ الفضاءُ تمورُ	برزتْ كبلدٍ التَّمُّ تقلُّمُ جَحْفلا
وللأسيد ركضٌ تحتها وزَّيرُ	فلليضي برقٌ في أعاليه خاطفُ
لما ألقوها سُندسٌ وحريرُ	كأنَّ الدرُّوعَ السابغاتِ عليهمُ
وكلهم صافى الضميرِ شكورُ	وقدمنحوكُ اللَّحظُ من كلِّ جانبِ
ومن إصيحٍ منهم إليك تُشيرُ	فمن مُقلِّةٍ منهم عليكُ حبيسة
عليك المصلِّي أو أتتْكَ تسيرُ	ولو نطقتْ أحجارُ أرضٍ لسَلِمَتْ
له بك فضلٌ لا يُنالُ كبيرُ	فلما بلغتْ المنبرَ الطاهرَ الذي
خطيباً، وكلَّ اللَّحظِ عنكُ حسيرُ	تواضعتْ للرحمنِ ثمَّ علوتْهُ
تفجَّرُ منها للصَّوابِ بحورُ	وأسهبتْ في حمدِ الإلهِ بخطبةٍ

ومن الموضوعات الشيقة في الشعر وصف مظاهر الترف المادى في قصور الخلفاء ، وما على جدرانها من صور تمثل اهتمام الفنان المصرى برسم وتصوير مشاهد الحياة والناس ، في تشكيل ممتع يعث المسرة في النفوس .

يقول عمارة اليمنى (٢) في وصف الصور والتماثيل ، وبديع الزخرف في قاعات أحد قصور بنى رزَّيك ، مخاطباً صاحبه :

رُقتُ، فأذهل حُسْنُهُما من أبصرَا	أنشأتُ فيها للعيونِ بدائِعاً
ومنمنماً ، ومدرها ، ومدنراً	قمن الرخام مسيراً ومُسَهَّما

(١) ديوانه ص ١٤٣ .

(٢) النكت العصرية ص ١٠٣ .

أرض من الكافور تُنبث عنبراً  
فجعلتها بالوشي أبهى منظرًا  
فأتت كزهر الرّوض أبيض أحمرًا  
ومجالس كسيت طميمًا أخضرًا  
إلا غدا فيها الجميع مُصورًا  
أبدًا ، ولا ننت على وجه الثرى  
وثمارها لم تستطع أن تُنقرا  
ليثًا ، ولا طيبًا بوجرة أعقرًا  
فظباؤها لا تتقى أسد الشرا  
في أطول ألوية توم العسكرا  
رؤقًا ومن بزل المهاري مشقرا  
فتخالها للتيه تمشي القهقرا

العاج بين الأنوس كأنه  
قد كان منظرها بهيجاً رائقاً  
ألبيتها بيض السيور وحمرها  
فمجالس كسيت رقيماً أبيضاً  
لم يبق نوع ، صامت أو ناطق  
فيها حدائق لم تجدها ديمة  
والطير قد وقعت على أغصانها .  
لا تعدم الأبصار بين مروجها  
أنست نواقر طيرها بسباعها  
وبها زرافات كأن رقابها  
نوبية المنشا تُريك من المها  
جبلت على الإفعا من إعجابها

ويريك عمارة في هذا التسجيل الشعري لقصر آل رزيك ما جمع القصر من حدائق وحيوان . ويستريحه الزراف بخلقته الغريبة التي تجمع بين الغزلان والثور .

#### وصف الغناء والموسيقى :

ولاهتمام الفاطميين بالسمع والطرب ، وإقبال الناس في أعيادهم ومناسباتهم السارة على الموسيقى والغناء ، ترددت في الشعر صور مجالس الغناء وآلات الطرب وصور المغنين والمغنيات . وأكثر تميم بن المعز من ذكر مجالس الغناء والمغنى ( وكذلك فعل الشريف العقيلي ) .

وظهر في هذا العصر الفاطمي في مصر ضرب من الغناء عُرف « بالزكّالش » كان يُتغنى فيه بالنظم العامي من مثل :

فديتك أين ما قد كنت قلتي  
أحلتني عن مودتنا وزلتني  
وقد غنى به المغنون تميم بن المعز<sup>(١)</sup> ، كما نظم هو لهم للغناء فيه . وما قاله أحد الشعراء في وصف غناء مغن<sup>(٢)</sup> :

(١) ديوانه ص ٨٥ .

(٢) الخريدة « قسم شعراء المغرب » ٦٠ / ١ .

إذا غنَى يُزِيلُ الهمَّ عَنَّا وَيَأْتِينَا بِمَا نَهْوَاهُ مِنْهُ  
 له وَتَرَّ يَطَالِبُ كَلَّ هَمِّ بوترٍ ، فالهُمومُ تَفَرُّ مِنْهُ  
 ويتصل بالغناء وصف آلات الطرب كالعود ، والناي ، والمزهر ، والطبل ،  
 والدَّف وما إليها .

فمما وصف به تميم العود قوله (١) :

شكا العودُ بالأوتارِ شجواً فأطربا فلم أرَ شاكٍ مثله بثَّ شجوهُ  
 وترجم عن معنى الضمير فأعربا فانفخَ محزوناً وفكَّ مُعذباً  
 وقال أيضا (٢) :

وقد حكى العودُ أنينَ الهوى لكنه جودَ لما حكى  
 وقال (٣) :

فلما استوى نطقُ أوتاره فلما استوى نطقُ أوتاره  
 تجسُّ الأناملُ « دُستانه » (٤) تجسُّ الأناملُ « دُستانه » (٤)  
 فيسبغنا حركاتِ السرور ويكشف عنا بناتِ الكرب  
 وما قاله في الناي ، وهو يحاور المزهر في جوق الموسيقى (٥) :

أما ترى كيف نادى النايُ مزهرهُ وأذن الطبلُ : اللهُو للغزِل  
 والنايُ يشكو إلى جَنك صبايته شكوى المحبِّ إلى المحبِّوبِ في مهل  
 كأن ضجةً صوبَ الطبلِ بينهما ضجيجُ عزَّأى المنصُورِ في الثول

ولكلف بعض شعراء العصر بالغناء والموسيقى بدأوا بوصف مجالسه قصائد  
 المديح على غير عادة شعراء العرب ، وربما كان هذا الاتجاه منهم تطورا لاتجاه  
 بعض شعراء بغداد في عصر العباسيين من أمثال أبي نواس يبدء قصائدهم  
 بوصف الخمر ومجالس الغناء .

(١) ديوانه ص ٤٩ .

(٢) ديوانه ص ٣٠٤ .

(٣) ديوانه ص ٧٤ .

(٤) الدستات مجتمع أوتار العود في عنقه .

(٥) ديوانه ص ٣٢٤ ، والحنك — فارسي اسم آلة موسيقية .

ولم يتحرج تميم بن المعز وهو الأمير الشاعر من بدء قصائد المديح لوالده المعز لدين الله ، وأخيه الخليفة العزيز بالله بذكر الغناء ومجالسه . والتخلص تخلصا لطيفا ليربط الغناء بالمديح ، كما كان يتخلص الشعراء من النسيب والغزل إلى ذكر المدح في المديح التقليدية .

وكما أنهم أعجبوا بالغناء الجميل ، من المطرب المجيد المتقن صاحب الصوت الطلي المعجب ، ضاقوا بغناء غير المحسن الذي يتصدى للغناء دون صوت طلي ، ولا صورة تريح السامعين .

يقول الشاعر الصقلي<sup>(١)</sup> :

ومغنٌ لو تغنّى	لك صوتين لمّا
سمعُ الخِلقة غث	ينحتُ الآذانُ نحتًا
ويغنى ما أنتهأه	لا يغنى ما أردنا
كلما قال : اقتصرح	قلتُ : اقتراحي لو سكتنا!!

والشاعر يجيد التعبير عن جفاء غناء هذا المغنى ، وقبح وقع صوته على الآذان بقوله « ينحت الآذان نحتا » .

ويقول في مغنٌ قبيح :

غنى كمن قد صاح في خايته	لا وهب الله له العافية !
ما أحد يسمعه مرة	فيشتهي يسمعه ثانية

ويقول :

ومغنٌ نحن منه	بين أسقامٍ وكرية
يضربُ العودَ ولكن	ضربه يُوجبُ ضربه

يصف أمية بن أبى الصلت ( الحكيم ) أحد المغنين بجودة الغناء وقبح الوجه فيقول :

مُسمِعنا ما في الزمان له نمد	ولكنه في قبح صورته قرد
تباينُ حاله ، فهنا بيده	إذا ما سمّت حال تحيفها الضد

(١) هو أبو عبد الله الطولي . الخريدة قسم شعراء المغرب ١/ ٦ وذكره المسيحي عن لثيم من الشعراء بمصر .

وَيَطْرِفُ طَرْفِي حِينَ يَلْحَظُ وَجْهَهَا  
 وَوَيْنَعُهُ سَمْعِي دُونَهُ عِنْدَ مَا يَشْدُو  
 كَيْفَاءُ، فَلَا خَسَّ يَدُومَ، وَلَا سَعْدُ  
 بِعَادِلٍ مَرَاهُ بِإِحْسَانٍ فِعْلُهُ

ويتصل بالغناء ، والموسيقى الرقص . يقول الشاعر في وصف راقصة (١) :

وراقصة كالغُصْنِ من فوقه  
 بَدْرٌ يُنِيرُ تَحْتَ ظَلْمَاءِ  
 تُلْهَبُ مِثْلَ النَّارِ فِي رَقِصِهَا  
 وَهِيَ مِنَ النِّعْمَةِ كَالْمَاءِ  
 كَأَنَّمَا فِي رِجْلِهَا عُوْدُهَا  
 وَزَامِرٌ يُتْبِعُ بِالنِّسَاءِ  
 سَاحِرَةَ الرَّقْصِ غَلَامِيَّةٌ  
 فِيهَا دَوَائِي وَبِهَا دَائِي  
 إِذَا بَدَتْ تَرْقُصُ مَا بَيْنَنَا  
 يَرْقُصُ قَلْبِي بَيْنَ أَحْسَائِي

ومن علامات الذوق المترف ، التمثلي لمعاني الحياة وزينتها الاهتمام بالزهر على اختلاف أشكاله وألوانه ، فقد عنى الشعراء بالزهر ووصفوه ، واعجبوا بحسن كل نوع منه وصوروه .

يقول تميم بن المعز يصف الزهر المتعدد الألوان من بنفسج ورنجس وورد في بستان وقت الربيع (٢) :

لعمرك إنما الدنيا عروسٌ  
 جلاها الغيث من تحت الثقب  
 بنفسجها ورنجسها ووردٌ  
 بخضاب في خضاب في خضاب

ويقول في البنفسج وقد اهلى إليه أخوه العزيز باقة منه (٣) :

مُدَّ العزيرُ يمينه بينفسجٍ  
 وبوردةٍ مقطوعةٍ لم تُتَهَجِجِ  
 فكأن زرقته على محمرها  
 أثرٌ يحسدُ ناعمٍ مُتَضَرِّجِ

وقال في السوسن من أبيات بعث بها إلى أخيه العزيز ومعها سنبله وسوسن أحمر :

إني بعثت طريفا وهي سنبله  
 وسوسنا تم مرأه ومخبرة  
 تمت، فتم لرائها الأعاجيب  
 فقد تكامل فيه الحسن والطيب  
 له بنان من الجناء محضوب

(١) النخيلة قسم شعراء المغرب ص ٦٠ .

(٢) ديوانه ص ٥٨ .

(٣) ديوانه ص ٨٠ .

وقال يصف الياستمين والخيّم (١) :

وأصفر من ياسمين الرياض      يلوّح على زُرقة الخرم  
فشبت هذا بالسّما      بدت في صفار من الأنجم  
أو الشرر المستبر الذي      تطاير عن قيس مخرم  
ويصف زهر النيلوفر على بركة وقد طفا يسبح مزهوا :

وبركة تزهو بنيلوفر      نسيمه يشبه نشر الخيب  
مفتح الأجفان من نومي      حتى إذا الشمس دنت للمغيب  
أطبّق جفنيه على خده      وغاص في البركة خوف الرقيب  
وذكره وقد امسكت به فتاة وأشارت إليه مُداعية (٢) :

ياحبذا تومي بنيلوفر      قد ركبته فوق عنابة  
شمه طورا وأرواحها      على زياح النور غلابة  
قلت: نيلوفة هذه!؟      أم بفوادي أنت لها به!؟

شعر المطاعم والدعوة إلى الطعام :

وظهر بصورة واضحة في شعر العصر الوصف للطعام بألوانه ، والدعوة للمآذب ، ويحكى الشريف العقيلي في شعره صورا لألوان من الطعام وأوصاف لمآذبه ، والدعوة إليها على نحو لا نجد في شعر من سبقوه .  
وللؤاسان قصيدة فكاهية طويلة نادرة يصور فيها دعوة على الطعام ، ويرسم كيف جاء المدعون في هيات مضحكة ، وكيف تناولوا طعامه ، فجاءوا على ما كان أعدّه ، وكلّ قد بنا متحفزا للوليمة يطعم منها ، وما أعد بها من شراب ، وألوان شواء .

وكانت هذه القصيدة الفريدة بمناسبة عقد قران . يقول في ختامها :

لم يكن القران إلا على شو      مي ، فويل من نحس ذلك القران

(١) الخرم نبات كاللوياء له ورق قبل العرض يتفسجى اللون ، وله رائحة حسنة .

(٢) ديوانه ص ٤٩ .



واعجبت النعالي أياتها فقال : « قد أحسن في هذه القصيدة غاية الإحسان ، وأبان فيها عن مغزاه أحسن بيان ، وتصرف فيها وأطال وأمكنه القول فقال » (١) :

من لعيني تيمودُ بالهملانِ  
ياخيليلي أقصيرا عن ملامي  
ولقلب مدله وهان  
وارثيا لي من نكبي وارحمانني  
يقول فيها :

ما الذي ساقى الحنسى إلى حتفى ؟  
من عذيري من دعوة أوهنت عظمي ،  
وما عالني ، وماذا دهاني  
وهدت بيولها أركانني  
ويقول :

كان عيشي صافيا فكدره أهـ  
فارتوا لي يا مغشّر الناس من ضرّي ،  
ضرب البوق في دمشق وناذوا  
هل سمعتم بمعشر جمعوا الخيل  
رحلوا من بيوتهم ليلة المر  
لست أنسى مصيبتني يوم جاءوني  
وردوا ليلة الخميس علينا  
يتقدم القوم هاشمي هريث الشد  
هو نمس الدجاج والبط والإرز ،  
سل صفائ بنو أبي صفوان  
ومن طول عطنتي وامتحاني  
لشقائي في سائر البلدان  
وساروا في الرجل والفرسان  
قع من أجل أكلة مجان  
وقد غص منهم الواديان  
في خميس ملء الربا والمخاني  
سدى رحب المعى ، طويل اللسان  
وذئب النعاج والخرفسان  
واهتم الشعر بجوانب الحياة الجادة ، وهمومها وصراعاتها .

ومن جاد الموضوعات في الشعر نقدا للحياة والمجتمع ، وتناول بعض قضايا العقيدة من الجوانب الفكرية والفلسفية . وظهر أبو العلاء المعري مبرزا في هذا الجانب في القرن الخامس الهجري ، فكان شعره سجلا لأفكاره وآرائه في الحياة والناس والدين والمجتمع ، والسلوك والأخلاق . ويقول محمد كامل حسين (٢) : « فالمعري في ديوان اللزوميات ليس بشاعر ، وإنما هو ناظم صاغ آرائه في قالب الشعر ،

(١) بيمة الدر ١ / ٤٢٤-٤٢٥ .

(٢) ديوانه المؤيد ص ١٥ المقدمة وراجع حديثنا عن أبي العلاء بعد

والتزم فيه ألبانا من القوافي وضروب الوزن ، فكان تقيده بما لا يلزم ، وما حُمِّل  
ألفاظه من آراء علمية وفلسفية سببا في أن يعد ديوان اللزومات عن دائرة الشعر  
الخالص ويجعله أقرب إلى النظم منه إلى الشعر .

ومن موضوعات شعر العصر غير التقليدية وصف الرسائل وتقريظها فمن  
ذلك قول ابن أبي الصلت في رسالة بعث بها إليه أحد أصدقائه —  
أبو الضوء<sup>(١)</sup> :

أبا الضوءِ وافاني كتابك يزدهي  
كتاب لو استدعى به العصم قانص  
ولما فضضت الختم عنه تضرعت  
وسرحت طرفي في رياض محاسن  
به التثر من تلك البلاغة والنظم  
لم استعصمت من أن تخبر له العصم  
لطيمة سفير فض عن مسكها الختم  
وشاها الحيا المنهل ، بل علمك الجم  
ويقول آخر :

كتاب نفيث اكتشاي به  
أتى من بعيد مرامى الضمير  
ذرى في الترسيل بابن العميد كما  
فتسرب من فرجى من كل ناء  
صفتى نأى ودنا ذكره  
ونلت الأمانى بظل الأمان  
والفكر مرهف غرب اللسان  
قد شأى في القريض ابن هانىء  
وأبعد من ترجى كل داني  
فناى السماع مناب العيان

قال الشاعر ابن البشائر البلتونى — ممن وفد على الأفضل — في وصف  
كتاب<sup>(٢)</sup> :

وصل الكتاب وكان أنس واصل  
لا شىء أنفس منه مهدي جامعا  
ففضضته ، وجعلت الشم كل ما  
وفهمت ، ودعته فرحت بقبطة  
وعجبت ، من لفظ تناسق فيه ما  
كالروض باكرة الحيا فتنتحت  
عندى وأنس قادم القاه  
شمل المعانى للذى أهداه  
كتبته أر مرت عليه يده  
جدلان مبهجا بما أداه  
أعلاه ، ما أجلاه ، ما أحلاه  
أزهاره ، وتضوعت رياه

(١) خريدة القصر ١ / ٣٤٦ .

(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب ١ / ١٥ .

كالعقد وصل لؤلؤًا وزرْجداً      فتقابلت أولاه مع أخراه  
در ترفع قدره عن قيمة      منظومة كبراه مع صغراه

لغة الشعر وموسيقاه :

اعتمد الشعر في هذا العصر لغة الشعر العربي في القرن الرابع ، ودخل البديع عنصرا فنيا من عناصر التعبير دون إسراف أول الأمر ، حتى كان القرن الخامس فزاد اهتمام الشعراء بالبديع ، وأسرف بعضهم فيه ، وبخاصة في بديع اللفظ من جناس ، ومقابلات ، وطباق ، وترصيع وتوشيح وتوشيع .

وظهرت في أخريات عصر الفاطميين في الشام ألوان من الشعر عرفت بالمجانس يعمد فيها الشعراء إلى التجنيس في القافية ، وهو مغالاة فيما التزمه أبو العلاء المعري في لزوميته .

وكان لوفود الشعراء إلى مصر من المشرق والمغرب أثره في ظهور ألوان فنية متعددة اختلطت وتزاوجت ، ونتاج عنها ألوان من التعبير والصيغة ينتمي بعضها إلى أصول مشرقية ، وبعضها إلى أصول مغربية أو أندلسية وبدأت تظهر صور مبكرة للتوشيح أو ألوان مشابهة من النظم خارجة على نظام القصيدة منذ القرن الرابع الهجري من مثل قول تميم بن المعز :

دُمُّ العُشَّاقِ مَطْلُوبٌ      وَدَيْنُ الحَبِّ مَمْطُوبٌ  
وَسَيْفُ اللَّحِظِ مَسْلُوبٌ      وَمَيْدَى الحُبِّ مَعْدُوبٌ  
وَإِنْ لَمْ يَصْغِ لِلأَثَمِ

وَأحور سَاحِرِ الطَّرْفِ      يَفوقُ جِوامِعِ الحَبِّ  
مَلِيحِ الدَّلِّ وَالظَّرْفِ      جَنَّتِ الحَاظِهُ حَتْفِي  
فَمَنْ يُعَدِي عَلى الظَّالِمِ

يُعْتَفِنِي عَلى حُبِّي      وَيَهْجُرُنِي بَلا ذَنْبِ  
كَأَنِّي لَسْتُ بِالصَّبِّ      لِقَهْوَةِ رِيقِهِ العَذْبِ  
أَما في الحَبِّ مِنْ رَاجِمِ

على أن هذه الصورة المبكرة للموشح في شعر تميم بن المعز نادرة في القرن الرابع إلا أننا نعثر في القرنين الخامس والسادس من العصر الفاطمي على صور

أخرى لنظم الموشح ، وممن نظموه في القرن الخامس في آخره وأوائل السادس على  
بن عباد الإسكندري : قال العماد الأصبهاني في ترجمته<sup>(١)</sup> : « وقرأت له في  
مجموع في مدح محمد بن أبي أسامة كلمة ذات أوزان موشحة :

يا من ألوذ بظله في كل خطب معضل  
لازلت من أصحابه متماسكا بيد السلامة  
آمنا من بأس  
في الحوادث والظروف  
وأعوذ منه لفضله في كل أمر مشكل  
ما لاح فجر صوابه كالشمس من خلف الغمامة  
لا تميل إلى شماس  
دون موضعها الشريف

وممن نظم الموشح من المصريين في القرن الخامس أو أوائل السادس ظافر  
الحدّاد الإسكندري .<sup>(٢)</sup>

---

(١) الخريدة شعراء مصر ١/ ٤٤ .

(٢) راجع ذلك في موضعه من هذه الدراسة .

## شعراء العصر

كثرت الشعراء في العصر كثرة ملفتة ، وكان لتشجيع الفاطميين أثره في وفود كثير منهم من المشرق ومن المغرب . وما ذلك إلا باهتمام الأئمة والقادة والرؤساء بعرض افكار الدعوة الفاطمية ، واتخاذ الشعر منبرا من أهم منابر إعلامهم ، كما كان الشعر معرضا لأحوال الأئمة والرؤساء وتقريبهم من الناس ، وتوددهم إليهم بنشر محاسنهم وجليل أعمالهم .

وكان للشعراء ديوان ومسئولون يتولون أمورهم ، وكانوا يجزون الجزاء الأوفى على ما يقدمون ويعلنون ، ويزينون أحيانا .

ومع كثرة شعراء العصر إلا أن ما وصل إلينا من شعرهم قليل ، ولا تتعدى دواوينهم عدد أصابع اليدين ، وتناثرت بقية أشعارهم في الكتب والمصادر .

وهذا نذر يسير لا يشفى غلة لشعراء جاوزوا المئات في عصر دام قرنين . ونقرأ في تلك المصادر عن مؤلفات لعدد من العلماء عن شعراء العصر ونخب من أشعارهم ، لعلها تذهب في نهجها مذهب اليتيمة والخريدة من مثل « جنان الجنان » ، و « رياض الأذهان » . وفي شعراء الفاطميين من المصريين للمهذب بن الزبير ، وقد نقل عنها كل من العماد ، وابن سعيد في كتابي الخريدة ، والمغرب<sup>(١)</sup> . ولعل بن منجب مجموع عن شعراء عصره<sup>(٢)</sup> .

وكتاب الحديقة لأمية بن أبى الصلت ، نقل عنه العماد ، وكتاب « المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » لابن بشرون المهدي<sup>(٣)</sup> .

وتقسم الشعراء على أقاليم مصر ومدنها ، فمنهم من نشأ بصعيدها ، واشتهر ووفد إلى القاهرة والفسطاط ، فمدح الأئمة والرؤساء ، وكبار رجال الدولة وجالس العلماء والفضلاء ، وأنشدتهم من شعره ، فذكروه ، وألحوا إلى بعض أقواله .

(١) راجع الخريدة قسم شعراء مصر ص ٦١ .

(٢) الخريدة شعراء المغرب ص ٢١٠ .

(٣) راجع الخريدة شعراء المغرب ١ / ١١٤ .

وبعضهم نشأ بالإسكندرية ، أو دمياط أو غيرها من بلاد الدلتا ومنهم  
القاهريون أو أبناء الفسطاط ، ومنهم الوافدون المقيمون ، ومنهم الوافدون العابرون  
وعَدَّ العماد من شعراء مصر في الخريدة مائة شاعر .

ونذكر من شعراء الصعيد من تردد ذكرهم :

١— الكاسات — وهو لقب للفقير أبي محمد عبد الله بن أبي سعد ، وترجم  
له ابن سعيد في المغرب .

٢— وأبو الرضا سالم بن علي بن أبي أسامة ، وكان بنو أسامة من أصحاب  
الديوان في زمان الحافظ .

٣— وأبو المشرف الدجرجاوي — من دجرجا أو جرجا . ذكره ياقوت في  
معجم البلدان .

٤— والقاضي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن النضر المعروف بالأديب  
من صعيد مصر ذكره العماد في الخريدة ، وترجم له الأذفوي في الطالع  
السعيد<sup>(١)</sup> ، تولى القضاء باخميم زمن الأفضل الجمالي .

٥— وأبو الغمر الإسناوي محمد بن علي الهاشمي ( توفي سنة ٥٤٤ هـ )  
وترجم له العماد بالخريدة ، والأذفوي<sup>(٢)</sup> في الطالع السعيد .

٦— وأبو الفرج سهل بن الحسن الإسناوي .

٧— وبنو عرام وهم جماعة .

٨— وأبو القاسم عبد الحميد بن عبد المحسن بن محمد الكتامي المقيم  
بأسيوط .

٩— وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصوفي — عرف  
بابن يونس واشتهر بالتنجيم ( ت ٣٩٩ هـ ) .

وكان يقول الشعر ويضرب بالعود ، قال صاحب شذرات الذهب<sup>(٣)</sup> :

(١) راجع الخريدة ٢/ ٩٠ ، والطالع السعيد ٢٢٠ ، وبنية الرعاة ٣٥٣ .

(٢) الخريدة ٢/ ١٥٨ ، والطالع السعيد ٣١٥ .

(٣) شذرات الذهب ٣/ ١٥٧ ، وراجع التيمة للثعالبي ١/ ٣٤٥ ، وابن خلكان بالوفيات ٢/ ٨٥ ،  
والنقضي ص ٢١٠ .

« وله شعر حسن ، منه قوله :

أَحْمَلُ نُشْرَ الرِّيحِ عِنْدَ هبوبِهَا  
رِسَالَةً مُشْتَاقٍ لِرُوحِهِ حَبِيبِ  
وكان يحضر مجالس الحكم .

وترجم له الثعالبي ، وابن خلكان والقفطى .

ومن شعراء مصر أو الفسطاط :

١- المهجر المحجوب المصرى :

ترجم له ابن سعيد ، نقل عن القُرطبيّ قوله : « إنه ممن أنبتته الفسطاط  
وتفقت عنه يبيضا ، من الشعراء الذين أجادوا ، وأفرطوا في الرحلة عن أوطانهم  
غاية الإفراط » . وهو من شعراء المائة الخامسة .

وترجم له الباخريزي في الدمية .

٢- ومن شعراء الفسطاط الرسيون من آل طباطبا . وكانوا بيتا علويا من  
أشراف مصر الحسينيين . وعرف منهم في عصر الفاطميين جماعة أشهرهم :

\* أبو عبد الله الحسيني بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم  
بن إبراهيم ( طباطبا ) الشريف الحسيني الرسي ( ت ٣٦٥ هـ ) (١) .

\* وكان أديبا شاعرا رقيقا . قاسم الأمير تميم بن المعز شرف النسب وعلو  
الحسب ، وأمارات الفضل والأدب . وكان بينهما مودة ومراسلات شعرية راققة .  
وكان أبوه نقيب الأشراف في مصر وكان جده أبو القاسم أحمد بن محمد ابن  
إسماعيل نقيب الأشراف أيضا شاعرا أديبا مجيدا ( ت ٣٤٥ هـ ) أو ( سنة  
٣٥٢ هـ ) وعاصر الدولة الإخشيدية وكانت وفاته في عصر كافور وسنه آنذاك  
٦٤ عاما .

وكان من السرور والنبيل وجلال القدر على ما هو معروف مشهور . وله أدب  
واسع وشعر في الزهر والغزل مليح .

٣- وكانت بلاطات الوزراء مجمعا لشعراء مصر والوافدين عليها وأشهر

(١) راجع ابن خلكان ، والمغرب ص ٨٥ ، وديوان تميم ص ٣٠ .

مجالسهم مجلس الوزير الأفضل ابن بدر الجمال فقد جمع عديدا من شعراء العصر  
أمثال ظافر الحداد السكندري، وعلى بن مُنْجَب الصيرفي الكاتب، ومسعود الدولة،  
ومحمد بن اسماعيل المعروف بالتاريخ، وحسن بن زيد الأنصاري .

ومن وفد إليه من المشرق ابن حيّوس ، ومن المغرب أمية بن أبي الصلت ومجير  
بن محمد بن مجير الصقلي ( ت ٥٤٠ هـ ) .

٤ — كما ضمت مجالس الوزير الصالح بن رزيك جماعة من مشاهير شعراء  
القرن السادس الهجري في مصر وغيرها من بلاد المشرق والمغرب من بينهم القاضي  
الرشيد بن الزبير ، وأخوه القاضي المهذب ، والفقيه عمارة اليمنى ، والقاضي  
الجليس عبد العزيز بن الجباب ( ت ٥٦١ هـ ) وأبو محمد يحيى بن الحسن بن  
جبر<sup>(١)</sup> ، وأسامة منقذ .

٥ — ومن شعراء الإسكندرية ظافر الحداد ، الشاعر المبدع ، وأبو بكر  
الطرطوشي الفقيه الصوفي عاش زمن الأفضل وتوفي سنة ٥٢٠ هـ .

وهو محمد بن الوليد القرشي الفهري ، ونسب إلى طرطوشة بالأندلس نزل إلى  
الأسكندرية ، ووفد إلى القاهرة ورحل إلى المشرق فحلّ ببغداد وأخذ على  
علمائها .

وكان إماما زاهدا ورعا متقشفا ، متنقلا راضيا بالقليل . له شعر رواه ابن  
العماد وله كتاب « سراج الملوك » ألفه للوزير الفاطمي المأمون البطائحي وعاش  
إلى إزمن الأفضل<sup>(٢)</sup> .

ومن الأسكندرية ابن معبد القرشي الأسكندري ( ت ٥٥٨ هـ )<sup>(٣)</sup> ومنها أبو  
الربيع سليمان ( ت ٥١٦ هـ )<sup>(٤)</sup> .

ومنها ابن أَعْسَان الكاتب ( ت ٥١٥ هـ )<sup>(٥)</sup> .

(١) الخريدة ٢ / ٢٣١ .

(٢) راجع ترجمة ابن خلكان ، وشنوات الذهب ٤ / ٦٣ .

(٣) ترجمته بالخريدة ٢ / ٢٣٣ قول الأفضل سنة ٥١٥ هـ .

(٤) الخريدة ٢ / ٢٠٠ .

(٥) الخريدة ٢ / ٢٢٧ .



وابن مكنسة الشاعر المشهور ( ت في حدود ٥٠٠ هـ ) ، وترجم له أمية بن  
أبي الصلت في الرسالة المصرية ، أعجب بشعره ، وأورد مقتطفات منه . وكان قد  
أنشد الأفضل إلا أنه أعرض عنه<sup>(١)</sup> .

وابن قتادة المعدل : أبو الفتح منصور بن ابراهيم<sup>(٢)</sup> .

ومن شعراء دمياط :

أبو الفتح محمد بن إسماعيل بن قادوس ( ت ٥١١ هـ ) . وابنه محمود بن  
قادوس من شعراء ابن رزيك .

وكان معظم كتاب العصر الفاطمي المشهورين ممن عرضنا لهم فيما سبق من  
حديث — ينظمون الشعر .

وأما الوافدون فكثيرون من المشرق والمغرب ، وأكثرهم من المغرب والأندلس  
بدأوا مع وصول ركب المعز من المهديّة إلى القاهرة ، وتعاقبت أرسالهم تطرق باب  
الاسكندرية وتعرج على القاهرة .

ومن أشهر الوافدين المغاربة الرقيق القيرواني ، وأمّية بن أبي الصلت ، وابن مجير  
الصقلي . وابن القطاع ، والتجيبى .

كما وفد من الشام ابن حيوس أبو الفتيان ، وأسامة بن منقذ ومن قبلهما  
الواساني والرقمقي والوزير المغربي ، والتهامي .

ووفد من اليمن عمارة اليمنى ، واستقر بمصر حتى مات .

(١) راجع الرسالة المصرية وابن خلكان والخريدة ٢/٢٠٣ ، وفيات الوفيات ١/٢١ .

(٢) الخريدة ٢/٢٢٩ .

الفصل الثاني  
شعراء مصريون  
في القرن الرابع



## تميم بن المعز

يدور شعر تميم بن المعز على محاور ثلاثة .

المحور الأول : الأمير وهموم الإمارة ، واهتماماتها .

المحور الثاني : الإنسان وحياته الخاصة والعامة وسلوكياته واخلاقه .

المحور الثالث : الفنان وتذوقه للحياة والجمال .

## أما الأمير

فقد ولد الشاعر للخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، وكان أكبر أبنائه ، لكن الصلة بينه ووالده لم تكن مستقرة ، وشابها كثير من الغموض ، فلم يكن الأب فيما يبدو محبا لولده كل الحب ، ولا مقدرا فيه الرجل الذي يمكنه أن يحمل أعباء الدولة كما ينبغي ، ربما لأن الأمير كان يميل إلى اللهو ، أو إلى أن يعطى نفسه قدرا من المتعة على حساب الأمور الرسمية ، أو مهام الملك والخلافة ولعل الأمير أدرك ذلك من أبيه ، وأدرك أنه لا يثق فيه كل الثقة بل لعله أدرك أنه يقدم عليه أخويه الآخرين .

ونما هذا الإحساس في قلب الأمير فأرقه ، وأقلقه ، ولعله دعاه إلى زيادة الإنغماس في همومه وملاذبه ، واتخذ الشعر وسيلة للتعبير عن هذه الهموم والملاذ جميعا ، بل لعل نفسه حدثته بأن يأخذ حقه لنفسه ، وإن أغضب ذلك والده ، أو بدا لهذا الأب ومن حوله من رجال دولته ، وكأنه يحاول اغتصاب الأمر ، وربما رأى بعض شباب الدولة والطامعين الطامعين في الأمير إرعونته وأدركوا ما يكتم في نفسه فأرادوا أن يدبروا معه أمرا طائشا يمين النفس بالفوز بمنصب إن تم الأمر للأمير الخائق .

ويؤكد هذا ما ذكره الأستاذ جوذر أقرب الرجال إلى المعز كما جاء في سيرته ذكر أنه نمي إليه اتصال الأمير ببعض أمراء البيت الفاطمي ، وابن أمير صقلية ، واتفقوا على تدبير أمر ما ، فأطلع جوذر الخليفة المعز عليه وكان في المهديّة قبل مجيئه إلى القاهرة ، فكان رد المعز بمصافحته ودهائه على جوذر أن اكنم الأمر ، وكتب إلى مستشاره يقول :

« يا جوذر كثر الله من أوليائنا مثل أحمد — أمير صقلية وولده الأمير الشاب طاهر الذى ظن اتصاله بتميم — فوالله ما كان يثنيه عندنا ، ويصوره بغير صورته إلا بعض أتباعه الذين زينوا لهذا الصبي الشقى ولده . صحبه من كان سبب شقوته فوالله إن توجعنا به لتوجعنا بمن لنا — يقصد ابنه تميم — لكن ابن أحمد يرجى فيما يستقبل من الزمان ، ومدبرنا نحن لا يرجى أبداً إذ كانت الخطة التى يرفع الله بها أولادنا هلى خطة الطهارة ، ومن عدمها كان كلا على مولاه . والحمد لله على ما ساء وسر . فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامنعه ، وتشفع له عنده وعرفه أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شئنه يلحقه عارها ، ويبقى ذكرها مع الأيام ، فما يخفى عليه أن ذلك يبقى في الأعتاب . فليمسك ، ويعجل ما يصلح فيما يستقبله فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد كان ليسعى به بينهما » (١) .

وهذه الرسالة التى وجهها المعز إلى جوذر تحمل كثيرا من المعانى التى أشرنا إليها في مقدمة حديثنا عن تميم والعلاقة بوالده .

وكان دهاء المعز وحسن تدييره مما دفعاه إلى كتمان مثل هذا العبث الصبياني حتى لا تصير معرة ، ولا يظهر الخلاف في البيت الفاطمي أمام الرعية . وهو أعلم بولده وطيشه وانغماسه فيما لا يطهر من ملاذ . وما لا يليق بإمام ينبغى أن يكون قدوة لشعبه ، يبعده عن كل ما يفسد المرؤة ، ويشين الصورة النقية ولو في الظاهر .

وظلت العلاقة هكذا بين الوالد وولده الأكبر تميم الذى لقب نفسه باسمه فكان يكنى المعز بأبى تميم ، ولاشك أن الخليفة كان يشعر في أعماقه بالأسى لسلك ابنه الأكبر هذا المسلك ، وكان يحمل بين جنبيه صراعا بين الحب الأبوي لهذا الابن ، والألم والأسى لاضطراره أن يبعده عن دائرة المسئولية لأنه غير أهل لها فيما يرى من سلوكه .

وقد آذاه هذا إلى أن ينحيه عن ولاية العهد مرتين ، فيزيد هذا في حرج الأمير ، وينطوى صدره على آلامه لا يجد ما يفرجها أو يخفف منها إلا المزيد من الانغماس في اللذات ، وإذابة آلامه في الشعر .

(١) من سيرة الأستاذ جوذر ، ص ١٢٠ .

ويذكر بعض المؤرخين أنه نعى عن ولاية العهد لأنه لم ينجب ، ولأنه كان عقيما ، ولم يكن هذا السبب بالضرورة سببا حاسما ، بل السبب الحاسم هو ما ذكرناه .

وقد ظل الأمير يَجْتَرُّ آلامه ، وجاء إلى مصر مع والده وإخوته ، ومات المعز بعد حضوره إلى مصر ولم يمض بها إلا ثلاثة أعوام تزيد أو تقل قليلا ، وأوصى من بعده لابنه العزيز بالله الإبن الثالث ، وتجاوز عن الأكبر الأمير تميم وتولى العزيز الخلافة ، وعرف أنه اخذ حقا لأخيه ، فكان يجزل له العطاء ، ويغدق المال ، ويدعه يفرق في النعماء ، لعله ينسى أمر الخلافة ، وينزل عن حقه فيها ، إلا أن الأمير تميم تظاهر بالزهد في الملك ، وأبدى من طرف لسانه الطاعة لوالده أولا وللخليفة العزيز بعد توليه ثانيا ، ولم يدع مناسبة إلا أبدى هذه الطاعة في قصيدة يبعث بها إلى والده أو إلى أخيه بعد توليه الأمر لكن ما كان يخفيه في نفسه لم يستطع كتمانها ، بل كان يتسرب وعيا منه أو غضبا ، كلما فاضت نفسه ، ونصت بالضييق . فلا تلبث أن تفلت منه أبيات تم عما يكتم كأن يقول (١) :

سأطلب حقي إن قضى اللدلي به	وأفتح منه كل ما كان مُرتجيا
فلست وإن عاقرت كأمي بساللي	من الأمر فيها كل ما كان أسجيا
ولا مشتر بالجد مستحسن الصبا	ولا مُشتر طرق المهالك بالنجا
ولكنني مؤرف لنفسي حقوقها	ورائضها فيما استوى وتعوجا

ولكن العزيز لم يغفل عن رغبة أخيه ، وما كان يخفيه ، وكان يداريه ، ويقبل عليه ، ويقابله الشاعر بالمثل فيبدي الطاعة والولاء ، وقدم بين يدي أخيه الخليفة قصائد المدح في المناسبات . كأن يقول مادحا في مناسبة إقبال شهر رمضان ومهنتا (٢) :

يا شهر مفترض الصوم الذي خلصت	فيه الضمائر بالإخلاص في العمل
أرمنت يا رمضان السيئات لنا	بشربنا للثقى علا على نهل
صوم وبر ونسك فيك متصل	بصالح وخشوع غير مُنفصل
ياليت شهرك حول غير منقطع	وليت ظلك عنا غير مُتفعل
ما أنت في أشهر الحول التي سلفت	إلا كمثل زيار في بني الرسل

(١) ديوانه ص ٨٩ .

(٢) ديوانه ص ٣٤٠ .

ويتضح في هذه الأبيات محاولته مداراة مشاعره الحقيقية والنطق بغير ما يجب ، فهو بالنسبة إلى رمضان يظهر القول بتمنى بقاءه حولا ، وهو لا يحب هذا في سريره ، لأن شهر رمضان يمنعه من ممارسة لذاته ، فهو في الحقيقة شهر غير محبوب لديه ، ونلاحظ في نهاية الأبيات كيف قرن بين هذا الشهر الذي يظهر محبته ، ويخفى غير ذلك ، كيف قرن بينه وبين أخيه فجعله مثله ، وهذا ظاهر المدح ، لكنه يخفى وراءه ما يخفى !

ويقول في مناسبة العيد يصف موكب الخليفة إلى صلاته<sup>(١)</sup> :

لئن أتى العيد من لقياسك في فرج	لقد مضى الصوم من مناك في نكس
برزت فيه بروز الشمس طالعة	وقد أعاد ضحك النقع كالطقل
والبيض تزهرو الأعلام خافية	والأرض في رهج والجو في وجل
فليس يعرف لحظ العين مرسله	إلا إلى سابح في الأرض أو بطلي
والشمس فوق مدار الجيش قد حجت	في جرها بتون البيض والأسل
حتى بلغت المصلى خاشعا تسكيا	خشوع جلك في أزمانه الأول
فقمتم فيهم خطيبا مصقعا لسنا	بكل منفصل نثرا ومُتَّصِل
بلاغة نبوى التنظيم مُحكمها	وخطبة لم يتلها مهمل الخطيل
أبت بالحق ما قد كان مشتبهها	من الهدى فتجلى كل مُشكِيل

ولا يخفى ما في هذا الشعر من تصنع ، يقربه من أن يصبح إعلانا رسميا في هذه المناسبة ، لا ينطق فيه عن عاطفة صادقة ، بل لعنا نحس بأنه يكاد يرض الألفاظ رصاً دون إحساس حقيقى ، فالشعرية فيه منعدمة ، والمناسبة الرسمية تملك عليه لفظه ومعانيه .

وربما كانت نعمة الشاعر في هذه المناسبات الرسمية ، وتسجيل مظاهر الخلافة وشعائرها أكثر دقاً ، وبخاصة إذا اتصل ذلك بالعقيدة ، أو مواجهة الأعداء المتربصين بالدولة ، وبال دعوة الفاطمية التي هي عصب ملكهم ، ومناط شرعيته .

وهو في مثل هذه الأمور يرى نفسه جنديا ومُسئِلا كأخيه وغيره من أبناء البيت الفاطمى فلا بد له من الدفاع والحماس ، وإظهار القدرة والقوة أمام الطامعين المتربصين بهم جميعا . يقول — على سبيل المثال — في مناسبة الصراع

(١) ديوانه ص ٣٤١ .

بين الدولة ممثلة في الخليفة العزيز بالله وأحد أعدائها الأقوياء بالشام القائد التركي أفتكين . ومعتزا بنصر العزيز عليه ومفتخرا :

أعدلاً وما عدلتني التهي	ولا طردَ الجلم عني الصبا
وكيف تلومين صنع المرا	م وتلحين مثلي كهل الحجا
بليوت الزمان وأحداثه	على السلم منهن لي والوعى
فما فللت حريها لي شبا	ولا ازددت بالسلم عنها رضى
إذا قلت لم أعد فصل الخطاب	وإن صلئت أيقظت عني الردى
أرتنى التجارب ما قد بدا	فصنئت به كل ما قد تحفى
ولم يبلغ العمر من سنه	ثلاثين حتى بلغت المدى

حتى يقول :

تهون على صعاب الأمور	ويصغر عني جميع الورى
أنا ابن المعز سليل الأحملا	وصينو العزيز إمام الهدى
سما لي معد إلى غاية	من المجد ما فوقها مرتقى
فرحت بها فاطمي النجار	حسينية علوى الجنسى
وإنما لقوم نروع الزمان	ولسنا نراع إذا ما سطا

ووجدان الشاعر هنا هو الذى ينطق ، وضميره المكنون يكشف عن دخيلته فهو الأمير الكبير صاحب الشأن ، فاطمي انساب والأرومة ، ينتسب إلى الحسين ابن على الشهيد المناضل للحق وبالحق في مواجهة الباطل المستبد ، وفي هذه الأبيات ذات القافية المطلقة والألف المقصورة تتألف فيها موسيقى الكلمة وإيقاع السياق مع نفثة الشاعر من صدر مصدر ، تلذعه حرقه يحس بأوجاعها فيطلقها رنة تمتزج فيها اللوعة والكبرياء ، وتتلاقى فيها آلام الماضى ، وأحزان قومه من العلويين الشيعة ، بالآله هو فيتذكر أنه فاطمي حسيني علوى ، وكما لاقى فاطمة وابنها الحسين وكما لاقى على !!

ومع ذلك فهو ينتصر على لوعته ، وعلى أحداث الزمان ، ومعاندته وحربه لآل على ، وما يحسه هو ، وشيعته من مرارة تلك المعاندة وذلك الظلم الذى يتعقبهم ، فهم صامدون رغم ذلك ، لا يستسلمون ولا يخضعون : ( نروع الزمان ولسنا نراع إذا ما سطا ) .



امتزجت لغة الشاعر إذا مع سخنة قومه عامة ، ولكن سخنته وإن عظمت عليه وأقضت مضجعه إلا أنه يضطر إلى كبتها ومداراتها ، لا يفرج عنها ، ولا يتنفس عن مصورده إلا بينه وبين نفسه أو بينه وبين عشيرته الأقربين تقيّة أو تجنباً لأزمات ، ولأحداث قد تجر ويلات ، وتثير نارا يكون وقودها ، ولا يصل إلى مبتغاه .

ظل يراوده إذا حلم الخلافة والمُلك ، وظلت تحترق في نفسه الصور وتتداعى في مخيلته الأحلام ، ويلوم زمانه ، ونفسه ، ويلوم بعض عشيرته الذين أحبهم ولا يملك في النهاية إلا أن يظهر خلاف ما يبطن ، وأن يلقي أخاه العزيز الخليفة ورمز السلطان الفاطمي بوجه الأمير الموالي ، والرعية المطيع ، والأخ الحبيب الوفي .

فيمدح العزيز ويجماله في كل مناسبة رسمية أو خاصة ، ولا يفتأ يؤكد ولاءه لأخيه ، كأنه يحس دائما بأنه متهم بعدم الولاء أو عدم الرضا مما دفع بعض الكائدين الذين أشار إليهم كثيرا في شعره ، والذين يصطادون دائما في الماء العكر ، ويتقربون إلى ذوى السلطان بالوشاية ضد من يريدون فهم كيداً بوشايتهم ، أو ذريعة يتوصلون بها إلى صاحب الأمر . فيتخذ هؤلاء الكيد لتميم وسيلة للقرى من العزيز ، وتنطق بعض آياته بهذا فيقول (١) :

أنت إمام لي بلا تقيّد	ولا همّ فاشهد ثم لا همّ اشهد
إن زياراً غايبي ومقصيدي	ومؤبلي ومغيبلي ومسندي
وعُدتي وعمدتي ومغيبتي	وأنا برء من عدك مُفتدي
إن لم تكن ذى نيتي لم أسعد	لهلاك لم أسم ولم أسد

ويقول في مناسبة أخرى مشيراً إلى أولئك الكائدين الذين يضمرون له الشحناء (٢) :

كم مضير لي عقد الشحناء	ينسبني فيك إلى السواء
جبهته بالسرد والإقصاء	ولم تمكته من الإصغاء
حفظاً لطاعتي وللإنحاء	حتى انشئ محترق الأحاء
والعدل جبه الكاشح السعاء	لا ، والدم الجاري بكر بلاء

(١) ديوانه ص ١٢٧ .

(٢) ديوانه ص ١٧ .

(٣) الجبة المقابلة بما يكره المرء أن يواجه .

ويقول :

ومن بها من دائِم السَّوَاءِ  
بني عليّ وبنِي الزُّهْرَاءِ  
ذَوِي التَّنَاهِي ذَوِي الْعَلَاءِ  
مَا جِلَّتْ عَنْ مُسْتَحْسِنِ الصَّفَاءِ  
فِيكَ ، وَلَا عَنْ خَالِصِ الْوَلَاءِ  
فِي ظَاهِرِ مَنِّي وَلَا خَفَاءِ

وليت الأمر استقر بين الشاعر الأمير وأخيه الخليفة ، فالنفوس مهما خلصت  
تزلولها أطماع وآمال ، وترتاذا نزوات ، وقد يسمع الخليفة والنفس مهيأة لأن  
تتلقى قولاً عن أخيه الأكبر ، وقد تشور نفس الشاعر الأمير ، أو تحدته فينطق  
علانية في مجالسه الخاصة بين شيعته وأهله ، كلمة لا تسر الخليفة عن حق  
معتصب أو عن أمل يراوده ، فيتغضب عند سماعها ، ولا يخفى على ذوى السلطان  
خافية ، فلا يعدمون من يشي بمن . يعني القرى على حساب الوفاء والمروءة .

وعلى أية حال فإن الأمور لم تصف بين الأخوين ، واعتكر الماء الجاري وربما  
أضمر الخليفة أمراً ، أو لعله بعث لأخيه ، من يحلوه ، أو يتلوه ، ثم من ينصحه  
بالابتعاد عن القاهرة ، ويختار لنفسه منفى .

ويتلقى الأمير التحذير ، فيقع من قلبه موقع المرارة على لسان لم يذق إلا حلو  
العيش في بلهنية السلطان ، ورحاب القصور الخليفة ، وبساتين العز .

كان ذلك حول عام أربع وسبعين وثلاثمائة ( ٣٧٤ هـ ) . ويخرج الشاعر  
الأمير من القاهرة متجهاً شرقاً إلى سيناء ففلسطين حيث اختار الرملة بها  
مقصدًا ، ويشير إلى ذلك في قوله مسجلاً أحداث ما بين الأخوين :

رضيْتُ بِحَكِيمِ سَابِقَةِ الْقَضَاءِ	وإن أضحَتْ تَكْدُرُ صَفْوَ مَائِي
وَهَلْ يَسْتَطِيعُ أَهْلُ الْأَرْضِ حَلًّا	لِعَقْدِ شُدِّ مِنْ فَوْقِ السَّمَاءِ
إِلَى كَمْ تَهْلِكُ الْأَحْدَاثُ رُكْنِي	وَتُرْمِينِي بِجُورٍ وَعَيْدَاءِ
يُعَاقِبُنِي الزَّمَانُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ	وَتَحْدِلُنِي يَدِي وَذَوْرُو اصْطِفَائِي
وَيَسْعَى لِي لِمَنْ لَوْ جَاءَ سَاعٍ	بِهِ عَيْنِي لِحُضْبٍ بِالْذَّمَاءِ

حَيَاتِي بَيْنَ وَاشِي أَوْ حَسُودٍ      وَسَاخٍ لِي يُسْرِ لِبَطُولِ ذَاتِي  
فَإِنْ وَشَى عَلَيَّ الزُّورَ بَاغٍ      فَصَبْرًا لِلْمَقَادِيرِ وَالْقَضَاءِ  
وَمَا أَنَا يَا أَبَا الْمَنْصُورِ إِلَّا      كَمَا تَدْرِي عَلَى مُحَضِرِ الْوَفَاءِ  
أَتَعَلَّمُ كَيْفَ كَانَ لَكَ انْعِطَائِي      وَكَيْفَ رَأَيْتَ قَدَمَا فِيكَ ذَاتِي  
أَحِينَ مَلَكَتْنِي وَالنَّاسَ طَرًّا      وَرُحْتَ خَلِيفَةَ فِي ذَا الْفَضَاءِ  
وَحِينَ رَجَوْتُ نَصْرَكَ لِي فَإِنِّي      بِمُلْكِكَ بَالِغٌ أَقْصَى رَجَائِي  
يُحْيِيكَ مُبِغِضٌ لِي سَاعِيًا بِي      يُرُومُ لَدَيْكَ تَقْضِي فِي الْخَفَاءِ  
فِيئَلْبَنِي وَيَرْجِعُ سَالِمًا لَمْ      تَهْجِكْ عَلَيْهِ أَسْبَابُ الْإِحْيَاءِ

ويظل يوالى هذا العتاب المر لسماع أخيه وشى الوشاة حتى يقول :

فقد طيبت عيشي في سرور      وقد أنعمت بالي في رخاء  
وعيشي زائد طيباً إذا لم      يُكثِرهُ لَدَيْكَ بُنُو الزَّيْنَاءِ

قصيدة مفعمة بالألم ، ينفثها قلب مزقته المعاناة في تلك العلاقة الحساسة بين الأخوين أحدهما صاحب السلطان والكلمة المطاعة ، وكل الناس يتوددون إليها والآخر مظلوم مهضوم الحق مع أنه الأكبر سناً ، لكنه رضى بما قسم الله له لآمور كما يقول تجرى بعقد من السماء لا يحله أبناء آدم على الأرض ، مؤمن بالقضاء والقدر وأن هذا قدره وهو يحس بأن الزمان يتعقبه ، على الرغم مما يعيش فيه من نعمة ظاهرة ، لكنها نعمة حس ، تخفى شقاء للروح ، وعذابا للنفس ، وما أشقى النفس التي تنكب فيمن تحب ، وتشقى بمن ترغى على يديه إسعادها .

ويزيد عذابه أن يرى أخاه الأصغر الذي أحبه ، وكان له فيه رأى يرتضيه يرى هذا الأخ جلاده بعد أن ملك زمام السلطة ، وأمسك بمقاليد الأمور ولكن هكذا الدنيا .. وهكذا السلطان لا يراعى حرمة ولا رحما . ويصدق في ذلك المثل « السلطان من ابتعد عن السلطان » .

وعمر الأمير في طريقه إلى منفاه الذي اختاره أو اختير له ، وعمر بعين شمس فهجس في نفسه هاجسة ربة الشعر ، ويحوم حوله شيطانه فتلور على لسانه أبياته(١) :

(١) ديوانه ص ١٤٧ .

وَحَثَّ بِأَقْمَارِ الْهَوَادِجِ حَادِي  
مِنَ الْيَسِينِ حَسْرَى وَالنَّاسِفِ بَادِي  
رُؤَايَ وَلَكِنَّ الْحُصُورَ صَوَادِي  
وَلَمْ يَتَحَصَّنْ بِالضَّلُوعِ قَوَادِي  
أَرَاعَ بَيْنِي أَوْ أَهِيْمَ بَوَادِي !!

ويذكر بلييس في طريق رحلته الشامية ، وينزل بالعباسة (١) :

لَا شَيْءَ أَوْجَعُ مِنْ بَيْنِ وَإِعَادِي  
أَمْرٌ مِنْ فَقْدِ شَرْبِ الْمَاءِ لِلصَّادِي  
لَا حَرَقَتْ زَفْرَاتِي ثُمَّ عَوَادِي  
فَالشُّكْرَ أَعْظَمَ مَا صَبَّرْتَهُ زَادِي

واستقر به النوى. بالرملة ، وهناك طافت برأسه رؤى الوطن وأحبابه بالقاهرة  
ومنازهاها فكتب يتشوق (٢) :

وَسَاءَ لُبْعِدِكُمْ بِالِي  
لَكُمْ نَاسٍ وَلَا قَالِي  
نَ اشْوَاقِي وَتَبَالِي  
وَإِطْرَاقِي وَإِذْلَالِي  
هُ مِنْ وَجِدٍ وَإِعْوَالِي  
مُنِي نَفْسِي وَأَمَالِي  
حَبَّ السَّيِّدِ الْعَالِي  
وَأَجْعَلْ حَالَكُمْ خَالِي  
فَأَنْتُمْ كَلَّ اشْعَالِي

كتب من الرملة إلى من تخلف بالقاهرة من الأهل (٣) :

فِي انْتِبَاهِي سَوَّلِي ، وَأَنْتُمْ مُرَادِي  
زَائِدٌ تَوْفَهُ عَلَيَّ الْإِعَادِي

وَمَا أَثَارُوا الْبُرْلَ وَهَنًا وَأَشَامُوا  
وَحَالَ الْأَسَى دُونَ الْبُكََا فَعِيُونَا  
أَطْلَنَ دَمَقْسِي الْمَلَا عَنْ رَوَادِي  
فَلَمْ تَعْصِ سُلْطَانِ الْمَدَامِجِ مُقْلَتِي  
أَجْدَكَ لَا أَنْفَكَ فِي كَلِّ لَيْلَةٍ

هدأ الفراق فمهلاً أيها الحادي  
استودع الله من فقدى لرؤيتهم  
لولا دموعي في يوم الوداع إذا  
فإن قضى بالتلاقي الله ثانية

تَغَيَّرَ بَعْدَكُمْ خَالِي  
وَلَا وَاللَّهِ مَا قَلْبِي  
وَوِدِدْتُ لَوْ أَنْتُمْ تَدْرُو  
وَدَمَعِي عِنْدَ ذِكْرِكُمْ  
فَهَلْ تَلْقَوْنَ مَا أَلْقَا  
لِقَاؤِكُمْ وَقُرْبِكُمْ  
عَلَى أُنَى وَإِنْ كُنْتُ الْمُدَى  
لَأَلْزِمُ حُبَّكُمْ قَلْبِي  
فَهَلْ أَنَا شُغْلٌ أَنْفُسِكُمْ

أَنْتُمْ فِي الْمَتَامِ حُلْمِي وَأَنْتُمْ  
كَلَّ عَضُو مِئِي إِلَيْكُمْ مُشَوَّقِي

(١) ديوانه ص ١٢٢ .

(٢) ديوانه ص ٣٥٢ .

(٣) ديوانه ص ١٤٨-١٤٩ .

لم أفارقكم ولكن جسّمي      بأنّ عنكم وحلّ فيكم فؤادي  
فهنيئاً لكم بكائي عليكم      وهنيئاً للعين طول السهاد  
كلّما حنّني اشتياقي إليكم      قلت لييك أنت نعم المنادي

وبعد فتلك محنة الأمير الشاعر مع الخلافة والآب والأخ ، عبّر عنها من خلال هذه النثبات الشعرية التي أطلقها وبقيت منها تلك الآيات في ديوانه ، ولعله نطق كثيرا ولم يبق لنا مما نطق إلا ذلك القدر ، وهو قدر يسمح على كل حال بأن تتصور حاله وإن لم يقفنا على تفصيلاتها ، وتقلب أمورها .

ولقد شغلت أحوال أسرة المعز قدرا من شعر تميم الأمير الشاعر ، كما شغل بنفسه في شعره ، فافتخر وكشف عن مخبّات صدره ، وعن عقيدته وعلاقاته بغيره ممن أحب أو كره .

وطبيعيّ أن يشغل شاعر أمير بأحوال قومه ، وأحوال نفسه فهو لم يتخذ الشعر وسيلة للتكسب والحصول على المال فيمدح هذا من الملوك أو الرؤساء أو ذلك من الأمراء والقادة لقاء جائزة ، فهو غنى عن هذا بما لديه ، وهو إنما يتخذ من الشعر أداة للتعبير عن مواجده ، في أفراحه وأتراحه . فهو إذا مدح فإنما يمدح الخليفة لأنه أخوه ، ولأنه رمز السلطة والدولة الفاطمية والإمام المطاع ووليّ الأمر ، وواجب عليه الولاء له وتقديم هذا الولاء في كل مناسبة أبياتا من الشعر بين يديه .

وإذا مات أحد أبناء الأسرة الفاطمية رثاه كذلك وتفجع عليه ، فمراثيه كمدائحها كلها في أقربائه وأعز الناس لديه ، لا رياء ، ولا مجاملة ، ولا ابتغاء قربى من أحد .

ومن مراثيه قوله يرثي أخاه عبد الله (١) :

أيّ خطبٍ أرى وأيّ ليالي      دهمّ الناس صرفها المخدور  
ويقول فيها :

كيف لم تسقط السماء على الأرض      ، ولم تهو شمسها والبدور  
يوم مات الأمير بل يوم مات      الصبر فيه ، بل يوم مات السرور

(١) ديوانه ص ١٤٩ .

يَوْمَ بُلَّ التَّرَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّمِ  
يَوْمَ حُطَّتْ عَمَائِمٌ وَأَذَاعَتْ  
يَوْمَ أَبْكَى الْعَيُونَ حَتَّى بَكَاهُ  
قَبَرُوا شَخْصَةً وَوَارَوْا سَنَاهُ  
كَمْ نَصِيرٍ لَهُ هُنَاكَ وَلَكِنْ  
حَجَّ وَقَدَّتْ عَلَى الْقَلْسُوبِ الصُّنُورُ  
سِرَّهَا فِيهِ أَدْوَرٌّ وَتُحْلُورُ  
الْأَسَدُ الْوَرْدُ وَالْعَزَّالُ الْغَرِيرُ  
وَتَدَلُّوا وَالْفَائِزُ الْمَقْبُورُ  
لَيْسَ مِنْ سُورَةِ الْجَمَامِ نَصِيرُ

★ ★ ★ ★ ★

يا أخى ، أئى عبرة ليس تهجى  
يا أخى ، وإن بكثك عيني فإئى  
يا أخى عبد الله أئى مساع  
يا أخى إن صاحبي وأخى بعد  
وفؤاد عن السُّلُو عنيئ  
كنت ملاء الجنون نورا فأمس  
وفؤاد عليك ليس يطير  
بالبكاء والأسى عليك جدير  
لم يفقهن سعيك المبرور  
ك تلهاب لوعة وزفير  
ومن الصبر والعزاء نفور  
ست ملؤها مدمع عليك عزيز

هذا رثاء غير رسمي ، من أخ لأخيه ، ولوعته فيه لوعة صادقة ، ودمعه دمع  
محترق بالفراق ، وشعوره بأن الدنيا ضاقت وأظلمت شمسها وتهاوت بدورها ،  
شعور غير كاذب ، لأنه طبيعي من أخ نحو أخ أحبه ورافقه ، ودرج تحت  
عينيه ، ولعبا معا صبيين ، أو صبيا وفتى .

ومثل لوعته ورثائه لأخيه عبد الله كانت لوعته ورثائه لأخيه عقيل الذى ولاه  
المعز ولاية عهده ، متجاوزا الأمير الشاعر تيمما ، وحقه فيها . ومع ذلك لم يمنع  
ذلك الأمير الشاعر من أن يسكب دمه ، ولا لسانه من أن يزر هذه الرفرة  
ليقول (١) :

قِسْمَةُ الْمَوْتِ قِسْمَةٌ لَا تَجُورُ  
يَسْتَوِي كَلٌّ مِنْ أَذَاقَتِهِ مِنْهَا  
نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَلِلْمَوْتِ فِينَا  
نَسْتَطِيلُ الْمَتَى وَهِنَّ عَوَاصِ  
كَلِّ حَتَّى بِكَأْسِهَا مَحْمُورُ  
لَا أَمِيرٌ يَبْقَى وَلَا مَأْمُورُ  
طَالِبٌ مُدْرِكٌ مُجَدُّ قَلْبِيرُ  
فُنْطِيلُ الْأَمَالِ وَهَى غَرُورُ

ويقول فيها :

(١) ديوانه ص ٢٢٦ .

تَدْرُ الْمَوْتَ صَفَقُوا عَيْشِي وَهَلَّ فِي الْآ  
 قَدِ تَذَكَّرْتُ بِالْمَصَائِبِ قَوْمِي  
 فَرَقْتَهُمْ يَدِ الْمُنُونِ فَبَادُوا  
 سَلَفَ صَالِحٍ وَأَمْلَاكَ صِدْقِ  
 ثُمَّ عَيْشَنَا ثَلَاثَةَ لَفِيمِ الْحَا  
 فَعَمَرْنَا بِذَلِكَ مُدَّةَ دَهْرٍ  
 لَمْ يَعِشْ لِلْمُعَزِّ نَسْلَ سِوَانَا  
 فَأَصَابَتْ يَدَ الْمُنُونِ مَنَا عَقِيلًا  
 حِينَ هَزَّ الشَّبَابُ أَعْطَافَهُ الْغَيْبِ  
 لَمْ يُجَاوِزْ حَدَّ الثَّلَاثِينَ إِلَّا  
 أَيْنَ تِلْكَ الْبَشَاشَةُ الْغَضَّةَ الطَّلَعِ

\*\*\*\*\*

صَارَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْأَنْسِ وَحْشًا  
 آهَ مِنْ لَوْعَةٍ لَهَا فِي سَوَادِ الْعَدِ  
 وَهُوَ فِي قَعْرِ حُفْرَةٍ مَهْجُورٍ  
 كَيْفَ يَبْقَى أَمْرٌ تَوَلَّى أَبُوهُ  
 سَيْنَ دَمْعٍ وَفِي الْقَوَادِ زَفِيرٍ  
 وَأُخُوهُ فَجَبَلُهُ مَبْتُورٍ

وظاهر من هذه الآيات أن أخاه عبد الله توفي قبل أخيه عقيل وبالضرورة قبل نزار العزيز بالله ، ولعل الذي تولى الأمر قبل وفاة أبيه المعز كان عبد الله بشهادة هذه الآيات ، فهو يذكر أن من تبقى بعد وفاة المعز ثلاثة أخوة هم على هذا ومن واقع هذا الشعر عقيل ، ونزار ، والشاعر تميم ، فأما نزار فقد أصبح الخليفة العزيز بالله بعد موت المعز لدين الله . وظل الأمير عقيل و تميم ينعمان بالعيش إلى جوار أخيهما الثالث الخليفة حتى اختار الله إلى جواره عقيلاً فلم يبق من الأخوة إلا تميم ونزار الخليفة .

وهكذا تأتي هذه المرثية وقد فقد الأمير أخاه الأول عبد الله وفقد بعده أباه المعز ، ومن بعدهما عقيلاً ، فالموت تعاقب على أعز أهله وأحبابه ، ومن هنا كانت بداية الحديث أول الشعر عن الموت وقسمته ، وأن كأس المنية تدور وتدور ، ويذوقها كل حي ، فالموت قريب منه يخطف أعز من أحبه ، وعائشهم ، ولا يفوته أمير ولا مأمور .

ويشعر بأثر الموت في عيشه ، وعيش أسرته الأقرين ، ومن سلف منهم من  
الفواطم أبناء الحسين . فهم كلهم في ملحمة الموت خلف عن سلف :

فرقتهم يدُ المنونِ فبادوا وحوثهم بعدَ القصورِ القبورُ

وتختلف هذه المراثية في تعبيراتها ومعانيها ، وفي نبضها عن مراثيته في عبد الله ،  
وهو اختلاف أدى إليه السن والتجربة ، فالشاعر الأمير قد بلغ مبلغا من التجريب  
والعلم ، والسن هدهد فيه من اللوعة ، فلم يكن حزنه صراخا وعويلا وبكاء فياضا  
يروى الثرى ولم تهو الشمس ولا تبددت الأعمار ، ولا برزت ربات الخنور ، ومآل  
الذين آوتهم القبور في ظلماتها ووحشتها .

هناك فرق لاشك بين هذه الآيات وتلك سببه السن والعلاقة الخاصة بين الأخ  
المتوفى والشاعر ، وبين الأخ المتوفى والأسرة مجتمعة في الأول والأسرة وقد غاب عنها  
كبيرها وأحد أفرادها ، وتعقبها الموت في الثاني .



## تقييم الإنسان

في شعر تميم ملاحظ إنسانية ، تكشف عما في باطنه من عواطف وأحاسيس إنسانية ، ونجدها في كل إنسان مكتمل البناء ، صحيح النفس ، سليم الباطن فيه شفافية الروح التي أودعها الله إياه ، وميزه عن غيره من سائر الحيوان وتمثل تلك الشفافية فيما تعارفت عليه الإنسانية من سمو الخلق ، والترفع عن الدنيا والحب للناس والأشياء والرغبة في الخير ، والطموح إلى الجمال وإلى كل ما هو جميل .  
ونذكر من قراءتنا لشعر تميم أنه رغم انشغال فكره بأحوال دنياه وصراعات الناس من حوله ، ودسائس الملك والسلطان ، وما نعيم على العصر من اضطراب وخوف ، وقتال وموت ، وتساؤل عن المصير . أقول على الرغم من هذا كله نجد أنه يكن في داخله تلك الصفات الإنسانية التي ما تلبث أن تنكشف لنا هنا وهناك في أبيات ينثرها في طيات قصائده .

وأول ما نلاحظه اهتمامه بالصدقة والعلاقات الإنسانية ، والروابط الأخوية بين الأفراد ، تلك العلاقة السامية التي تحكمها سلوكيات تزيد من وثوقها وتلاحمها . ويؤكد معنى وفائه لأصدقائه وأحبابه في قوله (١) :

لا أدعى الفضل قبل يشهد لي      به أدنى الدنا وأقصاها  
ولا أرى عليّ للصديق يداً      تفسد أنغامها بنعمها  
من اصطفاني بوده فله      عندي يد كالجبال صغراها

وكان من بين أصدقائه الذين وفي ضم ، وتبادل وإياهم رسائل المحبة والوفاء ، شعرا صديقه الشاعر أبو عبد الله الحسيني بن إبراهيم الرسي كتب إليه مرة :

لا شيء أحسن من خليلي غبطة      يتراضعان لبان كل وفاء  
هذا يُناجي ذا هوى ومحبة      أبداً ، ولم يستمتعاً بقاء

وفي الرسائل الشعرية المتبادلة بينه وبعض خلانته معان كثيرة من الود .

قال — وقد كتب بها إلى بعض أصحابه — وكان قد اعتذر هذا الصاحب عن أمر جرى منه (٢) :

(١) ديوانه ٤٣٩ .

(٢) ديوانه ص ٢٧٥ .

جِئْتَ مُسْتَجِدًّا لِعَفْوِ مُعَافِي  
 لِكَ مُرَادًا، وَلَا آتٍ عَنْ خِلَافِ  
 لِلغَيْبِ وَالوَلِيِّ الصَّانِي  
 مَ مَا لَا تُحْصِيهِ مِنِّي القَوَافِي  
 عَنْكَ مِنِّي ، وَلَا حِفَاطِي بِعَافِي  
 ذَلِ إِذْ فَنَدُوا بِسْمِ زُعَافِي  
 عَرِيَا مِنْ قَوَادِمِ وَخِرَافِي  
 شَاكِرٌ حَامِدٌ وَجَازٍ مُكَافِي  
 مِنْ صَفَا وَدَّهَ صَفَاءَ السُّلَافِي

وقد قبلنا اعتذارك المحض لما  
 وصفحتنا عن زلة لم تكن من  
 وقد علمنا أنك الخليص الحافظ  
 لك عيني - ففر عيناً من المكند  
 ليس نصري لك الغداة بناء  
 كم سقينا عندك عند الإمام الع  
 وكسوتنا ريشاً جناحيك لما  
 وأنا في الجميل عنك لنفسي  
 إنني ناظر إليك بعيني

وتطوى هذه الآيات على معاني وسلوكيات محبة في العلاقة بين الصديقين والمحبين . معاني التواصل ، والصفح عن الزلل غير المقصود ، والتماس العذر للصديق ، وعدم تصديق ما قد يقع إلى سمعه من حاسد أو حاقد أو مبغض أو ناقم ، أو غير راضى عما بين الصديقين من تواد وتواصل ، وانتصار للصديق في مواقف الضيق ، والوقوف إلى جانبه ومساندته عند حكم عدل كل هذا إلى الوفاء وجزاء كل عمل جميل من الصديق بما يستحقه من جزاء مقابل ، والتقرب إليه بكل ما يحفظ لتلك الصداقة متانتها ، ويشد من أزرها .

وأنا في الجميل عنك لنفسي  
 إنني ناظر إليك بعيني  
 شاکرٌ حامدٌ وجازٍ مُکافی -  
 من صفا ودّه صفاء السُّلافِ

ومعاني حلوة ، ليتها تكون دستوراً للعلاقة بين الناس ، فتصفو لهم الدنيا ، وتحلوا من الكدر كصفاء السلاف !!

ومع ذلك فالنفس الصافية قد تلقى في الحياة نفوساً مظلمة ، وكثيراً ما هي فتعاني ضد ما ترغب فيه ، وتعتصر ألماً لما تلقاه على غير ما تحب .. من قلة الوفاء والنكران . ولا أشد دلالة من هذه الصرخة (١) :

وَلِي فَتِيحَتْ لِلنَّاسِ كَلَّ غَرِيبَةٍ  
 وَمِنْ كَانَ ذَا عِلْمٍ بِأَهْلِ زَمَانِهِ  
 وَأَنْتُمْ لَا يَسْتَرِقُ حِفَاطَهُمْ  
 وَمِحْكَمَةٌ يَنْشَقُّ مِنْهَا الصَّفَا الصَّلْدُ  
 تَيَقَّنَ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَعْدُ  
 وَفَاءٌ ، وَلَا يَفْنَى لَهُمْ أَبَلَا حِقْدُ

(١) ديوانه ص ٣٤٠ .

إِذَا فَرَقُوا أَبَدًا وَدَادًا وَذِلَّةً وَأَنْفُسُهُمْ حَرْبٌ وَأَلْسِنُهُمْ لَدٌّ

أولئك الذين جمدت قلوبهم ، وخربت نفوسهم ، لا خير يدفع إليهم بنافع لديهم ولا يسترق حفاظهم وفاء ، ولا يفنى لهم أبداً حقد ، فيهم اخلاق العبيد ، إذا خافوا توددوا وأبدلوا المحبة والصفاء ، وإذا أمنوا ، تَنَمَّروا ، وانقلبوا ، وغدروا ، وأوقعوا ، ووقعوا ، وسلطوا ألسنة لَدًا !! .

تميم الإنسان الملعَّب في سعيه ، وفي حظه ، والمعذب في علاقاته ، لاشك تمر به لحظات من الضيق ، فلا يجد غير الشكوى ؛ الشكوى من الزمان والناس ، والشكوى من هذا الحظ العاثر .. فنفسٌ شقية تنفث همومها ؛ يقول (١) :

أَقُولُ أَسْرِبُ مِنْ حَمَامٍ عَرْضَنَ لِي وَيَسْكُنُ فِي خَضْرَاءِ نَاعِمَةِ الرِّبَا بَوَارِخٍ لَا يَحْشَيْنَ بَيْنًا وَلَا تَوَى فَقُلْتُ هَنِيئًا لِلْحَمَامِ أَمَانُهُ أَسْرِبُ الْحَمَامِ لَوْ لَقِيتُ بَعْضَ مَا وَلَوْ قَدْ عَلِمْتُ الَّذِي أَنَا عَالِمٌ وَمِنْ جَرَّبِ الْآيَّامِ تَجْرِبَتِي لَهَا فَحَسْبُكَ يَادَهُرُ، اصْطَلَيْتُ بِنَارٍ مِنْ وَأَكْثَرَ مَا أَهْجُوكَ يَا زَمَنِي بِهِ ذِمَّتْكَ يَا صَبْرُ الْخَوَارِثِ فَانْتَصِرْ	يَغْرَدُنَ مِنْ فَوْقِ الْعُصُونِ وَيَنْدُبُنَا أَنِيقَةَ رَوْضِ النَّبْتِ، أَنَسَةَ الْمُغْنَى رَوَاتِعٍ لَا يَعْرِفُنَّ هَمًّا وَلَا حُرْنَا وَإِنْ كَانَتْ الْآيَّامُ لَمْ تُعْطِنِي أَمْنًا الْأَقْبَى لِأَصْبَحْتُنَّ أَوَّلَ مَنْ يَضُنِّي لَمَّا نَاحَ مِنْكُمْ هَاتِفٌ، لَا، وَلَا غْنَى دَرَى أَنَّهُ لَيْسَتْ تَدْوُمُ عَلَى مَعْنَى لَوْ أَنَّكَ سَمٌّ فِي تَرَاقِيهِ مَا أَنَا مِنَ الْفِعْلِ أَنِّي لَمْ أَحْسِنُ بِكَ الظَّنَّ وَسُوْنَاكَ يَا رَبَّ الزَّمَانِ فَخُذْ مِنَّا
--	--

وتلاحمت هموم الشاعر وأحزانه مع هموم قومه وعشيرته من الشيعة الذين يحسون في أعماقهم اضطهادا وظلما، ذروته وحدثه الدامي مأساة الحسين، التي كنفتم الظلم الواقع عليهم من المجتمع الإسلامي ككل .. وتراه في مناسبة هذه الذكرى الأليمة ذكرى استشهاد الحسين في كربلاء تفيض نفسه بأبيات ينوح فيها نوح الحمام ، ويثن أنه المكلم . يقول في واحدة :

أَعَادِلْ لِي مِنْ فَسْحَةِ الصَّبْرِ مَذْهَبٌ ثَوْتُ لِي أَسْلَافُ كِرَامٍ بِكَرْبِلَا	وَلِلَّهِوْ غَيْرِي مَأْلَفٌ وَمَصَادُ هَمُّ لَشُعُورِ الْمُسْلِمِينَ سَدَادُ
--	--

(١) ديبانه ص ٤٣٧ .

وعاجلهم بالناكين حصاد  
 وجار على آل النبي زياد  
 وكادوهم والحق ليس يكاد  
 عليهم رماح للتفاح جداد  
 دهاهم بها للناكين كباد  
 بها جئت الأبرار ليس تعاد  
 جواد إذا أعبى الأنعم جواد  
 وجوه بها كان النجاح يكاد  
 وجزى لمن عاذاهما وبعاد  
 فيقطر حزناً أو ينوب فواد  
 أكل قلوب العالمين جماد ؟

أصابتهم من عبد شمس عداوة  
 فكيف يلد العيش عفواً وقد سطا  
 بثارات بدر طالبوهم ومكة  
 فحكمت الأسياف فيهم وسلطت  
 فكم كربة في كربلاء شديدة  
 وكم بأعالي كربلاء من خفاير  
 بهما من ينسى الزهراء كل سيديع  
 معرفة في ذلك التراب منهم  
 فللهي على قتل الحسين ومسلم  
 ألا كيد تفنى عليهم صباة  
 ألا مقلّة تهجي ، ألا أذن تعي

والإنسان في مسيرته الدنيوية يحس بالموت كلما زال عنه رونق الشباب ، أو جافته أحداث الدهر وتصاريفه ، وليس كشاعرنا إحساسا بالموت لحصلتين الأولى أنه شيعي وأن موت الحسين في مأساته إحساس دائم مسلط على نفوس الشيعة ، فهم في حزن أبدي ، والموت عندهم ملجأ ومهرب أحيانا ، ونهاية وعدمية تقلق الجسد الحي ، وإن كانت تسعد الروح لفكاكها من قيد المادة ، وظلم الطين ، وظلمته .

وأبيات تميم هذه تردد المعاني نفسها :

يُرَدُّه عَلى من حيا  
 فللرى شيم بريق الطبا  
 على طول مسراه يشكو الوجى  
 ولم تخل أحشاؤه من جوى

خليلي بي ظمأ ما أراه  
 فلا تستشيماً بروق السحاب  
 أعينا أحمأ لكما لم يث  
 ولم يسترخ قلبه من أسى

## تميم الشاعر المستمتع الفنان

عاش تميم حياة حافلة ، جمع فيها متع الحياة ، لم يترك فرصة تفلت من بين يديه إلا واقتنصها ليتذوق جمال الدنيا ، ويعبُّ مما تحفل به من الجمال واللذة .

لذا تراه يمارس لذات الحياة بين الخمر والنساء واللهو والصيد والطرب ، والتنزه في الروضات ، وأشباع العين من جمال الدنيا ومفاتيح الطبيعة .

أحب تميم الحياة وعبُّ منها ، وربما كان منشأً على ذلك طبيعة وخلقة ، وأتاحت له حياة القصر ، وثناء الإمارة كلّ ما رغب فيه فلم يغب عنه وطر ، ولم تقصر همته عن صيد لذة .

والخمرُ من لذات الشاعر القديم والمحدث ، ألم يقل امرؤ القيس :

كأني لم أركب جواداً للذة      ولم اتبطن كاعباً ذات خلخال  
ولم اسبأ الزق الروى ولم أقل      لخلي كرى كرة بعد إجفال

فاللذات الأربع التي ذكرها امرؤ القيس : المرأة والصيد والخمر والغارة ، جمع منها تميم ثلاثاً وأضاف إليها اثنتين هما حب الموسيقى والغناء ، والتغلى من جمال الطبيعة ومباهج الحياة .

وشارك الشاعر في حب الخمر من سبق من رصفائه منذ امرؤ القيس وطرفة والأعشى والأخطلى وأبي النواس . وهو يشربها ليتسلى ويدفع هموم النفس ، ألم يقل فيها الشعراء أنها جالبة للمسرة !! يقول (1) :

قهوة تهزمُ الهُموم إذا ما      نازلتها وتطربُ الندماء  
إن دعيتها الأنوفُ فاحت عبيراً      أو رنتها العيونُ لاحت ضياءً  
فهى كالوردِ حمرةً وذكاء      وهى كالليلثِ جراءةً ولقاءً

وله كأبي نواس زورات ليلية إلى دور الخمر وحاناته ، ومن ذلك قوله يصف زورة إلى خمارة امرأة شمطاء ، يقول فيها :

فأفضى بنا الإدلاج بعد تعسّف      إلى زوالة شمطاء منزلها رخبُ  
مؤنرة أما أبوها فقيصرٌ      وحسبك ملكٌ جدّه قيصرٌ حسبُ

(1) ديوانه ص ٢٣ .

قَصِيرِيَّةٌ دَيْرِيَّةٌ هِرَقْلِيَّةٌ      تقاصر منها الخطر وأحدوذب الصلْبُ  
وقالت لنا أهلاً وسهلاً ومرحباً      قليل لكم منى البشاشة والرحبُ

ولكن الأمير وهمومه تتمزج بلذاته ، بل إن هموم الأمير قد تتأني على لذاته وتستعصى ، ويريد أن يصرّفها بالسلوى والإنغماس في ملاذ الحواس ، فتراه في ممارسته لمتعته مع من أحب ، أو وهو يعب كأس الشراب ، تقتحم عليه صفو اللحظة خواطر الإمارة ، ومرارة الذكرى لما عاناه فيما اشرنا إليه ، فيقول مازجا الألم باللذة بعد حديث تنعمه بوصول الحبيب الذى بات ضجيجته (١) :

ولمى لألقى كلَّ خطبٍ بمُهَجَةٍ      يهونُ عليها منه ما يتصعَّبُ  
واستصعبُ الأهوالَ في كلِّ موطنٍ      ويمزجُ لى السِّمَّ الرَّعافَ فأشربُ  
وأغضى على مثل الأسنّةِ صابراً      ولو شئتُ لم أصبرُ وللسيفِ مضربُ  
ولستُ بإقبالٍ وإن سرَّ فارحاً      ولا من عجبٍ يعجبُ الناسَ أعجبُ

والخمر في زحمة تلك الهموم لا تقوى على مغالبتها ، فيقول :

تحليلي ما فى أكوس الرّاج راحتي      ولا فى المثاني راحتي حين تُطربُ (٢)  
ولكنني للمعجّد أرتاحُ والغلا      وللجودِ والإعطاءِ أصبرُ وأطربُ

ومع هذا فهو لا يقوى على ترك لذاته ، فهي تشده إليها وكأنه خلق لها وخلقت له ، يجمع إلى الخمر المرأة ، وله معها جولات .

تميم والمرأة :

والمرأة فى شعر تميم ليست صاحبة ، ولا زوجا ، بل هى غالبا غانية أو قينة ، من نساء المتعة ، تمتعه حسا ، بمتع الجسد ، وصوتا ، بلذة الغناء . وغزله عامة يدور فى هذا المجال ، وهو رقيق مناسب لموضوعه . يقول (٣) :

وابأبى الظبى الذى لو بدأ      للبيدرِ قال البيدرُ وأظلمتاهُ  
أثرثُ الألاحظُ فى خلدِهِ      فانتصفتُ منى له مُقلتاهُ  
ثم رمى قلبى بالأحاظِ      وابأبى ألاحظه من رُماهُ  
كم سفكتُ أجفائه من دمِّ      نمتُ عليهنَّ به وجنتاهُ

(١) ديوانه ص ٤١ .

(٢) وتروى « تُضرب » والمثنى الأثرث الثانية بعد الأول فى العدد .

(٣) ديوانه ص ٣٩ .

يا قوم ما بآل ظلاماتنا  
 فتمنع المحبوب من زهوه  
 لا تطلبوا خلقاً بقتلى سيوى  
 لو قيل لى ما تشتهى لم أقل  
 يا من برانى حبه وانتهى  
 منعتى الطيف بمنع الكرى  
 والله لا أنسى لها قولها  
 متى استوث في الحب أقدارنا  
 فى الحب لا ينظر فيها القضاة ١٩  
 وتنصف العاشق ممن جفاه  
 فواتر اللحظ وورد الشفاه  
 شيئاً سيوى قلع عيون الوشاه  
 لى العنا من هجره منتهاه  
 منى فكدرت على الحياه  
 من تحلف سيحف الستر واضيعته  
 حتى أواتيه وأبني رضاه ١١

غزل رقيق ، فى بسيط من اللفظ ، وتدلّه ظريف ، مع عبارات جاربه من متداول الحديث ، عاميه ، لكنها تظرف فى سياق هذا الخطاب ١

والشاعر كغيره من الغزلين يكثر من حديث أحواله مع المرأة ، وتقلبها بين اللقاء والفرق ، والشوق ولواعجه ، واللقاء ومتمعه بين تقبيل وعناق ودمع مجرى حرقه أحياناً ، وسعادة أحياناً ، يقول فى وصف الفرق فى تعبير رقيق لا كتعبيرات غيره مما ألفناه (١) :

ما ذم يوم الفرق إلا  
 أوله أنا وقوف  
 لا نتقى فيه عين واشى  
 إن هاج حرّ الوداع شوقى  
 لولا الفرق الذى دهانا  
 من غاب عن موقف الفرق  
 للثم والضم والعناق  
 ولا نذارى ذوى التفاق  
 فبالوداع اشتقى اشتياقى  
 والين ما أمكن التلاقى

ويردد هذه المعانى نفسها فى موقف الفرق ، وإن بدت متعارضة فيقول :

يوم الفرق أهاج لى حرقاً  
 قبلت من أهوى برغمهم  
 وارتبهم أنسى أودعهم  
 لولا الوداع يا مليحة ما  
 وشفى القواد وسكن الأرقا  
 فى الجهر لا خلصاً ولا سرقاً  
 وشربت قهوة خدجم دققاً  
 قبلت وجهك خمسه نسفاً

أرأيت هذا الظرف النواسى ، وكيف جمع بين لوعة الفرق ، ولذة العناق .

(١) ديوانه ص ٣٠١ .

وهكذا حديث تميم في غزله عندما تصفو نفسه من كدر الملك وأعبائه وهمومه ويخلو إلى نفسه ، ويرق ويعذبُ قولاً عن المرأة حين<sup>(١)</sup> يودّعها فيقول :

قالت وقد نالها للبين أوجعه      والبينُ صعبٌ على الأخبابِ موقعهُ  
إجعل يدَيْكَ علي قلبي فقد ضعفت      قواه عن حملٍ مما فيه أضلعهُ  
كأنني يومٌ ولت حسرةٌ وأسى      غريقٌ ببحرٍ يرى الشاطي ويمنعهُ

ويخاورها تارة فيلطف ، ويقول في دلِّ عمري :

قالت: أغدراً بنسأ في الحب! قلت لها      لا نال غاية ما يرجوه من غدرا  
قالت : فلم لم تزرنا؟ قال: زاركم      قلبي ، ولم يدري جسمي ولا شعرا  
قالت : كذا يكتم العشاق حبهمو      فينعمون ويحنون الهوى نضرا ؟  
قلت : اسمحي لي بتقبيل أعيش به      قالت : وأي محب قبلي القمرأ ؟

ويقول وفي قوله سمة الحضارة والامارة<sup>(٢)</sup> :

رأئتني وفسى كفسى ورد أشمهُ      وأرفعه حُباً على العين والحدُّ  
فقلت: ولِمَ لا يُذكرُ الوردُ بالوردِ      فقالت: تذكِّره وجنتي باحمرارِهِ

وينظر كذلك في رواية حديث دها تياهة ليقول :

شبهتها بالبدرفاستضحكت      وقابلت قولي بالنكر  
وسفّهت قولي وقالت متى      سمجت حتى صيرت كالبدنر  
البدنر لا يرئو بعين كما      آرئو ولا ييسم عن شعر  
ولا يميظ المرط عن تاهد      ولا يشد العقد في تحر  
من قاس بالبدنر صفاتي فلا      زال أسيراً في يدي هجرى

ويمزج تميم في شعره بين المرأة ومفاتها ومتعته بجمالها ، وبين الموسيقى والغناء ، فيجمع بين لذة الحس والنظر ولذة السمع والطرب ، ويرى أن الغناء جالب له السرور :

ليس إلا الغناء يُظهر بشي      ويُقوي على جيش السرور

(١) ديوانه ص ٣٠١ .

(٢) ديوانه ص ١٣٠ .



يا نديمي اُنْخِذْ سِوَايَ فَإِنِّي  
سِيمَا إِذَا بَدَأَ بِلَفْظِ رَجِيحِ  
لَسْتُ أَحْيَى بِلُؤْنِ مَشَى وَزَهْرِ  
وَتَرَوِي بِلَمَحْظِ طَرْفِ سَحُورِ

ويكشف عن متعة السمع ، وما يحدث الغناء من لذة فيقول (١) :

أَلَسْتُ تَرَى سَحَابَ اللَّهِوِي يَهْجِي  
وَرَجَعَ الزَّمْرُ يَشْكُرُ مَا أَلْفِي  
وَصَوْتُ الطَّيْلِ بَيْنَهُمَا يُنَادِي  
فِيأَلِّبُ مِنْ مُشَاهِدَةٍ تَجَلِي  
عَلَى اللَّذَاتِ أَمْطَارَ السُّرُورِ  
إِلَى الْأَوْتَارِ مِنْ أَلَمِ الزَّفِيرِ  
أَلَا هُبُوا إِلَى شَرْبِ الْكَبِيرِ  
بِظَاهِرِ حُسْنِهَا هَمُّ الصُّدُورِ

فالعناء ، والموسيقى بآلاتها بين مزمار وعود ، ويربط وجنك ، وطبل تطهر صدره من عناء الهم .

ويتذكر الحبيب في مجلس الغناء بين الكأس والزهر ، لا كذكرى عترة لعبلة وسط المعركة وبين قتام العجاج حين تلمع فيها السيوف كبارق ثغرها المتبسم ؛ يقول تميم في مجلس أنسه وطربه متذكرا محبوبه :

ذَكَرْتُكَ مَا بَيْنَ كَرِّ الْكُؤُوسِ  
وَقَدْ جَاوَبَ الزَّيْرُ فِي جَذْبِهِ  
وَقَدْ أَقْبَلَ اللَّهُوُ مُرْجِي الْعَيْنِ  
مَعَ الْبَمِّ تَرْجِيْعِ صَوْتِ الْمَثَانِي  
وَجَاوَبَ قَمْرِيَّةً فَاجَتْ  
وَعَالَتْهُمَا نَعْمَاتُ الْقِيَانِ

والزير ونز العود الرقيق ، وهو أحد الأوتار نغما ، والبم ، وتره الغليظ والشاعر في هذا الحفل الموسيقى الغنائى وسط الطبيعة ، بهج والدنيا كلها فرحة من حوله تتجاوب أغاني القيان مع نغمات العود ، وترانيم أوتاره مع شلو الطير بين أغصان الروضة ، ألا ترى كيف أحس الشاعر في أعماقه بالطرب ، وبأن الحياة كلها من حوله في وحدة حسية ، وسبحة وجدانية يخلق فيها ، بعيدا عن واقعة في أفاق من المتعة والرواء !

ومثله يقول في مقطوعة :

كَتَبْتَ يَا وَاحِدَ الْأَمْلَاكِ وَالْبَشْرِ  
وَقَدْ بَدَأَ النَّائِي فِي شَكْوَى صَبَابَتِهِ  
وَالرَّاحُ لَمْ تُبْقِ لِي لَبًّا وَلَمْ تَدْرِ  
مُجَاوِبًا لِأَنْبِيِ الطَّيْلِ وَالزَّيْرِ

(١) ديوانه ص ١٤٧ .

وَنَحْنُ فِي طَرْبٍ مَا مِثْلَهُ طَرْبٌ      يَسْتَصِحِّبُ اللَّهْسَ فِي مُسْتَقْبَلِ الْعُمُرِ  
وَفِي غِنَاءٍ إِذَا حَثَّتْ أَوَائِلُهُ      أَغْنَى التَّدَامِيَّ عَنِ الْأَنْوَارِ وَالزَّهْرِ

ويؤله أن يفقد من كان يغنيه ويشجيه ، ويذكر بفقده مجلس غنائه ومتعته ويرى  
في فقده ضياع دنياه ولذته ، ألا يقول في رثاء قينة مغنية (١) :

ذَكَرْتُكَ بِالرَّيْحَانِ ذِكْرَةَ      مُرْدَدَةً كَادَتْ لَهَا النَّفْسُ تُرْهَقُ  
فَلَمَّا تَنَاوَلْنَ الْغِنَاءَ شَوَادِيًا      وَاتَّبَعَ مَزْمُومًا مِنَ الضَّرْبِ مُطْلَقُ  
تَتَبَّعْتُ الْعَيْنَانِ شَخْصَكَ فِيهِمْ      فَلَمَّا نَأَى ظَلَّتْ دُمُوعِي تَرَقُّقُ  
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَقَدَهَا مِثْلَ مَا شَكَا      إِلَى اللَّهِ فَقَدَ الْمَاءَ عَطْشَانُ مُوْتِقُ  
كَأَنَّ فَوَادِي مُنْذَ بَانَ بِهَا الرَّدَى      جَنَاحٌ وَهَتْ أَجْرَاؤُهُ فَهُوَ يَخْفِقُ

صورة واقعية شجية ، رسمها الشاعر بكلماته الصادقة يعبر عن فقده لهذه  
المغنية التي غيبتها الموت فجأة ، لقد اعتاد التطلع إليها وسط ريفاتها في جوقة  
الغناء ، فيحظى طرفه باستجلاء جمالها ، ويحظى سمعه ، بعذب غنائها وغابت  
فتطلع الطرف يبحث عنها في لهفة وقد تردد صوت الغناء وارتفع الضرب وحلجل  
اللحن ، فلم نرها العينان ، وأحس الشاعر بالفقد فجرت دموعه وغاب عن  
مجلسه ليحس بأن الردى اختطف منه أنسه فاقتص من جناحه المخلوق في فضاء  
المتعة ، فهوى .

والطبيعة مكملة دائما للمرأة والخمر والغناء والموسيقى وكان غرامه بالطبيعة  
كغرامه بغيرها مما يحس فيه بأنس اللقاء ، ومتعة الاندماج والتسامي بوجوداته  
وأحاسيسه ، يستمع إلى الناعورة تن في حقول الفسطاط أو حولها في حلوان وعلى  
شاطئ نيل القاهرة ، تلور ويتدفق الماء من أضلاعها فيقول :

وَنَاطِقَةٌ كَلَّمَا حُرِّكَتْ      وَتَبْكِي وَلَيْسَتْ بِمَحْزُونَةٍ  
بَيْنَ إِذَا دَارَ دَوْلَابُهَا      وَتَنْطِقُ بِالصَوْتِ لَا مِنْ فَمٍ  
وَلَيْسَتْ بِنَاطِقَةٍ فِي السُّكُونِ      كَأَنَّ لَهَا مَيْتًا فِي الثَّرَى  
فَتُطْرِبُ سَامِعَهَا بِالْأَيْسِ      إِذَا زَمَرَتْ أَطْرَبَتْ نَفْسَهَا  
بِكَاءِ الْحَبِّ الْكَثِيبِ الْحَزِينِ      وَتَذَرِفُ بِاللَّمْعِ لَا مِنْ جُفُونِ  
فَأَدْمَعُهَا هُمُوعٌ كُلَّ حِينٍ      فَعَنَّتْ بِمَخْتَلِفَاتِ اللَّحُونِ

(١) ديوانه ص ١٥٠ .

وَيُظْهِرُ فِيهِمْ وَثْبَ الْمُجُونِ  
وَتَصْعَدُ مِنْهَا مَلَأَ الْعُيُونِ

غَنَاءَ يُرْقِصُ كِيْرَانِهِمْ  
وَتَهْدِي فَوَارِعَ وَ بَرِّه

ويقول فيها مرة أخرى :

لَمَّا شَكَّتْ حَرٌّ وَسَوَاسِيهَا  
وَدَمَعُهَا مَاءٌ قَوَادِيْسِيهَا  
هَامٌ مُلُوكٌ فِي نَوَاطِيْسِيهَا  
كَأَنَّهَا رِيْشٌ طَوَاوِيْسِيهَا  
قَامَتْ إِلَى قَرَجٍ نَوَاقِيْسِيهَا  
أَيْدٍ أَشَارَتْ بِدَائِيْسِيهَا  
مُضْفَرَّةَ الْأَحْدَاقِ مِنْ نُوبِيْسِيهَا  
مُفْتَرَّةَ بَعْدِ تَعْيِيْسِيهَا  
آثَارُهُ فِي لَيْلِنِ نَامُوسِيهَا

نَاعُورَةٌ أَتَتْ أَيْنِينَ النَّهْدِي  
أَيْنِيْنَهَا صَرَّةً تَدْوِيْرِيهَا  
كَأَنَّهَا الْكِيْرَانُ فِي بَرِّيْهَا  
تَقْدِفُ بِالْمَاءِ إِلَى رَوْضَةِ  
كَأَنَّهَا السَّرْوُ بِهَا نِسْوَةٌ  
وَيُحْسِبُ الْحَشْحَاشُ مِنْ حَوْلِهَا  
وَانْفَتَحَ النَّرْجِسُ عَنْ أَعْيِنِ  
وَأَقْحَوَانَ كَثُغُورِ الْمَهَا  
وَسُوسِنٌ كَالْفَرَسِ لَمَّا بَدَتْ

وفي الناعورة يقرأ الشاعر أشياء في صوتها ، ويسبح مع خيالاته مستلهما المعاني ونافثا من صدره تحيياتيه . والناعورة تسكن وجدان كل مصري فلاح أو من يمر بالحقول ويعيش في طبيعتها ومروجها الخضراء .

والشاعر كثير الخروج إلى المروج والبساتين فسكنت الناعورة وجدانه واستلهمها بعض المعاني ومزج في الناعورة صوت الطرب بالأنين ، أنين الشكوى من الزمن وأنين الشقاء في الهوى ، وتلمس في شعره عن الناعورة هذا الدفق الغريب لأحاسيسه المتعارضة كأنما عقله الباطن ينفذ من بين الكلمات ليعبر عن مواجهته ومواجهته وأفراحه وأتراحه فيمزج الأنين بالطرب ، وينثر ألفاظ الحزن والأسى من بكاء وحزن وكآبة ودمع مع الزمر والطبل وألفاظ الغناء والموت موت الملوك مع اصفرار الأحداق ورقص الكيزان وتفتح النرجس وتغور الأقحوان المبتسم كل هذه الأحاسيس المتعارضة المتضاربة ينفثها في هذا الكلم ويتخذ من الناعورة مادة لنفثاته ، ومعرضاً لمشاعره ومجلى لتجربته النفسية ، وتراه يكرر هذا الشجى الممزوج بالشجن ، والألم الممزوج باللذة ، والحياة الممزوجة بالعدم في حديث عن الشمعة من نفثة شعرية يقول فيها<sup>(١)</sup>

(١) ديوانه ص ٢٥١ .

وَقَاتِفَةٌ ظَلَمَةَ الْجُنْدِيسِ      إِذَا نَعَسَ النَّاسُ لَمْ تَنْعَسِ  
 مَتَوَجِّةٌ فَوْقَ يَا فَوْجِهَا      بَتَاجٍ مِنَ اللَّهَبِ الْمَشِيشِ  
 إِذَا أَوْقَدْتَ نَثْرَتْ أَدْمَعًا      عَلَيْهِ مِنَ الذَّهَبِ الْأَمْلَسِ  
 وَإِنْ نَامَ جُلَّاسُهَا لَمْ تَنَمْ      وَإِنْ جَلَسَ الْعَبْدُ لَمْ تَجْلِسِ

ويقول فيها مرة أخرى :

وصفراءُ تُكثِرُ إِيْنَاسَهَا      تَعِيشُ إِذَا قَطَعُوا رَأْسَهَا  
 تُغَازِلُهَا الرِّيحُ فِي مَرِّهَا      وَلَكِنْ تُقَطِّعُ أَنْفَاسَهَا  
 وَلَمْ أَرْ مَنْ قَتَلَتْ نَفْسَهَا      سِوَاهَا لِتُسَعِّدَ جُلَّاسَهَا

ولذة الصيد والطراد هي من ملاهي الملوك والسادة ، منذ الجاهلية الأولى جمعها امرؤ القيس إلى متع الخمر والنساء . كذلك فعل غيره من مرفهي الشعراء بعده على اختلاف العصور ، واتخذوا للطرد وزن الرجز ليتلاءم الإيقاع مع المضمون . ونذكر بهذا طرديات أبي نواس وما جمعه كشاجم في المصايد والمطارد . يقول تميم يصف فرسه في طرده للصيد :

مستكمل التحجيل مستوفاه  
 أديمه وبطنه أشباه  
 مخالف أسفله أعلاه  
 بدهمته قد ملأت قرأه (١)  
 وانصبغت منه أليته  
 فهو دجى يحمله ضحاه  
 تسبق أقصى لحظه حطاه  
 لا يطا الترب ولا تلقاه  
 رجلاه في العدو ولا يذاه  
 كأنه يطير في مجراه  
 إذا دعا ليث القلا لباه  
 أسرع للشئ إذا ابتعاه

(١) قرأه : ظهره .

من مَبْلَغِ السَّهْمِ لِمُنْتَهَاهُ  
 مُرْتَبِطُ الرَّجْلِ بِمَا يَرَاهُ  
 كَاللَّفِظِ مُلْتَفِئاً بِهِ مَعْنَاهُ  
 تَحَسُّدٌ مِنْهُ يَدَهُ رِجْلَاهُ  
 يَسْبِقُ أَنْحَرَاهُ بِهِ أَوْلَاهُ

وهو وإن كان قد فصل معنى امرىء القيس في وصف فرسه حين قال :

مِكْرٌ مِقْرٌ مِقْبِلٌ مَدِيرٌ مَعاً كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عَيْلٍ

ووصفه بأنه قيد الأوابد ، إلا أن إيقاع الرجز وتفصيلات الحركة السريعة التي  
 تتبعها مع أعضاء جواده أرجله وبطنه ، اكتسبت أبيات تميم إيقاع الطرد وثبت فيها  
 حيوية الأقبال والادبار وسرعة العدو . ويتصل بهذا الموضوع الصيد حديثه عن  
 البازي من طيور القنص حيث يقول (١) :

وَأَشْهَبُ مَخْلِبُهُ شَبَاهُ  
 كَلِّ ذَوَاتِ الرِّيشِ مِنْ عِدَاهُ  
 بَاتَ يَهْبِيجُ جَوْعَهُ عِدَاهُ  
 كَأَنَّ فَصِيَّ ذَهَبٍ عَيْنَاهُ  
 يَكَادُ أَنْ يَحْرِقَهُ ذَكَاهُ  
 لَوْ طَلَبَ الكَوْكَبَ لِالْتِقَاءِ  
 بَيْنَاهُ يَبْغِي جَائِعاً قَرَاهُ  
 إِذْ وَقَعَ الحَبْرَجُ فِي رُوَاهُ (٢)  
 وَحَلَّهُ القَابِضُ مِنْ يُسْرَاهُ  
 وَطَارَ يَهْوِي نَحْوَهُ يَغْشَاهُ  
 حَتَّى إِذَا قَارَبَهُ عِلَاهُ  
 بِوَقْعَةٍ هَدَى بِهَا قَوَاهُ  
 كَمَا وَهَى مِنْ شَطْنِ رَشَاهُ  
 ثُمَّ بَدَأَ وَهُوَ عَلَى أَقْفَاهُ

(١) ديوانه ص ٢١ .

(٢) الحبرج : من طيور الماء .

وَيْسَ مِنْ فَوَائِدِهِ حَشَاةُ  
مُخَصَّبًا مِنْ دَمِيهِ تَرَاهُ

وإذا كان الشاعر قد وصف البازي من طيور الصيد ، وتبع هذا الطير الجارح يفتال فرائسه من البغاث ، فقط تعاطف مع نوع آخر من الطير اتخذه الشعراء أليفاً ونجياً ، أعنى الحمام ذلك الوديع النائح ساكن الطلح ، أو القمري الغرد في الروض ، ويعرض لهذا الطير في معرض الذكرى والنسيب والشوق إلى الحبيب كغيره من الشعراء المحبين ، والذكرى تجمع العاشقين ، فالحمامة تبنى الهديل التنازع .

والشاعر يقول :

وَعَرَّدَ فِي أَعْلَى الْأَرَاكِ حَمَامٌ	أَنَّ نَاخَ قَمْرِي بَعْضِنِ بَشَامَةٍ
لَهُ بَيْنَ أَحْنَاءِ الضُّلُوعِ ضَيْرَامٌ	أَهَاجَ لَكَ التَّدَاكُرَ شَوْقًا كَأَنَّمَا
وَهَلْ بَعْدَ تَوَدِّيعِ الْحَبِيبِ مَقَامٌ	تَحْلِيلِي هَلْ بَعْدَ الْفِرَاقِ تَوَاصَلٌ
عَلَى الْقَرَبِ مِنِّي ، وَالذَّنْوِ حَرَامٌ	دَهْتِنِي النَّوَى حَتَّى كَانَ أَحْبَبِي
وَأَوْهَى جُمَانَ الدَّمِجِ وَهُوَ سِجَامٌ	وَمِمَّا اسْتَهَامَ الْقَلْبَ وَهُوَ مُصَدِّعٌ
وَتَسَهَّرُ فِيهِ اللَّيْلَ وَهُوَ نَمَامٌ	مُطَوَّقَةٌ وَرَقَاءُ تَنْدُبُ شَجْوَهَا
عَلَى تَوَجِّهٍ مَشْهُورَةٍ وَغَرَامٌ	تَنُوحُ بِلا دَمِجٍ ، وَلِلْحُزَنِ آيَةٌ
كَأَنَّكَ مَمْنٌ أَسْكُرْتُهُ مُدَامٌ	أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكِ مَالِكٌ وَالْهَاءُ
وَكَلَّ مُجِبُّ الْفِرَاقِ يُضَامٌ	كَلَانَا مُجِبُّ صَدْعِ الْبَيْنِ سَمَلَةٌ

ويغرم الشاعر بجمال الطبيعة ، رياضها ، وأزهارها ، وهو عاشق للزهر يتوسم فيه جمال الخلقة ، وبدع الخالق ، يرى اللينوفر زهر الماء المشوب بزرقه ، والذي يتفتح للشمس بالضحي ، فيشارك الشاعر نشوة الصبوح يقول (١) :

يَقْضِي بِذَلِكَ شَوَاهِدُ اللَّيْنُوفِرِ	فَضَّلَ الصَّبُوحَ عَلَى الْعُبُوقِ مُبِينٌ
زُرْقِي وَحُمْرِي كَاخْتِلَافِ الْجَوْهَرِ	يَبْتَوُّ إِذَا انْبَسَطَ النَّهَارُ بِأَعْيُنِ
بُورُودِهِ خَوْفِ الرَّقِيبِ الْمَبْصِرِ	وَيُعْوَضُ تَحْتَ الْمَاءِ إِنْ هَمَّ الدُّجَى

وإحساسٌ تميم بالزمان ، وأنه ينقضي وينقضي معه الشباب ومجتمع اللذات

(١) ديوانه ٣٩٧ .

(١) ديوانه ص ١٧١ .

إحساس عميق ، يقتحم عليه ملذاته ، وينغص متعته بجمال الحياة لأن خيال الموت يراوده ، وهو بين الخوف منه والتعلق بأسباب الحياة في صراح محموم . يقول معللاً شدة إقباله على ملاحبه من زينة الدنيا ومفاتها(١) :

يا لا إثمى فى أن خلعتُ العذار	ما ترك الحُبُّ لقلبي العذار
الصبرُ أولى غيرَ أن الهوى	أحلاه ما لم يكُ فيه اصطبار
كم ولهى فيه وكم عبرتى	ومحرقى من غير نارٍ بتار
ولو تأملتُ وجدتُ الصبا	أخف من حُلم ثقيل الوقار
هل بعد طى العمرِ إلا الليلى	وهل وراء الشيبِ إلا البوار
عصرُ شباب المرءِ ضيفُ له	يمضى وأيامُ التصابي قصار
فخذ من اللذة من قبل أن	ينأى بلداتك بعد المزار

وبعد فقد عاش تميم حياته طولا وعرضا ، وانهب اللذات انتهابا ، وكأنه بهذا الصنيع يطرد هوما تطارده ، ويريد أن ينسى ثقل آنيته ، وقصر أيام العمر مهما طال ، ومجدتنا المقريزى عن حال الأمير الشاعر فى موكب له ببركة الحبش أيام الأعياد فيقول(٢) : « إذا جاء الليل خرج الأمير تميم بن المعز فى مائتى فارس بين عبيده بالعسس على المتنزهين بالبركة بالليل أيام الأعياد إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم وينصرفوا فيسكرون وينامون كما ينام الانسان فى بيته ، ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة .

ويركب الأمير فى عشارى ويتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة وطعاما وشرابا ، فإن كانت الليالى مقمرة وإلا معه من الشموع ما يعيد الليل نهارا ، فإذا مر على طائفة ، واستحسن من غنائهم صوتا أمرهم بإعادته ، وسألهم عما عز عليهم ف يأمر لهم به ، ويأمر لمن يغنى لهم وينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليلة ، ثم ينصرف إلى قصوره ويساتينه التى على هذه البركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنتقضى أيام الأعياد ويتفرق الناس . »

(١) ديوانه ص ٢١٧ .

(٢) خطط المقرزى ١٥٤/٢ .

تميم وهموم الحياة والنفس :

في شعر تميم نلتقى أحيانا بقصائد ذات نغم حزين ، ينفث فيها همومه ، ولعل أحزان الشيعة التقليدية ، تختلط بأحزانه هو فتخرج هذه الأبيات المليئة بالشجن ، ومنها هذا الرثاء لآل البيت :

أعاذل لي من فسحة الصدر مذهب  
ثوث لي أسلاف كرام بكر بلا  
أصابتهم من عيد شمس عداوة  
فكيف يلد العيش صفوا وقد سطا  
بثارات بئر طابوهم ومكة  
فحكمت الأسياف فيهم وسلطت  
فكم كربة في كربلاء شديدة  
وكم بأعلى كربلاء حفاثر  
بها من بنى الزهراء كل سميدع  
معرفة في ذلك التراب منهم  
فأهفي على قتل الحسين ومسلم  
ألا كيد تفنى عليهم صباة  
ألا مقلة تهجي ألا أذن تعي

وللهو غيري مالف ومعاد  
هم لشغور المسلمين سيداد  
وعاجلهم بالتاكثين حصاد  
وجار على آل النبي زياد  
وكادوهم والحق ليس يكاد  
عليهم رماح للتفاق جداد  
دهامهم بها للكائدن كباد  
بها جثت الأبرار ليس تعاد  
جواد إذا أعبي الأثم جواد  
وجوه بها كان التجاج يفاد  
وخزي لمن عاذاهما وبعاد  
فتقطر حزنا أو يدوب فواد  
أكل قلوب العالمين جماد ١٤

وفي هذا المجال من تحسرو على مقتل الطالبين من آبائه يعرض لزم العباسيين فيقول موجها إليهم الإتهام باغتصاب الخلافة :

زعمتم أنكم لنا غضبا  
لا ندعي ما ليس يعرفه الوري  
وإذا تصنع للعلا متصنع  
شرف تيته لنا البتول وبعلمها  
واستودعوه بعدهم أبناءهم  
نحن الذين بنا الكتاب منزل  
فتمم ، وبالزعم يخطلكم والدعا  
منا إذا كذب المفاجر وادعي  
لم نأت أفعال الجبيل تصنعا  
وأبناؤها ، حتى رسا وتمنعا  
فبنوا عليه وشيلوا المستودعا  
وبنا يجيب الله دعوة من دعا

ويقول معرضا بالأموية (١) :

(١) ديوانه ص ٤٥٩ .



إلى وآبائى وقد	مى والكرام الأحمديّة
ذاقوا الردى وتجرّموا	بيد الدعيّ ابن الدعيّة
بيد العويّ ابن العويّ	ابن العويّ ابن العويّة
الناقضين الناكسين	على الشريعة والبريّة
البائعين صوابهم	في كلّ أمر بالخطيّة

ولموم الشاعر أسباب أخرى غير ما زرع في وجدانه بإعتباره علويًا فاطميًا من أحزان مقاتل العلويين واغتصاب الأمويين والعباسيين لحقهم ، فنراه يذم الزمان ، بادئا الحديث بمنجاة الحمام ، فيقول :

أقول لسرب من حمام عرضن لي	يغرذن من فوق العصور ويندبنا
ويسكنن في حضراء ناعمة الربا	أنيقه روض التبت ، آنسة المغنى
بورح لا يخشين بيتا ولا نوى	روابع لا يعرفن همتا ولا حزنا
فقلت هنيئا للحمام أماته	وإن كانت الأيام لم تعطني أمنا
أسرب الحمام لو لقيتسن بعض ما	الاقى لأصبحسن أول من يضننى
ولو قد علمتن الذى أنا عالم	لما نأخ فيكم هاتف ، لا ولا غنى
ومن جرب الأيام تجربتى لها	درى أنها ليست تلوم على معنى
فحسبك ما أهجوك يا زمنى به	من الفعل أنسى لم أحسن بك الظنا
ذمتك يا صرف الحوادث فانصبر	وسؤناك يا صرف الزمان فخذ منّا

ويشكو هذا الظما النفسى ، فيقول في قصيدة يمدح أخاه العزيز تزارا :

خليلى نى ظمًا أراه	يُرده علل من حيا
فلا تستشيمًا بروق السحاب	فأجدرى شيم بريق الظبا
أعينا أخوا لكما لم يبت	على طول مسراه يشكو الرجى
ولم ينشرح قلبه من أسى	ولم تحل أحشاه من جوى

كذلك وفاءه وصافى الصدق في علاقته ، يقول (١) :

لا شىء أحسن من خليلي غيطة	يتراضعان لبان كل وفاء
هذا يتاجى ذا هوى وتحافظا	أبدأ ولم يستمتعا بلىساء

(١) ديوانه ص ٣١ .

ويقول في المعنى نفسه :

لا أدعى الفضل قبل يشهد لي      به أدانى الدنيا وأقصاها  
ولا أرى لي على الصديق يداً      تُفسد إنعامها بنعمها  
من اصطفاني بوده فله      عندي يد كالجبال صغراها

وشعره المتبادل مع صديقه أبى عبد الله حسين بن إبراهيم الشريف الرسى يكشف من صداقة وثيقة ، تبادل فيها الصديقان أجمل مشاعر المحبة والوفاء<sup>(١)</sup> .

صنعتة الشعرية :

يبدو من شعره أنه شاعر موهوب ، أو هو شاعر بالفطرة ، يحس الجمال ويعيشه بجوارحه ، ويتعاطف مع مجاليه في كل مظهر ، في الإنسان والحيوان والطيور والنبات والجماد ، ويقرأ قسماته في الشكل واللون والصوت والحركة . أحس الشاعر بموهبته ، فاقبل على الشعر ، ولم يبخل عليه الشعر بوارداته ، وأفانينه بل أعطاه ، ما فرغ له .

لاحظ النقاد في صنعتة الشعرية أشياء تتصل باللفظ ، ولم يكن متكلفاً لكلماته ، بل ساقها كيفما خطرت على باله ، لم يعن نفسه في البحث عن كلمة غريبة ، بل جاءت كلماته سهلة سلسلة ، قد تحس بأن الشاعر أحياناً لم يراجع نفسه فيها بل تركها تنفذ وتأخذ مكانها من نظمه ، فهو ليس من الشعراء الصناع المتكلفين ، ولا النظاميين المحترفين .

وقد اتهمه بعض حساده ، والحاقدين بأنه لا يصنع شعره بنفسه ، بل هناك من يرفده ، وهذه إفريئة يرمى بها كل موهوب ، وقد وهب الأمير حظين في الحياة حظ الأمانة وعيش الثراء والنعمة ، والتمتع بكل أسباب النعيم ، وحظ الشعر فكان هدفاً لحسد الحساد وحقد الحاقدين .

ونجد في شعره رداً على هؤلاء ، ونفياً لاتهمهم إياه بالاعتماد على غيره . يقول :

أرى أناساً ساء بي ظنهم      في كل ما قلت من الشعر  
فقد تطاطا بهم علمهم      قاسوا بأقدارهم قدرى

(١) راجع ذلك فيما لى من شعر الحسين الرسى .

قالوا : سواءَ صانِعَ كُلِّ ما  
لو فهِمُوا أو عَقَلُوا لَأَسْتَحُوا  
قِيمُوا بِشِعْرِي شِعْرَهُمْ تَعَلَّمُوا  
من بَطَلِ الْحَقِّ هَجَا نَفْسَهُ  
فناظِرُونِي فِيهِ أو فاشْرَحُوا  
أولاً فقولوا : حَسَدٌ قَاتِلٌ

يَأْتِي فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ  
أَنْ يَجْعَلُوا الْمَرِيخَ كَالْبَدْرِ  
تَضَائِقُ النَّهْرِ عَنِ الْبَحْرِ  
بِجَهْلِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي  
شِعْرِي أَنْ أَنْكَرْتُمُوا أَمْرِي  
مُسْتَمَكِّنٌ فِي الْقَلْبِ وَالصَّدْرِ

ويقول أحد النقاد من درس شعره<sup>(١)</sup> : « ولا حاجة إلى القول بأن اهتمام الشاعر تميم بن المعز بن غيره كان يشاركه في عمل شعره إنما هو اهتمام يحتاج إلى دليل وها هو ذا ديوان تميم بن المعز كله على ضخامته بين أيدينا نقرؤه مرة ومرة ثم نُبدئ ونعيد النظر فيه ، ثم نتقل من صفحة إلى صفحة ومن قطعة إلى قطعة ومن قصيدة مطولة إلى أخرى ، فنجد النفس فيها مستويا لا دخل لنفس آخر فيه . »

ولعبت العصبية السياسية والدينية دورا في التقليل من شأن الشاعر وشعره بل وفي إهماله ، وإهمال أخباره وأحواله ، مع إفاضتهم في أخبار غيره ممن يقولون عنه شائنا ومكانة اجتماعية وفنية ، فلم يعره المؤرخون والمترجمون لحياة الأدباء من بعده الأهتمام الذي يستحقه لأنهم كانوا من أهل السنة ، فقد غلب هذا المذهب على مصر واضطهد علماءه كل من انتمى إلى الدولة الفاطمية أو تشييع من الشعراء والأدباء والعلماء ، وكان الإنكار والتجاهل والتخامل ديدن علماء الدولة الأيوبية التي أعقبت الدولة الفاطمية على مصر ، وجعلت همها نحو كل أثر لتلك الدولة إلا من عصم ربه من هذا التعصب من بعض الأدباء كابن سعيد المغربي الذي أشار إلى تميم في كتاب المغرب الجزء الخاص بمصر أكثر من مرة ، ونوه ببعض شعره في كتاب « عنوان المرقصات والمطربات » ، فاختر من شعره المرقص قوله متغزلاً :

أَطْلَعِ الْحُسْنَ مِنْ جِيبِنِكَ شَمْساً  
فَكَانَ الْعَنْدَارُ خَافَ عَلَى الْوَرْدِ

فَوْقَ وَرْدٍ مِنْ وَجْتِنِكَ أَطْلَا  
جَفَافاً نَمَدَ بِالشَّعْرِ ظِلًّا

ذلك أورد له صاحب الدمية قوله :

(١) محمد عبد الفتى حسن في كتابه الأمير الشاعر تميم بن المعز من منشورات دار الرفاعي بالرياض .

وباليلة بات فيها البدر مُعتَقِي  
 وبيت مُستَغْنِيَا بالتَّعْرِ عن بَرِّ  
 وأمست الشمسُ لي من بعضي جَلَامِي  
 وبالخُدُودِ عَن الشَّفَاحِ وَالْأَبِي  
 كما أورد بعضا من أبياته التَّونِيَة التي حاكى فيها عبد الله بن قيس الرقيات  
 وهي :

أَسْرَبَ مَهَاً عَن أُمِّ سِرْبٍ جَنَّةَ  
 أَلْتَنُّ أَنْجُمَ ذَا الْجِرِّ أُمِّ  
 حَكِيَّتُهُنَّ وَلَسْتَنُّ هُنَّ  
 بُرُوجُ النُّجُومِ جَلَابِيهِنَا  
 ولم أرغيدا سواكن مسن  
 فاشبهن في لينهن الأعنة

ويمكن من شعره أن ندرك حفظه لشعر كثير من الشعراء المعروفين ، ويجاول  
 عامدا أو غير عامد أن يستعين بصياغتهم ، أو قد تفلت على لسانه قوالب تعبيرية  
 لهم ، وتحس أحيانا في بعض أوزانه أنه وضع نموذجا لقصيدة شاعر بعينه أمامه  
 فاقتدى به أو تأثر بأسلوبه كهذه الأبيات التي اشرت إليها معتمدا قصيدة لابن  
 قيس الرقيات يقول فيها :

بَكَرْتُ عَلَيَّ عَوَازِلِي يَلْحِيَّتِي وَالْوُوهْنُ هُنَا  
 وإن لم يمثله وزنا بل قافية .

وعارض داعي الدعاة تميما على الوزن نفسه ، كما ركبها أيضا أبو العلاء ، في  
 قوله من اللزوميات :

لَأَمْوَاهِ الشَّيْبَةِ كَيْفَ غِضْنَةُ  
 وَرَوْضَاتِ الصَّبَا كَالْبَيْسِ إِضْنَةُ  
 وكما اقتدى بالمتنبي في مدحه العزيز بالله تزار إذ قال (١) :

مَا قَالَ أَوْهُ لَفَقِدِهِ وَاهَا  
 تَبْرُمُ النَّفْسُ مِنْ بَلَابِلِهَا  
 كُمُسْتَرِيحِ الْقَوْلِ أَوْاهَا  
 يُفْسِدُ إِقْرَارَهَا وَدَعْوَاهَا

وهما صياغة مماثلة لصياغة المتنبي في قوله : « أوه بدليل من قولتي واهاه » ، وكما  
 جاء في شعره يمدح أخاه العزيز كذلك :

أَرَى أَنَا سَا وَلَكِنْ جَلَّهْمُ نَعَمَّ  
 كَثُرَ قَلِيلٌ وَمَوْجُودُونَ قَدْ عُدُّوا

(١) ديوانه ص ٣٤ .

من قول المتنبي ووزنه :

أرى أناساً ومحصول على غنم

ونستطيع القول بأنه حين نظم هذه القصيدة كان مستحضراً في ذهنه قصيدة المتنبي الميمية هذه .

وكا يستعين بالشعر القديم ، فهو متأثر كذلك بأسلوب القرآن لفظاً وصياغة كقوله في ارجوزه مفتخراً بنسبه للنبي صلى الله عليه وآله (١) :

أنا ابن من شَفَعَ يومَ المحَشَرِ  
وابنُ الذي حُصَّ بنهرِ الكَوثِرِ  
وابنُ المعالي والفَخارِ الأشهرِ

ويقول مادحا العزيز (٢) :

يا حُجَّةَ الله التي أشرقتَ فينا ويا صاحبِ كنزِ الجِدارِ

يشير إلى قوله تعالى في سورة الكهف « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما » (٣) ، ويطلق الجدار في التأويل الإسماعيلي على الدعوة ، وكنز الجدار على الإمامة ومنه قوله مادحا :

يكفني عدوك أن الله يلعبه وإن كل قوادٍ عنه منقبض جئت الخِلافةَ لما أن دعوتك كما كالأرض جاد عليها الغيث منهبلاً ما أنت دون العالمين نبوي نور لطيف تناهى فيك جوهره معنى من العلة الأولى التي سبقت	وأنه لا يرى إلا على حنر وكل قلب له أقسى من الحجر واقى لميقاته موسى على قدر فزانها بضروب الروض والزهر روح من القدس في جسم من البشر تناهياً حاز جو الشمس والقمر تخلق الهيلى ويسط الأرض والمدر
--	---

قوله معنى من العلة الأولى يشير إلى مثل ومثوله العقل الكلي أو المبدع الأول الذي سماه هنا العلة الأولى ، وهذه كلها معانٍ من عقائد الإسماعيلية وبهنا هنا

(١) ديوانه ص ٢٤٠ .

(٢) ديوانه ص ٢١٩ .

(٣) سورة الكهف آية ٢٢ .

توظيفه لبعض عبارات القرآن الكريم في سياق معانيه التي مدح بها الخليفة كقوله : « كما وافى بميقاته موسى على قدر » وقوله روح من القدس وقد يستعمل مصطلح العقائد والملل كقوله : (١)

تَشِيْعُ الحُسْنُ فِيهِ إِذْ أَلَمَّ بِهِ وَقَلْبُهُ نَاصِيبِي لَيْسَ يُقْتَفَرُ (٢)

ويستخدم في بعض الأحيان من قاموس الشعر العربي القديم ألفاظاً لأسماء الأماكن والنبات والحيوان التي كثر دورانها فيه كقوله : (٣)

رَبِيعٌ لِأَسْمَاءَ يَرْتَعُ دَارِ بَيْنَ نَقَا الصَّمَانِ فَالضَّمَارِ (٤)  
تَأْبَدْتُ إِلَّا مِنَ الْإِقْفَارِ وَمِنْ شَجِيحِ فِي الثَّرَى مَوَارِ (٥)  
وَشَطْرِي نُؤْيِي دَارِيسِ الْأَثَارِ كَأَنَّهُ مُقْسَمُ السُّوَارِ  
أَخْنِي عَلَيْهَا كُلَّ غَادٍ سَارِ وَإِنِّي الرَّيَابِ شَابِجِ الْأَقْطَارِ (٦)

فهذه الأبيات من أرجوزة بدوية الطابع ، جاهلية البناء واللفظ والأخيلة والصور يقول فيها واصفا السحاب والمطر :

وَأِهِي الْكَلَى مُنْفَتِحِي الْأَزْرَارِ كَأَنَّ لَمَعَ بَرْقِهِ الْمُتَارِ  
يَفْتَرُّ مِثْلَ أَوَارِ الثَّارِ أَوْ مُتَنَضِّ سَيْفًا مِنَ الثُّنَّارِ  
أَوْ لَاعِبٍ فِي الْأَفْقِ بِالشَّرَارِ يَكَادُ أَنْ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَارِ  
حَتَّى إِذَا أَرْتَحَى عَلَى الْقِفَارِ هَيْدِبُهُ لَيْلًا بِلَا إِنْفَجَارِ  
وَكَحْلٍ الْجَوِّ بِمِثْلِ الْقَارِ وَقَامَ فِيهِ الرَّعْدُ كَالْمِزْمَارِ  
غَنَّتْ لَهُ الرِّيحُ بِلَا أَوْتَارِ مَا ظَلَّ فِي رَفِيعِ وَفِي انْجِدَارِ

ويحلو له أحيانا في مثل هذا الرجز البدوي أن يمتن بعض الرجاز المعروفين من أمثال رؤبة والعجاج كقوله (٧) :

- (١) ديوانه ص ١٣٢ .
- (٢) والناصبة عند الشيعة هم أهل السنة لأنهم نصبوا خليفة لهم من عند أنفسهم وتركوا صاحب الحق التشريعي وهو علي بن أبي طالب في رأيهم .
- (٣) ديوانه ص ١٧٥ .
- (٤) القمان والضمار مواضع بالجزيرة العربية .
- (٥) الشجيج الوتد .
- (٦) الرباب السحاب .
- (٧) ديوانه ص ١٨٠ .

ومصامت الخو بعيده الفرقد  
 مشته الأعلام جهنم المشهد  
 مررت الريا عارى العراء فدقد  
 يحار فيه كل هاد مهتد  
 صلد السباريت صليب الجلمد  
 يُمرض فيه الريح بعد المقصيد

والسباريت جمع سهروت وهو القفر لا نبات له .

ألا ترى كيف تبدى تميم وخلع عن نفسه ثوب الحضارة .

وأراجز تميم البدوية تنفرد وحدها عن قصائده ولها خصائصها الفنية المميزة .

وأما معانيه فكثيرا ما تلبس ثياب القديم ، أو قل هي الصور التقليدية للمعاني وإن كان يدخل عليها بعض التجديد من قاموس المحدثين والمولدين .

فمن تشبيهه للبرق بالسيف :

يلوح ويخبو في السماء كأنه  
 سيوف بأرجاء السماء تقلب

وهذا يذكر بيت الشعر القديم :

يبدو وتضمهر التلاع كأنه  
 سيف على شرف يسلم ويغمد

وكذلك معاني ذو الرمة في تعبيرة عن سلوكه الليل في الصحراء ومعه راحلته

وسيفه يقول (1) :

وليلة أسريت فيها ولا  
 كالمقلة الدعجاء زنجية  
 وصاحبي ذو رونق صارم  
 أنحف من ضعف نسيم الصبا  
 حتى طرقت الحى من وائل  
 والقوم من سوره كأس الكرى  
 بدر ينير الأرض إلا سرار  
 كافسرة لمع نجوم المدار  
 مدرج المتنين ماضى الغرار  
 حنا ، وأمضى من ظبا الأحورار  
 والجو مكحول النواحي بقار  
 كأنما يهملوا بصرف العقار

لكن الشاعر هنا يمزج ما أخذه من معنى ذى الرمة بأخيلة جديدة من عنده فهو يكسوه ثيابا جديدة فضلا عن تفصيله وتوليدته .

ومن صوره التشبيهية التي احتذى فيها المحدثين قوله يصف الروض غب

المطر (2) :

(1) ديوانه ص ٢١٧ .

(2) ديوانه ص ٣٠٤ .

أما ترى الرعد بكى واشتكى  
فاشرب على غيم كصبغ الدجى  
والبرق قد أومض فاستضحكا  
أضحك وجه الأرض لما بكى

اعتمد فيه قول الشاعر العباسي :

كل يوم بأقحوان جديد  
وعلى أن بعض معانيه الغزلية تجرى كذلك في صياغات القدماء وأساليبهم  
المعروفة من مثل قوله :

إن الطعائن يوم رحلة عاجل  
أبرزن من خلل الستور محاجرا  
واردن تسليما وخفن مراقبا  
وسمن عن كالدر ألس أشنب  
ملكن كل حشى لكل غرام  
مكحولة بملاحة وسقام  
فبعثه بإشارة الإبهام  
وسفرن عن كالشمس تحت ظلام  
حتى يقول :

لو كنت أفضى بالتناسخ في السورى  
ولانغماسه في لذة النساء والخمر تراه يشفق منها بعض تعبيراته ويشفق  
استعاراته ، من مثل قوله :

كان برد نسيم الغيم حين بدا  
ويغرب أحيانا في خيالاته وصوره فيصور خصلة الشعر مضربا وتفتح الخد  
كرة ، فيقول :

كأنما صولجان عارضيه  
وتكثر صورته الجديدة في موضوعاته الحضرية ، في خمرياته ، وغزلياته ،  
وروضياته .

يقول ذاكرة مجلس شراب وسط روضة غناء :

شربنا على نوح المطوقة الورق  
معتقة أفنى الزمان وجودها  
كأن السحاب الغرأصبحن أكؤسا  
وأردية الروض المنفوفة البلق  
فجاءت كفوت اللحظ أورقة العشق  
لنا ، وكأن الراح فيها سنا البرق



فبتنا نحث الكأس حثاً وإننا  
إلى أن رأيتُ النجمَ وهو مغرب

لنشرها بالحث صرفاً، ونستقي  
وأقبلن رايات الصباح من الشرق

ويصف الصبح مرة أخرى وهو يذوب على الهواء ، فيقول :

والصبح قد ذاب على الهواء كالثلج أو كالفضة البيضاء

وفي مجالس الخمر والطعام صورٌ شعرية لتلك المجالس ، يفيض عليها من خياله  
ضروباً من التعبيرات الاستعارية ، والتشبيهات الغريبة كأن يصف مجلساً له ويطلب  
إلى الساقى أو النديم أن يسقيه في وزن موافق وقافية بائية ساكنة ملائمة في إيقاعها  
لصخب المجلس . يقول (١) :

فقم إلى الراح فشب	بالماء منها ما صلب
وسقنى بنت العنب	وأقصر من اللهو الأرب
أما ترى العود اصطخب	وقد مشى الزمر خيب
والطيبل يحبو ويشب	والراح ترمى بالحبيب
تدور في غير قطب	تقتل سكرًا من شرب
إن ترم ندمانا تصب	فعقلسه لها سكب
لكن يعود عن كتب	فاشرب وثب من ذى النوب
ما لأن واترك ما صعب	وعد عن ليت ورب
فالدهر قدما ذو شغب	فاقطع لياليه طرب
فكم نأى ما قد قرب	وارتد مرا ما عذب
وتعاد بالأمن الرهب	والهم عجز وتعب

فهذه الباء الساكنة مع المجزوء الدافق لهذا البحر الذى اختار لإيقاعه مماثل  
صوت الطبل ، وتردد ضرباته ، في صحبة وعريته .

ويصف لنا مجلساً من مجالس العزيز بالله نزار غنى بأصناف الطعام والفاكهة  
والزهر فيقول :

ومجلس قد حاز من حسنه	مثل الذى حاز من المجد
يضحكك للتفاح نارجه	ويغمز النرجس للورد

(١) ديوانه ص ٧٣ .

وألبس النارج ما بينها      صفرة من عذب بالصيّد  
وانتصب الليمون من حوله      مثل انتصاب النهد للنهد

وفي صورة للطبيعة من رياض وبساتين يصور النرجس صورة خيالية فيقول ومن حوله النسرين والآس :

إذا رنا نرجسك المشتبه      بأعين فهين إطراق  
كأنما فاجأها كاشح      بكل ما تكره سباق  
فابيض منها لمناجاته      محاجر واصفر أحداق  
وابتسم النسرين من حوله      فهو صقيل الثغر براق  
واستأس الآسى من الملتقى      فهو من الرعدة خفاق

وفي صورة الخيالية للسحاب وقد انقشع فأطلت الشمس من ورائه لتلقى بأشعتها على الروض ثم تعود فتختفي (١) :

أو ما ترى شمس النهار ودونها      من مستهل الغيم ستر مسجف  
ينجاب عنها تارة فيبينها      وتغيب طورا في دجاه فتكسف  
فكأنما لبست قباء أزرقا      أو مد من خز عليها مطرف  
وبدا لنشر الروض من بعد الندى      ريح كريح المسك بل هي أشرف  
ورد حكى خجل الحدود ونرجس      يحكى العيون بأعين لا تطرف  
فعيون ذاك بعسجد مكحولة      وخلود ذا من عندم تغلف

فهو ينفق في صورة من ما عون بيته كما كان حال ابن المعتز ، فأدواته من الخز والمسجد وما إليها .

ومن غرائب خيالاته في التشبيهات المفردة قوله يصف السماء ليلا والنجوم تتخللها :

وكأن الدجى غدائر شعر      وكأن النجوم فيه مدارى  
وهي صورة غريبة في تركيبها ، وإن كانت جزئياتها مطروقة ، فتشبيه الليل بالشعر أو الشعر بالليل جار في كلام الشعراء ، لكن جعل النجوم كالمدارى تتخلل ظلام الليل أو سواد السماء ، فهذا هو الخيال الغريب .

(١) ديوانه ص ٢٢٢ .

كذلك تعبيره عن زوال الليل واشراق الصباح بنوره وهم في سكرة من كؤوس  
الخمر :

لم نزل نلثم الكؤوس إلى أن دفن الليل في فؤاد النهار

مرأى خيال غريب في قوله : ( دفن الليل في فؤاد النهار ) !

وصوره كما قلنا مأخوذة من عالمه الذي يعيش فيه ، عالم القصور بما تحوى من  
فاخر الرياش وأواني الذهب والفضة ، والحلى وثياب الخز والمطارف والطرز ومن  
الجواري الحسنان وصور الغلمان والعبيد من الروم والسودان ، ومن البساتين  
العامرة بألوان الزهور والتجار والمياه الجارية .

كما أخذها من مختزنه الثقافي ، من صور الشعر القديم ، ومن مختزنه التاريخي  
والعقيدى من سير الأسلاف ، وأحداث التاريخ ، وما اتصل منه بالأحداث التي  
لحقت بأئمة الشيعة والعلويين ، ألا تراه يوظف مقتل أئمتهم في قوله متغزلا (١) :

لا تمكن لحظ عينيك من قتلى فما اللحظ فيه بالمغدور

لا تكن للنبي فيه خصيما عند رب النبي يوم النشور

فما أنه أحد أبناء الحسين حفيد النبي ﷺ ، فإن قتله يغضبه ، فيكون  
خصيما يوم الحشر فلا يشفع له حين يشفع لأمة .

بناء القصيدة :

والقصيدة عند تميم عامة يتردد في بنائها بين القديم والحديث ويأخذ نفسه  
أحيانا بنهج شعراء العباسيين في القرن الثالث ، فيفلت من إसार القديم حين يخلو  
لأحاسيسه الذاتية ، ويبادر لذاته من خمر وغزل غير رسمي في مقدمات قصائده .  
وذكرنا أنه يبنى قصائده شعرا على أوزان الخليل المعروفة ، وإن كانت تروج عنده  
بحور بعينها يكثر من استخدامها ، كما يكثر كالمحدثين من مجزوات البحور .

وله بالرجز ولع خاص ، فهو غير قليل في ديوانه ، يمكن كما أشرنا أن يفرد ،  
ويصنع به صنيع أبى نواس ، يستخدمه في طردياته ، وهو لائق بها إيقاعا ويصف  
رحلات الصيد ، والخيال والبازي من طيور القنص .

(١) ديوانه ص ٢٢٢ .

رحلات الصيد ، والحليل والبازي من طيور القنصر ، كما يركبه أحياناً في وصف  
محاسن اللهور .

وتراكيبه الشعرية يعترتها الوهن أحياناً ، وتعوزه القافية المتمكنة فيأتي بأخرى  
قرينة تحس بقلقها في مواضعها ، فهو على سبيل المثال يصف جواده بالسرعة  
يقول :

يسابق البرق المثار بخطوه      ويزيد فيه على الصبا والشمال

تحمس هنا بأن القافية غير موفقة في موضعها ، فالمعنى يقتضى قافية أخرى ،  
هو يريد أن يصف سرعة الجواد بسرعة الريح ، وريح الصبا ليست ريحا قوية ، بل  
هي ريح رقيقة حبيبة لدى العشاق لأنها تحمل روائح الأحبة مع عطر رياض نجد ،  
وتترانها بالشمال غير موفق من الشاعر ، فالشمال ريح باردة ، تلقى بيدها  
يردها ، وتقذف وجوه الغادين بحاصبها .

ونثر في هذه القصيدة نفسها ببعض أبيات مختلفة التركيب كقوله :

فكأنما لبس الحدود ولاح في      جلد بريعان الضحى متسريل  
تخفى وراء قذاله من طوله      في السرج فارسه عن المستقبل

فضلا عما في البيتين من تهافت المعنى .

وترى أن القافية أقحمت على بيته الذي يقول فيه :

وبدا لنشر الروض من بعد الندى      ريح كريح المسك بل هو أشرف

فضلا عما تحسه من هلهلة في النسج .

وقد يلجأ تميم في بناء أبياته إلى الضرورة ، من تغيير في بناء اللفظ أو تحريك  
سلكن ، وتغيير لإعرابه ، أو لجوء إلى بنية شاذة ، ولفظ غريب وما إلى ذلك من  
ضرورات التي يلجأ إليها الشعراء لمواءمة الوزن ، والشاعر الذي يكثر من الضرورة  
غير متمكن من الصنعة ، ولا يملك زمام لغته .

ويستخدم الشاعر البديع من جناس وطباق ومزاوجة في نسيج شعره بقلر ،  
ولا يسرف فيه إسراف غيره من المحدثين العباسيين ، كما يستخدم في خيالاته  
تشبيه والاستعارة ، ويستعين بالتلميح والإشارة ليطلق كامن ما يوحي به من

مختزن المعاني والصور ، وما تستدعيه من صور ربطية ، وهو لا يفرق إغراق ابن المعتز ، وإنما يأتي بالتشبيه غالباً متسقاً مع موضوعه وخیالاته التي يطلقها .

وأما بناؤه الموضوعي للقصيدة ، فهو لا يلتزم بنسق بعينه ، وبالضرورة فهو لا يلتزم النظام التقليدي من البدء بالنسيب أو الغزل ثم الخروج منه إلى الرحلة والراحلة ثم يعدل إلى الموضوع .

وقد يلزم بجزئية من هذا النظام ، في بعض قصيده بلوى الطابع أو رجزه ، ولكنه كثيراً ما يعدد مسالكه ، وصور بنائه ، فيبدأ قصيدته مفتخراً أو شاكياً ، أو متغزلاً ، أو واصفاً لمجلس خمر أو مجلس غناء أو منظر روض .

وقد بدأ قصيدة المديح بحديث عن الغناء والموسيقى كأن يقول في مديح والده المعز :

شكا العود بالأوتار شجوا فأطربا وترجم عن معنى الضمير فأطربا

وكل هذه السمات التي نلاحظها في بناء تميم لقصائده شعره ترجع إلى أنه شاعر مطبوع ، غير صاحب صنعة محترف ، لا يقول الشعر تكسباً يراعي فيه ممدوحاً ، ويلائم بين قوله ، ومقامه ، لكنه يقول الشعر هواية يتغنى به ولا يعبأ كيف جاء ، ولا يعنى نفسه بتثقيفه أو إعادة النظر فيه . ومن هنا كانت هذه التلقائية التي تغرب به أحياناً ، والتي قد توقعه في أخطاء اللغة القياسية أو بعض تجاوزات إيقاع العروض الخليلي .

## الرّسّيون

وهم جماعة من شعراء الأشراف الحسنيين ينسبون إلى الشريف الرّسى أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٣٥٢ هـ بمصر في عهد كافور الإخشيدي .

ويختلط اسمه أحيانا بالشاعر الناقد الأصفهاني محمد بن أحمد بن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ هـ<sup>(١)</sup> صاحب كتاب عيار الشعر ، وكثيرا ما تناقل الكتاب أشعارهما ، ونسبة بعضها إلى غير صاحبها من الشعراء لاشتراكهما في الكنية « ابن طباطبا » .

ورقع في هذا الوهم ابن خلكان في ترجمته لأحمد بن محمد الرّسى ، حيث يقول<sup>(٢)</sup> : « ومن شعره المنسوب إليه في طول الليل ، وهو معنى غريب :

كأنّ نجوم الليل سارت نهارها      فوافت عشاءً، وهي أنضاء أسفارٍ  
وقد خيمت كى يستريح ركابها      فلا فلّك جابر ولا كوكب ساري

ثم وجدت هذين البيتين في ديوان أبي الحسن بن طباطبا من جملة قصيدة طويلة . ثم يقول بعد ذلك : « ولا أدري من هذا أبو الحسن . ولا وجه النسبة بينه وبين أبي القاسم المذكور . والله أعلم » .

ويشترك أبو القاسم الرّسى هذا مع جدّهما الأعلى إبراهيم المنعوت بطباطبا . فشاعرنا أبو القاسم أحمد ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم طباطبا . وأما صاحب عيار الشعر الأصفهاني الاقامة فينتهي إلى محمد بن إبراهيم طباطبا . وكلاهما يكنى بابن طباطبا . ومن هنا جاء الخلط .

ويبدو أن آل إسماعيل غادروا أصفهان إلى مصر واستقروا بها زمن الدولة الأخشيدية وبلغوا عند المصريين مرتبة رفيعة ، فتولى أبو القاسم أحمد نقابة الأشراف كما يقول ابن خلكان . يقول :

« الشريف الحسن الرّسى المصرى . كان نقيب الطالبين بمصر ، وكان من

(١) راجع مقدمة عيار الشعر ، بتحقيق المؤلف .

(٢) وفيات الأعيان ١/ ١٣٠ ، بتحقيق د. إحسان عباس ، طبع بيروت .

أكابر رؤسائها . ونسبته إلى الرس من بطون السادة العلوية على قول ابن  
خلكان (١) .

قال : « وله شعر بليغ في الزهد والغزل ، وغير ذلك . وينقل عن الثعالبي في  
اليمية بعض خيره وشعره » .

وكانت له علاقة بكاتب السر الحسن بن علي الأسدي . يذكر الثعالبي أنه  
بعث إليه يطلب كتابه المعروف « بالأنيس » ، فأجابه الأسدي شعراً بقوله :

قد بعثنا بمؤنس لك في الوحش      فيه ما يشتهي الأديب من العلم  
فيه ما شئت من بدور معاني      والنفيس البهي مازال يهدي  
سحابة خلت ، يدعى كتاب الأنيس      وفيه جلاء هم النفوس  
ضاحكات إلى وجوه شمس      كل حين إلى البهي النفيس  
فلما قرأ الرس رقعة كتب على ظهرها ارجالا :

قد قرأت الكتاب يا حل نفسي      فهو لي مؤنس ، وأنت الأنيس  
فهو تأليف ذي ذكاء وفهم      وهو وقف على العلوم حبيب

وما ذكره الثعالبي من شعره ، قوله يتغزل في ساق :

يا بنر بادير إلى بالكاس      فرب خير آتى على ياس  
ولا تقبل يدي فإن في      أولى بها من يدي ومن راسي  
لا عاش في الناس من يلوم على      حتى وعشقي لأحسن الناس  
وقوله :

قل للذي حسنت منه خلائقه      باكر صبوحك واسبق من تسابقه  
أما ترى الغيم مجموعاً ومفتراً      يسير ، هذا إلى هذا يعانقه  
كعاشق زار معشوقاً يودعه      قبل الفراق ، فآلى لا يفارقه

وقال في الحب والغزل :

قالت : أراك خضبت الشيب قلت لها :      سترته عنك يا سمعي ويا بصري  
فاستضحكت ثم قالت من تعجبها :      تكأثر الغش حتى صار في الشعر

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

وقال :

عُذِرْتَنِي بِالنُّومِ جَوْرًا وَظُلْمًا  
إِسْمَعْنِي حُجَّتِي ، وَإِنْ كُنْتُ أَدْرِي  
لَمْ أَنْمَ لَذَّةً ، وَلَا نَمْتُ إِلَّا  
وقال مما يتغنى به :

قَالَتْ لَطِيفُ خِيَالٍ زَارِنِي وَمَضَى  
قَالَ : أَبْصَرْتُهُ لَوْ تَمَاتَ مِنْ ظَمَأٍ  
قَالَتْ : صَدَقْتَ ، الْوَفَاءُ فِي الْحُبِّ عَادَتُهُ

وقال :

خَلِيلِي إِنِّي لِلثَّرِيَّا لِحَاسِدٍ  
أَبْقَى جَمِيعًا شَمَلَهَا وَهِيَ سَبْعَةٌ  
كَذَلِكَ مِنْ لَمْ تُحْتَرَمُهُ مَنِيَّةٌ

ويقول :

سَأَعْتَبُهَا حَقًّا مَا اسْتَعْتَبْتُ  
وَسَوْفَ أُجْرِبُهَا بِالصُّدُورِ

وينتقى ابن سعيد من مליح شعره قوله (١) :

أَتْرَكَ الشَّرْبَ وَالْأَنْوَاءَ دَائِمَةً  
وَالْغَصْنَ يَهْتَزُّ كَالنَّشْوَانِ مِنْ طَرِبٍ  
لَا وَالَّتِي تَرَكْتَنِي يَوْمَ فَرَقْتَهَا  
وَالطَّلَ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَشْوَرُ  
وَالْوَرْدُ فِي الْعُودِ مَطْوِيُّ وَمَنْشُورُ  
كَأَنَّمَا الرَّمْلُ فِي عَيْنِي مَشْوَرُ

وهكذا نجد معظم ما قال من شعر في الخمر والغزل ووصف الطبيعة كما نقل  
كل من الثعالبي وابن سعيد ، ولا نجد بين تلك المختارات ما يتصل بالزهد على ما  
ذكر ابن خلكان ولم يورد مثلاً عليه .

(١) المزلف ص ٢٠٣ .



وذكر ابن سعيد أياتاً في موت الاخشيدي طمع بعض وراثته في الملك : يقول :

مات إخشيدينا فما نحنُ في أمسِّ  
كلِّكم طالبٌ بنجدٍ وجرصٍ  
يا ولاةَ الأمورِ إن لم تنبؤوا  
لا انتظامَ فقد تناثرَ عقْدُ

ونقل عن المسبحي المؤرخ المصري قوله : وكان أديباً شاعراً متصرفاً في العلم .

ويضيف مختاراً من شعره في موضوعات الوصف والغزل والعتاب . يقول :

وكانَ الهلالُ لما تبدي  
أو كقوسٍ قد انحنى أو كنوي  
شطرُ ضوقِ المرأةِ للتدهيبِ  
أو كنونٍ في مهريقِ مكتوبِ

وكقوله : ( معاتباً ) :

أتكفّرُ بما أوليت في كلِّ مخفيلٍ  
وتأتى بذنبٍ كلما جفت عاتبا  
بغيبٍ ، وتلقاني كأنك شاكرٍ  
فكم أنت ذو جهلٍ وكم أنا صائرٍ

وقال :

بنتم وخطتم أننى متغيرٌ  
لا والذي جعل الدموع بمقلتي  
ما اخترتُ تبديلَ المودّةِ ساعةً  
أنا ذاك لا عهدى يُغيّرُ بالنوى  
وإذا وثقتُ بودٌ من أحبيته  
بالبين عند ترّجّل الأظعانِ  
أبدأ تجودُ بعارضِ هتانِ  
بعد الذى هجرَ الحمى وجفانى  
أبدأ ، ولا وجهى يميل لثانى  
فبعادهُ ودنوهُ سيانِ

قال القُرطبي : وكانت وفاته ببلده في مصر مدة كافور سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة  
وكانت سنة يوم توفى أربعاً وستين سنة .

وترك من أبنائه الشعراء اثنين هما أبو محمد القاسم ، وإبراهيم .

وإن كان أحمد لم تتصل أسبابه بالدولة الفاطمية لوفاته قبل وفود المعز وبناء  
القاهرة بسنوات قليلة إلا أن ولديه أبا محمد القاسم ، وأبا اسماعيل إبراهيم عاصراً

صدر الدولة الفاطمية كذلك فعل حفيده أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم بن أحمد ( ويكنيه ابن سعيد بأبي إبراهيم ) (١) .

وكان هؤلاء الثلاثة من الشعراء ، وشعرهم أشبه بشعر الأب والجد ، إلا أن ما اختاره الثعالبي للثلاثة لا يشفى غليلاً ، وكذلك ما فعله ابن سعيد لمحمد . وربما كان حظ الحفيد الحسين بن إبراهيم أوفر من أبيه وعمه .

ويروي الثعالبي في اليتيمة أن أبا الرعمق أحمد بن محمد الانطاكي ، اتصل بإبراهيم بن أحمد ومدحه يقصيدة يقول فيها (٢) :

رَضِيَ النَّاسُ وِلَاةُ	حَبَّذا الرِّسِّي مَوْلَى
هُ مِنْ السَّوِّ فِئَاةُ	جَعَلَ اللهُ أَعَادِيـ
مِنْ حَلِّ ذَرَاةُ	فَلَقَدْ أَيْقَنَ بِالنُّورَةِ
فِي الْمَعَالِي مَرْتَفَاةُ	مَنْ رَفَى حَتَّى تَنْتَاهِي
يُودِدُ وَالْمَجْدَ مَنذَاةُ	فَاتَ أَنْ يَبْلُغَ فِي السُّ
تَطَوُّةٌ مِمَّنْوعٌ جِمَاةُ	مَلِكٌ مَذْكَانٌ بِالسُّ
أَيْسَ مِنْهُ مُنْتَهَاةُ	بَحْرٌ جَوْدٍ لَيْسَ يُدْرَى
هَيْمٌ فِي النَّاسِ رَجَاةُ	لَمْ يَضُغْ مِنْ كَانَ إِبْرَا
زَمَانَ إِنْ عَرَاةُ	لَا وَلَا يَفْرُقُ مِنْ صَرَفِ
مِ وَالنُّهْرِ كَفَاةُ	مَنْ بِهِ اسْتَكْفَى أَدَى الْأَيَا
يَخْلُ خَلْقٌ مِنْ تَدَاةُ	كَيْفَ لَا أَمْدَحُ مِنْ لَمْ

وكان الحسين الحفيد ، وهو أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم بن نبيه الأشراف الحسينيين في عهد العزيز نزار بن المعز لدين الله ، وكان أديباً شاعراً ، وله مكانة ووجاهة في الفسطاط عصر الفاطميين ، وكان على قدر من الثراء ، لأن الفاطميين كانوا يقدقون على الحسينيين والحسينيين من الأشراف لقرايتهم ، ويجرون عليهم رواتب فكانت لهم الضياع والبساتين والقصور . وعاشوا عيشة راضية .

وجمعت الصداقة والأخاء بين الشاعر الحسين والأمير تميم بن المعز ، وكانت بينهما أشعار ومجاوبات ، يقول ابن خلكان : « كان شاعراً أديباً رقيقاً ، قاسم

(١) المقرب ص ٢٤٩ .

(٢) يتيمة الدرر ١ / ٣٩٠ .

الأمير تميم بن المعز شرف النسب وعلو الحسب ، وترث الفضل والأدب . وكان بينهما مودة ومراسلات شعرية راقية <sup>(١)</sup> .

وقال ابن سعيد <sup>(٢)</sup> : « وهذا الشريف الرسي هو الذي كان بينه وبين تميم بن المعز مجاوبات بالنظم ، وكان يكثر التنزه معه في بساتينه وفرجه » .

وذكر له الثعالبي أبياتاً هي قوله <sup>(٣)</sup> :

شَمَّ النسيمَ لذيذاً	من قبل أن لا تُشَمَّه
واصرِفَ عن القلبِ ما است	سطعت بالمسرة هَمَّه
وغالطَ الدهرَ إن كُت	ت نَسْت تملك حُكَمَه
وقد نَصَحْتُكَ جُهْدِي	فلا تصم وتكَمَه

وقوله في الغزل :

صدفتُ عننا نوارُ	ولقد كانت تزورُ
ثم قالت كيف أودي	ذلك العُصنُ التضيُرُ
قلتُ : إن أنصفت هذا	لابن خمسين كثيرُ

وتمثّل له ابن سعيد بيت يقول فيه :

لم تَبَّهْ، وهي فاقت الناسَ حسناً      وحقيقٌ يمثلها أن يتيها

وكان أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم صديقُ الأمير تميم قد غاش في كنف أبيه ثقيناً للأشراف ثم تولى هو نقابتهم بعد وفاته، وكان تميم على علاقة وطيدة بإبراهيم، وكان إبراهيم هذا دائم الاتصال بالأمير يقدم له الهدايا في المناسبات ، والأمير يبادلها .

ويبدو أن دارهما كانت متجاورتين على النيل ، كما كان للرسيين بساتين قرب بستان الأمير على بركة الحبش جنوبي القسطاظ وبالجيزة وغيرها .

(١) وفيات الأعيان ١ / ١٣١ .

(٢) المغرب ص ٢٤٩ / ٢٥٠ .

(٣) بئمة الدهر ١ / ٥٠١ .

وتوطدت العلاقة بين الأمير وأبي عبد الله ، فلم يصير أحدهما على فراق الآخر . ويشهد ديوان تميم بالمطارحات الشعرية والرسائل المتبادلة ، تحمل حرارة المدة ، ودفء الصداقة .

فمن هذه الرسائل الشعرية رد على أبي عبد الله الحسين وقد استهدى من الأمير غروساً من الزهر لبستانه فكتب إليه بعد وصولها .

يا سيد الكبراء والأمرء	وصلت هديتكَ التي أرسلتها
أورثتها من رابع الخلفاء	فحككت لنا طيباً خلثتكَ التي
وقف عليك الدهر درُّ ثنائى	فاسلم وعش فيما تحبُّ فإنه
تفنى ويبقى جوهر الشعراء	هى جوهر فى البيت إلا أنها
	فأجابه الأمير بقوله :

للبيت من أفاضلك الغراء	أما الرياضُ فإنها مسروقة
لنوائك إطراق وذات حياء	إني بعثتُ بها إليك وأنها
أنت الأحقُّ بها وبالإهداء	كالشئ يستهديه متى ربه
فلك انتساب محاسن الأشياء	منك استعداد الحسن كلُّ مُحسِّن
ولطفت حتى فقت لطف الماء	وظرفت حتى فقت كل مظرف
لكن خيراً منه حسن صفاء	ديباخ لفظك فوق كل منور
يتراضعان لبان كل وفاء	لا شئ أحسن من خليلي غبطة
أبدأ ، ولم يستمتعا بقاء	هذا يُناجى ذا هوى وتحافظاً

وكان الأمير تأخر عن تعزيتة في وفاة والده إبراهيم ، فكتب إليه الأمير معتزلاً ، فرد الحسين على الأمير قائلاً :

يا سيدى وأميرى	يا سيدى . وأميرى
إني فقدتُ بفقدي	إني فقدتُ بفقدي
فقدتُ منه بلادى	فقدتُ منه بلادى
فقدتُ منه مُعِينى	فقدتُ منه مُعِينى
فصرتُ فرداً وخيلاً	فصرتُ فرداً وخيلاً
لا أعرف السهل والوع	لا أعرف السهل والوع

قد كنت أحتي عليه  
كأثما الدهر أودى  
فمن عذيري من دم  
هلاً بكته دماء  
فكل أمر كبير  
من للضعيف إذا ما  
فوضت أمري إلى من

وأجابه الأمير بقوله :

يا من صفاً ودُّ صدري  
ومن تكدر عيني  
ما مات ركنك إلا بل  
لو كنت أملك عمري  
أو كنت أملك دفعا  
دافعت عنه المنايا  
ما كان إلا يميني  
لئن تولى حميدا  
لحسبه بك فينا

بنات دهر عقور  
منه بركني نير  
حج مقلتي من عذيري  
إذ ما له من نظير  
يخبأ لكل كبير  
أتى ، ومن للفقير  
يرجى لكل الأمور

له ، وسرى وجهري  
لرؤيه صفو دهرى  
ركنى وفخرى وذخري  
وهبته شطر عمري  
عنه بروحى ووفرى  
زكل فادح أمر  
ومقلتي وأزرى  
بكل مدح وشكر  
نجلا وخلفه فخر

وتبدو من القصيدتين مدى العلاقة التي ربطت بين الأمير تميم وإبراهيم وابنه الحسين على ما اشرنا إليه .

ويقول تميم ذاكراً مودته ، وحبّه للحسين وسعادته بمشاركته ملاذه وأنسه وباقتراب داره منه (١) :

زاد ربي دئو ربعك منه  
ساعة من جنى حديثك ما يد  
ومعاطاتك الكؤوس على رو  
هو عندي ألد من ملك كسرى

أنساً في القلوب والأبصار  
من سماع الغنا وشرب العقار  
ض المعاني ورقة الأفكار  
وافتناض الكواعب والأبكار

(١) ديوان تميم ص ٢٠٠ .

ويقول تميم في ذكر بيته الذي بناه الحسين على النيل :

أبهج النيل ما بنيت عليه      كابتهاج السماء بالاقمار  
وكذاك البقاع تفخر بالأحج      ساد فخرأ يحظ كل فخار

وشارك الحسين صديقه تميمًا في معارضة آيات لابن المعز يقول فيها :

شغلت بليدة القبل      ووعد الكتب والرسل  
فعارضه تميم بأبيات أولها :

شغلت بحلسة المقل      ومزج الكحل بالكحل  
وما اغفلت به الألقا      ط في أجفاتها التجل

فقال الحسين بن ابراهيم الرسي :

وحق تورذ الخجيل      وطيب تقرّب الأمل  
وحق الحب إذ يأتي      بحسن تكسر المقل  
وما أبداه من أهوا      ه من صد ومن عليل  
وحقك يا أميرى ظل      ست في قصف وفي جدل  
لشعرك مشبه الماء ال      لذي يروي صدق الغلل  
وثوب البرء يلبسه ال      لذي أشفى على العليل  
وحلته إذا نش      رت تضرع سائر الخلل  
فقول كله صدق      وعبد الله يشهد لي

يريد أن يقول إن أبياته فاقت أبيات ابن المعتز ، مجاملة ، وكان كل منهما يثنى على شعر الآخر ويقرظه مجاملة .

## ابن وكيع التيسى

ولد ابن وكيع ونشأ في مدينة تيس على بحيرة المنزلة ، وكانت تقع في شمالها الشرقى قريبا من مدينة بورسعيد وشمالها الغربى مدينة دمياط .  
ويصف أحد العلماء العرب ممن وفدوا إلى المدينة بحيرة المنزلة وتيس فيقول (١) :

وبحيرتها التى هى عليها مقدار إقلاع يوم فى عرض نصف يوم ، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحا لدخول بحر الروم إليه عند هبوب الشمال . فإذا انصرف نيل مصر فى دخول الشتاء وكثر هبوب الريح الغربية فإن أهل تيس يخزنون الماء فى جباب ويعلمونه لستهم .

ويقول ياقوت : وهناك فوهة يدخل منها ماء البحر الأعظم إلى بحيرة تيس ، وإذا تكاملت زيادة النيل فى الفيضان غلبت حلاوته على ماء البحر ، فصارت البحيرة حلوة ، وعندها يخزن أهل تيس الماء على ما ذكر فى صهاريجهم ومصانعهم لستهم (٢) .

ويذكرها المسعودى فيقول : تيس كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها اسواء وطيب تربة ، وكانت جنانا ونخلا ، وكروما وشجرا ومزارع ، وكانت فيها مجار على ارتفاع من الأرض ، ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الأرض ، ولا أحسن اتصالا من جناتها ، وكرومها ، ولم يكن بمصر كروم يقال أنها تشبهها إلا الفيوم (٣) .

اشتهرت تيس فى تاريخها القديم بالزرع والخمر . وقال ابن وصيف شاه « وحولها الزرع والشجر والكروم ، وقرى ، ومعاصر الخمر وعمارة لم يكن أحسن منها . وكثر بها الطير والسماك » ، ونقل ياقوت : « ولتيس موسم يكون فيه من أنواع الطير ما لا يكون فى موضع آخر ، وهى مائة ونيف وثلاثون صنفا منها السلوى والقمرى ، والزرزور والفاختة والنواح ، ويصل إلى تانيس طير كثير لا

(١) ياقوت - معجم البلدان ١ / ٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٨٨٤ .

(٣) خطط المقرئى ١ / ١٧٧ حسين نصار فى مقدمة ابن وكيع .

يعرف اسمه صغار وكبار ، ويعرف بها من السمك تسعة وسبعون صنفا منها  
اليورى ، والبلمو ، والبرو ، واللبب (١) .

وأما أهلها فكان بها عدد من النصارى يحترفون صناعة النسيج وقد كانت عامرة  
بالسكان كثيرة الكنائس ، ومع هذا الخير الوفير الذى بها إلا أن أهلها كان فيهم  
فقر ، وكان النصارى منهم يتشكون من البؤس .

وقال أحد الرحالة العرب عندما ذهب إليها والتقى بهم : إني لم أر من البؤس  
في بلد أكثر من بؤس أهلها وقد سألتهم ، فأجابوني أن مدينتنا محاطة بالماء فلا  
نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية والماء الذى نشربه يجلب لنا من بعيد ، ونشتري الجرة  
منه بأربع دراهم . ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فنسأوننا تغزله ونحن ننسجه  
ونعطي على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة ، ومع أن أجرتنا لا  
تكفى لاطعام كلابنا ، فإن كلاً منا يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير — كل  
علم — لأنهم أهل ذمة .

ولاشك أن هذا كان حال جماعة من فقراء تيس النصارى .

وقد وصف أهلها لكثرة الغرباء بينهم بأن اخلاقهم سهلة مُقادة وطبائعهم  
مائلة إلى الرطوبة والأنوثة (٢) .

وهم يحبون النظافة والدمائة والغناء واللذة ، وأكثرهم بيتون سكارى .

وقد نشأ ابن وكيع في هذه البيئة البحرية المصرية ، وجاء شعره بكثير من  
ملائحتها ، وتبلو منه فرحة الإقامة ، وامتعة الانتفاء للبلد ، ونشوة السعادة بمغانها  
أحياناً بين لذات الخمر والغناء فيقول :

يَصْفُرُّ من خورف المَزَاجِ لَوْنُهَا	وأشرب عقاراً طالاً فينا كوئها
أَبَابُنا في حُسْنِهِ حَيَارَى	من كل ظنبي من بنى النصارى
قد سلماً من وحشة التآفر	لاسيماً مع مُسمع وزاير
مشروحة في أحسن اليان	دُونك هذى صفة الزمان

(١) المهرزى ٦ / ١٧٧ .

(٢) المهرزى ١ / ١٧٧ .



وقد اشتهرت تنيس بثيابها الفاخرة المنسوبة اليها : فقال المقرئ :

وأكثر أهلها حاكة ، وبها تحاك ثياب لا يصنع مثلها في الدنيا .

وقال آخر : وبها تعمل الثياب الملونة والفرش والأبوقلمون وهي ثياب من الحرير متغير اللون قيل أنه يبدو في ألوان متغيرة في كل ساعات النهار<sup>(١)</sup> .

وبها يصنع الدقيقى ، والمقصور الشفاف ، والأردية ، وأنواع المناديل الفاخرة والفرش المعلم ، والطرز .. وبها خمسة آلاف منسج لنسج الأقمشة وكثيرا . نسجت كسوة الكعبة بها .

ومع هذا الاهتمام بالنسيج ، وغلبته على صناعة أهلها إلا أنهم اهتموا بالعد والعلماء ، بالأدب والشعر ، فقد نبغ فيها شاعرنا ابن وكيع .

ولم يكن ابن وكيع مصريا أبا وجدا ، بل هو مهاجر إلى مصر ، مستوطن . جاءت أسرته من الأهواز شرق العراق . وكانت تنسب إلى بنى ضبة في أصوب العراقية وبنو ضبة : قبيلة عربية مصرية . وربما كانت هجرة أسرة الشاعر من العراق إلى مصر بسبب ما انتاب العراق في أوائل القرن الرابع من اضطرابات وحروب شملت أرض الجزيرة وبغداد وجنوب العراق بالبصرة والكوفة ، وكان أعنفها ثورة الزنج ، وغارات القرامطة .

ولد ابن وكيع في تنيس من أب عربي ، ويذكر ابن خلكان أنه كانت في لسانه عجمة لعلها لحقته من لسان أهله الذين ربما تأثروا بإقامتهم في الأهواز فاختلط لسانهم باللسان الفارسي .

واسم ابن وكيع هو أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن خلف ، وصفه الثعالبي بأنه شاعر بارع ، وعالم جامع ، برع في إبانته على أهل زمانه ، فلم يتقدمه أحد في أوانه ، وله كل بديعة تسخر الأوهام وتستعيد الأفهام .

وقال ابن خلكان : « وله ديوان شعر جيد ، وله كتاب بين فيه سرقات أبى الطيب المتنبى سماه المنصف » . وتوفي بمدينة تنيس ودفن بها سنة ٣٩٣ هـ .

(١) ويطلق على هذا النوع حاليا التافاه . ولعله اسم غربي دخيل .

وشعره يجمع بين الظرف وخفة الروح ، ويدور معضمه في وصف الخمر  
مظاهر الطبيعة والزهر .

قال في خمريته ، ويصِف فيها الزهرَ والساق :

اشربُ فقد طابث العقارُ  
من قهوة ما انبرث إليهم  
فا جيوشُ من الملائهي  
لألاؤها في الدجى نهارُ  
إذا استقرت في حشا ليبي  
حباؤها جسمه ليجيني  
كانها تحته كمنيت  
لها لدى حزين شاريها  
فالحزن عن أهلها مطارُ  
فلا انتصارَ لذا عليها  
يسمى بها جودرَ غريبِ  
كان صدغاً له تراه  
ميدان آس بدأ جنيًا  
ويست من الحسن لي إليه  
بشارة البيت كل عام  
فلت له إذ بدأ وقلبي  
يا جامع الحسن كل حسن  
ما فضل الغايات عيني

ويقول من قصيدة أخرى :

أنظر إلى زهر الربيع وما جلت  
أيدت لنا الأمطار فيه بدائعا  
ما شئت للأزهار في صخرائها  
من أبيض يقي وأصفر فاقع  
ناحت لنا الأطيار فيه فأرهبجت

فيه عليك طرائف الأنوار  
شهدت بحكمة متزل الأمطار  
من درهم بهج ومن دينار  
مثل الشمس قرن بالأقمار  
عرس السرور وماتم الأطيّار

دارٌ لو اتَّصلَ البقاءُ لأهلها  
فانهضُ بنا نحو السُّرورِ فإنه  
فاشربْ مُعْتَقَةً كَانَ نَسِيمَهَا  
وكانها والكأسُ ساطعةً بها  
لاسيما من كَفَّ أُعْيِدَ شَادِنِ  
فضل الغصون لأنها من غرسنا  
قد غيَّب الزُّنارُ دِقَّةَ خَصْرِهِ  
مُتَنَصِّرٌ قَوِيثٌ عَلَى إِسْلَامِنَا  
قالوا: أَيْصْنَعُ مِثْلَ هَذَا رَيْكُمُ  
مَعَ مُسْبِجٍ حَلَّتْ لَهُ أوتارُهُ

لم يَحْفَلُوا بِنَعِيمِ تِلْكَ الدَّارِ  
مازالَ يَسْكُنُ حانَةَ الحَمَارِ  
بِمسِكَ تُضَوِّعُهُ يَدُ العَطَارِ  
ذَوْبٌ تَحَلَّلَ مِنْ عَقِيْقِي جَارِي  
يَسِي العُقُولَ بِطَرْفِهِ السَّحَارِ  
عند التأمُّل وهو غرسُ الباري  
حتى ظنَّناهُ بلا زُنَّارِ  
بالْحُسْنِ مِنْهُ حُجَّةُ الكَفَّارِ  
ويَرى فسادَ صَنِيعِهِ فِي النَّارِ  
أَنْ لا تَنافِرَ رَنَّةُ المِزْمَارِ

\*\*\*\*\*

ذا العيشُ لانعتُ المهاميه والفلا  
لا فرجُ الرحمنُ كربةً جاهلِ  
وقال في الربيع :

وسؤالُ رسمِ الدارِ والأحجارِ  
يبيكى على الأطلالِ والآثارِ

ويدتُ لنا حُلَّالَ الرِّبِيْعِ المِزْمَرِ  
في وصْفِها وتكونُ غيرَ مُقَصِّرِ  
يَحْتَلِنَ بَيْنَ تَمَائِلِ وتَبَخُّثِ  
لو أَنَّهُ يَبْقَى بقاءَ الجَوْهَرِ  
فأذاعهُ ، فأذاعَ أَحْسَنَ مَنْظِرِ  
طِيبِ الجِنانِ لكانَ أريحَ مَتَجَرِ  
من فوقِ جَنولِ مائه المتفَجِرِ  
أمرأ ، فبينَ مَقْلَصِ ومُشْمَرِ  
خلجِ العِذارِ بحسنه لم تُعْذِرِ  
إقبالَ جَدِّ بعدَ أمرِ مُدَبِرِ  
وكانَ هذا جاءَ وجَهَ مُبَشِّرِ  
فتراجعتُ حَجَلِي بِفَرْطِ تَخْيِرِ  
أَكْرَحُطَنَ مِنْ العَقِيْقِ الأَحْمِرِ

فَرَشَ الفِضَاءُ بِأَحْمَرِ وبِأَصْفَرِ  
حالَ تُعَدُّ إِذا اجْتهدتُ مُقَصِّراً  
هَذِي الرِّياضُ كأنَّهُنَّ عرائِسُ  
في جَوْهَرِ فاقِ الجَوْاهِرِ قِيمَةَ  
سَرَّ أَسْرَ به السَّحائبُ لِلثَّرَى  
زَمَنٌ أَغْرَ فلو شَرِيتُ بِطِيبِهِ  
والسرو تثنيه الرياحُ لواعبا  
كالجُنْدِ في حُضْرِ الملائِيسِ حَاوِلُوا  
زَمَنٌ مَنى أَبْصَرْتَهُ وكَفَفْتِ عَنْ  
وافى على أَثَرِ الشِّتاءِ كَأَنَّهُ  
فَكَانَ إِذا جاءَ وجَهَ مُهَلِّدِ  
وردٌ كوجِئَةٍ كاعِبٍ قد مُوزِحَتْ  
فَكَانَما النَّارِجُ في أَغْصانِهِ

وكان زهر الباقلاء دراهم	قد ضُمَّخت أوساطها بالعبير
وكانه من فوق خضِر غصونه	يرئو بمُقَلَّة أقبَل أو أخور
وكانما الأترج أكوس عسجد	ولها مقابض من حرير أخضر
والترجس الريان بين رياضيه	يرئو بعين الباهت المتخير
والجلنار يُريك في أثوابه	نوعين بين مُرَعْفِر ومَعَصْفِر

وهكذا نلاحظ في شعر ابن وكيع اهتماما بالزهر والخمر والغناء ، وهو بهذا شبيه بالصنوبري في غرامه بأوصاف الروض . ولا يفوتنا ما يعمد إليه من ميل إلى التشبيه . سالكا بذلك نهج أصحاب التشبيه كابن المعتز ومن سار على منواله .

ويتبع نهج المحدثين عامة في نبد البناء التقليدي للشعر ، فيدعو إلى ترك البدء بتحدث الديار والأطلال ، والعدول عن وصف الصحراء والفيافي والقفار .

وشعره عامة عليه طلاوة الحضارة ، وحلاوة الروح المصرية لفظا وبناء ، ومعاني ، وصورا تخيلية .

## الشريف العقيلي ، أبو الحسن

هو عليُّ بنُ الحسين بن حيدرة بن عبد الله بن محمد ينتهي نسبه إلى عقيل بن أبي طالب .

ولد ونشأ في مدينة الفسطاط ، وكان له بها متنزعات بجزيرة الفسطاط كما يقول صاحب المغرب<sup>(١)</sup> بلجئاتها وقد تشوق إلى الفسطاط في شعره فقال :

أحزُّنُ إلى الفسطاط شوقاً وإننى      لأدعُو لها ألا يحلُّ بها القطرُ  
وهلُّ في الحيا من حاجةٍ ليجنَّانها      وفي كُلِّ قَطْرٍ من جوانبها نَهْرُ  
تبدَّت عروساً والمقطمُ تاجُها      ومن نيلها عقدٌ كما انتظم الدرُّ

وكانت حياة الشاعر في أخريات القرن الرابع ، وامتدت حتى حكم المستنصر في القرن الخامس ، وربما امتدَّ به العمر حتى منتصفه<sup>(٢)</sup> ، وربما عمر حتى الشيخوخة إذا تجاوزنا في تفسير بعض نصوص مما جاء في شعره مثل قوله :

لله أيام لذات قضيتُ بها      حقَّ الشَّبَابِ وظلُّ العيشِ ممدودُ  
مازلت ألبسها والدهر ينشرها      فأسودَّ أبيضُها وابيضتُ السُّودُ

كان الشريف العقيلي من الأشراف الطالبيين الذين ظلت منهم فئة تعيش في مصر ، وأقاموا لهم نقيباً منهم ، وأشهرهم بنو طباطبا ، وقد كان منهم النقيب عند مجيء المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر .

ويعتز الشاعر بنسبه إلى الأشراف في شعره كقوله :

أنا عبد لآل عبد مناف      عترة النُسلِ والتَّقَى والعَقَافِ  
ليس من أجل أن تراني شريفاً      لا تراني من شبيعة الأشرافِ

وحاول الفاطميون عند استقرارهم بمصر أن يجتذبوا الأشراف إليها وأن يصطفوهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينجحوا في أن يجعلوهم ممن يدينون بأرائهم ويعتقدون عقيدتهم . وشعر الشريف يخلو من الآراء والعقائد الفاطمية التي

(١) المغرب ٤/ ٥٢ .

(٢) خطط المرزبي ١٠/ ٣٤٠ .

نراها مبثوثة في شعر غيره من أبناء الفاطميين، كإبي شعر تميم الذي عرضنا له وعترتهم ، وفي شعر الدعاة من أمثال القاضي النعمان وداعى الدعاة أو شعر الذين اصطفاهم الفاطميون وصاروا لسان دعوتهم مثل ابن هانيء الأندلسي شاعر المعز .

ومع هذا فإن الشريف العقيلي اتصل ببعض رجالات الفاطميين وكانت له فيهم مدائح كالحسين بن جوهر الصقلي قائد القواد في عهد الحاكم بأمر الله في قوله :

ألا هاتما راحًا لها ربيعٌ عنبري      على حسّ طنبورٍ وأيقاعٍ مزهرٍ  
فللدولة الحسناء جيدٌ مُقلدٌ      بجوهرٍ تدبيرِ الحسين بن جوهرٍ  
أخو هيمٍ عُرٌّ إذا هو حثَّها      لتلحقَ بالعلياء لَم تَعثُرِ  
إذا قائدُ القوادِ أعملَ رأيهُ      رأى نفسه ما بينَ مجدٍ ومفخرٍ

وثقف الشاعر الثقافة العربية ، وتعلم الموسيقى والغناء ، فكان يضع الألحان ويغنى ببعض أشعاره .

وكانت حياة الشريف حياة مترفة ناعمة كحياة هذه الطبقة ، فكان له من شرف الحسب ، والغنى الذي ظهر فيما اقتنى من المال والضياع ما مده بأسباب تلك الحياة . ويشهد على نفسه بالغنى حين يقول :

بى فقرٌ إلى المُدام وإن لَمْ      أكُ ممن يُعدُّ فى الفقراءِ

وذكره ابن سعيد بين من لهم الثراء والضياع قال(١) : « كان له متزهات بجزيرة الفسطاط ، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا مدح أحد » فلم يتكسب إذا بالشعر اكتفاءً بشرفه ، وبما عنده من المال .

ويدور معظم شعره حول حياته الخاصة ، وما يعتاده من مجالس الشراب والغناء والطرب واللهو ، وما يصفه من مباحج الطبيعة والحياة ، وما يعرض له أحياناً من أحداث وهموم الحياة ، وربما عرض بالمدح لبعض خاصته ومن اتصل بهم من علية القوم والقادة وعظماء الرجال .

(١) المغرب لابن سعيد بتحقيق د . زكى محمد حسن ود . شوق ضيف الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ص ٣٠٥ ، طبع مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٢ .

ونظوف بديوانه فنستجلى مغاني الحياة من شراب ومنتعة ، وغناء وسماج  
موسيقى وطرب ، وطواف بالحدائق والبساتين والبرك ، ووصف للثمار  
والزهور ، والماء والجوارى الحسان والغلمان إلى غير ذلك من الصور التي يعمر  
بها شعره .

ولنبداً الطواف بما قاله في منازة مصر والقاهرة في عهده .

يقول في بركة حولها بستان وزروع :

وروضة كالحلَّة الخضراء      مجدقة ببركة حسناء  
قد لبست عقد طيور الماء      لبس السماء أنجم الجوزاء

ويقول في بركة أخرى :

وبركة قد أفادنا عجباً      ما عالج من مائها وما نسكبها  
يدركها الورد كلما ارتعدت      منه بجمر يظل ملتهبها  
من حول فوارية مركبة      قد انحنى ظهر مائها تبعها

وكان للشريف بساتين في جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط ، وقد وصف  
بساتاناً له فقال :

فقد دهم الفجر طرف الدجى      فصير أدهمه ألقا  
وأبدي لنا الزهر ياقوته      فبين مستجاد ومن منتقى  
وزخرف جنة بستاننا      وأبسها منه إستبرقا  
وفتح القضب أطواقها      فزادت حدائقه رونقا  
فما كان منها وقاحاً رنا      وما كان محتشماً أطرقا  
ولاح الشقيق ولو لم يلح      لما نعيم التراب بعد الشقا

وكان بأحد بساتينه بركة ماء ، يرعى فيها الطير ويسبح بطها ، فيتلاها  
عقوداً من الدر كما شبهها في بعض شعره إذ يقول :

وعندنا طارمة رسمها      في كل يوم مثل ذا ينصب  
بين يديها بركة ماؤها      جار مع الأيام لا ينضب  
ما حط مذ أنشأتها سالفاً      قط على سالفها طحلب

يرقصُ في جافاتها بطنها      إذا غدا بلبلها يلعبُ  
وربما تُطلع أمواجها      كواكباً من وقتها تفرُبُ

وهو مغرى بأصناف الزهور ، والرياحين ، يصفها وصف محب متأمل ،  
يقول :

أصبحتُ أكثرُ خلقِ الله كُلِّهم      عشقاً لروضٍ قد اهترتُ جوانبهُ  
زيَّاهُ نكهتهُ والقَطْرُ مَضْحَكُه      والوردُ وجنته والأسُ شاربهُ

ويقول في زهر الأقاح الأبيض :

فغدُ العيشِ إِمَّا باغْتِباقِ      تلذُّ به وإِما باصْطِباحِ  
فاحسُنْ ما تكونُ الأرضُ زيَّاهُ      إذا انتقبتُ يَفِضُّ الأَقاحِ

ويقول في الياسمين والأقاحي :

فأشربُ على فِضَّةٍ ودُرٍّ      من ياسمينٍ ومن أقالحِ  
فالأرضُ قد أصبحتُ عروسًا      تُجلى من الزهرِ في وشاحِ

ويقول في زهر البنفسج :

أشربُ على زهرِ البنفسجِ قهوةً      تُهدى السُرورُ إلى الحزينِ المكمِّدِ  
فكانه قرصٌ بخدِّ مُهْفَهِفٍ      أو أعينُ زُرُقٍ كجِلنِ بِأَمِيدِ

ويشتق من الزهر استعاراته وتشبيهاته في معان وموضوعات غير الزهر  
كالغزل ووصف كاسات الخمر .

يقول متغزلاً :

يامن له خدُّ غداً حائِزًا      شقائقِ التَّعمانِ من وِردِهِ  
أئن عِنانَ الهَجْرِ عن عاشِقِي      قد طالَ رُكُضُ الدَّمعِ في خَدِّهِ

ويقول في وصف الخمر وكأسها :

جِسْمُ زجاجِ وروحِ راحِ      كأنَّها الشَّمسُ في الصِّباحِ  
إن ضحكَ الجِلتارِ مِنها      أراكِ تُفرا من الأقالحِ

وأما الثمار فيسترعيه حب الشمس وقد تساقط من شجره على الأرض

فيقول :



على الرياض الرياح  
لناظري أمحاح

شمس نترسه  
كأنه إذ تراءى

يقصد بالأمحاح صفار البيض .

ويقول في النارج وهو يترنج في أغصانه على الشجر :

ونارنجة بين الرياض نظرؤها  
على غصن رطب كقامة أغيد  
إذا ميلتها ريح مالت كأكرة  
بدت ذهباً فبى صولجان زمرّد

وكثيراً ما يمزج في قصائد وصفه بين مشاهد المياه والرياض والزهور  
والحسان من الجوارى الجميلات ، أو الغلمان الصباح وكؤوس الخمر تدار .

فيقول :

بين نبت من حريير  
وأقاح من تُعُور  
وبروق من نُحُور  
وضباب من بُحُور  
كان في ظل السرور

نحن في روض نُضِير  
وشقيق من نُحُود  
بين سحب من كؤوس  
وتلدي من ماء وزر  
نزهة من كان فيها

ويقول في مجلس شراب وهو :

والزهر مفروش التمارق  
منه المجالس والمرافق  
مثل الترائب والمخائق  
فيه الشقاء مع الشقائق  
طرقاته كل الطرائق  
رق الهموم بشرب عاتق  
بيض النواصي والمفارق  
كحلت بها حدق الحدائق

الغيم ممدود السرادق  
والقاش<sup>(١)</sup> قد فرشت لنا  
أشجاره وثماره  
وطن يموت مخافة  
قد غنت الأطيّار في  
فاعتق فؤادك فيه من  
فالأقحوان غصونه  
ومراود الأمطار قد

ويجمع إلى الخمر أطايب الطعام :

إلى اللهو من غيره أشوقاً

فلا تله بالشغل عن غذا

(١) والقاش روض أو بستان جهة الفسطاط كان يرثاه .

فقد قام طَبَّاحُنَا فَائِقٌ  
وَعَبَّاءُ الْبَوَارِدِ فِي جَوْنَةٍ  
وَوَاقِي بَعْقِيَّانِ سُنْبُوسَجٍ  
وَأَبْدَعُ فِي سَلْقِ هَلْيُونِهَا  
وَعِنْدِي فَدَيْتُكَ مِنْ بَعْدِهَا  
بَلِيلٌ أَعَدُّ لَنَا الْفَيْقَا  
أَجْنُ مِنْ الْخَوْفِ أَنْ تُطْبِقَا  
فَأَلْبَسَهَا مِنْهُ دُسْتِيْقَا  
لَأَنْتِي أَمْرْتُ بِأَنْ يُسَلِّقَا  
عَصِيرٌ مِنَ الْكُرْمِ قَدْ عُنُقَا

ويقول في وصف مأدبة دعا إليها أصدقاءه :

وعندي طها بجمه وجدى باردٌ  
ونفائقٌ ما منه واحدةٌ بدتُ  
ومضيرةٌ كالفضة البيضاء  
إلا كمثل البسرة الحمراء

ويذكرك بأبي نواس حين يغدو إلى حانوت خمار ليلاً ليشرب عنده ،  
ويطلب إليه أن يخلو عليه من الخمر كؤساً فيقول :

ويخمار دخلت عليه وهنأ  
على هوجاء تنثر في الفيافي  
إذا وخذت تحال الرياح تحتي  
فقال : من الفتى ؟ فأجبتُ ضيف  
فقال : وما تريدُ فدتك روجي  
فقام إلى دنان مُترعاتٍ  
وفض ختام أقدمها فلاحتُ  
وأبرز منه في الإبريق راحاً  
كان حبابها ظل تئدي  
وحاء بأهيف عذب الشايا  
تراه يتيه من أدب وظرف  
يقول إذا رآه كل لاح  
هي الأيام تندرُج انديراجا  
فصبل قصفا بقصيف واغتباقا

ومع هذه الكثرة من الحديث عن الرياض والبرك والأنهار والأزهار ،  
والخمر ، والكأس ، والطعام ، والساق ، مع هذا كله ، ومع عرضه لمعارض

الجمال فيها جميعاً ، نجده يخلطُ جمال الطبيعة بجمال الحياة مثلاً في الوجه الجميل والقوام المعتدل والتكرين البديع ، ولهذا فهو يجمع بين جمال المرأة وجمال الطبيعة ، فالخد مختلط بالورد ، والعين بالرجس والأسنان بالبرد والأقحوان .

وتمتج بهذا كله لذات الحس من تمل بالنظر ، وتمتع بالذوق باللسان ونشوة اللذة بالبدن ، كما مزج الوجه الصباح والطعام بطعوم المذاق في رشفة الخمر وقبلة الثغر ، ولقمة الطعام .

ولتأمل هذه الأبيات التي تعمر بالخيال العجيب الذي يمزج فيه الشاعر بين الكائنات ، بين المرأة والطبيعة والخمر والسحاب والمطر مزجاً عجيباً لا تقع عليه في شعرنا العرنى . يقول :

السَّحْبُ تُرْضِعُ من نَبَاتِ الأَرْضِ ما	جعلَ الرِّبيع لها الغصون نهودا
والراح قد نظم المزاج لجيدها	در الحباب قلاتدا وعقودا
فاستجل منها ما إذا افترعت غدا	منها السرور لبعلها مولودا
وأنعم بها في ظل صحتك التي	أضحى عليك رواقها ممدودا

ويتنزل في المرأة ، لكنه غزل يعرض فيه محاسنها من حسن وجهه ، وثغر وعين وقوام مع ما يعد له من صور الزهور وبدر السماء :

مر بنا في مورد شرق	كأنه البدر لاح في الغسق
منعم حليه اللحاظ إذا	أقبل تجرى إليه في طلق
كأنما وجهه لكثرة ما	فيه من الحسن موسم الحدق

وفي البيت الأخير يمزج بين جمال الوجه وجمال الروض بما فيه من أفانين الزهر ، والزهر عروس تجلي توجهها الحبيب ، والجو كله عرس تهتف حمائمها وتغنى بلابله . وخياله حافل حين يصف الروض والشراب يرؤى السعادة ممثلة في جلوة العرس ، ومرأى العروس .

عرايس الروض تجلي	على كراسي الروابي
ومجلس الروض فيه	فرش من العنابي
فاتعم ولذ بيكر	قد توجت بالحباب

ويقول :

قد ضحكت غرة الصباح      واندفع الديك في الضياح  
وطاف بالراح كل ساق      رضابُه فوقَ كُلِّ رَاح  
فأشرب على فضة ودر      من ياسمين ومن افاح  
فالأرض قد أصبحت عروسا      تجلي من الزهر في وشاح

والحب علاقة الحبيب بالحب ، وما يتقلب بها بين وصل وهجران ، وفرحة لقاء ، ودمعة وداع ، تلتقي به هنا وهناك في ديوان الشاعر كأن يقول :

أنا في العُدُوِّ وفي الرِّواح      قلق على قَلْبِي الوِشاح

ويقول :

قامت قيامة رُوحها لرواحي      إنَّ التَّوى لِقِيامة الأرواح  
فبكت فصارت الدَّمْعُ في وجناتها      مثل الحُبابِ على كُؤوسِ الرَّاح

ويقول :

لما قضى القربُ بداء البعد      وصارَ من فراقنا في لَحْد  
لطمتُ بالدمع عليه خدي      لأنني فيه أصيبتُ وخدي

ويقول :

شكوتُ إليها يوم ودَّعتها وجدي      فألقيتُ منه عندها فوق ما عتدي  
وما زالت الأجنافُ تنثر دمعها      على خدِّها طورًا وطورًا على تجدي  
فلولا غليل الشوق ما كان طرفها      لينضح ماء الورْدِ منه على الورْدِ

والشاعر يريد أن يعب من متاع الدنيا ولذتها قبل أن يزول رونق الشباب ويأتى خريف العمر فتذبل وردة الصبا ، وتغيب شمس اللذات فيعود التذكر وتذهب النفس حسرات :

لله أيامٌ لذاتٍ قضيتُ بها      حقَّ الشَّبابِ وظلَّ العيش مملودُ  
مازلتُ البسها والدهرُ ينثرها      فأسودَّ أبيضها وبيضتُ السُّودُ

وتلتقى في بعض أبياته الغزلية برقيق من القول مطرب مرقص كقوله :

غزالٌ تدلمه دَلَمه      على قَتْلِ من هو عبْد له

وَذَلِكَ أَتَى مَلَكَتْهُ  
 كَعُصْنَيْنِ فِي دَوْحَةٍ بَعْضُنَا  
 قِيَادِي وَمَلَكَتِي وَصَلَهُ  
 يَمُدُّ عَلَى بَعْضِنَا ظِلَّهُ  
 وَوَعَسَ إِعْجَابُهُ سَهْلُهُ  
 وَمَنْ مَلَّ صَاحِبُهُ مَلَّهُ  
 فَخَلَّصْتُ حَبْلِي مِنْ حَبْلِهِ

وفي الحب والصدقة والصديق يرتبط القلب ، وكان الشريف العقيلي محباً  
 لأصدقائه يصلهم ويصلونه ، ويدعوهم إلى مشاركته لذات مجالسه وشرابه  
 وطعامه بين الرياض ومجالى الطبيعة .

أَلَا رَبِّ ضَيْفٍ تَقْتَضِيهِ  
 فَحَضَرْتُ مَا كَانَ عِنْدِي لَهُ  
 وَجَيْدُ السَّمَاءِ كَثِيرُ اللَّائِي  
 مِنَ الرَّادِ فَعَلَّ كِرَامِ الرِّجَالِ  
 بَلَوْنَ الخُلُوقِ وَرِيحِ الغَوَالِي  
 وَقَدَّمْتُ رَاحًا سَبَتْ عَقْلُهُ

ويقول :

وَصَدِيقِي سُرُورُهُ بِالصَّدِيقِ  
 كُلُّ يَوْمٍ أَرُوحُ مِنْهُ وَأَعْدُو  
 كَسُرُورِ الغَشِيقِ بِالمُعَشُوقِ  
 بَيْنَ لَفْظِ رَطْبٍ وَخُلُقِي رَفِيقِ  
 وَرَبِيعٍ مِنَ الحِقَاقِظِ أُنِيقِ  
 يَفْتَضِي نَفْسَهُ قَضَاءَ الحُقُوقِ  
 وَخَرِيفٍ مِنَ الوَفَاءِ تَضِيرُ  
 فِقْضَى اللهُ حَقَّهُ مِنْ تَفْسِيرِ

### خصائص شعره :

لما سبق من نماذج لشعر الشريف تلاحظ أنه إهتم إهتماماً واضحاً بموضوعين  
 خصهما بمعظم شعره . وهما الروضيات والخمرة ومجالسها ، ويليهما الغزل  
 ووصف المطاعم ولم يقل في موضوعات الشعر الأخرى كالمديح والفخر والهجاء  
 إلا مقطوعات أو قصائد قصيرة قليلة العدد .

ومديحه كما أشرنا لبعض أصدقائه ، وبعض كبار رجال الدولة كقائد القواد  
 الحسين بن جوهر الصقل ، وهو يضيف عليهم صفات المدح المعروفة ، وكان  
 فخره بنفسه منشوراً بين أبيات قصائده ، ويعتد فيه بنسبه وشاعريته ، وأما  
 الهجاء فكان منصباً على جماعة ممن عاصروه من ولاية الأقاليم كوالى سخا ،  
 وعامل دمياط الذى يقول فيه :

عاملٌ ديباطٌ فتى قلما  
فعاله تُسخطُ بعد الرضا  
وإن وفى عادَ إلى غدوره  
لا خَيْرَ في المرءِ إذا لم يكنْ  
يُحصلُ من رِفْدِ على شاكِرٍ  
ويُفسدُ الأولُ بالأخِرِ  
لضعفِ رأى وعمى خاطرٍ  
باطنه خيرا من الظاهرِ

كذلك هجا بعض موظفي الدواوين كالكتاب النصراني عيسى بن مرقس  
كتاب الدولة ، يتهمه بالبخل . فيقول :

جوابُ عيسى لسائليه  
فإنتى لم أزل بخيلا  
مُدْ كان لا تطعموا بخيري  
أمنعُ دَرى ودرُ غيري

ويسخر من كاتب آخر اسمه خيرون فيقول فيه :

لا خيرَ في خيرونَ من كاتب  
إنْ ثلم الضيفَ رغيفاً له  
يخترقُ البخلُ بخطوٍ سريعٍ  
بكى عليه بأحرَّ الدموعِ  
فلا تخالطهُ فإنَّ الفتى  
يفزعُ أنْ يحزَّ لكلا يجوعُ

ومن مهجويه شاعران استأثرا بكثير من لاذع آياته ، لأنهما تعرضا له  
ولشعره وانتقدها فنالهما بلسانه . يقول في أولهما واسمه أبو اسحاق إبراهيم :

أبو إسحق في تعبٍ  
وهل في الناسِ من أحدٍ  
يحاولُ أنْ يُشبهَ بي  
يقيسُ الرأسَ بالذنبِ  
فلا يذهبُ به هوسٌ  
فليسَ الصفرُ كالذهبِ

ويقول فيه :

أبو إسحاق إبراهيم ممن  
أما يخشى زبانية القوافي  
تحامله على شعري قديم  
إذا وقدت لأفكارى جحيم  
فدغ شيطان غيبته وشعري  
فإن سماءه فيها الرجوم

والشاعر الآخر هو غياث بن جارود . يقول فيه :

يا صاح لا تُصغِ إلى لفظه  
ذو خاطر رحو ضعيف القوى  
يفتح عنها شفته غياث  
يأتيك منه بمغان إنان

ويبدو أن غياثاً هذا كان شيخاً يتكلف الشعر فيأتى به سخيفاً رديئاً ولا

يكتفى الشاعر بهجاء لفظه ، ولكنه يتعداه إلى شكله وصورته ، ويبدو أنها كانت تثيره إلى الضحك . فيقول :

شَيْخٌ إِذَا اسْتَدْعَيْتَ الْفَاطِمَةَ      جَاءَتْكَ بَيْنَ الزُّورِ وَالْإفْكَ  
مُسْتَطُولُ الرَّأْسِ عَرِيضُ الْقَفَا      مُضْطَرَبُ الْأَنْيَابِ وَالْفَكَ  
لَوْ مَاتَ لِي إِلْفٌ وَأَبْصَرْتُهُ      لَبِئْتُ فِي ثَوْبِي مِنَ الضَّحْكِ

ويمتاز شعر الشريف بالركة وروصانة السبك ، مع سهولة في اللفظ حتى إن بعض زملائه من الشعراء راجعه فيما يبدو بسبب تلك السهولة فقال : ومالي وضعبه — ويقول الدكتور زكي المحاسني — (١) : « أما اللون الذي غلب على شعر العقيلي فهو المرح والإشراق ، ولا تجد إلا القليل في أبياته من الموعظة ، والمعاتبه والشكايه على عادة الشعراء . وما خلا من هجاء ولوم لحسود أو غزول أو لمن تتبع الشاعر بالمشاكسة كمحسن بن الملح الذي تناولته الأبيات بالذم والسخرية » .

ويقول عن عشقه للطبيعة والحرر « ... أما الشاعر العقيلي فكان تصويره مادياً ملموساً ممزوجاً بالفكاهة والملحة والدعابة ، وأنه ليعد من أبرز شعراء الطبيعة وهم قلة على اختلاف العصور ، وما أشبه العقيلي في حب الطبيعة وتعشق جمالها وفنونها بابن خفاجة الأندلسي » .

وكان من أسباب فتون العقيلي ومن قبله كل من ابن وكيع وتميم بن المعز بما كان في مصر من مباحج ومنازه ، وبخاصة في الفسطاط والجيزة وما جاورهما وقد أشاد كثير من العلماء والرحالة بهذه المباحج والمنازة .

ويقول الدكتور المحاسني : « وكان بمصر في عصر الفاطميين تنسيق فني مرموق يحدثنا عنه بتطويل وتفصيل المقريري في خططه فقد جعل كتابه مقصوراً في أغلب أبوابه على الكلام في جمال مصر واقطاعها وأحياء مدنها ، ومباحج نيلها وبساتينها الخضر المونقة » (٢) .

ويقول : « هذا هو الشاعر الملهم الذي نظم الشعر على طبيعته فخالف سنة الشعراء الذين عاصروهم ، إذ كان أغلبهم خاضعاً للملق والتكسب ، فتجافى

( ١ - ٢ ) مقدمة الديوان طبع البان الملحق بمصر .

عن أن ينزل إلى مطاعمهم وهو الغنى بنفسه وأدبه وماله عن الحكام والخلفاء ،  
ولئن لم يعكس شعره أطوار المجتمع بصورها المختلفة ، فحسبه أن يعكس صور  
حياته الخاصة التي تجدد فيها منازع التفرد في عصره . فهو بحق شاعر مترف  
غنى على قيثار نفسه ليطرب روحه ، ويؤنس عمره .

وكان الشاعر يستخدم عناصر التعبير الشعرى المختلفة ، منها ما يتصل  
بمخرف اللفظ ، من حيث إيقاعه وموسيقاه ، ومقابلاته ، وتجنيساته  
وتوريثاته :

ومن أهم معالم صنمته الشعرية تلك الخيالات الجديدة الغريبة التي صاغها في  
صور من التشبيه والإستعارة غير مألوفة عند غيره من الشعراء من مثل قوله :

ولما أقلعت سفن المطايا      يريح الوجد في لجاج السراب  
جرى نظري ورائهم إلى أن      تكسر بين أمواج الهضاب  
ومنه قوله أيضاً :

لا تُصغين إلى العذول وسقني      مشمولة في حمرة البأوثج  
أو ما ترى زهر النجوم كجوهري      نثرته غانية على فيروزج  
والبدر في أفق السماء كوردة      بيضاء تضحك في رياض بنفسج

ويتخذ من المرأة بمراثيها وجسدها وثيابها ملامح لبناء تشبيهاته وإستعاراته  
كقوله :

فأحسن ما تكون الأرض زياً      إذا انتقبت بفضي الأجاجي  
وكقوله :

ظلي رقيق حواشي نعمة الجسد      كأنما ثغره عقدان من برد  
كأنما ردفه من عزرة أسفي      كأنما حصره من ذلة جلدي  
وكقوله :

فاعتق فؤادك فيه من      رق الهموم بعثي عاني  
فالأقحوان غصونه      يرض النواصي والمفاريق  
ومراود الأمطار قد      كحلت بها حدق الحدائق



وانظر إلى رخات المطر وكيف تراءت في مخيلته مراود تكحل عيون الحدائق  
وهي زهورها !!

ويولد الشاعر العقيلي من الكلمات معاني توليد ابن الرومي ، وبخاصة في  
التهجاء ، ومن ذلك قوله في محسن بن الملح وإتحاذه من كلمة الملح معاني  
للهجاء :

يا ابن الأجاج الملح لا تستخصم العذب الفراتا  
ويقول كذلك :

أيا مُحسِنُ قُلِّ لي بما تبيهُ وتفخِرُ  
هذا وجدك ملح فكيف لو كان سُكَّرُ

وتلمح في قاموس لفظه وتعبيراته مزيجاً من اللفظ البدوي والحضري ،  
والمولد والعرب والدخيل ، منه بعض ألفاظ الطعام والشراب الفارسية التي  
دخلت قاموس العربية في لغة العباسيين وتداولها الشعراء فيما بينهم ، كاللوزينج  
والسنبوسج ، وأسماء بعض الزهور كالجلنار ، والبهار ، واللازورد .

ويستخدم في تعبيراته بعض عناصر من تراث الشعر ومن الآيات والسور  
القرآنية ، ومن الأخبار والتاريخ الإسلامي والعربي القديم ، وبه تضمينات  
أحياناً من بعض طقوس الدين وعباداته ، كاستخدامه للكعبة والطواف في قوله  
مدح :

يا من يطوف بكعبة إلا  
إن ظل عازرُ قصدنا  
أو طاف طوفان بنا  
حسان منه المستمخ  
ميتا فجدواهُ المسيح  
من عسرة فنداه نوح

فيشرح هذه العبارات والإشارات الدينية في معاني المدح .

ويقول في موضع آخر مستغلاً أيضاً الكعبة والحج والطواف في الشراب :

قم فانحر الراخ يوم النحر بالماء  
أدرك حجيج التدامي قبل نفرهم  
وعن على مكة الروحاء مبتكرا  
ولا تُضح ضحى إلا بصهباء  
إلى متى قصفهم مع كل هيقاء  
فطف بها حول ركن العود والتاء

## شعراء مصريون آخرون من القرن الرابع

عرفت مصر من القرن الرابع وفي ظل الفاطميين جماعة من الشعراء قصدوا المعز لدين الله ، والعزیز عثمان والحاكم بأمر الله ووزرائهم كيعقوب بن كلس ، والقائد جواهر الصقلي .

وتذكر منهم المصادر الحسين بن بشر<sup>(١)</sup> وابن أبي الجوع عبد الله بن محمد<sup>(٢)</sup> وكان الحسين بن بشر على قول الصنفدي هجاء ، هجا ابن كلس وغيره من رجال الدولة ، وأمر العزیز عثمان بتعزيره ، ومات لقاء تهجمه<sup>(٣)</sup> . قال عنه ياقوت في معجم الأدباء :

« شاعر مشهور مذكور ، جيد الشعر ، على الطبقة ، مشهود له بالفضيلة » وقال عنه عبد المحسن الصوري الشاعر : « ما رأيت فيمن شاهدته من الشعراء أعلى طبقة من ابن بشر ، ولا أحسن طريقة » .

قال الصنفدي : « وشهادة عبد المحسن له بذلك ، مع تقدمه وفضله ، والإجماع على إحسانه فضيلة له لا تجحد ، ومزية لا تدفع . وشعره نحو خمسة آلاف بيت » .

ويذكر من شعره قوله عن نفسه :

حصلتُ من الدنيا على الشعر رتبة      قُضارايَ فيها أن يُقالُ مُجوِّدُ  
فأكرمهم من برِّي باستماعه      وأجوِّدُهم من قال شعركُ جيِّدُ

ويبدو أنه سافر من مصر إلى الشام والتقى بمدينة يافا بالشاعر عبد المحسن البصوري ولازمه زمناً أو لعله لقيه بمصر .

ويبدو أنه لم يعتمد على الشعر في رزقه ، وإن كان بعض أولى الأمر يبخشونه

(١) ترجم له الصنفدي بالوقاي ١٢ / ٣٤٣ .

(٢) ترجم له الصنفدي بالوقاي ١٢ / ٥٢٧ .

(٣) الرواي بالوقيات ٢ / ٣٤٥ .



وكان يمدح الوزير ابن كلس كما قلنا ، وروى له المقرئ أبياتاً فيه أتشدده  
إياها بمناسبة ألم أحسن به الوزير في يده ، ويشير إلى الخليفة العزيز فيقول (١) :

بُدِّ الوَزيزِ هِي الدُّنْيَا فَإِنَّ أَلَمَ الثَّ  
تَأْمَلُ الْمَلِكُ ، وَأَنْظُرُ فَرَطَ عَيْتِهِ  
وَشَاهِدُ الْبَيْضَ فِي الْأَعْمَادِ نَائِمَةً  
وَأَنْفُسُ النَّاسِ بِالشُّكُوبِ قَدْ اتَّصَلَتْ  
هَلْ يَنْهَضُ الْمَجْدُ إِلَّا أَنْ يُؤَيِّدَهُ  
لَوْلَا الْعَزِيزُ وَآرَاءُ الْوَزِيرِ مَعًا  
فَقَلَّ لِهَذَا وَهَذَا أَنْتُمَا شَرَفَ  
كِلَاكُمَا لَمْ يَزَلْ فِي الصَّالِحَاتِ يَدَا  
وَلَا أَصَابِكُمَا أَحْدَاثُ دَهْرِكُمَا  
وَلَا انْمَحَتْ عَنْكَ يَا مَوْلَايَ عَافِيَةٌ

وبذكر الشعالي جملة من شعره . كقوله :

أَظُنُّكَ يَا سَيِّدِي إِذْ جَفَوْتَ  
وَنَحَلْتَ بِأَنْبِي مَلَالًا سَلَوْتَ  
وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي عَلَيَّ  
تَوَهَّمْتَ لِي نُبُوَّةَ الْغَايِرِ  
وَلَسْتُ بِسَالٍ وَلَا صَايِرِ  
كَ أَشْفَقُ مَتَى عَلَى نَاطِرِي

وقال في مליح يمك بشمعة :

صَالِحٌ يَا مُشَبَّهَ بَدْرِ الدُّجَى  
وَجْهَكَ فِي اللَّيْلِ كَشَمْسِ الضُّحَى  
بِالْحَسَنِ وَالْإِشْرَاقِ وَالرَّفْعَةِ  
نُورًا ، فَمَا تَصْنَعُ بِالشَّمْعَةِ

وقال فيه :

يَا أَطِيبَ النَّاسِ رِيحًا  
وَمَا بِهِ أَتَصَدَّى الْ  
هَاتِ اسْقِنِي أُوتِرَا  
وَأَحْفَظْ عَلَيَّ قَوَادِي  
وَأَطِيبَ النَّاسِ رَاحًا  
إِطْرَابَ وَالْأَفْرَاحَا  
لِي لَا أَعْرِفُ الْأَقْدَاحَا  
أَنْ لَا يَطِيرَ ارْتِيَاخَا

(١) المخطوط ٧/٢ .

لو كُنْتُ كاسْمِكَ يَا صَا      لِحُ اعْتَمَدْتُ الصَّلَاحَا  
لَكِنْ أَيْ اللَّهَ إِلَّا      أَنْ تُفْسِدَ الْأَرْوَاحَا

وكتب إلى بعض أصحابه ليستدعيه وقد أوشك شعبان على الإنقضاء  
وأصبح رمضان على الأبواب :

شعبان قد صارَ نَضْوَا      ولم يُفِدْ فِيهِ لَهْوَا  
وليس ذلك مَسِينَا      جهلاً ، ولا كان سَهْوَا  
فبِالْمَسْوَدَةِ إِلَّا      بَكَرْتُ لِلْقَصِيفِ عَدْوَا

أبو الفتح ابن البينى :

ومن شعراء المصريين في القرن الرابع : أبو الفتح ابن البينى (١) (ت سنة  
٤١٥ هـ) واسمه منصور عاش في مصر في آخريات القرن الرابع ، ومدح  
رجالها ، ومن بينهم القاضى محمد بن النعمان قال فيه مخاطباً حاجيه (٢) :

فَقُلْ لِأَبِي عَيْدِ الْإِلَهِ بِأَنْبِي      سَقِيمٌ إِلَى الْأَسَى شَكَايَةَ دَائِهِ  
وَلَيْسَ التَّشْكِيُّ شِمْتِي غَيْرَ أَنَّهُ      يَفِيضُ إِنْاءً زَيْدٌ فَوْقَ امْتِلَائِهِ

\*\*\*

وَيَسُطُّ آمَالَ حَيَاءٍ بِوَجْهِهِ      وَبَعْضُ حَيَاءِ الْمَرْءِ تَرْبُ سَخَائِهِ  
وَخَلَقَ كَأَمِ الْمَزْنِ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ      تَرَى كُلَّ عَيْنٍ فِيهِ مَا فِي ضَمِيرِهَا  
كَذَلِكَ لَوْنُ الْمَاءِ لَوْنُ إِنْاءِهِ      يَضِلُّ بِهَا قَرْنَ الضُّحَى عَنْ دُكَائِهِ  
أَلَسْتُ إِلَيْهِ جُبْتُ كُلُّ تَوْفَةٍ

ويذكر في أثناء وجوده بمصر أنه خرج إلى جهة المقس على شط النيل ولقي  
فتاة سمراء فنظم فيها أبياتاً ، قال المسيحي : قال : خرجت إلى المقس متنزهاً ،  
فلقيت جارية سوداء مليحة فتبعتها فقلت :

وغازلة غازلتها      في المقس من أولاد حام

(١) ترجم له المسيحي انظر الجزء الذى قام بتحقيقه د . حسين نصار ، والمغرب قسم مصر بتحقيق  
زكى محمد حسن ود . شوق ضيف ص ٢٧٢ ، والينيمه للثعالى ١ / ٣٤٣ .  
(٢) المصدر السابق ص ١٠ المسيحي طبع المعهد العلمى الفرنسى .

ونظرت من عيني قطامي<sup>(١)</sup>  
 برق نالت في غمام  
 وتبعتها رثك الثعام  
 فحصلت في البيت الحرام  
 لما جشوت لها بلاسي  
 جمعت غرابا مع حمام

نضرت بعيني ضيية  
 وتسمت فكأتهما  
 نمت مشت مشي المها  
 حسي وصلنا بيتها  
 وجعلت أفتح ميمها  
 كانت - لعمرك - ساعة

ونلاحظ هذه التورية في غزله المكشوف أو فعله .

ومن حديث الشاعر وما ورد من أخباره القليلة ندرك أنه سافر إلى الشام ،  
 وحل ببعض بلاده ومدح رجلا هناك وذكر المسيحي أنه كتب إلى من يسمى  
 أبا الحسين على بن نخوار وهو بجلب يقول :

هزيعا، وهل للظبي في الليل مسرب  
 ومن فوقها غيل الدجى المتأشب  
 به مشرق حتى الصباح ومغرب  
 إلى أمد ما خلفه متعتب  
 وقد حاز جفيتها خيال محجب  
 تهادى بها في طرة العرّب كوكب  
 وعمر بما قد ناله كيف يسلب  
 على أفيها عين الرقيب ترقب  
 وتشتت في صدر النهار وتصلب  
 كما مدّ كفيه إلى الله مذنب  
 وكان كظل الرمح ما جئت أطلب  
 وربما غرّ الرقيب التجنب  
 على عجل والليل بالصبح أشيب  
 توجس ليث من الوحش أغلب  
 إذا لمعت كائن دما يتصب

سرى في سبيل القوم ظبي مرّب  
 وإنني اهتدى، والأرض بيني وبينه  
 نيا لك من ليل طوى النأي فالتقى  
 وما زالت العتبي تردّد بيننا  
 ودلني وعيني ترسل الدمع خلفه  
 فسمت كأن علفت قلبي بنظرة  
 لكل امرئ عمر بما لا يناله  
 وليلة ليلي والرقيب كأنه  
 بحيث ترى الحرباء تغبر في الدجى  
 وقد مدّ كفيه إلى الشمس ما تلا  
 سلام كإبهام القطاة لبسته  
 وما زلت أرمي بالتجنب منهم  
 وما زرتها إلا كخفقة طائر  
 في ذيله ذئب من الإنس أطلس  
 وفي منصل التصل اليماني برقة

(١) النظامي : المتر .

فَضِيضًا عَلَيْهِ شَعْلَةٌ تَنْلَهُبُ  
يَقْدُ ثَمَالًا أَوْضِيًا حِينَ أَضْرِبُ  
إِذَا كَانَ حَقًّا مَا إِلَى الْعَوْلِ يُنْسَبُ  
تَنَاهَتْ ، وَفِي شَرْخِ الشَّيْبَةِ مَلْعَبُ  
لِيَذْوِي ، وَمُحَضَّرٌ لِيَنُمُو وَمُعْتَسَبُ  
وَيُنزَعُ عَنْهُ حُسْنُهُ حِينَ يَنْضَبُ  
مِنَ الْأَلِّ بِحَرٍّ ، أَوْ مِنَ الْبَحْرِ سَبَبُ  
صَدَعَتْ بِهِ عَنْ زُرْقَةِ الْمَاءِ طَحْلُبُ  
تِلَافًا أَرَاهَا مِثْلَهَا حِينَ تَحْبُبُ  
يَرَى خَافِيَاتِ الْغَيْبِ وَهُوَ مُغَيَّبُ

إِذَا سَلَّ نَحَلْتُ الْغِمْدَ أَسْلَمَ جَذْوَلًا  
يَقْدُ الْمِقَاضَ السَّرْدَ رَهْوًا كَأَنَّهُ  
فَمَا كَانَ إِلَّا ضَرْبَةُ الْعَوْلِ بَيْنَنَا  
أَطَعْتُ الصَّبَاحَتِي أَرْعَوْتُ لِي خَلِيقَةً  
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالثِّيَابِ مُصَوِّحُ  
يُسْرِبُهُ مَاءُ الشَّبَابِ نَضَارَةٌ  
دَعَانِي ابْنُ نَحْوَارٍ عَلِيٌّ وَبَيْنَنَا  
فَجَبْتُ عَنِ الْفَجْرِ الظَّلَامِ كَأَنَّمَا  
بَعِيسُ أَرَى مِنْ خَلْفِهَا فَرَطُ خَلْقِهَا  
إِلَى مَلِكٍ كَالْقَلْبِ خَلْفَ حِجَابِهِ

حتى يقول :

وَتَلْبَسُ أَثْوَابَ الدُّجَى حِينَ يَغْضَبُ  
بِعَيْنِي تَحَلُّو فِي فَوَادِي وَتَعْدُبُ

كَذَا تُشْرِقُ الدُّنْيَا إِذَا كَانَ رَاضِيًا  
كَرِيمٌ مَتَى أَعْجَمَ أَمِيرَةٌ وَجْهِهِ

ويختم بقوله :

تَوَجَّهُ لِقَاةُ صَدِيقٍ وَمَكْسَبُ  
فِيَسْتَعَى إِلَى شَيْءٍ سِوَاهَا وَيَنْصَبُ  
وَيَعْمُرُ مِنْ دُنْيَاهُ مَا يَتَخَرَّبُ  
بَلِيغًا ، وَفِي صَرْفِ الزَّمَانِ مُؤَدَّبُ

إِذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَقْلٌ فَحَيْثُمَا  
يَنَالُ الْفَتَى بِالْخَفْضِ بُلْغَةَ عَيْشِهِ  
يُخَرَّبُ مِنْ أَخْرَاهُ مَا لَيْسَ فَايِنًا  
عَلَى أَنْ فِي الْأَيَّامِ لِلْمَرْءِ وَاعْظَا

ونلاحظ في هذه القصيدة التي رواها المسبحي ملاح من صنعة البيهقي الشعرية وأولها تأثيره ببعض مصطلح الشعر القديم وصياغاته دليلاً على حفظه للكثير منه ومن ذلك قوله واصفاً قصر الظلام : « ظلام كإبهام القطاة » و « كظل الرمح » و « الليل بالصبيح أشيب » .

وأنه حل أو فصل معنى لذي الرمة ، تناوله الشعراء كثيراً ، وهو يصف قطعه البيداء على راحته ومعه سيفه .

ونلاحظ بناء القصيدة التي مدح بها هنا على النهج القديم بادئاً بالغزل ،

كنه صورته نسيباً بدوياً ، يرحل فيه إلى محبوبته رحلة المخاطر ، وقد أعد لها من  
جرأة القلب والسلاح ما يتغلب به على صعاب الطريق .  
ويختم القصيدة بأبيات من الحكمة .

ونلاحظ في صنعته الشعرية غرابة بعض التشبيهات والصور على غير المؤلف  
ومنها تشبيه الحرباء وقد مدت كفيها بأنها كمن يمد كفيه بالدعاء ، مبدلاً صورة  
الشاعر القديم الذي شبه الحرباء في الضحى وكأنها كمن يمسك بالقوس والرمح  
مستعداً للرمى . وتشبيه الزيارة وقصرها بأنها كخفقة طائر . وتشبيه الدرع  
بالبثال وهو الماء القليل في قوله :

يَقْدُ الْمَقَاضِ السَّرْدَ وَهَوَا كَأَنَّهُ      يَقْدُ ثُمَالًا ، أَوْضِيًّا حِينَ يَضْرِبُ  
ويعتمد في تشبيه الناس بالزرع على القرآن الكريم في قوله :  
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالثَّيَابِ مَصْوَحٍ      لِيَذُوبَ وَيَخْضَرَ لِيُنْمُو وَمُعْشِبُ  
ومن غريب تشبيهه كذلك قوله :

إلى ملك كالقلب خلف حجابهِ      يرى خافيات الغيب وهو مغيب

ومثل هذه القصيدة في بنائها البدوي ، قصيدة أخرى أوردها له المسيحي  
في مدح محمد بن جعفر بن فلاح أحد أمراء الفاطميين ، ممن تولوا دمشق  
وإمارة الشام في عصر المعز والعزیز يقول في مطلعها<sup>(١)</sup> :

صَدْتُ وَمَنْزَلُهَا مِنْ مَنْزِلِ صَدْدِ<sup>(٢)</sup>      وَأَخْلَفْتُكَ عَلَى الْعَلَاتِ مَا تُعَدُّ

ويغرب في صورها وتشبيهاتها كما فعل في القصيدة السابقة ، كقوله :  
كَأَنَّ حُخْفَى قَضِيْبٍ فِي صَنْوَبَرَةٍ      تُجَادِ ، فَلَمَاءٍ عَنْ أَوْرَاقِهَا بَدْدُ  
ومن صورته التي تكررت قوله يشبه النجوم حول البدر أو الحجر البيضاء في  
السماء المسماة بدرج التبانة بالطير تحوم على غدیر الماء ، وهي صورة غريبة ،  
وإن كررها في قصيدته :

(١) تاريخ المسيحي ص ١٦ .

(٢) صدد الشيء قبالة وأمانه .



فقد ذكر في هذه القصيدة قوله (١) :

ولاح بدرُ الدُّجى نَهياً وأنجمهُ طيراً تَرِفُ حَوَالِيهِ ولا تَرِدُ (٢)

ويذكر في القصيدة نهر حلب المسمى بِقَوَيْق ، مشبهاً بالبيض حف الزرد بحافته ، فصورة الماء في هذا النهر القليل الغور ، وهو ينساب حول الحصى والصخر في مجراه يشبه تلك الصورة التي رسمها من خياله وهى صورة غريبة في تركيبها ، وإن لم تكن غريبة في جزئياتها لأن تشبيه الماء المنساب في الجدول بالزرد أمر وارد متكرر في شعر القدماء .

وهو مغرم بالأمثال والحكم يسوقهما كل حين في أثناء قصيدته ، كأن يقول في القصيدة :

وما دُنُوكَ مِن لا حِفَاطَ لَهُم على المودة إلا النأى والبعدُ  
وكقوله :

دغ من قلاك وواصل من ظفِرت به كل البرية عيمان يقودهم  
ويضمن شعره أمثالاً قديمة كقوله :

أبقى الزمان على لباته عِدَّة وإنما يُنجِزُ الأحرارُ ما رَعَدُوا  
من المثل السائر : أنجز حرُّ ما وعد  
وأورد له المسبحى أرجوزةً خميرية يقول فيها :

نَبهني ديكٌ صدَح والصُّبحُ قد بانَ لَهُ  
والطلُّ في ذَنبِ الدُّجى فأقبَلتُ في حُللِ  
والبدرُ أبدي صَفْحَةٌ تحيلُ لي رُجاجةً  
واندفعْتُ تسكُّبُ لي  
فقلتُ قومي يا مَلَح في كَفَلِ اللَّيْلِ وَضَح  
إن لم يسَل منه رَشَح كالشمسِ في قوسِ قَرْح  
من جِده حينَ سَبَح منلأى مُدَامَا ، وَقَدَح  
منها سُورًا وَقَرْح

(١) السبحى ص ١٧ .  
(٢) النى الفدير .

حتى يقول :

فلم نزل نثرُها حمراء كاليسك نفتح

ويقول فيها :

جدد لي عهد الهوى  
لست امرؤا إذا اغتدى  
من بعد ما عفى ومع  
يعرف في الطير الروح  
إذا أصبت فرحة  
سألمة من الترح  
فما أبالي في غد  
خاب قد جى أم نجح

وقد ذكر له ابن رشيقي بيتاً في الشمعة يقول :

قد شابهتني في لون وفي قصيف  
وفي اختراق وفي دمع وفي سهر

وذكره الثعالبي وعلق عليه بقوله : « هذا تشبيه خمسة بخمسة ، وقد أجاد غاية الجودة » .

ومنهم :

أبو الحسين محمد بن عثمان الفصيح (١) :

بذكر له المسبحي قصيدة رائية طويلة جيدة ، مدح بها أبا محمد الحسن بن  
عمار أمين الدولة وأحد وزراء الحاكم بأمر الله ( قتل في شوال سنة  
٣٩٠ هـ ) . يقول في هذه القصيدة :

أبا صاحبي زحلي أجد مسير  
وقفنا وقد مالت بنا نشوة الكرى  
ألا فانظراني والتائف زور  
وللتوم في عين المهاة فتور  
مرثها شمال قرّة ودبور  
وما زاد ظمء الشوق إلا ركيّة

وتبدو سمات البداوة واضحة في اللفظ والأخيلة ، ويمضي ليصف التوق وقد  
أجهدتها الرحلة إلى المدوح حتى بلغته :

فجاءتك أمثال القطا الجوني صرصرت  
بطان. ترى المسكى والروض موزق  
عليهن في الجوّ المنيع صقور  
به ، ويردن الماء وهو نيمير

ويعضى على نسق صاحبه المنصور ابن البيهني في صياغة معانيه على طريقة  
الأمثال والحكم يتابعها في أبيات متتالية في نسق فيقول :

فلا تتأينَّ اليومَ يسلم نفسه      ألا إنَّ يومَ التَّرهاتِ غرورُ  
فقد تفضَّحَ النارُ الدُّجى وهي جمرَةٌ      ويقطعُ حدَّ السيِّفِ وهو قصيرُ  
وريتما هيبَ الفتى وهو عاجزٌ      وعُظْمُ شأنِ الأمرِ وهو حقيرُ

ويشير فيها إلى أنه من رجال الحاكم ومدير عسكره إذ يقول :

وإنَّ السيوفَ الحَاكِمِيَّةَ قُطِعَ      وعند رِقَابِ الخَالِعينِ نُورُ  
يشقُّ العصا العبدُ اللئيمِ وإنَّهُ      إلى مِثْلِهَا في النَّثَائِيَّاتِ فقيرُ

أتراه هنا يشير إلى عصيان أبي ركونة وثورته على الحاكم أم يذكر أمرا آخر ؟  
ومعروف أن محمد بن عمار هذا مغربي من كتامة . وهي القبيلة التي عاضدت  
المعز وجاءوا معه إلى مصر ، واتخذ الخلفاء منهم رجالاً في مناصب الدولة  
الكبرى وخلعوا عليهم ، وقربوهم . يقول :

وهل أنجمُ العلياءِ إلا كتامة      فليستُ.. وإن غارَ الزَّمانُ.. تُفُورُ  
وأى وحزبُ الله لا حزبَ غيرِهِ      هُمُ وأميرُ المؤمنينَ أميرُ

ومنهم : ابن رشد بن أبو علي صالح (١) :

ذكره الثعالبي في اليتيمة وقال إنه أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب  
صحب المتنبى وروى شعره . وكان جيد المعاني . وعاش حتى لحق بالدولة  
الفاطمية ومدح رجالها مثل أبي الحسن علي بن جعفر بن فلاح الكتامي الذي  
ولى دمشق والشام كما تولى في مصر بعض المناصب الكبرى حتى قتله الحاكم .

وكان يغشى مجلس حسين بن جوهر القائد . وعرف الشريف الرسي أبا عبد  
الله محمد بن علي نقيب الطالبين بمصر ، والأمير أبا تميم سلمان بن فلاح وله في  
كل هؤلاء أبيات ذكرها المسبحي ، وهي من الشعر الوسط سهل اللفظ الذي  
عرف به الكتاب في القرن الرابع ، وترجم له الثعالبي في اليتيمة ، وجاء ببعض  
أخباره متفرقة ، كما ترجم له ابن سعيد في المغرب (٢) .

\* \* \*

(١) المسبحي ص ٣ .

(١) فوات ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) المغرب ج ٣ ص ٢٥٣ .

## الفصل الثالث شعراء وافدون في القرن الرابع

- (١) أبو الرقعمق الأنطاكي ( ت ٣٩٩ هـ )
- (٢) الرقيق القيرواني ( ت حوالي سنة ٤٢٥ هـ )
- (٣) صريع الدلاء البغدادي ( ت سنة ٤١٢ هـ )
- (٤) عبد المحسن الصوري ( ت سنة ٤١٦ هـ )



أبو الرقعمق  
أحمد بن محمد الإنطاكي — أبو حامد  
( ت سنة ٣٩٩ هـ )

انطاكي النشأة كما تدل نسبته ، ولم تورد المصادر شيئاً عن ولادته ، قدم إلى مصر بعد أن ثبت قدمه في الشعر .

ذكره الثعالبي في اليتيمة<sup>(١)</sup> وقال عنه : هو نادرة الزمان وجملة الإحسان وهو أحد المدّاح المجيدين والشعراء المحسنين . هو بالشام كابن الحجاج بالعراق . «

قدم مصر ، وذكر أن ذلك كان في بداية الدولة الفاطمية زمن المعز لدين الله . وأقام بها طويلاً فعاصر من الخلفاء العزيز بالله ، والحاكم بأمر الله .

قال ابن خلكان<sup>(٢)</sup> : « إنه أقام بمصر طويلاً ، وإن معظم شعره قد نظم في مدح أمرائها ورؤسائها » ، فمن مدح المعز والعزيز والحاكم ، وجوهر الصقلي والأمير تميم بن المعز ويعقوب بن كلس .

كما اتصل ببعض الأشراف الرّسّيين ، ومدحهم .

وذكر أنه لقب بالرقعمق لرقاعته في شعره ومجونه<sup>(٣)</sup> . وذلك لقوله :

ولم أكسب الحمق لكنني      خلقتُ رقيعا كما قد ترى  
لقد فقتُ فيه كما الفارس      في الرّمي فاق جميع السورى

وقوله :

قد أجمع الناس أن حمقى      أحسن من عفتى ودينى  
قد عشتُ دهرأ أعول عقتى      والناس إذ ذاك يعلونى  
فمذ تحامقتُ قد كسانى      حمقى ، وقد عالنى جنونى

قال عنه صاحب اليتيمة إنه مع اشتهاره بالحمق والمجون إلا أن له الشعر الجاد

(١) ٢٣٩٨/١ .

(٢) وفيات ١/٤٨ .

(٣) يتيمة الدرر ١/٧٩٧ .

في المديح ، قال : « ومن تصرّف بالشعر الجزل في أنواع الجّد والهنزل واحرز قصب الفضل . وهو أحد المدّاح المجيدين ، والفضلاء المحسنين » .

قال ابن خلكان : وأقام بمصر طويلاً وأظنه توفي بمصر سنة ٣٩٩ هـ .

شعره :

ونبدأ الحديث بشعره الجاد في المديح . واعتبر الثعالبي وغيره قصيدته في العزيز بالله ويعقوب بن كلس الرائية من عيون شعره وغرره . قال الثعالبي : « فمن غرر بحاسته قوله بمدح من قصيدة أولها :

قد سمعنا مقاله واعتذاره والمعاني لمن غيبت ولكن من مراديه أنه أبد الدهر عالم أنه عذاب من الله مباح هتك الله سيرة فلکم فتد سخرتني الحاظه وكذا كل ما على مؤثر التباعد والإعرا وعلى أنني وإن كان قد عد لم أزل لا عديمته من حبيب	وأقلناه ذنبه وعشارة بك عرضت فاسمي بإجاره ر تراه محلاً أزراره لأعين النظارة ك من ذي تستر أبتاره مليح الحاظه سحارة ض لو آثر الرضا والزياره ب بالهجر مؤثر إشاره أشتهى قرنه وآى نفااره
---	--

وتلك المقدمة الغزلية ، تبدو مغايرة في نهجها لما اعتدناه في الشعر العربي التقليدي . يميل فيها إلى الروح الشعبية في الحديث ، واللفظ ، ولا تخلو من روح تحامق أو عبث . ويقول في مديحها يعنى الوزير يعقوب بن كلس :

لم يدع للعزيز في سائر الأثر فلها اجتباه دون سواه لم تشيد له الوزارة مجداً بل كساها وقد تخرمها الدهر كل يوم له على ثوب الدهر ذو يد شأنها الفرار من البخ هي قد قلت عن العزيز عداه هكذا كل فاضل يده تمسب	ض عدواً إلا وأخذ ناره واصطفاه لنفسه واختاره لا ، ولا قيل رفعت مقداره ر جلالاً وبهجة ونضارة ر ، وكر الخطوب بالبدل غاره ل ، وفي حومة الوغى كراهه بالعطايا وكثرت أنصاره سى وتضحى نفاعه ضاراه
--	--

فاستجِرَةٌ فليس يأمنُ إلا  
 فإذا ما رأيتُهُ مطرقاً يُعَمِّبُ  
 لم يَدْعُ بالدكّاءِ والدّهْنِ شيئاً  
 لا ولا موضعاً من الأرضِ إلا كا  
 زاده اللهُ بسُطّةٍ وكفاه  
 مَنْ تَفِيّاً بظِلِّهِ واستجَارَةٌ  
 سَلَّ فيما يُرِيدُهُ أفكارَةٌ  
 في ضميرِ الغيوبِ إلا أنارَةٌ  
 نَ بالرأْيِ مُدْرِكاً أخطارَةٌ  
 خوفه من زمانِه وحذارَةٌ

مديح يخرج عن طرق التقليد فيه ، فلم يجر على ما اعتاده الشعراء من ذكر  
 الشجاعة والكرم واستخدام العناصر التعبيرية المعتادة من اللفظ والصور البيانية في  
 حديث الشجاعة بالاقدام وقهر الأعداء ، وحديث السيوف والرماح ، ولا جاء في  
 الكرم بذكر الغيث والسحاب والمطر . بل عرض معاني السماح والدكّاء والحنكة ،  
 وهي خصائص ميزت الممدوح ، فلم يكسبه صفات ليست به ، ولا بالغ مبالغته  
 تخرج عن قبول الذوق لها ، وتصبح مجرد بطاقات يعلقها الشاعر على ممدوحه  
 مستعارة في معظمها .

وفي حديث العباسي في معاهد التنصيص خبرٌ غريب يخالف فيه الثعالبي وابن  
 خلكان . إذ يشير إلى أنه لحق بعصر كافور الإخشيدى ، قبل وفود المعز إلى  
 القاهرة .

يروى العباسي على لسان أبي الرعمق قوله<sup>(١)</sup> :

« كان لي إخوان ( أربعة ) ، وكنتُ أنادمهم أيام الأستاذ كافور الإخشيدى  
 فجاءني رسولهم في يوم بارد ، وليست لي كسوةٌ تُحصنني من البرد ، فقال  
 إخوانك يُقرعونك السلام ويقولون لك : قد اصطبحنا اليوم وذبحنا شاةً سمينة ،  
 فاشتبه علينا ما نطبخُ لك منها . قال فكتبت إليهم :

إخواننا قصدوا الصبوح بسحرةٍ      فأق رسولهم إليّ خصوصاً  
 قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخةً      قلتُ اطبخوا لي جُبةً وقميصاً

وتشير هذه النبذة من حديث العباسي إلى وفوده لمصر قبل الفاطميين . ونعود  
 إلى حديث المديح في شعره الجاد بمدح الوزير ابن كلثوم كذلك . يقول<sup>(٢)</sup> :

(١) معاهد التنصيص ٢ / ٢٥٢ .

(٢) بتيمة الدرر ١ / ١٨١ .



إِنَّ رِبْعاً عَرَفْتَهُ مَأْلُوفٌ  
 غَيْرَتْ آيَهُ صُرُوفُ اللَّيَالِي  
 مَا مَرَّرْنَا عَلَيْهِ إِلَّا وَقَفْنَا  
 أَلْفَا فِيهِ لِلْبُكَاءِ كَأَنِّي  
 حَاسِدٌ لِلجَفْوُونِ لَمَّا أَرَأَيْتُ  
 إِنَّ يَعْقُوبَ قَدْ أَفَادَ وَأَقْنَى  
 سَلَّ سَيْفًا مِنَ البَصِيرَةِ وَالرَّأَى  
 بِإِذْلًا لِلعَزِيزِ دُونَ حَمَاهُ  
 لَمْ تَزَلْ دُونَهُ تَخْوَضُ المَنَايَا  
 نَاصِحًا مَشْفِقًا مَحِبًّا وَوَدِيدًا  
 لَيْسَ تُحْشَى فِسَادَ أَمْرِ تَوَلَّا  
 مَا رَأَيْتَهُ قَطُّ إِلَّا رَأَيْتَنَا  
 وَرَأَيْتَنَا قَرِيبًا كَبِيرًا هُمَامًا  
 لَدَدَ طَعْمِ العَطَاءِ فَهَوَّ إِذَا جَا  
 خَلَقَ مِنْهُ مِنْذُ كَانَ كَرِيمٌ  
 وَيُرِيشُ الفَقِيرَ بِالبَدْلِ والجُو  
 فَأَرَانَا الأَلَهَ صَرَفَ اللَّيَالِي

كَانَ نَلِيضُ مَرْبَعًا وَمَصِيفًا  
 وَغَدَا مِنْهُ حَسَنُهُ مَصْرُوفًا  
 وَأَطَلْنَا شَوْقًا إِلَيْهِ الوُقُوفًا  
 لَمْ أَكُنْ فِيهِ لِلغَوَايِي الوُفَا  
 فِي مَغَانِيهِ دَمَعَهَا المَذْرُوفَا  
 وَأَعَادَ النَّدَى وَأَغْنَى الضَّعِيفَا  
 يَ، فَأَغْنَاهُ أَنْ يَسْلُ السَّيُوفَا  
 مَهْجَةً حَرَّةً وَرَأْيَا حَصِيفَا  
 وَتَرُدُّ الرَّدَى وَتَلْقَى الصَّفُوفَا  
 قَائِمًا فِي رِضَاهُ، صَعْبًا عَسُوفَا  
 هُ، وَأَضْحَى بِرَأْيِهِ مَكْنُوفَا  
 خُلِقْنَا طَاهِرًا، وَفَعَلًا شَرِيفَا  
 مُنْعِمًا، مُفْضِيلاً، رَحِيمًا، رَعُوفَا  
 دَ وَأَعْطَى يَرَى الكَثِيرَ طَافِيَفَا  
 يَسْتَلِدُّ النَّدَى وَيَقْرَى الضَّيُوفَا  
 دِ، وَيَعْطَى وَيَسْعَفُ المَلْهُوفَا  
 أَبَدًا عَنِ فَنَائِهِ مَصْرُوفَا

وهذا المديح السهل الجارى بلغة الحديث طابعه وميزته ، ومع كل من مدح لم يتخل عن هذا الطبع . ويقول معرضاً بهذا المسلك في مديحه :

لمن أمدح بالشعر؟ لا أدري  
 ونابت نوبُ الدهرِ  
 ومن أقسم بالفجرِ  
 أصنع في أمرى  
 م ذورِ حُبْرِ  
 كُرَانِ بلا سُكْرِ  
 لغير الجهدِ والضرِّ  
 إلى الفاقة والفقرِ  
 لمن أمدح بالشعر؟  
 إلى من إن دجا خطبُ  
 فقد - والشفع والوترِ  
 تحيرتُ فما أدري الذى  
 على أتى بالدهرِ وبالأيامِ  
 ولكنى للحيرة -  
 كأتى لست مخلوقاً  
 ومد كنتُ قمدفوعٌ

فما أصنعُ في مصر	إذا لم أخطُ في مصرِ
وفي الآفاق أقوامٌ	يميلون إلى شعري
ونبتتُ بأنَّ القومَ	لا يخلون من ذكرى
فقيم الترك للسير؟	وهل في ذلك من عُذْرٍ
وقد قدّمتُ أثقالى	وسيرى غرة الشهرِ
فأما أكثر الحمق	فقد سيرتُ في البحرِ
وباقية معى يذهبُ	في البرِّ على ظهري
ولا أتركُ في مصر	لذكرى الحمقِ من أثرِ

وهذا الحديث عن حمقه أو تحامقه في مطلع قصائده يشير إلى أنه بضاعة التي يتفقُ بها شعره عند سامعيه بمصر ، ولهذا لا نعجب أن يبدأ بعض قصائد المديح بهذا اللون . وهذه الأبيات نفسها مقدمة لمديحة ينتقل عنها إلى موضوعه فيقول :

ألا يا مُنتهى الجودِ	وياذا المجدِ والفخرِ
ويا ابنَ السادة العُرِّ	ويا ابنَ الأنجم الزُّهرِ

ومن مدائحه التي تبدأ بهذا التحامقُ قصيدة في الخليفة العزيز نزار . قوله :

تُحَدِّ في هَنَاتِكَ مما قد عرَفْتُ به	مما به أنتَ معروفٌ ومَشهُورٌ
واحلكِ العصافيرِ صبي صبي صبي	إذا تجاوتني في الصبحِ العصافيرُ
ففيك ما شِيعتُ من حمقٍ ومسن هوسٍ	قليله لكثير الحمقِ أكسيرُ
كم رامَ إدراكه قومٌ فأعجزهم	وكيف يدرك ما فيه قناطرُ
لأنك كبرن حماقاتي لأنَّ بها	بلوَاء حُمقى في الآفاق منشورُ
ولستُ أبغى بها إخلاً ولا بدلاً	هيهاتَ غيري يترك الحمقِ معذورُ
أستغفرُ الله مما قلته عبثاً	لغير شيءٍ، وما في الصحفِ مسطورُ
أقول للنفس لما استشعرتُ جزعاً	وباتَ يردُّعها خوفٌ وتحذيرُ
إنَّ الإمامَ نزاراً مدحه فنقي	ذخرٌ لمثلِكَ عند الله مذخورُ
هو الذي ليسَ بعد الله من أحدٍ	سواه في النَّاسِ محمودٌ ومشكورُ
مُسَمَّرٌ في المعالي ذئبٌ مجتهدٌ	وما له في سوى العلياء تسميرُ

فالتحامقُ إذا كان مدخله إلى مديح من مدح من الخلفاء والملوك والأمراء ، ولعلهم وجيزا فيه مادة تسلية وترويح ، وتغنياً عن جاري الشعر الذي ربما شعروا

بالمثل من سماعه فأحبوا أن يسمعوا مثل قول أبي الرقعق فتأدى فيه وراج به عندهم .

ومن اتصل بهم في مصر الأمير تميم بن المعز ، وكان محباً للشعراء ممدحاً منهم ، كثير الانفاق عليهم . ويقول فيه على طريقته :

وإحسانِ تميم	عُدْتُ من عظم مصابي
بالأمير السيد الما	جِدِّ والقَرَمِ اللَّبابِ
والهامم المنعم الفضال	والبَحْرِ العُبابِ
والذي لا فرق ما بين	بِنِ جَدَّاهِ والسَّحابِ
لم أزره قط إلا	عُدْتُ محمودَ الإيابِ
ذكره أعذب في الأنف	سِ من ذكر الشَّبابِ
ولقد رقى عن الما	ءِ وعن طبع الشَّرابِ
أكرم في الرأى وفي الفض	لِ وقَسِّ في الخطابِ

ومما قاله في المديح في الشاعرين الشريف الحسيني الرسي وإبراهيم الرسي . يقول في إبراهيم :

حبذا الرسي مولى	رَضِيَ النَّاسُ وِلاه
جعل الله أعادي	ه من السُّوءِ فِداهُ
فلقد أيقن بالثر	وَةٍ من حَلِّ ذِراهُ
من رقى حتى تناهى	في المعالي مرْتَقاهُ
لم يضع من كان إبرا	هيم في الناسِ رَجاهُ
لا ولا يفرق من صرف	زَمَانٍ إن عِراهُ

ويقول في الحسيني متحامقاً (١) :

عجب ما مثله عجب	فعلوا بي غير ما يجب
قرقرت بطني فواحرني	ذقن من بالسَّلحِ يَحْتَضِبُ
هرباً من شرها هرباً	فَعَسَى أن يَنْفَعِ الهَرْبُ

(١) اليتمة ١ / ٣٨٩ .

وإلکم بتنا علی طرب  
وکوزیس الصفع دائرة  
وکان الصفع بینهم  
ورعوس القوم تُسْتَلَبُ  
ملؤها اللذات والطرب  
شعل النيران تلتهب

ويخرج إلى المديح فيقول :

وعجيب والحسين له  
أن شيربي عنده برق  
وهو القيث الميث إذا  
فإلى الرسي ملجونا  
راحة بالجوّد تُسْكِبُ  
ولديه مربي جذب  
أعوزتنا درها السحب  
من صروف الدهر والهرب

ولأن الرقعمق في الغزل ما رأيناه في بعض مديحه . وهو مطبوع كذلك بطابعه كما  
أخنا . ومنه قوله :

أظن ودادها من غير نية  
فتاة لا تمل عذاب قلبي  
ولا ذنب له إلا التواني  
ويعجيني التمتع والتشاجي  
فوا أسفا على حر يعزى  
وهل هي فيه إلا مدعية  
ولا تخلية وقتا من أذية  
لمن في الحب ليست بالويفة  
من الخود الممنعة الشجيرة  
أخا رزء على عظيم الرزية

أعجب عبد الرحيم العباسي بشعر أبي الرقعمق ، وذكر أنه سار على طريقة ابن  
الحجاج البغدادي في التحامق ، وأورد له منظومة رائية يقول فيها :

كتب الحصير إلى السرير  
فلا تمنن جمارتي  
لا هم إلا أن تط  
ولا تحيرنك قصتي  
إن الذين تصافعوا  
أسفوا علي لأنهم  
لو كنت ثم لقلت هل  
ولقد دخلت على الصديق  
متشمرأ متبخيرا  
فأذرت حين نبادروا  
أن الفصيل ابن البعر  
ستين من أكل الشعر  
سير من الهزال مع الطيور  
فلقد سقطت على الخبير  
بالقرع في زمن القشور  
حضروا ولم ألك في الحضور  
من أخذ بيد الضرب  
البيت في اليوم المطير  
للصفع بالدلو الكبير  
دلوى فكان على المدير

بالرجال تصافعوا فالصَّعُ مفتاح السرور  
هو في المجالس كالبحور وكالفلأيد في التحور

وهذه القصيدة أو النظم المتحاشق ، على وزن قصيدة جاهلية مشهورة  
مطلعها :

ولقد دَخَلْتُ على الفتاة الخِذْرَ في اليَوْمِ المطيرِ

وهو ضربٌ من العبتِ النظمي الذي يخرج فيه الشاعر أو الناظم عن جدية  
الموضوع إلى ضرب من المجون عند ابن حجاج والعبث اللامعقول عند أبي  
الرقعمق وهو ضربٌ من النظم أرى أن مبدعه أبو الرقعمق ، وسأر على دربه جماعة  
من المتحاشقين ، وقد عرف هذا الضربُ من بعده بمصر وغيرها في العصور التالية  
بشعر « الحماق » ظهر بصورة واضحة عند ابن دانيال وغيره من شعراء  
المصريين في القرنين السابع والثامن .

وأورد له العباسي مثلاً آخر مطلعاً (١) :

وقوققى وقوققى هديّة في طبّق  
أما ترونّ بينكم تيساً تطويل العُنُقِ

ومن قوله في هذا اللون نفسه :

كفّي ملامك يا ذات الملامتِ  
كانني وجنود الصّمع تبعني  
قسيس دبر تلاً مزمارة سحراً  
وقد مجنت وعلمت المجون فما  
وذاك أتى رأيت العقل مطرحاً  
إني سأدخّل عدالي على عدلي  
أفدى الدين نأوا والدار دانية  
كم قد نثقت سيالي في صدودهم  
سقياً ورعياً لأيام لنا سلفت

فما أريد بديلاً بالرقاعات  
وقد تولت مزامير الرطانات  
على القسوس بترجيع ورتات  
أدعى بشيء سيوى رب المجانات  
فجئت أهل زمانى بالحماقات  
في الحب إن عدلوني في الحرامات  
وشئتوا بالحقا شمل المؤذات  
والصدأصعب من تيف السبالات  
بالقفص قصرها طيب اللذات

(١) معاهد التصحيح ٢ / ٢٥٥ .

إذلاً أروح ولا أغدو إلى وطن  
أيام أسحب أذيال الهوى مرحا  
عوضت منهن أحزاناً تؤرقني  
بعد السرور وفرحاتٍ بترحاتٍ  
إلا إلى ربيعٍ خمارٍ وحنانٍ  
مُصرعاً بين سكراتٍ ونشواتٍ

ويعنى أبو الرعمق في مثل هذا الشعر الذى يبدو أنه راج به عند معاصريه فهو ملححة وسط صرامة الجذ ، وتحرر كما يقول من قيد العقل ، قد يحتاج إليه الإنسان ، يحتاج إلى مثل هذا الجنون ، أو اللامعقول .

ونختم حديثنا عن هذا الشاعر العجيب بهذه الآيات التى نظمها في زيارة له إلى مدينة تيس على بحيرة المنزلة ، وكانت مدينة عامرة ، مزدهرة بالبساتين والزهور ، يؤمها أهل الخلاعة ، وطلاب المتعة ، للشراب ، فقد كانت مشهورة بمحمورها لكثرة ما يزرع أهلها من الكروم ، ومنها يعصرون ويعتقون الشراب . وكان معظمهم من النصارى . ويذكر بعض منازة النيل والجزيرة ودير القصير . يقول :

لئبى بتيس ليل الخائف العانى  
أقول إذ لج ليلى في تطاوله  
لم يكف أئى في تيس مطرح  
حتى يلبث بفقدان المنام فما  
ماصاعداً البرق من تلقاء أرضهم  
ولا حننت إلى نجران من طرب  
لا تكذبين ، فماصروا إن بعدت  
ليالى النيل لا أنساك ما هتفت  
أصبوا إلى هفوات فيك لي سلفت  
مع سادة نجب ، غر ، غطارفة  
وذي دلال إذا ما شئت أنشدنى  
سقيته وسقاني فضل ريقته  
مازلت أجنى بلحظى وردو جنته  
مازال يأخذها صفراء صافية  
الله يعلم ما بي من صبايته

تفنى الليالى ، وتلى ليس بالفانى  
ياليل أنت وطول الدهر سيان  
مخيم بين أشجانٍ وأحزانٍ  
للنوم إذ بعدوا عهداً بأجفاني  
إلا تذكرت أيامي بنعمانٍ  
إلا تكفنى شوق لنجرانٍ  
إلا مواطن أطرابى وأشجاني  
ورق الحمام على دوح وأغصانٍ  
قطعتهن وعين الدهر ترعاني  
في ذروة الجمد من ذهل بن شيبانٍ  
وإن أردت غناءً منه غناني  
وجاد لي طرفه عطفاً ومثاني  
واستطير على ثفاج لبيانٍ  
حتى توسد يسراه وخلاني  
وما على جناة طرفه الجاني

عنى تصاحب نايات وعيدان  
باتت تجود عليها سحب نيسان  
عن اصف فاقع، وعن قانى  
كان اجفانه اجفان وسنان

كم باجزيرة من يوم نعمت به  
سقى ليلتنا بالديرين ربا  
والطل منحلر، والروض مبتسم  
والنرجس الغض منهل مدايمه

\* \* \* \* \*

مالى وللعقل، ليس العقل من شانى  
أحدوته، وبحب الحمق أغرانى  
ولا له فى اصطناع العرف من ثانى  
رحب المكارم سمح غير مثنانى

أستغفر الله من عقل نطقه به  
لا والذى دون هذا الخلق صيرنى  
ما للشذائى من مثل يقاس به  
مهذب الراى محمود خلائقه

## الرَّقِيقُ الْقَيْرَوَانِي

إبراهيم بن القاسم أبو إسحاق ( ت سنة ٤٢٥ هـ )

لقب بالرقيق (بقافين بينهما ياء مشددة) (١) ، نشأ بالقيروان ، في عصر  
ثبوت الدولة الفاطمية بها وبلغ الشباب عند انتقال المعز من القيروان والمهدية إلى  
القاهرة المعزية سنة ٣٦١ هـ .

وأخبار الرقيق شحيحة بالمصادر . وغاية ما حصلناه منها أنه تعلم بالقيروان  
وتنبح في الأدب كتابة وشعراً ، وعمل كاتباً في ديوان الصنهاجين وعرف بأنه  
كاتب الحضرة في الدولة الصنهاجية ، وظل بهذه الوظيفة ما يقرب من نصف  
قرن ، نخدم الأمير المنصور بن يوسف بن زيري ، وبأديس ابنه والمعز بن  
بأديس .

وتوجه مرتين أو ثلاثة من القيروان إلى القاهرة مبعوثاً من أمراء صنهاجة  
القيروان إلى خلفاء الفاطميين أيام أن كانت إمارة الصنهاجين تابعة للدولة  
الفاطمية ، في حكم المعز والعزیز والحاكم .

وأول مرة توجه فيها إلى القاهرة كانت سنة ٣٨٦ هـ مبعوثاً من الأمير  
منصور لتهنئة الحاكم بأمر الله بالخلافة ، وقد حمل معه هدايا ثمينة مع سجل  
التهنئة .

وأشده الحاكم قصيدة التهنئة يقول في مطلعها :

إِذَا مَا ابْنِ شَهْرٍ قَدْ لَبَسْنَا شِبَابَهُ      بَدَا آخِرٌ مِنْ جَانِبِ الْأَفْقِ يَطْلُعُ  
إِلَى أَنْ أَقْرَتِ جِيْزَةَ النَّيْلِ أَعْيُنًا      كَمَا قَرُّ عَيْنًا ظَاعِنٌ حِينَ يَرْجِعُ

قال عنه ابن رشيق : « الكاتب النديم ، شاعر سهل الكلام محكمه ، لطيف  
الطبع قويه ، تلوح الكتابة على ألفاظه . قليل الشعر . غلب عليه رسم الكتابة  
وعلم التاريخ ، وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق الناس ، وهو كاتب

(١) راجع نموذج ابن رشيق القيرواني ، ص ٢٨ ، طبع زين العابدين السنوسي دار المغرب العربي بتونس  
سنة ١٩٧١ م .



الحضرة منذ نيف وعشرين سنة إلى الآن . لعل ذلك كان في حدود سنة ٤٢٠ هـ .

قال حسن حسنى عبد الوهاب (١) : « المعروف بالرفيق وبالكاتب والنديم ، فإنه تولى في حجر البلاط الصنهاجى ، وباشر الكتابة الخاصة ، وترأس ديوان الرسائل مدة ثلث قرن ، وتردد سفيراً إلى الدولة الفاطمية أكثر من مرة » وسما ذكره في أفريقية ( تونس ) ومصر ، وشاعت تأليفه التاريخية والأدبية في الآفاق .

وكانت له عناية بالفنون ، لا سيما بالأنغام والألحان . وتقد. وضع كتاباً خاصاً عنوانه « الأغاني » .

ويقول ابن رشيق : « وكان قد وفد على مصر سنة ٣٨٨ هـ أو سنة ٣٨٦ هـ على حد قول المقرئى ثمانية وثمانين وثلاثمائة بهدية من نصر الدولة باديس بن زيرى إلى الحاكم ، فقال قصيدة ذكر فيها المناهل ثم قال :

إذا ما ابن شهر قد لبسنا شبابه      بدا آخر في جانب الأفق يطلُّع  
إلى أن أقرت جيزة النيل أعيناً      كما قرَّ عيناً ظاعنٌ حين يرجعُ

يقول فيها بعد مدح كثير ووصف جميل :

هدية مأمون السرية ناجح      أمين إذا خان الأمين المضيعُ  
وما مثل باديس ظهير خلافة      إذا اختير يوماً للظهيره موضعُ  
نصير لها من دولة حاقمية      إذا ناب خطب أو تفاقم مطمعُ  
جسام أمير المؤمنين وسهمه      وسم ذعاف في أعاديه منقعُ

وانتهز الرفيق وفادته إلى القاهرة ليلتقى فيها بجماعة من الشعراء والأدباء ، ولتتبع نفسه بمنازة مصر والقاهرة ، ويرتاد الأماكن التى يعتادها هؤلاء ، ويعقدون بها مجالس الأنس والشراب ، وقد ترددت أسماؤها كثيراً في شعر العصر مثل بركة الحبش ، ودير القصير بالمقطم وشاطيء النيل بالجيزة والمقس ، والروضة .

(١) ورقات ١/ ٢١٩ .

وكان الرقيق نزها ، رقيق الروح ، مرحاً ، محباً للهو والشراب يأنس له كل من جالسه ، فلا غرو أن لقي من المصريين محبة طيبة أحبهم وأحبوه . وأوحشهم فراقه ، كما شعر هو بالشوق إليهم وإلى مغاني القاهرة ومصر عند عودته إلى تونس والقيروان .

ونظم يتذكر مشتاقاً لتلك الأوقات الطيبة الممتعة ، والصحبة السعيدة بقول (١) :

تُوَدِّي تحياني إلى ساكني مصر  
وحملتُها ماضقاً عن حمله صَدْرِي  
شَمَمْتُ نَسِيمَ الْمِسْكِ من ذلك النَّشْرِ  
فليسَ بِخَالٍ من ضَمِيرِي ، ولا فِكْرِي  
فطابَتْ لنا إذْ واقَفْتُ غُرَّةَ الدَّهْرِ  
فَلَسْتُ بِمُعْتَدٍ سِوَاهَا من العُمَرِ  
فِيُنْقَدُ رُوحَ الوصلِ من راحة الهَجْرِ  
من اللهو ما تَنفَكُّ مِنِّي على ذِكْرِ  
مَصَائِدُ غِزْلانِ المطاردِ والقَفْرِ  
جزيرتها ذاتِ المواخيرِ والجسْرِ  
أنيقُ إلى شاطئِ الخليجِ إلى القَصْرِ  
إلى دَيْرِ مَرَحَنَا إلى ساحلِ البَحْرِ  
إلى البركةِ الزَّهراءِ من زَهْرِ نَضْرِ  
مِن السُّنْدُسِ الموشِيِّ تُنَشِّرُ لِلتَّجْرِ  
نهارِي بليلى ، لا أفيقُ من السُّكْرِ  
إذا هَتَفَ التُّاقُوسُ في غُرَّةِ الفَجْرِ  
تَشَكَّتْ أذى الزَّنَّارِ من دِقَّةِ الحَصْرِ  
لِمَا نَلْتُ من لَدَائِهَا لَيْلَةَ القَدْرِ  
وإنْ غَنَيْتُ بالنيلِ عن مُقبِلِ القَطْرِ

هل الرِّيحُ إن سارَتْ مشرقةً تُسِرِّي  
فما خطرتُ إلا بِكَيْتُ صِبابَةٍ  
تُراني إذا هَبَّتْ قَبولاً بنشرهم  
وما أُنْسَ من شيءٍ خلا العهدُ دونهُ  
ليالٍ أُنسناها على غُرَّةِ الصُّبا  
لعمرى لئنْ كانتِ قِصاراً أَعَدُّها  
أُخادِعُ دَهْرِي أن يعودَ بفرحةٍ  
وترجعُ أيامٌ تحلَّتْ بمعاهدِ  
نكم لي بالأهرامِ أو دِيرِ نَهْيَةٍ  
إلى جيزةِ الدنيا وما قد تَضَمَّنَتْ  
وبالمقسِ والبُستانِ للعَيْنِ مُنظَّرُ  
وفي سرفوسِ مسترادٍ وملعبِ  
وكم بينَ بُستانِ الأميرِ وقصرهِ  
تراها كمرآةٍ بَدَتْ في رَفارِفِ  
وكم بَتْ في دَيْرِ القُصْبِيرِ مُواصِلاً  
تُبَادِرُنِي بِالرَّاحِ بِكُرِّ غَرِيرَةٍ  
مَسِيحِيَّةٍ حُوطِيَّةٍ كُلِّما انثَنَتْ  
وكم لَيْلَةٍ لي بالقِرافَةِ حِلَّتْها  
سَقَى اللهُ صوبَ القَصْرِ تلكَ مغانيا

(١) راجع الخطط للمقريزي ١/ ٢٧٠ .  
ومعجم الأدباء لياقوت ١/ ٢٨٨ ، ومقدمة المختار من قطب السرور ، ص ١١ وما بعدها .

وللرقيق مقطعات ، وأجزاء من قصائد رواها ابن رشيقي في الأتمودج ،  
 نكشف إلى حد ما عن صنعته الشعرية التي رصدها ابن رشيقي وهدانا إليها فيما  
 علق به على أبياته التي أوردتها في أغراض متعددة ، وإن كانت هذه الأبيات لا  
 تشفى غليلنا في زيادة التعرف على الشاعر .

ومما أوردته ابن رشيقي أبيات في إخوانياته ، ورسائل شعرية تبادلها مع  
 أصدقائه . يقول ابن رشيقي<sup>(١)</sup> : « ومن شعره جواباً على أبيات كتبها إليه  
 عمّار بن جميل ، وقد انقطع عن مجالس الشراب :

قريظ كابتسام الرُّوِّ	ضِ جَمَشْتَه نَسِيمُ صَبَا
كعقيد من جمان الطلِّ	ل منظوم وما نُقِبَا
ومشورٍ ككثر الـدِّ	ر من أسلاكه انسربَا
فأهدى نشر زهرته	فَتَيْتِ الْمِسْكِ مُتَهَبَا
إذا أثماره جُنَيْتِ	جَنَيْتِ الْعِلْمَ وَالْأَدْبَا
يَهْزُكُ حِينَ تُنْشِدُهُ	كَأَنَّكَ مُنْتَشِرٌ طَرَبَا
حَبَاكَ بِهِ أَخٌ يَرْعَى	لَكَ الْعَهْدَ الَّذِي وَجَبَا
صديقٌ مثلُ صَفْوِ الْمَا	ءِ بِالصُّهْبَاءِ قَدْ قُطِبَا <sup>(٢)</sup>
كَنْزَتْ مَوَدَّةً مِنْهُ	كَيْفَتْ أَنْ أَكْزَرَ الذَّهْبَا
إذا عَدَّ امْرُؤٌ حَسْبَا	فَحَسْبِي ذِكْرُهُ حَسْبَا
أَلِدُّ مِنَ الْحَيَاةِ لَدُنِّي	ي ، لَكِنْ قَلْبُهُ قَلْبَا
فَهَانَ عَلَيْهِ مَا أَلْقَى	وِظَنُّ تَجَلْدِي لَعِبَا

\* \* \*

جِفْوَتْ الرِّاحُ عَنْ سَبَبِ	وَكَانَ لَجْفَوْتِي سَيَا
فَصُرْتُ لَوْحْدَقٍ كَسَلًا	لَدَى الْإِخْوَانِ مُجْتَبَا
وَذَاكَ لِتَوْبَةِ أَمَلٍ	تُ أَنْ أَقْضَى بِهَا أَرْبَا
فَهَا أَنَا تَائِبٌ مِنْهَا	فُزْرِنِي بُبْصِرِ الْعَجَبَا

(١) الأتمودج ص ٢٨٠ ، ومقدمة جزء من تاريخ أفريقية للمنجي الكعبي ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) قطب الشراب : مزج .

أبيات إخوانية عذبة العتاب ، لا تخلو من مداعبة الصديق ، والدل عليه بما في قلبه من مؤدّة .

ويتغزل الرقيق فيظرف ، ويرقق القول ، وإن لم يخرج في لفظه عن قاموس الغزل العربي السابق . يقول :

إِذَا ارْجَحَنْتُ بِمَا تَحْوِي مَآزِرُهَا  
ثَنَا الصَّبَا غُصْنًا قَدْ غَازَلْتَهُ صَبَاً  
لِلشَّمْسِ مَا سَتَّرَتْ عَنَا مَعَاجِرُهَا  
مُظْلُومَةٌ أَنْ يُقَالَ الْبَدْرُ يُشْبِهُهَا  
يُجَلِّلُ الْمُتَنِّ وَحِفِّ مِنْ ذَوَائِبِهَا  
كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ زَهْرَاءُ حَالِيَةً  
وَخَفَّ مِنْ فَوْقِهَا خَصْرٌ وَاسْتَطَقَ  
عَلَى كَثِيبٍ بِهِ مِنْ دِيمِهِ لَكْتُ (١)  
وَاللِّغْزَالُ أَحْوَارُ الْعَيْنِ وَالْعَنْقُ (٢)  
وَالْبَدْرُ يَكْسِفُ أَحْيَانًا وَيَنْمَحِقُ  
جَبِينُهَا تَحْتِ دَاجِي لَيْلِهَا فَلَقُ  
بَنُورِهَا يَرْتَجِي فِي حُسْنِهَا الْحَدَقُ

ومن هذا اللون من الغزل ، مما اختاره ابن رشيقي قوله (٣) :

رَيْثُ إِذَا مَا مَعَارِيضُ الْمَنَى خَدَّارَتْ  
يَا إِخْوَتِي أَقَاحِي فِي مُقْبِلِهِ  
أَمْ حُسْنُ ذَاكَ التَّرَاحِي فِي تَكَلِّمِهِ  
أَمْ سُخْطُهُ أَمْ رِضَاؤُهُ فِي تَجَنُّبِهِ  
نَفْسِي فِدَاؤُكَ ، مَالِي عَنْكَ مِصْطَبِيرُ  
أَجَلُهُ الْمَتَمْنَى عَنْ أَمَانِيهِ  
أَمْ خَمْرُ دَارَيْنِ مَعَ بَسَلِكِ عَلَى فِيهِ  
أَمْ حَسْنُ ذَاكَ التَّهَادِي فِي تَثْنِيهِ  
أَمْ عَطْفُهُ ، أَمْ نَوَاهِ ، أَمْ تَدَانِيهِ  
يَا قَاتِلِي كُلِّ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ

ونقف مع قوله في البيت الثاني « يا إخوتي أقاحي في مقبله » فنرى كيف صاغ هذا القول السهل الجارى في عبارة شعرية أحاذه ، بها حلاوة الصدق ، ورقة التعبير .

ويعمد الرقيق إلى بدء قصائد المديح بالغزل ، وقد ينحو فيه نحو القدماء ويصطنع طرقهم ، إلا أنه يمزجها بروحه فيبدو غزلاً قديماً محدثاً كأن يقول :

يمدح محمد بن أبي العرب التميمي أحد رجالات الدولة الصنهاجية :

أَظَالِمَةُ الْعَيْنِينَ يَخْلَطُهَا السَّحْرُ  
أَعْوَدُ بَبْرِدٍ مِنْ ثَنَائِكَ قَدْ ثَنَيْتَنِي  
وَإِنْ ظَلَمَ الْحَدَّانَ وَاهْتَضَمَ الْحَصْرُ  
إِلَيْكَ قُلُوباً بِإِلَاءِ أَحْسَانِهَا جَمْرُ

(١) وروى صدر البيت : « ثنى العبير غصيناً غازلته صباً ، والثنى الجلل .

(٢) العنق : طول العنق وجماله .

(٣) الأتمودج ص ٣٣ .

ستبرى عظامي بالتحول ولا تتر  
أطاع لها الحوذان والسلم النضر  
أغن قصير الخطو في لخطه فتر  
ولكن عداني من تغنصها البحر

لقد ضمنت في الحب أن ضمانتي  
وما أم ساجي الطرف خفاقة الحشا  
إذا ما رعاها نصت الجيد نعوه  
بأصلح منها منظراً ومقلداً  
يقول في مدحها :

منعمة هيفاء أو غادة بكر  
عن الدم إلا أن يدال له الوتر  
ويقول فيها يصف ممدوحه بالهمة وقيادة الجيش في النزال :

تصباه أباكار الكلايسر بينها  
يخال بأن العرض غير موثر

شهاب عظيم من طلّعه الذعر  
عليها بنو الهيجاء ذرعهم الصبر  
سريجة بيض وخطية سمر  
وجوه الردى حمراً خواقنها الصفر

وملمومة شهباء يستحي أمامها  
يزجي بنات الأعوجية شرباً  
أسود وغي تحت العجاجة غابها  
صيححت بها دهماء قوم أرثهم

ويصف فيها بلاغته وكتابه فيقول :

يكاد يرى روضاً يوشحه الزهر  
ويشرق من تحبير ألفاظها الحبر  
وتبدى له أعقاب ما غيب الفكر

يوشح ديباج البلاغة أحرفاً  
ويفصح لفظاً حظه من فصاحة  
يصيب عيون المشكلات بديهة

ويرى ابن رشيقي جودة هذه القصيدة وأنها من أعجب ما سمع .

ومما جاء من وصفه قوله يصف واقعة حرية ، من قصيدة يمدح الأمير أبا

مناد باديس بن زيري سنة ٤٠٥ هـ :

وقد تضايق فيه ملتقى الحدق  
من سافح الدم يجري قاني الفلق  
مثل النجوم تهاوت في دجى العسقي  
كالشمس في الجولا تخفى عن الحدق  
وبأسها في الوري أشقى على الغرق  
كأنه قمر في حمرة الشفق  
أبو مناد تبدى مات من إفرق

لم أنس يوماً بشئف راع منظره  
والخيل تعبر بالهامات خائصة  
والبيض في ظلمات النقع بارقة  
وقد بدا معلماً باديس مشتهداً  
وأي راحته لو فاض نائلها  
تجلو عمانته الحمراء غرته  
لو صور الموت شخصاً ثم قيل له :

ومن قوته في الثراء (١) :

أهُونُ ما ألقى وليس بهين  
وإني وإن لم ألقك اليوم رائحاً  
فلا يبعدنك الله ميتاً بفقرة  
تردني نجيباً حين برت ثيابه  
مضاء سنان في سنانٍ مدلقٍ  
فإن المنايا بالتفوس رواصي  
لصرف رزاياها لقيتك في غد  
معفر تحذ في الثرى لم يوسد  
كان على أعطافه فضل مجسد  
وفتك حسام في حسامٍ مهتد

★ ★ ★

---

(١) الأتموذج ، ص ٣٤ .

## صريع الدلاء

أبو الحسن علي بن عبد الواحد البغدادي ( ت سنة ٤١٢ هـ ) (١)

لُقِّبَ بقتيل الغواشي أي ذى الرِّقاعتين .  
وصف بأنه الشاعر المشهور .

نقل ابن خلكان عن القاضي الرشيد ابن الزبير ، قوله : « كان يسلك في شعره مسلك أبي الرقعمق » . قال : وله قصيدة في الجون ختمها بيت لو لم يكن له في الجدِّ سواه لبلغ به درجة الفضل ، وأحرز معه قصب السبق . وهو قوله :

من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلبُ على حدِّ سوا  
وقال الثعالبي (٢) أن اسمه علي وقيل محمد . القصَّار . « وهو بصريُّ المولد والمنشأ ، إلا أنه استوطن بغداد ، ولَمَّا رأى سخف الزمان وأهله وميلهم من الكلام إلى هزله أخذ في طريق السَّخْفِ ، ونزع ثياب الجدِّ وتلقب بصريع الدلاء ، وتشبهه بابن الحجاج ، وهيئات ا » .

ويذكره صاحب تاريخ ميفارقين على أنه علي بن عبد الواحد (٣) . وينعته بأنه الفقيه البغدادي الشاعر . وأنه كان شاعراً ماجناً . ويذكر أنه مدح صاحب ميفارقين أبا منصور نصر الله بن مروان .

وربما كان ذهابه إلى ميفارقين في رحلته مغادراً ببغداد والعراق في حدود سنة ٤١٠ أو ٤١١ هـ .

ومر في هذه الرحلة بالشام ، وعرَّجَ على المعرة . والتقى بأبي العلاء المعري في محبسه ببيته ، وطلب من أبي العلاء نفقه ، فبعث إليه بقدر قليل واعتذر بأبيات يقول فيها :

تفهتمْ يا صريعَ البينِ بُشرى أتت من مُستَقِيلٍ مُستَقِيلٍ

(١) ترجمته - وفيات الأعيان ٣ / ٣٨٤ . وتنمية البيمة ص ٢٢ .

(٢) قصة البيمة ص ٢٢ .

(٣) تاريخ ميفارقين ١٤٣ .

يقول فيها :

دُعيت بِصَارِعٍ فِتْدَارِكْتُهُ مِبَالَعَةً فَرَدُّ إِلَى فَعِيلٍ  
وانتقل صريع الدلاء إلى القاهرة ، ويقول ابن خلكان إنه جاءها سنة  
٤١٢ هـ في خلافة الظاهر بن الحاكم ، وفي خبر آخر أنه لحق الحاكم قبل اختفائه  
ومدحه .

ولا نعر في المصادر الشحيحة بأخباره وشعره إلا بالأبيات القليلة التي لا  
تشفى غليلاً .

قال الثعالبي ولما أنشد فخر الملك على بن خلف وزير عضد الدولة  
اليوبىي - قصيدته التي منها :

يَا إِذَا الْجَلَالَاتِ وَيَاذَا النِّعَمِ الْمُنْسِقَةِ  
يا نعمة الله على جميع من قد خلقت  
لو فآخر الدهر الورى علوت منه عنقته  
قد والذي يُبقيك لى ما انقطعت لى النفقة  
وبعث من دفاترى ما كان جدى ورقة

وهى هزلية طويلة ، فأعطاه ما أغناه ، فهبت ريحه ، ونفقت سوقه ودرت  
الصلاات به ، وتداول أهل بغداد قصيدته التي عارض فيها أبا العنيس في تأخير  
النفقة ، وذكر التميمي أنه قالها .

وأكثر شعره في داره ، وأنه كان يسميها باديته . وأول القصيدة :

قَلْقَلُ أَحْشَايَ تَبَارِيحُ الْجَوَى وَبَانَ صَبْرِي حِينَ حَالَفْتُ الْأَسَى  
يقول : ومنها - وهى مُطْمِعَةٌ مؤيسة :

يا سادة بانوا وقلبي عندهم  
وسوف أسلى عنكم صبابتي  
في ظرف نظمتها مقصورة  
من صفع الناس ولم يمكنهم  
من مضع الأحجار أدمت فكاه  
من نام لم يصير بعيني رأسه  
مد غبتم قد غاب عن عيني الكرى  
بحمقة يعجب منها من وعى  
إذ كنت قصاراً صريعاً للدلا  
أن يصفعوه بدلاً قد اعتدى  
فالضرس لم يخلق لتلين الحصى  
ومن تطاطأ راکعاً قد انحنى



من رامح الخيل كسرن ساقه  
من صام أسبوعاً تماماً ليله  
من قطع النخل وظل راجياً  
ومن طلى بالجبر صحن وجهه  
ومن حدى في نوميه فقد هدى  
مع الثهار لم يوافقه الحوى  
ثمارها، فذاك مقطوع الرجاء  
حكى بما سوّد ليلاً قد دحا  
قال الثعالبي وهى طويلة تُرى على المائة . وقد أعجز الشعراء أن يزيدوا فيها  
بيتاً واحداً .

وأشار إليها ابن العماد بقوله : وهو صاحب المقصورة المشهورة . وقال  
ابن خلكان إنه ختمها بيت لو لم يكن له في الجسد سواه لبلغ درجة الفضل  
وهو :

من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلب على حدّ سوا  
وذكر أنه لم يغش طويلاً بعد حضوره إلى مصر . قال ابن خلكان « وكانت  
وفاته في سابع رجب سنة ٤١٢ هـ فجأة من شرقة لحقته عند الشريف  
البطحاني » .

## عبد المحسن الصوري

( ت سنة ٤١٩ هـ )<sup>(١)</sup>

هو أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري قال عنه ابن خلكان : « الشاعر المشهور ، أحد الفضلاء المجيدين الأدباء . شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام . من محاسن أهل الشام » .

وقال صاحب الشذرات : « الشاعر المشهور . أحد المتقنين الفضلاء المجيدين الأدباء . شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن أهل الشام » .

وهو نص كلام ابن خلكان .

وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ، رواية عن الشاعر ابن حيّوس قال : « سمعت جدي القاضي يحيى بن علي القرشي يذكر عن أبي الفتيان ابن حيّوس أنه كان يقول : إني ليعرض لي الشيء من شعر أبي تمام والبحتري وغيرهما من المتقدمين ، فأعمل في معناه ، فأبلغ مرادى منه ، ولا أقدر من موازنة شعر عبد المحسن الصوري ما أريد لسهولة ألفاظه وعضوية معانيه وقصر أبياته » .

ونشأ عبد المحسن بمدينة صور جنوبي لبنان الآن ، وعاش بها زماناً . وقال الشعر صبيّاً . ومن شعره في صباه قوله :

إنّ أحبّنا الذين استقاموا      في طريق الهوى سهرت وناموا  
حجّبوا ، فاحتجبت عنى فمالي      بي عهد ولا بهم والسلام

واتصل في صور بجماعة من أعيانها وأشرافها يمدحهم ويأخذ جوائزهم ، ومنهم أبو القاسم الحسين بن علي بن كردى العامل بصور . قال فيه<sup>(٢)</sup> :

(١) راجع ترجمته في بئمة الدهر ١/ ٣١٢ ، وتنمى البئمة ص ٣٥ ، وفيات الأعيان ٣/ ٢٣٢ ، شذرات الذهب ٣/ ٢١١ ، والعبر ٣/ ١٣١ ، والنجم الزاهرة ٤/ ٢٦٩ ، وراجع الأفضليات ص ١٣١ ، ص ١٣٥ ، ص ١٥٦ .  
(٢) ديوانه ٢/ ٥ .

إذا ما عُقِدَ الكاتِمُ وَحَلَّ المدمَعُ الساجِمُ

وفي القاضي أبو إسحاق بن وديع الحاكم بصور<sup>(١)</sup> :

مالِريم الكِناسي ليس يريمُ أَتْراهُ مستشعراً ما يُرُومُ ؟

كما مدح بعض بن حيدرة العلويين بصور وطرابلس ، وكانوا من رجال الفاطميين المواليين .

ومدح من إمراء الجند وقادة الفاطميين الأمير بكجور قائد الخليفة العزيز بالله سنة ٣٧٤ هـ ، كذلك مدح برجوان رجل العزيز القوى ، ووزير الحاكم بأمر الله قبل أن يقتله .

ويبدو أن الصوري تنقل في بلاد الشام من صور إلى دمشق إلى طرابلس ، إلى الرملة إلى طبرية ، ولقى في كل بلد حلَّ به جماعة من الرؤساء والقضاة ، والولاة ، والمسؤولين عن الحكم من رجال الفاطميين .

وله قصيدة في الوزير المغربي علي بن الحسين المغربي ، والد الوزير والشاعر المشهور أبي القاسم الحسين بن علي . وهي من مشهور شعره مطلعها<sup>(٢)</sup> :

أترى بشارٍ أم بديني علقْتَ محاسنها بعينسي

وليس لدينا ما نؤكد به أو ننفي إن كان قد أنشدتها إياه بمصر أيام وزارته للحاكم ، وقبل أن ينكبه سنة ٤٠٠ هـ أو سنة ٣٩٩ هـ .

ومدح الأمير بنجكتين أمير دمشق بقوله<sup>(٣)</sup> :

تعوَّدَ أن يحوَّلَ وأن يَحُونَا إذا أعطى بزورته يمينا

ومدح القائد أبا الجيش حامد بن ملهم والي دمشق سنة ٣٩٩ هـ بقوله<sup>(٤)</sup> :

أبا الجيش حسب الشعر ما أنت صانعُ      فقد عجزت عن فعل ذلك القصائدُ  
أما انصلحت للمال منك طويَّةُ      فتصنيحهُ ، حتى متى أنت حاقِدُ  
سبقت بني الدنيا فما هبَّ قائمُ      سواك إلى جوِّ ولا قام قاعِدُ

(١) ديوانه ص ٧ .

(٢) ديوانه ص ٤١ .

(٣) ديوانه ص ٥٤ .

(٤) يتيمة الدهر ١ : ٣١٧ .

ومدح أحد أبناء المفرج بن دغفل بن الجراح وهو عبد الله . ولعله أنشدها إياه بالرملة (١) . يقول فيها :

أنا معجبٌ بالمعجبِ التياهِ متغَلِّبٌ في حبه متناهٍ  
وفي مدحته هذه لعبد الله بن المفرج تعرض بالشكوى ، وأن الزمن الليلي  
والأيام تعانده . ففيم كانت المعاندة هذه ؟ . على أية حال فهو يقول :

يا ابن المفرج ، والليالي أنعمْ      إلاّ عليّ فإنهنّ دواهي  
تأبين طول الدهر أن يلقينني      إلاّ ذوات جهالة وسفاه  
قصرت يداي فدقّ جاهي عندها      طول اليدين يزيدُ عرضَ الجاه  
وأراك في طلبِ العلاءِ ذا قوّة      فأمسكْ بهارمق الضعيف الواهي

لقد كان آل المفرج الطائيين كما أشرنا في حديثنا عن التهامي رجال الدولة الأقباء في جنوب الشام ، يملكون اللدّ والرملة ، ويتحالفون مع غيرهم من أمراء العرب بالشام ، فيكونون تارة في طاعة الفاطميين إذا قويت شوكتهم ، ويخرجون عليهم حيناً إذا رأوا فيهم ضعفاً ، أو في بعض خلفائهم غفلة ، أو حدثتهم النفس مع غيرهم من القبائل العربية القوية ، بانتهاز الفرصة لافطاع جزء من الملك لخورزتهم .

ولعلّ عبد المحسن أنس في عبد الله هذا قوّة ، وارتجى عنده مآرباً كثيراً من أشعراء . لقد رحل من بلده صور بالشام متوجّهاً إلى الرملة جنوباً ، في رحلة من رحلاته لطلب المال والقربى من ذوى السلطان ، وفي فلسطين أو جنوبي الشام . ويذكر على بن يظافر أن الصوري كان يتردد على دمشق ، وأنه كان ينزل بسوق القمح بمنزل هناك (٢) .

ويهمنا وفوده إلى مصر ، ويشير شعره ، وتنبؤ أخباره أنه قصد مصر ، ونزل بالقاهرة أو الفسطاط ، وأنشد الخليفة العزيز بالله ، كما مدح الحاكم بأمر الله .

(١) ديوانه ١٠١/٢ .

(٢) راجع نذائع البدائنه ، وملحق الديوان ص ١٣٣ .

قيل إنه أنشده يوم عاشوراء ، وذكر وزيره ، ورجله القوى برجوان وأشار إلى هزيمة ملك الروم باسيل أو باسيليوس فقال :

إلى أن رَجَى سَهْمًا فَصَرْتُ أَسَاهِمُهُ  
 بِجَفْنِيهِ، أَمْ لَا يَعْدِلُ السَّقَمَ قَاسِمُهُ  
 ففى العين عُنُونَاتُهُ وَتَرَاجِمُهُ  
 وَلَكِنْ لَأَنَّ اللَّوْمَ لَيْسَ يَلَايِمُهُ  
 فَمَا طَلِبْتُ حَتَّى تَجَلَّتْ غَمَائِمُهُ  
 مِنَ الشُّغْلِ عَنْهُ، قَلْتُ مَا قَالَ نَائِمُهُ  
 فَوَالَاهُ يَوْمٌ شَاحِبُ الْوَجْهِ سَاهِمُهُ  
 خِبا نوره لَمَّا اسْتُجِلَّتْ مَحَارِمُهُ  
 إِلَى الشَّمْسِ مِنْ طَعْيَانِهَا مُتْرَاكِمُهُ  
 هَتَفْتُ بِمَا قَدْ كُنْتُ عَنْهَا أَكَاثِمُهُ  
 فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ قَوْمَ الدَّهْرِ قَائِمُهُ  
 وَحُكْمُ فِي الدِّينِ الْحَنِيفِيُّ حَاكِمُهُ  
 دَعُوا جَدَّهُ تَبْكِي عَلَيْهِ صَوَارِمُهُ  
 إِذَا هِيَ حَنَّتْ مِنْ قَتِيلِ جَمَاعِمُهُ  
 فَلَا أَنْتَ مَبْقِيَةٌ وَلَا اللهُ رَاخِمُهُ  
 يَخَافُ عَلَى أَبْوَابِهَا مِنْ يَزَاخِمُهُ  
 إِذَا أَنْتُمْ أَرْكَأْتُمْ وَدَعَائِمُهُ  
 تَبَدَّتْ بِسَعِيدٍ، خَاتَمَ الدَّهْرِ خَاتِمُهُ  
 فَمِنْ جَانِبِ أَرَاوُهُ وَعِزَائِمُهُ  
 عَلَى النَّاسِ، إِمَّا بِأَسْهُ أَوْ مَكَارِمُهُ  
 عَلَى غَيْرِهَا مَا شَاءَ، فَالسِّيفُ هَادِمُهُ  
 لِأَنَّ كَفَيْلَ الشَّيْءِ إِنْ ضَاعَ غَارِمُهُ  
 فَانْهَضُ مَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ عِزَائِمُهُ  
 أَحْيَيْنَ بَدَا مِنْ كُلِّ جَيْشٍ ضَرَاعِمُهُ  
 يَرُوحُ بِهَا أَعْلَاجُهُ وَغِنَائِمُهُ

خِلا طَرَفَهُ بِالسَّقَمِ دُونِ يُلَايِمُهُ  
 فَاصْبِحْ لِي مَا لَسْتُ أَدْرِي أَمَثَلُهُ  
 لَيْتَ كَانَ أَحْفَى الصَّدْرُ صِدْداً مِنَ الْجَوِي  
 وَلَمْ يُخْفِهِ أَنْ الْهَوَى حَقَّ حَمَلُهُ  
 وَيَارُبُّ لَيْلٍ قَصَرَ الذِّكْرُ طَوْلُهُ  
 وَمَا نَمْتُ فِيهِ غَيْرَ أَنْ لَوْ سَأَلْتَنِي  
 وَلَكِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الصَّبْحِ لَوْنُهُ  
 كَمَا جَاءَ يَوْمٌ فِي الْمَجْرَمِ وَاحِدٌ  
 طَعَتْ عِبْدُ شَمْسٍ فَاسْتَقَلَّ مَحَلَقُنَا  
 فَمَنْ مَبْلَغُ عَنِّي أَمِيَّةٌ أَنْبَى  
 مَضَتْ أَعْصَرُ مُعْجِزَةٌ بِاعْوَجَّاجِكُمْ  
 وَجَدَّدَ عَهْدَ الْمُصْطَفَى بَعْضُ أَهْلِهِ  
 فَيَا أَيُّهَا الْبَاكُونَ مِصْرَعُ جَدِّهِ  
 أَلَا أَيُّهَا الثُّكَلَى الَّتِي مِنْ دُمُوعِهَا  
 لَقَدْ نَحَسِرَ الدَّارَيْنِ مِنْ صَدِّ وَجْهِهِ  
 حَرِيصاً عَلَى نَارِ الْجَحِيمِ كَأَنَّهُ  
 إِلَى مَنْ تَرَاهُ فَوْضَ الْأَمْرِ غَيْرِكُمْ  
 فَيَا لَكَ مِنْهَا دَوْلَةٌ عَلْوِيَّةٌ  
 إِذَا نَزَلَ الْأَسْتَاذُ مِنْهَا بِجَانِبِ  
 وَمَهْمَا اقْتَضَى تَدْبِيرُهَا كَانَ مَاضِيًا  
 بِنَاهَا عَلَى مَا شَاءَ، فَلْيَبْنِ غَيْرُهُ  
 وَكَلَّلَهَا رَأَى الرَّئِيسَ فَلَمْ تَضِيعْ  
 إِذَا اجْتَمَعَتْ فِي الْمَلِكِ كُلِّ عَظِيمَةٍ  
 وَمَا بَالُ بَاسِيلِ تَوَلَّى مُشْمَرًا  
 فَأَلَا أَتَاهَا وَقَفَّةٌ دَوْقَسِيَّةٌ

هذه الأبيات واضحة الدلالة على غرض الشاعر ومناسبة القول ، وهي سند تاريخي لأحداث واقعة ، كما أنها شاهد على عصر صاحبها ، وعلاقاته بالفاطميين ورجالهم ، وما شغل الناس من فكر ورجوه ، واداعوه ، ومن أحداث في الدولة وحاجتها ، كذلك تنبئ عن موقف الشاعر وغيره من الشعراء ، ممن جازوا البيت الفاطمي في آرائه ومعتقداته ، أو اعتنقوا تلك الآراء والمعتقدات موقنين ، وهي أبيات تتحدث عن الصراع بين الفاطميين ودولة الإسلام عامة ، وعدوهم التقليدي الروم البيزنطيين . وما لقيته بلاد الشام في عصر الفاطميين ومن قبلهم من جولات ، وكر وفر ، ومشاركة المصريين بجهدهم وسلطانهم وجندهم في معارك فرضت عليهم ، وخاضوها ذوداً عن بيضة الإسلام ، وحضارته .

وقد أحسن الشاعر بناء قصيدته ، فاختار هذا المدخل أو الاستهلال الذي شكاه فيه هوى يكتمه ، ويظل ، يمضه طوال ليله ، ويقطعه بالذكر حتى تطل شمس النهار ، وقد خلج عليها أو خلج الشاعر على صبحه فتوراً مما أحسه طوال معاناته بالليل .. كلها أحاسيس يهد بها لهذا الانتقال إلى الحدث الحزين الموافق للموقف . يوم عاشوراء يوم الحزن والبكاء عند الشيعة الفاطميين ، ويفرخ عن كلمات يرضى بها غضبتهم ، ويطلب العزاء فيما سيلقى الجنة من عذاب أذخره الله لهم .

ويخرج في المناسبة إلى الحاكم وقائده ، ويذكر النصر الذي تحقق على يدى برحوان ورجال الحاكم على باسيلوس ملك الروم ، ويراها علامة تاييد من الله . ولعبد المحسن قصيدة نونية عنونت بأنها في أهل البيت<sup>(١)</sup> . ضمنها كثيراً من آراء الشيعة والفاطميين . يقول فيها :

جَعَلَنَ لِكُلِّ فَوَادٍ فُتُونَا	عيون منعن الرقاد العيونَا
وَكُنْ لِمَنْ رَامَهُنَّ الْمُتُونَا	فكنّ المنى لجميع الورى
عَلَى مَا تَشَاءُ شِمَالاً يَمِينَا	وَقَلْبٌ ثَقَلَبَهُ الْحَادِثَاتُ
وَمَدْمَعُهُ يَسْتَدِلُّ الْمُصُونَا	يصونُ هواهُ عن العالمين
وَقَدْ كَانَ مَا خَفْتُهُ أَنْ يَكُونَا	فمالي وكتمان داء الهوى
فَلَمَّا تَمَكَّنَ أُنْسَى اجْتُونَا	وَكَانَ ابْتِدَاءُ الْهَوَى بِي مَجُونَا

(١) ديوانه ٢ ص ٦٧ .

فَلَا قِيَتْ مِنْهُ عَذَابًا مُهِينًا  
رَأَيْتَ جُفُونًا تُنَاجِي جُفُونًا  
مَنْ الْأَوَّلِينَ أَوْ الْآخِرِينَ  
فُحْبُهُمْ أَمَلُ الْأَمَلِينَا  
نَجَاتِي، هُمُ الْفُوزُ لِلْفَائِزِينَا  
وَهُمْ عُرْوَةُ اللَّهِ لِلْوَاتِقِينَا  
فَكُنْ بِمَحَبَّتِهِمْ مُسْتَعِينَا  
وَإِنْ جَحَدَ الْحِجَّةَ الْمَاجِدُونَا  
وَأَنْتُمْ بِتَكْلِيبِهِمْ كَاذِبُونَا

وَكُنْتُ أَظُنُّ الْهَوَى هَيْئًا  
فَلَوْ كُنْتُ شَاهِدَ يَوْمِ الْوَدَاعِ  
فَهَلْ تَرَكَ الْبَيْنَ مِنْ أَرْتَجِيهِ  
سِوَى حُبِّ آلِ نَبِيِّ الْهَدَى  
هُمُ عُدَّتِي لَوْفَاتِي، هُمُ  
هُمُ مَوْرِدُ الْحَوْضِ لِلْوَارِدِينَ  
هُمُ عَوْنٌ مَنْ طَلَبَ الصَّالِحَاتِ  
هُمُ حِجَّةُ اللَّهِ فِي أَرْضِيهِ  
هُمُ النَّاطِقُونَ، هُمُ الصَّادِقُونَ

وفي شعره في أحد قادة العزيز نزار بن المعز والد المنصور الحاكم بأمر الله نجد النعمة نفسها ، وفيها ما يثبت حضوره إلى مصر ولقائه للعزيز ، يقول (١) :

فَقَفَا عَلَى شَحْطِ النَّوَى وَتَبَيَّنَا  
وَتَفَارَقَا إِلَّا مَسِيئًا مُحَسَّنَا  
مَا زِدْتُمَاهُ بَعْدَ لِيهِ إِلَّا عَنَّا  
مَا لَا تُدَلُّ عَلَيْهِ أَنْوَابُ الضَّنَا  
لَمْ تُطَلِّقِ الْعَشَّاقُ فِيهَا الْأَلْسُنَا  
يَأْتِي بِهِ قَدْرٌ فَيُعَدِّلُ بَيْنَنَا  
جَمْعًا ، وَلَيْسَتْ لِلظَّعَائِنِ أَعْيُنَا  
ثَمَرُ الْقُلُوبِ ، وَمَا أَرَاهَا تُجْتَنِّي  
إِذْ لَا يَقُولُ لَهَا أَنَا إِلَّا أَنَا  
فَأَجِبْتُ صَارِخَهَا ذَلِيلًا مَدْعِنَا  
تَرَكَتَهُ مِنْهُ يَسْتَجِيرُ الْأَرْمَنَا  
فِينَا ، فَكَانَ اللَّهُ يَرْفَعُ مَا بَنَى  
مَنْ تَحْتِ شَكِّكَ كَانَ أَوْ مَتَيْقِنَا  
سَبِيلُ الْهَدَى ، وَضَحَّتْ بِنِعْمَتِهِ لَنَا  
عُلُوبَةُ الْأَنْسَابِ عَالِيَةِ السَّنَا  
سُمِرَ الْبِرَاعُ وَزُرِقَ أَطْرَافُ الْقَنَا

طَالَ الزَّمَانُ فَلَا ثَنَاءَ وَلَا انْتِنَى  
هَلْ أَعْرِفَانِ الْبَيْنَ يَوْمَ تَعَانَقَا  
كَلًّا وَفَضْلَ غِنَاكَمَا فِي عَذْلِيهِ  
يَا ضَاحِجِي الْمُنْكَرِينَ مِنَ الْهَوَى  
تَحْتَ السَّرَائِرِ فِي الضَّمَائِرِ لَوْعَةٍ  
وَعَسَاكَمَا فِيمَا تَرِيدَانِ الْهَوَى  
مَا لِلسَّقَامِ أَنْ يَعْمُ جَوَارِحِي  
مَنْ كُلُّ عُصْنٍ تَجْتَنِّي ثَمْرَاتِهِ  
أَنَا لِلخَطُوبِ إِذَا دَعَتْ أَقْرَانَهَا  
وَلَطَامَا صَرَحَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ بِي  
حَتَّى اسْتَجَرْتُ مِنَ الزَّمَانِ بِرَاحَةٍ  
بَسَطَ الْعَزِيزُ بِنُ الْمَعْرِزِ بِنَاءَهَا  
مَوْلَى الْمَوَالِفِ وَالْمُخَالَفِ عَنُودَةٍ  
وَمِحْجَةَ اللَّهِ هَادِيَةً إِلَى  
وَمَقِيمَهَا مِنْ بَعْدِ طَوْلِ قَعُودِهَا  
بِيضَاءَ يَجْلُوهَا الْوَزِيرُ بُحْلَتِي

(١) ديوانه ٢ / ٨٧ .

يَرْمِي جَوَانِبَهَا بِرَأْيِ مُهَدَّبٍ      حَتَّى أَتْنَا وَهِيَ ذَاتُ قَلَائِدٍ  
مُتَجَنِّبٍ فِيهِ الْحَيَاةَ وَالْخِنَا      جَعَلَ الْإِمَامُ فَرِيدُهُنَّ فَرِيدَنَا

ويعضى في مديح هذا القائد حتى يقول :

حصلت بمصر همتي واستوطنت      وأفاد لي عذمي سواها موطننا  
فغدوت للخطب الكبير مصغراً      فيها وللأمر الشديد مهوتنا  
وقد اعتمدت عليك إفاجمع بيننا      ونخذ الحوادث قبل فتكتها بنا  
فلك الهناء بدون ما بلغته      وبدون ما بلغته وجب الهنا

فيشير إلى مجيئه إلى مصر في هذا الوقت — خلافة العزيز — ولجوئه من أحداثٍ لعلها التي أثارها أحد قادة الأتراك ، وكان قد استولى على بعض بلاد الشام حتى تمكن العزيز من هزيمته وأسره ، وأعاناه على ذلك آل المفرج بالرملة .

هُمُ الْوَارِثُونَ عُلُومَ الرَّسُولِ      فَمَا بِالْكُمْ لَهُمْ وَارِثُونَ  
حَقْدْتُمْ عَلَيْهِمْ حَقُوداً مَضَتْ      وَأَنْتُمْ بِأَسْيَافِهِمْ مُسْلِمُونَ  
جَعَدْتُمْ مَوَالَةَ مَوْلَاكُمْ      وَيَوْمَ الْغَدِيرِ بِهَا مُؤْمِنُونَ  
وَأَنْتُمْ بِمَا قَالَهُ الْمِصْطَفَى      وَمَا نَصَّ مِنْ فَضْلِهِ عَارِفُونَ  
وَقَلْتُمْ رَضِينَا بِمَا قَلْتَهُ      وَقَالَتْ نَفُوسُكُمْ مَا رَضِينَا  
فَأَيُّكُمْ كَانَ أَوْلَىٰ بِهَا      وَأَثَبْتِ أُمْرًا مِنَ الطَّيِّبِينَ  
وَأَيُّكُمْ كَانَ بَعْدَ النَّبِيِّ      وَصِيًّا، وَمَنْ كَانَ فِيكُمْ أَمِينًا  
وَأَيُّكُمْ نَامَ فِي فَرْشِيهِ      وَأَنْتُمْ لِمَهْجَتِهِ طَالِبُونَ  
وَمَنْ شَارَكَ الطَّهَرَ فِي طَائِرِي      وَأَنْتُمْ بِذَاكَ لَهُ شَاهِدُونَ  
لِحَا اللَّهِ قَوْمًا رَأَوْا رُشْدَكُمْ      مَبِينًا، فَضَلُّوا ضَلَالًا مُبِينًا

وما جاء بالقصيدة من الدفاع عن آل البيت ، والفاطميين وحقهم في الخلافة واضح ، غنى عن الإشارة ، وهو يُرددُ أقوال شعراء الشيعة ، ودعاتهم وسياسيهم في أحقية الإمامة بالوصاية يوم الغدير عن النبي ﷺ لعل بن أبي طالب ، فضلا عما كان لعلّي من مكانة السبق إلى الإسلام وفداء النبي بنفسه يوم الهجرة إذ نام مكانه ، وهو يعلم أن المحاصرين ممن يتربصون بالنبي من قريش يزعمون قتله بليل .



والخطاب في القصيدة موجه إلى العباسيين بالدرجة الأولى ، فهم المنافسون للفاطميين بالشام ، وكانت في عصر الشاعر في النصف الثاني من القرن الرابع مجالاً للصراع بين القوتين العباسية والفاطمية ، وكانت صور وطرابلس مؤثلاً كثيراً من العلوية والأشراف الحسينيين والحسينيين . وكان الشاعر قريباً منهم يتحدث بما يحبون ، ويدفع دعاوى منافسيهم من العباسيين ، إلا أننا نلاحظ أنه لم يصرح بالهجوم على العباسيين ، بل عمى القول ، مُحسباً ، وتقيةً ، فالقصيدة تعكس الجو العام بالشام ، والصراع المستمر والمعلن ، وهو صراع لم يحسم تماماً لأحد من الطرفين ، بل اعتورته موجات تحسم الأمر لهؤلاء أحياناً ، ثم تعود موجة أخرى لتغلب الفئة الأخرى . وهكذا .

لقد ظل عبد المحسن الصوري يقول الشعر ويتنقل به في ربوع الشام ومصر حتى أعيته السبعون عن الحركة ، فأقام ببلده حتى بلغ التسعين . يقول وقد بلغ السبعين :

جزاك الله عن ذا الفصح خيراً	ولكن جاء في الزمن الأخير <sup>(١)</sup>
وقد حدث لي السبعون حدثاً	نهى عمّا أمرت من المسير
ومد صارت نفوس الناس حولي	قصاراً عدت بالأميل القصير

استقر الصوري إذا في بلده ، وثقل جسمه عن أن يحمله إلى البلاد كما كان حاله في شبابه وكهولته ، والآن وقد أصبح شيخاً ضعيفاً ، آثر أن يقضى ما تبقى له من العمر بين أهله في وطنه .

وقد عمّر حتى نيف على الثمانين ، وتوفي سنة ٤١٩ هـ . وكان الحاكم قد اختفى من مسرح الأحداث ذلك الاختفاء الغامض ، وابعقه ابنه الذي عرف بالظاهر .

وعاصر الصوري في آخريات حياته بعض الأحداث العاصفة في دولة الفاطميين بالشام ، ومنها حركة التمرد التي قادها الوزير المغربي بالرملة بمشاركة حسّان ابن المفرج ، وتنصيبهم خليفة جَاءُوا به من الحجاز .

ويبدو من حياة الرجل أنها لم تكن صاخبة كحياة الشاعر التهامي ، فلم تحدثه نفسه بعظائم الأمور ، ولم يكشف شعره عن ثورة وطموح ، بل كان مواطناً يسير في ركاب الحكام كغيره من الشعراء .

كما كان عبد المحسن شاعراً حضرياً ، يغلب عليه طبع أهل الحضرة ، ليس فيه جفاء الأعراب ، ولا عنف مشاعرهم . كذلك كان شعره سهلاً ، ليناً ، قال عنه ابن خلكان : « شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام » . ويقول : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان » .

وأصبح ابن خلكان ، كما أعجب من قبل الثعالبي بقصيدته التونية في مدح أبي الحسين علي بن الحسين المغربي :

الرّي بثأر أم بدين	علقت محاسنه بعيني
في لحظها وقوامها	ما في المهند والرديني
وبوجهها ماء الشبا	ب خليط نار الوجتين
بكرت عليّ وقالت اخت	سر خصلة من خصلتين
إما البصود أو الفرا	ق ، فليس عندي غير ذين
فأجبتها ومدامعي	تتهل فوق الوجتين
لا تفعلني ، إن حان صدك	أو فراقك حان حيني
فكأنني قلت انهضني	فمضت مسرعة ليني

ولا حاجة إلى التنبيه على ما في هذا الشعر من سهولة ، وليونة ، هما أقرب إلى المزاج الحضري المترف في لفظه وإيقاعه وقافيته اللينة ، وحديثه الأنيق الرقيق في حكاية قول المحبوبة ، وحوارها .

وقد عقب ابن خلكان على القصيدة بقوله : « وهي قصيدة طويلة جيدة » (١) .

ويبدو أن إعجاب معاصريه ممن سمع أبياته هذه شجعه على أن يعيد النظم في وزن مشابه ، وقافية مقاربة . حيث يقول في أبيات أخرى :

بعين الله هجرك ، لا بعيني	لعل الفرق بين النظرتين
تردك أو ترد علي صبري	عليك فإنها احدي اثنتين

واعجب العلماء غزله لهذه الرقة التي اكتسبها من لفظه حتى إن ابن عساكر روى عن ابن حيوس أنه قال : « يُقال إن أغزل ما قيل قول جرير :

(١) وفيات طبع إحسان ، بيروت ٢/ ٢٣٥ .

إِنَّ الْعِيُونَ النَّاسِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ  
يَضْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ  
قَتَلْتَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا  
وَهُنَّ أضعف خلق الله إنساناً  
وقول عبد المحسن أغزل منه :

بِالَّذِي أَلْهَمَ تَعْدِيئِي      ثَنَائِكَ الْعِنْدَابَا  
مَا الَّذِي قَالَتْهُ عَيْنَا      لِقَلْبِي فَأَجَابَا

وله في موضوعات أخرى غير المديح والغزل ، ومنها الهجاء ، وهجاؤه غالباً مقطعات بين بيتين وخمسة أبيات . وتعرض ببعض من كان ينال من شخصه أو شعره ، وقد يُفدعُ في هجائه ، وقد يكتبني بالتعريض دون التصريح بالعمورات والقبيح من اللفظ .

وتأتى بعض الموضوعات الأخرى عرضاً في قصيدة المديح ، كالوصف وذكر الخمر والشراب ، أو الغناء والمغنين ، وله في المناسبات قصائد قصيرة ومقطوعات كالتهنئة بالصيام ، أو بمولود ، أو بشفاء من مرض أو التعزية وما إلى ذلك .

وكثير من شعره يدور في هذه الدائرة من المجاملات ، والإخوانيات .

ولا نعثر في شعر الصوري على صور بارعة ، فشاعريته تتركز على سهولة اللفظ ، ورقة التعبيرات ، وخفة التراكيب والأذواق ، وقليلاً ما تراه يستعين بمحفوظ من الشعر القديم ، أو يعيد بعض معانيه وصوره ، كذلك قليلاً ما ترد في الفاظه ألفاظ قرآنية ، كما لا يستعين كثيراً بأبي القرآن وقصصه .

ومن حيث الصفة البديعية ، فهو غير مسرف فيها ، ولا متكلف لها إنما قد تجيء في أثناء كلامه سهلة يسيرة . كأن يقول مجانساً :

وَعُلَّقْتُهُ شَادِنًا شَادِيَا      عَلَيْهِ الشَّجِي وَعَلَى الشَّجِنِ  
إِذَا مَا التَّقِينَا فِيمَنْ جُدَّ وَزِدْ      وَصَيْلٌ وَتَعَطَّفَ ، وَمَنْ لَا وَلَنْ  
وَمَنْ مَهْجَةٍ مُذْنَاتٌ مَا ثَوْتُ      بِأَرْضٍ ، وَمَنْ سَكَنَ مَا سَكُنْ  
فَقَفُوا تَعْرِفُوا مَا أَسْرَ الْهَوَى      فَأَعْلَنَ لَمَّا أَسْرَ الْعَلَنُ

وعلى أن الصوري يملح أحياناً ، ويمترج قوله بالفكاهة في تصوير نزوله على أحد أصدقائه البخلاء . إذ يقول :

وأبج مسه نزولي بقرح  
 قيل لي إنه جواد كريم  
 بث ضيفاً له كما حكم الذهب  
 قال لي إذ نزلت وهو من السك  
 لم تغربت؟ قال رسول الله :  
 سافروا تغنموا. فقال: وقد قال  
 مثل ما مسني من الجوع قرح  
 والفتى يعتره بخل وشح  
 ر ، وفي حكمه على الحر فيح  
 سرة والهم طامح ليس يصحو  
 والقول منه نصح ونجح  
 تمام الحديث : صوموا تصحوا

وهكذا فإن عبد المحسن الصوري كما رأينا إنسان شاعر عادي لا تفوق في شعره ، عاش في ظل الفاطميين وفكرهم ، وصراعاتهم مع منافسيهم وكان وجوده بصور مما أتاح له المشاركة في تلك الأحداث والصراعات التي شهدها طوال حياته منذ منتصف القرن الرابع وحتى نهاية العقد الثاني من القرن الخامس .

ومع أنه كان إنساناً عادياً ، وشاعراً من بين شعراء عديدين عاشوا في العصر إلا أنه لم يعدم ميزة تفردة عن غيره ممن عاصروه ، أشرنا إليها ، وفي رأينا أن رأى ابن خلكان والثعالبي من قبله فيه وكذلك مواطنوه وتلاميذه من شعراء الشام في القرن الخامس كان مبالغاً فيه .

وذكره معاصره علي بن منجب في كتاب الأفضليات ، ووقف عند أبيات من شعره ، قارن بينها فيها وبين أبيات لابن رشيق<sup>(١)</sup> ويذكر له بيتين في الخمر<sup>(٢)</sup> ، ويذكر وصفه لحمّام . يقول<sup>(٣)</sup> :

وقال عبد المحسن في الحمّام :

ومنزّل أقوام إذا نزلوا به تشابه فيه وغدّه ورئيسه

وهذا مما يصلح أن يوصف به قبر . وتمام الأبيات من مستحسن ما وصف به الحمّام . وهو :

يُخَفِّفُ وَجِدِي أَنْ تَزِيدَ كَرُوبُهُ  
 إِذَا مَا أَعْرَتِ الْجَوُّ طَرْفًا تَكَاثَرْتُ  
 وَيُؤْنِسُ قَلْبِي أَنْ يَقْلَ أُنَيْسُهُ  
 عَلَيْكَ بِهِ أَقْمَارُهُ وَشَمُوسُهُ

(١) راجع الأفضليات ص ١٣٠-١٣١ .

(٢) ارجع نفسه ص ١٣٥ .

(٣) ارجع نفسه ص ١٥٦ .



## الفصل الرابع

شعراء مصريون من القرن الخامس

ظافر الحداد

ابن مكنسة



## ظافر الحدّاد السكندري ( ت سنة ٥٢٩ هـ )

هو أبو منصور ظافر بن عبد الله الجروي الجذامي ، ينتمي إلى قبيلة جذام اليمنية ، أستقر أهله بالإسكندرية ، واشتغل أبوه بحرفة الحدادة ، وورثها عنه ابنه ظافر ، ولكن نشأ الابن محباً للعلم والأدب ، فبدأ يرتاد مجالسهما بالإسكندرية وتعرف على كثير من أعلامهما .

كان مولد ظافر في حوالى منتصف القرن الخامس ، ولحق أخريات خلافة المستنصر بالله الفاطمي أطول خلفاء الفاطميين حكماً ، وآخر كبارهم حيث بلغت الدولة درجة من الأزدهار والقوة ، وإن انتابت حكمه بعض السنين العجاف ، فقد اشتدت بالناس المجاعة والشدة المستنصرية ، وكانت من أشد ما عانته مصر في عصور ما بعد الفتح الإسلامي .

وعاصر الخليفة الأمر ، كما عاصر من الوزراء أمير الجيوش بدر الدين الجمالي وابنه الأفضل بن بدر الدين وهما من أشهر وزراء الفاطميين في القرن الخامس ، كذلك عاصر الوزير المأمون البطائحي .

وعاش ظافر مرحلة شبابه بالإسكندرية ، وكانت له بها ذكريات جميلة ، وقد تفتحت بها شاعريته ، وطاف بمغانيها ، وسجلها في شعره معجباً ، ومنها خليج الإسكندرية الذي يمدّها بالماء العذب .

وكانت تزدهر حوله الحقول والبساتين الغناء التي أكثر من ذكرها كقوله يتذكر أيامه بالإسكندرية :

أَسْفَى عَلَى ذَلِكَ الزَّمَانِ لَوْ أَنَّهُ	بِالصَّخْرِ قُتَّتْ مِنْهُ صُمٌّ صِيْلَابِهِ
يَا لَيْتَنِي أَحْظَى بِشَمِّ نَسِيمِهِ	وَبِدَيْعِ مَنْظَرِهِ وَلَثْمِ ثُرَايِهِ
حَيْثُ الْعُصُونُ رَوَاقِصٌ وَيَمَامُهَا	يَشْتَدُّ لَطِيبُ الزَّمْرِ مِنْ دَوْلَابِهِ
تَعْرَثُ نَوَاعِيرُ الْمِيَاهِ وَأَتْرَعَتْ	تِلْكَ التَّنَزُّعُ أَوْفَضُ فَيْضِ عُبَابِهِ

كما اعتاد الرمل ، وبساتين التين والكثبان ، وشاطئ البحر ونسيمه .

يَا هَلْ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أُوْبَةٌ	فَيَسَّرُ قَبْلَ مَمَاتِهِ بِيَابِهِ
فَيْرَى مَكَانَ شَبَابِهِ وَنَصَابِهِ	وَحَبَابِهِ وَصَحَابِهِ لِعَابِهِ



حيث النسيم الساجلي يزوره

وندى رياض الرمل عطر ثيابه

ويقول :

هل إلى الثغر من عودٍ ومقلب  
تُرى أزورُ القصورَ البيضَ ثانيةً  
وفوقنا شاهقات الكرم أحييةً  
وللنسيم العليل الرطب وسوسةً

فالعيش منذ رجيلي عنه لم يطب  
بالرمل بين عُصونِ الثينِ والعنَبِ  
من حوثها قُضِبُ الأعصانِ كالطُنْبِ  
فمن كلسرُ بين الرُفَى والصَّحْبِ

وعن حديثه عن الإسكندرية ومعالمها وبيوتها ومساجدها ، يصورها مدينة  
زاهرة تتشح منازلها بالبياض وكذا مساجدها ومنازلها ، فتبدو من بعيد تلبس  
ثوب البياض وكأنها العروس على ما صورها في شعره .

يقول :

تضئُ بها المساجدُ فهي تزهو  
تُجاورها منارُها وفيها  
فناةٌ غادةٌ بإزاء شيخ  
سقى الله السواري بالسواري  
فكم عيدٍ بها أهدى وأذنى  
وفي الباب القديم قديم عهدٍ  
وسيفٌ تخليجها كالسيفِ حَدَا  
وإيقاعُ الضفادعِ فيه عالٍ  
وترقصُ في جوانبه عُصونُ  
وتشدو بينها الأطيَّارُ شدواً  
وكم لى بالكنيسة من كناس  
وكم لى بالمجالس من جلوسٍ  
وبحرُ الملح مثل الفحلِ يوغو  
وتحسبُ سفنه صفةً ولونا

بياضاً مثلما تزهو الكعابُ  
وفي فأنوسها عجب عجابُ  
قصرٍ طالَ بينهما العتابُ  
ودرتُ في مذاهبها الذقَابُ  
حبيباً كان أبعدَه اجتنابُ  
يذكرُنيهِ للثره الذهابُ  
وفي أرج الرياح له اضطرابُ  
وللدولابِ زمرٌ واصطخابُ  
كرقص الغيد مادبها الشرابُ  
رَخيماً للقلوبِ به انجذابُ  
به رشاٌ جلته لنا القبابُ  
تحفٌ به الأحيه والصحابُ  
ويزيدُ حين يقلقه الهبابُ  
فيولاً حين يرفعها العبابُ

وأثناء تردد ظافر في شبابه بالإسكندرية على مجالس العلم والأدب تعرف على  
الحافظ السلفي ، والتقى بصديقه الشاعر أمية بن أبي الصلت بها ثم عاد ليلتقى  
به مرة ثانية بالفسطاط .

وقبل أن نترك الإسكندرية وحياة ظافر بها ، نحب أن نجول معه جولة في ديوانه للتعرف على بعض ما كان يرتاده من معالمها ، وكيف صورها لنا شعراً ، وما تركت له من ذكريات قبل أن يتركها في حدود سنة ٥٠٠ هـ .

ونلاحظ كثرة تردد أسماء معينة لمعالم الإسكندرية ، لخليجها أو ترعة المحمودية الآن والبحر والمنارة والرمل ، وربوة ابن العاص ، ولعلها كوم الدكة أو كوم الشقافة ، وقصر الدخان ، ويقع غرب الإسكندرية في الطريق إلى المقس ، والقليدة .

وكان يحب خليج الإسكندرية العذب الذي يحمل إليها ماء النيل فيروى رياضها وبساتينها ، كان يحلو له أن يخرج إليه مع صحبة من رفاقه ليتمتعوا بالطبيعة ، وربما التقى هناك أو صحب بعض حبيباته وأحبائه .

ولم يخل صحبته من بعض رجالات الأدب والقضاة أو العمال الذين عرفهم بشعره وأدبه ، ويروى أنه صحب مرة القاضي أبا المكارم أحمد بن عيميد الدولة في بعض العشيات على شاطئ خليج الإسكندرية ، والنسيم قد جهمش وجه الماء ، ومبادئ الكلا قد برقعت محيا الأرض ، وطوقت أجياد النخيل بقلائد الثمار فأنشد :

وعشية أهدت لعينك منظراً  
روضٌ كمخضّر العذار وجدول  
قَدِمَ السرورُ به لقلبك وإفداً  
نُقِشَتْ عليه يَدُ النسيمِ مبارِداً  
والنخل كالهيِّفِ الجِسانِ تزيّنتُ  
فلبسَنَ من أثمارهنَّ قلائداً

ولعل تلك النزهة كانت في أخريات الصيف ، ومطلع الخريف ، وقد تلونت فيه ثمار النخيل .

وربما كان سكن ظافر بالإسكندرية القديمة بمكان كان يسمى بالظاهرة يقع غرب الحى الرومانى أو اليونانى أو جنوبه الغربى ، وقد جاء ذكر الحى الرومانى أو اليونانى ، وربما هو ما كان اسمه هرقله نسبة إلى قيصر هرقل . ربما كان قريباً من محطة الرمل أو ما بينها وبين حى الشاطيى ، يقول عن هذا الحى :

وفى عذباتِ الرملِ دُونَ هِرْقَلَةَ  
مستارُحُ نَسَمَى بينها ومَرَاتِعُ  
رياضُ إذا هبَّ النسيمُ يَحْلُلُهَا  
سَعَى وهو واهى الخطو فيهنَّ ظالِعُ

ومن معلمها التي ذكرها الكنيسة ، ولعلها الكنيسة المرقسية قرب محطة  
الرمل الآن ، يقول :

وشرق المحجة لى غزالٌ      تُحجِّبه الصوارمُ والحِرابُ  
وكم لى بالكنسية من كناسٍ      به رشاً جلتهُ لنا القِبابُ  
وكم لى بالمجالس من جُلوسٍ      تحفُّ به الأحبَّةُ والصَّحابُ  
وأذكرُ قصر فارس والمعلى      ففيه لكلِّ موعظةٍ منابُ

ولعله تعلق زمن تردهه على الكنيسة بتلك الفتاة النصرانية التي ذكرها في  
شعره .

ومعظم حديث ابن ظافر عن هواه كان في شبابه بالإسكندرية حيث تتوارد  
عليه صور تلك الأوقات السعيدة فيقول :

ديارٌ ليستُ اللهو منها مع الصبا      فنعمَ الحلى فيها ونعمَ الملابسُ  
ليالى أعطى الحبُّ فضلةً مقودى      ذلُولاً، وعند العتبِ واللومِ شامِسُ

أصيِّدُ المها فيهنَّ ، ثم يصدننى      فكلُّ لقلبي بالشبابِ فرائسُ  
تساوت بنا حال الصباية والصبا      فكلُّ لكل مُشبةٍ ومُجالسُ  
فأرشفُ ذُرّاً لم يثقبهُ ناظمٌ      ونورَ أقاح، قد نمتهُ المغارسُ  
واقطف ورد الحد والورد زاهر      وألزم غصن البان والغصن مائسُ  
زمان كطيف زار وازور وشك ما      تصافح جفنا مغرم وهو ناعسُ

وكانت رياضته مع حبيبته أو أصحابه وقت الأصيل إذ كثيراً ما ينوه  
بالآصال ، في نزهته تلك سواء على الخليج أو بالرمل على شاطئ البحر ، كان  
يقول :

هذا الخليج فمرحياً بزمانه      يا حبذا الآصالُ بين جنائِه  
فامرْحُ بطرفك كيف شئتُ ترى به      معنَى يَفُكُّ القلبَ من أجزانِه

ويقول في سرحة له على شاطئ البحر أصيلاً :

وآصالنا في ساحل البحر نعتلى      به الرَّمْلُ ما بينَ الكشيبِ إلى الوهدِ  
نغازل من غزلانه كلُّ سابع      له مقلَّةٌ عاداتها قنصُ الأسدِ

جكث لنا الأمواج أثقال يذفيه      فأوثته تُخفي وآوثة تُبدي  
إذا قابل التيار هيف قدودها      أرثنا فعأل الریح بالقضب الملد  
ليالٍ وأيام تقضت كأنها      جواهر نظم خانها العقد من عقيد

والتقى بالوزير الخطير شاهنشاه الأفضل بن بدر الجمالی بالفسطاط ،  
فحظي لديه ولزمه ونظم فيه القصائد الطوال حتى كانت مدائح فيه ديواناً  
كاملاً .

وسجل في شعره بعض معالم الفسطاط ومصر والقاهرة وما حولها من  
الخليج المصري أو الذي سمي بالخليج الناصري ، والذي كان يخرج من شمال  
الفسطاط ، وتحوطه البساتين والمناظر والمنتزهات ، ومن أشهرها كما عرفنا عند  
الحديث عن تميم بن المعز والشريف العقيلي القاش ، وبركة الحبش ، وكانت  
بركة الحبش تقع جنوبي الفسطاط وكانت من منازل مصر المشهورة ، كذلك  
ذكر المقطم ، وما كان قرب الفسطاط من الأديرة التي يؤمها بعض سرة  
القوم ، للزهوة كدير القصير .

ورغم أنه نال في الفسطاط ما تمنى ، لكنه لم يسئل عن الإسكندرية قال :

يا ساحل الثغر كم أنأى وأغترب      أما إليك مدى الأيام مُنقلب  
ويا أوائل أيام الشباب به      هل لي إليك في ساعة سبب  
والله ما اخترت مصرًا عنك عن مقة      وإن غدا العيش لي فيها كما يجب  
ولو جرى لي نيلها فضة وغدا      سفح المقطم منها وهو لي ذهب

ومع ذلك فإن إقامته بالفسطاط ، وقربه من النيل ورؤيته له ربطته بها برباط  
عاطفي ، فكان يشدو بهما ، ويحن إلى الفسطاط إذا غاب عنها : يقول :

أحن إلى الفسطاط ما لم أكن به      حين طليح الركب بعد ذهابه  
وأستقبل الركبان من كل جهة      لعل بمصر ذاكرة في خطابه  
وأهجر عذب الماء من طول غلة      إذا لم ينلني النيل عذب رضابه  
وتسود في عيني البلاد تذكرًا      لخضرة شطبه وبيض قبابه  
وكم لي على سفح المقطم وقفة      لها أثر في وهديه وهضابه  
فضضنا بها سلك الحديث فخلته      يمد بنا زهواً لطيب عتابه

ويقول في بركة الحبش :

وفي البركة الغناء للظرف مسرح  
نهى ما انطوى من جفنيه من مآبه  
وهكذا عاش ظافر في شبابه بالإسكندرية محدود الرزق ، وفي القاهرة على  
شيء من اليسار ، ومع هذا فإنه لم يستطع أن ينسى بلدته ، وقضى حياته غريباً  
في القاهرة يرضى عنها وعيه ويحرص عليها ، ويسخط عليها باطنه ويرفضها  
فعاش معذباً يعانى التمزق النفسى والشعور الحاد بالغبرة والحزن الجارف إلى  
الإسكندرية التى مثلت له الجمال والشباب والحب فمئنا أجمل ما صنع من  
شعر بصور مشاعرة تلك<sup>(١)</sup> . وظل بالفسطاط زمناً يعيش بالمدح ، ويلتقى  
بأدباء الفسطاط والقاهرة ويعقد معهم المجالس ، حتى اشتهر وأصبح شاعراً  
مرموقاً تردد ذكره فى أوساط الأدب والعلم فى مصر كلها ، واتصل بالوزير  
الأفضل بن بدر .

ويبدو أنه نال حظاً من الثروة فى جنابه .

وكتب علامة الإسكندرية ومحدثها الكبير الحافظ السلفى ، وبعث إليه  
قصائد من شعره ، يقول الحافظ فى معجم السفر<sup>(٢)</sup> « كان من مقلقى شعراء  
ديار مصر ، وقد كتب لى من شعره غير قصيدة بخطه ، وكتبت أنا عنه أيضاً  
بخطى بمصر وقبل ذلك بالإسكندرية ، مقطعات وقصائد ، وكتبت وأجاب عنه  
بشعر وهو عندى وتوفى سنة ٥٢٨ هـ فى ذى الحجة على ما كتبه إلى ابن  
موهوب من مصر ، وكان قد استوطنها ، وما عرفنا له قط حربة ، أى فسادا  
فى الدين — كمثل الشعراء » .

وذكره عماد الدين الأصبهاني فى خريدة القصر قال : كنت سمعت به  
قدماً ، وأنشدنى له الشريف أحمد بن حيدرة الحسينى الزيدى سنة خمس  
وخمسين .

قال : أنشدنى ظافر الحداد لنفسه ، وهو قريب العصر غريب النثر<sup>(٣)</sup>

(١) الدكتور حسين نصار فى مقدمة الديوان ص ز .

(٢) معجم السلفى نسخة مصوره بنادر الكتب المصرية الورقة ٩٧ .

(٣) ذكر السلفى أن وفاته كانت فى ذى الحجة سنة ٥٢٨ هـ كما ذكرنا وذكر ياقوت وابن خلكان أن  
وفاته كانت سنة ٥٢٩ هـ ، وبينما ذكر ابن تفرى يردى والسيوطى وابن العماد وفاته بعد ذلك سنة  
٥٦٣ هـ وهو غير صحيح ، بمراجعة ما ذكره السلفى وابن العماد وهما أقرب إليه من هؤلاء .

وشعر ظافر كما قال ابن خلكان جيد ، وهو غريب النظم على ما ذكر العماد ، وجودة شعره وغرابته معاً تبيينان فيما وفره له من سهولة الأسلوب مع تمكن من العبارة ، وشاعرية واضحة ، ومقدرة فنية على صياغة معانيه في صور جديدة ، وإن استوحى التراث في بعضها .

وكثيراً ما يبدأ قصائده بالغزل ، ولكنه ليس غزلاً كغزل القدماء بل مزج فيه باقتدار بين معاني الغزل المتداولة ، وجديد التناول والرؤية الخاصة المستوحاة من العصر والبيئة .

ونقرأ قوله في مقدمة إحدى قصائده :

هل غير وقتك للدموع أوان	هذا الفراق وهذه الأظعان
تدعوه من سنن الهوى بهتان	إن لم تُفضضها كالعقيق فكل ما
عدل، فماذا ينفع الكتمان	هذا الغرام على ضميرك شاهد
فالآن قد وقع الفراق وبأنا	إن كنت تدجّر الدموع ليينهم
سقر، وبين جفونه طوفان	عذر المتيم أن يكون بقلبه

فتحس أن الشاعر استوحى بعض معاني شعراء الغزل ، ومن قالوا في هذا المعنى ومزج بينه وبين عناصر إسلامية استقرت في ضمير العالم من مصطلح العلم الإسلامي وبعض لفظ القرآن .

ويقول في أخرى :

فارتع على عرصاتهم وناد	بمنازل الفسطاط حل فوادي
قمر بربعك إربة لمعادي	يامصر هل عرضت لغصن فوقه
بقوام تحوط البائة المياد	انزق يميله الصبا ميل الصبا
فعدبن منه مياه ذاك الوادي	أترى أنال النيل بعض رضايه
يروى وذاك يزيد كرب الصادي	فأفاد منه الطعم لكن شرب ذا
أوطان أحياني، وأهل وداي	وأما على تلك الديار فإنها
وأودها شغفا ولسن بلاي	ولقد أحن لها ولسن منازل
سوداء ترفل في ثياب جداد	دمن لبست بها الشباب ولتي
وأبيت من أهلي على ميعاد	والعيش أنخصر، والديار قرية

والقلب حيث القلب رهن والظبا  
شدت شمل الدسع لما شئتوا  
خدق الظباء الغيد قيد العادي  
شملي، وصححت به بداد بداد

وهنا نجد الشاعر يمزج بين قديم المعنى وصنعة البديع ، والجناس منه خاصة ، مع استلهامه عناصر البيئة المحلية المصرية في التعبير ، كتشبيه رضاب الحبيبة في عذوبته بماء النيل .

واعتماد الشعراء قديماً ذكر صعوبات لقاء الحبيبة ، لما يحيطها به أهلها من حرس شديد ، ورماح ، لا يقوى على اقتحامها العاشق ، فيحتال لها أو يعد لنفسه من الشوك ما يلقي به ظبي الحى وأسنته .

وقد أبرز المتنبي هذا المعنى في صورة جميلة رائعة من قصيدته اللامية المشهورة :

ليال بعد الظاعنين شكول  
بين لى البدر الذى لا أريده  
وما شرق بالماء إلا تذكرا  
يجرمه لمع الأسنه حوله  
طوال وليل العاشقين طويل  
ويخفين بدرا ما إليه سبيل  
لماء به أهل الحبيب نزول  
فليس لمشتاق إليه وصول

ويتناول ظافر هذا المعنى تناولاً جديداً فيعرضه عرضاً خاصاً به ، مستخرجاً إياه في خيالات ورؤى معجبة ، تكشف عن مقدرة فنان وإحساس شاعر ماهر .

كم مهمو جبت من أجل الهوى فرقا  
وليلة مثل عين الظبي اذاجية  
كان أنجمها في الليل زاهرة  
لو هم موقد نار أن يرى يده  
وفي يميني يمين الموت مائلة  
حتى تأملت حيا عز ساكنه  
من كل أروع لا كف لمعصمه  
غير أن يكثر سل السيف متهما  
فجئت أخفى خطأ لو وطئت بها  
يكبو لحيفته الساعي من الرعد  
عسفتها ونجوم الصبح لم تقيد  
تراهم والثريا كف منتقيد  
فيها ولو كانت الزرقاء لم يكيد  
في صورة السيف لم تنقص ولم تزد  
تحفه أسد غاب من بيني أسد  
سيوى الحسام ولا جلد سيوى الزرد  
من ظنه ويبيع الثوم بالشهد  
في جانب الجلد مما تحف لم يجد

حتى لثمت فتاةً الحى فانبهت  
 فسلمت وهى ونهى من مخافتها  
 فظلت ألتها طوراً وأشعرها  
 وقلت للقلب لما خاف بادرة  
 فودعتنى وقالت وهى باكية  
 وسرت والليل قد ولت عساكره  
 ترئو إلى بعينى جؤذير شرد  
 حيرانة، تمزج الترحيب بالحد  
 فعل الهوى بى وقد مالت على عضدى  
 ذا مورد عز أن تعاضه فرد  
 إنى أخاف عليك الموت أن تعد  
 والدهر يأكل كفيه من الحسد

وفى هذه المقطوعة الغزلية التى جعلها مطلقاً لمديحه ضمنها بعض المعانى التقليدية الأخرى زيادة على ذلك المعنى الرئيسى الذى أشرنا إليه ، وهو منعة الحبيبة فى أهلها ، ولا شك أنه استوفى كذلك بعض معانى الشعراء القدامى فى الليل واعتساف الطريق كقول ذى الرمة مثلاً: (١) أحم علافى قطعته بأربعة وهو فى العين واحد .

واستوحى قصصاً شعرباً لأمرى القيس وعمر بن ربيعة يمثل زورات العاشق الليلية للمحبة رغم منعة أهلها فى حمى قومها ، وما قاله واقتنصه معها من اللذات ، وما قاله ، وخافته وخافت عليه .

وهو مع هذا الاستيحاء لا يقلد ، ولا تحس بأنه يحتذى أو يأخذ أخذاً مباشراً ، ولا يمسخ المعنى ، ولا ينسخه ، لكنه يأتى به فى رشيح من اللفظ ، وحلو العبارة حتى يدفعك إلى الإعجاب بصنعتة ، والتعجب من مقدرته وشاعريته .

وهو يرى الغزل فى مطلع قصيدة المديح ضرورة فنية يقتضيهما القول الشعرى وليس مجرد تقليد للقدمات فيما أنشدوا (٢) :

الحب مذ كان معنى يصحب الأدبا  
 وأحسن الشعر ما أضحي تنزله  
 والفهم كالنار والتشبيب إن خمدت  
 كم فكرة أنتجت معنى للتهب  
 وحكمة العرب الماضين كامنة  
 فإن تغزلت فى مدح فلا عجباً  
 إلى المدائح فى انشاده سبياً  
 يشبها بلطيفى فكرة وصبا  
 بالشوق لو رامه فى غيره عزيا  
 فى الشعر فليقف من يعنى به العربا

(١) ديوانه ذى الرمة .

(٢) ديوانه ص ٣٤ .



فهل تعاطاه فحل في فصاحته      إلا بكى سكنا أو ناج أو ندبا  
والشعر تلقين شيطان الغرام فلا      يلى غرائبه إلا لمن نسبا .

ومع ذلك فإن الشاعر يتغزل غزلا صرفا ، بعيدا عن قصائد المديح وتحس في  
غزله صبوة حقيقية، وهوى لا عجا ناش قلبه ولوحه ، وإلا لما قال مثلا(١) :

لو ذقت حين عتبت أيسر حُيِّه      لعلمتْ حُلُو غراييه من صبايه  
ومن البلية أن يلوم أتحا الهوى      من ليس يعلمُ سهله من صعبية  
ما أنت منه إذا تطاول ليله      فلقا وكجث مُقلتاهُ بشهبيه  
وثمكت من كأس الهوى، ويدألهوى      تسقى جوارحهُ بميسم كُربيه  
أنا بعضٌ من سبت اللحاظ فؤاده      فسرى ولم يحفل بلامية حُربيه

قال هذه القصيدة في هوى له بالفسطاط ، أو مصر فهل كان هواه الحقيقي  
هناك ، أم أن حبه وهواه الأول كان بالإسكندرية، ومن يتعقب أقواله وأشواقه  
بالإسكندرية يحس بحقيقة هذا الهوى ، وأنه لم يفارقه أبدا حتى وإن كان قد  
جدد هوى بالفسطاط ، ألا أن هوى الإسكندرية تمثل له دائما ، وفي كل  
طريق يسلكه سواء أسلك إلى مصر والفسطاط أم القاهرة وقد صرح بهذا  
الهوى السكندري في قصيدة يتشوق بها إلى ملاعب ذاك الهوى فقال(٢) :

يا بلدي إن يغيب معنك عن نظري      فإنه في سواد القلب لم يغيب  
وأها على ذلك العيش الذي ذهب      أيامه فيه بين اللهو والطرب  
وللشيبية شيطان يساعديني      علي الهوى ويؤاتيني على أربي  
فإن دعاني الهوى لبيت دعوته      وإن دعاني لسان العتب لم يجيب  
أجر ذيل غرامي غير مكترث      بالحادثات ولا بالك على الثوب

لقد امتزج هذا الحب إذا بحب بلده الإسكندرية ، وتقلبت بهما الأيام فإذا  
هما هوى واحد ، إذا تذكر الإسكندرية ذكر هواه ، وإذا ما ثار في قلبه لأعج  
حبه تذكر ملاعبه بالإسكندرية بين قصور الرمل ، وعلى ضفاف خليجها  
وسط الزروع والبساتين ، أو على شاطئء بحرها الهادر ، يبعث بأمواجه على  
الشاطيء ، ويبه نسيمه فيطوف بوجهه ، ويحبيه ، بل يصافحه ويقبله .

(١) ديوانه ص ٩ ..

(٢) ديوانه ص ٢٠ .

وقد أحسن ظافر وصف مشاعر الحب ، والتعبير عن عواطفه كلما طرق هذا الموضوع حتى إذا اصطنع فيه القول ، أو قاله مبتدئاً في قصائد المديح .

مدائحه :

قال أشهر مدائحه في الأفضل بن بدر الجمالي ، ولعله نظمها في مرحلة حياته بالفسطاط ما بين عامي ٥٠٠ هـ إلى ٥١٥ هـ وقد تكون القصيدة التي مطلعها (١) .

بدا شيبه قبل ابتداء شبابه      وولّى الصبا عنه عقيب اغترابه

أول ما قال من مدح في الوزير ، أو من أوله لشواهد فيها تنبئ بذلك ، منها هذا المطلع الذي يشير إلى غربته عن بلده الإسكندرية الذي تعلق به وصعوبة تلك الغربة على نفسه ، وتكون الغربة شديدة على النفس في أولها وربما كان آنذاك غير مستقر بالفسطاط يتردد بينها وبين بلده ، يفهم ذلك من قوله :

ولما حبانى الدهر منه بعودة      وراجع حظى بعد طول اجتنابه  
وهبت لقرى سرتى بنعيمه      جنابة بعد ساعتى بعقابه  
فإن كنت في مصر غريباً فجل ما      ينال الغريب العز عند اغترابه  
وردت بها بحر التوال مشرقاً      وعرب غيرى أملاً لسراه

وأظن هذه العودة حدثت بعد رحيل أمية بن أبى الصلت عن مصر والقاهرة ، وحدث ما حدث من سجن ، فقارق بلاط الأفضل وخلفاء الفاطميين مغاضباً إلى القيروان حيث الصنهاجيون أعداء الفاطميين أو من أصبحوا أعداءهم بعد حلف ومصاحبة ولعل التلميح إلى من يغرب من الشعراء في البيت الأخير يعنى أمية .

وتختلف مناسبات مدائحه للأفضل بين التهانى بالأعياد ، أو بمناسبة زواج ولده .

فمن تهانيه بالعيد قوله :

نهاية ما سما لعلاك أرض      وأشرف ما زكاً لِنذاك بعض

(١) ديوانه ص ٤٦ .

يقول فيها :

لَعْنَةُ وَجْهِكَ الْيَمُونِ نُورٌ      لَعْنِ الشَّمْسِ تَحْتَ سَمَاءٍ وَمُضٌ  
كَانَ مُلُوكُ أَهْلِ الْأَرْضِ نَقْلٌ      إِذَا اعْتَمَدُوا الْفَخَّارَ وَأَنْتَ أَرْضٌ

ويقول بعد عباراتٍ من الثناء المبالغ فيه على عادة الشعراء في مدائح أولئك القادة والوزراء :

بِقَاوِكَ زَهْرَةُ الدُّنْيَا فَمَهْمَا      بَقِيْتُ فَعَيْشُنَا خِصْبٌ وَخَفْضُ

ويصفه في مدحيه بالعدل إلى صفات الشجاعة وإخافة الأعداء ، كما يشير إلى رعايته للدين وقيامه على حمايته ، ويجدها فرصة سانحة للإشادة بعمل أبيه بدر الجمالي في انقاذ ملك الفاطميين من أعدائهم ، يقول :

أَبُوكَ مَغِيثُ هَذَا الدِّينِ قَدَمًا      غَدَاةَ لَهُ مِنَ الطَّاعِينَ دَحْضُ  
تَدَارِكُ نَصْرَهُ بِدَرَاكِ ضَرْبٍ      تُقَدُّ بِهِ الْجَمَاجِمُ أَوْ تُرَضُّ

حتى يصل بعد هذه المفاخر والمآثر إلى التهنئة بالعيد ليقول :

لَيْنَ الْعِيدِ أَنْ وَأَفَاكَ فِيهِ      وَمُلْكِكَ زَاخِرُ الْأَكْنَافِ بَضُّ

ومما قاله في مناسبة زواج ولده :

يَا بَاسِطَ الْعُدْلِ فِي بَدْرِ وَفِي حَضْرٍ      وَرَافِعَ الْجُورِ عَنِ أَنْكِي وَعَنْ ذَكْرِ

يقول فيها :

يَا أَفْضَلَ النَّاسِ لَمْ يُنْسَبْ إِلَى لَقَبٍ      وَلَا وَفِعْلِكَ أَوْفَى مِنْهُ فَافْتَحِرِ

ويقول في مناسبة مماثلة :

عَجَبْتُ بِطَيْبِ ثَنَائِكَ الْأَقْطَارُ      وَتَجَمُّلِكَ بِمَدِيحِكَ الْأَشْعَارُ  
وَعَظُمَتِ صُنْعًا فِي السَّمَاعِ فَمُدْبِدًا      لِلْعَيْنِ نُحْبْرُكَ هَائِتِ الْأَنْخِبَارُ

ويميضي كعادته في المدح في إفاضة صفات المدح المبالغ فيها من مثل قوله :

وَالْأَرْضُ مُلْكٌ وَالزَّمَانُ كَأَهْلِهِ      خَدَمَ وَبَعْضَ جِيوشِكَ الْأَقْدَارُ

وقوله :

ججّد الكمال من الوجودِ فَمَدَّ بَدَا  
إن كان هذا الخلق أصل وجوده  
للناس فضلك أنكر الإنكار  
طين فأصلك جوهر ونضار

وقوله :

كَادَ الْمُقَطَّمُ أَنْ يَمِيدَ مَسْرَةً      لَوْ لَمْ يُصِيبْهُ مِنَ لَدُنْكَ وَقَارٌ

وهكذا نحوى مدائحها في الأفضل من المبالغة التي تخرج عن جادة القول  
ويبدو أن الأفضل وغيره من الملوك آنذاك كانوا يحبون أن يبالغ الشعراء في  
صفاتهم حتى يبالغوا لهم في العطاء ، وعرف الشعراء ذلك فيهم فكألوا لهم ما  
شاءوا مما يخرج عن كل حد معقول ، ويكاد يصبح من هذر الكلام .

ومدائحها في الأفضل لا تجرى كلها على سنن المديح التقليدي في بدئه  
بالنسيب بل هو يبدأ أحياناً قوله مباشرة دون تمهيد ، وتقتصر قصيدة المديح  
غالباً على صفات المديح وحده لا يشركه فيها شيء ، وعلل ذلك بقوله :

وَالشُّعْرُ تَلْقِينُ شَيْطَانِ الْغِرَامِ فَلَا      يُعْمَلُ غِرَائِبُهُ إِلَّا لِمَنْ نَسَبًا  
إِلَّا مَدَائِحَ شَاهِنشَاهٍ مَا بَرِحَتْ      تُشْرِفُ اللَّفْظَ وَالْمَعْنَى إِذَا اصْطَحَبَا

وانقطع للأفضل فصار شاعره قال :

فَأَصْبَحْتُ فِيهَا خَادِمَ الْأَفْضَلِ الَّذِي      زَحَمْتُ مَلُوكَ الْأَرْضِ تَحْتَ رِكَابِهِ  
جَلُوسٌ عَلَيْهِ كُلُّ عَدْرَاءٍ مَا رَتَضَتْ      يُبْعَلُ إِلَى أَنْ هَرُولَتْ بِجَنَابِهِ

ولأنه كان منقطعاً إلى الأفضل ويعد من شعراء بلاطه ، فقد كان يواسيه في  
ما ينتاب أهل بيته من النوائب فيرتي من فقد له ، كما كان يهنئ بالأعياد  
والأفراح ، فيقول راثياً المظفر أخوا الأفضل :

إِذَا كَانَ عُنُقِي مَا يَسُوءُ التَّصْبِيرُ      فَتَعَجَّلْهُ عِنْدَ الرَّزِيَّةِ أَجَلُورُ  
وَعَايَةُ أَحْزَانِ النُّفُوسِ سَلُّوْهَا      فَأُولَى بِهَا تَقْدِيمِهِ وَهِيَ تُؤَجَّرُ

وكما هو الحال في إغداق صفات المديح والمبالغة فيها بالنسبة إلى الأحياء  
فكذلك كان حاله مع المتوفين ، كأن يقول في هذه القصيدة :

لَقَدْ زَعَزَعْتُ شَمَّ الْعِجَالِ رَزِيَّةً      أَلْمَتْ وَلَكِنِّي طَوْدُ جِلْمِكَ أَوْفَرُ  
وَفَضْلِكَ مِثْلَ الشَّمْسِ نُورًا وَرِفْعَةً      وَحَاشَاهُ بَلِ أَعْلَى، وَأَسْنَى وَأَسِيرُ

فهكذا لا تفلت منه مناسبة الرثاء بل يقتنص الفرصة للمديح ، فتراه يراوح بين رثاء المتوفى ومدح الأفضل في القصيدة .

ومعاني مديحه ورثائه وكل قصائده التي يقدمها ليكسب أو يحصل على المال من عطايا الملوك والرؤساء يغلب عليها المبالغة ، وتردد الصفات المعروفة في مدائح الشعراء ، ويبدو التكلف والصنعة على اللفظ والأسلوب .

وقصد بالمديح جماعة من أعيان العصر كالوزير البطائحي بعد قتل الأفضل ومن يسمى بالأمير فخر الدولة ، وبعض بني أسامة وهم من بيوتات العز في العصر الفاطمي في دولة المستنصر ومن بعده وكان أبوهم من رجال الأفضل ، يقول في أحدهم :

لعبت بالزمن الماضي فحلفتني	من بعده في زمانٍ ظلَّ يلعبُ بي
هذا بذاك ، فطبع الدهر مختلف	لا يبدُ من راحةٍ فيه ومن تعب
لكن تعوضتُ بالشيخ الأجل أبي	محمدٍ خيرٍ أوطانٍ وخيرٍ أب
صرح منيف أسامي له ثمَّ	من جوده تجتنيه الكف من كُتب
إن كان للفضل عينٌ فهو ناظرها	أو نسبةً فالإيه أقربُ النسب
أعطى الجزيل بلا من ولا عِدَّة	ولا سُؤالٍ فأغنى النَّاسَ عن طلب

ومحمد بن أبي أسامة كما ذكر من رجال الأفضل ، وربما كان وسيلته إلى الوزير الخطير ، وربما كانت أيامه التي عانى فيها تلك التي سبقت معرفته بأبي أسامة ، ومن ثم قبل قبوله في بلاط الأفضل .

وكان شاعراً مهاجراً من وطنه ، مبعداً عن أهله ، تلقى من هذا الرجل اقبالاً عوضه وطنه وأهله .

ومدح بعد مقتل الأفضل الوزير البطائحي ( تولى سنة ٥١٥ هـ ) وللشاعر فيه أربع قصائد منها قوله :

كم قدر ما أخفى الهوى وأصونُ      والدَّمعُ يُعربُ والسَّقامُ يُبينُ  
ونلاحظ عدولَهُ في البناء الذي اعتاده في مدائحه للأفضل ، فقد بدأ هنا بالغزل وحديث الحب الذي أعرض عنه أحياناً بمحض إرادته ؟! فقد استطرد في هذه القصيدة الطويلة نسبياً في موضوع النسيب وذكر الحجة ، واصطنع في

ختام المقدمة الغزلية حوارا مع حبيته أعاد فيها إلى الأذهان نهج القدماء ، وبخاصة ما استجد عند بعض العباسيين أمثال أبي نواس في مدحته للخصيب أمير مصر ، وعند أبي تمام في بعض مقدماته . وكذا عند بعض القدماء كحاتم الطائي (١) .

يقول ظافر (٢) :

يأربُ لائمةً شجهاها أننى	سمح بمالى ، والزمان ضنين
قالت: أضعت المال وهزل لك عنه ما	تعتاض؟ قلت: الحمد وهو ثمين
قالت غنيت، فقلت: حسبيك فاعلمي	إن البخيل بماله المغبون
قالت: فإن الفقر هون، قلت لم	يهن الكريم، بل اللئيم يهون
قالت: فإن المال نعم معونة ال	إنسان؛ قلت لها: الإله معين
قالت: فإن الوفريين، قلت: كس	ب الحمد يرفع أهله ويزين
والمال يذهب والثناء مخلد	يحتى به الإنسان وهو دفين
يا هذيه ماذا أفاد بملكه	فرعون، أو بترائه قارون
قالت: فهل لك ما يعوضك الغنى؟	قلت: الأجل السيد المأمون (٣)

ثم يمضى فى مديحة المعهود ، والذى تكررت معانيه فى مدائحه ، وإن تغير بعضها بما يناسب مقام الممدوح . فهو هنا يهتبه بالوزارة ، ويشير إلى كفاءته ، وأنه قوة للخلافة :

أصبحت سيفاً للخلافة حالياً	حيث ازدهى بك عاتق وجنين
فأفخر فأنت وزيرها، ومشيرها	وأمينها، وظهيرها الميمون

وفى قصيدة أخرى ربما كانت أول ما أنشده يستنجد به ويظهر كثرة عياله فيقول :

مولاي قد أوليت عبدك نعمة	فله عليك بها ثناء سمرمد (٤)
والآن قد أضحي حواشى حاله	هدبا، فلا تُرفى ولا هى تُعقد

(١) ديوانه ص ٣٢٠ .

(٢) نلاحظ فى بعض حديثه مع صاحبه عن المال وإنفاقه صلة بما قال حاتم الطائي فى قصيدته المشهورة :

أماوى إن المال غاد وراح .

(٣) ديوانه ص ١٠٣ .

(٤) يقصد المأمون البطاحى الوزير .

فكأنت بعض الملائكة التي لا تغتدى، وكان بيتي مسجداً  
وتكأثر لبكائهم في ماتم طول الزمان وما لنا من نطق  
وتعذر الجارى أضرّ بحاهم وأضرّني وهو القليل الأنكد

ومن مدائح لائمة الفاطميين مدحة للآمر بأحكام الله ، يقول (١) :

هناك الفخر يا شهر الصيام بقرب الأمر الملك الهمام  
فحسبك منه منزلة ومجداً زيارة مرة في كل عام

وبكيل له مديحاً عادياً بصفات يكيلها لغيره ممن هم أدنى منه منزلة ، وإن كانوا متملكين لمصائر الخلفاء كالأفضل ، إلا أنه يأتي هنا ببعض المعاني اللائقة بمقام الخليفة الفاطمي على ما تعارفه الإسماعيلية في خلفائهم من تأيد السماء لهم . وأنهم أوصياء وائمة بتوقيف من السماء . قال :

له جيش سماوي خفي كظاهر جيشه اللجب الهمام  
تقد صوارم العلوي بدءا إذا الأرضي هم بضرب هام

كما ينوه بأبائه من آل على رضى الله عنه ، وجده صلى الله عليه وبهته بنصر كنصر  
النبى يوم حنين :

أمير المؤمنين هناك نصر قريب جاء بالتحف الجسام  
كنصر أيبك في يومى حنين وبدر عند معترك الجمام

ويحتم قصيدة أخرى بما اعتادوه من إعتبارهم عليا وصي الرسول ، وأن الوصاية انتقلت منه إلى أبنائه من فاطمة . يقول (٢) :

فيا ابن البتول سليل الرسول أبوك الوصي ، وأنت الإمام

ويضمن بعض ألفاظ ومعاني سورة النجم وما أكرم الله به نبيه من الإسراء به والمعراج وتقريبه إلى مقام لم ينله نبي قبله . يقول :

أبوك الذى سار فوق البراق وفى يد جبريل منه زمام  
فلما انتهى سدره المنتهى مقاماً له جل ذلك المقام  
دنا قاب قوسين من ربه على يقظة ، لم يشبها منام

(١) ديوانه ص ٢٨٩ .

(٢) ديوانه ص ٢٩١ .

فما كَذَّبَ القَلْبُ مِمَّا رآه      فهل حجةٌ في خِلافِ نُفُوسِ  
فضائلُ جاءَ مِنْ الكِتَابِ      وآيَاتِهِ المحْكَمَاتِ العِظَامِ  
ويختم القصيدة كما ختم الأخرى بالصلاة والسلام على الخليفة . ويقول :  
وصلَّى الإلهُ ، وأهلُ السَّماءِ      عليك صلاةٌ يليها سلامٌ  
وله مِدْحَةٌ أُخرى في الخليفة الإمام الحافظ ، لا يبدأ بالنسيب ولا الغزل ،  
ولكن بالشكوى هذه المرة من ذهاب الشباب . يقول (١) :

لا غرؤ أن رحلَ الشَّبَابُ وباتنا      ما كانَ أولَ من صحبتَ فحَانَا  
ويُتبعُ هذه الشكوى من الشيب وتولى الشباب حديثَ الذكريات عن الأيام  
الحوالي أيام الصبا والصبوة يبدأ بقوله :

كم قد جريتُ مع الصَّبَا في حَلْبَةٍ      ولزمتُ فيها ذلكَ الميْدَانَا  
حتى سبقتُ السابقينَ لِشَاوَاهَا      وهويتُ أوطاراً وحُزْتُ رِهَانَا

لقد بلغ الشاعر في عهد الحافظ مرحلة الكهولة ، ضعف جسده ، وأبيض شعره وسكنت فيه سورة الحياة ، وبلغ شاطئء النهاية ، وفي هذه المرحلة يحلو للإنسان أن يتذكر ، وأن يعيد إلى مخيلته شريط الذكريات ليحيها من جديد ، مادام لا يستطيع رد ما مضى من الأيام ، ولا أن يعود به القهقري ، أفلا أقل من أن يعيش ماضيه في الخيال !

ويخلص من حديث الذكريات إلى ممدوحه الحافظ . يقول :

يا من مضى فاعتضتُ عن أَيَّامِهِ      أوفى نظام المدح في مؤلَانَا  
الحافظ الدين ، الذي غمر الوري      عدلا وعمم جميعهم إحسانَا  
هو رحمةُ الله التي أحى بها ال      ثقَلَيْنِ حتى الجودَ والإيمَانَا

ويردد ما يردده أتباع الإمام من مثل قوله :

يا حُجَّةَ الله التي أبدتْ لنا      بكمالها الآياتِ والبُرْهَانَا  
من كان يلتبسُ الدَّلِيلَ فقد بدتْ      حُجَجٌ ملآنٌ مسامعًا وعيَانَا

ويعيد مرة أخرى قصة الإسراء والمعراج التي شرف بها الله نبيه .

والشاعر في هذه القصائد مضطر أن يسلك هذا الطريق في مديحه ، ونرى



أنه يقول بطرف اللسان ، ولم يصدر عن عقيدة صحيحة ، أو تصديق لما ينسبه إلى أولئك الأئمة والخلفاء ، لكنه مضطر إليه كما قلت والمضطر يركب الصعب ، والصعب هو هذا الذى يقوله ولا يعتقده .

\* \* \*

### الوصف فى شعره :

يتنوع موضوع الوصف فى شعر ظافر ، وتنوع طرائقه ، فهو إما وصف مباشر لمشهد رآه ، أو تسجيل لبعض ما يمر به ويعبر من الرؤى فى مناسبة ، أو قد يجيء الوصف فى سياق حديث آخر كالغزل والمديح ، والقول فى الخمر والشراب ، أو قد يكون استعادة لذكريات الأيام الخوالى ومشاهده أو نزهاته فى الروضات وشاطئ البحر ، وأماكن النزهة واللهو كالأديرة وغيرها من مظاهر الطبيعة المصرية كالنيل ، أو الآثار والأبنية كالمنار والأهرام .

وتجىء أوصافه للرياض ، وأماكن البحر والرمل والساجين والسباحات فيه بالإسكندرية ، على رأس أوصافه ، وفى مقدمتها ، بل وأجملها وأعذبها نفساً وتلحق بهذه أوصاف جزئية للزهر ، والنواعير ، والطيور والكؤوس والشراب ، والأطعمة ، والرسائل .

ولأ نجد لظافر إهتماماً بمجالس الغناء والموسيقى ، فلم ترد فى شعره أوصاف لآلات الطرب ، ولا القينات كما فعل غيره من شعراء عصره أو من سبقوه بمن عرضنا لهم ولا شك أنه شهد مجالس الطرب والغناء فى قصور من يغشى دورهم من الوزراء والأعيان أمثال الأفضل ، وغيره بالفسطاط ، وكانت آنذاك عامرة بهذه الملاهى ، وإن لم يشهدوا فى تلك المجالس الخاصة ، فلعله وقف عليها فى الأعياد والمواسم التى كثرت واهتم بها الناس فى مصر الفاطمية ، واتخذوا من الغناء ومن الموسيقى ، والطرب عامة ، مظهرًا من مظاهر تعبيرهم عن الفرحة والسعادة بمناسبة تلك الأعياد .

ونبدأ حديث الأوصاف عنده بتلك الصور المشرقة التى رسمها لمانزه الإسكندرية والقاهرة أو الفسطاط ، ومطرح اللهو بهما ، ونبدأ بالبحر وشاطئه ببحر الإسكندرية وشاطئ الرمل :

يصف البحر فيقول :

وبحر الملح مثل الفحل يرغو      ويزيد حين يقلقه الهباب  
وتحسب سفنه صفة ولونا      فيولا حين يرفعها الهباب

ويقول في وصف البحر والساحات الحسنات :

وآصالنا في ساحل البحر نعتلى      به الرمل ما بين الكثيب إلى الوهد  
نُغازِلُ من غزلانهِ كُلُّ سابع      له مقلة عادتها قنصُ الأسد  
حكّت بيننا الأمواج أثقال رذفه      فأونة تخفى، وأونة تُبدي  
هو الماء فوق الماء: هذا نعافه      أجاجاً، وهذا فيه أخلّي من الشهيد  
إذا قابل التيار هيف قُدودها      أرتنا فعأل الرّيح بالقضب المديد

وصور خليج الإسكندرية والرياض حوله ، والزهور والطيور .

ولظافر في هذا المجال إبداعات فنية ، وصور بهجة ، لهذه المنازة الجميلة  
بشاطيء خليج الإسكندرية في عصره ، تجعل القارئ لشعره يستعيد تلك  
الصور ، ويحس بما أحس به الشاعر من سعادة وبهجة وسط تلك المجال :

يا ليتى أحظى بشم نسيمة      وبديع منظره وثم ثرايه  
ويعلنى ذلك الخليج بشرية      سيما إذا انتسجت دروغ حبايه  
وصفاً وزاق وعاد مدّ زلايه      كالسيف جرد من خلال قرايه  
فكأنه والريخ تنقش متته      حرزّ عليه يدق خطّ كتابه  
كالمررد المنقوش نقشاً حققت      آثار موقعه يدا ضراً به  
كضغيرة الخواص أمكنه لها      سعف ضفرن فرق ضفر لبايه  
حيث الغصون رواقص ويمامها      يشدو بطيب الزمر من دولايه  
تعرث نواعير المياه وترعت      تلك التراع وقض فيض عبايه  
حتى يُجرّد سيفه أسياها      بجداول جلدن في أعشايه

نلاحظ بعض تشبيهاته التي عرض فيها ملاح من حقله الشعبي كالإبراد  
وصانع الخوص في هذه المقطوعة التي رسم بها الشاعر صورة للخليج وقد  
امتد ولمغ ماؤه الأبيض ، وتفرعت منه قنوات وترع تسقى الزرع ، وشبهها  
بالسيوف المصلطة المسلوطة ، وهي صور وقع فيها الشاعر في أسر القوالب

التقليدية لتشبيه الجداول ، ولم يبدع فيها ، بل لم يوفق في نقل الصور التقليدية غير الموافقة لمشهد المسرة في الخليج والمروج من حوله .

ويكرر هذه الصورة أو هذا التشبيه للخليج أكثر من مرة فيقول :

وسيفُ خليجها كالسيفِ حِداً      وفي أرج الرياح له اضطرابُ

ويرشح حديث السيف الجوشن والدرع والميرد وكل هذه المصطلحات البيانية في وصف المياه التي تدرجها الرياح ولا تجد مبرراً واضحاً لهذا القالب التشبيهي عند شعراء العرب في جملتهم .

إلا أنه على الرغم من هذا المصطلح والقوالب التخيلية المتداولة لا نعدم تشكيلاً مبدعاً لعناصر الطبيعة في صور الشاعر للخليج الإسكندري ومزوجه فهو يدخل أصوات الحمام ، والضفادع ، وزمر الدولاب ، ورقص الغصون لتعبر هذه العناصر عن أحاسيس الفرحة والسعادة إلى جانب مشاهد السيوف والمدى والجواشن وما إليها التي تثير خيال الحرب المنفزع الخيف وسط هذا الجو المليء بالمتعة والتعيم ، ولعله تنبه إلى أن هذا الوصف الإصطلاحي يفعل ذلك دون إرادة منه ، إنما هو كما قلت قد وقع فيه أسر التراث التعبيري في الشعر ، يقول :

وتكسوه الرياح دُرُوعَ حرب      ولا طَعْنُ هُنَاكَ ولا ضِرَابُ

ولولا هذه العناصر المقحمة لثم للصورة الشعرية تماسكها وتناسقها .  
يقول :

وترقصُ في جوانبه عُصُونُ      كرقصِ الغيدِ مَادِبِهَا الشَّرَابُ  
وتشَلُّوْا بينها الأَطْيَارُ شَدْوَاً      رَضِيئاً للقلوبِ به انجِدَابُ

وفي صور الإسكندرية الرَّمْلُ ، وقصورُ الرَّمْلِ وكرومه وزهوره البريَّةُ كالشقائق الحمراء ، والأقحوان الأبيض ، يقول :

وكم يوم لنا بالرَّمْلِ فيه      حديثٌ مثل ما نثر السحاب  
حديثٌ كاسمِهِ فينا حديثٌ      كما يَسْقَى أَخْطَامُ نِغَابُ(١)  
جلستنا والرَّمَالُ لنا حشَايَا      وأوراقُ الكرومِ لنا حِجَابُ

(١) النغاب ما بقي من الماء في بطن الوادي .

على الكشبانِ أَكثَبَ سِمَانٌ      وفي الأَغصَانِ أَعْصَانٌ رَطَابٌ  
 به القصرانِ كالرَّجُلَيْنِ لِأَخَا      على بَعْدِ يُقْلِبُهُمَا السَّرَابُ  
 أَقَامَا صَاحِبَيْنِ مَعَ اللَّيَالِي      ولم يَنْعَبْ بَيْنَهُمَا العُرَابُ  
 ويذكر قصرى فارس والمعلّى ، وكانا من القصور الأثرية الشاهخصّة في أيامه على  
 ما يبدو :

وأذكرُ قصرَ فارسَ والمعلّى      ففيه لكلِّ موعظةٍ مَنَابُ  
 وهى من بَعْدِ قُوَّتِهِ فَأَضْحَى      كما بَرَكْتَ على الغبراءِ نَابُ  
 وَأَفْنَتْ مَلِكًا سَاكِنَهُ اللَّيَالِي      وَكَمْ فَاضَتْ بِعَسْكَرِهِ الشُّعَابُ  
 فَأَصْبَحَ دِمْنَةً تَغْدُو السَّوَابِي      عَلَيْهِ وَقَصْرُهُ قَقْرٌ يَبَابُ  
 تَنوُحُ الهَاتِفَاتُ على ذُرَاهُ      وَتُعْشِبُ في أسَافِلِهِ الرِّحَابُ  
 ففى تلكِ الشَّقَائِقِ مِنْهُ شَاقَتْ      شَقَائِقُ شَقَقَتْ مِنْهَا الثِّيَابُ  
 تَرَامَتْ مِنْ كَمَائِمِهِ فَكَانَتْ      كَحُمِرِ اللَّاذِ أَيْدِئُهَا العِيَابُ  
 تَحْرُكُهَا الصُّبَا فَتُخَالُ فِيهَا      بِحَارِ دَمٍ يُمَوِّجُهَا انصِيَابُ  
 كَأَنَّ الحَمْرَةَ الحَمْرَاءَ رَاقَتْ      وَأورَاقِ الشَّقِيقِ لَهَا قَعَابُ  
 وَتَحْسِبُ فَحْمَةً في كُلِّ سَاقٍ      أَحَاطَ سِوَى اليَسِيرِ بِهَا التِّيَابُ  
 كَأَنَّ الأَقْحَوَانَ بِهِ تُعَوَّرُ      مَفْلَجَسَةً مُؤَشِّرَةً عِدَابُ  
 وَقَدْ بَهَرَتْ دَنَائِيرٌ دَعَوَهَا      بِهَارًا كَثُرَها ذَاكَ الحِجَابُ

فراها هنا يلجأ إلى تصوير الزهور التشبيهات المعتادة والصيغ المتوارثة في الشعر العربى ، وبخاصة تشبيه المعتاد عند القدامى في بادية العرب من الزهور البرية كالشقائق والأقحوان غير أنه تَلَفَّتْنَا في أول الأبيات صورة غريبة إذ يشبه القصر بناقة عجوز باركة .

وإذا ما انتقلنا من مشاهد الطبيعة بالإسكندرية وموجها وبحرها ورملها وخليجها وبساتينها إلى القاهرة والفسطاط فأكثر ما حدثنا عنه النيل ، وقد جاء ذكره في مدائحه للخلفاء والوزراء بمناسبة فيضه ومواسم الأعياد وما إلى ذلك .

إلا أنه يخص بركة الحبش التي كانت تستمد ماءها من النيل شرقى جزيرة الروضة قرب الفسطاط بوصفه فيقول :

تأملت بحر النيل طويلاً وخلفه  
فكان وقد لاح بشطيه خضرة  
عمامة شرب في حواشٍ بخضرة  
من ايركية الغناء شكل مُدَوَّر  
وكانت وفيها الماء باقى مُوقَّر  
أضيف إليها طيلسان مُقَوَّر

صورة غريبة قصد فيها إلى التشبيه المستمد من بيئة أصحاب العمائم الخضر  
والطيلسان من أعيان القاهرة . ويصف الأهرام على الشاطئ الغربى للنيل أمام  
الفسطاط وبالجزيرة الفيحاء كما كان يسميها الشعراء . يقول :

تأمل حياة الهرمين وانظر  
كعمارتين على رحيل  
وماء النيل تحتها دموع  
وظاهر سجن يوسف مثل صب  
وبينهما أبو الهول العجيب  
بمحبوبين بينهما رقيب  
وصوت الريح عندهما نجيب  
تخلف فهو محزون كئيب

ويبدو أن سجن يوسف هذا — على عرف القدماء من العرب — هو معبد  
الوادى بجوار أبنى الهول والصورة هنا غريبة نبعت من خيال بدوى ، وهى  
صورة رسمتها ذاكرة الشاعر من حصيلة ما حفظ من الشعر لا ما عاين من  
الواقع ، مع قدر غير قليل من المبالغة .

وله فى دير القصير ، ما يبارى فيه شعراء الخمريات الذين جعلوا هذا  
الموضوع من عناصر قصائد الخمر ، وأكثر فيه وأبدع شاعر الخمر الأول فى  
العصر العباسى أبو نواس وأبياته فى دير حنا وغيره من أديرة الحيرة متداولة  
مشهورة .

كذلك لظافر ديرية فى دير القصير يحاكي فيها أبا نواس .

وله غير حديث الوصف للمنازة ، وأماكن اللهو والمرح ، ومسارح المتعة  
حديث عن الربيع كقوله (١) :

جاء الربيع أخو حياة الأنفس  
فاغنم بنا ملح الزمان مبادرا  
واستقبل الأرج المعطر كلما  
فكأنما زهر النبات قلائد  
ومجمل الدنيا بأفخر ملبس  
وتمل منها حظ من لم يتحس  
مرت عليه الريح كالمتنفس  
ثيرت على صفحات بسط السندس

(٢) ديوانه ١٦٥ .

(١) ديوانه ص ٣٣٩ .

ثغرُ الأجاجي من عيون الثرجس  
وأمال منه الفكرُ جيدٌ مُنكسٍ  
ألقت إليها الريحُ سرَّ مُوسوسٍ  
لفظٌ يفيدك من فصيحٍ أخرسٍ  
فحكى عُضُوناً في جبينٍ مُعبسٍ  
أثر الحزازِ على سنامِ الأعبسِ  
للرزقِ بينَ مبيكٍ ومُغلسِ  
وروائعِ بينَ الرياضِ وكُفسِ  
وتنال من طرفه مالم تغرسِ  
في حُلَّتَيْنِ مُعصفرٍ ومُورسِ

والوردُ ينجلُ حينَ قَبْلَ خدِّه  
فكأنه غيران أدهشهُ الهوى  
وكأنما الأغصانُ تطربُ كلما  
وكان هتف الوردِ في أغصانها  
والماءُ قد عبثت به أيدي الصبا  
وكأنما حُبك الرياح على الثقا  
والطيرُ تسرحُ في الرياضِ غوادياً  
والوحشُ بين سوانح وبوارح  
تردُ العديرةُ وُروُدَ من لا يشتقي  
والشمسُ تجلي في مطالعِ شرقها

صور جديدة متتابعة من خيال يختلط فيه صور تراث العربية في يديها ،  
ومشاهد الحضارة بمصر والإسكندرية .

وفيه يقول (١) :

يختال بين مُدبِّجٍ ومُعصفرٍ  
مما يُقال عذرت أم لم تعذر  
والدهرُ في غفلاته لم يشعر  
أرجائه نفحاتِ مسكٍ أذفر  
ورسٌ يذرُّ على سناطٍ أخضرٍ  
فرنت بعينِ الذاهبِ المتحسرٍ  
كحديقةٍ حفت بورِدٍ أحمرٍ  
فتر حوى تفاحةً من عنبرٍ  
فيسيرُ بين تدرجٍ وتكسرٍ  
فتظلُّ بين تمايلٍ وتبحرٍ  
من آلِ حامٍ خلف آلِ الأصفرِ

هذا الربيع أتى بأحسنِ منظرٍ  
فانهض إلى داعي السرورِ واخلنى  
واسرق بنا خلس الزمانِ مبادرا  
والروضُ يقلقه الصبا فيثيرُ من  
وكان مُصفرُ الأصيلِ بخلاله  
والشمسُ قد حوت المغاربُ شطرها  
والجوُّ من شفقِ العُروبِ مُفروِّزٍ  
وبدا الهلالُ لليلتين كأنه  
والماءُ يُبدي للتسيمِ تملقاً  
والطيرُ يطربُ شجوها أغصانها  
والليلُ يختلسُ النهارَ كعصبةٍ

ونلاحظ بعض أوجه الشبه بين رؤى الشاعر في القصيدتين مع أن الأولى  
يصف مشهداً في الصباح والثانية وقت الأصيل قرب الغروب ، وتشابهان

(١) ديوانه ١٣٦ .

كذلك في امتزاج صور الموروث الشعري بالحديد من حقل تجاربه  
ومشاهداته .

### أوصاف أخرى

وهناك أوصافه لأشياء متنوعة كالحمامات والأطعمة ، وكقوله في فقاع (١) :

وَاقِ بِفَقَاعِ أُرْجُحُ      يُحْيِي بِنُكْهَيْهِ الْمَهْجُ  
شَيْخٌ مَضَتْ مِنْ عَمْرِهِ      فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى جَجَجُ  
مَرْجَتْ يَدَاهُ الطَّيِّبَ فِيهِ      فَكَانَ أَظْرَفَ مِنْ مَرْجُ  
وَحِشًا قُلُوبَ سَدَابِهِ      مِنْهُ بِكُلِّ فَمٍ حَرْجُ  
فَكَأَنَّهُ يَحْشُو بِهِ      قِطْعَ الزُّمْرُدِ فِي السَّبْجِ

ومن السوق يصور ظافر أصحاب الصنائع فيقول في حلاق :

لَا أَسْعِدُ اللَّهَ مَسْعُوداً فَصَنَعْتُهُ      كَوَجْهِهِ كُلُّ مَتِجٍ مِنْهُ مُحْتَصِرُ  
لَا يَخْلُقُ الرَّأْسَ إِلَّا مَرَّةً وَبِهَا      تَغْنِيهِ عَنْ عَوْدَةٍ مَا مَدَّهُ الْعِمْرُ  
لَأَنَّ الْأَطْفَالَ لَمَسَ مِنْ أَنَامِلِهِ      وَهَلْ بَعْدَ سَلْخِ يَنْبِتِ الشَّعْرُ  
فَلَوْ نَوَى خَلَقَ شَعْرًا فِي ضَمَائِرِهِ      بِفِطْنَةٍ كَادَمَتَهُ الْمَخُّ يَنْشُرُ  
وَقَالَ فِي صَانِعِ كِنَافَةِ :

وَحَازِقِي مُحْكِمِ كِنَافَتِهِ      لَا تَشْبَعُ الْعَيْنُ مِنْهُ بِالنُّظْرِ  
كَأَنَّهَا بَسِيطَةُ الْعَجِينِ عَلَى      أَكْرَاهِ لَمَّا حَفَّتْ بِمَسْتَعْرِ  
يَنْسَجُ غَيْتًا مِنَ السَّحَابِ عَلَى      وَامضِ بَرِقٍ يَكْتَنُّ بِالْمَطْرِ  
كَأَنَّهُ يَفْتَحُ الْفَوَاقِعَ ذَارَاتٍ      عَلَى رَاكِدٍ مِنَ الْغُسْرِ

وقد ألم بتشبيه ابن الرومي في صانع رفاق .

وله في الشكوى ، وأحوال الحياة والناس قصائد يقف فيها متأملاً ناصحاً  
وكأنه في أخريات حياته يستعرض ما مر به من أحداث تتقلب به بين المرارة  
والحلاوة وتخوض به أيامها في سهل وصعب . يقول :

خَانَ الشَّبَابُ وَمَا وَفَى بِمَا وَعَدَا      فَلَا تَتَّقِ بِحَيْبِ بَعْدَهُ أَبَدَا

(١) الفقاع شراب يتخذ من الشعير ، وسمى كذلك لما يعلوه من الزبد والفقاقيع ويبدو أنه قريب مما كان يعرف في أوساطنا الشعبية بـ « السوياب » .

(٢) ديوانه ص ٣٤ .

فما أبالي أغنياً حُضِّتْ أم رَشَدًا  
ولِي وخَلْفِي في إثرها وَعَدَا  
وكَلِمَا رُمْتُ تقريباً له بَعْدَا  
لما رَأَتْ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُ نَكِدَا

قد كُنْتُ أَعْقُدُ عِزْمِي في أوامِرِهِ  
حَتَّى رَأَى من جُنُودِ الشَّيْبِ بَادِرَةَ  
فَكَلِمَا رُمْتُ نَصراً مِنْهُ يَخِذْلِي  
فَنَظَلْتُ أَعْيَبُ نَفْسِي في عَجِيَّتِهِ  
ويقول ناصحاً :

لا تفرحن برتبة أعطاك في الناس جندك  
وانظر مكانك في الفضاء  
أنت الفقير مع الغني  
هباك اقتدرت على الظلوا  
لا يغررلك من يها  
فمن البليبة أن تزر  
فاذا بليت بفقديه

وقال في شكوى الدنيا :

وعيشها بالطبع مر كثير  
أقبح شيء عند من يختير  
فكل جنس تحت بوس وضر  
وذو الغنى يجمع كنى يدخر  
وذاك خوف الفقر عبد الحذر  
من شعب الصوم وطول السهر  
في آخر الأمر إذا ما حشر  
صعب شديد مستحيل غير  
مُسَقَّةُ الرَّأْيِ قَبِيحُ الأثر  
مذموم في قومه مُحْتَقَرُ

أف لها دنيا فلا تستقر  
جميلة المنظر لكنها  
قد دخل العالم في سجنها  
فقيرها يطلب نيل الغنى  
فذاك للإملاق في حسرة  
والزاهد العابد في كلفة  
وخوف ما يلقاه من ربه  
وهمه في القوت من حله  
والفاسق المذنب في وضمة  
ليس بمامون ولا آمن

وهكذا يمضي في القصيدة مُستعِرِضاً أحوال الدنيا وما فيها من العجائب  
والمتناقضات والمسرات والمنغصات .

ولظافر في ديوانه رسائل شعرية إلى أصدقائه من الشعراء والأدباء وغيرهم ،  
منه رسالته إلى أمية بن أبي الصلت الشاعر القيرواني الوافد إلى مصر .



يقول فيها : ( وكتب بها إليه بعد مغادرته مصر إلى القيروان ) (١) :

هو السَّمُّ ، لكن في لقائك دِرْيَاقُ  
علي كُلِّ قَطْرٍ بِالْمَشَارِقِ إِشْرَاقُ  
بقلبي ، عهدًا لا يَضِيعُ وَمِيثَاقُ  
وريقاءَ كَتَبْتَهَا مِنَ الْأَيْكِ أَوْزَاقُ  
وأكثرُ أَخْلَاقِ الْحَلِيقَةِ أَخْلَاقُ  
دياركَ عن داري هُمُومٌ وَأَشْوَاقُ  
جَرَّتْ وَلَهَا مَا بَيْنَ جَفْنَيْ إِحْرَاقُ  
بِحلالِ التَّرَاقِ وَالتَّرَائِبِ إِشْهَاقُ  
فلي منه في صَعَبِ التَّوَابِ إِتْفَاقُ  
لجيشِ خُطُوبِ صَدَّهَا مِنْهُ إِرهَاقُ  
غُرُورٌ ، وَأَنْ الْكَنْزُ فَقَرٌّ وَإِمْلَاقُ  
وليسَ لَهُ مِنْ رِقِّ وَدَكِّ إِعْتِاقُ  
وَمُطَرِّدٌ طَامِي الْعَوَارِبِ تَحْفَاقُ  
طَلَّاعٌ أَنْصَاها ذَمِيلٌ وَإِعْتِاقُ  
تَلَازِمٌ أَعْتِاقِ الْحَمَائِمِ أَطْوَاقُ  
كهدى وَتَعْرُ الثَّغْرِ أَشْنَبُ بَرَّاقُ  
من القَرَبِ كَالصَّنُونِ ضَمُّهُمَا سَاقُ  
بها حَسَدَتْ مِنْهَا الْمَسَامِعُ أَحْدَاقُ  
مفيدٌ إِلَى قَلْبِ الْمُحَدِّثِ سَبَّاقُ  
لَهُ كُلُّ بَحْرِ فَائِضُ اللُّجِّ رِقْرَاقُ  
تَضَمَّنْهَا عَذَبٌ مِنَ اللَّفِظِ غَيْدَاقُ  
لأبْكَارِهَا العُرِّ الفَلَاسِيفِ عُشَّاقُ  
غَرَامٌ ، وَقَلْبٌ دَائِمُ الفِكْرِ تَوَاقُ  
وَأَهْلُهُ لَهُ مَشْتَاقُونَ شَمٌّ وَدَوَاقُ  
لِعَاتِي عَدْرٍ ، وَالْمَقَادِيرُ أَوْهَاقُ  
فإن لم يَكُنْ رَدُّ إِلَيَّ فإِغْرَاقُ

ألا هل لدائي من فراقك إفرأق  
فيا شمسَ فضلِ غرْبَتِ ولضوئِها  
سقى العهدَ عهداً منكَ عمرَ عهدِهِ  
يُجَدِّدُهُ ذَكَرٌ يَطِيبُ كَمَا شَدَّتْ  
لكَ الخلقُ الجَزَلُ الرِّفِيعُ طِرَازُهُ  
لقد صالوتني يَا أَبَا الصَّلْتِ مُذْ نَأَتْ  
إِذَا عَزَّنِي إِطْفَاؤُهَا بِمَدَامِعِي  
سَحَابٌ يَحْلُوها زَفِيرٌ يَجْرُهُ  
وقد كَانَ لي كَنْزٌ مِنَ الصَّبْرِ واقِعٌ  
وسيفٌ إِذَا جَرَّدَتْ بَعْضَ غِرَارِهِ  
إِلَى أَنْ أَبَانَ البَيْنُ أَنْ غِرَارُهُ  
أخى سَيِّدِي مولاى دَعْوَةَ مِنْ صَفَا  
لِئِنْ بَعُدَتْ مَا بَيْنَنَا شَقَّةَ النَّوَى  
وَيَدٌ إِذَا كَلَّفَتْهَا العَيْسَ قَصْرَتْ  
فَعِنْدِي لَكَ الوُدُّ المَلَازِمُ مَثَلَمَا  
ألا هل لِي أَيَّامِي بِكَ العُرُّ عَوْدَةٌ  
لِيَالِي يُدِينُنَا جَوَارٌ أَعَادَنَا  
وما يَبْتَنِي مِنْ حُسْنِ لَفِظِكَ رَوْضَةٌ  
حَدِيثٌ حَدِيثٌ كَلِمَا طَالَ مَوْجَزٌ  
يُزَجِّجُهُ بِحَرٍّ مِنْ عُلُومِكَ زَاخِرٌ  
مَعَانٍ كَأَطْوَادِ الشُّوَاعِجِ جَزَلَةٌ  
بِهِ حِكْمٌ مُسْتَبِطَاتٌ غَرَائِبُ  
فلو عَاشَ رَسْطَالِيسُ كَانَ لَهُ بِهَا  
فِيَا وَاحِدَ الفَضْلِ الَّذِي العِلْمُ قُوَّتُهُ  
لِئِنْ قَصَّرَتْ كَسْبِي فَلَا غَرُؤُ أَنَّهُ  
كَتَبْتُ وَأَفَاتُ البَحَارِ تَرُدُّهَا

(١) ديوانه ص ٢٢٦ .

بحارٍ بأحكامِ الرِّيحِ فإنَّها      مفاتيحُ في أبوابهنَّ وأغلاقُ  
ومن لي بأنَّ أحظى إليك بنظرةٍ      فيسكننَّ يَملاقُ ، ويرقأ مُهراقُ

وهي قصيدة تنبض بما كان بين الشاعرين من ود وميثاق .  
ولظافر في ديوانه موشحات ، لعله عالجها في محاولات أولى ليجرب هذا  
اللون الوافد من النظم وربما تعرف عليه من ابن أبى الصلت الوافد من بلاد  
الأندلس ، أو غيره ممن التقى بهم بالإسكندرية والفسطاط والقاهرة وكانوا كثيرا  
في أيامه ومن قبله .

فمن موشحة قوله (١) :

ثغر لاج	يستأثر الأرواح	لما فاح	ما الخمر ؟ ما التفاح
	أجاني		ذا التائه الجاني
	أنساني		نظرة إنساني
	أفاني		طير بأفاني
	أحياني		في بعض أحياني
لما صاح	ما خلته ياصاح	للأرواح	ذا نشوة من راح
	قلبي مال		فيه إلى الآمال
	مالي حال		يا قوم لما حال
	لولا الخال		ما كنت إلا خال
	لما غال		قلبي فصبري غال
ذا المزاح	عاتبه مزاح	والإصلاح	أن أترك الإصلاح
	أعلى لى		موقى بأعلالي
	أوصالى		نيران أوصالى
	بل بالى		أولى يلبالى
	ياحالى		أنظر إلى حالى
قد ساح	من مقلتي ساح	ذو إفصاح	بالسر، بالإفصاح
	بدر بان		في مثل خوط البان
	وجه زان		قدا كعود زان
	فالإخوان		في اللوم لى خوان
	والعينان		لما جفا عينان

جسم راح	يدميه لمس الراح	لما لاح	لم احتفل باللاح
يا فساك	يا فساك	بالتقتل من أسناك	
ما أسراك	ما أسراك	ليلا إلى أسسراك	
ما أحلاك	ما أحلاك	سبحان من أحلاك	
ما أسناك	ما أسناك	وجها، وما أسناك	
كالمصباح	نورا، بل الإصباح	كم ارتاح	للقرب لوترتاح

ونلاحظ على هذا الموشح أنه مركب القفل ، ولم يلتزم الخرجة في آخره ونظامها على عادة أكثر الوشاحين الأندلسيين ومن سار على نهجهم ، وهو غير معرب في معظمه ، أو لا يلتزم الإعراب ، يعتمد فيه إلى صنعة الجناس في القفل والغصن ، ويربط في الغصن بين جناس أول البيت وقافيته ... فهو يمزج فني التوشيع والجناس وإن جعل صدر الغصن أقصر من عجزه .  
وله موشحة أخرى تجارى فيها صنعته هنا .

وسار على المنوال يقول . فيها<sup>(١)</sup> :

بالاح في سمر	كالسمر	مهلافان صبرى	كالصبر
لم تغمض مذجفانى	أجفانى		
وصار دمعى شانى	فى شانى		
والحب مذ بلانى	أبلانى		

فالقفل متعدد البناء ويجرى على نفس النهج في قفل الموشح الأول مع إختلاف القافية بالطبع لكن الأوزان والتفعيلات واحدة ، والتغير في الغصن إذ يبدأ على عكس الموشح السابق بالمقطع الأطول فيجعله صدر البيت ويجعل المقطع الصغير من كلمة واحدة مجانسة لآخر كلمة في المقطع الأول وهكذا في بقية الأغصان مع تغير القوافي ... ويزيد في هذا الموشح أنه يأتي بخرجة محكمة على تقليد الوشاحين في التمهيد للخرجة في آخر قفل .

يقول في الغصن الأخير بهذا الموشح :

أنظر لسوء حالى	ياحالى
ملكنتى بخالى	ياخالى
ها فاسمع مقالى	ياقالى
دق عليك كالشعر	موشح بزهر كالزهر

فجاء بالخرجة القفل الأخير ، ومهد لها في البيت الأخير من الغصن بقوله  
« ها فاسمع مقالى يا قائل » .

وبعد فإن نظم ظافر في القصيد هو عماد فنه الأول ، وإن حاول الموشح  
وكان له من النثر في الرسائل والمقامة محاولات كذلك على ما سنورده بعد  
قليل .

وكما رأينا فإن شعره جيد بصورة عامة ، ترتفع شاعريته في الحنين والغربة  
وتذكر وطنه الإسكندرية ووصف مجاليها ، وأيام صباه ، وصبوته ، وأماكن  
طرحه ولهوه على الخليج وفوق رمال الشاطئ ، وقرب السواري ، والظاهرية  
وما إلى ذلك مما كرر ذكره من معالم الثغر .

وبناء القصيدة عنده متغير ، فهو يعمد أحياناً في مديحة إلى البناء التقليدي  
حيث يبدأ بالغزل ويتبعه الرحلة في أفراد من القصائد ، ثم يجيء بالمديح ، لكنه  
أحياناً يبدأ مديحة للخلفاء والوزراء والأعيان من الأمراء والولاة والقادة بالموضوع  
مباشرة عن طريق الاشادة بالمدح كأن يقول في الأمير القائد أبي عبد الله  
محمد بن أبي شجاع فاتك :

رجاؤك في نيل السعادة باب وما دون من يبغي نذاك حجاب

ولغته الشعرية ومصطلحة التعبيرى ، وقوابله التركيبية كلها من تراث  
الشعر القديم ، ونحس في شعره بمحفوظه الواسع من هذا الشعر . يستوحيه  
معانيه في كل موضوع ، فتراه في المديح يرتاد أبا تمام والبحتري والمنتبي ، وفي  
الوصف أبا نواس ومسلم بن الوليد وابن الرومي ، ويعتمد كثيراً على أبي نواس  
كلما طرقت موضوع الخمر والشراب ، أو يتحدث عن الدير ، وما يلقاه فيه ،  
ومن يحل به من الرهبان والشماميس . أنظر إلى قوله (١) :

قم نضطبخ عند نقرات النواقيس واشرب على حُسن الحان الشماميس  
ويولع بالجناس أحياناً ، ويسوقه في تراكيب مُتقابلة ، أو مترادفة كصنعة  
حبيب كقوله :

فديرُ شهوانٍ مشهورُ الجمالِ على ما فيه من عظيم تقيس وتكيس

(١) ديوانه ص ٣٣٨ .

وكقوله يقلد إسراف أبنى تمام والمتنبى أحيانا :  
سقى العهد عهداً منك عمرَ عهدِهِ بقلبيّ، عهدٌ لا يضيعُ وميثاقُ  
ويشبه ما جرى فيه المتنبى حبيبا في هذا البناء المتجانس المعيب في قوله :  
وقلقت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل عيش كلهن قلاقل  
وورد في بعض ألفاظه من ألفاظ القرآن والحديث ، لكنه غير مكرر ، كما  
يُردد بعض ألفاظ الحضارة ، وأسماء الفلاسفة كأرسطاليس .  
وتراه يعتمد إلى التشبيه ، فيحلولة في الوصف استخدامه ، في صور متتابعة  
كما يلجأ إلى الإستعارة والكناية ، كقوله :

أأيامنا بالشعر هل لك عودةٌ	إلى حافظٍ للعهد لم يتغير
وهل أتملى من نسيمك سحرةٌ	يصافح مطلول البنات المنور
وأرقل في ثوبى صبا وصباية	وأسحب ذئلي مشية المتبحر
ودمع الندى في وجنة الورد حائر	كخام عقيق تحت در مؤثر
ونور الأقاج العَضُّ يخكي إذا بدا	تبسم خوذ عن شتيت مؤثر
كان يياض الماء في كل جلول	إذا لاح في غصن من الروض أخضر
غلالة شرب ضمها فوق لابس	رشيق قباء أخضر لم يزرر

\* \* \*

كان غصون المائسات رواقص  
تثنت على إيقاع دُف ومزهر  
وخيالاته مستمدة من جوه العام ، ومن بيئته التي طُوف في جنباتها  
بالإسكندرية والقاهرة ، وتراه يشبه كثيراً بأشياء من مكتسبات حضارة  
عصره ، وآنية القصور وأدواتها . وللبحر في صورته وخيالاته نصيب ، كذلك  
للليل ، والنار والفحم ، وكلها في الجديد من صورته فضلاً عما أعاد عرضه من  
الصور التقليدية .

## نثر ظافر الحداد

ولظافر نثر جميل اللفظ والعبارة ، حسن المعاني ، شبيه بشعره . كتب إلى صديق له يقول من رسالة (١) .

« وصلت رقعته — أدام الله رفعته — مضمنة من خطه ولفظه ما كان به قبل اليوم كمال الأُنس ، وقوام النفس ، مذكرة ودادا قد درَس ، وحظاً فيه قد تمس لا لقلّة وفاء مني ، ولا لجناء صدر عني ، لكن أخلقته أخلاقه القيحة ، وأهذمه عدم مودّته الصّحيحة . وفي ذلك أقول ممثلاً :

لا تشكون إليّ وجداً بعدما هذا الذي جرّث عليك يداكا

وأظنه لما أنهج قشيبه ، وصوّح رطيبه ، أخذ يلاطفني بزخارف مكاتبته ، وأما حيل مدهنته لكي يعود ما مضى ، أو يرجع ما قد انقضى ، وهيهات هيهات أن يعود ما فات ، فبحقّ الإسلام تأمن ترك السلام . والسلام » .

وله مقامة يقول فيها (٢) « أصبحت ذات يوم في منزلي ، وقد كل بناتي وجناتي ، ولساني وإنساني من الدأب في الطلب ، والإكباب على الكتاب ، ومتابعة المراجعة في التّسخ والمطالعة ، بين معنى أحكمه أو لفظ أنظمه ، أو بخط أرقمه ، فتأقت النفس إلى الإحماض بمفاكهة أديب والارتياض بمذاكرة لبيب .

وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقرع ، فقلت له : ما الشأن ؟ فقال : جماعة من الإخوان ؛ منهم فلان وفلان . فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، وشقيق شقيق ، وقد اختلفت بينهم الموارد ، واتفقت منهم المقاصد ، فكأثرا كسيهام التبع إذا سددها النزغ ، فوافت الثرجاس ، ولم تحط القرطاس . فقلت : ويحك ! عجل بفتح الباب ، وأذن للأحباب ، فهم نزهة النفس وثمرّة الأُنس .

ثم استنهضني السرور إلى تلقيم بالبشر والحيور ، وقلت لهم : ما نظم لي هذا العقد إلا الجدد ولا تتم لي هذه الإرادة إلا السعادة . ثم أنشدتهم من

ساعتي :

(١) ديوانه ٢٣٥ .

(٢) ديوانه ٢٤٩ .

يا سادة قد كملوا	خُلِقا وَتَخَلَّقا وَشَرَّف
أظنُّ دهرى نادِماً	على الذى كان اقترَف
رأى عظيمَ ذنبه	عِنْدِي فَتَابَ واعترف
وقد حَبَلانى بكم	كفارةً لما سَلَف
ولو ذرى مقدار ما	أهديتُ من هذه التُّخَف
لانتقضت قوتُه	ومات غيظاً وأسَف

ثم رقمنا برود المحاضرة ، بالحكايات المختصرة ، ونظمنا عقود المذاكرة  
بمعاني الأبيات المتكررة ، كما قيل :

حديثٌ إذا تمَّ استُعيد كأنه . . . . . لداذة عذبِ الماءِ في فم صائِم  
فما هو إلا أن استقت الآذان مُجاجات جرياله ، وترشفت الأذهان  
مُجاجات سلساله إذا الغلام يُومى إلى بخفيف الغمز ، ويُنجى إلى بخفي  
الرمز ، فخرجت من بينهم خُروج الحوت من البحر في الشبك ، والظبي من  
الرياض في الشرك . فقلت له : ويلك ! مالك ؟ وما غير حالك ؟ دع ناظري  
يرتفع في هذى الرياض ، وخاطري يكرع من هذى الحياض فاستدنانى إلى  
الذهليز ، وأسر إلى بلفظ وجيز ، وقال : يا مولاي ، ما عندنا اليوم للإتفاق  
إلا الإملاق ، وما نُضيف به الناس إلا الإفلاس ، فدبر عما يُقترض ، أو يُباع  
من العرض ، إلا إن عوثتم على الصيام ، فلا كلام

فبينما نحن نتجاذب في الوسيلة ، وتعامل في أعمال الجيلة ، وإذا بالباب قد  
قُرِع فقلت له : أجب ، لعله ضيف مُنتاب بعين الأصحاب على أكل ذلك .

الطعام البائر ، والمأكول الحاضر . فخرج وجلا ثم جاء باسمًا جَدِلاً ،  
وقال : يا ملأى ! رسول صاحبنا الشواء الذى تخلصناه بالأمس من تلك  
الورطة ، وانقذناه من تلك الضغطة ، واستخرجناه من حبس الشرطة ، ومعه  
سطل به جوداية<sup>(١)</sup> يجذب الأنف أرجها ، ويعجب النفس بهجها ، عطرية  
الأنفاس ، هشة بين الضراس ، تتبرج من حسنها ، وتترجرج في دهنها ،  
تحفها عدة من الرغفان ، زاهرات الألوان ، صافية تفور ، ببخار التنور ،  
كأنها أوجه الحرائد البيض ، إذا أخرجها التقبيل والتعضيض .

(١) الجوداية طعام يتخذ من سكر وأرر ولحم .

قلت : وينحك بالكع ! ما أقبح ما صنع ، وأفضح ما بكع<sup>(١)</sup> ، أف لهذا الخلق ! ، أنبيع جاهنا بيع الخلق ؟ أرُدُّد على هذا السَّنَسافِ متاعه ، ونزَّهنا عن هذه الشَّنَاعَة .

فقال : يا مولاي ! ، أما ما ذهبت إليه ، وعولت عليه فهو الذى تقتضيه المروعة ، وترتضيه الفتوة وتعتمده الهمم الشريفة ، وتنقده الشيم الطريفة ، لكن إفلات ما تحصل ، وفوات ما توصل مع ما نحن فيه من حضور الضيفان ، وفصو الإمكان ، وفوات هذه الفرصة أعظم غصة . بل من الرأي الصواب ، أن نجعل للرجل الخطاب ، وتأخذ ما حضر ، وتقبل ما تيسر . فإذا أيسرنا وفينا فكافأناه ، فنكون قد بلغنا أغراضنا ، وطهرنا أغراضنا . ونبرأ من وصمة ما أبدى بأضعاف ما أهدي :

فقلت : يا فريد ، فى الأمثال السائرة عن أبى عبيد : تجوع الحره ولا تأكل بشديها . قال : يا مولاي ! الضرورة تحسن ما قبح من هذه الصورة .

فقلت : اللهم غفرا ، فقد أبلت عذرا . يا غلام ! اصرف الرسول ، وتسلم المأكول . فلما حاز الجودابة ، وأغلق بابها قال : يا مولاي : إنك عودت زوارنا الضيفان ، وطراق المكان من سماحتك ، إذا نزلوا بساحتك الأكل ، فلا أقل من البقل والحل .

قلت : دعنى من الهذر . شرط الكرم لضيفة ما حضر . وما القبيح إلا مذهب الشحيح . قدم الخوان للإخوان ، وجمله بالزعران ، واحضِر السطل ، واحذر المطل .

فلما حضرت المائدة ، وظهرت التحفة الوافدة ، ظن القوم أنه اهتمام قد قصيد وإكرام قد نُضيد ، وصنيع محمل ، ودست مكمل ، فجعل كل منهم يأكل ويقصر ، لكى يتظهر ، إلى ما يصحب الجذائب فى الترائب من جملان الشواء وجامات الحلواء ، فتم لى بذلك لسان الفراسة وإدمان السياسة ، فتزاورت فى زاوية البيت ، واستخرجت جاما من زجاج — كان عندى — من

(١) بكع استقبل بما يكره .



غشائه وكتب في سوائه<sup>(٢)</sup> على الاستعجان ، بقضية الحال ، وقلته نظماً ،  
وأثبتته فهماً :

يا سادة حازوا المناصب	والمراتب والمناقب
وتحصنوا بالمكرمات	من المعايب والمناقب
فاقوا البرية مثلما	فاقت على التراب الكواكب
لا تحسبوا أنني جهلت	الحكم في سنن الجدائب
فلها شروط كل شتر	ط شائع في الناس دائب
طوراً تكون بسكر	في اللوز تحت الدهن راسب
زهراء قد ستر الرجا	ح شعاعها من كل جانب
والطيب يفسى سرها	بين الأبايد والأقارب
والرنية الوسطى يقد	مها تبابعة وحاجب
مثل الخروف وجامه ال	حلواء تأتي في العواقب
وأقل ما تأتي إذا	حضرت بعصيان أطايب
إلا جذبتنا فقد	جاءت مخالفة المذاهب

★ ★ ★

لم نتخذ في وقتها	شيئاً سوى الأثنان صاحب
فكلوا فليس بحازم	من باع موجوداً بغائب
فلنا حديث باطن	لم تعلموه من الغرائب

ثم غطيت الجلام ، وقلت للغلام : ويحك ! أكمل هذه الدعاية ، واجعل  
الجلام موضع الجوداية .

فلما كشف ما حجب ، وقرىء ما كتب ، وفهم القوم القريض ، وما فيه  
من التصريح والتعريض ، استفزهم الضحك والطرب ، واستهزهم العجب  
والعجب ، واستعادوا السطل واستجأوا الأكل باسترسال وبشر صراح ،  
وبشاشة الإرتياح للأرواح .

فلما أخذوا من الطعام حد الكفاية ، وأمد النهاية ، وامتلاً جناني بهم

(١) التراث الصدر .

نُسرة ، وإنساني بهم قرة ، قالوا . هاتِ الأَشنانَ الذي انفردتْ به الجُذابة  
صاجبا ، وإن ما يكن لها مناسبا

فما هو : إلا أن غسلوا أيديهم من أثر الزَّهْم (١) ، حتى بادروا إلى القرطاس  
والقلم واستدركوا ما فات ، من إثبات الأبيات ، وكرروا لفظها ، حتى اتقنوا  
حفظها .

ثم رجعنا إلى حديث أعذب من ضم الخُلس . ولثم النَّفس . فلم نشعُرُ إلاَّ  
وذُكاء قد ودَّعَتْ الأفق ، وتقتنعت بوردي الشَّقْوق ، وتصرَّف النهار ،  
وانصرف الزَّوار »

\* \* \*

---

(١) الزَّهْم : الدُّغْرُ .

## ابن مكنسة ( أبو طاهر إسماعيل بن محمد ( ت ٥٠٠ هـ ) )

شاعر مصرى سكندرى عاش فى النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى فى ظل خلافة المستنصر ، وتبخل المصادر بأخباره ، فقد ظلم فى حياته شاعراً ، فلم يبلغ ما يستحق لأن الأفضل الجمالى الوزير الخطير غضب عليه واقضاه عن جنباه وظلم ميثاً لأن بعض ترجمته ضاع . وذكر نتفا من حياته وشعره بعض من اتصلوا به أو نقلوا عمى ترجم له . فممن اتصل به فى حياته وجالسه وأنشده شعره ، فنقل عنه الكاتب الأديب الشاعر المصرى على بن منجب الصيرفى كاتب الأفضل الجمالى ، فقد ذكر بعضاً من أخباره ، وأبياتاً من شعره فى الأفضليات<sup>(١)</sup> .

وأمية ابن أبى الصلت فى الرسالة المصرية<sup>(٢)</sup> ، كما نقل عماد الدين فى الخريدة عن أمية ، وعن كتاب جنان الجنان المفقود لابن الزبير وكتاب الحديقة لابن أبى الصلت<sup>(٣)</sup> ، ونقل عنهما ابن شاکر فى فوات الوفيات<sup>(٤)</sup> ، وما يمكن معرفته عن الشاعر لا يزيد على أنه ولد وعاش جانباً من حياته بالإسكندرية والتقى فيها بجماعة من العلماء والأدباء والشعراء ، ثم انتقل إلى القسطنطينية ، فاتصل ببعض أعيان المصريين ومدح أحدهم من كبار النصارى ورثاه وهو الخطير جد ابن ممتى .

قال ابن أبى الصلت : ومن شعراء مصر المشهورين أبو الطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة وهو شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ، مفتن فى وشى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله .

قال : وكان فى ريعان شببته وعنفوان حدائته يعشق غلاماً من أبناء عسكرية المصريين يدعى عز الدولة فائق ، وهو الآن فى عصر المستعلى والامر

(١) راجع الأفضليات بتحقيق وليد قصاب طبع دمشق صفحات ٢٤ / ٦٩ ، ٧٠ ، ١٨٠ ، ٢٣٤ ، ٣١٠ ، ٣٧٩ .

(٢) ص ٤٣ وما بعدها طبع ضمن مجموعة رسائل بتحقيق عبد السلام هارون .

(٣) الخريدة القسم المصرى ٢ / ٢٠٣ بتحقيق د أحمد أمين وشوق ضيف .

(٤) فوات الوفيات ٢١١ بتحقيق د . إحسان عباس ونشر بيروت .

في النصف الثاني من القرن الخامس من رجال دولتها المعدودين ، وأكابرها المتقدمين . قال أمية ولم يزل مقيماً على عشقه له ، وغرامه به إلى أن محاسنه الشعر ، وغير معلمه الدهر . ولم يزل معز الدولة هذا متعهداً له محسناً إليه ، مشتملاً عليه إلى أن فرق الدهر بينهما .

قال : وكان في أيام أمير الجيوش بدر الجمالي منقطعاً إلى عامل من النصارى يعرف بأبي مليح ، وأكثر أشعاره فيه ، فلما انتقل الأمر إلى الأفضل بتولية الوزارة خلفاً لأبيه . تعرض لامتناحه ، فلم يقبله ، ولم يقبل عليه وكان سبب حرمانه ما سبق من مدحه لأبي مليح ، ومراثيه له ميتاً ، ولا سيما قوله :

طُوِيَتْ سَمَاءُ الْمَكْرُمَا بِي ، وَكُوِّرَتْ شَمْسُ الْمَدِيحِ  
مَا كَانَ بِالنَّكْرِ الدَّنِي ——— عِيٌّ مِنَ الرِّجَالِ ، وَلَا الشَّحِيحِ  
كَفَرَ النَّصَارَى بَعْدَمَا عَقَدُوا بِهِ دِينَ الْمَسِيحِ

فلما إنصرف عنه الأفضل ، كفله عزّ الدولة فائق ، وقام بحاله إلى أن مات . ويذكر العماد أن ابن مكنسة كتب إلى الأفضل يقول :

مِثْلِي بِمِصْرَ وَأَنْتَ مَلِكٌ يَقَالُ ذَا شَاعِرٍ فَقِيرٍ  
عِطَاؤُكَ الشَّمْسُ لَيْسَ يَخْفَى وَإِنَّمَا حِظِّي الضَّرِيرُ

وذكر العماد أنه نقل عن رجل التقى به في شيراز سنة خمس وخمسين وخمسمائة من أشرف مصر يقال له فخر العرب أحمد بن حيدرة الحسني الزيدي المدني الأصل المصري المولد ، كان يرتاض الشعر وله شعر حسن كما يقول ، فأخبره عن ابن مكنسة قائلاً أنه كان يلتقى به بالفسطاط بمصر قال : وكنت جالساً معه على دكان أبي عبد الله الكتبي بمصر ، فمر بنا غلام في ثوب أزرق ، فقال ابن مكنسة فيه بديهاً :

مَرَّ بِنَا فِي ثَوْبِهِ الْأَزْرَقِ كَبْدِرٍ تَمَّ لَاحٍ فِي الْمَشْرِقِ  
لَا بَارِكُ الرَّحْمَنُ فِيمَنْ رَأَى حَسَنَ عِذَارِيهِ وَلَمْ يَعَشِقِ

ويبدو من حديث ابن أبي الصلت عنه واختياره كثيراً من شعره ، أن صلة ما عقدت بينهما في أثناء وجود أمية بمصر أول مرة ، وظلت هذه العلاقة قوية

حتى عاد أمية مرة ثانية إلى مصر فتلقاه ابن مكنسة مهتماً بأبيات بعد عود  
الأول من المهديّة هي (١) .

وما طائرٌ قصَّ الزمانُ جناحهُ      وأعدّمةً وكرأً ، وأفقدَهُ إلفاً  
تذكرُ فرحاً بين أنفانٍ بابه      خوافي الخوافي ما يطرنُ به ضعفاً  
إذا التحفَ الظلماءُ ناجيَ همومهُ      بترجيع نوح كاد من دقةٍ يخفي  
بأشفقٍ مني مذ أطاحت بك النوى      هوائية مائية تسبقُ الطرفاً  
تولّت وفيها منك ما لو أقيسهُ      بما هي فيه كان في فضلهُ أوفى

ومعاني الأبيات تشير إلى قوة وحرارة العلاقة بين الشعارين .

وكان على صلة بعلامة الإسكندرية الإمام الحافظ السلفي ، ولعل ذلك كان  
في آخر القرن الخامس وأول السادس ، وهو ما يعني أن تلك الصلة لم تحدث  
في بواكير حياته بالإسكندرية ، فالحافظ لم يكن هناك آنذاك .

وصلة ابن مكنسة بالحافظ ، تجمعها بالشاعر السكندري الآخر في هذا  
العصر وهو ظافر الحداد ، وقد تعاصر الشاعران بالإسكندرية ومصر ، وربما  
التقيا بالفسطاط ، أو جمعتهما معا مجالس الأدباء ، فقد تحدث على بن منجب  
الصيرفي عن كليهما في الأفضليات .

ويعجب ابن منجب بابن مكنسة وينقل بعض شعره في كتابه المذكور .  
ويبدو مما جاء في بعض شعره أنه سافر إلى الشام ، مصاحباً لصاحبه من قادة  
المعسكر وأنه أوفى على الخمسين من العمر .

ومما وقع إلينا من شعره في الكتب التي أشرنا إليها قليل نستطيع أن نلقى  
عليه نظرة عامة ، ليست فاحصة ولا أخيرة ، وإنما هي مجرد ملامح تراءت لنا  
من خلال تلك المقطعات والأبيات المفرقة ، ولم نعثر بينها على قصيدة مكتملة .

ومعظم شعره الذي اختاره أمية ، ونقل عنه العماد يدور في الغزل بنوعيه ،  
وفي الخمر والشراب ، وبعضه في موضوعات تتصل بالمدح والإخوانيات ،  
والهجاء ، وروياً أبياتاً في الوصف ، وبعض شئونه الخاصة ، كأبياته التي قالها  
في منزله الذي ضاق به ، وبعض أبيات في التحامق والعبث .

(١) الخريدة ٢ / ٢١٥ .

وشعره الغزلي قريب المعاني معتادها ، تتردد فيه بعض المعاني التقليدية ،  
فيحتذى شعر من سبقه ، ويشير العماد إلى مأخذه منهم .

قال العماد<sup>(١)</sup> : وله من قصيدة :

وعسكري أبداً جيشما      تلقاه يلقاك بكل السلاح  
حاجبة قوس وأجفائه      نبيل، وعطفاه تنثي الرماح  
راح وفعل الراح فيه كما      يفعل بالعصن نسيم الرياح

أغار في هذا البيت على خالد الكاتب في قوله :

رأت منه عيني منظرين كما رأته      من الشمس والبدر المنير على الأرض  
عشية حيايى بورى كأنه      خدود أضيفت بعضهن إلى بعض  
ونالني كأسا كأن مزاجها      دموعى لماصد عن مقلتي غمضى  
وراح وفعل الراح في حركاته      كفعل نسيم الريح في العصن الغض

وله من أبيات يمزج معاني الخمر والغزل<sup>(٢)</sup> :

يا من صفا ماء النعيم بوجهه      كم عشية كدرتها بصفائه  
وزجاجة قابلتها فتبسمت      عن ثغره ورضايه وسنايه  
مزجت فلانت مثلما مزجت بها      أخلاقه، فأطاع بعد إبايه  
مازلت أرشفها ويغضب ريقه      لما جعلت الخمر من نظرائه

ويقول في الطيف :

بنفسى خيال زار وهو قريب      أحقا عليه في المنام رقيب  
سرى وغدير الليل طام جمامه      وللشهب فيه طفوة ورسوب  
وقد أعجلته للصبح التفاتة      فلم تك إلا خفقة وهبوب  
ولولاكم لم أرض أن تستقرى      زخارف حلم صدقهن كدوب  
وكم لامة أيقظتم نفسى بها      لها بين أحناء الضلوع ندوب  
تجاوز فيها بين هام وجاجم      لعينى وقلبي جذول ولهب

ومنها :

(١) خريدة القصر ٢ / ٢٠٦ .

(٢) الخريدة ٢ / ٢٠٧ .

أَمَسَّتْكُمْ رِيحُ الصَّبَا، إِنَّ نَشْرَهَا      إِذَا هَبَّ مِنْ تَلْقَائِكُمْ لِيَطِيبُ  
وَيَشْفِي غَلِيلَ أَنْ تَمُرَّ مَرِيضَةٌ      وَيرُدُّ غَلِيلِي بِالْعَيْلِ عَجِيبُ

ومن غزله الرقيق لفظاً ومعنى ، وإن أجرى فيه معاني القدماء بتصرف في الصياغة قوله : (١)

مَدَى صَبْرِي وَإِنْ وَصَلُوا قَصِيرُ      وَأَنْجُمُ لَيْلٍ شَوْقٍ مَا تُعَوِّرُ  
وَفِي أَسْرِ الْغَرَامِ إِذَا اسْتَقَلُّوا      فَوَادٍ كَيْفَمَا سَارُوا يَسِيرُ  
غَزَالُ الزَّمَلِ سَالِفَةٌ وَعَيْنَا      وَلَكِنْ لِحِظَةِ أَسَدٍ هَهْـؤُورُ  
وَهَلِ سَوْدُ الْعَيْونِ سِوَى أَسْوَدٍ      تَأْمَلُ كَيْفَ يَفْتَرِسُ الْفُتُورُ  
وَقَفْنَا وَالْهَوَادِجُ مَشْمَسَاتٌ      وَفِي الْأَحْشَاءِ بِالْهَجْرِ الْهَجِيرُ  
كَأَنَّ لِكُلِّ كَوْرٍ فِي فُؤَادِي      إِذَا أَذْكَى لَطَى الْأَشْوَاقِ كَيْرُ

ففي هذه الآيات تنجلي بعض نماذج صنعته الشعرية ، فهو كما أشرت يعيد صياغة بعض المعاني السابقة ، والجارية في الغزل ، فيأخذ معنى قتل العيون الذي صاغه جرير في بيته المعروف :

إِن الْعَيْونَ التِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ      قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِنَنَّ قَتْلَانَا (٢)  
فِيصوغُه صياغة أقل لفظاً فيقول : ( ولكن لحظه أسد هصور ) ويتمه بقوله :  
وَهَلِ سَوْدُ الْعَيْونِ سِوَى أَسْوَدٍ      تَأْمَلُ كَيْفَ يَفْتَرِسُ الْفُتُورُ

ويوظف المعنى للملاءمة الصنعة اللفظية من الجناس والطباق في هذا البيت السابق ، وفي قوله في البيتين اللذين يليانه ، وهو مغرى بصنعة الجناس والطباق ، لكنه يأتي بهما في غير إسراف ينقل الكلام .

وكغيره من شعراء العصر والمصر يستخدم قاموس الشعر من اللفظ القديم ، كما جاء في قوله (٣) :

قَلْ لِأَيَامِنَا التِي قَدْ تَقَضَّتْ      بِالْغَضَا هَلْ لَنَا إِلَيْكَ سَبِيلُ  
أُتْرَى الْبَانُ فِي رِيَاضِكَ يَنَادُ      إِذَا مَسَّهُ النَّسِيمُ الْعَلِيلُ  
أَمْ تُرَى الشَّادِنَ الْقَرِيرَ لَهُ يِي\_\_\_\_\_      كَثِييْكَ مَسْرُحٌ وَمَقِيلُ

(١) الخريدة ٢ / ٢٠٧ .

(٢) خريدة ٢ / ٢٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢١١ .

سَلْ بوعسائها الخمايل تُجلى  
إن يكن عنك عزٌ صبرٌ فصبراً  
وإذا بان عنك من كنت تهوا  
ومما قال في جواب رسالة :

أشمالاً تمسها أم شمول  
إن عَمَرَ البكاء فيك طويلاً  
ه، فغير الجميل صبرٌ جميل

نشرت كتابك عند الورود  
ولم أر من قبله روضة  
وقال في المعنى كذلك :

فناهيك من جوهر ملتقط  
من الخط مطولة بالنقط

أهلاً بها جنة أهدت ثمارَ ثهي  
ما دار في تحلدي لولا كتابكم

وعرّس الطرف فيها أي تعريس  
أن البساتين تُهدى في القرايطس

ومن شعره المتعلق بأحواله وحياته ما قاله حين دُعي للسفر إلى الشام مع  
أحد القواد من أمراء العسكر لقتال الغز (الأكراد) . قال (١) :

غير عاصم عليك تقويم عودي  
قل لمولاي إذ دعاني لأمر  
ضعفت جيتي ، وقل غنائى  
أنا مالى وللشام وإيى  
بلد جته عفاربة الغز  
والجفار التى تقول إذا ما  
وكان بي على بعير ترانى  
أسود الوجه ناظراً في أمور  
وإذا قيل في غد يلقى النا  
حين لا ناظري تراه حديدا  
حين لا يلقى لساني ولا يثنى  
إن رأيى إذا تسدد نحوى  
وإذا ما قتل كنت خليفا  
فأقلنى عثارها وابق للحم

فانقضى من ملامتي أو فريدي  
قمت فيه له مقام العبيد  
ودنت غائتي ، ورث جديدي  
الأرى نار حريها في وقود  
وأرض وحوشها من أسود  
قيل هلا أمثلات؟ هل من مزيد  
آخر الناس في لفيف الحشود  
معضلات ، من الحوادث سود  
س ، فلا تنس ، فهويت القصيد  
حين يئو له بريق الحديد  
سى زمام البعير عني تشيدي  
سهم رام لغير رأي سديد  
بدخولي جهنما في خلود  
يد ، وكتب العدا وغيط الحسودا

(١) الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت ص ٥٠ - ٥١



ويبدو من أبياته هلعه من الذهاب للحرب ، فهذه ليست حرفته ، إنما حرفته الكلمة والقلم ، ويخشي رهب السيف ، ورهج المعارك ، على أن كلامه في هذه الأبيات يكشف عن روح مرح وفكاهة ، ويبدو أن الشاعر كان على قدر من الدعاية ، يكشف عنها أحيانا في أبيات مفردة تفلت منه في بعض القصائد الجادة ، أو قد يخصصها بأبيات وقصائد ذوات عدد . كقوله يصف قبج منزله وضيقه<sup>(١)</sup> :

لَا بِنِ حَجَّاجٍ مِنْ قَصِيدِ سَخِيفٍ	لِي بَيْتٌ كَأَنَّهُ بَيْتُ شِعْرِ
أَنَا فِيهِ كَفَّارَةٌ فِي كَيْفٍ	ضَايِقْتَنِي بِنَاتٌ وَرَدَانٌ حَتَّى
مَثَلُهُ ، وَهُوَ مِثْلُ عَقْلِي الضَّعِيفِ	أَيْنَ لِلْعَنْكَبُوتِ بَيْتٌ ضَعِيفٌ
فَسَلَّمْتُ عَلَى اللَّحَى وَالْأُتُوفِ	وَإِذَا هَبَّ فِيهِ رِيحُ السَّرَاوِيلِ
فَأَنَا مُذْ سَكَنْتَهَا فِي الْكُسُوفِ	بُقْعَةٌ صَدَّ مَطْلَعُ الشَّمْسِ عَنْهَا
صَدَّ فِي بُغْضِهِ عَنِ التَّطْوِيفِ	وَهُوَ لَوْ كَانَ بَيْنَ حَجِّي وَنُسْكِي
مَنْزِلٌ فَهُوَ مَنْزِلٌ لِلضُّيُوفِ	أَنْتِ وَسَعَتْ بَيْتَ مَالِي فَوْسَعُ
مَنْزِلٌ فِي حُسْنِ خُلُقِكَ الْمَأْلُوفِ	وَأَجْرُنِي مِنَ الضَّنَى وَأَجْرُنِي مِنْ

وحين نقرأ الأبيات نحسُّ بنفس ابن الرومي ، ومحاولة لتأثر ابن حجاج<sup>(٢)</sup> ، وهو يأخذ بنهجه في بعض شعره الذي يتحامق فيه . كقوله :

أَنَا الَّذِي حَدَّثْتُكُمْ	عَنْهُ أَبُو الشَّمَقْمَقِ
وَقَالَ عَنِّي إِيْنِي	كُنْتُ نَدِيمَ الْمُتَّقِي
وَكُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ	مِنْ رُمَاةِ الْبُنْدُقِ
حَتَّى مَتَى أَبْقَى كَذَا	تَيْسًا طَوِيلَ الْعُنُقِ
بِلِحْيَةٍ مُسْبَلَةٍ	وَشَارِبٍ مُحَلَّقِ
يَا لَيْتَهَا قَدْ خُلِقْتُ	مِنْ وَجْهِ شَيْخٍ خَلَقِ

وقال في أخرى على الطريقة نفسها<sup>(٣)</sup> :

عَشْتُ خَمْسِينَ بَلْ تَزِيدُ رَقِيعًا كَمَا تَرَى

(١) الخريدة ٢ / ٢١١ ، وابن حجاج شاعر بغدادى من القرن الرابع كان يتحامق ومكث من السخف في شعره .

(٢) ابن حجاج شاعر بغدادى من القرن الرابع كان يتحامق ومكث من السخف في شعره .

(٣) الخريدة ٢ / ٢١٤ .

وكذا الملح سُكراً	أحسبُ المقل بندقاً
شئىء مـدوراً	وأظنُّ الطويل من كلِّ
ت ، وعقلى إلى ورا	قد كبر بر يزبر
أراه تغيـراً	عجبا كيف كل شئ
كل إلا مقشـرا	لا أرى البيض صارئو
ر ، زجاج تكسرا	وإذا دق بالحجا

وهذا نهج من الشعر درج عليه جماعة من الشعراء قديماً وفي عصر الشاعر ، أما قديماً ، فأبو الشمقمق وأبو دلامة ، وابن الرومى ، وابن سكرة وابن الحجاج ، وأما في عصر الشاعر أو قبله بقليل فالرقعمق ، والواسانى . وظل هذا النهج بعد ذلك ، فأخذ به بعض شعراء المصريين في القرون التالية ، مثل ابن دانيال والجزار ونقف مع الشاعر وقفه في أبيات له يصف رمدا طال بعينيه ، فقال :

وما لليلى ما شقه الفلق	ما لنهارى كأنه الغسق
تفرق في مائها وتخرق	وما لعيني أرى بها عجبا
وتستغيث الجفون والحقق	ولى طيب تشكو مروده
مر بعيني وكحلها الأرق	شيفاه تطرد الشفاء إذا
وقائدى العصى والحقق	وإن تماذى على زرتكم
جفون عيني كأنها الشفق	لم يبق من صبغة الرواء سوى
لا بد منها وتركها خرق	ولى من الداء ما حكايته
هذا ، وهذاك ليس ينطلق	طبعى ووجه البخيل فى قرن
قد نفذ العين فيك والورث	يا عين حتام أنت باكية

وللأدباء والنقاد المعاصرين واللاحقين آراء فى شعر ابن مكنسة بين مقدم ومقرظ ومنتقد أو مؤاخذ . وأولهم ممن أعجب بشعره صديقه الشاعر المغربى أمية ابن أبى الصلت ، وقد أورد مختارات كما قلنا من شعره ، واختاره ، ونوه به من بين شعراء عصره ممن يقيم بالقسطاط فى أخريات القرن الخامس كذلك نقل ابن الصيرفى على بن منجب بعضا من شعره فى الأفضليات مختاراً ، أو معجبا

ببعض معانيه ، أو سرعة بديته . فمما أعجب به قال<sup>(١)</sup> : وعلى ذكر العين  
والخذ فقد أبدع ابن مكنسة في قوله :

لم أرَ قبلَ شعره ووجهه      ليلاً على صُبحِ نهارٍ عَسَسَا  
والسكر في وجنته وطرفه      يفتحُ وردًا ويعُضُّ نرجسًا

على أن من تشبيهاته التي ابتكرها قوله من أبيات في الخمر :  
ما لآخ وجهك يُجتلي في مجلس      إلاً وجلّى عنه وجهها أربداً  
بكرٌ إذا إثرعتُ أخذتُ شعاعها      بيدي، وقلتُ لأهلها هذا الردى  
وقال في تجديده للمعاني<sup>(٢)</sup> :

« على أن ابن مكنسة ذكر الحجر الأسود غير مرصوف ، فلم يشكل المراد  
فيه ، وسبب ذلك ما قرنه به رخمه إليه ، فقال من قصيدة أولها :  
لمثل ذا اليوم كان السعد ينتظر

منها :

كأنك البيثُ قد طافَ الحجيجُ به      وفي ركائبك حلّ الركنُ والحجرُ  
وعن بديته قال ابن الصيرفي<sup>(٣)</sup> « وحدثني ابن مكنسة قال : حضرت  
جنازة أبي الطائي المقرئ فرأيت من إعظام الناس له — وهو محمولٌ على  
نعشه — ما لم يكن له منهم في حياته فقلت بديها :

أرى ولد الطائي أصبح يومة      يُعظّمهُ الأقبام أكثر من أمس  
وقد أكرموه في الممات تراهم      يظنّون أن الجسمَ أركب من النفس

ومما وصلنا من شعر ابن مكنسة يمكننا القول بأنه شعر متوسط الشعاعية ،  
يمزج فيه بين طريقة القدماء وطريقة المحدثين ، وتبدو في ألفاظه ومعانيه سمات  
مصرية ، كالليل إلى النكتة ، وروح الفكاهة ، والتورية في القول ، ورقة اللفظ  
وعذوبة البناء مع صياغات ومفردات عامية .

★ ★ ★

(١) الأفضليات ١٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٠ .

الفصل الخامس  
شعراء وافدون من المشرق  
( في القرن الخامس )

- ١- التهامي: أبو الحسن علي بن محمد بن فهد (ت ٤١٦ سنة هـ)
- ٢- أبو الفتيان ابن حيوس (ت ٤٧٣ هـ)
- ٣- داعي الدعاة (ت سنة ٥٤٧ هـ)



( التهامي ) أبو الحسن علي بن محمد بن فهد

( ت ٤١٦ هـ )

يقول الصفدي<sup>(١)</sup> : مولده ومنشؤه باليمن وهو منسوب إلى تهامة ، وتهامة هي الجزء الساحلي الجنوبي المحاذي لشاطئ البحر الأحمر من ناحية الحجاز ويفصل بين مرتفعات الحجاز والبحر ، وهو سهل زراعي في الجنوب منه ، ويقع شمالي اليمن ، وتصب إليه وديان سلسلة جبال السراة المتجهة إلى البحر غرباً . ومعظم سكانه من أصل يمني ، واختلطت بهم أصول غير يمنية من غرب الشمال ، وأشهر قبائله في العصر الجاهلي وصدر الإسلام بطون من أزد شنوءة .

وأهم مدن تهامة نجران وجيزان ، ولسنا على يقين من أصل التهامي ، أهو من إحدى القبائل اليمنية ، أم أنه ينتمي إلى قبيلة مضرية تسكن بعض أطراف تهامة .

مولده :

وقد نسب النبي ﷺ إلى تهامة أيضا مع أنه من مكة . على أية حال ، فإن هذه الإشارة إلى مولده ونشأته باليمن لم ترد إلا عند الصفدي ، والمراجع الأخرى تنسبه إلى الحجاز أو تهامة .

وطبيعي أن ينتقل إلى الحجاز ، ويعيش بعض الوقت في مدينتيه الكبيرتين مكة والمدينة حيث الأشراف العلويون من الحسينيين والحسنيين ، وكانوا يولون أمر الحجاز في أيام الدولة الفاطمية وقبلها ، وكانوا على جانب من الثروة والجاه .

واتصل التهامي في شبابه ببعض ممن كانت لهم الصدارة ، وإمارة الحجاز أو إمارة إحدى المدينتين .

وحياته في تهامة والحجاز تركت آثارها في شعره ، فهو يحن أبداً إلى الحجاز وأهله ، ويتذكر حبيبته الحجازية التي يرتحل إليه طيفها أينما كان في غربته . ويذكر تهامة في مديحه لأحد رجالات بني عامر في الجزيرة من أرض العراق أو الشام وهو أبو الفتح المظفر بن عبد الجبار فيقول :

(١) الرافق ج ٢٢ ص ١١٦ .

لا يُطْمِعَنَّكَ نور كوكب عامر      فوراَ قرب سنائه بعد سنائه  
حتى سيوف رجاله وهى القضا      أشوى جراحاً من عيون نسائه  
لله عزم من وراء تهامة      نادى فثرت ملياً لندائه

ولعلنا نزعم أن الشاعر قال هذه القصيدة في بواكير رحلاته من تهامة والحجاز إلى الشام ليتصل برجالات العصر من شيوخ ورؤساء القبائل العربية المستقرة في بادية الشام وبلاد الجزيرة الفراتية ، في ديار بكر وديار ربيعة ، ونعلم من أحداث تاريخ العصر أن بعض بطون قبائل مضر وعامر على وجه الخصوص كانت تتنافس فيما بينها ، وتتنافس غيرها من قبائل نجد كأسد وطى على الزعامة والنفوذ ، والفوز بقسط وافر من الأرض في خلافة العباسيين التي توزعتها الخلافات والنزعات منذ القرن الرابع ، والخلافات بين الديلم والأترك خاصة من أجل السيطرة على مقدرات الدولة الإسلامية .

وقد أذكى هذه الخلافات ذلك التنافس المرير بين الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة .

ومهما يكن من الأمر فإن الشاعر في هذه المدحة قد ذكر هذا المملوح العامرى وتقرب إليه بنجد ، لأنه موطن قبيلة المملوح ، ومنازلها الأولى قبل النزوح إلى أرض العراق والشام :

أهدى لنا في النوم نجداً ككَّه      يسوره وغصونه وظبائه

ويجد الفرصة سانحة وهو يمدح صامرا أن يلمح إلى ما أشتُهرت به من ملاحه نسائهم وأن عيونهن تجرح قلوب العشاق أكثر من سيوف رجالهم .

حتى سيوف رجاله وهى القضا      أشوى جراحاً من عيون نسائه  
وإن كان وقعها أشد وأنكى .

وربما كان الشاعر قد أقام بالبحرين رديحاً من الزمن قبل مجيئه إلى الشام واتصاله بآل المفرج بالرملة وبعض زعماء القبائل في البادية ، ونعلم العلاقة بين قرامطة البحرين وقبائل الشام ، وآل المفرج خاصة ، فقد تعاون الجميع على حرب المعز لدين الله الفاطمى بعد مجيئه إلى مصر ، وحاصروا القاهرة ، لولا أن المعز استطاع بمكره وذمبه أن يفرق الحلفاء ويوهن عزمهم فبنتصر عليهم .

خرج التهامي من بلاده تهامة إذا قاصداً الشام أو العراق ، ومنحدرًا إلى شاطئ الخليج يتجول هناك بين بعض الزعماء .

ويبدو أن الشاعر طوّف بأرض الجزيرة من العراق زمنًا ، ولم يظفر هناك بطائل فولى وجهه جهة المشرق لعله يلقي ما يرجي ، ويعلم آنذاك أن المشرق يحفل بمفاجآت ، بين الطامعين مختلفي الجنسيات من فرس وترك وعرب ، كل يحاول أن ينال من غنيمة الخلافة وأرضها بقدر ما يملك من قوة ومقدرة على التآمر والمناورة ، والتحالف مع القوى الغالبة .

ولعل الشاعر لم يظفر في هذه الرحلة المشرقية بما كان يرجوه ، فولى جهة مرة أخرى شطر الشام يسعى في أرجائه ، وينتقل بين ربوعه وأصقاعه .

وحياة الشاعر غامضة لا تكاد تظفر منها بقبس يضيء لنا الطريق للتعرف على وقائعها لولا ما يمكننا استشعاره والاهتداء إليه من ثنايا شعره .

وسنحاول عن طريق الديوان أن نترسم خطاه ، ونقف على بعض من لقيهم من الأمراء ، والملوك والرؤساء في الجزيرة بتهامة والحجاز وبادية الشام والشام وأرض الجزيرة بالعراق بديار ربيعة ، وديار بكر والموصل وميفارقين ونصيبين وأمد .

كما سنحاول تتبع خطاه بالشام وبلادها وثورها في دمشق وبيروت وطرابلس وصيدا وصور والرملة ، حتى ينتهي به المطاف إلى مصر والقاهرة فالسجن بخرانة البنود وموته بها مسموماً كما يُقال سنة ٤١٦ .

قال صاحب الدمية<sup>(١)</sup>: وحدثني محمد التجاني ، قال : حدثني أبو كامل تميم بن مفرج الطائي أن التهامي هذا كان في ابتداء أمره من السوق ثم انقطع إلى بني الجراح يمتدحهم ويستعين بهم .

ويشهد على أنه كان في أول أمره من السوق كما جاء في عبارة البخارزي قوله يمدح من اسمه الحميدى<sup>(٢)</sup> .

(١) دمية القصر ١/ ١١٠ .

(٢) ديوانه ص ٤٠٨ .



ما أنت فاعله الغداة بشاعر  
 قد طاف في طلب العلا وادى القرى  
 وإلى عمان وفارس ثم انتحى  
 وأقام في شيراز سبعة أشهر  
 رث الثياب مشعث القدمين  
 والأرض من عدن إلى السدّين  
 بالرى نحو جزيرة البحرين  
 وأثاب من كل بحفّ حنّين

ولعل هذه الأبيات ترسم خط الرحلة منه في بادية أمره قبل اتصاله بآل  
 المفرج إذا ما أخذنا في الاعتبار ترتيب الأماكن التي زارها في الأبيات وفق تعاقبها  
 الزمني .

ويبدو من هذه الأبيات أنه لم يذكر الشام ، ولعل ذلك يوحي بأن ممدوحه  
 الذي لقيه بعد مجيئه من المشرق واقامته في شيراز سبعة أشهر بلا جدوى ، كان  
 بأرض الشام قبل لقائه بآل المفرج .

ودعنا نفترض أن هذا الممدوح وهو الحميدى بن عباس هو أول ممدوح لقيه  
 بالشام ، وتتسم قصيدته فيه بروح بدوية غالبية ، وبخاصة في هذه المقدمة الطللية  
 التي يبدوها بقوله :

حَيِّتُما من دمتى طَلَلين  
 عَفَى عِراضَهُما على طولِ البلي  
 عَطَلين مُوحِشُن مُقْفِرين  
 نَوَّ الرشا وبوارح الفرعين  
 أذِيالُ غادِيَتين رايِحَتين  
 وَمَحاهُما من آلِ مَحَوَّةِ وَالصَّبَا

وصل التهامي إذا إلى الشام ولا ندري متى كان وصوله ولا مدى استقراره في  
 بلاده وكل ما نعلمه محققاً أو قريباً من التحقق أنه كان بالرملة عند آل الجراح في  
 سنوات فرار أبي القاسم الحسين بن علي الوزير المغربي إليها في حدود سنة  
 ٣٩٠ هـ وجاء في أخباره التي ذكرها الصفدي أنه تولى بها الخطابة وتزوج .

وينفرد الصفدي<sup>(١)</sup> بقوله إن مولده كان باليمن ، ولعل ذلك يفسر لنا ذكر  
 عدن في أبياته المتقدمة ، قال الصفدي : مولده ومنشؤه باليمن ، ثم قال : وطراً  
 على الشام وسافر منها إلى العراق والجيل ، ولقى الصاحب بن عبّاد وقرأ عليه ،  
 وانتحل مذهب الاعتزال ، وأقام ببغداد وروى بها شعره ثم عاد إلى الشام وتنقل في  
 بلادها وتقلد الخطابة بالرملة ، وتزوج بها .

(١) الواقي بالوفيات ج ٢٢ ص ١١٥ ترجمة رقم ٦٧ .

وفي خبر الصفدي خلاف مع كلام التهامي في أبياته واتفاق ، فأما الخلاف فإنه ذكر أن أول خروجه من بلاده كان إلى الشام ثم أتجه مشرقاً حتى شيراز ولعله لقي بها الصاحب ، وأما الاتفاق فإنه ذكر شيراز وبعض بلاد العراق وإن لم يُحدد بغداد التي نص عليها الصفدي ، وقال إنه روى بها شعره .

وقد يفيدنا خبر الصفدي عن وفود التهامي إلى شيراز ولقائه للصاحب وقراءته عليه وانتحال مذهب الاعتزال ، فرمما تأثر به ، وإن لم يرد في الديوان ما يشير إلى مديته للصاحب ولا ذكره تصريحاً أو تلميحاً .

وإذا صح خبر الصفدي عن لقاء الشاعر للصاحب فإنما يكون ذلك قبل سنة ٣٩٠ هـ ولنفترض : أنه كان بين سنتي ٣٨٠ ، ٣٨٥ هـ إذ توفي الصاحب سنة ٣٨٥ هـ ، ونفترض كذلك أن التهامي غادر شيراز بعد وفاة الصاحب ، فيكون قد تجول في بلاد العراق والشام نحواً من سنتين ، ربما قضاها كلها قبل مجيئه إلى الرملة أو لعله قضى أربعاً منها متجولاً ، وقضى عاماً أو بعض العام أو ما يزيد على ذلك في الرملة قبل مجيء أبي القاسم إليها سنة ٤٠٠ هـ .

وفي سنة ٤٠٠ هـ تحدث الفتنة التي شارك فيها الوزير المغربي وربما تورط التهامي الشاعر بحكم علاقته بآل مفرج بن الجراح وتعرفه في صُخَّبتهم إلى الوزير المغربي .

يقول النويري<sup>(١)</sup> في أحداث سنة ٤٠٠ هـ : « وفيها سَخَّطَ الحاكمُ علي وزيره ابن المغربي ، وقتله وقتل أخاه وابنه — يقصد علياً بن الحسين — ومحمد بن الحسين ، وهرب ابنه الآخر — يعني أبا القاسم الحسين بن علي — إلى الشام » .

وقال<sup>(٢)</sup> : « ثم حَسَنَ ابن المغربي لبني الجراح أن يخرجوا عن طاعة الحاكم ، فوافقوه على ذلك ، وقتلوا بارتكبين أحد الأمراء الحاكمة المقيم بالرملة ، ثم حَسَنَ لهم أن يقيموا أبا الفتوح الحسن بن جعفر الحسن بن جعفر الحسني خليفة ، وهو أمير الحرمين يومئذ ، وأن يحضروه من مكة فأجابوه إلى ذلك » .

(١) نهاية الأرب ٢٨ / ١٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٦ .

وندع مرحلة إقامة التهامي بالرملة مع آل المفرج إلى حين لنصحبه في رحلته ببلاد الشام وقد ترددت على دمشق وطرابلس ، وأور ما نلاحظه في تلك الرحلة ، ترده على جماعة من الأشراف العلويين سواء أكانوا حسنيين أو حسينيين .

وكان ممدوحه الشريف أبو عبد الله محمد بن الحسين العلوي قاضي دمشق وخطيبها ، ونقيب الأشراف بها في مقدمتهم

ونفق من بين هؤلاء جميعا وقفة مع أحد ممدوحيه واسمه هبة الله الحسن بن علي بن حيدرة ، وكان من رجال الحاكم بالشام .

قال النويري<sup>(١)</sup> : « فلما كان في شهر رجب سنة تسع وأربعمائة ( ٤٠٩ هـ ) ظهر رجل يقال له الخس بن حيدرة الفرغاني الأخرم يرى حلول الإله في الحاكم ويدعو له إلى ذلك ، ويتكلم في إبطال النبوة ، ويتأول جميع ما وردت به الشريعة ، فاستدعاه الحاكم ، وقد كثر تبعه ، وخلع عليه خلعا سنية ، وحمله على فرس يسرجه ولجامه ، وركبه في مركبه ، وذلك ثاني شهر رمضان منها ، فبينما هو يسير في بعض الأيام تقدم إليه رجل من الكرخ على جسر طريق المقسى فألقاه عن فرسه ، ووالى الضرب عليه حتى قتله » . ونقرأ قول التهامي في ذلك الرجل<sup>(٢)</sup> :

أذهبت روثق ماء الصبح في العذل      فأربع فلست بمعصوم من الزلل  
لكل سهم يعد الناس سابقه      برده عنك إلا أسهم المقل

حتى يقول :

قد أحكم الحاكم المعصوم دولته      بآل حيدرة في السهل والجبل

وكان آل حيدرة من طرابلس الشام وله بمدح آخر منهم كان قاضي طرابلس أيضا ، وتولى قضاء صور زمننا . يقول التهامي فيه<sup>(٣)</sup> :

أعدى ندى كفيه صور وأهلها      والبئر يقلب طبع كل ظلام  
ولو أن صوراً جنة ما استكثرت      وأبيك من غلمانة بعلام

(١) نهاية الأرب ص ٢٨ / ١٩٧

(٢) ديوانه ص ٣١٦

(٣) ديوانه ص ٣٧٣

ويشير إلى أهل بلدهم طرابلس فيقول :

أَلْفَيْتُ مِنْهُمْ فِي طَرَابُلُسٍ نَدَى      تَرَكَ الْكِرَامَ لَدَى غَيْرِ كِرَامٍ

وفي صور يمدح من يُدعى محمد بن سلامة الصوري ، والحسين بن عبد الواحد وفيه يقول ، ويذكر وقعة له مع بني كلاب بالشام (١) :

وَتَرَكْتُ أَعْيُنَهُمْ بِصُورٍ فِي الْوَعْيِ صُورًا ،      وَقَدْ جَاخَ الْوَرَى مَا جَاخَا

كما يذكر حلب في هذه المناسبة فيقول :

شَاءَ الْمُهَيْمِنُ أَنْ تَصَيَّرَ مَشْرِقًا      حَلْبًا فَيَقْضِي مَا جَرَى وَأَتَاخَا

ويذكر الروم فيقول :

أَتَى تَرُومُ الرُّومِ قَرِينِكَ بَعْدَمَا      صَلَيْتَ بِحَرْبِكَ مُحْرِبًا مَلْحَاخَا  
لَمْ يَزِمِ قَطُّ بَكَ الْإِمَامُ مُرَادَهُ      إِلَّا جَلَوْتُ عَلَى الْفَلَاجِ فَلَاخَا

والحسين بن عبد الواحد هذا لم يذكر صراحة في مصادر التاريخ ولعله كان من رجال الحاكّم كذلك . وعلاقته به كعلاقته بآل حيدرة ، تكشف عن ولاء للحاكّم ورجاله ، وقد ذكر الشاعر الحاكّم ولقبه الإمام ، وهذا يثير تساؤلات عن مدى ولاء التهامي للفاطميين ورجالهم ، وهل تقلبت هذه العلاقة بين الولاء والعداوة ، ومتى كان الولاء ، ومتى انتهى وبدأت العداوة ؟ . أكان الولاء قبل لقائه بالوزير المغربي ومؤامرة الرملة ضد الحاكّم سنة ٤٠٠ هـ ؟ أغلب الظن أنه كان كذلك ، ولم يكشف ديوانه عن هجوم مباشر أو هجاء للفاطميين أو أحد من رجالهم ، بل ربما كان عكس ذلك صحيحا فقد كان على ولاء وعلاقة صداقة وألفه مع أكثر رجالهم بالشام والجزيرة الفراتية . وتكرار الحديث عن هزيمة بني كلاب على أيدي بعض رجال الحاكّم وابنه الظاهر دلالة على هذا الولاء حتى قبيل دخوله مصر متسللاً ، أو مظاهرا .

وسأق الحديث عن ذلك في حينه . هكذا جاء التهامي آل المفرج وهو على ولاء للحاكّم والفاطميين بمصر ولم يدر بخلفه أن يتآمر ضدهم ، وأقام بالرملة ما أقام ، وتزوج وتولى الخطابة ، ولا يكون ذلك إلا بموافقة الحاكّم ثم آل المفرج لأنهم كانوا

(١) ديوانه ص ٧٨ .

يتولون الرملة بأمره قبل خروجهم عليه ، بتدبير من الوزير المغربي الحاقد الذى وجد في أطماع آل المفرج ، وطموح الشاعر مشجعا على الثورة والانتقام من الحاكم .  
ونعرضُ الآن لبعض شعره في آل المفرج ، نستشف منه موقفه منهم وموقفهم منه ، وموقفهم جميعا من الفاطميين .

ونزجح ذهاب التهامي إلى الرملة في أخريات عهد العزيز عثمان ، لأنه يعرض لحادث مناصرة آل المفرج للفاطميين ضد أفتكين أحد قادة الاتراك أعداء الفاطميين ، يقول :

نصرت ابن النبي كما نصرتم أباهُ لقد حدثت على مثال

يقصد أن بنى الجراح من طى وهم من عرب اليمن نصروا العزيز بالله الفاطمي كُنصرة الأنصار من عرب اليمن كذلك للنبي في الهجرة ويوم بدر .

وجدير بالذكر أن هذه المأثرة ظلت متوارثة في عرب اليمن القحطانية عبر العصور واستغلها الشيعة والعلوية ، فانتصروا بالقبائل اليمنية على بعض المضربة ممن ناصروا الأمرين والعباسيين .

ومدح ال مفرج كذلك بقوله في هذه المناسبة نفسها وهي قهر أفتكين ونصرة العزيز عثمان على عدوه التركي ، قائلا أنه بهذه النصرة علا نجم الدين ، يقول :

علا بك نجم الدين فاشتد ناصره ورقرق بالتوفيق واليمن طائره  
تسايرك العلياء والمجد مثلما يصاحب شخصا ظلّه ويسايره

ولكن هذا التاريخ متقدم ، وهو يطرح تساؤلا هل كانت هذه القصيدة في مرحلة سابقة على سفره إلى المشرق ، أم أنها قيلت في هذه المرحلة نفسها أعنى في حدود سنوات من ٣٩٨ إلى ٤٠١ هـ .

والقصيدة على أية حال لا تكشف عن إقتدار شعري ، وكونه قالها في المفرج بين دغفل رب هذه الأسرة الطائية تجعل احتمال قولها في مرحلة متقدمة من إقامته بالرملة أمرا وارداً ، لأن أشهر أبناء المفرج وأكثرهم مشاركة في أحداث العصر الحاكمى وهو حسان كان قد غلب على والده وإخوته في اتخاذ القرار والمبادرة ، وكانت له اليد الطولى في أحداث المؤامرة المشهورة وانقلاب أبنى الفتح أمير مكة ، ثم عودته مرة ثانية إلى طاعة الحاكم بأمر الله .

إلا أنه في قصيدة بائية في مدح المفرج بن دغفل يشير إلى طيء ومصر وإلى  
 نصره الطائنين للإمام وهو العزيز أو الحاكم ، ضد التغلبيين وهم آل حمدان ،  
 وكانت بين الخليفين وبينهم وقائع بالشام للسيطرة على دمشق وحلب زنا .  
 يقول التهامي :

به طالت على مُضَرِّ وَلَنْ تَقُومَ لها في الحَرْبِ تغلبها الغلبُ

حتى يقول مشيرا إلى إمام الدين خليفة مصر الفاطمي :

يَسْرِي بهم زحوا السرّة وقد طَعَسُوا      وسادوا، إمامُ الدين وهو لَهْمُ قَطْبُ  
 وصَبَّخَهُمْ في دارِهِمْ شرَّ صَبْحَةٍ      عَلَيْهِمْ وقد والاهُمُ الطَّعْنُ والضَّرْبُ  
 أبادَ حُمَاةَ القومِ واجتاحت أرضَهُمْ ولو      لاه لم يطرق لمَعْقِلَهُمْ حَطْبُ  
 وقد عَلِمَ المولى الإمامُ بأنّه      أخو عَزْمَةٍ تُحَدِّمُهَا السَّبْعَةُ الشُّهْبُ

ولعله يشير بالسبعة الشهب هنا إلى أبناء الذؤاد السبعة الذين سادوا في حياته  
 ومدح بعضهم الشاعر .

ويشير في هذه القصيدة نفسها إلى أنه جاء آل المفرج فقيرا فأغنوه ، الأمر  
 الذي يُرجَّح أنها من بَنَوَ كَبِيرِ قصائده بالشام .

ممدوحوه من رؤساء دمشق :

حيدرة بن يملول :

وهو من رجال الفاطميين ، ويبدو أنه ممن شارك في التصدي للكلايين من  
 بنى مرداس في عصر الحاكم ، وكانوا يثيرون القلاقل بنواحي الشام .

وفي مديحه لحيدرة هذا يقول مشيرا إلى الإمام — الخليفة الفاطمي :

أما الإمام فإنه لك شاكر      والله أرضى منه عنك وأشكر

ويقول :

بالنصح قدمك الإمام على البرى      ومن الفعال مقدم لا ينكر

أما توليه بدمشق فيشير إليه بقوله :

فدمشق قد ضاءت بحسن رياضها      إذ كان فيها منك سعد نير

والشريف أبو الحسن عباس بن غياث .

وفي دمشق يتصل أيضا بأحد الأشراف من الرؤساء ، ويبدو أن له مكانة كبيرة بين أهلها ، وكان له من نفوذه وعلمه ونجاهه ما يدفع الشاعر إلى قصده وإلى أن يقول فيه :

إقدام حيدرة وبأس محمد      فيه أن يعدوها أبواه  
نسبا ترى عنوانه في وجهه      فلو أن أميا يراه قراه  
اشبهت في العلياء جدك أحدا      إن المكارم في العلا أشباه

ويغلب أنه شريف علوى للتنويه بذكر الإمام على هنا ، اللافت للنظر أن معظم من قصدهم التهامي كان شريفا علويا من بنى الحسن أو الحسين ، أو من يدينون بالولاء للعلويين والفاطميين ، وهذا يدفعنا إلى السؤال عن مدى موقفه من الفاطميين خاصة ، وهل كان نصيرا لهم ؟

وإذا فلم اشترك في التآمر ضدهم ١٩ وعلى أية حال فالرجل لم يصرح بدم أو قدح ولم يلمح بشيء يسئ إلى دولة الفواطم في ديوانه .

وفي القصيدة ما يشير إلى نجاهه ، فقد لقبه بلقب ملك ، ولا ينعى بهذا إلا من ولي ولاية وأماره ، يقول :

ملك يقر بفضله ويبدله      ويعدله أحبابه . وعسده  
يجيل الأنام على الخلاف ولا أرى      رجلين يختلفان في عليه

ويشير إلى غربته عن وطنه تهامة ، وهجوم الشتاء — الشامي — ولم يعتده في بلده فيلوذ بالملوح لينقذه من بأسه ، كما اعتاد شعراء العرب اعتقاد الأجواد وقت الشتاء خاصة ، يقول :

ولقد علمت بأن موقى عنده      عز يفوق العيش عند سواه  
لكننا هجم الشتاء وعنده      ممن تكون تهامة مشواه  
يا أيها الملك الذي لم أغترب      عن أرض قومي خطوة لولاه  
أيجوز أن أشكوك ضيقة عيشة      والمال عندك راهن والجاه

ترى هل كان هذا حكاية صادقة لحال الشاعر ، أم أنه مجرد خطاب شعري لحض الممدوح على العطاء ١٩

فإذا كان الأمر ما قاله حقيقة ، فإننا نظن بأن الرجل كان أول من قصد بالشام ، أو لعله كان من أولهم ، قبل التحاقه بآل المفرج ونزوله في كنفهم ، يؤيد هذا الظن شكواه من الفقر الذي فارقه بعد مكثه بالشام وتولييه خطابة الرملة واستقراره وزواجه وحصوله على المال مما أعطاه آل المفرج وغيرهم .

مع بعض الأشراف والرؤساء في الشام ومصر :

ونجد بالديوان مدائح لجماعة من الأشراف والرؤساء بالشام ومصر لا نستطيع على وجه التحديد أن نُعيّن زمن لقائه لهم ، وربما بعث إليهم بمدائحهم ولم يلقيهم .

ومن لقيهم بالشام من الرؤساء وقدم مدائحهم فيهم جعفر بن علي بن الحسين المغربي ، واسمه ينم عن صلته بآل المغربي ، وربما كان ابن عم الوزير أبي القاسم ، ولا ندرى هل لقيه قبل محنة آل المغربي ومقتلهم بمصر وهل قتل معهم أم أنه لم يرحل إلى مصر مع أبيه الذي قال المؤرخون إنه قتل بين من فتك بهم الحاكم ؟ ونجد ابنه أبا الفرج بين من تولى الوزارة بمصر أيام الظاهر .

كذلك من بين ممدوحيه الفضل بن أبي الفضل جعفر بن الفرات ، وهو كما يبدو من اسمه ابن الوزير الخطير أبي الفضل بن الفرات والمشهور بابن حترابة الذي تولى الوزارة للاخشيد ، وكان من رجال كافور ، وعاصر المتنبى عند وفوده إلى مصر ، وكان من أعدائه .

وقد تولى ابن الفرات الأب الوزارة للقاطمين بعد ابن العداس زمن العزيز عثمان سنة ٣٨٢ هـ ، كما تولى ابنه من بعده أيام الحاكم في اخريات عهده سنة ٤٠٥ هـ وكان والده توفي قبل ذلك سنة ٣٩١ هـ .

ومما نلاحظه وكما يشير التهامي في قصيدته التي مدحه بها أنه التقى به في الرملة ، ولعل ذلك كان قبل اختفاء الحاكم وكان مبعوثا له إلى آل المفرج للصلح والعودة إلى الولاء بعد فتنة أبي الفتوح والوزير المغربي .

ونقف عند قوله في القصيدة<sup>(١)</sup> :

(١) ديوانه ص ٣٨٨ .



تتوكف الآمال صَوَّبَ غمامه  
حَبَّ أرى لَقِيَاكَ في أحلامه  
عقباه للمشتاق قرب حمامه  
صد الجفون عن الكرى ولمامه  
أيام قريك كن من أيامه  
يجرى إليها البر في أقسامه  
حسن التصبر عنك في أوهامه  
أهواه بعد جماعه وعرامه  
ما قربت كفاك بعد مرامه  
أولى الوزير القرب من إنعامه

للوزير ابن الفرات ولم تزل  
إن صدني عنك الزمان فإنني  
إن ينأ عنك فرب نأى حسنت  
أوعدت بالصبر الجميل فإنه  
فبأى وجه اشتكى الزمن الذي  
ووحق ودك وهو أبعد غاية  
ما حال قلبسى عن هواك ولا جرى  
إني وإن عاد الزمان إلى الذي  
لا أشكر المعروف إلا منك أو  
أو حيث لا يجب الثناء بغيرها

وفي الديوان قصيدة أخرى<sup>(١)</sup> غير معنونة بمن مدح بها من الرجال ، إلا أن مضمونها يرجح أنها في الفضل بن الفرات بعد توليه الوزارة ، وربما صرح باسمه في أحد أبياتها إذ يقول :

فضل لو أن الدهر قدم عصره لأبان نقص زياده وهشامه  
والقصيدة على وزن وقافية القصيدة الأولى ، إلا أنا تقول أن هذه القصيدة التي مطلعها :

ذكر الحمى فبكى لسجع حمامه وغدا غريما للنوى بفرامه  
سابقة على الأخرى ، ويبدو أنه هنا بها الفضل بعد توليه الوزارة ، ثم اتبعها الثانية ، يعرض حاله ، ويمد يده إليه يرجوه أن يناله منه عون من مال أو جاه وهو في منأى بعيد لعله كان بالرملة أو خارجها متجولا بين بلاد جزيرة الفرات .  
إلا أن فرحة التهامي بتولى صاحبه الفضل الوزارة لم تتم ، فسرعان ما خاب أمله ، فقد غضب الحاكم في ثورة من ثوراته على ابن الفرات وقتله سنة ٤٠٥ هـ .  
ومقتل ابن الفرات في هذه المرحلة من مراحل الخلاف المحتوم بين الحاكم واخوته يشير الشك .

(١) ديوانه ص ٣٩١ .

ومن ممدوحيه بالشام أو العراق الأمير أبو سنان غريب بن محمد بن تعن من أمراء العقيليين ولعله جد الأمير عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الحفاجي العقيلي الأمير الشاعر الأديب أبو محمد وقد كان من أمراء الحفاجيين أصحاب الحديث ، وكان أمير خفاجة في زمنه سنة ٤١١ سلطان بن الحسين بن ثمال (١) .

وقصيدته في غريب بن معن الحفاجي التي نرجح أن تكون سنة ٤١١ هـ وهي السنة التي قصد فيها قرواشا العقيلي مع الأمير نور الدولة ديبس بن مزيد الأسدي فقاتلوا قرواشا فانهمز ومن معه وأسر في المعركة ونهبت خزائنه واثقاله .

ويمكن قرواش من الخلاص من الأسر ، وعاد لمقاتلة غريب بن معين مستعينا هذه المرة بأحد أمراء خفاجة وهو سلطان بن الحسين بن ثمال ، وكانت وقعة غربي الفرات بين الفريقين انهزم فيها قرواش مرة ثانية ، وفي هذه المرة مد نواب السلطان البويهي أيديهم إلى أعمال قرواش في الموصل وما حولها ، فأرسل إلى بغداد يسأل الصفح عنه ويبدل الطاعة فرفع السلطان أيدي عماله عن قرواش وأعماله .

ويشير التهامي الذي زامن هذه الأحداث جميعا في مديحه لغريب بشجاعته وفروسيته فيقول (٢) :

فَلَيْقُ سلمت لأقضين لباتني	بذميل كل شَهِيْلَةً مدعان
أرمى الفجاج بها لألقى رحلها	في حيث تلقى أرحل الفتيان
عند الأمير غريب بن محمد	ملك الملوك وفارس الفرسان

ويعضي في مديحه التقليدي حتى يقول :

لله در يد الخطوب فإنها	صدء اللثام وصيقل الفتيان
جردن مثل أبي سنان صارما	في كل ناحية له حدان
كالليث إلا أن جارك آمن	والليث ليس بأمن الجيران

حتى يقول ، وربما ألمح بالأحداث التي أشرت إليها :

يارب جيش قد كفت بمثله      والخيال تعثر في النجيع القاني

(١) راجع الكامل لابن الأثير ص ٨ ، ١٣٣ .

(٢) ديوانه ص ٤٠١ .

## التهامى وقرواش

قصد الشاعر قرواش بالموصل ، ولعل ذلك كان بعد ذهابه إلى ميفارقين ،  
وبقائه زمنا عند نصر بن أحمد ، وكانت العلاقة بين الأمير الكردي ، والأمير العربي  
العقيلي العامري تجمع بين التنافس والتحالف ، وصارت بينهما مصاهرة .

ونعلم أن الوزير المغربي انتقل من ميفارقين إلى الموصل كذلك حيث وزر  
لقرواش سنوات عاد بعدها إلى ميفارقين لبقى بها حتى توفي سنة ٤١٨ هـ .  
جاء التهامى إذا إلى الموصل مادحا ، ومتطلعا ، وليحصل على المال والتأييد  
ليدفع ، فيما يبدو بطموحه الذى يحبسه فى حناياه إلى أمل التحقق لكنه ، فيما  
يبدو لم يجد من قرواش استجابة ، أو قبولا ولعله لم يترح له الشاعر ، أو أن الأمير  
لم يرع للشاعر حقا كان يريه .

فلم يلبث هناك طويلا ، ولا نجد فى ديوانه إلا قصيدة واحدة يمدحه ، عادية ،  
باردة الاحساس فى المديح ، لا تجد فيها شيئا جديدا ، بل لعله تكلفه فبدت  
الصفات مرصوصة رصا ، كأن يقول :

له يد محسن وحياء جان	وجود مبذر وعلا جموح
ورأى مجرب وقتال غر	وذمة حافظ وندى مضيع
إذا ذكر النوال اهتز شوقا	إليه كهزة السيف الصنيع
يحن إلى العطاء خنين قيس	إلى ليلي لعرفان الربوع

أرأيت إلى هذا التكلف والبرود !

ومع هذا فالمقدمة الغزلية ، قد اشفى فيها الشاعر شاعريته وهموم نفسه مع  
خيال حبيته ، فبدأ بقوله :

ألم خيالها بعد الهجوع      فعادت إذ رأت سيفى ضجيعى

نعجب لهذا المطلع الغريب ، والمعنى الغريب كذلك ، الذى لا نلقاه فى  
مطالعه الأخرى ، وهو يلقي الحبيبة فى المنام ، ترى أهنالك أمر ما غير من  
أحاسيسه ، أو أن شيئا ما أصبح يساوره ويختزنه فى عقله الباطن نمت عليه هذه  
الرؤيا الغريبة ؟!

ويعرض الشاعر لينتفح أحاسيسه في هذه الرؤيا ليقول بعد الاستهلال :

وهاجت نى بزورتهها زفيرا      يكاد يقيم معوج الضلوع  
فبات بين أعناق المطايا      تردد فى الحجى وفى الرجوع  
فقت مناديا فإذا سهيل      من الخفقان كالقلب المروع  
كأن نجوم ليلك حتى ألقى      مراسيه مسامير الدروع

وأقول هذه رؤية أو رؤيا كشفت محتزنا فى مكنون الضمير ولم تفصح عنه كل الألفصاح ، بل رمزت إليه ، وجدير بالقول أن شعر هذه المرحلة من حياة الشاعر كان حافلا بمثل هذا الرمز التى عدل إليه عن التصريح الذى صاحبه فى الرملة ومع آل الجراح .

كأن الشاعر كان يهيب نفسه لأمر ما ، ودور خطير يقوم به ويتم حبك خطوطه ، وكانت أيام الحاكم فى مصر قد ولت ، وشمسه قد أفلت ، ولعل رغبة الانتقام قد عاودت الوزير المغربى بعد موت الحاكم ، فأغرى صاحبه على أن يفعل شيئا ما ، أو لعل رغبة الشاعر فى أن يحصل على غنيمة كما يحصل غيره بالمغامرة ، هى التى دفعته إلى أن يبحث عن تلك الغنيمة ويعد لها عدتها بالمال الذى صرح أكثر من مرة بأنه يجمعه لأمر قرره فى نفسه .

وهكذا اختفى الحاكم بأمر الله من مسرح الحياة الصاخبة فى هذه المنطقة ، وتأهبت الأعداء للوثوب ، ليثروا ملكه ، وقد كان الأمراء يخشونه ، بعد أن تمكن من القضاء على المؤامرات التى حيكت ضده منذ قيام أبى ركوته بثورته العارمة فى يرقة وصعيد مصر سنة ٣٩٧ هـ وانتهائها بالقضاء عليه قضاء وحشيا بعد تعذيبه وإذلاله ليكون عبرة لكل من تحدته نفسه بالخروج .

كذلك انتهت مؤامرة آل المفرج أبى الفتوح بالفشل ، وأمسك الحاكم بزمام الأمر بعدها بإحكام وخشيته البلاد الشامية ، وأذعن له الأمراء ورؤساء العشائر وخطبوا له حتى فى بعض الإمارات التى كانت تحت حكم العباسيين فى العراق كإمارة الموصل وميافارقين .

عاودت الآمال إذا الأعداء والطامعين بعد اختفاء الحاكم وفى هذه المرة وعدت الشاعر نفسه بانتهاز الفرصة ، وهكذا عاد من ربوع العراق إلى الشام ليدبر أمرا مع من يعد للانقضاض ليشارك فيفوز بنصيب .

حتى يقول :

فرب صب تمنى أنه حجر  
إن الحجاز — سقاه الله غادية

وفي قصيدته الثانية الميمية يقول مفتتحا :

أخذت زمام الدمع خوف انسجامه فلما استقلوا حل عقد زمامه

وبلغت نظرنا في المقدمة الغزلية لهذه القصيدة أنه جعل محبوبته من هلال بنى  
عامر بن صعصعة النجديين ، ولما كنا نرجح أن الشاعر اعتاد على التغزل  
بمحبوبات من قبائل المدوحين في مهد العروبة بالجزيرة ، فإننا نظن بأن صاحب  
آمد هذا كان عامريا ، وكان لبنى عامر من الرجال جماعة في أرض الجزيرة ، وكان  
لبطولتها شأن في أحداثها ، ويكرر التهامي في هذه القصيدة حديث السعي  
للمجد بغيرا القلم والشعر ، يقول :

ومن فاته نيل العلا بعلومه  
صربير شبا الإقلام عند كلامها  
ورأيك في الريح المقوم إنما  
وجدرا جعلنا أمدا أمدا لها  
يلوك بهيم الخيل فيها لجمامة  
يذرن حجام الماء من كل منهل

وهذه الشنشنة عهدنا عند أوى الطيب وتذكرنا بشعره له كثير تتقلب فيه هذه  
المعاني نفسها بل والألفاظ والعبارات ، ومنها قوله :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لى  
أكتب بنا أبدا بعد الكتاب به

ويشير في هذه القصيدة إلى ما يحاك حوله من مؤامرات ومكائد ، يحوكها  
بعض أعدائه من منافسيه وأصحاب صهره الذى قتله واغتصب الامارة منه :

وكم غادر قد شب نار عداوة  
فصفحا فما زال الزمان كما ترى

له قد حاه كيده في ضرامه  
أكارمه جرمية بلقامه

وربما حدثته نفسه بأن يفعل كما فعل ابن دمنة وامثاله مما اغتصب الامارة تأمرا  
وغلبة في ذلك الزمان الذي تكررت فيه أحداث الغفلة والانقلاب والاستيلاء على  
الملك بالسيف، كعادة العرب في بداوتهم، الغلبة للقوى، كأن الإسلام لم يهذب  
من هذه الطبيعة المتأصلة، وهي خلق لازم للبدواة .

وما كانت نفس التهامي الشاعر البدوي لتحدثه بالملك كما حدثت نفس المتنبى  
صاحبها به لولا أن رأى ذلك شريعة عصره .

وكانت تجربته مع الوزير المغربي وآل المفرج والانقلاب الذي دبروه ضد الحاكم  
والذي كاد أن يكتب له النجاح، كانت هذه التجربة حافزا له على أن يكرر  
المحاولة، وقد اختمر هذا الخاطر في قلبه، وظل يراوده طوال بقائه متنقلا بين مدن  
الجزيرة الفراتية بالشام قبل عودته إلى الرملة ليعيد نفسه للقيام بدور له في مصر،  
وينتهز الفرصة المواتية للوثوب .

### التهامي والأمير نصر بن مروان صاحب ميفارقين :

اتجه التهامي شرقا إلى ميفارقين بأرض الاكراد شمالى شرق الجزيرة العراق  
وصاحبها آنذاك نصر بن مروان، وكان كُردياً، غلب على ميفارقين بعد فصل  
أميرها، من صاحب آمد، وكان رجلا عاقلا على علاقات طيبة بجيرانه من أمراء  
الجزيرة والموصل، وبيولثي، العباسيين والفاطميين وصاحب الموصل كذلك. يقول  
الفارقي<sup>(١)</sup>: وقصده التهامي الشاعر وامتدحه وامتدحه وزيره المغربي. وهذا الخبر يؤيد  
ما قلناه من أن رحلته هذه إلى البلاد الشرقية وجزيرة الفرات كانت مع الوزير  
المغربي أو في وقت ذهابه من الرحلة إلى تلك البلاد، وكان الأمير ناصر الدولة  
نصر بن مروان هذا قد ولي الامارة سنة ٤٠١ هـ يقول في مستهل مديحه :

عيسن من شعر بالرأس مبتسم      مانفر البيض مثل البيض في اللطم

ولا ينهج في القصيدة نهجه في غيرها من مدائحه لأمرء العرب، من ذكر نجد  
والحجاز واعتساف الأرض في الرحلة والتغزل بالفتاة البدوية من الحجاز أو من بني  
عامر في نجد . ولا يذكر الشيخ والعرار والخزاعي وما إلى ذلك مما يشتاقه عرب  
البادية وإنما يعرض للحديث عن موضوعات عامة في النسيب بذكر الطيف

(١) تاريخه ص ١٤٤ وراجع وفيات الأعيان ٧٨-٧٧/٢ والشذرات ٣/٢٩٠ .

ومحاسن المحبوبة انتى تزوره فى المنام حتى يتخلص من انضيف إلى شكوى الدهر  
قائلا :

وصل الخيصال ووصل الخود إن سمحت      سيان ما أشبه الوجدان بالعدم  
قل نصر دولة دين الله نى أمل      قولا وقد نلت أقصى عاية التهم  
لا تحمد الدهر فى بأساء يكشفها      فلو أردت دوام البؤس لم يدم

ويخاطب نصر الدولة مؤملا عنده الفضل والسؤدد والمجد :

يا طالب المجد فى الأفاق مجتهدا      والمجد أقرب من ساقى إلى قدم  
قل نصر دولة دين الله نى أمل      قولا وقد نلت أقصى غاية الهمم

ويشير إلى مناصرته لقره وراش على بعض عشيرته من عقيل العامريين :

قد عظم الله أملاكا ملكت بها      بنى عقيل وما يحوون من نعم  
لو لم يُجرها أبأ نصر لما وجدت      كفا يشاكل فى شكل ولا كرم  
زادت إلى عزها عزا به مضر      وربما صيلات العلياء بالحرم

يذكر الفارق أن التهامى التقى بالوزير المغربى ، فى بلاط نصر الدولة هذا  
ومدحه وفى الديوان قصيدتان فى مدح أى القاسم إحداهما قالها وقد استبطأه  
الوزير فى مديحه ، وربما كانت هذه بداية التثام الشمل بعد فراق الرحلة ، وقد  
أحس الوزير بأن الشاعر أغفله ومدح الأمير ، وكان ما بينهما من قديم آصرة  
يسمح له بهذا العتاب ، فما كان من الشاعر إلا أن نظم أبياتا قدمها معتذرا بين  
يدى قصيدة مدح انشدها بعد ذلك ، يقول الشاعر معتذرا :

أتانى عن تاج الزمان تعبت      يضيّق وسع الأرض فضلا عن الصدر  
ولم أمتدحه آخرا لجهالة      وهل للذى لا يعرف الشمس من عذر  
ولكننى لما رأيت صفاته      ختمن العلاطرا ختمت به شهرى  
وقد أحر الله النبى لفضله      وقدمه فى رتبة الفضل والأجر

وفى ديوانه قصيدة حائية فى مدح الوزير أى القاسم ، لا نجد ما يؤكد أو ينقض  
إنشادها إياه فى ميافارقين ، وإنما نحسد حدسا ، ونظن — وقد لا يصدق الظن  
أنه قالها آنذاك لبعض المعانى التى وردت فيها ، ربما كانت من وحى الظروف التى  
مر بها الوزير فى محنته مع الحاكم ، وفراره ولجؤته إلى آل المفرج بالرملة ثم ما حدث

هناك من فشل التآمر ضد الحاكم واضطرار الوزير إلى الخروج إلى الجزيرة واللجوء إلى ميفارقين والموصل وبغداد والتنقل بينهما :

يقول بعد المقدمة :

وللمعالي رب في العلا  
وليس بعد الحرب من غاية  
ولا يالي عند فل العدى  
حامى عن الملك فأضحى حمى  
فصار عرينا لليث الثرى  
الرأى ثم الكيد ثم الكفاح  
من حظوظ مثل ضرب القداح  
أهيبة فلتهم أم جراح  
من بعد أن شارف أن يستباح  
وكان مرعى للسوام المراح

وتتوقف عند قوله : « حامى عن الملك ... الخ »

حتى يقول :

تُفسر الأمر ألا إنما  
رأسان في تاجٍ خلاف الصلّاح

وتقول هل يقصد بذلك الإشارة إلى محاولة ابن المغربى أن يقيم خلافة أخرى في ولة الفاطميين بمبايعة أبى الفتوح شريف مكة إلى جانب الحاكم خليفة مصر يؤيد هذا الظن ما قاله فى البيت التالى :

ثم انتنى إذ كفروا سعيه  
ذو سحب تنبت أعداءه .  
لكل مطواع ذلول جماح  
وحاسديه فى جميع النواح

\*\*\*



المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر (٤١١-٤١٦) :

سمع الشاعر باختفاء الحاكم بأمر الله وتولى ابنه الصبى الظاهر على بوصاية عمته ست الملك الفاطمية ، فحدثت كل طامع نفسه بأن يرث من خلافة الفاطميين ما يستطيع قهرا أو تدبيرا وتآمرا ، ولم يكن بلاط الفاطميين ولا القصر خالصا في الولاء للظاهر على ، بل كان ولاء رجال القصر موزعا شيعا ، بين ست الملك الحاكم الحقيقي للخلافة وبين الصبى ومن والاه من رجالات القصر .

وكانت الدسائس بين الفريقين ، ما تفتأ تثور ليتولى رجال ويسقط آخرون ، ويتعدد الوزراء والقادة والأمراء ، ويتدخل خدم القصر ونسائه فيمن يتولى ومن يعزل .

في هذا الجو المضطرب انتهر أمراء العشائر العربية بالشام الفرصة للانتقضاض على الخلافة الفاطمية في القاهرة ووراثة سلطانتها ، وكان أقوى تلك الأحلاف الحلف البنى بين الطائين بزعامة آل الجراح أصحاب الرمله ، يقدمهم هذه المرة حسان بن المفرج ، فقد توفي أبوه المفرج سنة ٤٠٤ هـ ، وبعضه بتوكلاب البنيون يتزعمهم المرادسيون ويقدمهم صالح بن مرداس ، وكانوا يسيطرون على جزء كبير من شمالي الشام ، وكانت صراعاتهم مع الحمدانيين للسيطرة على الشام أيام سيف الدولة وخلفائه قائمة لا تهدأ .

في هذا الجو بدأ التهامي يتحفز للقيام بدور ، والفوز بمغنم واختار لنفسه مصر للقيام بدور فيها ، ويبدو أنه رجع إلى حسان بن المفرج وعاهده على أن يعمل عملا ما بمصر ، وكان أن اختار قبائل بنى قرة في الغرب والصعيد ، بإقليم البحيرة وبرقة والفيوم وكانت بينهم وبين الحاكم محن وصراعات ، لا تزال جراحها دامية .

وكا اختار المنتهى من قبل الكلايين ليثور بهم ضد الاخشيد في مصر والعباسيين في بغداد في أوائل القرن الرابع ، كذلك فعل التهامي حين اختار بنى قرة ، ويعيد التاريخ نفسه في أوائل القرن الخامس ، يقول الباخريزي<sup>(١)</sup> : « رحل إلى مصر بكتب من حسان بن المفرج الطائى إلى بنى قرة فاعتقل في مصر وحبس ثم قتل سرا في سجنه » .

(١) دمية القصر ١/١١٠ .

ويقول ابن خلكان (١) : « وكان التهامي المذكور قد وصل إلى الديار المصرية متخفيا ومعه كتب كثيرة من حسان بن الفرغ بن دغفل البدوي ، وهو متوجه إلى بنى قرة فظفروا به ، فقال : أنا من بنى تميم ، فلما انكشف حاله ، عرف أنه التهامي الشاعر ، فاعتقل في خزانة البنود وذلك لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٦ هـ ، ثم قتل سرا في سجنه في تاسع جمادى الأولى من السنة المذكورة » .

ويقول التوسري (٢) : « ووصل الخبر من جهة بنى قرة في البحيرة أنهم أقاموا عليهم إنسانا ببرقة ولقبوه أمير المؤمنين » . هكذا جاء الخبر وكان ذلك عام ٤١٥ هـ ويتفق هذا مع ملابسات مجيء التهامي إلى مصر ، فهل وفد سنة ٤١٥ هـ قبل القبض عليه بعام أو جاء قبل ذلك وأعد العدة سرا للدعوة لنفسه ويكون بذلك قد اتخذ من حسان سلما لبلوغ غايته .

ويقول الصفدي : « وكانت نفسه تحدّثه بمعالى الأمور ، وكان يكتم نسبه ، فيقول تارة أنه من الطالبين ، وتارة من بنى أمية ، ولا يتظاهر بشيء من الأمرين ، وكان متورعا صلف النفس » ، ويقول : « وكان قد وصل إلى الديار المصرية مستخفيا ، ومعه كتب كثيرة من حسان بن مفرج بن دغفل البدوي ، وهو متوجه إلى بنى قرة فظفروا به ، فقال : أنا من تميم . ويزيد الصفدي في خبر التهامي معلومات ربما كشفت لنا عن بعض أمره ، وعن سر رحلته المثيرة إلى مصر متخفيا ، فأما المعلومة الأولى فهي قوله : أن نفسه كانت تحدّثه بمعالى الأمور ، وهذا ما كشفنا عنه في شعره ، وقت إقامته مع آل المفرج ، وفي أثناء تجواله بالجزيرة والموصل وديار بكر وديار ربيعة حتى عاد إلى آل المفرج في سنوات ما بعد اختفاء الحاكم سنة ٤١٤ أو سنة ٤١٥ هـ .

وأما المعلومة الثانية فهي أنه كان يتكتم نفسه ولا ندرى أتبع في ذلك قرينة المتنبي الذى أخفى نسبه كذلك ليوهم الناس بأنه علوى وربما الإمام المنتظر أو شيئا من هذا القبيل .

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٣٨١ طبع دار الثقافة بيروت بتحقيق د. إحسان عباس .

(٢) نهاية الأرب ٢٨/ ٢٠٥ طبع الهيئة العامة للكتاب بمصر .

فتارة كما يسنّ الصفدى يدعى أنه من الطالبيين حتى يرى أن هذا النسب يشفع له ويقربه من الاشراف والعلويين ، خاصة وأنا عنمنا من مدائح أنه اتصل بكثير منهم ، ومنهم من غالى في غلوته كآل حيدرة ، ومنهم من اعتدل .

وتارة يدعى أنه من بنى أمية ، ولعل هذا الادعاء الأخير كان في مصر حين حل بنى قره ، ونعلم أن بنى قره كانوا أنصار أبى ركة الذى ادعى الأموية ، ودعا إلى خلافة سنية وحارب الخلافة الشيعية الفاطمية إلا أن امره انتهى إلى الفشل والهزيمة والقتل .

أترى ادعى بين بنى قره ما ادعاه أبو ركة ليحظى بتأييدهم ؟ ثم ما علاقة هؤلاء بنى الجراح ، وهل كانت هؤلاء الطالبيين ميول أموية ؟! ثم نتساءل ، لم ادعى نسبا تميميا عند القبض عليه ؟ أليبعد عن نفسه شبهة الدعوة للأموية ؟

وهل كان يدعو لنفسه بإمارة المؤمنين حقا وهي دعوة سنية تقابلها دعوة الإمامة ، عند الشيعة ، أكان يريد لها خلافة سنية يكون هو أمير المؤمنين فيها ، وأن يعيد إلى الدولة العربية مجدها الأموى القديم بعد أن تهاوت الدولة العباسية ومزقتها الخلافات والصراعات وتغلبت الديلم والأتراك ، أتراه ندب نفسه ليعيد إلى الدولة العربية مجدها القديم ، ويعيد للعرب ، والعروبة هيبتها ؟ ربما طاف هذا كله في مخيلته ، وتأتى الرياح بما لا تشتهي السفن .

والآن دعنا نقرأ شعره في هذه المرحلة لنستشف منه ما يمكن أن يجلى لنا حقيقة أمره .

يقول في قصيدة له بعث بها من سجنه إلى صديق له (١) :

لنفسك لم لاعترقد نفذ العذر	بنا حكّم المقلور إذ قضى الأمر
لقد لفظتني كل أرض وبلدة	وما لفظتني عن مواطنها مصر
لعمري لقد طوفت في طلب العلا	وحالفني بر وحالفني بحر
فشرقت حتى لم أجد لي مشرقا	وغربت حتى قيل هذا هو الخضر
أروم جسفات الأمور وإنما	قصاراي أن أبقى إذا بقى الدهر
ولو كنت أرضى بالكثير وجدته	ولكن في نفسى أمورا لها أمر
ظلت بمصر في السجون مخلدا	وإني لسيف جفنه فوقه ستر

(١) نهاية الحرب ٢٨ / ٢٠٥ طبع الهيئة المصرية للكتاب بمصر ، وراجع ديوانه ص ٤٢٦ .

من تراه هذا الصديق ؟ أظنه ليس من الفاطميين ، بل لعله من أصحابه ، وقد يكون فيمن أيد دعوته .

ويقول في القصيدة نفسها شارحا بعض ما يظن أنه أدى به إلى السجن :

جنيت على نفسى بسعى إليهم وحظى من أوفى مواليهم غدر

من هم هؤلاء الذين سَمَى إليهم وغدروا به ؟ أهم بنو قرة الذين أسلموه للفاطميين ولم يدفعوا عنه خشية أن يلقوا ما لقوا من فعل على يد الحاكم ، وبخاصة أن الظاهر استبعاد قبضته على الأمور ، وبدأ يعد العدة بالاستعانة ببعض كبار دولته وقادته المظفرين من الأتراك كالكائد أمير الجيوش بوشتكين الذى أعده لاستعادة هبة الدولة .

ويتناول التهامي أن ينفى عن نفسه القيام بعمل ضد الدولة ، معتذرا بأن ما أخذ عليه لم يكن سوى القول وبما جاء على لسانه فى الشعر وفرق بين القول والفعل كما قال المتنبي من قبل ، ويقول التهامي :

ومالى من ذنب سوى الشعر إنسى      لأعلم أن الذنب فى نكبتى الشعر  
لعل اللبالي منصفات أخوا النوى      بأحشائه من فرط حسرتة جمر  
أسير لدى قوم بغير جناية      ألا فى سبيل الله ما صنع الدهر

أتراه إذا صدقنا قوله ولم يفعل ؟ أم نصدق قول التاريخ بأنه هم وفعل لكنه لم يوفق ونحاب سعيه فكان ندمه وحرقتة ، لقد كان شعره دليل الاتهام ضده فهو ثابت عليه ، إذا لم يجد محاكموه دليلا على ادعائه الخروج والثورة .

ويقول من قصيدة أخرى فى سجنه (١) :

وضاعف وجدى لما سجننت      مقالة من غاب من طرفه  
يقول ، وبعض مقال السفيه      يقتل إن هو لم يخفه  
أهذا التهامي من مكة      برجيله يسعى إلى حتفه  
ألم يكفه أن ثوب الحياة      ضاق عليه ، ألم يكفه  
أراد يطير مطار الملوك      وظن الاسنة من زفه

(١) قصيدته ص ٤٣٠ من الديوان المطبوع .

وكان كذائد جيش الضلال  
 أصيفر يعرف من نخره  
 وأحسب سيف ابن بنت النبي  
 أرى ملك الموت يدنو إليه  
 أبا لشعر ويحك تبغى الفلا  
 ولم تك أهلا لأن تستقر  
 أرت دما بعدما صنته  
 وأشفيت منتظرا للبور  
 لعمرك إن لبيب الرجال  
 إلى الله أشكو أمورا جرت  
 وكم قائل سجنوه على  
 أيطلب الملك من ليس منه  
 ومن كان ذا حنكة بالعلوم  
 إذا نشف العود من أصله  
 عاين جبريل في صفه  
 إذا رعف المرء من أنفه  
 يخضب بخديه من عرفه  
 وهو يعرض على كفه  
 ح وأنت تقصر عن وصفه  
 على خسة الشعر مع ضعفه  
 واشعلت جمرا ولم تُطْفِئِه  
 وصدرك حران لم تشفه  
 من كف أو غض من طرفه  
 على غير قصد واستعفه  
 تطلبه الملك من كهفه  
 ولا من بنيه ولا صنفه  
 قارية البؤس من صرفه  
 فذلك أدعى إلى قصفه

هذه القصيدة كافية شافية في أمر التهامي واسباب سجنه ، فهو يعترف  
 اعترافا واضحا وصريحا ، لا مواربة فيه ، كاعتراف المحكوم عليه بالموت وهو يحس  
 بالسيف يقترب من عنقه ليقضى على حياة هذه النفس الأمانة التي زينت له طريق  
 الضلال على حد قوله ، ومنتته بآمال عراض ، وحدثته حديث الملك دون أن  
 يكون من جنسه ولا ابنائه ولا كان مؤهلا له ، وندم لأنه صدق أوهامه بأن الشعر  
 كفييل بأن يصنع منه إماما ، أو ملكا ، وما هو الا سراب زينه الوهم فظنه ماء ،  
 فإذا ما جاءه لم يجده شيئا ووجد الموت عنده .

ومن قصائده في السجن هذه القصيدة اللامية التي حاكى بها قصيدة مشابهة  
 للمتنبي يقول (١) :

هبوا أن سجنى مانع لوصاله      فما الخطب أيضا في امتناع خياله

وقدم هذه القصيدة لمن يدعى احمد بن سعد بن سيرين ، فيذكره بقوله :

(١) ديوانه ٣١١ .

كذاك ابن سيرين بنفتة يوسف  
وأنتم أناس فضلهم غامر الوري  
أبصرتموني شافعا بسواكم  
وإذ صار سعد وابنه معقلا له  
تكلم في الرؤيا بمثل مقالة  
فما بال مثل دأثرا في الخمالة  
وانتم بعيد وهو في ضيق جاله  
فما العذر من إطلاق من عقاله

ولم تسعفه شفاعه ابن سيرين ، فلم يستطع أن يمد إليه يدا لإخراجه من السجن فمضى حسيرا كسيفا يجتر آلامه ، ويعصره الندم ، حتى لقي ربه ألما وكمدا أو غيلة وغدرا .

### شعر التهامي

يبدو على شعر التهامي بصفة عامة طابع التقليد وهو بدوي النهج والصيغة وموضوعاته غالبا المديح ، وقليل منه في الغزل ، والوصف ، والعتاب ، والثناء ، ومدىحه يبدوه في معظم القصائد بالنسيب والغزل والرحلة ووصف بعض مشاهد الطبيعة بالحجاز ونجد أو بالشام .

وقصائده في المديح لا تطول كثيرا ، فهي متوسطة تتراوح بين ثمانية أبيات وخمسين بيتا .

وله مقطعات قليلة قالها في مناسبات يتبادل فيها النظم مع بعض رفاقه أو ممدوحيه ممن قصدهم من الأمراء والوزراء والرؤساء والقضاة .

وقد يبدأ قصيدة المديح مباشرة دون التمهيد بالنسيب والرحلة ، كذلك التي قالها في أبي العلاء المطهر بن عطاء كاتب ابن حميد . قال مباشرة (١) :

لأبي العلاء فواضل مشهورة حلت محل الفرقدين علاء

ومعاني المديح عنده محدودة تكاد تكون محصورة في صفات الكرم ، والجود والشجاعة والإقدام والهمة ، وهذا طبيعي ، لأنه شاعر متكسب يسأل بشعره ، أو هو شاعر محترف يستخدم الشعر كغيره من الشعراء المحترفين وسيلة لكسب العيش . ومن هنا كانت مبالغته في صفات كرم ممدوحه ، وكان اسرافه في إضفاء الثناء حتى إنه ليخرج كثيرا عن حدود المعقول والمقبول إلى مستوى من الملق والتزلف المجوج المسترذل .

(١) ديوانه المطبوع ص ٢٥ .

على أن الظواهر الواضحة في شعر التهامي مزج صفات البلاغة ، والخطابة  
بالسياسة والشجاعة والكرم وبعد الهمة ، وذلك لأن كثيرا من ممدوحيه كانوا إما  
من الوزراء الكتاب أصحاب القلم ، أو من القضاة والعلماء ، كما كان بعضهم  
يجمع بين الرئاسة أو الإمارة والشعر كالأمير قرواش بن المقلد العقيلي صاحب  
الموصل .

كأن يقول في أحدهم (١) :

لولاه لم يقضي في أعدائه قلم      ومخلب الليث لولا الليث كالظفر  
فيه المنى والمنايا كالشجاع به ال      درياق ، والسهم جم النفع والضرر

وأما معاني المديح التقليدية وأولها الكرم فقد أدارها التهامي في شعره مكرره  
أحيانا بلفظها ، وأحيانا بقولها التعبيرية المعتادة عند غيره ، وقد يلجأ إلى التغيير  
والإغراب في عرضه كأن يشبه الطعنات وأثرها في الأعداء بالأعكان المحيطة  
بالسرر .

ما ضر إلا وضلت بيض أنصله      في الام أو سمر الأرماح في الثغر  
وغادرت في العدى طعنا يحف به      ضرب ، كما حفت الأعكان بالسرر

وهو إغراب عجيب ، وتشبيه لا يتوقع في هذا المعنى ، وهو تشبيه جنسى في  
موضع الحرب ولكن متعة الجنس تقترب أو تقترب في الوقع عند بعض البلو  
والحارين بمتعة الجنس .

ويبدو لعين الناقد أنه وضع اللفظ في غير موضعه كوضع السيف في غير  
موضعه في ( الندى ) كقول الشاعر :

ووضع الندى في موضع السيف في الوغى      مضر كوضع السيف في موضع الندى

وأشار هو نفسه إلى هذا العمد إلى الأغراب حيث قال (٢) :

يارب معنى بعيد الشأو أسلكه      في سلك لفظ قريب الفهم مختصر  
لفظا يكون لعقد القول واسطة      ما بين منزلة الإسهاب والخصر

(١) ديوانه ص ١٨٧ .

(٢) ديوانه ص ١٨٧ .

وفي معانيه الجديدة قوله مادحاً ، وأكثر من ترديده :

وما تنجح الأقلام إلا بكفه      ومخلب غير الليث في كفه ظفر  
يعيده مرة أخرى فيقول :

لولا لم يقض في أعدائه قلم      ومخلب الليث لولا الليث كالظفر  
ومن تلك المعاني ما يدور حول السيادة ، والخطابة والإمامة وسداد الرأي وما  
إلى ذلك ، كأن يقول :

يغضى لهيبته الزمان إذا انتضى      غضب المناير باتر الحدين  
متقلد من رأيه وحسامه      سيفين قد نيطا إلى كتفين  
وفي الكبرياء — جر الرداء كقوله :

لا زلت في رتب المعالي ساحبا      ذيل المكارم مسبل الكمين  
ويذكر القتال من عمل الرماح معنى جدد في صورته ، فالقدامى قالوا إن  
الممدوح يسلك في ريمه الرؤوس وغير ذلك ولكنه يعدل فيه فيقول :

كأن سنان الرمح سلك لناظم      غداة الرغى ، والدارعون جواهر  
ترد أنابيب الرماح سواعد      ومن زرد الماذى فيها أساور  
ومن معانيه الجديدة في المديح التي ذكرها الصندي قوله في مديح ابن المفرج :

تلبية من آل المفرج إن دعا      أسود لها بيض السيوف أظافر  
تراه لقرع البيض في البيض مصغيا :      كأن صليل الباترات مزاهر  
وحفت به الآمال من كل جانب      كما حف أرجاء العيون الحاجر

ويتعقب كثيرا من الشعراء السابقين ، وعلى رأسهم أبو الطيب المتنبي ، فقد  
أكثر الاعتماد عليه ، وربما كان ذلك لتقارب طبع الشعارين ، واتفاقهما في بعض  
هجوم الحياة .

يقول :

أكلف أقلامي تبغنى المتنى      وقد عجزت عنه الردينية السمر  
وإن لم تنل بالبيض تخضبها الدما      فأهون بأقلام يخضبها الخبر



وهو من قول المتنبي :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لى  
المجد نسييف ليس المجد للقلم  
وإن كان أصله عند أبي تمام في قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب  
في حده الحد بين الجد واللعب  
ويقول التهامي :

فلا يغرر الأعداء منه ابتسامه  
فإن قُصوب السيف عند ابتسامه  
وهو من قول أبي الطيب :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة  
فلا تظنن أن الليث مبتسم  
وينظر إلى معاني أبي تمام في مثل قوله :

قري الين جفنيها على الحدفالتقى  
بأدمعها والمبسم الدر والدر  
وفي قوله :

ذريني أهب للمجد شرخ شبيبي  
فإن لم أبادرها استبد بها العمر  
فقد ألم يقول الطائي :

عَدْتُ تستجير الدمع خوف نوى غد  
وأجرى لها الإشفاق دمعا موردا  
وعاد قتادا عندها كل مرقد  
من الدم يجرى فوق خد مورد  
ويقول أبي نواس :

ذريني أكثر حاسديك برحلة  
وفي غزله يبتكر كذلك بعض المعاني ، ويلتقى مع سابقيه في كثير منها ، وتراه  
يتبدى أحيانا ، فيقول (١) :

ريانة الخللخال ظامئة الحشا  
هر كولة خرعوبة الساقين  
ويسلك طريقة المحدثين وأهل الحضرة فيقول :

(١) ديوانه ص ٤٠٦ .

قلت لخلي وزهور الربا      مبتسمات ، وثغور الملاح  
أيهما أحلى ترى منظرا      فقال : لا أعلم كل أقاح

ويعيد صياغة هذا المعنى في معرض آخر ليقول :

وضاحكن نور الأقحوان فقال لي      خليلي أي الأقحوانين أعجب ؟  
فقلت له لا فرق عندي وإنما      ثغور الغواني في المداقة أعذب

ويعيد معاني القدامى في لفظ جديد ، كأن يقول في المعنى القديم لعمل عيون  
المرأة في العاشق :

قالوا: قتلت بصرام من طرفه      فيما زعمت ، وما نراه بقان  
فأجبت: خير البيض ما سفك الدما      فمضى ولم يتخضب الغربان  
وغربا السيف جانباه .

ويتأثر بالمتنبي في هذه المعاني الغزلية كما تعقبه في معاني المديح فيقوله في دموع  
الفراق على خدى المرأة :

لم أنسها تشكو الفراق بأدمع      ما اعتدن بالخذ الأسيل مسيلا  
وهو من قول المتنبي :  
بكت غير أنسة باليكا      ترى الدمع في مقلتها غربيا  
ويقول (١) :

كيف السبيل إلى لقائك في الدجى      والليل حيث حللت منه مقمر  
من قول أبي الطيب :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء      إذ حيث أنت من الظلام ضياء

ويكرر هذا المعنى التهامي في قوله بصياغة مغايرة وإن كانت تلم بعناصر من  
صياغة المتنبي في قوله (٢) :

الليل حيث حللن فيه نهار      فلذا ليالي وصلهن قصار

(١) ديوانه ص ٢٢٨ .

(٢) ديوانه ص ٢٠٨ .

ويركز التهامي في غزله على الطيف ، ويأتي فيه بكثير من المعاني الجيدة ، وقد اختار الصفدي من معانيه في الطيف قوله :

خليلى هل من رقدة أستعيرها      لعلى بأحلام الكرى أستزيرها  
ولو علمت بالطيف عاقنه دوننا      لقد أفرطت بخلا بما لا يضيرها<sup>(١)</sup>  
ومن شعره في الطيف قوله :

زارني في دمشق من أرض نجد      لك طيف أسرى فَفَكَكَّ أسرى  
فاجتنينا يدور نجد بأرض الشام      بعد الملتو بدرا فبدرا  
وأراد الخيال - لثجى فصيرت      لِلثجى دون المرافف ستر  
فاصرف الكأس من رضا بك عنى      حاش لله أن أرشف خمرا  
ولو أن الرضاب غير مدام      لم تكوني في حالة الصحو سكري  
قد كفانا الخيال منك ولو زرت      لأصبحت مثل طيفك ذكرى

وفي غزله غزل رقيق ، وفيه شكوى انصراف الملاح عند طلوع الشيب من مثل قوله :

صددت إذ عاد روض الرأس ذاهر      الشيب عندك ذنب غير مغتفر  
لا در در بياض الشيب إن له      في أعين الغيد مثل الوقر بالإبر  
سواد رأسك عند الهائمين به      مُعَادِلٌ لسواد القلب والبصر  
قد كان مغفر رأسي لا قدير له      فصيرته قتيلا صبغة الكبر

وللتهامي في شكوى الزمان والكبر أبيات كثيرة جيدة ، وعلى أن وجيعته التي خلدها شعره فقد له لابنه ، وقد أعجب بها العلماء وردوها في كتبهم ، وذكرها الصفدي من بين ما ذكر من عيون شعره كاملة وهي رائيته التي يقول عنها : وله القصيدة الرائية المشهورة التي رثى بها ابنه ، وقد سارت مسير الشمس وهي الكامل<sup>(٢)</sup> :

حكم المنية في البرية جار      ما هذه الدنيا بدار قرار  
بيننا يرى الانسان فيها مخبرا      حتى يرى خيرا من الاخبار

(١) الواقي بالرفيات ٢٢ / ١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٢١ .

طبعت على كدر وأنت تريدها      صَفَوًا من الأقداء والأكدار  
 ومكلف الأيام ضد طباعها      متطلب في الماء جذوة نار  
 وإذا رجوت المستحيل فإنما      تبني الرجاء على شَفِيرِ هَارٍ  
 العيش نوم ، والمنية يقظة      والمرء بينهما خيال سار  
 فاقضوا ما ربكم عجالا إنما      أعماركم سفر من الأسفار

ويروى الصفدى كما روى غيره من قبل أنه رثى بعد موته في المنام ، قليل له :  
 ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي . قيل له بأى الأعمال ؟ ، قال : بقولى في مرثية  
 ولد لي صغير وهو :

جاورت أعدائى وجاور ربه      شتان بين جواره وجوارى

الفاظه وتعبيراته وصوره :

قلنا إن شعر التهامى يتردد بين روح البداوة والحضر وقد كانت البداوة غالبية  
 عليه أول الأمر ، حين وفد من البادية أو تهامة ، لكن هذه البداوة خفت حدتها ،  
 وقلت آثارها في شعره بعد إقامته في الشام وحواضر العراق زمنا ، ونخالط من فيها  
 من الأذباء والشعراء فرقت ألفاظه ، وتشكلت تعبيراته وصوره بألوان حضرته ،  
 وإن عاودته من حين إلى آخر بداوته .

ومن الصور البدوية في لفظ بدوى قوله مرثجزا :

وَعَيْرَانَةٌ زِيَاةٌ تَحْدَفُ الْحَصَى      غُرَيْرِيَّةٌ يَغْتَالِهَا الْقَيْدُ وَاللَّصِبُ (١)  
 طواها النوى واجتاحها لأزم السرى      فلم يبق منها لا عنيق ولا جذب  
 قطعت عليها بالدياجى وبالضحى      وفي حومة التهجير والآل منصب  
 إلى بلد ذلت لعز ملوكه      ملوك البرايا والأعاجم والعرب

وكذا في قوله من غزل يذكر بنسيب القدامى في الجاهلية :

سقى العهد من هند عهد من الحيا      ضحكوك ثنانيا البرق متحجب الرعد  
 يحل عقود القطر بين معاهد      تحل بها من قبل درية العقد  
 فتاة أرى الدنيا بما في نقابها      وألقى بما في مرطها جنة الخلد  
 هى الشمس تَحْفَى الشمس عنها إذا انتحت      قضاعية الأحوال مَهْرِيَّةٌ أجد

(١) العرانة : الناقة المشطية — وغريرة نسبة إلى غرير فعل من الإبل ، اللَّصْبُ : الجلد اللاصق باللحم من  
 المزال .

وتراه يستخدم في أساليبه التصويرية عناصر من طبيعة الصحراء ، في وهادها وحيوانها ونباتها كعادة الشعراء القدامى من ساكنى البادية ومن شاكلهم أو سار على طريقتهم . ومن صورهِ الملمحظة التي تتردد في قصائده صورة السماء بنجومها ، يقول من قصيدة :

فسرت أعر في ذيل الدجى ولها	والجو روض وزهر الليل كالزهر
وللمجرة فوق الأفق معترض	كأنها حبيب يطفو على نهر
وللثريا ركود فوق أرحلنا	كأنها قطعة من فروة الثمر
وأدهم الليل نحو الغرب منهزم	وأشقر الفجر يتلوه على الأثر
كأن أنجمه والصبح يغمضها	قسراعيون غفت من شدة السَّهر
فروع السرب لما ابتل أكرعه	في جدول من خليج الفجر منفجر

فهذه الخيالات البدوية الغربية التي خيلت له من نظره للسماء سمة واضحة من سمات شاعريته ، نقف أمام تشبيهه للثريا بفروة الثمر ، وصور النجوم في ضوء الصباح المثل من المشرق آخر الليل بالسرب الذى ابتلت أكرعه — أرجله — في جدول الماء .

وإذا كان قاموسه اللغوى قد حوى كثيرا من لفظ القدامى ، فهو يستخدم أحيانا بعض التعبيرات القرآنية والإسلامية مثل قوله :

إذا أنشدت في ناد قوم أكارم	يخرون للأذقان إن ذكر الرب
قوله ويذكر الخضر العبد الصالح :	

وشرقت حتى لم أجدل مشرقا	وغربت حتى قيل هذا هو الخضر
-------------------------	----------------------------

يحلّو له أحيانا استخدام بعض صور البديع كالجناس على طريقة أى تمام من مثل قوله :

وتركت أعينهم بصور في الوغى	صورا، وقد جآخ الورى ماجاحا
وكتقوله :	

أنى تروم الروم حريك بعدما	صليت بحريك محربا ملحاحا
لم يترم قط بك الإمام مراده	إلا جلوت عن الفلاح فلاحا

وكتفوله :

وإذا هزك الإمام للحرب أو لسلم ، فأنت نصر ونصل

وقوله :

وهذا ابن يحيى إلى فضله تنض الركاب ، وتنضى المطى

\* \* \*

## المؤيد في الدين داعي الدعوة<sup>(١)</sup> (ت سنة ٤٧٠ هـ)

هبة الله بن موسى بن عمران الشيرازي  
نشأ في بلده ، من أسرة اعتنقت الإسماعيلية مذهباً ، ودانت للفاطميين ولاء  
وكانت شيراز موطن الأسرة ، وإليها نسب الداعية الشاعر ، وبها عرف . ونبغ  
وتفقه في الدعوة ، وكانت به موهبة الشعر والجدل ، عرف بقوة المعارضة  
والذكاء وحسن البيان .

ولما بلغ مبلغ الشباب طمحت نفسه إلى أن يجد له مكاناً بين الدعوة ،  
واتصل بأبي كاليبج السلجوقي وعاشه زمناً حتى طلب إليه مغادرة البلاد .  
وكانت سنة آنذاك تسعاً وعشرين عاماً . وكانت همته محاولة الدعوة  
للمستنصر الفاطمي . .

وجاء إلى مصر سنة ٤٣٨ هـ بعد أن تجول زمناً في العراق والشام .

قال الدكتور محمد كامل حسين : « سار المؤيد إلى مصر وهو بين عاملين ، كان  
عنده أمل فيما سيلقاه من نعيم وتقديم ، إذ كان وحيداً في علمه وحجته ، خدم  
الدعوة وأيدها بمنطقه وبيانه ، وكان بجانب أملة هذا يائساً أشد اليأس لأن  
إمامه غير متصرف في شئون بلاده ، وأن قوة أخرى كانت تدير البلاد ، هي أم  
الخليفة المستنصر »<sup>(٢)</sup> .

وعند وصوله إلى مصر كان متولى الوزارة القلاحي فخر الملك صدقة بن  
يوسف ( قتل سنة ٤٤٠ هـ ) ، فأكرمه الوزير ، وأمر بأن تجهز له دار . قال  
عنها : « دويرة فرشت لي هي من الكرامة في الدرجة الوسطى من الحال » .

---

(١) قام الدكتور محمد كامل حسين بدراسة جامعة والية له ولشعره في مقدمة ديوانه ونقّس هنا من  
هذه الدراسة ما يعرف بهما .

راجع ديوان المؤيد بتحقيق وتقديم الدكتور محمد كامل حسين طبع دار الكاتب المصري سنة  
١٩٤٩ م .

(٢) مقدمة الديوان ص ٣٥ .

وكان يتولى الدعوة أو منصب داعي الدعوة أهو حفدة القاضي النعمان الداعية ، واسمه القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان . كان يتولى القضاء والدعوة معاً ، وخشى من منافسة هبة الله له ، فعمل على إبعاده من مصر . وكان قد عزم على الرحيل لِمَا أَحْسَ بضيق الناس من حوله ، ومنعهم له من الاتصال بالخليفة المستنصر .

وتمكن من الوصول إلى الخليفة في شعبان سنة ٤٣٩ هـ ، وسجد عنه رؤيته تحية له ، وأجلم عن الكلام وانعقد لسانه قال يحكى ذلك : « ولما رفعت رأسي من السجود ، وجمعت عليّ ثوبي للقعود رأيت بناناً يشير إليّ بالقيام لبعض الحاضرين في ذلك المقام ، فقطب أمير المؤمنين — يعني المستنصر — خلد الله ملكه — وجهه عليه زجراً ... ومكثت بحضرتة ساعة لا ينبعث لساني بتطق ، ولا يهتدى لقول . » .

وعين أستاذاً بدار الخلافة ، وقويت علاقته بأمر المستنصر ذات التفوذ وعين في الوزارة الجرجاني فاليازوري . وكانت بينه وبينهما أحداث . وتولى دار الإنشاء . وكان يطمع في مرتبة داعي الدعوة ، ومازال يسعى لها حتى بلغها واشترك في مؤامرة البساسيري للدعوة للفاطميين بالعراق سنة ٤٤٦ هـ ، ولكن المؤامرة فشلت ، واستعاد طغرلبيك السيطرة على بغداد وشمال العراق . ولم يجد المؤيد يداً من الهرب فغادر العراق بعد مقتل البساسيري إلى حلب ثم عاد إلى مصر ، وعين داعياً للدعوة سنة ٤٥٠ هـ ، وظل كذلك حتى توفي سنة ٤٧٠ هـ وصلى عليه المستنصر ودفن بدار العلم بالقاهرة .

### شعره

هذا عن حياة المؤيد ، واجتهاده في الدعوة للفاطميين ، وأما شعره فقد نبض بحماسة للإسماعيلية كمجالسه ، وكان خطاباً ينفث من خلاله تعاليمهم واعتقاداتهم . ولا نقف طويلاً عند هذه المعاني فقد وفاها غيرنا<sup>(١)</sup> والمجال لا يتسع للحديث فيها . ويهنا بالدرجة الأولى شعره الخالص الذي لا يستهدف الدعوة ، وليس بوقاً خالصاً لها ، وإن لم يحل شعر له من ذلك .

(١) وفي ذلك الدكتور محمد كامل حسين في دراسته التي أشرنا إليها .



وكان لأمامه بالديانات والمذاهب أثره في شعره ، كما كان لسعة اطلاعه في العلوم العقلية والنقلية آثارها كذلك ، ويشبهه الدكتور محمد كامل حسين بأبي العلاء في ذلك . يقول : فأبو العلاء والمؤيد هما الشاعران اللذان استطاعا أن يصفيا في شعرهما اختلاف عقائد الناس في عصرهما ، وأن يتحدثا عن الفرق الدينية والآراء الفلسفية ، وغير الفلسفية ، وعن الحياة وعن الموت ، وعن دقائق الكائنات العلوية والسفلية .

ولتمكن هبة الله من البيان ، ولما وهب من شاعرية ، اكتسب قوله الشعري جمالاً ، ورونقاً ، ولم تؤثر فيه القضايا العقلية والمذهبية ، بحيث تذهب برونقه جميعاً ، ويصبح مجرد صحائف دعوة وحجاج .

ونعثر بكثير من قصائده التي يخلو فيها إلى نفسه ويتحدث عن هموم ذاته وعواطفه ومواجهه ، آماله وآلامه ، وأحاسيسه بالحياة والناس من حوله . ومعظم شعره في هذا الجانب غير العقائدي يدور حول ذاته ، ولم يهتم بما حوله من صور الحياة والطبيعة ، فلم يتحدث عن النيل ومصر ومنتزهاتها وبساتينها وأديرتها كما فعل غيره من الشعراء من السابقين أمثال تميم والعقيلي ، ومن عاصره كذلك قبل جماعة الأفضل .

وكان إحساسه بالذات متضخماً ، فانعكس على قوله بالمبالغة في الاعتداد وقد يتصاغر أمام الأحداث ، فهزه بداخله ، وتدعره ، فيقول :

فالطير إن طار صرث مرتجفاً      والطيء إن طاف أنزوي أماً  
على جرأته واقتداره في اقتحام الأخطار ومواجهة الأحداث في حياته .  
وفي شعره رنة أسي حزين ، وصوفية تتردد أصدائها هنا وهناك أحياناً ،  
فيخبر عن رغبته في الموت للخلاص من عناء الجسد وحياة المادة إلى دنيا  
الروح ، وتتمثل الجسد سجنًا كالصوفية :

ريحانتي الموت وبابُ أمني      إذ كنت أرجو مخلصي من سجنى  
ولا شك أن هبة الله قد حفظ كثيراً من الشعر العربي القديم وتأثر به ، فأثار ذلك بادية في مواضع كثيرة من قوله . وكان للمتنبى نصيب وافر من شعره في

اللفظ والمعنى ، وقد أشرنا في مواضع من كتابنا هذا إلى ما كان للمتنبي من أثر على شعراء العصر . وقد يضمن من قوله كما قال :

فغلبت بالأواء مفصوم العرى من طول ما تعتادنى اللأواء  
مترنماً دهري بييت قاله من ليس ينكر فضله الشعراء  
« وشكيتي فقد السقام لأنه قد كان لما كان لي أعضاء »

ويستعين بالقرآن الكريم ، فيضمن آياته ، ويشير إلى قصصه وأخباره ويوظفها في معانيه . كقوله :

فلما طفى الماء أجزى به سفينته ربه في العباب  
مستعيناً بالآية : ( إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ) .

وتمثل ببعض شعره ليقفنا نصه على مضامينه وفنه . ونقتبس من أول شعره في الديوان قوله في وزن الرجز على شكل الشعر التعليمي . يقول :

حَمَدًا لِرَبِّ قَاهِرِ السُّلْطَانِ فَرِدٍ مَلِيكَ بَاهِرِ الْبِرْهَانِ  
أَتَقَنَ كُلَّ صَنْعَةٍ وَأَحْكَمَا مِنْ ذَا يُرَدُّ مَا بِهِ قَدْ حَكَمَا  
حِكْمَتُهُ خَافِقَةُ الْأَعْلَامِ تَرِيكَ وَجْهِ الْحَقِّ ذَا ابْتِسَامِ

ويقول فيها :

كَمْ نَاطَرَ بِعَقْلِهِ لَا يُبْصِرُ وَمَبْصِرٍ بِالْقَلْبِ لَا يَسْتَبْصِرُ  
وَنَظَرَ الْمَرْءَ لَهُ شَرَائِطُ تَارِكُهَا فِي الظُّلُمَاتِ خَابِطُ  
كَذَلِكَ الْعَقْلُ لَدَى التَّبْصِيرِ بِذَاتِهِ فِي حَيْزِ التَّحْيِيرِ  
إِلَّا بِنُورِ عَاضِدٍ مِنْ خَارِجِ فَعِنْدَهُ يَعْرِجُ فِي الْمَعَارِجِ  
وَإِنَّمَا أَمْتَنَا تَفَرَّقُوا إِذَ بَيْنَ ذَا وَبَيْنَ ذَاكَ فَرَّقُوا  
وَأَصْبَحَتْ عَقُولُهُمْ مَخْتَلَةٌ سَقِيمَةٌ ، نَفُوسُهُمْ مُعْتَلَةٌ  
فَسَلَبُوا سَدَادَ قَوْلٍ وَعَمَلٍ وَعُضُّوا لِكُلِّ خَطْبٍ وَخَطَلٍ  
وَنَقَضُوا قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ كَلَّ لَهُ مَقَالَةٌ شَنِيعَةٌ

وهي أرجوزة طويلة تعليمية كما قلنا ضمنها أصول العقيدة ، وأراد بها الدعوة للمذهب .

ويقول في مدح الفاطميين والأمة الإسلامية :

فُدَيْتِ خَيْرَ أُمَّةٍ قَدْ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَنْفِي الرِّيبِ عَنَّا وَالْحَلَّلِ  
الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ فِي الدُّجَى وَالطَّيِّبُونَ الطَّاهِرُونَ وَالتَّهْلِيلِ  
الْفَاطِمِيُّونَ الصَّنَادِيدُ الْأُولَى هُم مَن جَبَالَ الْفَضْلِ وَالْفَخْرِ الْقَلَّلِ

ويوجه حديثه إلى الخليفة الفاطمي :

بِكَ اعْتَلَى فِي الْأَفْقِ نَجْمٌ لِلْهُدَى وَمَنْكَ حَقًّا نَاجِمٌ الْكُفْرِ أَقْلُ  
يَا قِبْلَةَ الْأَرْوَاحِ يَا مَنْ نَحْوُهُ تَوَجَّهْتُ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ الْقِبْلُ

ونلاحظ أنه كثيراً ما يعتمد في مدائحه للأئمة إلى البدء مباشرة في الموضوع ، وإلا فيبدأ بالشكوى ، فمما بدأ به مباشرة قوله :

اللَّهُ يَنْشُرُ رَايَةَ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ ، مَوْلَانَا الْإِمَامَ الْأَطْهَرَ  
وَيُتِمُّ نَوْرَ أَبِي تَمِيمٍ حَالِيًا بَسَنَاءُ أَعْنَاقِ الظَّلَامِ الْأَكْدَرِ  
وَيَدِيمُ دَوْلَتَهُ وَيَجْبُرُ كَسْرَنَا فِي «الظَّاهِرِ» الْعُصْنِ الرَّطِيبِ الْأَخْضَرِ

ومما بدأ به بالشكوى قصيدة يستهلها بالحديث عن الغربة ، ولعله يقصد الغريتين الجسدية والنفسية حيث يقول : ( ولعله قالها بمصر أيام أزمته مع داعي الدعاة واليازوري ) .

يَا لِلتَّغْرِبِ أَنْتِ بئْسَ الدَّاءُ فَغِنَاكَ فَقْرٌ ، وَالْعَطَاءُ عَنَاءُ  
وَالْعِزُّ ذُلٌّ ، وَالسَّعَادَةُ شَقْوَةٌ وَالْيَسْرُ عَسْرٌ ، وَالْبَقَاءُ فَنَاءُ  
وَالْعَرْفُ مِنْكَ التُّكْرُانُ يَوْمًا أُنِي أُنِي وَحَالَكَ كُلُّهَا نَكْرَاءُ  
يَا غُرْبَةً أَغْرَبْتُ مِنْهَا فِي مَدَى مِنْ دُونِهِ قَدْ أَغْرَبْتُ عَنَقَاءُ  
وَمَسَافَةَ اعْرُضْ الْبَسِيطَةَ ثُونَهَا قَطَعْتُهَا فَرْتُّ لِي الْبِيدَاءُ  
أَضَلَلْتَنِي فِي الْأَرْضِ بِلِ الْقَيْتِنِي فِي الْيَمِّ مَا لِي فِي التَّنَجَاءِ رَجَاءُ  
وَسَفَحْتُ مَاءَ الْعَيْنِ إِذْ فَوَّتْنِي رَوْقِ الشَّبَابِ فَمَنْهُ غَيْضُ الْمَاءِ  
مَرْقَنْتَنِي بِالذَّلِّ كُلِّ مَمْزُقِي وَالذَّلُّ يَصِلِي نَارَهُ الْغَرْبَاءُ  
قَدْ كُنْتُ أَقْرَبُ الْأَسْوَدِ بِفَارِسِ فَالآنَ تَهَضُّ لَاقْتِرَاسِي الشَّاءُ

ويمضي في هذه الشكوى من الغربة. حتى يصل إلى ممدوحه المستنصر فيقول :

قَطُّعَ الزَّمَانِ بِحُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ  
وَلِقَاءِ كُلِّ شَدِيدَةٍ مُسْتَسْهَلِ  
خَيْرِ الْأَنْامِ أَبِي تَمِيمٍ ، مِنْ لَهُ  
مُسْتَنْصِرٌ بِاللَّهِ أَيْدُ نَصْرِهِ  
وَصَلِّ ، وَدَاءِ النَّائِبَاتِ دَوَاءُ  
وَالسَّعْدِ فِي أَيَّامِنَا تَلْقَاءُ  
كُلِّ الْبَرِيَّةِ أَعْبَدَ وَإِمَاءُ  
رَبُّ لَهُ الْإِيْلَاءُ وَالْإِنْشَاءُ

ويستنجده ليرفع عنه الضر فيقول :

إِنِّي أَتَيْتُكَ يَا ابْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ  
أَأَيْتٌ فِي الْبَلَدِ الْأَمِينِ مُرُوعًا  
مُسْتَعْدِيًا مَسْتَيْبِي الضَّرَاءُ  
وَحِمَاكَ مِنْ صَرَفِ الزَّمَانِ وَقَاءُ؟

وله في التشوق والحب في مطلع مديحة أخرى :

غدا البينُ من حُبِّنا مستحيلا  
فلهفي على مهجة بينها  
يَشْدُ الرَّحَالَ يَرِيدُ الرَّحِيلَا  
وَبَيْنَ الْمَسْرَةِ مُدَّحَالَ حَيْلَا  
تَمَلِّكَ قَلْبِي قَلِيلًا قَلِيلًا  
غدا باللقاءِ عَلَيْنَا بِحَيْلَا  
فَلَمَّا رَأَيْتَنِي مُسْتَأْسِرًا

ويستخدم بعض العبارات القرآنية :

وَقَلْبِي عَلَى النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ  
سَلَاةٌ لِمَاذَا اسْتَحَبَّ الْعِبَادُ  
وَنَوْمِي قَلِيلًا وَلَيْلِي طَوِيلًا  
فَصَبُّ عَلَيَّ الْعَذَابِ الْوَيْلَا  
رَأَيْتُ الْجِبَالَ كَثِيرًا مَهِيلًا  
فَلَوْ حَمَلَتْ بَعْضُ مَا فِي الْجِبَالِ  
وَيَذَكُرُ بَثِينَةً وَجَمِيلًا :

وَكَانَ وَكُنْتُ بِفِرْطِ الْهَوَى  
وَهُوَ فِي شَعْرِهِ لَا يَتَعَمَدُ التَّصْنَعُ ، وَأَسْلُوبُهُ جَارٌ ، نَثْرَى التَّرْكِيبِ وَالْأَدَاءُ لَا  
يَلْقَى بِالْأَلَى رِصَانَةَ الْبِنَاءِ ، وَأَنْظُرُ إِلَى قَوْلِهِ (١) :

أَهْلًا بِأَهْلِ وَدَادِنَا  
أَهْلًا بِمَنْ قَلْبِي لَهُمْ  
قُ وَخَائِنِي جَلْدِي فَمَهْلًا  
فِي فِرْقَةِ الْأَحْبَابِ كَلَّا  
أَهْلًا بِذَكَرِهِمْ وَسَهْلًا  
بَيْتٌ وَقَدْ سَكُنُوهُ أَهْلًا

(١) ديوانه ص ٢٢٨ .

ويميل كثيراً إلى الصنعة البديعية ، وبخاصة الطباق والمقابلة والجناس ،  
ويوظفها جميعاً لمعانيه ولا يتكلفها كأن يقول (١) :

يا أنيسَ الفؤادِ بُعداً وقرباً      لم يَدْرُ لى الفِراقِ عقلاً وقلْباً  
كانَ حَرُّ الأهوازِ عنديّ برداً      وشراباً ، عذابه لى عذبا

ويجانس في هذه القصيدة نفسها .  
فيقول :

شُقُّ منى الفؤادِ شقاً وأشقى      بالضننا شيقاً إلى الوصل صبباً  
وصنيعه هنا شبيه بصنيع المتنبي في قوله :

وقلقلْتُ بالهمّ الذى قلقل الحشا      قلاقل عَيْشِ كُلُّهُنَّ قلاقلُ  
وهو قريب الخيال والصورة ، لا يغرّب ، ويتناول الجارى القريب كقوله  
في مديح الفاطمي :

قل لابن عباسٍ ليهنك إنبي      حيث اعتزرت به أذلّ ذليل  
ولطالما رهقتك منى ذلة      من قبل تدنى للحمولِ حُمولي  
ورما بنا قوسُ الثوى عن عهدكم      كم لى هنا لك من أخٍ وعديل  
أسرى ، وأسرى مركبى وندامتى      زأدى ، وخوفى فى الفلاة دليلى  
وشققت جيبَ الأرضِ شقاً نحو من      وقفت لديه ركائبُ التأميل  
فرايتُ نيلاً فائضاً تمساحه      مُتَشَمَّرٌ يحمى حريم التليل  
وقد وظف صورة البيئة المصرية فى النيل وتماسيحه .

ويستعير بعض خياله الدينى من القرآن فيقول :

ونفسٌ حُلاها نقشُ توحيد ربها      فنعَم الحلّى التاجُ والقُرطُ والشنْفُ  
تُضِيءُ كمصباحٍ بدا فى زجاجةٍ      خلافاً لأقوامِ قلوبُهُم غُلْفُ  
وآلِ النبىِّ المصطفى كَهْفُها الأولى      لها بالولا فى طودٍ مجدهم كَهْفُ

وشعره عامة لا يرقى إلى مرتبة المحترفين ، وربما غلب عليه ، وعلى قريحته  
أفكاره الدينية ، وعمله كداعية ، ومرشد يعلم الناس أصول العقيدة ومن هنا  
كانت بساطته وتسهله فى العبارة وقرب المورد وكثرة الاستعانة بالقرآن الكريم لفظاً  
ومعنى ، وكثرة الاستعانة بمصطلح علوم الدين .

ابن حَيُّوس ( محمد بن سلطان )

( ت ٤٧٣ هـ ) (١)

هو أبو الفتيان محمد بن حَيُّوس الشاعر الشامي الأمير الدمشقي الموطن والنسبة ، أحد الشعراء المعروفين في القرن الخامس ، بل لعله أشهر شعراء الشام في النصف الثاني من هذا القرن . له ديوان شعر كبير . وقد اهتم بجمع ديوانه جماعة من رواته وتلاميذه .

وأجوده ما جمعه ابن البرين المعري نزيل مصر . فهو أكبرها وأجمعها . ولد ابن حَيُّوس سنة ٣٩٤ هـ بدمشق ، وتنقل في ربوع الشام بين دمشق وحلب وقصد القاهرة فمدح بعض خلفائها الفاطميين ، وكان ذلك في عصر المستنصر وابنه الأمر . وقصد الوزير الخطير الأفضل بن بدر الجمالي ، والتقى في قصره ببعض شعراء المصريين وغيرهم .

ومدح من قادة الفاطميين الأمير المطرف أنوشتكين الدزيري البربري أمير الجيوش ومن كبار قادة المستنصر بالله .

وشارك بشعره في تسجيل أحداث العصر الفاطمي في هذه المرحلة الخطيرة من مراحل الصراع بين الفاطمية والعباسية ، والفاطمية والأتراك السلاجقة وما خلده ، وقعة البساسيري في سنجار وانتصاره على طغرل بك السلجوقي سنة ٤٥٠ هـ وإقامته الخطبة للخليفة الناصر ببغداد . يقول :

عجبتُ لِنُدْعَى الآفاقَ مُلكاً	وغايتهُ ببغداد الرُّكُودُ
وَمِنْ مُسْتَحْلِفٍ بِالهُونِ يَرْضَى	يُداؤُ عَنِ الحِياضِ ولا يندُودُ
وأعجبُ منهما سيفُ بِمِصر	تُقامُ به بسنجانَ الحُلُودُ

وكان ابن حَيُّوس منذ شبابه متعلقاً بالقائد الدزيري رجل الفاطميين القوي بدمشق وأميرهم بالشام ، والذي مكن لملكهم بقهر كثير من أعدائهم من أمراء العرب وقادة السلاجقة . وبخاصة هزيمته للمرداسيين الكلابيين بحلب .

لقد عاش ابن حَيُّوس بدمشق إلى جوار أميره المفضل الدزيري ، ومدحه بالقصائد الطوال ، ويذود عن الفاطميين بشعره ، ويهاجم أعداءهم من العباسيين

والمرداسيين والسلاجقة . وبعد وفاة الدزيرى مدح خليفته ، وبعض أمراء دمشق من قبل الفاطميين ، واتجه بهيمته إلى القاهرة قَصَبَةً الملك ومركز الخلافة . وكان اتصاله بالوزير المثقف القوي اليازورى ، وبعض الوزراء من بعده .

وتعددت رحلات ابن حيّوس إلى القاهرة بمدح اليازورى وغيره من وزراء المصريين حتى تغيرت أحوال الدولة في حكم المستنصر وتآلب الأعداء على القصر من الداخل والخارج ، وعمت الفوضى الشام ومصر وتدخل بعض الثوار بالشام في شئون الدولة ، وعصى بعضهم واستقل بأجزاء من الشام .

وعانت دمشق من الفوضى والإضطراب . وطردت أميرها الأرمنى بدر الجمالى ، وعاد هذا القائد إلى مصر فاستنصره المستنصر ، وتمكن من اخماد الفتنة ، واستعادة الأمن والانضباط .

وخلفه بعد وفاته ابنه الأفضل ، فسار على سياسة والده ، بقية خلافة المستنصر بالله .

ولم يجد ابن حيّوس بدأ من مغادرة دمشق بعد أن نهبت داره وأخذت أمواله . وعاد لا يملك ما يكفل له الحياة الكريمة التي كان يجيهاها من قبل في صحبة الدزيرى .

فغادر دمشق كسيف البال ليجول جولة في بلاد الشام وتغورها قاصداً بعض القضاة ذوى النفوذ في طرابلس وصور .

ويلتقى بابن منقذ جدّ الشاعر أسامة ، فيصل بينه وأمير حلب من المرديسين ويظل ابن حيّوس بحلب حتى وفاته .

وفي حلب ، وهو يخدم آل مرداس الكلايين العامريين ، أعداء الفاطميين يضطر إلى أن يغير من أقواله ، وأن يعتذر أحياناً عما كان قاله من قبل في هجائهم وهو بدمشق أيام كانت علاقته بأنوشتكين الدزيرى قوية ، وكان شعره عندئذ مليئاً بالحماس والتأييد له وللفاطميين . والهجوم على أعدائهم عباسيين وسلاجقة وغيرهم .

عاصر ابن حيّوس إذاً من خلفاء الفاطميين الظاهر ابن الحاکم والمستنصر وعرف من كبار وزرائهم أبا الفرج البابلي واليازورى الوزير الخطير ، وبدر الجمالى .

ودار معظم شعره في المديح ، واضطر إلى الدفاع عن عقائد الاسماعيلية  
وسلطان الفاطميين على غير عقيدته السنية .

وهكذا كان ابن حيوس في حياته وشعره دائراً في فلك الدولة وامرائها منجذباً  
إليهم ، تابعاً ، ليست له شخصية مستقلة واضحة المعالم ، يختلف في ذلك عن  
الشاعر التهامي الذي عمل زمناً مع الفاطميين لكن كانت له طموحاته ،  
وشخصيته المتميزة في شعره .

وشعر ابن حيوس يمثل هذه المرحلة بعينها ، وهو في أسلوبه وبنائه يتطبع  
بالتابع التقليدي ، يميل إلى طريقة أبي تمام ، لكنه بعيد عن ابداعه وصياغته  
الفذة ، فهو يحوم حول حماه ، ويحكي لكن فاته الشنب كما قال الشاعر المتأخر .

ومن الملاحظات التي أشار إليها محقق الديوان طول نفس الشاعر في قصائده .  
يقول : « وهو من أطول الشعراء بنفساً ، تتراوح أبيات قصائده بين السبعين  
والمائة ، وقد تزيد ، وليس له من المقطعات إلا مقدار يسير ، يشابه في طول نفسه  
ابن الرومي ومهيار الديلمي ، ويقصر عن الأول في ابتكار المعاني وتعدد  
المناحي » (١) .

وليس في شعره ألمعية تميزه ، وهو صائغ للكلام ، غير مبدع للمعاني . له قاموس  
لفظي يتردد في قصائده ، حصله من محفوظ كثير للشعر العربي وقراءات متعدد  
لجوانب من التراث الديني واللغوي والتاريخي .

وكل شعره على تعدد مراحل حياته لا تتفاوت جودته بصورة مميزة وإن بدا في  
أخريات حياته أجزل صياغة ، وأكثر اقتداراً على امتلاك وسائل التعبير .

ونسوق أمثلة من مراحل حياته المميزة في شبابه ، وكهولته وهرمه منها ما قاله في  
دمشق في ممدوحه الذي استغرق معظم شعره في مراحل الشباب وأعنى أنوشتكين  
القائد التركي والى الشام .

يقول فيه : ( سنة ٤٢٨ هـ ) ، ويذكر هزيمته مع الروم :

عَادَ بِالصَّفْحِ مِنْ أَحَبِّ الْبَقَاءِ      وَاحْتَمَى جَاعِلَ الْخُضُوعِ وَقَاءَ  
فَلْتَنَمْ أُمَّةَ الْمَسِيحِ طَوِيلًا      كَفَّ مِنْ يَمْنَعِ الْعَدَى الْإِغْفَاءَ

(١) مقدمة الديوان ص ٣٢ .



مِثْلَمَا يَطْلُبُ الْمَرِيضُ الشِّفَاءَ  
فِي الْأَتَامِ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ  
تِ إِلَّا لِتَجْمَعِ الْأَهْوَاءُ  
مِ ، فَكَانُوا بِشُكْرِهَا أَوْلِيَاءَ  
قَدْ أَصْبَحَتْ بِهِ فَصْحَاءَ

مَلِكٌ بَطَلَبُ الْمَلُوكِ رِضَاهُ  
قَسَمَتْ رَاحَتَهُ جُودًا وَفَتْكَأَ  
مَا بَهَرَتْ الْعُقُولُ يَا مَعْجِزَ الْآيَا  
هُدَاةً بَقَّتْ النُّفُوسَ عَلَى الرَّوِّ  
وَإِنْ اسْتَعْجَمَ الْمَقَالُ فَدَى الْأَفْعَالُ

حتى يقول :

لَأَحَلَّتْ الزَّيْبِرَ فِيهَا عَوَاءَ

لَوْ تَيَمَّمْتَ أَرْضَ نَخْفَانَ يَوْمًا

\* \* \* \* \*

تَسْتَمِدُّ السُّيُوفُ مِنْهُ الْمُضَاءَ  
أَنْ صَفَوُا الْحَيَاةَ مِمَّا أَفَاءَ  
بِ مُدِّ ظَلَّتْ تَخْلِفُ الْخُلَفَاءَ  
بَاءً مِنْهُمْ تَوْصِي بَكَ الْأَبْنَاءَ  
تَخْلِقُ مُدِّ صَادِقُوا لَدَيْكَ الْعَنَاءَ  
لَيْسَ يَجْلُو الظُّلَامَ كَابِنِ ذُكَاةٍ (١)

أَيُّ خَيْفٍ وَللْخِلَافَةِ سَيْفٍ  
فَلْتَفَاخِرْ بِجَدِّهِ بَعْدَ عِلْمٍ  
مَا تَخَلَّفَتْ عَنْ صِلَاحٍ لِهَذَا اللَّذِي  
رُقَّتْهُمْ بِالْأَبَاءِ وَالنُّصُوحِ ، فَالْأَ  
وَأَبْنَتْ الْغَنَى لَهُمْ عَنْ جَمِيعِ الدِّ  
تُوقِدُ النَّارَ فِي الظُّلَامِ وَلَكِنْ

ويقول :

مَا عَرَفْتَ الْإِعْجَازَ أَمْ إِيْحَاءَ  
عَلِمَ مِنْ قَبْلِ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

لَمْ تَزَلْ مُبِدِعًا ، فَلَمْ أَذِرْ إِلَهًا  
أَمْ أَصَارَ السُّمُوءُ قَسَمَكَ مِنْ

وقال يمدح الوزير اليازوري : ( في حلود سنة ٤٤٢ هـ ) : ويذكر مشاركته  
وتدبيره مع البساسيري في الخروج على الخلافة ببغداد والدعوة للفاطميين :

وَأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ  
فَلْيُونَ مَدَاهُ يَبِيدُ لَا تَبِيدُ  
وَأَهْلُ الْأَرْضِ مِنْ فَشَلٍ قَعُودُ  
فَهَلْ أَنْبَاكَ بِالصُّنْدِرِ الْوُرُودُ  
عَلَى حَقِّقِ فَنَبَّهَهُ وَبَلِيدُ

لِيَهَيْتِكَ . مَا أَنْالَتْكَ الْجُلُودُ  
مَرَامٌ شَطَطَ مَرْمَى الْعَزِيمِ فِيهِ  
وَأَمْرٌ قَمَّتْ فِيهِ بِلَا ظَهِيرِ  
وَمِثْلِكَ لَا يَضِيلُ الْحَزْمُ عَنْهُ  
أَبِيَّتٌ فَلَمْ تَنْمِ نَوْمَ ابْنِ هِنْدِ

(١) ابن ذكاء يقصد الصبح ، وذكاء الشمس .

وأعفيت المسامح من حديث  
 نأ ضاقت بيسوان خثور  
 فكذب ظن من عاداك صدق  
 وعيد غادر المراق صرعى  
 فلولا كونه مع يوم بلر  
 يعن فتشعر له الجلود  
 له ونبت بأطفال مهرد  
 تساوى فيه وعدك والوعيد  
 وعيد ما أتى مائاه عيد  
 لقلنا إنه اليوم الوحيد

ويشير في هذه القصيدة السياسية التاريخية كمعظم قصائده إلى التاريخ السياسي للمرحلة التي اشتد فيها الصراع بين الخلافة الفاطمية في القاهرة والخلافة العباسية في بغداد واستعانة العباسيين بالسلاجقة الأتراك لدعم ملكهم ، وتثبيت أركان خلافتهم التي اهتمت بضربات الفاطميين ورجالهم طوال قرن من الزمان منذ استقرار المعز لدين الله بمصر سنة ٣٦١ هـ . فيقول معرضاً يطغريك السلجوقي :

لقد طاح الرجاء بطغلبك  
 ولم أمل إلى أجل يقود  
 ويشير إلى الخليفة العباسي الذي لا حول له ولا قوة في هذا الصراع بين الأتراك :

عجبت للمدعى الآفاق ملكاً  
 يصول على رعاياها اعتداء  
 ومن مستخلف بالهون راض  
 له حرم هنالك لم يحرم  
 ثلاثة خوفه بأشد منه  
 ولولا الجذب ما أكل الهبيد<sup>(١)</sup>  
 وغايته ببغداد الركود  
 ويحجم كلما صل الحديد  
 يناد عن الحياض ولا ينود  
 به إلا السلامة والهجو  
 وحتى يقول منوها بالمستنصر الفاطمي :

وما البطش الشديد مفيد عز  
 وأعجب منهما سيف بمصر  
 إذا لم يَمْضِيه الرأي السديد  
 تقام به بسنجر الخلود

ويلمح في هذه الأبيات إلى ما كان يروجه الفاطميون عن انغماس الخلافة في بغداد في الملامى وانشغالها عن رعاية مصالح الرعية ، وايكالها إلى هؤلاء القادة من الترك يعثون بها كيف شاءوا . يقول مخاطباً اليازورى وزير المستنصر :

(١) الهبيد الخنظل وكأنه يضرب مثلاً بأن الضرورة تبيح المحظورات .

رميتهم بكل سليل غاب  
 يروق فؤادُه نأى وعودُ  
 ويعجبه النهودُ إلى الأعادى  
 ويطره صليلُ البيض فوق القلا  
 يعيش بفرسه ضبُعٌ وذيبُ  
 يُغيدُ السيرَ لا نأى وعودُ  
 مُشبحاً لا القنودُ ولا النهودُ  
 نسين لا البسيط ولا النشيدُ

ونلاحظ اعتماد الجناس والطباق ، كفعل أى تمام فى صنعته الشعرية وقدمنا اقتداءه به ، واهتدائه بصباغته . وترددت شواهد فى شعره على هذا التأثير يصرح فيها أحيانا كقوله (١) :

وشبهه عن جهل حبيب ، ولورأى  
 يريد بحبيب أبا تمام ، ويشير إلى قوله فى موسى بن ابراهيم الراقى :  
 ومن زمن ألبستيه كأنه  
 إذا ذكرت أيامه زمنُ الزردِ  
 وقال فى الوزير الفاطمى أبى الفرج البابلى سنة ٤٥٢ هـ (٢) :  
 أما الزمان فقد ألبسته الجددا  
 والمكرماث فقد أنشأتها جددا

والمتابع لهذه القصائد التى صاغها فى مديح وزراء مصر فى المرحلة الوسطى من حياته يلاحظ فى شعره استواء ورسانة أكثر من تلك التى صاغها بالشام قبل ذلك فى شبابه ، ولاشك أن مرور ربع قرن من الزمان زادت الشاعر تجربة ، وعركته الأيام ، ووسعت معرفته برجال الدولة ، ومجالسته للعلماء والأدباء من معارفه ، فترى ثراء قصائده بالمعلومات وذكر الأحداث والأنساب ووقائع التاريخ التى يستغلها فى معانى مديحه .

ونأتى المرحلة الثالثة من حياته وشعره فى كنف المرادسيين بحلب فى الستينات من المائة الرابعة ، ومن ذلك قوله يمدح نصر بن محمود ويرثى والده سنة ٤٦٧ هـ وأنشدها إياه فى عيد الفطر (٣) :

كفى الدين عزما قضاة لك الدهر  
 لقد ظلت هذى البلاد سحابة  
 فمن كان ذا نذر فقد وجب النذر  
 بوارقها بشر وإيماضها تير

(١) ديوانه ص ١/١٩٥ .

(٢) ديوانه ص ١/١٩٨ .

(٣) ديوانه ص ١/٢٤٢ .

إذا ما غمامٌ خصَّ أرضاً بغيتةً      هَمَى هاطِلاً في كلِّ قَطْرِ لها قَطْرُ  
ثمانية لم تفترق إذ جمعتها      فلا افترقَتْ ماذبٌ عن ناطِرِ شَقْرِ  
يقينك والتقوى، وجودك والغنى      ولفظك والمعنى، وعزمك والنصرُ  
بك انجابت اللأواء، وامتدَّت المنسى      وضوعفت الآلاء، وافتخر العَصْرُ

ويشير إلى رحلة والده محمود إلى مصر وزواجه من إحدى عقيلاتها بقوله :  
فيا طيبَ ما حيثُ به مصرَ بابلُ      ويا حُسْنَ ما أهدتْ إلى حلبِ مصرُ  
وكانت تلك العقيلة بنت الوزير البابلي ، ويشير إلى هذه الرحلة إلى مصر  
وزواجه بها ومغادرة حلب بقوله :

ولم يترك تلك البلادَ لأنها      بَعَثَ بدلاً منه، ولا أن نبأ دَهْرُ  
ولكنه كالسيفِ فارقَ غمدهُ      ليشهدَ حداهُ بما خيَّرَ الأثرُ

وبعد فإن شعر ابن حيوس في معظمه مديح لرجال العصر وقادته ، ومنه  
نستشف بعض الأحداث ، وهو في جملة موضوعي تسجيلي ، يهتم بالمناسبة التي  
ينشد فيها ، والاشادة بالمآثر ، والأعمال التي يُبلى فيها الممدوح أو أبلَى ، فضلاً  
عن التنويه به وبقومه ، وبمواليه من الخلفاء إن كان أميراً أو وزيراً ، كما يعرج على  
المعارضين والأعداء فيزري بهم ، ويقلل من شأنهم ، ويوظف الأحداث التاريخية  
لأغراضه ومراميه الشعرية مديحاً أو هجاء .

ومن هنا كان الجانب الذاتي الإبداعي في شعر ابن حيوس متواضعاً شديداً  
التواضع والمباشرة والموضوعية غالبية ، والخطابية طابعه العام .

على أن بعض معاصريه أعجب بما جاء في شعره من الصنعة البديعية . وتذكر  
منهم علي بن منجب الصيرفي . فقد أعجب بحسن التقسيم في قوله ؛ قال (١) :  
« ومن مליح التقسيم قول ابن حيوس :

لعمري لقد آيدَ الملوك جميعهم      بأربعة في غيره لن تالفا  
بأمن لمن يخشى ، وقهر لمن طغى      وسبق لمن جازى ، وعفوا لمن هفأ

وقوله أيضاً :

(١) الأنصليات ٤٦ .

قَصَّرَ السَّابِقُونَ دُونَ مَدَاهَا      وَتَمَلَّكَتْهَا بَسَتْ خِصَالِ  
مَكْرَمَاتٍ مَعَ اعْتِدَارٍ وَعَفْوٍ      بِاِقْتِدَارٍ ، وَعَفْفَةٍ فِي حِجَالِ

وقال (١): « ومن البديع قول ابن حيوس :

قَدَّتْ الْجِحَافِلُ لَمْ يَقْدُ مَعَاشِرَهَا      كِيسَرَى الْمَلُوكِ ، وَلَا رَأَاهَا تُبِيعُ  
قَوْمٌ إِذَا رَأَوْا مَمَالِكَ غَيْرِهِمْ      حَصَّنُوا بِيضَ الْهِنْدِ مَا لَمْ يَزْرَعُوا

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٥ .

## الفصل السادس شعراء معاصرون بالشام

- ١ - أبو العلاء المعرى
- ٢ - ابن سنان الخفاجى
- ٣ - ابن الخياط



أبو العلاء المعرى  
حيرة العقل — ولغز البيان  
( ٣٦٣ — ٤٤٩ هـ )

أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي حكيم المعرة الشاعر الفيلسوف عین هذا العصر ونجمه الطالع . الذى اختصم حوله الناس فى شعره وكتابه وفى عقيدته وفكره ، وظل مع هذا الخلاف علماً بارزاً لا تأخذ منه الأقاويل ولا تحط من قدره الادعاءات والافتراءات .

ظل أبو العلاء المعرى بهذا الشموخ دلالة على حرية الفكر العربى والإسلامى فى القرنين الرابع والخامس ، وسعة عطاءه ، وتنوعه ، كما ظل أبو العلاء علامة وسمه بارزة على العصر ، تجمع فى إنتاجه الأدبى والشعرى معارف العصر ، وإتجاهاته السياسية والدينية والثقافية والأدبية والفكرية ، فكان دائرة معارف شاملة جامعة ، ومراة ، يرى فيها الباحثون ملامح عصره ، عصر الدولة الفاطمية ، ونافذة يُطل منها على آفاق الحياة العربية والإسلامية فى تلك المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامى والحضارة العربية الإسلامية .

وسبقت أشارتنا عابرة إلى بعض مواقفه فى رسائله من مشكلات عصره وما دار بينه وبعض أعلام الزمن من جدل حول قضايا عقدية وأدبية ، ولغوية .

والآن جاء الدور للحديث عنه شاعراً فحلاً ، ومفكراً عملاقاً من خلال هذا الشعر ، لم يكتف ببيت خاطراته حول قضايا عصره ، بل وقف موقف المصلح المجدد الحر الفكر دون خشية الجريء دون تطاول على أحد ، مع الاعتداد بالرأى يلقبه إذا اقتنع به فيما بينه وبين نفسه ، غير عانى بمن يعارض ، ولا منافق لحاكم أو صاحب سلطان أو مال ، فقد زهد فى قرى أصحاب السلطان وأصحاب المال جميعاً ، وارتضى لنفسه حياة سهلة هنية ، بسيطة ، توفر له حرية الفكر ، دون ضَغْطٍ من ظروف الحياة ، وأطماعها .

لقد احتبس أبو العلاء نفسه فى داره ، بعد أن قضى الله عليه ، وشاءت مشيئته أن يُحْبَسَ نظره عن رؤية الناس ، والدنيا باصرته ، ولكن البارىء



عوضه عن رؤية البصر ، رؤية السمع ، وجلوة الفكر والنفس ، فألقى إليه السمع بما يعوضه النظر ، وأتاحت له جلوة الفكر في ظلمة الجسد سبحات في آفاق العقل ، وتأملات حرة دون قيود متطلبات الجسد وهمومه اليومية .

لقد أتاحت محابس أبي العلاء المعري الثلاثة : فقدان البصر ، والخلوة ، وحبس النفس في هذا الجسد ، أو إلزام الجسد بقيود الرغبة . أتاحت له هذا التفرغ العظيم للدرس والاطلاع ، والتأمل ، والتأليف ، والنظم ، والتعليم . عاش أبو العلاء في أسرة تجمعها المحبة ويظهرها العلم ، وكان يكن لوالديه عاطفة عميقة في قلبه ، وتعلق بأمه خاصة ، وكان لوفاتها أثرها البالغ في نفسه . خرج أبو العلاء إلى الحياة والقرن الرابع يؤذن بنهايته ، وكان أول ما رأى نور الدنيا ببلدة المعرة بالشام ، في هذا الوقت الذي تنازعتها الأحداث وتعاقب عليها الغزاة والمغيرون بين شرق وغرب وجنوب . وكانت الحياة السياسية على ما عرضنا له في مقدمة حديثنا ، كما كانت الحياة الإجتماعية كذلك في المجتمع الإسلامي شرقاً وغرباً تضطرب بكثير من التيارات والتغيرات فلم يكن هذا المجتمع على ما عرفناه في أول عصر الدولة العربية الإسلامية ولا في عصر الأمويين وصدر عصر العباسيين من حفاظ على القيم الإسلامية وبعض القيم العربية المثلث التي حافظ العرب في أول عهدهم بالحياة خارج بلادهم بعد الفتح والهجرة من الجزيرة عليها ، ولم يفرطوا فيها . وظل مجتمع تلك العصور الأولى متماسك الأواصر ، تسوده فلسفة واحدة ، ويستظل بظل العقيدة الإسلامية بقيمتها النقية حتى رانت على تلك الفلسفة الواحدة للحياة فلسفات ، اكتسبها المجتمع العربي الإسلامي من آثار الحضارات القديمة التي نزع إليها المسلمون والعرب ، فخالطت أفكارهم ، وتمشت في تراثهم العربي والإسلامي بصور متعددة ، كان نتاجها تلك الحركات الفكرية والثقافية والإجتماعية والمذهبية العريضة التي شملت العالم العربي والإسلامي من مشرقه إلى مغربه طوال القرنين الرابع والخامس .

وقد أدت تلك التيارات والحركات التي اضطربت بها الحياة العربية الإسلامية طوال هذين القرنين إلى تغيرات كثيرة ، بل وتحولات شاملة في العقيدة والنظرة إلى بعض أصولها ، فنجم ما نعرفه ويعرفه تاريخ الفكر

والحضارة الإسلامية من شطحات أو خروج عن الخطّ الواضح الذى توارثته الأجيال للحياة العربية والعقيدة الإسلامية ، وتطبيقاتها فى المجتمع ، على تلك الصورة التى احتازتها الشريعة ، وحدد معالمها الأئمة المجتهدون من زعماء المذاهب وكبار علمائها وفقهائها .

ولكن هذه التغيرات التى أدت إلى الخروج عن ذلك الخط كانت من القوة والتعدد والكثرة فى مشرق العالم العربى والإسلامى بحيث بدت فى هذا القرن الخامس وكأنها تغالب الخط المتوارث وتقتحم عليه مجاله ، وتكاد تحجبه عن الظهور فى أوساط كثير من المثقفين ، وبخاصة من ألم منهم بعلوم الأوائل ، أو بعلم خارج عن نطاق العلم الشرعى من علوم الأمم الأخرى يونان وهنود وفرس وغيرهم ، وما يضم من عقائدهم وعاداتهم ، وفلسفاتهم ، ورؤيتهم للكون والإنسان ، فظهر فى أفق الفكر الإسلامى آراء ، واجتهادات اعتبرت عند المحافظين على الخط الموروث من الإلحاد ، والزندقة ، والخروج عن جادة العقيدة والدين الصحيح .

جاء أبو العلاء المعرى إذا إلى الحياة والمجتمع العربى الإسلامى يضطرب بهذا كله قال ابن الجوزى<sup>(١)</sup> :

« ... ولد يوم الجمعة عند غروب الشمس لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة . وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وله أشعار كثيرة . وسمع اللغة ، وأملى فيها كتباً ، وله بها معرفة تامة ، ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وأقام بها سنة وسبعة أشهر ثم عاد إلى وطنه ، فلزم منزله ، وسمى نفسه « رهين المحبين » لذلك ولذهاب بصره . وبقي خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم ولا البيض ولا اللبن ، ويحرم إيلام الحيوان ، ويقتصر على ما تنبت الأرض ، ويلبس خشن الثياب ، ويظهر دوام الصوم .»

ولقيه رجل فقال : لم لا تأكل اللحم ؟ . فقال : أرحم الحيوان . قال : فما تقول فى السباع التى لا طعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ . فإن كان الخالق الذى دبر ذلك فما أنت بأرأف منه ، وإن كانت الطباع المحدثه لذلك ، فما أنت بأحذق منها ، ولا هى أنقص عملاً منك<sup>(٢)</sup> .

(١) خلاصة كلام داعى الدعوة المؤيد شمس فى رسائله إليه كما سبق أن عرضاه فى الجزء الأول .

(٢) المنتظم نقله ص ١٩ من تعريف القدماء .

قال المصنف رحمه الله<sup>(١)</sup> : وقد كان يمكنه ألا يذبح رحمة ، فأما ما قد ذبحه غيره ، فأى رحمة بقيت في ترك أكله ؟  
وكانت أحواله تدل على إختلاف عقيدته .

وقد حكى لنا عن أبي زكريا أنه قال : قال لي المعري : ما الذي تحقّد ؟ — فقلّْتُ في نفسي اليوم أعرف اعتقاده — . فقلّْتُ : ما أنا إلا شاكٌّ ! فقال : هكذا شيخك .

وكان ظاهر أمره يدل على أنه يميل إلى مذهب البراهمة ( الهنود ) ، فإنهم لا يهرون ذبح الحيوان ، ويجحدون الرسل . قال ابن الجوزي :  
وقد رماه جماعة من العلماء بالزندقة والإلحاد . وذلك أمره ظاهر في كلامه وأشعاره ، وأنه يرد على الرسل ، ويعيب الشرائع ويجحد البعث . « .

قال ابن الجوزي<sup>(٢)</sup> : « ونقلت من خط أبي الوفاء ابن عقيل قال : من العجائب أن المعري أظهر ما أظهر من الكفر البارد الذي لا يبلغ منه مبلغ شبهات الملحدين ، بل قصر فيه كل التقصير ، وسقط من عيون الكل ، ثم اعتذر بأن لقوله باطنا ، وأنه مسلم في الباطن ، فلا عقل له ولا دين ، لأنه تظاهر بالكفر وزعم أنه مسلم في الباطن . وهذا عكس قضايا المنافقين والزندقة ، حيث تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر . فهل كان في بلاد الكفار حتى يحتاج إلى أن يبطن الإسلام؟! . « .

قال المصنف ( ابن الجوزي ) رحمه الله : وقد رأيت للمعري كتاباً سمّاه « الفصول والغايات » يعارض به السور والآيات . وهو كلام في غاية الركة . والبرودة . فسبحان من أعمى بصره وبصيرته . وقد ذكره على حروف المعجم في آخر كلماته . فمما هو على حرف الألف :

« طوبى لركبان النعال ، المعتمدين على عصا الطلح ، يعارضون الركائب في الهواجر والظلماء ، يستغفر لهم فحش القمر وضياء الشمس . وهنيئاً لتاركى التوق في غيطان الفلا ، يحوم عليها ابن دأية ، ويطيف بها السرحان . وشتان أوارك ثرة الألبان ، وأخرى لبنها أفقد من لبن العطاء . « .

(١) ابن الجوزي .

(٢) عن المنتظم ، ص ١٩ — تعريف القدماء بأبي العلاء .

قال ابن الجوزى : وكله على هذا التمثيل الباردا (١) .

قال ابن الجوزى : وقد نظرت في كتابه المسمى لزوم ما لا يلزم وهو عشرة مجلدات وحدثني ابن ناصر عن أبي زكريا عنه بأشعار كثيرة . فمن أشعاره :  
إذا كان لا يحظى برزقك عاقلٌ وترزق مجنوناً وترزق عاقلاً  
فلا ذنب يارب السماء على امرئٍ رأى منك ما لا يشتهي فترندقا »

والبيتان المذكوران ليسا في ديوانيه سقط الزند واللزوميات ، وربما سقطا من نسخهما أو إنتحلا عليه لثبوت اتهام الكفر والزندقة . وقد أورد ابن الجوزى أبياتاً أخرى غير واردة في الديوان كقول ابن الجوزى : وله :

فلا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زور سطره  
وكان الناس في عيش رغيد فجاءوا بالخال فكشروه  
حقاً لقد جاء في اللزوميات بعض أبيات يقترب معناها من هذا القول من  
مثل (١) :

هفت الخيفة والنصارى ما اهدت ويهود حارت والجوس مزللة  
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، ودين لا عقل له  
ولكن شتان بين مضمون هذين البيتين والبيتين السابقين ، فالأخيران لا يفهم منهما هذا التصريح الذى يتضمنه البيتان السابقان . ويمكن تأويل البيتين الأخيرين بما لا يخرج الرجل من دينه أو يدينه بالإنكار .

ومعلوم أن الشيخ ابن الجوزى واعظ سنّى محدث ، وأن شيخه ابن ناصر السلامى محدث ، وأبو زكريا التبريزى كذلك ، وقد التقى بأبى العلاء ، ومعلوم كذلك عداوة المحدثين والفقهاء للفلاسفة ومناهجهم منذ ظهور حركة المعتزلة والمعركة التى دامت بين الفريقين طوال القرنين الثالث والرابع .

وربما كان القفطى أكثر اعتدالاً في الحديث عن أبى العلاء ، وإن ساق ما رُمى به من زندقة وإلحاد ، ولم يسلبه قدره في الأدب والشعر فقال : « كان حسن الشعر جزل الكلام ، فصيح اللسان ، غزير الأدب ، عالماً باللغة حافظاً

(١) التعريف ص ٢١ .

خا . ويذكر له من بديع شعره رثاءه لأحد أقاربه من فقهاء الحنفية والتي اشتهرت له :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح بك ولا ترثم شاد

وقال فيما نقل عنه في عبارات معتدلة : « وكان يترهد ، ولا يأكل اللحم ويلبسُ خشن الثياب . وصنف كتابا في اللغة ، وعارض سوراً من القرآن وحكى عنه حكايات مختلفة في اعتقاده حتى رماه بعض الناس بالإلحاد . »  
ومهما يكن موقف العلماء على اختلاف اتجاهاتهم من فكر أبي العلاء وشعره وما يتضمنه ذلك الشعر أو أدبه بصفة عامة من آراء واتجاهات تدل على سعة علم وتبحر فإن الرجل يظلُّ عالماً من أعلام الأدب العربي عامة وفي هذا القرن الخامس عصر الدولة الفاطمية خاصة .

وقد أهلتته دراسته للتزوّد بالعلوم ، فقد روى أنه «عندما بلغ سنّ الطلب أخذ العربية عن قوم من بلده ، كبنى كوثر أو من يجرى مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته . وقيد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً ، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك فرحل إلى طرابلس الشام ، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذوو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللادقية ، ونزل دير الفاروس وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أوائل أقوال الفلاسفة ، حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال ، وضاق عطفه عن كتابان ما تحمله من ذلك حتى فاه به في أول عمره ، وأودعه أشعاراً له ، ثم ارعوى ورجع ، واستغفر واعتذر ووجه لأقواله وجوهاً احتملها التأويل . »<sup>(١)</sup> .

ذكر هذا القفطي ، وحكاية الراهب وأثره في فكر أبي العلاء حملها بعض الدارسين كثيراً ، وبالغوا فيما أخذه أبو العلاء عن الراهب النصراني باللادقية ، ولم يكن لقاء العلماء المسلمين ولا الأدباء غريباً في العالم الإسلامي الذي انتشرت فيه الرهبة ، وتعددت الأديرة في بلاد المشرق ومصر على السواء ، وليس خافياً ما كان يحتفظ أولئك الرهبان من كتب الأوائل من فلاسفة اليونان

(١) أنباه الرواه — عن التعريف بأبي العلاء . ص ٣٠ — ٣١ .

وعلمائهم . وقد أفادوا من تلك الكتب والفلسفات في علوم اللاهوت عندهم . وكانت هناك لقاءات ومحاورات في هذا العصر الفاطمي بين بعض رهبان النصارى وعلماء المسلمين على ما بيننا من ذلك الحوار الذي حدث بين أبي القاسم الحسين بن علي الوزير المغربي والمطران النصراني . وعلمنا ما كان في عصر الفاطميين وفي ظل دولتهم من حرية الأديان والسماح للنصارى واليهود بممارسة شعائرهم والمشاركة في الحياة العامة على قدم المساواة مع المسلمين حتى إن كثيراً منهم قد ولي مناصب هامة في الدولة .

وفي ظل تلك الحرية الدينية لا نعجب من حدوث لقاءات فكرية ، وتأثير وتأثر من كلاجانين إيجاباً أو سلباً . ولا شك أن في أدب المعري آثاراً واضحة على معرفته بكثير من أقوال النصارى واعتقاداتهم إلى جانب إمامه الواضح بعلوم الفلسفات المشرقية والغربية على سواء . وليس ذلك بمستغرب على أبي العلاء ذي العقل الطلعة إلى العلم ، والذي لم يشغله عن المعرفة مشاغل السعي للحصول على العيش أو بلوغ منصب أو جاه ، بل تفرغ تماماً لتحصيل المعرفة من كل مورد ، ومنهل .

عرف أبو العلاء بقوة العارضة والمقدرة الفائقة على الحفظ ، مع الذكاء المفرط ، ودقة الملاحظة لما ينمى إلى سمعه من قول أو حركة . وقد ساعده هذا كله على استيعاب ما حوله والإحاطة بما يدور في الحياة والمجتمع في عصره .

ويحكى السمعاني عن مقدرته على الاستيعاب لما يسمع رغم عدم معرفته بلغة المتكلم نادرة تقول إنه سمع اثنين يتكلمان بلغة أذربيجان ، منهما واحد من جلسائه ، فلما فرغا من الحديث سأل المعري صاحبه : أى لسان هذا ؟ قال : هذا لسان أهل أذربيجان . فقال : ما عرفت اللسان ، ولا فهمته غير أنى حفظت ما قلتما . قال الرجل : ثم أعاد لفظنا بلفظ ما قلنا<sup>(١)</sup> .

ويروى من قوة ذاكرته إلمامه بأسماء ما قرأ واطلع عليه من الكتب ووعيه بمحتوياتها. روى القفطي أنه « حضر خزانة الكتب التي بيد عبد السلام البصرى ، وعرض عليه أسماءها فلم يستغرب فيها شيئاً لم يره بدور العلم بطرابلس سوى ديوان « تيم اللات »<sup>(٢)</sup> .

(١) الأنساب للسمعاني - نقله التعريف ، ص ١٤ .

(٢) التعريف ص ٣٣

وروى كذلك أن رجلاً منهم وقع إليه كتاب في اللغة سقط أوله ، وأعجبه جمعه وترتيبه ، فكان يخمله معه ، ويحجج ، فإذا اجتمع بمن فيه أدب أراه إياه ، وسأله عن اسمه واسم مصنفه ، فلا يجد أحداً يخبره بأمره . واتفق أن وجد من يعلم حال أبي العلاء ، فدلّه عليه ، فخرج الرجل بالكتاب إلى الشام ، ووصل إلى المعرّة ، واجتمع بأبي العلاء ، وعرفه ما حاله ، وأحضر الكتاب ، وهو مقطوع الأول ، فقال له أبو العلاء : إقرأ منه شيئاً ، فقرأه عليه . فقال له أبو العلاء : هذا الكتاب اسمه كذا ، ووضعته فلان . ثم قرأ عليه من أول الكتاب إلى أن وصل إلى ما هو عند الرجل . فنقل عنه النص ، وأكمل عليه تصحيح النسخة . وانفصل إلى اليمن فأخبر الأدباء بذلك . وقد قيل إن هذا الكتاب هو « ديوان الأدب » للفارابي اللغوي « (١) .

واتصل أبو العلاء المعري ببعض علماء عصره ، وكبار أدبائه ، فذهب إلى بغداد عاصمة الفكر سنة ٣٩٨ هـ وهي مركز الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ولقى بها الربيعي اللغوي ، ولم يلق منه قبلاً ، فتركه ، واتصل بالشريف الرضي وجرى ذكر المتنبي في مجلس من مجالسه ، وكان الشريف لا يجب المتنبي على عكس أبي العلاء الذي كان يقدمه ويجلّه ، واختلفا حوله ، ولم تطل صحبة أبي العلاء للرضي على ما كان يعرف عنه من حبه للعلم والعلماء ، والأدب والأدباء .

واستقر أبو العلاء في المعرّة منذ سنة ٤٠٠ هـ . قال (٢) : « لزمْتُ مسكني منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوفر على تسييح الله وتحميده ، إلا أن اضطرب إلى غير ذلك فأملت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن هاشم — أحسن الله معونته ، فألزمني بذلك حقوقاً جمّة ، وأيادي بيضاء ، لأنه أفتى فيّ زمنه ، ولم يأخذ عمّا صنّعتُ منه ، والله يحسنُ له الجزاء ، وبكفيه حوادث الزمن والأرزاء » .

وظل في معرّة النعمان يملئ كتبه ، ويدرس ، وينظم الشعر ، حتى علا صيته وسار في الآفاق ذكره ، وقصده الطلاب من المشرق والمغرب ، وكان من

(١) التعريف ص ٣٤ .

(٢) إرشاد الأدب — التعريف ص ١٠١ .

تلاميذه جماعة من مشهورى العلماء والأدباء من أمثال أبى زكريا التبريزى ، وابن سنان الخفاجى الحلبى . وأجله أمراء المنطقة وحكامها ، وتقربوا إليه ، وبعث إليه المستنصر الخليفة الفاطمى فى مصر ليقدم إليه المال ليعينه على الحياة ، وعلى نفقاته .

روى ياقوت (١) : أن المستنصر صاحب مصر بذل لأبى العلاء ما يبيت المال بالمعرة من الحلال فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

كأنا غانة لى من غنى      فعدّ عن معدن أسوان  
سرت برغمى عن زمان الصبا      يُعجلنى وقتى وأكوانى  
صدّ أبى الطيب لما غدا      منصرفاً عن شعب بوان

وأشار إلى بلاد غانة فى أفريقيا لشهرتها بكثرة معدن الذهب بها فى زمنه وكذلك أسوان بوجود معادن الزمرد والذهب ، وكان الفاطميون يستغلون مناجمها فى الحصول على حاجتهم من هذين المعدنين النفيسين فيما شيدوا من قصور ، وتزينوا به من حلى ، وما جمعوا من أموال وكنوز .

وعزف أبو العلاء عما قدّم إليه وعرضه المستنصر لزهده وإعراضه عن مباحج الحياة ، فقد كان الزهد فى الدنيا فلسفة ارتضاها لنفسه حتى إنه حرّم عليها ما أحل الله من متع وزينة ، ومطاعم .

#### مؤلفات المعرى :

أتاح تفرغ المعرى له الوقت للدرس والتأليف ، فأخرج عديداً من المؤلفات تنوع بين الرسائل ، والكتب الأدبية الجامعة ، وكتب النقد والتراجم الشعرية ، والكتب اللغوية ، والشعر الوجدانى ، وشعر المناسبات ، والشعر الفلسفى .

ويذكر ياقوت فهرست كتبه ، وأولها الفصول والغايات ، وهو من شعر (٢) الزهد . قال : « فمن ذلك الكتاب المعروف بالفصول والغايات ، والمراد بالغايات القوافى ، لأن القافية غاية البيت ، أى متناه . وهو كتاب موضوع

(١) المصدر نفسه ٩٩ .

(٢) الكتاب مجموعة من الخواطر والنظرات ، مسجوعة فيها الزهد والآداب والمواعظ والفلسفة والدين .



على حروف المعجم ما حلا الألف . وفيه فنون كثيرة من هذا النوع .  
وقيل إنه بدأ بهذا الكتاب قبل رحلته إلى بغداد . وأتمه بعد عودته إلى المعرة «  
وكتاب « السادن »<sup>(١)</sup> : وهو في ذكر غريب هذا الكتاب ، وما فيه من  
اللمغز .

وكتاب « إقليد الغايات » : لطيف مقصور على تفسير اللغز . مقداره عشر  
كراريس .

والكتاب المعروف « بالأيك والغصون » . وهو كتاب الهمزة والردف ،  
يبني على إحدى عشرة حالة الهمزة على حال أفرادها وإضافتها .  
والكتاب المعروف بـ « تضمين الآي » .

وكتاب « سيف الخطبة » : جزآن يشتمل على خطب السنّة ، فيه خطب  
للجمع والعديد ، والخسوف والكسوف ، والاستسقاء ، وعقد النكاح .  
وهي مؤلفة على حرف من حروف المعجم ، فمنها خطب عمادها الهمزة ،  
وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ... وهكذا .

ومن مؤلفاته : « سجع الحمام » ، يتكلم فيه على لسان حمام أربع . وكان  
بعض الرؤساء سألته أن يصنف له تصنيفاً يذكره فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ،  
وجعل ما يقوله على لسان الحمامة في العظة والحث على الزهد . قال غيره : هو  
أربعة أجزاء ، مقداره ثلاثون كراسة<sup>(٢)</sup> .

وديوان « لزوم ما لا يلزم » ، وهو في المنظوم . بني على حروف المعجم ،  
يذكر كل حرف سوى الألف بوجوه الأربعة ، وهي الضمة والفتحة  
والكسرة ، والوقف . ومعنى لزوم ما لا يلزم أن القافية يُردد فيها حرف لو غُيّر  
لم يكن مغلاً بالنظم ، كما قال كثير :

خليلي هذا ربعُ عزةٍ فاعقلا      قلو صيكمَا ثم انزلا حيثُ حلتِ  
فلزم اللام قبل التاء ، وذلك لا يلزمه .

(١) التعريف ص ١٠٢

(٢) ياقوت - نقله بالتعريف ، ص ٤

ويحتوى على أحد عشر ألف بيت من الشعر<sup>(١)</sup> .

وكتاب : « زجر النابح » يتعلق بلزوم مالا يلزم . وذلك « أن بعض الجهال مبهكّم على أبيات من « لزوم مالا يلزم » ، يريد بها التّشهير والأذية ، فألزم أبا العلاء أصدقائه أن ينشئ هذا فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره .

وكتاب : « ملقى السبيل » صغير فيه نظم ونثر .

وديوان « سقط الزند » قاله في مطلع حياته ، وأبياته ثلاثة آلاف بيت وكتاب يعرف بـ « جامع الأوزان » فيه شعر منظوم على معنى اللّغز يعمّ الأوزان الخمسة عشر التي ذكرها الخليل بجميع ضروبها ، ويذكر قوافي كل ضرب من ذلك<sup>(٢)</sup> .

وكتاب يعرف بـ « السجع السلطاني » يشتمل على مخاطبات للجنود والوزراء وغيرهم من الولاية . وكان بعض من خدم السلطان وارتفعت طبقته ، ولا قدم له في الكتابة سأل أن يُنشأ له كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، وهو لا يشعر بما يريد ، لقلّة خيرته بالأدب ؛ فألف له هذا الكتاب . وهو أربعة أجزاء .

وكتاب يعرف « بذكرى حبيب » في غريب شعر ألى تمام ، سأل فيه صديق لأبى العلاء من الكتّاب . وهو أربعة أجزاء .

وكتاب « عبث، الوليد » فيما يتصل بشعر البحترى . وكان سبب إنشائه أن بعض الرؤساء أنفذ نسخة ليقابل له بها ، فأثبت ما جرى له من الغلط ، ليعرض ذلك عليه . وهو جزء واحد .

وكتاب يعرف بـ « الرياشى المصطنعى » في شرح مواضع من الحماسة الرياشية عمل لرجل يلقب بمصطنع الدولة ، ويخاطب بالإمرة واسمه كليب بن على ، ويكنى أبا غالب . أنفذ نسخة من الحماسة الرياشية ، وسأله أن يخرج على حواشيا شيئاً لم يذكره أبو رياش مما يُحتاج إلى تفسيره ، فخشى أن تضيق

(١) المصدر نفسه ص ١٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٦ .

الحواشي عن ذلك ، فألف هذا الكتاب ، وجمع فيه ما سنع مما لم يفسره أبو رياش<sup>(١)</sup> .

وكتاب « شرف السيف » عمل للقائد أنوشتكين اللزهرى أمير الجيوش حاكم الشام في عصر الظاهر ابن الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٤١٩ هـ والمتوفى بحلب سنة ٤٣٣ هـ . وكان السبب في عمله أنه كان يوجه إلى أبي العلاء بالسلام ويخفي المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل<sup>(٢)</sup> .

وله مجموعة من الكتب المتعلقة باللغة والنحو هي :

« تعليق الجليس » يتصل بكتاب الجمل للزجاجي ، وكتاب « اسعاف الصديق » متعلق به كذلك

وكتاب « قاضي الحق » على كتاب أبي جعفر النحاس المعروف بـ « الكافي » .

وكتاب « الخير النافع » مختصر في النحو . وكتاب آخر في النحو متعلق به يعرف بـ « الطلّ الطاهري » ألفه لمن يعرف بأبي طاهر الحلبي . وكتاب في النحو يتصل بكتاب الظهير العضدى .

وكتاب في الرسائل الطوال فيها « رسالة الغفران » .

وكتاب « خطب الخيل » يتكلم فيها على ألسنتها ، ومقداره عشرة كراريس .

وديون رسائل . وهو ثلاثة أقسام : الأول رسائل طوال تجرى مجرى الكتب المصنفة مثل كتاب « رسالة الملائكة » ، و « كتاب الرسائل السندية » . وكتاب « رسالة الغفران » ، وكتاب « رسالة الغرض » ونحو ذلك .

والثاني رسائل دون هذه في الطول مثل كتاب « رسالة المنيح » وكتاب « رسالة الإغريض » والثالث كتاب « الرسائل القصار كنحو ما يجرى به العادة في المكاتبه قيل إنه أربعون جزءاً »<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٢) التعريف بأبي العلاء ص ١٠٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١١ .

وكتاب « خادِم الرِسا ئل » في تفسير ما تضمنته هذه الرسائل مما يحتاج إليه المبتدئون في الأدب .

وكتاب « اللامع العزيزى » في تفسير شعر المتنبي عمل للأمير عزيز الدولة وغرسها ابن تاج الأمراء أبى الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس . من أمراء بنى مرداس أصحاب حلب في القرن الخامس في عصره .

وهذا بعض ما اشتهر من كتبه ، وهو قليل من كثير (١) .

وما يهنا هنا هو أبو العلاء الشاعر ، وما قاله من الشعر . وشاعرية أبى العلاء لأمرء فيها ، فقد اعترف بها العلماء قديماً وحديثاً ، ووجدوا في شعره شيئاً جديداً لم يكن عند غيره من الشعراء من حيث البناء والصور والأخيلة والأساليب والموسيقى ، واستخدامات الألفاظ ، وفي المضامين ، وما احتواه من المعاني الجديدة الجريئة ، التي قد تبلغ حدَّ الشطط والخروج عن المتعارف والمألوف .

ولم يذهب أبو العلاء بشعره مذاهب غيره من الشعراء ، فلم يجعله وسيلة للكسب ولا أداة للحصول على الماء من أصحاب السلطان والجاه ، فلم يقصد به واحداً من هؤلاء ولم يسترشد خليفة أو أميراً . قال الذهبي (٢) : « لو تكسب بالشعر والمدح لنال دنيا ورئاسة » .

وقال ابن النديم : « ذكر أبو العلاء في مقدمة « سقط الزند » أنه لم يكن من طلاب الرفد والصلة ولم يمدح إلا اليسير من الناس في صدر عمره ، قبل انقطاعه عن الناس ، ولم يمدح لعطاء ولا نائل ولم يقبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع » (١) .

وذكر أبو العلاء صراحة في شعره أنه لم يدنس نفسه بالاستجداء (٣) ، قال :

أخواننا بين الفراتِ وجَلَقِ      يَدَ اللَّهِ لا خَيْرَ تُكْمُ بِمِحَالِ  
أُنْبِكُمْ أَنَّى عَلَى الْعَهْدِ سَالِمٌ      وَوَجْهِي لَمَّا يُسْتَأَلُ بِسْوَالِ

(١) راجع مجمل فهرست كتبه في ترجمة ياقوت له بمعجم الأدباء .

(٢) سقط الزند ١ / ٢١ — وتاريخ ابن النديم ٤ / ١٥٣ .

(٣) راجع أبو العلاء ولزومياته للدكتور كمال اليازجى ص ٢٨ .

وبهذا فقد تخلص شعر أبي العلاء من آفة من آفات الشعر العربي ، وبخاصة في تلك العصور أعنى آفة التكبُّب بالشعر ، لأنها تُدخل على هذا الفن كثيراً من الزيف ، والتدني بالفكر والفن والروح الإنسانية الرفيعة التي كرمها الله لتبدع . ومن هنا خلا شعره من كثير من أصداف القول وبهرجه مما يتعلق بالملق ، وكييل الصفات لغير موصوف بها ، والتعريض بالطلب وبذل ماء الوجه ، والتدني ، وتحقير الذات بذكر الحاجة واستجداء المال لسدِّ الرمق ، والتغلب على عناء الفقر . أو الرغبة والطمع ، والجرى وراء زخرف الحياة ، وطلب الاستمتاع بملاذها في كنف من يملكون الدنيا ، غضباً ، أو سعيًا غير محرر من دنايا وأثام ، وسلوك دروب تأباها الشيم الكريمة وتعف عنها النفوس الأبية .

واستعاض أبو العلاء عن رفق المال برفد العلم ، فاستزاد منه ورحل في سبيل تحصيله ، وقصده بشعره ، وجعله موضوعه الذي يشغل أبياته وقوافيه على اختلاف أنواعه ودرجاته .

وهكذا كانت رحلاته كما يقول في سبيل المعرفة لا لطلب المال قال : « وأحلف ما سافرتُ أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم » وذلك في تبرير رحلته إلى بغداد ، وجاء في رسالة بعث بها إلى أهل المعرة إثر عودته إلى بلده من بغداد (١) .

والمأمل في شعره عامة وفي « سقط الزند » و « اللزوميات » خاصة يلاحظ غلبة الموضوعات التقليدية على ديوان « سقط الزند » الذي نظمته في مطلع حياته ، ففيه مدح بعض السادة ، وأعيان القوم وبعض الشيوخ من العلماء ، ومن عقدت بينه وبينهم أواصر ما ، كما نلمح بعض صور حياته ووصف أحواله وتقلباته ، ورثاء بعض أقربائه ومعارفه ، وهو في هذا الديوان يتناول معاني موضوعات الشعر تناولاً تقليدياً أحياناً ، يسترجع كثيراً من صياغات القدماء وتعبيراتهم ، فيوردها أحياناً سافرة ، وأحياناً يلفها بخمبار من اللفظ الغريب ، أو يدخل عليها بعض حلى البديع ومحسناته . وأما في اللزوميات فقد اتخذ لنفسه نهجاً آخر حيث نظم قصائده في محبسه وقد اعتكف ، واعتزل

(١) رسائل أبي العلاء ص ٣٤ .

الناس ، وألزم نفسه في الشعر ما ألزم جسده في الحياة من نظام قاسم ، صارم . وقد غلب عليه المفكر المجرد في قضايا الحياة والموت ، والكون والفساد ، والعقائد والديانات . كما ألزم نفسه اجتهادات في الصياغة والتعبير يصعب على القارئ العادي فهم معانيها .

### ديوان سقط الزند :

ذكر الرواة والعلماء الذين أُرخوا له أنه نظم الشعر حديثاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره<sup>(١)</sup> . « ومهما يكن فقد نظم الشعر في سنّ الحداثة ، ولم ينقطع عن النظم أثناء رحلاته العلمية ولكنه نظم أكثر شعر شبابه في الفترة التي قضاها في المعرفة بين رحلتيه الشامية والعراقية . وهو جُل ما في ( سقط الزند ) »<sup>(٢)</sup> .

وعده كثير من العلماء والنقاد بارعاً في الشعر . وتنجلي براعته في هذا الديوان فيما تمثله من الشعر القديم ، والمعارف اللغوية ، والتاريخية والدينية ، وحفظه للقرآن الكريم ، وتوظيف هذا كله في فنه الشعري من حيث بناء القصيدة ، وصياغة المعاني ، وبناء عباراته ، وتشكيله للفظ في مقدرة قد تبدو للقارئ إغراباً وخروجاً على نهج الشعراء السابقين .

### بناء القصيدة :

ويبنى أبو العلاء قصيدته الشعرية في « سقط الزند » البناء التقليدي في شكله العام أي يبدأ القصيدة بالغزل ، لكن هذا الغزل ليس كغزل الجاهليين ، ولا الإسلاميين ولا حتى المحدثين أصحاب البديع ، أو أصحاب طريقة العرب . بل يبدو في غزله صاحب اتجاه جديد في معانيه وبنيتها ، وإن لم يخرج عن الإطار العام ، أو عمود المعاني في الغزل . ونضرب مثلاً بقصيدته الثانية في الديوان . يقول :

يا ساهِر البرق أيقظ راقِد السَّهْرِ      لعل بالجزع أعوانا على السهر  
وإن بخلت عن الأحياء كلهم      فاستقِ المواطرَ حياً من بنى مطرٍ

(١) راجع التعريف فيما جاء من ترجمته عن ياقوت ٣ / ١٠٨ ، والنهبي ١٣٠ ، وابن خلكان ٤٧ / ١ .

(٢) راجع كتاب « أبو العلاء ولزمياته » للدكتور كمال اليازجي ، ص ٥٦ ، طبع دار الجيل بيروت .

ويا أسيرة حجلها أرى سفها  
 ما سرتُ إلا وطيف منك يصحيني  
 لو حطَّ رحلي فوق النجم رافعه  
 يودُّ أن ظلامَ الليل دام له  
 لو اختصرتم من الإحسان زرتكم  
 أبعد حول تناجي الشوق ناجية  
 كم باتَ حولك من ريم وجازية  
 فما وهبت الذي يعرفن من خلتني  
 وما تركت بذات الضال عاطلة  
 قلدت كل مهارة عقد غانية  
 ورب ساحب وشيء من جازها  
 حسنت نظم كلام توصفين به  
 فالحسن يظهر في شئين رونقه

حمل الحلي لمن أعيأ عن النظر  
 سرى أمامي وتأويبا على أثري  
 ألفت ثم خيالا منك منتظري  
 وزيد فيه سواد القلب والبصر  
 والعذب يهجر للإفراط في الحصر  
 حملا وتحن على عشر من العشر  
 يستجديانك حسن الدل والحور  
 لكن سمحت بما ينكرون من ذر  
 من الطباء ولا عار من البقر  
 وفزت بالشكر في الآرام والعفر  
 وكان يرقل في ثوب من التوبر  
 ومنزلا بك معمورا من الحفر  
 بيت من الشعر أو بيت من الشعر

وهذا المطلع الغزلي كما نرى مصنوع صنعة عقلية ، استن فيه أبو العلاء سنة  
 بعض من سبقوه من الشعراء ، واستخدم أساليبهم الفنية ، وأضاف إليها ميلا  
 ذاتيا إلى قدر من رياضة العقل في التعبير عن المعنى بترويض اللغة أو محاولة  
 إخضاع اللغة لهذا اللون من اللغز التعبيري إذا صح التعبير .

وبمراجعة معاني أبي العلاء في هذه الأبيات نجده لا يخرج تقريبا عن معاني  
 الغزل التقليدية ، أو المعروفة المتداولة بين الشعراء منذ القدم . فالحديث عن  
 سهر الليل ، والشوق والتفكير في المحبوبة ، والدعاء للأيام الجميلة الماضية التي  
 قضياها في مكان المنزل ، الدعاء لها بالخير والسقيا ، والتذكر للحبيبة على  
 البعد ، ومصاحبة طيفها للمحب الشاعر. أينا ذهب ، وتمنيه أن يطول الليل  
 حتى تطول ملازمة الطيف ، ولا يفارقه بطلوع النهار ويقظته . وتذكر هذا  
 كله بعد مرور حول من الزمان .

ووصف المحبوبة بالريم ، والبقرة الوحشية في الدل ، وجمال العيون .  
 ولكن هذه المعاني القديمة الجارية في الغزل ، ظهرت في صياغة أبي العلاء ،  
 وكأنها معاني جديدة لما أدخل عليها من ضروب اللغز في التعبير ، والتعقيد الذي

يجرى فيه على طريقة أبى تمام من الإيغال فى الاستعارة ، وتداخل التراكيب بحيث تتعاضل المعانى . فأى معاطلة أكثر من قوله فى هذا المطلع :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر      لعلّ بالجزع أعوانا على السهر  
وإن بخلت عن الأحياء كلهم      فاسق المواطر حياً من بنى مطر

فهو يريد أن يقرن بين السهر والدعاء بالسقيا ، أى بين معاناة المحب بالسهر من فرط التفكير والشوق ، والدعاء لأهل المحبوب وحيه بالخير . ساق هذين المعنيين أو سلكتهما معاً مسلكتاً متراكباً ، أو متراكماً ، أو متولداً بعضه من بعض .

واستخدم « الجزع » وهو اسم لمكان يكثر فى شعر الجاهلين ومن تبعهم ، وبنى مطر إسم حتى ، وهو اسم رمزى ، وليس اسماً حقيقياً ، فاستخدم اسم المكان ، واسم الحى رمزى على ما تعارف عليه الأقدمون ، أو هو استخدم هذين اللفظين ليثير معنى ما أراده القدماء ، ولم يأت هو بمجديد ، فهو مجتزئ مختزنة من الشعر فى هذا التعبير ، ويخرجه فى صورة من هذه الصياغة أو المعرض العلائى .

والأشدُّ معاطلة هذا البيت الثالث الذى يريد ببساطة أن يعبر عن معنى جمال حجلها فى ساقها فجاء بهذه الصياغة :

ويا أسيرة حجلها أرى سفها      حمل الحلى لمن أعيا عن النظر

وقد اعتاد الشعراء وصف ساق المرأة بالامتلاء ، حتى يضيق عنها الحجل فعبر عن ذلك بأن ساق الحبيبة أسرتا حجلها ، ورمى من لا يقدر جمال الحجل فى الساق بأنه عى النظر لا يقدر الجمال ، فيصبح من قبيل الشفه التجميل بالحجل لمن لا يقدر قيمة جماله بالنظر .

أرأيت كيف شق أبو العلاء على نفسه ، وشق بالضرورة على الناس ؟ فى تذوق شعره فضلاً عن فهمه .

ومن لوازمه فى هذا المطلع ما يغلب عليه من المبالغة ، والشطط فى الخيال فى قوله :

لو حط رحلى فوق النجم رافعه      ألفت ثم خيالاً منك متظري



وهي مبالغة لا تجدى في إضافة لمحة من الجمال ، بل قد تزرى بالمعنى ولا تجمله .

وكذلك قوله :

يودُّ أن ظلام الليل دام له      وزيد فيه سوادُ القلب والبصر  
وأين هذا من قول بشار الذي أحسب أنه أراد الاستعانة به ، وتقليده ولكنه جاء تقليداً نائياً ، ومجازة غير مقبولة ولا مستساغة ، فسواد القلب ، ليس مما يزيد الليل طولاً ، وهو نقطة سوداء أو حبة سوداء فيما يعتقد القدماء ، ولا وجود لها في حقيقة الأمر ، وسواد البصر إنسان العين . يقول بشار :

وودُّ الليلَ زيدَ إليه ليلٌ      ولم يُخلق له أيداً نهارٌ  
جفت عيني عن التغميض حتى      كان جفونها عنها قصار

وأراد أبو العلاء أن يُغرب فوقه في المحال ، أو في اللغز المعنى . وأين من هذا بيان بشار ، وجمال تعبيره ووضوحه .

وهكذا يمضى أبو العلاء في سائر القصيدة مُعمياً في لفظه وصوره باعثاً قارئه إلى الحيرة فيمن يتغزل بها ، يومه أول الأمر بأنه يتغزل في موجود شاخص ، فإذا به يكتشف أن أبا العلاء غرر به ، يدنيه من هذا الوهم الذي لفه فيه . من بداية القصيدة ، ويعدده عنه كلما مضى مسترسلاً في قراءة أبياتها .

فإذا هذه التي يتغزل بها قريحته ، أو موهبته الشعرية التي تجسد له الجمال في بيت من الشعر ، يدنيه منك بيت من الشعر .

بعد هذه المقدمة التي وضعها على الطريقة التقليدية ، إلا أنه صاغها بطريقته ، وسواء أكانت غزلاً أو نسيباً ، أو شيئاً آخر عمّا عنا ، فإنه ينتقل منه إلى المدح العادي في معانيه لكنه علائى الصياغة . حتى في هذه المرحلة المتقدمة من شعره في سقط الزند .

فقصائد سقط الزند ، وإن كانت سابقة على قصائده اللزوميات إلا أنها حوت كل خصائص شعر أبي العلاء ؛ صنعته الشعرية ، وأفكاره ، وعقائده وسلوكياته ، ومواقفه من الناس والحياة والكون والخلق .

وربما عثرنا في هذا الديوان على قصائد أكثر وضوحاً وقرباً من الواقع في معالجة بعض أمور الحياة ، وشئون الدنيا ، وتقلباتها التي مر بها الشاعر في هذه المرحلة من مبكر شبابه حتى كهولته .

فترى بعضاً منها في مناسبات ، وموضوعات مما اعتاده الشعراء كالمدح والثناء ، والشكوى ، والغزل والعتاب ، والحنين والوصف .

ومنه هذه القصيدة السائرة المشهورة له في رثاء فقيه حنفي :

غيرُ مجدٍ في مِلَّتِي واعتقادي      نوحِ بالكِ ولا تُرثِمُ شادي  
وشبيهُ صَوْتِ النعِيِّ إذا قِيــــــــــــــــسَ بصوتِ البشيرِ في كلِ نادى  
أبكتِ تلکمِ الحمامةُ أم غنــــــــــــــــتْ على فرعِ غصنِها الميادِ  
صاحِ هذه قبورنا تملأُ الرُحــــــــــــــــبَ ، فأينَ القبورُ من عهدِ عادِ  
خُفِّفِ الوطاءَ ما أظنُّ أديمَ الـ      أرضِ إلا من هذه الأجدادِ  
وقبيحُ بنا وقدِ قَدَّمَ العهــــــــــــــــدُ هوانَ الآباءِ والأجدادِ  
سِرٌّ إن اسطغيتِ في الهواءِ رويداً      لا إختيالاً على رُفاتِ العبادِ  
رُبَّ لحيدٍ قد صارَ لحداً مراراً      ضاحكاً من تراحمِ الأضدادِ  
ودفينِ على بقايا دفينِ      في طويلِ الأزمانِ والآبادِ  
فاسألِ الفرقدينِ عمنَ أحسأً      من قبيلِ ، وأنسا من بلادِ  
كم أقاما على زوالِ نهارِ      وأنارا . لمدلجِ في سوادِ  
تعبَ كلُّها الحياةُ فما أعجــــــــــــــــبُ إلا من راعبِ في ازديادِ  
إن حُزنا في ساعةِ الموتِ لأضــــــــــــــــفَ سُرورِ في ساعةِ الميلادِ  
خُلِقَ النَّاسُ للبقاءِ فضلتُ      أمةً يحسبونهم للتقــــــــــــــــادِ  
إنما يتقلُّونَ مِن دارِ أعما      لي إلى دارِ شقوةٍ أو رشادِ  
ضجعةُ الموتِ رقدةٌ يســــــــــــــــتريحُ الجسمُ فيها ، والعيشُ مثلُ السُّهادِ  
أبناتِ الهديلِ أسعدنَ أوعدنَ      نِ قليلِ العزاءِ بالإسعادِ  
إيه لله درُّكنَ فأتتنَ اللو      اتبي تُحسِنَ حفظِ الودادِ  
ما نسيتهنَّ هالكاً في الأوانِ الخــــــــــــــــالِ أودى من قبلِ هلكِ إبادِ  
يَدُ أُنَى لا أرتضى ما فَعَلــــــــــــــــتُنَّ ، وأطواقكنَ في الأجدادِ  
فتسألينَ واستعيرنَ جميعاً      من قميصِ الدجى ثيابِ جدادِ  
ثم غرَّبَنَ في المآتمِ وانذبــــــــــــــــنَ بشجرِ مع الغواني الخرادِ

حتى يصل إلى من رثى فيقول :

قصد الدهر من أنى حمزة الأوا      ب مؤلى حجي وخذن اقتصاد  
وفقيها أفكاره شيدن للتعما      ن ما لم يشده شعر زياد  
فالعراقي بعده للججاري قلبه      ل الخلاف سهل القياد  
وخطيباً لو قام لبين وحوش      علم الضاريات بر التقاد (١)  
راوياً للحديث لم يخوج المعسرورف من صدقه إلى الإسناد

لقد جعل المعرى من مناسبة رثاء الفقيه الحنفى موقفاً يبوح فيه بما يحمله في نفسه من أحاسيس تجاه العالم المحسوس والغيبى ، أو عالم الشهادة وعالم الغيب ، وأعمل فكره في الحياة والموت ، واتخذ من عناصر الوجود الحى رمز الحماسة التى تبكى الهديل ، وهى تتزنى للحياة ، فالحياة والموت يتعاقبان في المخلوقات ، يستقبل الخلق الجديد — الولادة — بالمسرة والفرحة ، ويودع الموت باللوعة والحسرة ، وساعة الفراق أشد وأكثر لذعاً فى النفس لأن الوليد مقبل جديد لم تمكن له العشرة والمعاشة والتألف فى النفوس وموت العزيز من الأحياء بعد إلف ومعاشة السنين حقيق بأن تجزع النفس له وتحس بالفقـد .

لقد كرس المعرى سقط الزند لموضوعاتٍ جارية فى الشعر العرى إلا أنه عاجلها من منظوره هو ، ورؤيته هو ، فبدت فيها ملامح العلائقية واضحة فى اللفظ والتراكيب والصور ، قد يلجأ إلى المعانى التقليدية أو يستعيد معانى شعر القدماء ، ومحفوظة منه كثير وفير ولكنه يجنح إلى الشعراء أصحاب المعانى ، يستعيد معانيمهم وصنعتهم ويضيف إليها من معرفته وثقافته وفكره .

ومن هنا قد تلتقى فى قراءتك لذعر سقط الزند بمعانٍ لأبى تمام والتمبى وهما الأيترن لديه ، لكن هذه المعانى تبدو أطيافاً ، بعد أن أعاد المعرى صياغتها بطريقته .

واستمد المعرى الرمز والتشابه فى اللفظ فى إغازه العقدى على ما سنيينه بعد .

(١) النقاد ضعاف الغنم .

حفل عصر أبى العلاء بقدر من الصراع السياسى والعسكرى جنباً إلى جنب مع الصراع الفكرى والدينى بين العرب المسلمين ، وبين العرب والعرب ، وبين المسلمين العرب والمسلمين الترك والروم وبين الفاطميين والعباسيين ، وبين المسلمين والروم .

وكانت الشام مسرحاً لمعظم هذه الصراعات .

وأدى هذا الصراع المتلاحم بين الديانات الإسلام والمسيحية ، بين المسلمين والروم والذى استعرت حذته فى عصره أدى به التساؤل عما فى هذا الصراع من دوافع ، ولم يقتل الانسان أخاه لعقيدته ، والأدبان إنما كانت لتأخى أبناء البشر والتراحم بينهم . فيقف هذا الموقف المتعادل بين الديانات الثلاث . هذا الموقف الذى بدا فى آراء مفكرى العصر واتجاهاتهم ، واتجاه بعضهم إلى التوحيد بينها كما رأينا عند رجال الصوفية ومفكرتهم ، وإلى التسامح الفكرى والدينى عند الفاطميين وتعرف أن هذا التسامح بين الديانات الثلاث : الإسلام والمسيحية واليهودية كان إتجهاً واضحاً فى سياسة الفاطميين . يقول أبو العلاء :

يا آل إسرائيل هل يُرجى مسيحكم هيهات قد ميز الأشياء من خُلبنا  
قلنا: أتانا، ولم يُصلب. وقولكم ما جاء بعد . وقالت أمة صُلبنا

فيعرض لشخص المسيح بين الديانات الثلاث ، وينتظر إلى ما سواها من القصائد وينظر فى أمر الخلاف بينهما نظر العقل ، فلا يفرق بينها ، ويراه عفاً متوارثة وشرائع فرضت على الأجيال عن الآباء والأجداد . يقول :

العقل يعجبُ والشرائعُ كلُّها خبيرٌ يُقلدُ ، لم يقسهُ قياسُ  
مُتمجِّسونَ ومُسلمونَ ، ومعشِرُ متنصِّرونَ ، وهائدونَ رسائِسُ  
وييوتُ نيرانَ تزارُ تعبداً ومساجدُ معمورةٌ وكنائِسُ  
والصَّابونَ يعظَّمونَ كواكباً وطباغُ كلُّ فى الشُّرورِ حبايسُ

ويقول مرة أخرى :

دينٌ . وكفرٌ ، وأنباءٌ تُقصُّ وفُرِّ قانٌ يُنصُّ ، وتوراةٌ ، وإنجيلُ  
فى كلِّ جيلٍ أباطيلٌ يُدانُ بها فهلُ تفرَّدَ يوماً بالهُدى جيلُ

ويرى بالتعطيل ، ويرى في الفروض الإسلامية مما ينفع الناس أولى بالاهتمام  
 كالزكاة والعمل الصالح والسلوك الخير لا في العبادات كالصوم والصلاة :  
 ما الخَيْرُ صَوْمٌ يذوبُ الصائمون به ولا صلاةً ، ولا صَوْفٌ على الجسد  
 وإنما هو ترك الشرِّ مطرَحاً ونفضك الصدر من غلٍّ ومن حسد  
 فالشر هو الذي ينبغي أن يقاوم ، ويقاوم بالدعوة إلى تخلص النفوس من  
 الحقد والحسد والدعوة إلى التآخي والمحبة .

ومن هنا ما لم تنه العبادات عن الشرِّ ، ولم تدع إلى الخير فلا جدوى منها :  
 ويقف موقفاً معتدلاً من عقائد الفرق الإسلامية ، فلا يرى رأى غلاة  
 الشيعة ويستنكر الخلاف بينهم وبين السنة المعتدلين ، ويأسف لانقسام العلويين  
 وظهور الخوارج ، ويحمل على مذهبهم الذي يتخذ العنف طريقاً إلى تحقيق  
 عقيدتهم ، ويعرض لشطحات الصوفية ، وممارساتهم فيسخر من حلقات  
 الذكر التي يعتقدونها منشدين راقصين . ولا يرى مبرراً للخلاف بين مذاهب  
 السنة الأربعة التي بلغ العداة بين أتباعها مبلغاً يثير التساؤل والاستنكار .  
 يقول :

أجازَ الشافعيُّ فقال شيئاً وقال أبو حنيفة لا يجوزُ  
 فضلُ الشيبِ والشبانُ منا وما اهتدت الفتاةُ ولا العجوزُ

وعنده أن رجال الدين هم أصل الخلاف وهم مُشعلوه ومُوججوه ،  
 فيحمل عليهم متهماً إياهم بالكذب والمراعاة ، وأنهم يصطنعون القراءة والوعظ  
 احتيالاً على الرزق ، ومن هنا بدعو الناس إلى عدم الركون إليهم ولا الثقة  
 بهم .

ويتناول بعض ما تحفل به عقول الناس من أساطير وخرافات أسسها أقوال  
 أنصاف العلماء في كتبهم عن جهل أو غفلة . ويحذر من الإسراف في الغيبيات  
 التي لا يملكون لها تحقيقاً . كأن يقول :

فأخشى المليك ، ولا توجد على رهب إن أئت بالجن في الظلماء خُشيتنا  
 وإنما تلك أخبارٌ مُلقفة لخدعة الغافل الحشوي حُوشيتنا

في كل من الحروف بالحركات الثلاث والسكون ، ولزوم بعض الحركات والحروف مع الروى .

ونظمه بعد عودته من بغداد أى بعد سنة ٤٠٠ هـ .

وأشار في المقدمة إلى الغايات التى استهدفها في الديوان قائلاً :

« وبعضها تذكير للناسكين ، وتنبية للغافلين ، وتحذير من الدنيا » .

ويلمح إلى هذه الغايات حيث يبرر عودته إلى النظم بعد إعراضه عنه بقوله : « لكثرة ما شاع في المجتمع من الكذب والسخف » .

وعليه فيكون قصده التحذير من شر الدنيا والحث على فعل الخير ، التماساً لشواب الآخرة<sup>(١)</sup> .

هذا من حيث المضمون ، ومن حيث الشكل فقد نعى على شعراء العصر مناهجهم وما أرتادوه من المعانى . قال في المقدمة : « وقد وجدنا الشعراء توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب ، وهو من القبائح ، وزينوا ما نظموه بالغزل وصفة النساء ، ونعوت الخيل والإبل وأوصاف الخمرة ، ونسبوه إلى الجزالة بذكر الحروب ، واحتلبوا أخلاف الفكر ، وهم أهل مقام وخفض في معنى ما ، يدعون أنهم يعانون من حث الركائب ، وقطع المفاوز ، ومراسى الشقاء » .

فهذه التقاليد الشعرية التى اعتنقها معاصروه صارت في رأيه أموراً لا ينبغي الأخذ بها ، والشعر أسمى من ذلك مكانةً ، فقد اتخذ لنفسه نهجاً يخالف مناهجهم وبخاصة في هذه المرحلة المتأخرة من حياته بعد بلوغه سن الأربعين وتجاوزها .

كان المعرى في الشباب وحتى الكهولة قبل عودته من بغداد إلى بلده يجرى على طريقة شعراء العصر بالقصد إلى المديح ، واتخاذ ما يتخذونه وسائل لارضاء الممدوح واحتلاب أخلافه — كما يقول — ليجود بأكثر ما يستطيع بعد هذا الإساس من كسب ودّه ، والتقرب إليه بالغزل ، وكيل صفات المدح نفاقاً ،

(١) راجع أبو العلاء ولزومياته للدكتور كمال اليازجى ، ص ٨٨ .

وذكر ما يلقاه في الوصول إليه من مشاق . وقد يعرض بالسؤال أحياناً يقول كمال اليازجي<sup>(١)</sup> :

« وقد جرى المعري هذا المجرى في شعر شبابه إلا أنه تحوّل عنه في عهد نضجه والذي حمله على أن يعود إلى النظم اعتقاده أنه يستطيع أن يحرر شعره من التقليد المبتذل ، وينزعه من الرذل الساقط ، ويطهره من الكذب الممقوت ، ولذلك جعل منه هدفاً أسمى ، جعله عظة للسامع ، وتنبها للغافل ، وتحذيراً من الدنيا كي يهتدى به الضالون ويسترشد به المترددون » .

فهل كان شعره في اللزوميات مجرد موعظة فيها تنبيه للغافل ، وتحذيراً من الدنيا ... إلخ كما جاء في قول الدكتور اليازجي ؟

الحق أن خطاب المعري الشعري في اللزوميات لم يكن مجرد موعظة ، بل كان إفضاءً بموقف اتخذه المعري من الحياة والناس بعد عودته من بغداد مركز الفكر والأدب والتوجه الحضاري والسياسي .

وعلى اختلاف الرأي في أسباب عودته من بغداد إلى المعرة بعد أن لقي فيها ما لقي من مواجهة مع بعض رجالها وعلمائها ، وما شهدته فيها من أمور لم تقع في نفسه موقعاً مريحاً . يقول في رسالته إلى أهل المعرة عن أسباب العودة : « وهو أمر سرى عليه بليل ... ليس بنتيج الساعة ، ولا ريب الشهر والسنة ولكنه غذى الحقب المتقدمة ، وسليل الفكر الطويل » .

يقول في الرسالة المذكورة :

« ... أما الآن فهذه مُناجاتي إياهم منصرفي عن العراق مجتمع أهل الجدل ، وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فأنقضت ، وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبتُ الدهر أشطره ، وجربتُ خيره وشره ، فوجدتُ أوفق ما أصنعه في أيام الحياة عزلة تجعلني من الناس كبارح الأروى من سائح النعام ، وما آلوثُ نصيحة لنفسي ولا قصرتُ في اجتذاب المنفعة إلى حيزي ، فأجمعت على ذلك ، واستخرت الله فيه بعد جلّائه على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزماً . وعدّه إذا تم رشداً . وهو أمر سرى عليه بليل ... وأحلف ما

(١) أبو العلاء ولزومياته .

سافرتُ أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم ، فشاهدتُ أنفس مكان لم يسعف الزمان بإقامتي فيه ، والجاهل مغالب القدر ، فلهيت عما استأثر به الزمان ... » حتى يقول : « ومحسنُ الله جزاءَ البغداديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا عليّ أموالهم عرضَ الجَدِّ ، فصارفوني غيرَ جدلٍ بالصفاتِ ولا هسُّ إلى معروفِ الأقوم ، ورحلتُ وهم لرحيلي كارهون ... » .

وتعلق الدكتورة بنت الشاطيء على الرسالة قائلة<sup>(١)</sup> :

« والرسالة صريحة » في الكشف عن مطاردة من نفسه لا من فقهاء بغداد أو غيرهم — طال عناؤه بها ، وتفكيره فيها حتى انسحب والقوم لرحيله كارهون » .

هذه الهموم النفسية هي التي أشرنا إليها من ممارسته عن قرب لصور الحياة ، وأحوال الناس في عاصمة الدولة ، ومركز الخلافة ، ولا شك أنه رأى على مستوى القيادتين السياسية والدينية ما لا يرضى عنه ، كما رأى من أحوال الناس واختلاط المفاهيم بينهم ما رأى ، وتملك الجهالة والشُّبه لكثير من عقول العلماء مما لم يرض عنه ، كذلك رأى أحوال الناس وانصرافهم إلى متع الحياة والتمسك بالدنيا دون القيم الرفيعة التي أرساها الإسلام وجاءت بها رسالة محمد بن عبد الله . يقول مخاطباً أهل بغداد :

وكان اختياري أن أموت لديكم      حميداً ، فما ألفتُ ذلك في الوسع  
فليت جِمامي حُم لي في بلادكم      وجالت رِمَامِي في رِياحكم المُسْع  
أفدونكم خفض الحياة فإننا      نصبنا المطايا بِالْقَلَاةِ على القطع

ألا نجد في هذا القول ترديداً لقول المتنبي في رفض الحياة الحضرية التي رأى فيها المتنبي خروجاً على التقاليد والقيم العربية التي أرساها الإسلام وثبتها ، ودعوة إلى العودة للبدو .

وهكذا ما أن استقر المعري في حلب حتى بدأ يسترجع ما لم يرض عنه مما

(١) أبو العلاء المعري من سلسلة الأعلام ، طبع الطبعة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٥ م ص ١٢٥ .



سمع أبو لامسَ في تلك المرحلة البغدادية خاصة ، والتي أوقعت في يقينه أن  
عصره شر العصور . يقول :

هل يغسل الناسَ عن وجه الثَّرى مطرٌ فما بقوا لم يُبارحْ وجهه دَنَسُ  
والأرضُ ليسَ بمرجُو طهارتها إلا إذا زالَ عن آفاقها الأَنسُ  
تناسلوا فمنا سرٌّ بنسَلِهِم وكم فجورٍ إذا شبَّانهم عَسُوا

ومن هنا وقف أبو العلاء من الحياة والناس والدين والفكر موقف الشكِّ  
والحيرة أهو شكُّ فلسفى ؟ ، أهو شكُّ وجودى ؟ ، أهو شكُّ عبثى ؟ ، أم  
هو مجرد احتجاج و غضبٌ لما رآه ولمسه من فسادٍ واختلاط ، أدى به إلى  
اليأس في الإصلاح والنظرة المتشائمة للحياة والناس .

ورأى الدكتور طه حسين لتعاطفه مع أبى العلاء ولمحاولته الدفاع عنه من  
وجهة نظره هو وقناعاته هو أن شكُّ أبى العلاء كان شكًّا إيجابياً . يقول (١) :

« إن أبى العلاء يصوّر في شعره شكًّا مَهْمًا يعنفُ فهو لا ينتهى بصاحبه  
إلى هذا التمرد الوقح الذى نجده عند كثير من الذين أسرفوا في الثقة بعقولهم ،  
وإنما ينتهى به إلى الخوف والإشفاق ، والغلو في الحذر ، والاحتياط للنفس ،  
والاجتهاد في الخير » .

ولعل طه حسين كان يستحضر صور بعض المتمردين من الشعراء والعلماء  
من دعاهم بأصحاب التمرد الوقح ، وربما كان بين هؤلاء بشار بن برد وأبو  
نواس وابن الراوندى ونعرف موقفه من بشار ، وأنه كان موقف غير الراضى .

ونلتقى في ديوان اللزوميات بهذه الرؤية الشاملة التى آرتها أبو الطيب في  
عصره قبل عصر أبى العلاء بقرن من الزمان إذ يقول :

أتى الزمانَ بنوه في شبيته فسرَّهم وأتيناهُ على الهرم  
ويقول :

أنا في أمة تداركها اللـ كصالح في ثمود

(١) مع أبى العلاء ص ١٨١ .

## شعر اللزوميات :

وديوان اللزوميات يلي ديوان سقط الزند ، وهو في مرحلة اعتزاله ، ونضجه يث فيه في هدوء فلسفته ويعرض موقفه من عصره ومجتمعه . لقد أقام في محبسه بالمعرة سنوات ، يعتزل الناس والناس لا يعتزلونه ، التقى به نفرٌ من علماء القرن الخامس في نصفه الأول ، وجمعت الصداقة بينه وبين جماعة من الأعلام في السياسة والعلم والأدب ، أمثال الوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن علي ووالده ، وشمس الدين الشيرازي داعي الدعاة ، وابن سنان الخفاجي تلميذه والشاعر الشامي المشهور ، ولقى الشاعر المعروف الدمشقي ابن حيوس وناظره في محسن الصوري والمنتبي ، وكان ابن حيوس يعرف كلف المعري بالمتبي .

ومر به جماعة من العراق كالشاعر صريع الدلاء .

وراسل المصريين ، واتصل بجماعة من رجال الفاطميين ، فقد كان قريباً منهم ، ودعى إلى مصر ، ولم تمكنه الرغبة في العزلة من الرحلة إلى مصر . ولا نستطيع أن نغفل علاقة المعري بالفاطميين على الرغم من عدم لقائه بهم ، ولكنه التقى برجالهم . وظهرت آثار الإسماعيلية واضحة في كثير من شعره وكتاباتة . لربما لم يصرح تماماً بفكره الإسماعيلي ، لأنه لم يعتقد فكراً معيناً ، إلا أنه كان يميل إليه ويتعاطف معه وأعجب لعبارة الدكتور طه حسين التي تقول :

« ولم يكن أبو العلاء يحب الفاطميين ، ولا يرضى عنهم ، بل لم يكن أبو العلاء يحب الشيعة عامة ، ولا من يتصل بهم من قريب أو بعيد ، فهو يعرض بالفاطميين ويهاجم الإسماعيلية والإمامية » .

ولا يأتي لنا بنص صريح في هذا التعريض أو الهجوم .

ولكننا ثبت لأبي العلاء قربه الفكري من الفاطميين وفكرهم الإسماعيلي ، والفكر الشيعي عامة بما روى عن حديث عن لقائه لأبي يوسف القزويني .

فقد حكى أنه قال يوماً لأبي يوسف : ما رأيت شعراً من مرثية الحسين بن علي يساوي أن يخط ، فقال القزويني : يلي فقد قال بعض أهل سوادنا :

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَضِيئِهِ  
وَالْمُسْلِمُونَ بِمَنْظَرٍ وَبِمَسْمَعٍ  
لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى فَنَاءِ يُرْفَعُ  
لَا جَاذِعَ مِنْهُمْ وَلَا مُتَفَجِّعُ

إلى آخر هذه الآيات .

فقيم يكون سؤال المعري واستنكاره ؟ لو أنه لم يكن من شيعة الحسين ابن  
على ، أو من يحبونه ويجلونه ويرفعونه إلى مقام رفيع لا يرى أحداً من الشعراء  
أقرب من الفجيجة عليه بما ينبغي من القول .

ولقد اهتدى أبو العلاء بالعقل في نظره إلى الحياة والناس ، وإلى العقائد  
والتقاليد والعادات ، وبدت في أشعاره روح صوفية ، وإن لم يتصوف عملاً  
وهو يعارض أهل الظاهر ، ومن يعتمدون النقل ، ويقدمونه على العقل .  
يقول :

لقد صدئت أفهام قوم فهل لها  
وكم غرّت الدنيا نبيها وساءني  
صقال ، ويحتاج الحسام إلى صقل  
من الناس خيف في الأحاديث والنقل  
وأرحل عنها ، ما إمامي سوى العقل  
سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً  
ولقد تمرد على عقائد عصره ، وقال في لحظة من لحظات تمرده مخاطباً إنسان  
عصره :

تُحِلِّقُ مَرِيضَ الْعَقْلِ وَالِدِينَ فَالْقَنَى  
لَتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ  
وربما كان من شبه حبه لكل ما هو مفكر علوي النهج شيعي المذهب ميله  
الشديد إلى تقديم كل من أبي تمام والمنتبي ، ونعلم ما قيل من ارتباطهما بالشيعة  
أو القرامطة بالنسبة إلى المنتبي ، بل ولعله بالفكر الإسماعيلي أيضاً على ما يرى  
بعض الباحثين .

وعلى أية حال فالمعري عاش في ظل الدولة الفاطمية ، والفكر الشيعي عامة  
والإسماعيلي خاصة توج به آفاق البلاد في مصر والشام ، ومن لم يكن شيعياً  
بالانتماء فقد تكلم بكلام الشيعة والفاطمية ، أو انتحل رموزهم ومعانيهم مجازةً  
ومحابةً .

ويقع ديوان اللزوميات في نحو ثمانمائة صفحة ، وسماه لزوم ما لا يلزم لأنه  
الترم فيه ثلاثة أشياء : بناء القصائد على جميع حروف المعجم ، وإيراد الروى

كما يقول عن الملائكة والشياطين :

قد عشتُ عمراً طويلاً ما عَلِمْتُ به  
جسماً بحسٍّ لَجَنِّي ولا مَلَكٍ  
ومنه ما زعموا من أساطير اعتقد فيها العرب ورويت عنهم وعن كهانهم  
مثل شق وسطيح :

وجدتُ الغيبَ تجهله البرايا فما شقُّ هديت ولا سطيحُ  
والوعاظ الذين يفرغون فأذان الناس فيضاً من هذه الأشياء مسرفون  
مغررون بالناس. يقول مخاطباً المواطن المعاصر :

رُوَيْدُكَ قد غَرَّرْتُ ، وأنتَ حُرٌّ بصاحبِ حِيلَةٍ يعظُ النَّسَاءَ  
يُحَرِّمُ فيكم الصَّهْبَاءَ صُبْحاً ويشربُها على عميدِ مساءً  
يقول لكم غدوثُ بلا كِسَاءِ وفي لذاتها رهنَ الكِسَاءِ  
إذا فعلَ الفَتَى ما عنه يَنْهَى فمن جهتين لا جهةَ أسَاءِ

ونقف مع طه حسين وقفة لنستطلع رأيه في هذا الموقف من أبنى العلاء حيال  
قضايا الدين ورجاله . يقول (١) :

« ... ولكن أبا العلاء معذورٌ بعضُ العذر فيما تورط فيه ، ودفع  
إليه من ألوان الجدل في الدين والفلسفة ، فهو إذا مضطر إلى أن يُثبت ويتفق ،  
وإلى أن يُعرِّف وينكّر ، وإلى أن يقبل ويرفض . وليس هو الذي ابتكر هذه  
المشكلات التي عرضت له أو عرض لها ، وإنما أقبل إلى الحياة ، وبلغ الشباب  
فوجد هذه المشكلات قد وضعت موضع البحث منذ أقدم العصور ، وكثر  
فيها الاختلاف ، واشتد فيها الأحَد والرَد ... ونشأ عن ذلك شرٌّ عظيم في حياة  
الناس ، وفسادٍ منكم في أمورهم ، فلم يكن له بدٌّ من أن يستعرض ما  
استعرض الناس من قبله ، ويستقبل ما استقبلوا . ويقول فيه مثل ما قالوا ، أو  
غير ما قالوا . وقد فعل ، وانتهى به هذا كله إلى هذه الحيرة المؤلمة المهلكة » .

ويعرض طه حسين لوجوه التشابه في أفكار أبنى العلاء التي بثها في  
اللزوميات وتلك التي ترددت في كتابه المتهم به في تقليد القرآن وهو  
« الفصول والغايات » (٢) .

(١) مع أبنى العلاء ص ١٨٠ .

(٢) مع أبنى العلاء ص ٢٠٧ ، و ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

ويقول عن إيمان أتى العلاء إنه كان يؤمن بالله في كليهما في الفصول  
واللزوميات ويؤمن بحكمته ، وانقطاع الصلة بين الله والناس إلا عن طريق  
العقل .

وإذا فهو غير مطمئن إلى النبوات ، وهو محتاط في إعلان شكه بالنبوات  
وهو ينكر في اللزوميات من أمر الحج كما أنكره في الفصول والغايات ، ويثبت  
وجوب الطاعة والتقوى وإقامة الصلاة والبر بالفقراء ، ورياضة النفس وأخذها  
بما تكره من الشدائد .

ومن قضايا اللزوميات الفوضى السياسية وطغيان الحكام في العراق والشام :  
يقول :

إِنَّ الْعِرَاقَ وَإِنَّ الشَّامَ مِنْ زَمَنِ صِغْرَانِ مَا بِهِمَا لِلْمَلِكِ سُلْطَانُ  
سَاسِ الْأَنَامِ شَيَاطِينُ مُسَلِّطَةٌ فِي كُلِّ مِصْرٍ مِنَ الْوَالِيْنَ شَيْطَانُ  
مَنْ لَيْسَ يَخْفَلُ خَمَصَ النَّاسِ كُلَّهُمْ إِنْ بَاتَ يَشْرَبُ خَمْرًا وَهُوَ مَبِطَّانُ  
وفي ظلم الحكام :

مُلُّ الْمَقَامِ ، فَكَمْ أَعَاشِرُ أُمَّةٍ أَمَرْتُ بِغَيْرِ صَلَاحِهَا حُكَّامُهَا  
ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ ، وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا فَعَدُوا مِصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا  
وفي عدم حكم الرؤساء بالعقل :

يُسُوسُونَ الْأُمُورَ بِغَيْرِ عَقْلِ فَيَنْقُذُ أَمْرَهُمْ وَيُقَالُ سَاسَةٌ  
فَافٌّ مِنَ الزَّمَانِ ، وَافٌّ مِثِّي وَمَنْ زَمَنَ رِئَاسَتَهُ خَسَاسَةٌ

ويعرض لما كان يحدث في زمنه من غارات الجند بالجيوش المسلمة والرومية  
وغارات غيرهم من الناس ممن يملكون أسباب القوة والسطوة . يقول :

وَالشَّرُّ جَمٌّ وَمَنْ تَسَلَّمَ لَهُ إِبْلٌ مِنْ غَارَةِ الْجَيْشِ يَتْرُكُهَا لِحُرَابِ  
وفي جشع التجار وغارات اللصوص وقطاع الطرق :

يَا جِرَّ الْمِصْرِ مَا أَنْصَفَتْ سَائِمَةً كَذَّبَتْهَا فِي حَدِيثِ مَنْكَ مَسْئُوقِ  
إِنْ تَشَأْكَ قَطَعَ طَرِيقِي بِالْفَلَاةِ فَكَمْ قَطَعَتْ مِنْ قَبْلِ طَرِقِ النَّاسِ بِالسُّوقِ

ولأنى العلاء وثبات شعرية ، ولحاث وامضة تنير إعجاب القارىء وتقديره لشاعريته . ومن هذه اللمحات قوله على لسان طفل مات صغيراً :

تقول : حللت عاجلتى بكرهى	فَعِشْتُ ولم لِدُدْتُ ولم سَقَيْتُ
رقيت الحولَ شهراً بعد شهرٍ	فَلَيْتَنِي فى الأهلَة ما رَقَيْتُ
فلماً صيخ بي ودنا فطامى	تتيمنى الجِمامُ فما وُقَيْتُ
تركتُ الدارَ خاويةً لغيرى	ولو طالَ المقامُ بها شَقِيْتُ
نَقِيْتُ فما دَنَسْتُ ولو تَمَادَتْ	حياةً بي دَنَسْتُ فما نَقِيْتُ
رَقَتْنِي الرَاقِياتُ وُحْمَ يَوْمى	فَعادَرنى كَأَنى ما رُقَيْتُ
وما يَدْرِيكَ باكيَتى عَسَانى	بِسُكْنى الفوزِ فى الأخرى انْتَقَيْتُ
ومن صنَع المليكِ إلى أنى	تَعَجَّلْتُ الرحيلَ فما بَقَيْتُ

وهى وإن تضمنت فلسفة أوى العلاء التشاؤمية ، فإنها تنبئ عن رغبة فى رحمة الطفولة من صراعات الحياة ، والخشية على أن تلوث براءتها ، وما غرس الله فيها فطرة بشرور الناس بعد أن يشبوا عن الطوق ، وتباین رغباتهم ، وتشابك أطماعهم .

ومن شعر اللزوميات ذى المذاق الخاص ، قوله من أبيات يخاطب فيها الديك (١) :

عليك ثيابٌ خاطها الله قادراً	بها رثمتك العاطفاتُ الروائمُ
وتأجلك معقودٌ كأنك هُرْمَزٌ	يَبَاهى به أملاكُه ويوائمُ
وعينك سقط ما خبا عند قرّة	كلمعةٍ برقي ما لها الدهر شائِمُ
ورثت هدى التذكارِ من قبل جُرْهُمِ	أوانَ ترقّت فى السماءِ النعائمُ
ومازلت للدين القويم دعامة	إذا قَلِقْتُ من حاملية الدّعائمُ
ولو كنت لى ما أُرهِفْتُ لك مُدِيَةَ	ولا رَامَ إِفْطاراً بأَكْلِكَ صائِمُ
ولم يُغَلِّ ماءً كى تُمَرِّقَ حُلَّةً	حيثك بأسناها العصورُ القدائمُ
فإن كتب الله الجرائمِ ساخطاً	على الخلقِ لم تُكْتَبْ عليك الجرائمُ

(١) راجع الفصول والغايات ص ٨٨ .

## قته الشعرى

يتمتع المعرى بمقدرة شعريّة فذة ومميّزة ، وتأتي هذه المقدرة بمحصول وافر من الثقافات المتعددة ، والتمكن من اللغة والتراث الشعرى والفكرى . والإحاطة بأقوال أصحاب المذاهب والفرق وأصحاب الديانات ، بل لم يدع جانباً من جوانب المعرفة إلا وأحاط به حتى الفنون من موسيقى وغناء كشف عن معرفته بهما في أحد فصوله بالفصول والغايات ، فقد عرض لأضرب الغناء وفصلها ، وفسرها تفسيراً يعكس إلماماً وفهماً لأسرارهما<sup>(١)</sup> .

ونرى أنه أفاد من إلمامه بالموسيقى ، في توفير قدر من الإيقاع والموسيقى التى تنسرب من سياق عباراته ، وتتجاوب إلى حد كبير مع معانيه وإيقاعاته . وقد أفاض في حديثه عن أعاريض الشعر وقوافيه .

وندرک أن عنصر الموسيقى في الشعر عنصر مؤثر فيما يوحى به من تأثير غير مباشر في النفس يشارك في وقع المعنى الشعرى مع الخيال على وجدان المتلقى .

ومما يذهب إليه من توفير أصوات متجانسة أو متألّفة تتفق وتختلف في النوع والدرجة هذا الجنس الذى يعمد إليه في أبياته ، والطباق أو المقابلة ، والتبادل الإيقاعى في التراكيب وصنعتة في القافية ، وبخاصة في اللزومات ، تشير إلى هذا الميل إلى اكساب هذا الصوت المتردد في آخر أبياته أبعاداً صوتية أعمق وأكثر تركيباً . وقد تبعه في هذا اللزوم بعض شعراء الشام ممن جاءوا بعده ، فأستخدموا جناس القافية وأصبح لوناً من ألوان البديع الشعرى المستحدث منذ القرن الخامس ، وصياغته الشعرية صياغة مركبة ، قد تبدو متكلفة تحسُّ بمعاناة الشاعر فيها ، لأنه يريد أن يوفق بين المعنى العقل البعيد والعبارة ، ولا يجب لهذا المعنى الذى ينشده أن يفرغ مدلوله في سهل من اللفظ ، بل يعمد إلى تعقيده بتلك الصياغة الصعبة .

ويعلق طه حسين على عمل أبى العلاء هذا بقوله :

(١) راجع الفصول والغايات ص ٨٨ .

« وفي آثار أبي العلاء شدة على الناس ، شدة في ألفاظها ، وشدة في معانيها ، وشدة في أساليبها أيضاً ، ولكن في هذه الآثار شدة على أبي العلاء نفسه ، فقد لقي في إنشائها عناءً وجهداً »<sup>(١)</sup> .

وهو يعتمد إلى الإغراب في اللغة ، ويساعده على ذلك معرفته الواسعة بها ، يقول طه حسين<sup>(١)</sup> : « فما أعرف أحداً وعى اللغة العربية كما وعها أبو العلاء ، وما أعرف أن أحداً صرّف هذه اللغة في أغراضه وحاجاته الفنية كما صرّفها أبو العلاء » .

ومن عناصر الغموض الذي يقرب إلى اللغز في شعره ميله إلى أن يعبر عن معناه بأكثر من صورة من صور التعبير كالمثالة والمغايرة ، والتفصيل ، والتلميح .

ومن ضروب المماثلة التشبيه ، والإستعارة ، ومراعاة النظير والتشثيل والتوجيه .

وقد يعتمد إلى التعمية ، بأن يوهم من ظاهر الكلام بمعنى غير ما يخفى من حقيقته . وهو واع لهذا ويتمده . يقول في أحد أبياته :

لا تُقَيِّدْ عَلَيَّ لَفْظِي فَإِنِّي مَثَلٌ غَيْرِي ، تَكَلِّمِي بِالْمَجَازِ  
ويخبرنا في غير موضع ، وفي أكثر من عمل من أعماله بأنه يؤثر الرمز ويصطنع الإلغاز ، ولا يكره التحرّز بالتقيّة .

وقد صرح بميله للغز في كتاب « زجر النابح »<sup>(٢)</sup> .

وقال يوسف البديعي<sup>(٣)</sup> : « وإن أبا العلاء ألف كتاباً في اللغز لشدة ولعه به سماه « كتاب الألفاظ » . يقول البديعي : وكتاب الألفاظ كبير الحجم ، رتبته على جميع حروف الهجاء ، مشتمل على كلِّ بحور الشعر ، وأعلىضه ، وضروبه » .

(١) مع أبي العلاء ص ٢٠٧ .

(٢) زجر النابح ، تحقيق الدكتور أمجد الطرابلسي ، ص ٤٥ .

(٣) أوج التحري عن حيشة المعري ، بتحقيق إبراهيم الكيلاني ، ص ١٠٤ .



كذلك أشار بعض شراحه إلى هذه الظاهرة في شعره عامة . فقال البطليوسي تعليقا على قوله :

فهل حَدَّثت بالحرباءِ يُلْقَى برأسِ العَيْرِ موضحة الشَّجَاجِ  
« وأبو العلاء يُلغِزُ كثيراً بالأسماءِ المشتركة ، فيوهم أنه يريد معنى ، وهو يُريد معنى آخر ، ويصف أحد الإسمين المشتركين بصفة الآخر » (١) .

وذكر صاحب جواهر الكنز جملة من ألغازه ، منها قوله (٢) :

أُحِبُّ محمداً وهَوَّيَ فِيهِ وما صَلَّيْتُ قَطُّ على النَّبِيِّ  
وأهْرَبُ ما استطعتُ من الدنيا فِرَارَ الشيخِ من رَهَبِ الصَّبِيِّ  
والنبيُّ اسم موضع ، والصَّبِيُّ هو السيف .

وقال أيضاً :

إذا ما صادفتُ زيدا وعمروا أتاها بعده أُوسٌ ونصراً  
بَقْفَرٍ لا تزالُ تُرودُ فِيهِ وَيَجْمَعُها وسيربُ الوحشِ قَصْرُ  
فزيد من الزيادة ، وعمرو من العمر ، وأوس أى عوض ، ونصراً من نصراً  
الغيث إذا أتاه ، والقصر آخر النهار .

وقال :

رأيتُ يهودَ وافقتُ النَّصارى على بَعْضِ المسيحِ فلمْ يُلأَمُوا  
والمسيحُ : العرقُ من اللحم .

وقال :

لَقَدْ عاينتُ مرتجراً بشيعرِ تَمَنَّى مِثْلَهُ أَهْلُ العُروضِ  
يَعيشُ به الفقيهُ وكَم فقيهِ أَيْبَى إِلَّا المَعيشَةَ بالقريضِ  
فقوله : مرتجراً يعنى السحاب الذى فيه رعد ، والشعرُ اسم جبل ، والفقيه  
الفحل من الإبل ، والقريضُ الجزء .

(١) شروح سقط الزند ، ص ١٧٢٣ .

(٢) جواهر الكنز ، ص ١١٣ .

وقال :

تُوَدُّونَ التَّوَافِلَ كُلَّ يَوْمٍ      وَضَاعَتْ فِي دِيَارِكُمْ الْفُرُوضُ  
الفروض : جمع فرض ، وهو نوعٌ من الثَّمر .

وقال :

دَعَا قَاضِيَكُمْ يَوْمًا شُهُودًا      فَمَالَ بِهِم عَنِ الدِّينِ الشُّهُودُ  
فالشهودُ جمع شَهِد ، وهو العَسَل .

وقال :

لَقَدْ سُرُوا وَحَقَّ لَهُمْ سُرُورٌ      إِذَا بَالَ الْهَزْبُ عَلَيَّ الصَّرِيرِ  
وَكَمْ بَعَثُوا صَرِيرًا مِنْ عَوَالٍ      وَأَيْدِيهِمْ مَعَاوِيَةُ الصَّرِيرِ  
لَهُمْ فِي السَّبَبِ وَالتَّوَرَةِ تَحْطُ      إِذَا عَزَمَ المَقِيمُ عَلَى المَسِيرِ  
وَمَا عِيدَ الْفَطِيرِ لَهُمْ بَعِيدٌ      وَهُمْ وَالْمَاهِدُونَ مِنَ الْفَطِيرِ  
جُنُوبُهُمْ عَلَى عَفْرِ المَوَامِسِ      وَأَيْتُقُهُمْ تَزُودٌ عَلَى السَّرِيرِ

الهزير : الأسمد، وهو من الكواكب الذي تقول العرب مطرنا بنوء كذا تعني بذلك الكواكب الغارب وقت طلوع الفجر في ذلك الوقت . والصرير جانب الوادي ، والصرير المال المصرور ، وضربٌ من الصَّير ، والتوراة مثل التورية وهي التغطية ، والفطير مصدر الفطرة وهي الحلقة ، والسرير أكرم مكان بالوادي .

وقال :

رَأَيْتُ البَدَرَ أَذْرَكَه مَشِيْبٌ      وَأَصْبَحَ طَالِبًا قُوتِ العِيَالِ  
وَكَمْ أُرْوَى الأَهْلَةَ مِنْ نَجِيعٍ      وَزَادَ المَغْرِبِينَ مِنَ الهَلَالِ

وتكفي هذه الأمثلة للدلالة على ما أشار إليه كل من طه حسين والبطليوسي من مقدرة على اللغة ، واللعب على التشابه اللفظي والاختلاف المعنوي والمعرفة بأسرار اللغة ، والاشتقاقات والصياغات المجهولة والمهجورة ، أو ما يسمى بحوشى اللغة وغريبها .

ومع اقتدار أُنَى العلاء على اللغة ، وغزارة محصوله فيها ، وقوة ذهنه وذكائه

مما مكنته من هذا التشكيل المملغز نجده كذلك يملك قدرةً على تعريف التراث والتعامل معه بشئى مجالاته من معارف ونصوص دينية قرآن أو حديث ، وسيرة وتاريخ ، وأنساب وقبائل وشعر ... إلخ .

وتراه يعمد إلى الأسلوب المملغز فى توظيف بعض أسماء القبائل كأسد وهى قبيلة معروفة ، وأسم أحد شعراء هذيل الكبار وهو أبو ذؤيب فيقول :

ليالٍ ما تُفِيقُ من الرِّزَايَا فوَيْحِي من عَجَائِبِهَا ووَيْبِي  
أَعَادَتِ أَسْدَهَا أَسْدًا أَكْبَلًا وَأَوْدَى ذُبُّهَا بَأْنَى ذُوَيْبِ

والأسد الأولى لليالى ، وأسد الثانية القبيلة ، وذئب الليالى جانس بينه وبين اسم الشاعر أبى ذؤيب ، كما جانس بين أسد الليالى وأسد القبيلة . ملمحاً ومشيراً إلى قصة أبى ذؤيب وقد أودى الطاعون بأولاده الأربعة ، فرثاهم بقصيدته المشهورة .

ويلعب بالجناس كما قلنا فى هوايته العقلية المملغز فى شعره بديوان اللزوميات .

ومن استعانت به آيات القرآن قوله :

انفرد الله بسلطانه فما له فى كلِّ حالٍ كفاء

وَضَمَّنَ أَلْفَاظَ الْآيَةِ ( ولم يكن له كفواً أحد ) .

وفى قوله :

ألم ترَ للدُّنيا وسوءَ صَنِيعِهَا وليسَ سِوَى وَجْهِ الْمُهَيْمِنِ ثَابِتٌ

من قوله تعالى ( ويبقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام ) .

ويقول :

ويظنُّها نارَ الخليلِ سَلَامَةً ويكاد يأخذ من سناها القابس

يشير إلى قوله تعالى : ( يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) .

ويقول :

ويَدَايَ فى دُنْيَايَ وهى حَبِيَّةٌ كَيْدَى أبى هب غدا فى الآجل

يشير إلى قوله تعالى : ( تبت يدا أُنَى هُب وتب ) مشيراً إلى أن ذلك سيكون مصيره في الآخرة .

ويقول :

وما ليسَ الإنسانُ أبهى من التَّقَى وإن هو غَالَى في حِسَانِ الملايسِ  
من قوله تعالى : ( ولباسُ التقوى ذلك خير ) .

وأمثلة استعانته بالشعر القديم كثيرة نذكر منها إشارته لأرجوزة رؤية القافية :

وقَاتِمِ الأعماقِ نَحَاوِي المُخْتَرِقِ  
مُشْتَبِهِ الأعلامِ لَمَاعِ الحَفَقِ

فيقول أبو العلاء :

مَالِي غَدوْتُ كَقَافِ رُوبَةٍ قِيدَتْ في اللّهُرِ لم يُقَدِّرْ لها إِجْرَاؤُهَا  
ومنه قوله :

أين امرؤ القيس والعداري إن مال من تحته الغبيط

مشيراً إلى قول امرئ القيس :

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فأنزل

ويقول المعري :

وما جَبَلُ الرِّيانِ عِنْدِي بِطَائِلِ وما أنا عن نُحُودِ الحِسانِ بِرِيانِ

يريد نقض معنى جرير في قوله :

يا حبذا جبل الرِّيانِ من جبلٍ وَحَبَّذَا ساكِنُ الرِّيانِ من كانا

وتوظيف محفوظ المعري للشعر القديم ، جاهلياً كان أو إسلامياً أو عباسياً على مستويات متعددة ، كما نلاحظ في الأمثلة التي سقناها . واهتم الباحثون بتتبع هذا الموضوع في شعره<sup>(١)</sup> .

(١) راجع على سبيل المثال « أبو العلاء ولزومياته » للدكتور كمال اليازجي ، طبع ونشر دار الجيل بيروت سنة ١٩٨٨ م .

وكم ورد في شعره من توظيف لأحداث التاريخ ، وصراع الفرق والمذاهب منذ الجاهلية وطوال عصور الإسلام حتى عصره .

يتحدث عن الأنبياء ، فعن سليمان الحكيم وقصة استكثاره من النساء ونزاع قاييل وهابيل ، وحديث العرب البائدة عاد وثمود وجرهم ، وهلاك عاد بريح صرصر .

وأيام العرب كيوم داحس والغبراء ، ويوم حليلة ، ويوم النصار ، ومقتل كليب .

ومن أحداث السيرة ذكر النبي ﷺ وما لقيه من أكلة خبير المسمومة ، ومواقع أحد وبدر ، ويوم غدیر نُحْمٌ وحديث « من كنت مولاه فعلى مولاه » . ويشير إلى اختلاف الأنخذ بهذا الحديث بين الشيعة وأهل السنة : شيعٌ أجَلَّتْ يوم نُحْمٌ وانثت أخرى تعارضُها يوم الغار وهو ينبذ التعصب ولا يتعصب لواحد من الفريقين :

ضمنتُ فؤادى للمعاشير كلَّهم وأمسكتُ لما عَظُموا العَارُ أوْثُماً

ويجرب حديثه عن أحداث المسلمين بعد وفاة النبي كحديث السقيفة والنزاع بين المهاجرين والأنصار ، وفتنة عبد الله بن الزبير ، واغتيال عبد الرحمن بن ملجم لعل بن أبي طالب ، وقتل الحسين ، وحروب الشام والعراق ، واختلاف طارق بن زياد وموسى بن نصير ، ومقتل مروان بن محمد بمصر وانتهاء الدولة الأموية .

وثورة الزنج بالبصرة والقرامطة بالكوفة والأحساء .

كما يشير إلى بعض ما حدث للشعراء جاهليين ومحدثين ، فيعرض لامرئ القيس ويوم دارة جلجل ، وليلى والمجنون ، ولبنى وابن ذُرَيْج ، وعن أبي العتاهية وجه لعتبة ، وتوبته ونسكه .

إلى غير ذلك مما حفل به ديوانه ووظفه فيما إستهدفه من معانيه ومضامينه على صورة صريحة ، أو بطريق الإيحاء والإشارة .

ويبقى بعد هذا حديثنا عن خيالات المعرى ، فنرى أنه مغربٌ في خيالاته  
وصوره إغرابُهُ في ألفاظه وصياغاته .

وصوره البيانية غالباً ما تكون صوراً مجنحة ، فيها غموضٌ ، أو تحجبها  
حجبٌ يريد لها أن تبقى مغلقةً بها ، وقد يرمى بهذه الصور غير واضحة المعالم  
إلى الأيحاء بمعان لا يرغب في الكشف عن مستورها .

## ابن سنان الخفاجي

عبد الله بن محمد بن سنان ( ت سنة ٤٦٦ هـ )

ولد بحلب ونشأ وتعلم بها ، ورحل إلى المعرة فأخذ الأدب عن أبي العلاء المعري ، وتنتقل بين بعض بلاد الشام ، ولقى جماعة من الفضلاء بها . وكان يرى رأى الشيعة الإمامية .

وقصد بشعره بعض رؤساء الشام مادحًا ، ومنهم جد أسامة بن منقذ مخلص الدولة مقلد بن نصر بن منقذ الكنتاني<sup>(٢)</sup> وراثه بعد وفاته وكان بينه وبين أبي نصر بن النحاس وزير محمود بن صالح المرداس مودة مؤكدة . وكان الخفاجي قد خرج من حلب ، وبينه وبين أميرها المرداسي أمور . وأراد الأمير أن يستدرجه للعودة إلى حلب ، فكتب إليه ابن النحاس رسالة يستدعيه بأمر محمود بن صالح ، وكان قد نمّ في كتابته عما يوحى بتأمر القوم عليه ليقتلوه . وفي أثناء طريقه إلى حلب عاود ابن سنان الفكر في رسالة صديقه ابن النحاس ، فرجع<sup>(٣)</sup> .

ورد على أبي نصر ابن النحاس بخطاب ملغز كذلك يشير إلى أنه لن يدخل حلب ماداموا فيها يعني أعداءه .

وكتب إليه صديقه يستصوب رأيه فكتب إليه الخفاجي :

خف من أمنت ولا تركزن إلى أحدٍ      فما نصحتك إلا بعد تجريب  
إن كانت الترك فيهم غير وافية      فما تزيد على غدر الأعراب  
تمسكوا بوصايا اللؤم بينهم      وكاد أن يدرسوا في المحارِب

ولا نعلم أسباب هذه العداوة بين الشاعر وأمير حلب المرداسي، وإن كان يلمح إلى غدر الأعراب ، وهم من أعداء الفاطميين ، وهم من السنة وسبق أن ذكرنا ما وقع بينهم وبين الفاطميين من وقائع ، وما كان من علاقة الشاعر ابن حيوس بهم في هذه المرحلة من ستينات القرن الخامس .

(١) ترجمته في الرواق للصفي ووفيات الأعيان ، والأفضليات لابن منجب .

(٢) راجع وفيات الأعيان ٥ / ٢٧٠ ، حامد عباس .

(٣) راجع اتواق ، وفوات الوفيات ٢ / ٢٢١ .

والغريب أن ابن النجاس عاد فغدر بصديقه الخفاجي ، وكان رسول الخوت إليه ، بعد أن هدده محمود بن نصر ، فأمره بأن يحمل إليه طعاماً مسموماً ، لأنه يأمنه .

وهكذا كانت منية ابن سنان على يد صديقه<sup>(١)</sup> .

وهكذا مات ابن سنان مسموماً على يد هذا الصديق سنة ٤٦٦ هـ وحمل إلى حلب فدفن بها .

ولللخفاجي ديوان شعر ، ومجموعة مصنفات في الأدب والبلاغة أشهرها « سر الفصاحة » .

وفي شعره بعض معاني الشيعة وأقوالهم . من ذلك قوله في علي بن أبي طالب :

وقالوا قد تغيرت الليالي      وضيعت المنازل والحقوق  
فأقسم ما استجد الدهر خلقةً      ولا عدوانه إلا عقوق  
أليس يرُدُّ عن فديك عليٌّ      ويملك أكثر الدنيا عتيق

يشير إلى عدم اشراك أبي بكر لعلي بن أبي طالب في غزوة فديك . ويعرض في الأبيات لما قد يكون وقع عليه من الظلم في حلب فاضطر إلى مغادرة دياره خشية اغتياله .

واختار صلاح الصفدي مجموعة من شعره اقتطعها من قصائده أو مقطعات مفردة . ومما أختاره قوله :

سلاطية الدغساء هل فقدت خشفًا      فإننا لمحنًا من مرابعها طرفًا  
وقولا لخرط البان فليمسك الصبا      عليها ، فإننا قد عرفنا بها عرفًا  
سرت من هضاب الشام وهي مريضة      فما ظهرت إلا وقد كاد أن تخفى  
عليه أنفاس تداوى بها الجوى      وضعفنى ولكن قد وجدنا بها ضعفى  
وهاتفية بالبان تملئ فراقها      وتتلو علينا من صبايتها صُحفًا  
عجبت لها تشكو الفراق جهالةً      وقد جاوبت من كل ناحية إلغا

(١) راجع القصة كاملة في فوات الوفيات ٢/ ٢٢١



وما فهموا مما تَعَثَّتْ به حَرْفًا  
لما لبست طوقاً ، ولا خَضَبَتْ كَفًا  
وأضرمت ناراً للصبابة لا تُطْفَأُ  
مواعيدُ لا يُنكَرْنَ لِيًّا ولا تُحْلَفَا  
جعلنَ لها في كلِّ قافيةٍ وصفًا  
من السُّودِ لِمَ يَطْوِ الصَّبَاحُ لها سِجْفًا  
بحكم الثريا قد قطعنا لها كَفًا  
ولم نبق للجوزاء عقداً ولا شيفًا  
مُدَبِّرُ حَرْبٍ قد هَزَمْنَا لَهُ صَفَا  
مُفْتَحَةُ الأَنْوَارِ أو نَثْرَةُ زُغْفَا  
سَلِينَاهُ جَامًا أو فَصَمْنَا له وَقْنَا  
من الدمع يبدو كلما ذرقتُ ذرفًا  
فَقَرُّ ولم يشهدُ طراداً ولا زَحْفَا  
تخطفها عجلانُ يقذفها قذفا  
به سِنَّةٌ ما هَبَّ منها ولا أَعْفَى

ويشجى قلوبَ العاشقينَ حينها  
ولو صدقت فيما تقول من الأسي  
أجارتنا أذكرت من كان ناسياً  
وفي جانب الماء الذي تَرِدِينَهُ  
ومهزوزةً للبان فيها تمايل  
لبسنا عليها بالثنية ليلسة  
لعمري لئن طالت علينا فإننا  
رمينا بها في الغرب وهي ضعيفة  
كان الدجى لما تولت نجومه  
كان عليه للمجرة روضة  
كأننا وقد ألقى إلينا هلاله  
كان السها إنسان عين غريقة  
كان سهيلاً فارس عابن الوغى  
كان سنا المريح شعلة قابس  
كان أفول السر طرف تعلقت

وصفها الصفدى بأنها من الطنانات (١) .

وهي قصيدة فريدة . فيها تأمل ، وخيال ، وسيح مع السماء ونجومها وانطباعات ورؤى وصور مما يخيل له وجدانه ، وكثيرون وصفوا السماء ونجومها ليلاً ، ولكن ابن خفاجة تفرد من بينهم بهذه التشبيهات التي أبدع في أكثرها ، وشارك في جزئيات منها من سبقوه .

ونلاحظ تأثره الواضح بأستاذه أبي العلاء في وصف المطوقة . بقصيدته الرائية في قوله : « عجبت لها تشكو الفراق » حتى قوله :

ولو صدقت فيما تقول من الأسي  
لما لبست طوقاً ، ولا خَضَبَتْ كَفًا  
ويقول أبو العلاء مخاطباً بنات الهديل الحمام ذوات الأطواق :

ما نسيتهن هالكا في الأوان الحيا  
بيد أني لا أرتضي ما فعلتُنَّ ، وأطواقكن في الأجياد

(١) الوال ٥٠٧ .

وفيما لاحظناه من شعر الخفاجي أسي وشكوى من الزمان والناس يديه  
أحياناً ، ويستره أحياناً في أشواقه وحنينه ونسييه . ومنه قوله (١) :

بقيت وقد شطت بكم غربة الثوى  
وعلمتموني كيف أصير عنكم  
فما قلت يوماً للبكاء عليكم  
وما الحب إلا أن أعد قبيحكم  
وقوله :

هل تسمعون شكاية من عاتب  
أما الروشة فقد أصابوا عندكم  
فمليتكم من صابر ورددتم  
وأقل ما حكم الملأل عليكم  
وقال :

ما على محسنيكم لو أحسبنا  
قد شجانا اليأس من بعدكم  
وعُدوا بالوصل من طيفكم  
لا وسخر بين أجفانكم  
وحدث من مواعيدكم  
ما رحلت العيس عن أرضكم  
وقال في أبيات :

وعلى العضا إن كنت من جيرانه  
ومحللون عن المناهل بعدما  
ومشيت العزمات ينفق عمره  
أمل يلوح اليأس في أثنائه  
يمري غفافة ثروة لو أنها  
نار تقسم حرها العشاقي  
شرقت بجمه مايتها الطراق  
خيران لا ظفر ولا إخفاق  
وغنى يشف وراءه الإملاق  
نوم لما شعرت به الأخداق

(١) فوات الوفيات ٢ / ٢٢٢ .

وقال (١) :

عَطَّرَ الشَّاءَ تَعَطَّرَتْ أَوْصَافُهُ  
مَا كَانَ يَعْلَمُ قَبْلَ صَوْبِ ثَنَائِهِ  
وَلَوْ أَنَّ لِلْأَيَّامِ نَارَ ذَكَابِهِ

وقال :

مَلَأَتْ ضِيَعَتِ وَدَى بَعْدَمَا  
أَمْ شِئْتَ تَعْلَمُ أَنَّ جَوْدَكَ لَمْ يَدْعُ

وقال :

إِذَا تَجَوَّزْتَكُمْ لَمْ أَحْشَ سَطَوَاتِكُمْ  
فَحِينَ لَمْ يَكْ لَّا خَوْفٌ وَلَا طَمَعٌ

وفي هذه المختارات من شعر ابن سنان آثار واضحة لصنعة الشعرية فالرجل ، لا يهتم بالبديع ، ولا يتكلفه تكلف غيره من شعراء الشام المعاصرين ، وقد أشرنا من بينهم إلى ابن حيوس ، وأبي العلاء . وإن كان لكل منهم وجهته في استخدام البديع . كذلك تحس في شعر ابن سنان شاعرية صادقة وعاطفة غالبية على صنعة الكلام ، وتنميق القول وأحياناً تغلب على تأملاته روح صوفية علوية .

وقد أورد له ابن منجب مختارات من شعره ، وعلق عليها ، منها قوله (٢)

قال عبد الله بن محمد بن سنان بن سبيع بن الحفاجي الحلبي :

لَا يَدْعَى الْفَصْحَاءُ فَيْكَ غَرِيبَةً  
إِنَّ أَحْسَنُوا عَنْكَ الشَّاءَ فَأَنْهَا  
عَجِباً لَوَجْهِكَ كَيْفَ بَارِقَ بِشَرِّهِ  
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ يِضَ سَيُوفِهِ  
وَالْبَيْضُ تَشْرُ ، وَالْأَسِنَّةُ تَنْظِمُ  
نَطَقَتْ بِمَدْحِكَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا  
تَهْجِي سَحَابِيَهُ ، وَلَا يَتَعَيَّمُ  
تُبْكِي دَمًا ، وَكَأَنَّهَا تَتَبَسَّمُ

فأما الأول فمن مליح التورية . وقد أتى بها في قوله :

وَصَفُّوا بِيَاضَ يَدِ الْكَلِيمِ بِمَعْجَزِ  
وَاسْتَطَرَفُوا إِحْيَاءَ عَيْسَى مَيْتًا

(١) الروالي للصندي - ح ، ص ٥٠٧ .

(٢) الأفضليات ص ٤٠ - ٤١ .

وقال (١) :

من القوم صال الدهر إلا عليهم  
أشد احتقاراً بالردي من حساميه  
له خلقت في المخيل غيث وفي الصبا  
وصالوا بيض الهند حتى على الدهر  
وأذنى إلى سير الأعادي على الذعر  
نسيم، وفي جرح الدجى غرة البدر

وقد استعمل تركيب هذا البيت في موضع آخر فقال :

ما هزة طرب العقار وإنما  
هي في الهوى وغد الوصال وفي الكرى  
أعطته نشوة كاسها الأخلاق  
طيف الخيال، وفي الوداع عناق

وهو من قول ابن نباته :

إنها في السحاب وبلى، وفي الر  
يج نسيم، ونشوة في الشراب  
وأما قوله :

أشد احتقاراً بالردي من حساميه

فهذا الصدر يصلح أن يعجز بقول أبي الطيب :

وأقدم بين الجحفلين من التبل

على أن صدر بيت أبي الطيب مناسب للعجز المذكور ؛ لأنه قال :

أقل بلاءً بالرزايا من القنا

فيصير هذا العجز مع صدرين . (٢) .

وبقارن بين أبيات لابن عمار الوزير الشاعر الأندلسي في مدح المعتمد بن  
عباد ، وأبيات لابن سنان . يقول في ذكر بلدة افتتحها ابن عباد وأحرقها :

فأرملتها بالسيف ثم أعرتها  
من النار أثواب الجداد على القيد  
فيها حسن ذلك السيف في راحة الهدى  
ويأترد تلك النار في كيد المجيد

(١) في مدح محمود بن نصر صاحب حلب .

(٢) الأفضليات ص ٤٢ - ٤٣ .

يقول ابن منجب : « فقولهُ أَرَمَلَتْهَا بالسيف ، وأبَسَتْهَا حداداً بالنار من أحسن تركيب ، وأبدع تشبيه . ولقد ذكر عبد الله بن محمد ( بن سنان الخفاجي ) مثل وهو وأبو بكر متقاربا الزمن متباينا الوطن ، فهذا بالعدوة الدنيا ، وهَذَا بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى فقال وأحسن ما شاء :

غَادَرَتْهَا دِمْنًا عَلَى أَطْلَالِهَا      يَبْكِي الْخَلِيطُ ، وَتُذَكِّرُ الْأَشْوَاقُ  
وَشَرَعَتْ دِينَ قِرَاكَ فِي عَرَصَاتِهَا      فَالْتَأُرُ تُضْرَمُ ، وَالْدَّمَاءُ تُرَاقُ  
قال ابن منجب : « وعلى البيت من البهجة وحسن الديقاجة مالا أعلم لأحد مثله . » (١) .

وذكر له بيتين نظر فيهما إلى العلوم الشرعية ، وهما قوله (٢) :

وَأَمْسَتْ صِبَاهُ تَبْتُ الْحَدِيدِ كَتَّ      وَتُسْنِدُ عَنْ بَائِةِ الْأَجْرَعِ  
وَتَقْسِمُ أَلَى أَهْيَاكُمْ      وَلَيْسَ الْيَمِينُ عَلَى الْمُدْعَى  
يريد أنه وظف في هذين البيتين علم الحديث والشريعة .

ويشير إلى أخذه معنى بيت المتنبي :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاعَنِي نَحْبْرٌ      فَرَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَيْدِ  
قال ابن منجب (٣) : « وقد أخذه ابن سعيد الحلبي ( ابن سنان ) ، فقال وأحسن :

أَتَانِي وَعَرَضُ الْيَدِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ      حَدِيثٌ لِأَسْرَارِ الدَّمُوعِ مُذْبِعُ  
تَصَامَمْتُ عَنْ رَأْيِهِ حَتَّى أُرْبِتُهُ      وَإِنِّي عَلَى مَا غَالَنِي لَسَجِيعُ  
ويذكر أخذه معنى لمهيار (٤) .

(١) الأفضليات ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ١٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ٣١٠ .

(٤) المصدر نفسه ٣١٤ .

### ابن الخياط الدمشقي

( أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي ( ت سنة ٥١٧ هـ )

ولد بدمشق سنة ٤٥٠ هـ في عهد الخليفة المستنصر ، وكان أبوه خياطاً فاشتهر بالنسبة إليه . وكانت داره قريبة من دار الشاعر الدمشقي الكبير ابن حيوس والملقب بأبي الفتيان .

وربطت بين الشاعر الفتي محمد بن الخياط وجاره أبي الفتيان وشائج الشعر وحبه ، وقد رأى تقلب أبي الفتيان في النعمة ، واهتمام الناس به وارتفاع منزلته عندهم بسبب الشعر ، فامتلاً قلبه طموحاً بالنبوغ فيه وبلوغ مرتبة تقرب من مرتبة الشاعر الكبير .

وحفظ ابن الخياط كثيراً من أشعار الأقدمين ليُدرب قريحته ، ويهذب طبعه ، ويثري مادته .

وكانت أحوال دمشق في صبي الشاعر غير مستقرة تحت حكم الفاطميين ، فثاروا سنة ٤٦٠ هـ بوالى الشام أنفذ بدر الجمالي ، واحرقت بعض دور دمشق ، واصطدم أهل دمشق بجند الفاطميين ودامت تلك الأحداث حتى سنة ٤٦١ هـ .

ثم كانت بعد ذلك مسرحاً للصراع بين جند الفاطميين والسلاجقة الأتراك الذين بدعوا الاغارة على أملاك الفاطميين بالشام ، فهاجمها أتسر السلجوقي من قبل ملكشاه حتى استولى عليها سنة ٤٦٨ هـ كما عرفنا بعد مقاومة عنيفة من أهلها أدت إلى انتقامه منهم باعتقال وجوههم وترحيلهم إلى طرابلس .

وظلت دمشق في شباب الشاعر تعاني من الجور والفاقة ، واضطراب الأحوال وكانت الأمور كذلك في مصر والقاهرة في الشدة العظمى ، فاضطر الشاعر إلى أن يغادر بلده في ظل تلك الظروف القاسية متوجهاً إلى بلد آخر بالشام حيث القى عصاه بمدينة حماه ، فأوى إلى أمير هناك ، سكن إليه بعضاً من الوقت ، وعمل بالكتابة له وخدمته ونظم الشعر في مديحه ومنه قصيدته التي مطلعها :

سَقَوهُ كَأْسَ فِرْقَتِهِمْ دِهَاقًا وَأَسْكِرَهُ الْوَدَاعُ فَمَا أَفَاقًا

وكان الشاعر ابن حيوس قد غادر دمشق كذلك قاصداً حلب حيث رحب به أمراؤها بنو مرداس الكلايين ، وأجزلوا له العطاء . وسمع ابن الخياط باستقرار ابن حيوس هناك وبسماحة آل مرداس ، فحدثه نفسه بزيارة جاره ، وأستاذه في الشعر .

وفي حلب التقى بأبي الفتيان ، فعرض عليه بعضاً من شعره فقال : قد نعانى هذا الشاب إلى نفسي . وكان ما انشده قوله :

لم يبقَ عندي ما يباعُ بدرهمٍ      وكفالكِ مِنِّي منظرٌ عن مَخْبِرٍ  
إِلَّا صُبَابَةٌ مَاءٍ وَجِهٍ صُنَّتْهَا      عن أن تُبَاعَ وَأَيْنَ أَيْنَ المَشْتَرِي

فقال له ابن حيوس : لو قلت « وأنت نعم المشتري » . لكان أحسن . لقد كرمت عندي ونعيت إلي نفسي ، وكان الشاعر الكبير أبو الفتيان قد أسن ، ونصحه بقصد بني عمّار بطرابلس لأنهم يحبون الشعر وبذل له الثياب والمال .

وتقلب بين أمراء الشام فمدح بعضهم كالأمير وثاب بن محمود بن نصر بحماه ، والأمير سديد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ صاحب قلعة شيزر سنة ٤٧٦ هـ وجلال الملك من بني عمار في طرابلس ، والأمير فخر الملك .

وكان أبو الفتيان قد توفي سنة ٤٧٤ هـ ، وصحت نبوءته في ابن الخياط ، فأصبح شاعر الشام من بعده .

استقر ابن الخياط إذا في طرابلس ، وأحسن الصلة بأمرائها من بني عمّار فأحسنوا صلته ، واكرموا وفادته ، ومدحهم بقصائد تعذ من أجود شعره ، منها قوله في فخر الملك :

أعطى الشباب من الآرابِ ما طلبوا      وراح يكتال في ثوبى هوى وصيبا

وكانت حياته بطرابلس حافلة ، التقى فيها بالعلماء ، وجالس الأدباء ، وخالط عليّة القوم ، ومدح بعضهم ، وتطارح الشعر مع آخرين .

وقضى ما قضى بطرابلس من الزمن ، فعاوده الحنين إلى بلده دمشق ، وكانت في أيدي السلاجقة ، يحكمها الأمير تاج الملك تتش بن ألب أرسلان ، ووزيره

هبة الله الأصفهاني ، فلقى الشاعر عنده ما كفاه إذ وقع له بصلة جزلة ،  
وصحبه زمناً ومدحه بقصائد ، وسافر معه إلى الرى ، وقال فيه :

وما كان لى لولاك بالرى منزل وإن شعثت غيرى وتيم حبها

وجال جولة فى بلاد العجم ، ولم تطل هناك رحلته ، فعاد إلى بلده دمشق .  
فأتصل ببعض أمراء العرب من الكلبيين ، ومدحهم ، كما مدح غيرهم من  
الأمراء ، والوجهاء ، واختص منهم بأحدهم واسمه غضب الدولة وصحبه فى  
مجالسه ومسراته ، حتى توفى هذا الأمير . فرثاه .

واتصل من بعده بصاحب دمشق آنذ من السلاجقة وهو تاج الملوك بورى بن  
طغتكين . وحسنت أحواله بدمشق حتى توفى سنة ٥١٧ هـ .

وكان ابن الخياط شاعراً مطبوعاً يقول الشعر ، لا عن درس ، بل عن هواية  
وطبع وقلنا إنه حفظ كثيراً من الشعر القديم ، فنظم على سننه ، وراض قريحته  
على منهجه فجاء شعره ، وقد حفل بملاخ شعر بعض من حفظ لهم ، تسمه  
سمات التعبيرات التقليدية ، والصور الجارية فى معظم الشعر القديم ، كذلك  
صيغه وتراكيبه وإن كان يدخل عليه أحيانا بعض الصنعة مما ساد فى عصره ،  
وعند من سبقه من أصحاب البديع من مثل قوله مجانسا :

يقينى يقينى حادثات النوائب وحزيمى حزيمى فى ظهور النجائب

وقوله :

لقد وجدت وجدى الديار بأهلها ولولم تجد وجدى لما سقمت مسمى

وأغرم بغريب الاستعارة متأسياً أحيانا بأى تمام كقوله فى التهئة بمولود :

أطلعت بدرأ فى سماء ممالك سهر الجمال وتام فى تلويبه

وفى قوله مادحاً :

هربت من ارتياحك حين أئحى على حمدي غضب ندى ثقيل

ولما عذت بالعلياء قالت لعلك صاحب الشكر القليل

فسهر الجمال ونومه وغضب الندى الثقيل ، والشكر القليل ؛ كلها من  
الاستعارات الغريبة التى كان أبو تمام مغرئ بها كمثل قوله « ماء الملام » وغيره .



كما أن نفس المتنبي بدا في أكثر من قصيدة ، وقد فرض هذا الشاعر الكبير أسلوبه على العصر كله طوال القرنين الخامس والسادس . ومنه قوله :

وهل من ضمَّ الجرد المذاكى      كمن جعل الطراد لها ضميراً  
وكقوله<sup>(١)</sup> :

إذا ما النار كان لها اضطرامٌ      فما الداعي إلى قُدج الزنادِ  
رجوتُ فما تجاوزهُ رجائي      وكان الماء غايةً كلِّ صاذِ  
إذا ما رُوِّضتْ أرضي وساحتُ      فما معنى انتجاعِي وارتياذي

ولغة ابن الخياط تمتاز بالجزالة ، وإن خالف أحياناً بعض ما يجري على ألسنة المتقنين من صحيح اللفظ ، وقويمه ، وقد أخذ عليه ذلك ، وأرجع إلى قلة اتقانه لعلوم اللغة ، وإن حاول استدراك ذلك في أخريات حياته ، فاعتدلت لغته وصحت موازينه .

ولاحظ خليل مردم ترديده لبعض الألفاظ التي أغرم بها ، كاستخدامه للفظ أم في كل ما يريد توضيحه ، وتفخيمه من مثل قوله :

لقد طرقت بك أم العلاء      بيوم له كل يوم حسودُ  
وكقوله :

بصرتُ بأُمات الحيا فظننتُها      أناملهُ. إنَّ السحائبَ أشباهُ

وباعتباره شاعراً مسلماً ، والقرآن من أخص ما يحفظه المسلم ويتمثل به ، ويتأثر بلفظه ومعانيه ، فالشاعر ابن الخياط ، لا يفتأ يقبس من القرآن الكريم بعض لفظه كقوله<sup>(١)</sup> :

إذا ما الكأسُ لم تكُ كأسَ بين      فليستْ بالحميم ولا الغساقا  
وقوله :

يطبِّقُ غيثهُ أرضَ الأمانِي      ويسمُو سعده السَّبْعَ الطَّباقا

(١) ديوانه ص ٧ من قصيدة يمدح الأمر أبا الفوارس محمد بن مالك بحماسة .

وبين قصائده في المديح أحيانا بناء الأقدمين إذ يبدأ بالغزل ، ويتخلص منه إلى المديح ، وقد يذكر الرحلة ويتخلص إلى الممدوح ومنه قوله :

هَبْوَاطِيْفِكُمْ أَعْدَى عَلَى النَّأْيِ مَسْرَاهُ      فَمَنْ لِمَشُوقِي أَنْ يُهَيِّمَ جَفْنَاهُ  
وَهَلْ يَهْتَدِي طَيْفَ الْخِيَالِ لِنَاحِلِ      إِذَا السَّقَمَ عَنِ لِحْظِ الْعَوَائِدِ أَخْفَاهُ

\* \* \* \* \*

أَحْنُ إِذَا هَبَّتْ صَبَا مُطْمَئِنَّةً      حَتَّى مَطَايَا الرَّكْبِ أَوْشَكَ مَغْدَاهُ  
خَوَامِسَ حَلَاهَا عَنِ الْوَرْدِ مُطْلَبَ      بَعِيدَ عَلَى الْبَزْلِ الْمَصَاعِبِ مَرْمَاهُ  
هَوَى كَلِمَا عَادَتِ مِنَ الشَّرْقِ نَفْحَةَ      أَعَادَ لِي الشُّوقَ الَّذِي كَانَ أَبْدَاهُ  
وَمَا شَعَفِي بِالرَّيْحِ إِلَّا لِأَنَّهَا      تَمَّرَ بِحَيِّ دُونَ رَامَةَ مَثْوَاهُ  
أَحَبُّ تُرَى الْوَادِي الَّذِي بَانَ أَهْلُهُ      وَأَصْبُوا إِلَى الرَّبْعِ الَّذِي مَحَّ مَغْنَاهُ

\* \* \* \* \*

أَلَا حَبْدًا عَهْدَ الْكَيْبِ وَنَاعِمَ      مِنَ الْعَيْشِ مَجْرورُ الذِّيُولِ لِبَسْنَاهُ  
لِيَالِي عَاطَتْنَا الصَّبَابَةَ ذُرَّهَا      فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا مِنْهَلٍ مَا وَرَدَ نَاهُ

\* \* \* \* \*

وَبِالْجِزْجِ حَتَّى كَلِمًا عَنْ ذِكْرِهِمْ      أَمَاتَ الْهَوَى مَنَى فَوَادًا وَأَحْيَاهُ  
تَمْنِيَتِهِمْ بِالرَّقْمَتَيْنِ وَدَارُهُمْ      بَوَادِي الْعَضْبَا يَا بَعْدَ مَا أَمْتَنَاهُ  
وهنا يتخلص من الغزل بقوله :

سَقَى الْوَابِلَ الرَّبْعِيَّ مَا جَلَّ رِبْعَكُمْ      وَرَاوَحَهُ مَا شَاءَ رَوْحَ وَغَادَاهُ  
وَجَرَّ عَلَيْهِ ذَيْلَهُ كُلَّ مَا طَرَّ      إِذَا مَا مَشَى فِي عَاطِلِ التُّرْبِ حَلَاهُ  
وَمَا كُنْتُ لَوْلَا أَنْ دَمَعِي مِنْ دَمِ      لِأَجْمَلِ مَنَّا لِلنَّسْحَابِ بِسَقْيَاهُ  
عَلَى أَنْ فَخَّرَ الْمَلِكُ لِلْأَرْضِ كَافِلَ      بِفَيْضِ نَدَى لَا يَبْلُغُ الْقَطْرُ شُرْوَاهُ

ويعضى في معاني المديح المعروفة يسوقها في ما اعتاد الشعراء التعبير عنها من معارض لفظية متعددة .

ونلاحظ فيما قدمنا من غزله سيره على غير ما اعتاد الشعراء من البدء بالوقوف أو مخاطبة الصاحب أو الصاحبين بالوقوف أو التعرّيج ، ثم الوقوف

والبكاء ، والذكرى وما إلى هذا . بل ساء متغزلاً في الحبوب ، فذكر الطيف ، وأنه يعود فيذكره به ، ويتذكر بالريح التي تنقل عبق هذا الحبيب ، ثم يختم بذكر الديار فيدعو لها بالسقيا .

وهو في كل هذه المعاني التي تتكرر عند الغزليين والبادئين بالنسيب من الشعراء بصطاد المعنى الذي يروقه وينسج على منوال بعض السابقين ، وإن اختلف نسيجه وتغيرت ألوانه . ونلاحظ أنه يكثر من استخدام الطيف ، والريح ، والنسيم كعادة الغزليين المحدثين .

وقد لا يبدأ القصيدة بهذه البداية التقليدية ، بل يدخل إلى موضوع المديح دون تمهيد .

وله في غير المديح في موضوعات شتى ، إلا أن المديح غالب ، لأنه كان شاعراً متكسباً على ما عرفنا من وقائع حياته يقصد الحكام والأمراء وعلية القوم ، وله مع هذا في تلك الموضوعات أبيات جيدة تناقلها الرواة ومؤرخو الأدب معجبين من مثل أبياته في الغزل التي يقول فيها<sup>(١)</sup> .

فقد كاد رباها يطير بلبه	خذا من صبا نجد أماناً لقبه
إذا هب كان الوجد أيسر خطبه	وإياك ذاك النسيم فإنه
محل الهوى من مغرم القلب صبه	خليلى لو أحببتما لعلمتا
يتوق ، ومن يعلق به الحب يصبه	تذكر والذكرى تشوق ذوى الهوى
وشوق على بعد المزار وقريه	غرام على بأس الهوى ورجائه
متى يدعه داعى الغرام يلبه	وفي الركب مطوي الضلوع على جوى
تضمن منها داءه دون صحبه	إذا خطرث من جانب الرمل نفحة
حذاراً وخوفاً أن تكون لحيه	أغار إذا آنت في الحى أنه

ويستخدم ابن الخياط في غزله أسماء بعض الأماكن التي اعتاد الشعراء ذكرها في نسيبهم وهذا الاستخدام يختلف فيه المدلول والايحاء ، فالقداى الجاهليون يذكرون تلك الأماكن على أنها مواطن الأحباب والأهل وأوطان القبيلة ، ومراتع الصبا ، أما المحدثون فيذكرونها اعتماداً على ايحاءاتها في الشعر القديم ، والعربى محب للشعر يحفظ كثيراً منه ، وهذه الأسماء ايحاءات محبة لديه مما أطلقه ، ورسخه

(١) ديوانه ص ١٧٠

الشعر القديم في وجدانه ، والشاعر هنا يستخدمها على هذا الاعتبار من مثل قوله في هذه القصيدة :

« خذا من صبا نجد » ، وقوله :

وبيني ذرا أعلام رضوى وهضبه

ألا ليت أتى لم تحل بين حاجر

وقوله :

ظمئت على طول الورود بشرية  
وقد أودعتني السقم قضبان كنية

أهيم إلى ماء بريقة عاقل  
وأستاف حر الرمل شوقاً إلى اللوى

وله في العتاب واسترضاء الممدوح ، والتنديد بالوشاة والكاشحين (١) :

وهل يسترجع الغيث الغمام؟  
تنزل في الوهاد به الرهام؟  
بها خجل وبالمجد احتشام  
وغيرك من تغيره اللثام  
ومن نعمى يكدرها انتقام  
ويحفر ذمة ذاك الذمام  
ويحسبني ندى هو لي حسام  
به عن مهجتي دفع الحمام  
نقياً لا يلثم به الملام  
فغيري عاشق وبي السقام  
تجلى الظلم عني والظلام  
وتحرقني ومن غيري الضرام  
فأين العدل عني والكرام  
إذا حالت عن السكر المقام  
فإن كلام أكثرهم كلام  
إذا طأوتهم والحمد دائم

متى ارتجعت مواهبها الكرام  
أيصعد عائداً في السحب قطر  
أرى العلياء من تقصير أمرى  
جمال الملك غيرى منك يذهي  
أعيذك من رضى يتلوه سخط  
أيرجع جفوة ذاك التصافي  
أتبريني يد راشت جناحي  
ويغري بن الحمام أخو سماج  
أعرنى طرف عدلك تلق عرضاً  
وحقق بالتأمل كشف خالي  
إذا ما افتتر يرقك في سمائي  
أنفريقي وليس الماء مني  
وأوخذ في جملك بذنبي غيري  
وأين خلائق ستحول عنها  
فلا تلقى إلى الواشين سمعاً  
وإن الود عندهم نفاق

(١) ديوانه في جمال الملك ص ١٧٨ .

وله في شكوى الزمان بمطلع قصيدة يمدح بها الأمير سديد الملك بن منقذ ،  
تذكر بيانية لابن الرومي ، وتحس فيها بمصاحبه له وهو ينظمها . يقول فيها (١) :

وحزمتي حزمتي في ظهور النجائب  
غلبت به الخطب الذي هو غالبسي  
قراع الليالي لا قراع الكتائب  
يزيد اتساعاً عند ضيق المذاهب  
رفعت وقد هدبتني بالتجارب  
وأعطيت فضلاً في النهي غير ذاهب  
لدي ، ولا ماء الأمانى بساكب  
زماناً ، ولا ديني عليها بواجب  
وتقضى بهالي ، عادلات ، مناصبي  
وأخرى ، وما من قطرة في المذانب (٢)  
إذا كنت ذا برق من الحظ كاذب  
وبالبرق عن صوب الغيوث السواكب  
تزهدي في نيل الغنى كل راغب  
خضوعاً ، رأيت العدم خير مراكب  
وفضل مبین كنت أول راكب  
وأظفر بالحاجات لست بطالب  
ولا كل ناء عن رجاء بخائب

يقيني يقيني حادثات النوائب  
سينجدي جيش من العزم طالما  
ومن كان حرب الدهر عود نفسه  
على أن لي في مذهب الصبر مذهباً  
وما وضعت مني الخطوب بقدر ما  
أخذت ثراء غير باق على الندى  
فمالي ؟ لا روض المساعي بمترج  
كأن لم يكن وعدي لديها بجائز  
وحاجة نفس تقتضيها مخايلي  
عددت لها برق الغمام هنيئة (٣)  
وهل نافعي شيم من العزم صادق  
وإني لأغني بالحديث عن القرى  
قناعة عز ، لا طماعة ذلة  
إذا ما امتطى الأقوام مركب ثورة  
ولو ركب الناس الغنى يبراعة  
وقد أبلغ الغايات لست بسائر  
وما كل داب من مراب بظافر

ويذكر في مديحه لأحد الأمراء حضه على جهاد الفرنجة من الصليبيين ، وقد  
جاشت جيوشهم في بلاد الشام ، وهاجمت حملاتهم أصقاعة شمالاً وجنوباً حتى  
احتلوا القدس وبعض الثغور . يقول (٤) :

إلى كم وقد زخر المشركون  
وقد جاش من أرض إفرنجية  
بسيل يهال به السيل مدأ  
جيوش كمثل جبال تردى

\* \* \* \* \*

(١) ديوانه ص ١٢ .

(٢) هنيئة اسم للمائة من الإبل وغيرها .

(٣) والمذانب جمع مذنب وهو الجدول يسيل في الروضة بمائها إلى غيرها .

(٤) ديوانه ص ١٨٤ .

بنو الشرك لا ينكرون الفساد  
ولا يردعون عن القتل نفساً  
فكم من فتاة بهم أصبحت  
وأم عواتق ما إن عرف  
تكاد عليهم من خيفة  
ولا يعرفون مع الجور قصداً  
ولا يتركون من الفتك جهداً  
تدق من الخوف نحرًا وخذًا  
من حرًا، ولا ذقن في الليل بردًا  
تدوب وتلف حزناً ووجدًا

وفيهما يحض على قتال الصليبيين مع بقية أمراء المسلمين مشيداً بجهاد  
السلاجقة ، ومنهم ألب أرسلان يقول :

فقد أينعت أروسُ المش  
فلا بد من حدّهم أن يُقل  
فإن ألب رسلان في مثلها  
فأصبح أبقي من الفرقدين  
ركين فلا تُغفلوها قطافاً وحصداً  
ولا بد من ركنهم أن يهدأ  
مضي وهو أمضى من السيف حدًا  
ذكرًا وأسنى من الشمس مجدًا

وترك ابن الخياط ديوانه رواه تلميذه أبو عبد الله محمد بن نصر القيسرائي  
( ت ٥٤٨ هـ ) وقد أعجب العلماء بشعره فقرظوه وأشادوا به .

يقول خليل مردم<sup>(١)</sup> : « أما منزلته بين الشعراء في عصره فقد اتفق على أنه  
كان من المحسنين ، بشهادة معاصريه من طبقة شيوخه ومن دونهم ، فقد شهد له  
شيخه ابن حيوس بالإجادة وهو في ريق الشباب ، وجعله وليّ عهده » .

وقال ابن عساكر : « ابن الخياط ختم به ديوان الشعر بدمشق ، وكان شاعراً  
مكثرًا مجيداً محسنًا » .

وقال السلفي : « كان ابن الخياط شاعر الشام . وقد اخترت من شعره مجلدة  
لطيفة ، وسمعتها منه » .

وقال أبو الفوارس نجا بن اسماعيل العمري : « ابن الخياط في عصره أشعر  
الشاميين بلا خلاف » .

وقال الذهبي : « ابن الخياط شاعر عصره ، من كبار الأدباء ، ونظمه في  
الذروة » .

(١) مقدمة ديوانه ص ٣٠ .

وقال ابن خلكان : « .. كان من الشعراء المجيدين .. وأكثر قصائده غرر » .  
والذى نراه أنه ومعاصره أبا أسحاق إبراهيم الغزى طبقة واحدة ، وكلاهما محسن  
ولكن الغزى رحل عن الشام ودخل بلاد العمجم ، وبقي هناك بقية حياته ،  
فأصبح ابن الخياط وحده شاعر الشام » .

وقال ابن العماد الكاتب فى المقارنة بينه وبين شاعر الشام الكبير آنذاك أبى  
الفتيان ابن حيوس : « ابن حيوس أصنع من ابن الخياط ، لكن لشعر ابن الخياط  
طلاوة ليست له » (١) .

ويقول خليل مردم (٢) : « والحسن من شعره أكثر من الوسط ، وقد يعلو  
حتى يبلغ الأوج . وله قصيدة هى فى رأينا أحسن شعره ، ومن مختار الشعر فى  
جميع عصوره ، سلمت جميع أبياتها ، عذبة الألفاظ ، خلاصة المعانى ، جعل  
نسيها وصفاً لآراب الشباب ، ونزعات الصبا ، ونزوات الفتوة » . يقول :

وراح يَحْتالُ فى ثوبى هوى وصبا  
كما يغادر فضل الكأس من شربنا  
أن الزمان سيمحو منه ما كتبنا  
إلا ارتدى برداء الشيب وانتقبا  
فبادر العيش بالذات وانتهبا  
فليس يوم بمردود إذا ذهبنا  
لم أقض من حبه قبل التوى أربنا  
وجاذبته جبال الشوق فأنجذبنا  
حتى إذا أدبرت حاولتها طلبنا  
صم المطالب لا ورداً ولا قربنا  
تألي المحل ، طريداً عنه معتربنا  
فكلما رضىته فى مطلب صعبنا  
فكلما قلقته نهضة رعبنا  
هولاً يزهّد فى الأيام من رعبنا

أعطى الشباب من الآراب ما طلبنا  
لم يدرك الشيب إلا فضل صبوتيه  
رأى الشيبة خطأ موقفاً فدرى  
إن الثلاثين لم يسفرن عن أحد  
والمرء من سن فى الأيام غارته  
ما شاء فليتخذ أيامه فرصاً  
هل الصبى غير محبوب ظفرت به  
إنى لأحسد من طاح الغرام به  
والعجز أن أترك الأوطار مقبلة  
مألى وللحظ لا ينفك يقذف لى  
أصبحت فى قبضة الأيام مرتبنا  
ألح دهر لجوج فى معاندتى  
كمخاض الرحل إذ طال العناء به  
لأسلكن صروف الدهر مقتحماً

(١) مقدمة ديوانه ص ٢٧ .

(٢) مقدمة الديوان ص ٢٩ .

غضبانَ للمجدِّ، طَلاباً يَثارُ عِلاً  
عِنْدِي عَزَائِمُ رَأْيِي لَوْ لَقِيتُ بِهَا  
وَاللَّيْثُ أَنتُكَ مَلاقي إِذا غَضِبَنا  
صَرَفَ الزَّمانَ لولِي مَعنَا هَرَبَنا

وفي شعر ابن الخياط ذاتية واضحة ، ويختلف عن أستاذه ابن حيوس الذي تغلب عليه الموضوعية كما أشرنا . كذلك فإن صياغة ابن الخياط تختلف عن صياغة ابن حيوس لأنه يميل إلى رقة الكلام ، ولا يَجْنَحُ للجزالة والخطابية ، كما نرى الطبع والشاعرية يغلبان الصنعة والمباشرة . وهو في عمله الشعري يتبع طريقة البحتری ويتأثر به مخالفاً بذلك ابن حيوس الذي اعتمد طريقة أبي تمام .

ومعظم معانيه في موضوعات المدح الغالبة على شعره مستمدة من التراث الشعري السابق ، وما تأثر فيه بمعاني البحتری وصياغته واخيلته قوله :

يَبِضُّ تَوَقُّدٌ فِي أَيَّامِهِمْ شُعَلٌ  
هِيَ الصَّواعِقُ إِذْ تَسْتَوِطُنُ السَّحْبَنا  
وأحسن ما قال من الشعر كما أضحنا ليس في المدح ، ولا شعر المناسبة والتكسب ، لكن ما قاله في الشكوى كالقصيدة التي يرقى بها الشباب ، أو هذه القصيدة التي يشكو فيها الزمن :

أَلَا كَرِيمٌ عَلَى الأَيَّامِ يُعَدِّينِي  
أَشكو الزمانَ إِلى مَنْ لَيس يُشَكِّينِي  
وَابتَغِي ما جَداً مَتَحَضاً فَيُعِينِي  
وَابتَغِي الرَّفْدَ مِمَّنْ لا يَواسِينِي  
لَبِغْتُ فَضلي بِحَظِّي غَيرَ مَعْبُودِ  
لَكانَ فَضلي عَن ذِي النَقصِ يُغِينِي  
مِني فَجِئَمَ لا يَنفَكُ يَومِينِي  
جَمعاً ، فَواجِدَةً مِمنهُنَّ تَكفِينِي  
بِكُلِّ ما نالَ مَني الدَّهْرُ وَيُسَلِّينِي  
ومِثْلَ ما نالَ مَني الدَّهْرُ يُسَلِّينِي  
حَتَّى بُلِيتُ فَصارَ الهَمُّ يُضِنِّينِي  
فَاليَومِ بِي يَتأسَى كَلِّ مُحزُونِ  
أَلأَتى مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ يَحْمِينِي  
مُضى الكَرامُ وَقَد حُفِلَتْ بَعدَهُمُ  
كَمْ أَستَفيدُ أَحْماً بَراً فَيَعجزُنِي  
أَرجو السَّماحةَ مِمَّنْ لَيس يُسَعِّفُنِي  
لو كُنْتُ أَقْدِرُ ، وَالأَقْدارُ غَالبَةٌ  
لو كانَ فِي الفِضْلِ مِنْ خَيرِ لَصابِغَةٍ  
يا هِذِهِ قَد أَصابَ الدَّهْرُ حَاجَتَهُ  
إِن كانَ يَجْهَدُ أَن أَصَلِّي نَوائِبَهُ  
كَانَهُ لَيسَ يَغْلُو مَرَمِلاً يَدُهُ  
سَلَوْتُ لا مَلِكَ عَمَّنْ كَلَفَتْ بِهِ  
ما كُنْتُ أَرضى الهَوى وَالوَجْدُ يَتَجَلَّنِي  
مَنْ كانَ ذا أَسوَةٍ مِمَّنْ بِهِ حَزَنُ

آيات إنسانية صادقة العاطفة ؛ هي نفثات لمكروب تمارجها ذاتية واضحة تكشف عن معاناة الشاعر ، ويجرى فيها نفس واحد من البداية حتى النهاية



تنساق في كلمات لا تكلف فيها ، ولا صنعة خارجة على طبيعة الشكوى الصادقة .

وطبع ابن الخياط وتلقائيته واضحان كل الوضوح ، وهو وإن تتلمذ على ابن حيوس ، واعتبره هذا خليفته في الشعر على شعراء الشام إلا أن الشخصيتان اختلفتا، بل تعارضتا، كما اختلف شعرهما، فابن حيوس أمير مستغن بما كان لديه من المال عن الطلب في معظم حياته ، وهو قصير حسن المظهر على غير حال ابن الخياط وبنيته ومظهره ، فقد كان فقيراً ، يعمل في حرفة الخياطة وتكسب بالشعر الذي قاله طبعاً لا تعليماً ، وكان قوى البنية تحسبه حملاً أو جملاً لبرزته وشكله وعرضه ، كما قال العماد الكاتب .

وطبيعي أن لا نجد في شعره آثار ثقافة متعددة المصادر ، منوعة الاتجاهات اللهم إلا ما اقتضته المعرفة ، ومن هنا كان استخدامه للغة في حدود محفوظة المحدود من الشعر ، وقراءته المحدودة كذلك .

ومن هنا لا تجد توظيفاً لمعلومات ، أو نصوص شعرية أو نثرية أو معرفية عامة .

## إبراهيم الغزى\*

( ت سنة ٥٢٤ هـ )

أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى عثمان بن محمد الكلبي .

ولد ونشأ بغزة ، ثم انتقل إلى دمشق لطلب العلم ، وأخذ بها على جماعة من مشاهير عصره ، وكان أول دخوله دمشق سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، ولعله كان حينذاك قد ودع الشباب ودرج إلى الرجولة والكهولة . وسمع بدمشق من الفقيه نصر المقدسي .

ولما بعث إليه مرتبة ، وفي الشعر مكانةً رحل إلى بغداد ، والتحق بالدرسة النظامية وأقام بها سنين كثيرة ، وامتدح بها جماعة من رؤسائها وانتشر شعره هناك .

وقد أشاد به الحافظ ابن عسساكر وكذلك البغدادي ومن بعدهما ابن خلكان وعماد الدين الأصبهاني وذكروا له مقطعات من شعره ز ولم يوردوا قصائد بتامها .

قال ابن خلكان . وله ديوان شعر اختاره لنفسه ، وذكر في خطبته أنه ألف بيت .

وتم يستقر به الحال في بغداد ، بل ألققه حب الرحلة ، والتنقل في البلاد ، فتوجه ناحية المشرق وطرق خراسان وكرمان ، ولقى بها جماعة من الفضلاء فمدحهم ، ونال رضاهم وعطاءهم .

قال ابن العماد بعد أن أثنى عليه : وتغلغل في أقطار خراسان وكرمان ، ولقى الناس ، ومدح بصر الدين مكرم بن العلاء وزير كرمان بقصيدته البائية التي يقول فيها ولقد أبدع :

---

راجع ترجمته في وفیات الأعيان ١ / ٥٧ بتحقيق الدكتور إحسان عباس وفريدة القصر - قسم شعراء الشام ج ١ وتاريخ بغداد . وتاريخ دمشق لابن عساكر

حسنا من الأيام مـلا نُظِيقُهُ كما حَمَلَ العَظْمُ الكَثيرَ العِصَابِ  
ومنها في قصر الليل وهو معنى لطيف :  
ونيل رجونا أن يدبَّ عِذارُهُ فما اختطَّ حتَّى صارَ بالفجرِ شائباً  
قال : وهى قصيدة طويلة .

وفيما روى مما بقى من شعره ما يوحى بأنه قاسى من العوز والحاجة ، ولم  
يلق من مدائحها لبعض وجوه عصره ما يرضيه ، فتناول بعضهم هاجياً  
ومعترضاً يبخلهم ومنه قوله في أحد الوزراء :

من آلة الدسِّ لم يُعْطِ الوَزيزِ سِوَى تحريكِ لحيته في حالِ إيماءِ  
إن الوَزيزِ ولا أزرٌ يَشُدُّ به مثل العروضي له بحر بلا ماءِ  
وقال بزم الناس لقلته عطائهم :

وجفَّ الناسُ حتى لو بكينا تعذَّر ما تُبَلُّ به الجفونُ  
فما بندى لمدوح بنانٍ ولا يَنذَى لمهجوَّ جيين

ويبدو أنه يمس من المديح فهجر الشعر وسأله الناسُ عن ذلك فقال :

قالوا هجرت الشعرَ . قلت ضرورةً . بابُ الدَّواعي والبواعثُ مُغْلَقُ  
نَحَلْتُ الدِّيَارُ فلا كريمٌ يُرتجى منه النوالُ ، ولا مليحٌ يُعشَقُ  
ومن العجائبِ أنه لا يُشترى ويُخَانُ فيه مع الكسادِ ويُسْرَقُ

فالشاعر لا يجد ما يجيبه على مدائحه ، وقد كسدت سوق الشعر ، فلم يجد  
ما يحفز على قوله ، وكأنه يسترجع ما قال به القدماء من أن الطمَّع كان في  
مقدمة الحوافر لصنعتة . وتأتى بعده العاطفة .

وإحساس الشاعر بأزمته تلك جعلته يريق ماء الوجه في غير طائل ، وكأنه  
يتنجرع المر ، ويحتمل طعان الأسنة يقول شاكياً تلك الحال :

ونحزُ الأسيِّنةِ والخضوعُ لناقصِ أمدانٍ في ذوقِ التَّهَى مُرَّانِ  
والرَّأى أن يختار فيما فوَّنه الـ مُرَّانِ ونحزُ أسيِّنةِ المرَّانِ

وتتعدّد أغراض الشعر عنده ، وتتعدد معانيه ، وإن لم نخط بها علماً سوى  
شذرات هنا وهناك ، هي أبياتٌ منشورة ، مفردة أو مقطوعات في بيتين أو  
ثلاثة تيشي ولا تشفى غليلاً . من ذلك قوله متغزلاً :

إشارةً منك تغنييني وأحسنُ ما رَدَّ السَّلامُ غداةَ الين بالنعيم  
حتى إذا طاح منها المرط من دهش والحل بالضم سلك العقيد في الظلم  
تسَمَّتْ فأضاء الليل فالتقطت حَبَّاتٍ منشر في ضوءٍ منتظم

وذكر ابن خلكان أن هذه الأبيات مما تستملحُه الأدباء وتستظرفه ، وإن  
نظر فيها إلى بعض السابقين من الشعراء .

فمن معانيه مما ارتاده من قديم الشعر كقوله :

وبورك في خيام قبيل ليل وفي تلك المضارب والحجال  
فما أو تاذهن سوى المواضي ولا أطنأهن سوى العوالى

ومن معاني الغزل والفراق قوله (١) :

يجمع جفنيك بين البرء السقم لا تسفكي من جفوني بالفراق دمي  
إشارةً منك تغنييني وأفصح ما رَدَّ السَّلامُ غداةَ الين بالنعيم  
تعلق قلبي بذات القرط يؤله فليشكر القرط تعليقاً بلا ألم  
تضمرت وجنة في ماء جنتها والجمر في الماء خاب غير مضطرم  
ماء الأسيلين يكوى برْد مَلَمَسِهِ فهل سمعت بماءٍ مُحرقٍ شيم  
وما نسيت ولا أنسى تحشمها وملبس الجو غفل غير ذي علم  
حتى إذا طاح عنها المرط من دهش والحل بالضم سلك العقيد في الظلم  
تسَمَّتْ فأضاء الليل فالتقطت حَبَّاتٍ منشر في ضوءٍ منتظم

وقال (٢) :

ومشكورة التسوييف في قدرة البغني وخير نواب الحب ما لم يعجل  
أبي صدّها أن تعدم العين قرة واللبس في إذاره حسن مقبل

(١) تأهيل الغريب ص ٢٩٨ .

(٢) تمام المتور ٧٩

وقال (١):

واجعل خَجَّ تلاقينا مواقيتا  
مُسَوِّدٌ حاشاه من وسم وجوشيتا  
فلاح من ناظريك السحر منكوثا  
مُوسَى ، وعيناك هاروتا وماروتا  
لكل جمع من الألباب تشتيتا  
يَضُمُّ قلبا من الأصلاذ منحوتا  
فلا تغادره مسحوقاً ومفتوتا  
والله ينبتَه فيهن تنيبتا  
ونور وجهك ردَّ البدر مبهوتا

أَمِطْ عن الدرِّ والزهرِ اليواقيتا  
فثغرك اللؤلؤ المبيض لألحجر الـ  
قابلت بالشب الأجناني مبتسماً  
وكان فوك اليد البيضاء جاء بها  
جمعت ضدّين كان الجمع بينها  
جسماً من الماء مشروباً بأعيننا  
مسكاً حسيث فؤادي كان فيك دماً  
المسك من سرِّ الغرلان مكتسب  
ونشر ذكراك أذكى الطيب رائحة

وقال (٢):

سَأَلْتُ الصَّبَا عن تَشْرِكُمْ أَيْنَ وَفْدُهُ  
وعَلْتُهُ هَجْرُ الحبيبِ وصَدُّهُ  
وما الحُبُّ إلَّا ما تقادم عَهْدُهُ  
لَهُ سِمَةٌ تُثَبِّتِي الهَوَى وتَهْدُهُ  
ففي كَفِّهِ حُلُّ الجمالِ وعَقْدُهُ  
يَلْدُّ بها الطَّرْفُ الذي هو حَدُّهُ  
ولكنّه يَسْتَجَلِبُ الحَرَّ بَرْدُهُ

إذا فاح نَوَارُ العقيقِ ورَنْدُهُ  
وكيف تُريحُ الريحُ من كُرْبَةِ الهَوَى  
وعِنْدِي عَهْدٌ من هَوَاكُمْ تقادمتُ  
ومُنْعِطِفِ الصُّدُغينِ لا عَطَفَ عندهُ  
تَصَرَّفَ في معنَى الجمالِ ولُطْفُهُ  
جفوني ترى هاروت ماروت بيننا  
وثغر حكي الكافور طيب رُضايه

وقال (٣):

لَكِنْ ديارُ الذي تهواه أوطانُ  
سَمَّ الحياضِ مع الأخبابِ ميدانُ  
مع الحبيبِ وكلِّ الناسِ إخوانُ  
والتأرحين وهم في القلبِ سكانُ  
كأنا قط ما كنا وما كأنا

ليست بأوطانك اللأني نشأت بها  
خيرُ المواطنِ ما للنفس فيه هوى  
كلُّ الديارِ إذا فكرت واجدة  
أفدى الذين دنوا والهجر يُبعدهم  
كنا وكانوا بأهني العيش ثم ناوا

(١) تأميل الغريب ٣٩ .

(٢) تأميل الغريب ص ٩٢ .

(٣) الكشكول ١ / ٢٨٧ .

ويشكو الزمان :

لا تُعِينُ الزَّمانُ إِنْ دَهَبَتْ  
فالحولُ لولا الجُدودُ ما قصرتُ  
نيوبُ نَيْبِ العَرِينِ من نُوبِهِ  
أَيْدِي جَماداهُ عن عَلا رَجَبِهِ  
ويقول (١) :

لا تُشْكُ فالأَيامُ حُبلى رُبَّما  
فكذا تصاريفُ الزَّمانِ مَشَقَّةٌ  
جاءتكَ مِنْ أَعْجوبةِ بَجينينِ  
في راحَةٍ وخَشونَةٍ في لِينِ  
ما ضاعَ يُؤنِّسُ بالعِراءِ مجرِّداً  
في ظِلِّ نابتَةٍ من اليَقطينِ  
وتدور بعض أبياته حول تجارب الحياة والأيام ، يصوغها في قوالب الحكم  
والأمثال ، فيقول (٢) :

المجد سَهْلٌ والطريقُ إليه بالإجماع وَعُرٌّ

ويقول (٣) :

لا تُشْكُونَنَّ من الخمولِ فرُبَّما  
لولا كَمونُ الدَّرِّ في أصَدافِهِ  
كانَ الخمولُ إلى السَّلَامَةِ سُلْماً  
ومَشَقَّةٌ اسْتِخراجِهِ ما فُحِّماً  
ويقول (٤) :

قالوا بَعُدَّتْ ولم تُقْرَبْ فقلتُ لَهُمْ  
لولا التَّباعُدُ بينِ الحاجِينِ بِهِ  
بُعِدِي عن النَّاسِ في هذا الزَّمانِ حَجِيٌّ  
بأنَّ افتراقَهُما لم تُعْرِفِ البَلِجاءُ  
ويقول (٥) :

صقلتُ العَلا بالمكرَماتِ وإنَّما  
يَنمُّ بأسرارِ السِّيوفِ الصِّياقِلُ

(١) النيث للصفدي ٢/ ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٤٧ .

(٣) شرح اللامية ٢/ ٢٩٥ .

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٢٩٥ .

(٥) تمام المتون ٦٨ .

وقال (١):

خلقتُ لذئبِ إبليسِ اعتذاراً  
إذا كانَ ابنُ آدمَ مثلَ هذا  
فتادُ ، وقالَ فُرْتُ وحقَّ جيدي  
فكيفَ ألاءُ في تَرْكِ السُّجودِ  
ويعللُ خروجَه عن بغداد ( الزوراء ) فيقول :

مالي وللمكث في الزوراء يُجحفني  
قلبي أظنُّ هو المعدي مساكينها  
من ألحاح العجز لم يُفرح بما نتجا  
بنارٍ لوعته لئلا ارتقي درجاً  
فالتور محترقاتٍ وانجيز بها  
يساعدُ الهجر فيما يسلب المهجا  
ويقول (٢):

من ظنَّ أنَّ القوافي لا تُشور لها  
فليذكر القاسم العجلى والكرخا  
ويقول :

لا تحقرنَّ ضيفَ الرزقِ وأرض به  
وايزل إذا نه تجد للمرتقي سبباً  
ما العمرُ مجتمعٌ إلا من الوشل  
فباسق العود يترجو نازل السبل  
ويقول :

لو تملك الدنيا يدي لأرختُ من  
وقسمتها بيني وبين أصادق  
يُمسى ويصبحُ طالباً مَحَثاً  
وعيداً غير مُميزٍ أثلاثاً  
ويقول :

لا يُحطنُ رتبتي سوءَ حال  
أنا كالتار أطفأ القطر منها  
آيةُ الحسني في الجفون السقام  
ولها بعد أن نُفخت احتدام  
ويقول (٣):

ليت الذي بالعشقِ دونكِ حصني  
أنا في الهوى مثل الخلال مُثقف  
يا ظلمي قَسَمَ الحبة بيننا  
ولقد أضرت لي مناسبة القنا

(١) المصدر نفسه ١١٦ .

(٢) شرح اللامية ص ١١٨ .

(٣) جوهر الكنز ٤٦٦ لابن الأثير . طبع منشأة المعارف .

وينت على الرحلة والإنتقال ، لأن الخمر من شأن من يستقر في مكان :

يا خليلي حلياً عاقل البــــــــــــــــيد بوجه النجبية الشمال  
زحل أكبر الكواكب لا يحمل إلا من قلة الإنتقال  
ويقول :

الحسن والقبح قد تحويهما صفة شأن اليياض، وذان الشيب والشبنا  
ظبا الحاريف أقلام مكسرة رءوسهن، وأقلام السعيد ظبا

يتحدث عن الآله يملكها صاحب الحظ النعس والسعيد ، فيشقى بها ذاك ،  
ويسعد بها هذا . ويخص صنعة الكتابة يشقى بها ناس ويسعد آخرون ،  
فأصحاب الأقلام ليسوا سواء في السعادة .

ومما عرضنا من نماذج شعر الغزى تبيين لنا ملامح ، لا نملك لها تفصيلاً ما لم  
نعثر على ديوانه ، ونعرض لجملة شعره ، وأول ملمح نلمسه في مضامينه  
ومعانيه ، ما يكشف عنه قوله من أزمة أحس بها الشاعر في حياته وتعامله مع  
الناس ، عبر عنها في غزله وشكواه ، وما يتف من نفثات ساقها على صورة  
حكم وتجارب خاضها كما خاضها غيره من قبل فعبّر عنها تعبيرات متفاوتة  
تعامل فيها مع المعاني التي تداولها الشعراء من قبل في مثل ما عاناه ، واستعان  
أحياناً ببعض العبارات والألفاظ ، وأخرى بالصور والخيالات .

ولم تكن سلاسة اللفظ من خصائصه ، بل تغلب عليه الرصانة والجزالة  
واللجوء أحياناً إلى اللفظ الغريب والحوشي . وقد لاحظته عليه الصقدي حين  
قال : « ما أثقل قول الغزى في هذا المعنى ، وأوهى ، وأوهن ما شلده في هذا  
البيت ، وهو :

ولا غرو أن كنت بعض الورى فإن الينجوج بعض الحطب

ومعانيه ، وأمثاله تتم عن أزمته ، وقلقه ، وإحساسه بظلم الحياة والناس  
ومعاندة الدهر والحظ كأن يقول في إحباط واضح :

ولن يتساوى سادة وعبيدهم على أن أسماء الجميع موالى



وقوله :

مصاحبةً التي حطرَّ وجهلَّ وكم شرقٍ تولَّد من زلالٍ

وقوله :

كم عالم لم يلج بالقرع باب منى وجاهل قبل قرع الباب قد ولجا

ويستعين ببعض المعارف التاريخية والعلمية والفلكية .

ويستعين ببعض مصطلح العلوم كعادة معاصريه ، كأن يستعين بمصطلح

النحو في مثل قوله :

قالوا نزلت ، فقلتُ الدَّهرُ أقسمُ بي لا وجةً للرَّفْعِ في المجرور بالقَسَمِ

وكرر هذا المعنى فقال :

غيري له المجد والأيام تقسيمُ بي وهي الجديرة بالضيِّزي من القسم  
أظنها أقسمت باسمي لتخفِضَنِي ولم يكن غيرَ فضلي أحرفُ القسم

ويقع له المعنى الجيد كقوله :

كالشَّمعِ يَبْكِي ولا يُدْرِي أعْبَرْتُهُ من صُحْبَةِ النَّارِ أم من فرقة العَسَلِ

وبعد فقد كان العزى من الشعراء المحروبين القلقين ، تقلبت به صروف الدهر ، فهاجر مغادراً بلده يلتمس حظاً من الدنيا ، فلم تعطه ما يريد وشرق طالباً مطلع الشمس عليه يلتقى في مشرقها ما لم يلقه في مغاربها ، وعمر وطال عمره ، وعجز بعد هرمه ، وأحس بالموت يدب في أوصاله ، ففارق الحياة بعد مرض أقعده ببلاد خراسان فلما أشرف على فراق الدنيا قال : أرجو أن الله يغفر لي ثلاثة أشياء : لكوني من بلاد الإمام الشافعي وكوني شيخاً كبيراً ، وكوني غريباً(١) .

(١) الغيث المسجم — شرح لامية العجم للصفدي ١/١٦٧ .

## الفصل السابع

### شعراء وافدون من المغرب

- ١- التُّجيبى الأندلسى ( ت بعد سنة ٤٣٠ هـ )
- ٢- ابن القطاع الصقلى ( ت ٥١٥ هـ )
- ٣- أمية بن أبى الصلت ( ت سنة ٥٢٩ هـ )
- ٤- ابن أبى البشائر
- ٥- ابن حُيَيْش الشيبانى
- ٦- محمود بن عبد الجبار الطرسوسى
- ٧- الرشيد الصقلى
- ٨- القلقى الأصم ( محمد بن عبد الله )
- ٩- مجبر الصقلى ( ت ٥٤٠ هـ )



## التجيبى

أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبى

( ت بعد سنة ٤٣٨ هـ )

من أهل القيروان ، وسكن المهديّة ، ويعرف بالبرق ، أخذ عن أبى إسحاق  
الخصرى تآليفه ، وعن جماعة من العلماء والأدباء فى القيروان والاسكندرية  
والقاهرة .

وكان عالماً بالأدب متبحراً ، شاعراً ، مجوّداً . من أهل التآليف والتصنيف مع  
جودة الضبط وبراعة الخط .

ويبو أنه توجه إلى مصر فى طريق رحلته للحج فى تلك السنة ، والتقى بجماعة  
من العلماء والأدباء والشعراء أخذ عنهم وأخذوا عنه ، فممن أخذ عنه أبو مروان  
الطّبئى ، لقيه بالإسكندرية .

ويبدو أنه تردد على مصر ، وكان حجة فيما يروى عام ٤٣٨ هـ ، ورافقه فى  
رحلته أبو بكر محمد بن على بن الحسن التميمى ثم الغوثى سنة ٤١٥ هـ وانشده  
أبو الحسن البصرى الشريف العباسى بمصر سنة ٤١٥ هـ كذلك .

وفى إحدى رحلات العودة من مصر سافر إلى صقلية حيث التقى بأديبائها  
ومن بينهم أبو الحسن على بن محمد الخياط الربعى شاعر صقلية آنئذ وجمعت  
بينهما صداقة ، وتبادلا الأشعار فى الحنين والمودة .

قال ابن الأبار : « ومن جلة أصحابه المعاصرين أبو الحسن الربعى شاعر  
صقلية ، وقد أكثر من إنشاد غرر شعره ومن الحنين إليه وإلى مجالس أنسه حنين  
الواله إلى بكرها ، والطير إلى وكراها ، ولا غرو فإنه كان شاعر صقلية إذ ذاك  
حيث قضى التجيبى مدة غير يسيرة من كهولته بعد انفصاله عن مصر . وربما  
بقى بها إلى ما بعد سنة ٤٣٠ هـ .

وفى رحلته إلى مصر صحب الشاعر أبا الحسن على بن حُيَيْش الشيبانى<sup>(١)</sup>  
وبقى أبو الحسن وتخلف عن صاحبه بمصر بينما واصل التجيبى رحلته إلى تونس

(١) راجع المختار ص ١٢١ .

فصقلية — فيما يظن — ويذكر التجيبي أن أبا الحسن بعث إليه برسالة بعد  
افتراقهما ضمَّتها نظماً ونثراً يصف فيها نزهة حضرها بعده بمصر سنة ٤١٤ هـ .  
واستقر التجيبي فيما يبدو كغيره من المغاربة بالاسكندرية بعض الوقت قبل أن  
يذهب إلى الفسطاط بالقاهرة .

وكغيره كذلك جاب في أنحاء مصر والجيزة ، ومتع بصره بمنازه النيل ومفاتن  
الطبيعة الجميلة المحيطة بالقاهرة والفسطاط . ومن بين نزهاته تلك ما رواه في  
المختار . قال (١) : « مشيتُ أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن يونس الأنصارى الإشبيلي  
رحمه الله تعالى إلى ناحية أوسيم ، قرية تشرف على جيزة مصر ، فرأينا هناك من  
نور الأفحوان ما لم يُر مثله قط في النضارة ، وإشراق أصفره وفقوعه في صفاء  
أبيضه ونصوغه ، فعملنا عدة مقاطيع فيه ، فلم يتفق لنا من ذلك العمل ما نرضى  
إثباته إلا بيتان قلتُهُما أنا . وهما :

كَأَنَّ الْأَفْحَوَانَ وَقَدْ تَبَدَّتْ      مَحَاسِنُهُ فَرَاقَتْ كُلَّ عَيْنٍ  
عَمَادُ زَبْرَجِدٍ وَقَبَابُ تَبْرِ      تَحْفَ بِهَا شُرَافَاتُ اللَّجِينِ

فرضيناه جميعاً وأعجبَ أبا الحسن ( على بن حُبَيْش الشيباني ) اعجاباً  
مفرطاً فأورده بعدُ في بيته ، ولم يتمكن له ذكر الزبرجد ، فذكر الخضرة في البيت  
الذي يليه فقال :

كَلِمَا هَبَّتِ الرِّيحَ تَمَائِدٌ      سَنَّ عَلَى اسْوُوقٍ مِنَ الرَّيِّ خُضْرُ

ومن التقى بهم في مصر وأنشده أبو الحسن البصرى الشريف العباسي  
قال (١) : أنشدني أبو الحسن البصرى الشريف العباسي بمصر لنفسه سنة خمس  
عشرة وأربعمائة :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْإِلْفَ يَعْزَمُ لِلنُّوَى      عَزَمْتَ عَلَى جَفْنِي أَنْ يَتْرَقَ قَا  
فَخَذْتُ حُجَّتِي فِي تَرْكِ جَيْبِي سَالِمًا      وَقَلْبِي فِي حَقِّيهِمَا أَنْ يُشَقَّ قَا  
يَدِي ضَعُفْتُ عَنْ أَنْ تُحَرِّقَ جَيْبَهَا      وَلَمْ يَكْ قَلْبِي حَاضِرًا فِيمَرْقَا

فاستغربت له هذا المعنى واستظرفته . فأنشدني بعده لنفسه من قصيدة له :

(١) المختار من شعر بشار ص ١٢٦

ولو أني جعلتُ أمير جيشٍ      لما قائلتُ إلا بالسؤالِ  
لأنَّ الناسَ ينهزمون عنه      وقد تبتوا لأطرافِ العواليِ  
فأظهرت استطرافاً لهذا المعنى أيضاً .

وللتجيبى شعر ساقه في مختاره ، منه قوله زمن شبابه<sup>(١)</sup> :

وغيداء كالبدْرِ المنيرِ      تطلعت

---

(١) المختار ص ١٧٨ .

## ابن القطّاع الصقلّي (١)

( ٤٣٣ - ٥١٥ هـ )

أبو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدى (٢)

ولد بصقلية سنة ٤٣٣ هـ . ووفد إلى مصر . قال ابن خلكان : « الصقلّي المولد ، المصرى الدار والوفاء ، اللغوى » . وهكذا فقد نشأ وتعلم بصقلية ، وقال الشعر صبيّاً في الرابعة عشرة .

كان أحد أئمة الأدب واللغة ، وله تصانيف نافعة . منها كتاب « الأفعال » أحسن فيه كل الإحسان . قال ابن خلكان : « وهو أجود من « الأفعال لابن القوطية » . وإن كان ذلك قد سبقه إليه . وله كتاب « أبنية الأسماء » جمع فيه فأوعى ، وفيه دلالة على كثرة اطلاعه . وله عروض حسن جيد ، وكتاب « الدرّة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة » (٣) يعنى جزيرة صقلية من مواطنيه ، وكتاب « ملح الملح » جمع فيه خلقتاً من شعراء الأندلس .

وكان من أساتذته في صقلية ابن البر اللغوى وأمثاله . وأجاد في النحو غاية الإجادة قال ابن خلكان : ورحل عن صقلية لما أشرف على تملكها الأفرنج ، ووصل إلى مصر في حدود سنة خمسمائة ( ٥٠٠ هـ ) ، وبالغ أهل مصر في إكرامه . وكان أول ما نزل بالإسكندرية .

واتصل بالوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، ومدحه بمدائح ، وتردد على مجلسه وكان من شعرائه . وأقام بالفسطاط أو القاهرة حتى زمن وفاته سنة ٥١٥ هـ بعد مقتل الأفضل . ودفن بقرب ضريح الإمام الشافعى .

وعمر طويلاً فقد جاوز الثمانين . وعلم ، وتخرج على يديه جماعة من المصريين ومما مدح به الأفضل قوله في مطلع قصيدة :

(١) راجع في ترجمته الخريدة ٥١/١ قسم شعراء المغرب بتحقيق عمر الدسوق وعلى عبد العظيم ، طبع دار نهضة مصر سنة ١٩٦٤ م . والخريدة طبع تونس ٥١/١ ، ووفيات الأعيان ٢/٣٢٢ إحسان عباس . وأنباء الرواة ٢/٢٣٦ وبقية الرعاة ، ومعجم الأدباء .

(٢) ذكر اسمه في تحقيق الدسوق وعبد العظيم على بن عبد الرحمن بن جعفر على خلاف الوفيات .

(٣) والكتاب مفقود . وله مختصر اسمه « الكتاب المتحل من الدرّة الخطيرة في شعراء الجزيرة » للشيخ أبى اسحاق بن أغلب — منه نسخة خطية بتمورية دار الكتب المصرية رقم ٢٢١٦ تاريخ وقام بنشرها المستشرق الإيطالى أميرتو زيزيتانو .

صاحبِي وأَسْفَا  
وَاسْتَمَعَا أَبْثُكَمَا

ذِي دِيَارِهَا فِقْفَا  
مِنْ حَدِيثِهَا طَرْفَا

وقال من أخرى :

مَنْ ذَا يُطِيقُ صِفَاتِ قَوْمٍ مَجْدِهِمْ  
وَحِمَاهُمْ مِنْ عَهْدِ حَامٍ لَمْ يُزَلْ

وَسِنَاؤِهِمْ مِنْ عَهْدِ سَامٍ سَامٍ  
يَحْمِيهِ مِنْهُ لَبِثَ غَابٍ حَامٍ

ويقول :

أَنْتَ كَالْمَوْتِ تَدْرُكُ الْخُلُقَ طُرًّا  
كَيْفَ يَرْجُو الَّذِي أَخْفَتَ نَجَاءً

مِثْلَ مَا يَدْرِكُ الصَّبَاحَ الْمَسَاءُ  
مِنْكَ ١٢. هِيَهَاتَ أَيْنَ مِنْكَ النِّجَاءُ

وهو محيط بقول النابغة :

« وَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي » .

ومعظم ما اختاره العماد وابن خلكان من شعره في الشراب والغزل ،  
والشكوى ووصف الشيب والزهد ربما في أخريات أيامه .

يقول في الغزل :

إِذَا ابْتَسَمْتَ يَوْمًا رَأَيْتَ بِثَغْرِهَا  
وَإِنْ أَسْفَرْتَ عَايْنَتَ شَمْسًا مَنِيرَةً  
وَتَسَلَّبُ عَيْنَاهَا الْعُقُولَ إِذَا رَنَتْ

سُمُوطًا مِنَ الْيَاقُوتِ قَدِ رُصِّعَتْ دُرًّا  
تُرْدُ عِيُونَ النَّاطِرِينَ لَهَا حَسْرَى  
كَأَنَّ بَعِينَهَا إِذَا نَظَرْتَ سِحْرًا

ومنها :

أَلَا إِنَّمَا الْبَيْضُ الْحَسَانُ غَوَادِرُ  
يَمَلْنَ إِلَى سُودِ الْقُرُونِ وَمِثْلُهَا  
وَمِنْ قَوْلِهِ فِي الشَّرَابِ :

وَمَنْ قَبِحَتْ أَعْمَالُهُ اسْتَحْسَنَ الْعُدْرَا  
إِلَى الْبَيْضِ مِنْهَا كَانَ لَوْ أَنْصَفَتْ أُخْرَى

قَهْوَةٌ إِنْ تَسَمَّتْ لِمَزَاجِ  
فَاصْطَبَحَهَا سُلَافَةٌ تَتْرَكَ الشُّبَّاحُ  
وَاعْتَبِنِمَّ غَفَلَةَ الزَّمَانِ فَإِنَّ الْمَسْرُورَ رَهْنٌ مَادَامَ يُوجَدُ حَيًّا  
قَطَعَ الْعُدْرَا يَا عَدُولَ عِدَارٍ

خَلَّتْ ثَغْرًا فِي كَأْسِهَا لَوْلُوِيَّا  
يَخِجُ إِذَا مَا أَصَابَ مِنْهَا صَبِيًّا  
كَهَلَالٍ أَنْارٍ بُدْرًا سَوِيًّا

وقوله :

أَقْبَلَ الصَّبِيحُ وَصَبَّاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْقِنِيهَا قَهْوَةً مُنْسِفَكَةَ



قهوة لو ذاقها ذو نُسكٍ  
فأهن دُنياك تُعزِّرك، ولا  
واغتنم عُمرَكَ فيها طائراً  
لزم الفتك ، وخلقى نُسكك  
تترك المال كمن قد تركه  
قبل أن تحصل وسط الشبكة  
وقوله :

شربت ذِياقةً للـ  
دبت بجسمى فأردت  
قتلتها بمزاج  
كانها طلبتني  
هُموم إذ لبستني  
هُمومهُ وشفتني  
وبعد ذا قتلتني  
بالثأر إذ صرعتني

ومن أوصافه ولعله من أبيات يصف أحد أعياد المصريين بالنيل والشموع  
تتكس على صفحته كما جاء في أقوال غيره من أشرنا إليهم . يقول :  
أنظر إلى الماء حاملاً لهباً  
واغجب لنار تضيء في ماء  
ومن وصفه قوله في الرمان :

رمانة مثل هذا العائق الرِّيم  
كانها حقة من عسجد ملئت  
يزهى بلونٍ وشكلٍ غير مستوم  
من اليواقيت نراً غير منظوم  
ومن أقواله في الحكمة ، والشكوى ، وذكر الشيب والزهد :

فلا تُفدِنَ العَمَرَ في طَلَبِ الصِّبَا  
ولا تُتدَبِّنَ أَطْلالَ مِيةٍ باللَّوى  
فإن قصارى المرء إدراك حاجة  
ويقول :

فيا نفسُ عدى عن صيباك فإنه  
أفق إن في خمسين عاماً كحجة  
فبيع برأس بالمشيب معمم  
على ذى الحجى إن لم يكن قلبه عمى  
ويقول :

تبه أيها الرجل الثوم  
وقد أبدى ضياء الصبح عما  
فلا تغررك يا مغرور دنيا  
ولا تخبط بمعوج غموض  
فقد تجمت بعارضك النجوم  
أجن ظلامه الليل البهيم  
غرور لا يثوم لها نعيم  
فقد وضع الطريق المستقيم

أمية بن أبى الصلت (ت ٥٢٩ هـ) (١)

هو أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت :

قال عنه العماد فى الخريدة (٢) : « من أهل المغرب ، وسكن الإسكندرية » .

ويقول مؤرخوه إنه ولد بدانية سنة ٤٦٠ هـ — ١٠٦٨ م . وذكر ابن خلكان أن ذلك كان فى فاتح المحرم أو فى ذى الحجة من السنة السابقة .

وقد عاش يتيماً ، لأن والده توفى وهو صغير ، ويذكر المؤرخون أنه أصطحب أمه فى رحلته الأولى إلى مصر ، ولم يذكر والده .

ولا تفصل الأنباء شيئاً عن مدة إقامته بالأندلس ، ولا عن بقائه فى بلده دانيه ، ويذكر المقرئ أنه عاش عشرين سنة فى أشبيلية ، أى أنه لم يغادر الأندلس إلا بعد العشرين من عمره ، وربما كان ذلك فى الخامسة والعشرين أو بعد ذلك .

وآثار أمية وعلمه يدلان على أنه حصل كثيراً من العلوم فضلاً على موهبته الأدبية التى مكنته من قول الشعر وإنشاء الرسائل ، وتأليف الكتب . ويذكر المؤرخون لحياته نبوغه فى علوم الطب والفلسفة والتنجيم والتاريخ والموسيقى . قال عنه العماد : « كان أوحده زمانه وأفضل أقرانه ، متبحراً فى العلوم . وأفضل فضائله المنثور والمنظوم ، وكان قدوة فى علم الأوائىل ذا منطق فى المنطق بدسحجان وائل » .

وكذلك قال عنه ياقوت : « كان أديباً فاضلاً ، حكيماً منجماً » .

وقال عنه ابن أبى أصيبعة : « قد بلغ فى صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء ، وحمل من معرفة الأدب ما لم يكن يدرکه كثير من سائر

(١) راجع ترجمته فى معجم الأدياء ج ٧ ص ٢٠ ، وفيات الأعيان . وخريدة القصر قسم شعراء المغرب ١ / ١٨٩ ، وعبون الأنبياء لابن أبى أصيبعة ج ٣ ص ٨٦ ، ونفع الطيب للمقرئ ٢ / ٣٠٨ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ١ / ٥٣٩ ، شذرات الذهب لابن العماد ٤ / ٨٢ .

الأدباء . وكان أُوحد في العلم الرياضى وإلهى ، كثير التصانيف ، بديع النظم » .

وقد استزاد من العلم الذى حصله في بلده بما حصله من العلم والأدب سنوات إقامته بمصر والقاهرة والإسكندرية . ويقول المقرئ أنه أفاد كثيراً من قراءة الكتب بالكتابة التى سجن فيها بأمر الأفضل نحو ثلاث سنوات . وألم بعلم الموسيقى والتلحين والغناء ، وأجاد العزف على العود ، وكثيراً ما كتب أشعاراً ليلحنها ويغنيها . قال المقرئ : « وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين ، وهو الذى لحن الأغاني الأفريقية . قال ابن سعيد : وإليه تنسب إلى الآن » (١) .

وجاء أمية إلى مصر وقد بلغ من العمر نيفاً وعشرين عاماً ، وقضى بمصر عشرين سنة على حد قول ابن سعيد (٢) . وتضطرب أخباره في مصر وتحتلظ عند المؤرخين .

ولكننا نرجح أنه تردد بين مصر والمهدية ، وأنه في أول أمره جاء إلى مصر مباشرة من بلده كغيره من الأندلسيين والمغاربة ، وصحب معه في تلك المرة أمه ، وكان ذلك في حدود سنة ٤٨٥ هـ (٣) ، وأقام بالإسكندرية زمناً لا نعرفه ، وربما التقى هناك بصديقه الشاعر ظافر الحداد شاعر الإسكندرية في عصره . وربما انتقلا معاً إلى القسطنطينية حيث أقاما . فقد روى صاحب البدائنه أنه سكن في منزل بدار بالحطة المعروفة بدويرة خلف بمصر ( القسطنطينية ) وكان مكتوباً على جدرانها بعض الشعر مما تركه بها أمية (٤) .

ونفترض أن أمية ظل بالإسكندرية ما تبقى من سنوات القرن الخامس وبضع سنوات من أول القرن السادس ، وعاش أول وفوده بضع سنوات في خلافة المستعلي ، ثم بعد في خلافة الأمر إلى سنة ٥٠٦ هـ ، ثم غادر مصر إلى المهديّة في هذه السنة حيث حلّ بيلاط يحيى بن تميم بن المعز قبل وفاته سنة

(١) نصح الطيب ٢ / ٣٠٨ .

(٢) المغرب ٢ / ٢٥٦ ، بتحقيق د . شوقي ضيف .

(٣) بدائع البداية ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

(٤) يحدد ابن خلكان سنة ٤٨٩ هـ .

٥٠٩ هـ بثلاث سنين ، ونفترض أنه عاش بها حتى عاد مرة ثانية إلى مصر  
يلقى الأفضل سنة ٥١٤ هـ ويمدحه .

وقد تكون رحلته الثانية إلى مصر بعد وفاة يحيى بن تميم سنة ٥١٠ هـ على  
حد قول ابن أبي أصيبعة ووافقه قدرى حافظ طوقان .

ويقول المقري أنه جاء في المرة الثانية موفداً من صاحب المهديّة إلى خليفة  
مصر ، ولعلّ صاحب المهديّة آنذاك كان على بن يحيى بن تميم ، وأراد بهذه  
الوفادة أن يُصلح ما شاب العلاقة بين يحيى وخليفة مصر وحكامها من  
شوائب .

ومعلوم أن أمية خرج في زيارته الأولى لمصر غاضباً ، غير راضٍ لما لقيه من  
الأفضل الجمالي من معاملة سيئة ، فقد أمر بسجنه في خزانة البنود أو في خزانة  
الكتب . وألف رسالته المصرية . يعبر عن هذه الغضبة ، فذم المصريين ،  
وقدمها ليحيى بن تميم صاحب المهديّة بتونس ولولا أنه آنس في نفسه ميلاً إلى  
هذا الذمّ لما قدمها إليه على هذه الصورة .

على أية حال فإن المياد عادت إلى مجاريها مرة أخرى بعد تغيير أمير المهديّة ،  
ولعله أراد أن يكسب ودّ الأمر ، ووزيره الخطير الأفضل . ويمكن أن يكون  
مدح أمية للأفضل سنة ٥١٤ بأبيات يقول فيها :

نسختُ غرائب مدحك التشيبيا	وكفى به غزلاً لنا ونسبياً
لله شاهنشاه عزمك التي	تركت لك الغرض البعيد قريباً
لا تستقرّ ظباك في أعمادها	حتى تروّحها دماً مصبوا

وبقى في مصر هذه الزورة الثانية وكان قد فقد أمه ، واقتربت سنه من  
الخمسين وتجاوزتها ولا ندرى كم مكث بمصر والإسكندرية ، وإن كنا لا  
نرجح سفره قبل عام ٤١٥ هـ الذي قتل فيه الأفضل وتولى البطائحي  
الوزارة ، واضطربت الأمور رداً من الزمن بالقاهرة .

وهكذا غادر أمية مصر للمرة الثانية إلى القيروان فالمهديّة وظل هناك حتى  
توفى سنة ٥٢٩ هـ بعد أن قضى أربع عشرة سنة أو أقل ملازماً للأمير على بن

يحیی ، وقد وقع منه موقعاً طيباً ، ولأقی منه معاملة حسنة ، وأعدق عليه فرضی إلى جواره ومدحه بعدة قصائد بقی لنا منها بعضها فيما بقی من شعره .  
وشعره لم يصلنا كله ، فدیوانه لم يعثر عليه ، وكل ما بین أيدينا ما تفرق من شعره في مصادر متعددة ، قام أحد الدارسین بجمعه<sup>(١)</sup> .

ويهمنا بالدرجة الأولى وفوده إلى مصر ، وعلاقاته بها ، ومن اتصل بهم من الرجال فقال فيهم شعراً ، ومن رافقهم من الشعراء والأدباء ، فكانت بينه وبينهم مودة ، وتبادلوا إياه الرسائل والأشعار .

ومن بین الرجال المشهورین الذين لقيهم ببلاط الأفضل تاج المعالی مختار ، وهو من خواص الوزير المقربين ، كانت منزلته عنده عالية ، ومكانته بالسعد حالية على حد قول ياقوت في ترجمته . وكانت خدمة أمية له بصناعتي الطب والنجوم . ويبدو أن هذه المهنة هي التي فتحت له أبواب قصر الأفضل أولاً ، ثم تبعها المدیح وربما كانت هذه المهنة أو المعرفة بالعلوم والكيمياء من أسباب محنته كذلك كما كانت من أسباب سعده .

على أية حال فقد لقي قبولا لدى تاج المعالی هذا فقدمه إلى الأفضل فكان من جلسائه الأدباء وتعرف في مجلسه على جماعة من رجال مصر بمن فيهم الأمير أبو الثريا .

وكان أبو الثريا هذا شاعراً ، وله مع أمية محاورات شعرية ، ومدحه .

وتتساءل عما إذا كانت معرفة أبي الصلت بأبي الثريا في آخر القرن الخامس أم أوائل السادس عند عودته إلى مصر بعد غيبة ما يقرب من خمس سنوات ؟ .. لأن أبا الثريا يخاطب أبا الصلت بقوله :

أبا الصلت يا قطب المكارم والفضل	وأفضل من يُنمى إلى كرم الأصل
ومن حاز أسباب الرئاسات والعلا	وبالجود وبالفعل الجميل وبالتبيل
وأصبح في كل العلوم ميرزا	يسابق فيها كل مجر على رُسل

(١) هو محمد المرزوق جمعه بعنوان « ديوان الحكيم أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني » نشر دار الكتب الشرقية بتونس .

ولا يبلغ أمية هذا القدر من المعرفة والرئاسة قبل الثلاثين . وقبل أن يبلغ الأربعين وتكتمل له أسباب الرئاسة والعلم بما حصل ، وما لقي من التكريم والتقدير .

والرجل الثالث من رجالات العصر الذين لقبهم بمصر هو الشاعر ابن مكنسة إسماعيل بن محمد المتوفى سنة ٥١٠ هـ ، ونرى أن علاقته به تمت في رحلته الأولى وقد ذكره في رسالته المصرية التي ألفها بعد وصوله إلى المهديّة بعد سنة ٥٠٥ هـ ، وأثنى عليه من بين من لقبهم بمصر حيثذ .

وظلت علاقة الود قائمة بين الرجلين بعد الفراق ، وتبادلا رسائل الشعر وبعد عودة أمية إلى مصر لقيه صديقه إسماعيل بهذه الأبيات (١) :

وما طائرٌ قصَّ الزمانُ جناحه	وأعدمه وكرأ وافقده إلّفا
تذكّر فرحاً بين أفنان بانية	حوافى الخوافى ما يطرنّ به ضّعفا
إذا التحف الظلماء ناجى همومه	بترجيع نوح كاد من دقة يخفى
باشفق منى مُذ أطاحت بك التوى	هوائية مائية تسبق الطرفا
ثولت وفيها منك ما لو أقيسُهُ	بما هى فيه كان فى فضله أوفى

والصديق الآخر الإسكندريّ أيضاً والذي ربطت بينه وبين أمية روابط المحبة الشاعر ظافر الحدّاد . عقدت بينهما أواصر الصداقة منذ مجيء أمية إلى الإسكندرية وهو شاب لأول مرة مع أمه ، وظلت العلاقة بينهما وطيدة ، فانتقلا معاً إلى الفسطاط ، وسكنا بها وجالسا الأفضل ومدحاه وتلازما في مجالسه حتى حدثت الجفوة بين الوزير وأمية فانفصل أمية إلى الإسكندرية ، ومنها غادر إلى القيروان فالمهديّة ، وبقي هناك ما بقى من السنين ، والملفت للنظر أن أمية على صداقته بظافر لم يذكره في الرسالة كما فعل مع صديقه الآخر ابن مكنسة .

وهذا الأمر يدعو إلى التساؤل ؟ . هل حدث شيء بين الصديقين قبل سفر أمية ، أو في أثناء أزمته مع الوزير الأفضل وحبسه ؟ . ربّما . لكن الشاعرين لم

(١) خريدة القصر ، القسم المعرى ٢ / ٢٠٣ .

يفصحنا عن شيء ، بل إن ظافراً بعث بقصيدة إلى صاحبه بالمهدية يتشوق فيها إليه ، عدتها ثمان وعشرون بيتاً . يقول فيها :

ألا هَلْ لَدائِكَ مِنْ فِرَاقِكَ إِفْرَاقُ      هُوَ السَّمُّ ، لَكِنْ فِي لِقَائِكَ دِرْيَاقُ  
فِي شَمْسِ فَضْلِ غَرَبَتْ وَلِضْوِيِّهَا      عَلَيَّ كُلِّ قَطْرٍ بِالْمِشَارِقِ إِشْرَاقُ  
سَقَى الْعَهْدُ عَهْداً مِنْكَ عَمْرَ عَهْدِهِ      بَقَلْبِي عَهْدٌ لَا يَضِيعُ وَمِيثَاقُ  
يَجِدُّهُ ذَكَرٌ يَطِيبُ كَمَا شَدَّتْ      وَرِيفَاءُ كَتَبَتْهَا مِنَ الْأَيْكِ أَوْرَاقُ  
لَكَ الْخُلُقُ الْجَزُلُ الرَّفِيعُ طَرَاؤُهُ      وَأَكْثَرُ أَحْلَاقِ الْخَلِيقَةِ أَحْلَاقُ  
لَقَدْ ضَاءَ لَتَنِي يَا أَبَا الصَّلْتِ مُدْنَانُتْ      دِيَارُكَ عَنِ دَارِي هُمُومٌ وَأَشْوَاقُ  
إِذَا عَزَّنِي إِطْفَاءُهَا بِمَدَامِعِي      جَرَّتْ وَلَهَا مَا بَيْنَ جَسْمِي إِحْرَاقُ

يقول فيها :

أخى، سيدى، مولاى دعوة من صفَا  
لئن بُعدت ما بيننا شقة الثوى  
وليس له من رِقِّ ودك إعتاق  
ومطر د طامى الغواربِ خفأق

وقد أشرنا فى حديثنا عن ظافر إلى هذه الصداقة وما تبادلنا فيها من أشعار .  
والأديب الشاعر الثالث الذى تعرف عليه ببلاط الفاضل هو الكاتب على  
بن منجب الصيرفى الذى كتب للأفضل ، وتولى ديوان الإنشاء فى عهد  
الأمير . وقد ربطت زمالة تحولت إلى صداقة بين أمية والصيرفى .  
وقد كتب أمية للصيرفى من السجن قصائد يرجوه أن يشفع له عند الأفضل  
لإطلاقه فكان ردُّ الصيرفى عليه :

لئن سترتك الجُنْدُرُ عَنَّا فربما      رأينا جلايبَ السَّحابِ على الشمسِ

ولم تكن حياة أمية فى مصر جادة كلها ، بل كان يستمتع بملاهى الحياة  
وملاذها ، تجول فى أنحاء مصر القريبة من الإسكندرية والقاهرة ، وزار كثيراً  
من المنازة المعروفة فى عصره وأشرنا إليها مراراً فى حديثنا السابق كبساتين بركة  
الحبش ، وساحل النيل والنيل ، والجيزة والمقطم ، ومرصد المقطم ، ودير  
القصير ، ودير مازحنا ، ومتع نفسه بالشراب وسماع الغناء وغيرهما من متع  
الحسن .

## شعره

ونبدأ حديثنا عن شعره الجاد ، وأوله المديح التقليدى .

قال يمدح الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش الأفضل الجمالى :

نسخت غرائب مدحك التشيبيا وكفى به غزلاً لنا ونسبيا  
وتحس وأنت تقرأ أبيات أمية فى مديح الأفضل بآثار الصنعة والتكلف وأن  
الرجل إنما ينطق من طرف اللسان . يقول :

لله شاهنشاه عزمتك التى تركت لك الغرض البعيد قرينا  
لا تستقر طباك فى أغمادها حتى تُروِّبها دماً مصبوباً  
والخيل لاتنفلُ تُعْتَسِفُ الدُّجى تحبياً إلى الغارات أو تقريبا  
ويُدع وصف صاحبه ومدحه ليصف الخيل فى تسعة أو عشرة أبيات حتى  
يقول :

تُردى بكل فتى إذا شهّد الوغى نثر الرماح على الدروع كعوبا  
وتأمل معى أى تكلف فى نظم هذا البيت ؟.

ويعضى فى هذا الكلام المصنوع يلفق فيه معانى السابقين ، ويُعيد صياغتها  
بلفظ لا سلاسة فيه ولا موافقة لعصره ، ولا لمصره . وانظر معى إلى هذه  
المعانى المستهجنة المستهلكة فى لفظ مكرور غث الصياغة :

وبكثت فى كل البلاد مهابةً طفق الغزال بها يُواخى الذبيا  
وهمت يداك بها سحائب رحمة ينهل كل بنانها شؤبونا  
ونصرت دين الله حين رأته متخضباً بيد الردى منكوبنا

وهكذا يعضى فى نظمه هذا إلى آخر القصيدة فلا نعثر بمعنى يسترعى الانتباه  
أو يملك على القارىء وجدانه ، ويشير إعجابه . حتى يصل إلى ختمها ،  
فيضمنه استجداء صريحا إذ يقول :

وأنا الغريب مكانه وبيانه فاجعل صنيعك فى الغريب غريبا

وتختلف النغمة فى مديح الصنهاجين بالمهدية ، والتعريض بمن مدح المصريين  
فيقول فى مدح يحيى بن تميم الصنهاجى :



فلم أَسْتَسِيغْ إِلَّا نَدَاهُ ، ولم يَكُنْ  
فما كُلُّ إنعامٍ يَخْفُ احتمالُهُ  
ولكنَّ أَجَلَ الصَّنْعِ ما جَلَّ رَبُّهُ  
وما شئتُ إِلَّا أَنْ أَذِلَّ عَوَازِلُ  
وأُعَلِّمَ قوماً خالفوني وشرَّفوا  
ليُعِدِّلَ عِنْدِي ذَا الجِنَابِ جنابُ  
وإن هَطَلَتْ مِنْهُ عَلَيَّ سحابُ  
ولم يَأْتِ بابُ دُونِهِ وَجِجابُ  
على أَنْ رأيتُ في هَواكِ صَوَابُ  
وَعَرَّبْتُ أَنِّي قد ظفرتُ وخابوا

ونقرأ هذه الأبيات من قصيدة يمدح بها علي بن يحيى الصنهاجي لندرك فرق ما بين صنعته في مديح الأفضل ، وصنعته هنا . يقول :

تَأْتِي مِنْكَ لِلحُرْصانِ شُهْبُ  
على لِمِ الدُّجى مِنْها مَشيبُ  
نجومٌ في العجاجِ لها طُلوعُ  
وفي ثُغْرِ الكِمامَةِ لَها غُرُوبُ  
وقد غَشَّكَ مِنْ سَوْدِ المنايا  
سحائبٌ وَدَقُّهُنَّ لَه صَيبُ  
فلا بَرَقَ سِوَى بِيضٍ بِخِفافِ  
تَقَطُّ بِها الجِمامُ والثَّريبُ  
تَغادِرُ كُلَّ سابِغَةٍ دِلاصِ  
كما شَقَّتْ مِنَ الطَّربِ الجِيوبُ

صحيح أن هذا الشعر في مرحلة متأخرة عن شعره الذي قاله في الأفضل وقد يكون لنضج الشاعرية أثر في الاتقان إلا أن الروح الشعرية ، وصدق الاحساس واضحان هنا، مفقودان هناك، وذلك كما قلت لأنه يتحدث هنا من قلبه، وحديثه هناك إنما كان من طرف اللسان .

ونسوق من مديحه هذه الأبيات في الحسن بن علي بن يحيى الصنهاجي :

لَمْ يَدْعُنِي الشوقُ إِلَّا اِقْتادِنِي طرباً  
ولم يَدْعُ لي في غيرِ العَسبِ أرباً  
وذو البِلاقةِ مِنْ لَجِّ الغرامِ بِهِ  
وكلما ليمَّ أو سيمَ النزوعِ أُنبي  
كانتُ لِنِيا وَقفةً بالشُعْبِ واجِدَةً  
عَنا تَفَرَّعَ هذا الحَبِّ وانشِعِباً  
ولا سَمحتُ لَه مَنى بِما طلباً  
ولا سَمحتُ لَه مَنى بِما طلباً

قال : اسأل فالحب قد غناك . قلت : أجل حتى أراجع من لبي الذي عزبا

طرفي الذي جلب البلوى إلى بدني  
هو الهوى ، وهواني فيه مُحتمَلُ  
أما ترى ابن علي حين تيمه  
فلمهُ دَوْنِي في الحَظَبِ الذي جَلباً  
أغرُّ ما برحت تثنى عزائمهُ  
وربُّ مرَّ عذابي في الهوى عَدْباً  
قد أصبح الملك منه في يدي مَلِكُ  
حبُّ العُلا كيف لا يشكو له وصبا  
سيف الهدى بنجيع الشرك محتضبا  
مُرُّ الحفيظة يرضى الله أن غَضباً

وهذا المديح متوسط الجودة ، بل عادى ، وقد يكون النسيب فيه أكثر قبولاً  
ورُبّما أدخل على الأبيات طرفاً ما عرض فيها من وصف قصر المدوح  
وبساتينه حيث يقول :

إذا سقى الله أرضاً صوبَ غاديةٍ      فليسقِ قَصْرَكَ صوبَ الراحِ ما شربنا  
قصرٌ تقاصرت الدنيا بأجمعها      عنه ، وضاق من الأقطار ما رَحِبنا  
يقول فيها :

وحبذا قصب النارج مشمرةً      بين الزبرجد من أوراقها ذهبا  
وحبذا الورق فوق القُصْبِ ساجعةً      والماء في خلل الأشجار مُتَسَرِّبنا  
سَلْتُ سواقيه منه صارماً عَجَباً      لا يأتلى الجذب منه سمعنا هربا  
حسام ماء إذا كُف الصبا انبعثت      لِصَقْلِهِ تَرَكْتُ في متنه شطبنا  
صَفَا ورَقٌ فكاد الجوُّ يشبههُ      لَو أَنَّ جَرَّاجِرِي في الأرضِ وانسكبنا  
عقار دن فهذى ترتعى شرراً      فوق البنان وهذا يرتقى حَيبنا  
حتى لقد جِهَلْتُ للبعد عاصيرها      وَأُنْسَيْتُ لِتَرَاحِي عهدها العنبا

ومزج وصف البستان مع وصف القصر ، وأدخل في آخر الأبيات وصف  
الخمير . والمعاني دارجة ، وَيَسْمُجُ في التقليد إذ يصف جدول الماء بالسيف ،  
وهو وصف مررنا به في كثير من الشعر القديم ، وتواردت عليه الشعراء ، وما  
ندرى ما الملفت والمعجب بين بياض السيف وامتداده وجدول الماء ، ولا  
علاقة بينهما إلا الشكل أما ما وراء الشكل من إجماع فهما متناقضان ، فالسيف  
يوحى بالموت وَالْهَلَاكُ وَالْفَزَعُ وَالرَّهْبَةُ ، والجدول باعث الحياة ، والجمال  
والحب ، والأنس .

لقد أحب أمية الطبيعة ، وأحب الحديث عنها في شعره ، كما عشق الخمر  
وتغنى بالآئنها ، وفي أعماقه رغبة الحياة والجمال والموسيقى واللهو  
والاستمتاع ، وله أناشيد في الطبيعة المصرية كغيره ممن وفد من الأندلسيين  
والمغاربة .

وسبق أن ذكرنا أبياته في بركة الحبش (١) :

(١) ديوانه المجموع ص ٦١ .

عَلَّلَ فَوَازِكِ بِاللَّذَاتِ وَالطَّرِبِ  
 أَمَا تَرَى الْبِرَكَّةَ الْعَنَاءَ قَدْ لَبَسَتْ  
 وَأَصْبَحَتْ مِنْ جَدِيدِ التَّبَيِّتِ فِي حُلَلٍ  
 مِنْ سَوَسَنِ شَرْقٍ بِالظَّلِّ مَحْجَرُهُ  
 وَانظُرْ إِلَى الْوَرْدِ يَحْكِي تَحْدُمُ مَحْتَشِيمٍ  
 وَالنَّيْلُ مِنْ ذَهَبٍ يَطْفُو عَلَى وَرْقٍ  
 وَرَبِّ يَوْمٍ نَقَعْنَا فِيهِ غَلَّتْنَا  
 شَمْسٌ مِنَ الرَّاحِ حَيَانًا بِهَا قَمَرٌ  
 أُرْحَى ذَوَائِبُهُ وَاهْتَزَّ مِنْعُطْفَا  
 فَاطْرَبَ، وَدُونُكهَا فَاشْرَبَ فَقَدْ نَعِبَتْ

وَبَاكَرَ الرَّاحَ بِالطَّاسَاتِ وَالتَّحْبِ  
 فَرَشًا مِنَ التَّوْرِ حَاكَمَتْهُ يَدُ السُّحْبِ  
 قَدْ أْبْرَزَ الْقَطْرُ فِيهَا كُلَّ مُحْتَجِبِ  
 وَأَقْحَوَانِ شَهِيٍّ الظَّلْمِ وَالشُّبِّ  
 مِنْ نَرَجِسٍ ظَلَّ يَحْكِي لِحَظِّ مُرْتَقِبِ  
 وَالرَّاحُ مِنْ وَرْقٍ يَطْفُو عَلَى ذَهَبِ (١)  
 بِجَاغِمٍ مِنْ حَشَا الْإِبْرِيْقِ مُلْتَهَبِ  
 مَوْفٍ عَلَى غُصْنٍ يَهْتَزُّ فِي كَثْبِ  
 كَصَعْدَةِ الرُّمَحِ فِي مُسَوِّدَةِ الْعَدْبِ  
 عَلَى التَّصَايِي دَوَاعِي اللَّهْوِ وَالطَّرِبِ

وقال في الرصد ( المرصد بالمقطم ) الذي بظاهر القاهرة :

يَا نُزْهَةَ الرَّصْدِ الَّتِي قَدْ اشْتَمَلَتْ  
 فَذَا غَدِيرًا ، وَذَا رَوْضًا ، وَذَا جِبَلًا

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَلَا فِي جَانِبِ الْوَادِي  
 وَالضُّبِّ ، وَالتَّوْنِ ، وَالْمَلَّاحِ وَالْحَادِي

وقال في دير مَرْحَنًا بِمِصْرَ :

يَا دَيْرَ مَرْحَنًا لَنَا لَيْلَةٌ  
 نَعْتَنَا بِهِ فِي لَيْلَةٍ أَعْرَبَتْ  
 وَاللَّيْلُ فِي شَمَلَةِ ظِلْمَائِهِ  
 نَشْرِبُهَا صَهْبَاءَ مَشْمُولَةٍ  
 وَهِيَ إِذَا نَفَسَ عَنْ أَذْنِهَا

لَوْ شَرِبَتْ بِالنَّفْسِ لَمْ تُبْحَسِ  
 آدَابُهُمْ عَنْ شَرَفِ الْأَنْفُسِ  
 كَأَنَّهُ الرَّاهِبُ فِي التَّرْسِ  
 تُغْنِي عَنْ الْمَصْبَاحِ فِي الْجِنْدِسِ  
 أَذَكَى مِنَ الرَّيْحَانِ فِي الْمَجْلِسِ

ولامية غير الوصف المعروف لمظاهر الطبيعة وصف للحيوان والطيور فيصف لنا كلب الصيد على طريقة طَرْدِيَاتِ أَبِي نَوَاسٍ وغيره ممن أجاد فيه ، يقول (١) :

على وزن الرجز :

خَيْرُ مَعَدِّ مُتَّخِذُ  
 مُنْفَرِدٌ بِالْحُسْنِ قَدْ  
 سَبَقَ التَّنْصُولِ لِلْقُدْذِ  
 لِيَوْمِ عَيْشٍ مُسْتَلْدِ  
 سَوْبَقَهُ بِالْجُرْدِ قَبْدِ  
 فَمَا انْبَرَى إِلَّا مُعَدِّ  
 وَلَا رَأَى حَتَّى أُتَّخِذَ

(١) الورق : القصة .

وقال يصف الطاووس :

أهلاً به لما بدا في مشيه كالرؤضة الغناء أشرف فوقه ناديته لو كان يفهم منطقي  
يا زافعاً قوس السماء ولايساً أيقنت أنك في الطيور مملك  
يختال في حلال من الحيلاء ذنب له كالذوحة الغناء  
أو يستطيع إجابة لندائي للحسن روض الحزن غب سماء  
لما رأيتك منه تحت لواء

ووصف كثيراً من مظاهر الحضارة الزاهرة في القاهرة والقيروان . فيقول  
مصوراً مجلس يحيى بن تميم الصنهاجي صاحب القيروان والمهدية ، وما فيه  
من فخامة وجمال :

لله مجلسك المنيف قباهه موف على حبلك الحجره تلتقي  
تقابل الأنوار في جنباته عطفت حناياه ذوين سمائه  
واستشرفت عمدة الرخام وظهوره فهاؤه من كل قد أغيد  
فلك تحير فيه كل منجم فبدا للحظ العين أحسن منظر  
بموطد فوق السماك مؤسس فيه الجوارى بالجوارى الخس  
فالليل فيه كالنهار المشمس عطف الأهله والحواجب والقسي  
بأجل من زهر الربيع وأنفس وقراره من كل خد أملس  
وأقر بالتقصير كل مهتدس وغدا لطيب العيش خير معرس

وهكذا فإن شعره يعكس صوراً من حضارة الإسلام الزاهرة في عصره ،  
ويرسم صوراً من صور الترف الذي عاشه الحكام وسراة القوم ، ونلاحظ  
عامه أن الشعراء حين يصفون مظاهر النعيم والترف التي عاشها الأغنياء  
والقادرون ، فإنما يستدعون صور الجنة في أوصافهم لأن أولئك المملكون  
حاولوا أن يحققوا في حياتهم ، ما وقر في خلدتهم من صور نعيم النعيم في الآخرة  
بما فيها من حور عین ، وبساتين ونخل ورومان ، وكؤوس شراب يطوف بها  
ولدان ، وهم متكئون على فرش من حرير ، ويلبسون أساور الذهب والفضة .

وتمر في شعره على كلام فيما لقيه في حياته من سفر وركوب للبحر ، وما  
عاشه من تجارب الحياة والناس بما فيها من فرح وترج ، ووفاء وجحود .  
ولفظه من ثروة معلوماته وعلمه ، وفيها من مصطلح علوم الطب والفلك  
وغيرها من العلوم التي برع فيها .

## ابن أبي البشائر

أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الكاتب الصقلي الشاعر :  
عاصراً أمية بن أبي الصلت ، وأورد له شعراً بالرسالة المصرية<sup>(١)</sup> ، واصفاً  
إياه بالبلاغة . قال أمية : وقد تعاور الشعراء وصف وقوع الشعاع على  
صفحات الماء . ومن مליح ما قيل قول بعض أهل العصر وهو أبو الحسن علي  
بن أبي البشائر الكاتب :

شربنا مع غروبِ الشمسِ شمساً      مشعشعةً إلى وقتِ الطُّلوعِ  
وضوءُ الشمسِ فوقَ التَّيْلِ بَادٍ      كأطرافِ الأَسنةِ في الدُّرُوعِ  
وذكر العماد<sup>(٢)</sup> أنه قرأ في مجموع شعره نظماً جيداً يفوق ياقوتاً ودراً .  
مشتماً على المغاني العُزِّ ، فمن ذلك قوله في راقصة :

هيفاءُ إن رقصتَ في مجلسِ رقصتَ      قلوبُ من حَوْلها من جذِّقها طرباً  
خفيفةِ الوطءِ لو جالتَ بخطوتها      في جفنِ ذى رميدٍ لم يشتكِ الوصبا  
وشعره كشعر الكتاب من حيث الخفة وسلاسة تدفق اللفظ ، ورفيق المعنى  
ومما اختاره له مقطوعات وأبيات تدور في موضوع الغزل ، والوصف  
وشكوى الشيب .

ولكن معظم ما جاء به في الغزل والشوق وذكر الفراق ، ورسائل المحبوب  
من مثل قوله :

لنا في كلِّ مُقترحٍ وصوبٍ      مُفاجأةٌ بأسرارِ القلوبِ  
فنفهمُ بالتشاكى ما نُلَاقِي      بلاِ واشٍ تخافُ ولا رقيبِ

وقوله :

وساقِ كمثلِ الغزالِ الريبِ      بصيرِ اللِّحَاطِ بصيرِ القلوبِ  
جسرتُ عليه فقَبَّلْتُهُ      مجاهرةً في جفونِ الرقيبِ

(١) راجع الرسالة المصرية .

(٢) خريدة القصر .

وأهداهُ لي سُكْرُهُ من قَريبٍ  
ولكنَّهُ من مَليحِ الذُّنوبِ !؟

فلَمَّا تَوَسَّدَ كَفَّ الكَري  
تَعَجَّلْتُ ذنباً بفتكِي به

وفي شكوى البعاد :

نَازِحٌ لَمْ يَدْعُ لِعَيني هُجُودًا  
كَانَ يَوْمِي بِهِ مِنَ الدَّهْرِ عِيدًا  
بِوَالآنِ قَدِ اسْتَفْرَقَ البَعَادُ الصُّدُودًا  
لَقَّسْتَنِي الوِشَاءُ فِيكِ الجُمُودًا

أتراني أُخَيِّ إلى أَنْ يَعودًا  
كَيْفَ أَرجو الحَيَاةَ بَعْدَ حَبِيبِ  
كُنْتُ أَشكو الصُّدُودَ في القُرْبِ  
أشْتَهِي أَنْ أبُوحَ بِأسْمِكَ لَكِنِ

وقال :

فليس على البعدِ عندي جَلْدُ  
فكَيْفَ أَكونُ إِذَا ما بَعُدُ

إلى الله أَشكو دَخِيلَ الكَمْدِ  
ومن كُنْتُ في القَربِ أَشْتاقُهُ

وقال :

فِيضِي فَقَدِ فَضَحْتَنِي بَيْنَ جُلَاسِي  
إِلَّا وَقَد رَقُّ لِي مِنَ قَلْبِكَ القَاسِي  
أهلاً بِذاكِ على العَينينِ والرَّاسِ

إليك أَشكو عِيونًا أَنْتَ قُلْتَ لَهَا  
وما تَرَكْتُ عُدُوًا لِي عَلِمْتُ بِهِ  
فإن رَضِيتَ بِأَنْ ألقى الحَمَامَ فِيا

ونلاحظ هذا الكلام الذي يجري على السنة الناس بلا تكلف ولا تعقر .

وقال :

وَليلي طَوِيلٌ بِالهُمُومِ عَرِيضُ  
إِلَى عَزَمَاتٍ ما لَهْنُ نَهَوضُ  
إِذَا لَاحَ مِنَ بَرَقِ العِشَاءِ وَمِبيضُ  
وَعَظْمٌ يَراهُ الشُّوقُ فَهو مَهِيبُ  
فليس له حتى الوصالِ عَمُوضُ

تَوَلَّوْا وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ تَفِيضُ  
وَلِما اسْتَقَلُّوا أَسَلَمَ الوَجْدُ مُهَجَتِي  
تَوَقَّدُ نيرانُ الجَوى بَيْنَ أَضْلعِي  
وَلَمْ تَبَقْ لِي إِلَّا جَفُونُ قَرِيحَةٍ  
فَجَنُّ مَحْزُونٍ جَفَا التَّوَمُ جَفَنَهُ

ويقول في الطيف :

وَأَنْ يَطْرِقَ الهائِمِ المَدَنًا  
وَحَلْفَ عِنْدِي ما تَخَلَّفًا  
لَدَنيكَ يَناجِيكَ مُسْتَعْطَفًا  
إِليكِ مِحا دَمْعُهُ أَحْرَفًا

أَلَمْ يَأْنِ لِلطَّيْفِ أَنْ يَعطِفا  
جَفَا بَعْدَ ما كانَ لِي واصلًا  
أَما تَعطَفينِ على خَاضِعِ  
إِذَا كَتَبَتْ يَدُهُ أَحْرَفًا

ولو سُكِّتُ أَمَلِكُ غَرَبَ الدُّمُوعِ  
غَرَامًا بِإِشْعَالِ نَارِ الْغَرَامِ

وقال :

قَدْ أَنْصَفَ السُّقْمُ مِنْ عَيْنِكَ وَأَنْتَصَفَا  
يَا سَاهِرَ الطَّرْفِ قَدْ أَغْرَيْتَ بِي كَلْفًا  
أُظُنُّ حَدِيدَكَ مِنْ جَارِي دَمِي اخْتَضَبَا  
وقال مُلْفِزًا فِي اسْمِ حَبِيبِهِ (١) :

إِنَّمُ الَّذِي صَيَّرَنِي مُدْنَفَا  
يَلْعَبُ إِنْ رُحِّمَ مَعَكُوسُهُ  
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ غَدَا ثَلَاثُهُ  
قَدْ غَلَبَ الْقَلْبَ عَلَى صَبْرِهِ  
ويقول في رسائل الحب :

كَيْفَ لَمْ يَشْتِغَلْ بِنَارِ اشْتِيَاقِ  
كَانَ حُلُوَ الْمَذَاقِ عَيْشِي لِلْقَرِ  
فَوْصَبْرِي لَأَخَذَنَّ بَشَارِي

مَنْعَتْ جُفُونِي أَنْ تَذَرِفَا  
وَمَا عُذْرُ صَبِّ بَكِي وَاشْتَفَى

فَهَا هُمَا بِحِكْيَانِ الْعَاشِقِ الدَّنِفَا  
بِرِّحَا، وَصَيَّرْتَنِي أَسْتَحْسَنُ الْكَلْفَا  
لَقَدْ تَنَاهَيْتَ فِي قَتْلِي، وَقَدْ ظُرِفَا

لَمَّا انْتَضَى مِنْ جَفْنِهِ مُرْهَفَا  
لَأَنَّهُ قَدْ نَسَقَى الْأَحْرَفَا  
جَذْرًا لثَلَاثِيهِ إِذَا أَلْفَا  
وَهَكَذَا يَخْرُجُ إِنْ صُحَّفَا

قَلَمٌ لِي أَيْبُهُ مَا الْإَفَى  
بِ، فَأُضْحَى لِلْبَعْدِ مَرُّ الْمَذَاقِ  
مِنْ لِيَالِ الْفِرَاقِ يَوْمَ التَّلَاقِ

ومن رسائله الشعرية ما ردّ به على رسالة يقول (٢) :

عِنْدِي وَأُحْسَنَ قَادِمِ الْقَاهِ  
شَمَلُ الْمَعَانِي لِلَّذِي أَهْدَاهُ  
كَتَبْتُهُ أَوْ صَرَّتْ عَلَيْهِ يَدَاهُ  
جَذْلَانٌ مُبْتَهَجًا بِمَا أَدَاهُ  
أَعْلَاهُ، مَا أَحْلَاهُ، مَا أَجْلَاهُ  
عُدِمَتْ لَهُ الْأَشْكَالُ، وَالْأَشْبَاهُ  
أَزْهَارُهُ، وَتَضَوَّعَتْ رِيَّاهُ  
فَتَقَابَلَتْ أَوْلَاهُ مَعَ أَخْرَاهُ  
مَنْظُومَةٌ كُبْرَاهُ مَعَ صُعْرَاهُ

وَصَلَّى الْكِتَابُ وَكَانَ آتَسَ وَأَصْلِي  
لَا شَيْءَ أَنْفَسُ مِنْهُ مُهَدَّى جَامِعَا  
فَفَضَضْتُهُ وَجَعَلْتُ أَلْثَمُ كُلِّ مَا  
وَفَهَيْتُ مُودَعَهُ، فَرَحْتُ بِغَبْطَةِ  
وَعَجِبْتُ مِنْ لَفِظٍ تَنَاسَقَ فِيهِ مَا  
وَلَقَدْ غَبَطْتُ عَلَيْهِ عِلْقَ مَضِينَةٍ  
كَالرُّوضِ بِأَكْرَهُ الْحَيَا، فَتَفَتَّحَتْ  
كَالْعَقْدِ فَصَلَّ لَوْلَا وَزَبْرَجْدَا  
دُرٌّ تَرْفَعُ قَدْرَهُ عَنِ قِيمَةِ

(١) واسم الحبيب ذكر وهو «عل» .

(٢) الخريدة ١/ ١٥ قسم شعراء المغرب، بتحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم .

وفيما اختاره العماد شعرٌ يتلاعبُ فيه بأوزانه ، فيخرج عن تقليد الشعراء .  
من ذلك ما يقرأ على خمسة أوزان . وهو قوله :

وَعَزَالٍ مُشْتَفٍ      قد رثا لي بعد بُعْدِي  
لما رأى ما لقيتُ  
مثل روضٍ مَفُوفٍ      لا أبالي وهو عندي  
في حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ  
وجْهَهُ البدرُ طالِعاً      تاهَ لَمَّا حَازَ وَدِّي  
فإِنِّي قد شقيتُ  
في قضيبٍ مُهْفَهَفٍ      لَدَّ فِيهِ طُولٌ وَجِدِي  
جفا فكَدْتُ أَمُوتُ  
مانعٌ غير مُعْسِفٍ      ليس يَأْبَى نَقْضَ عَهْدِي  
وليسَ إِلاَّ السُّكُوثُ  
جائِئٌ غير مُنْصِفٍ      حَالٌ عَمَّا كَانَ يُدِي  
إِنِ الوَصَالَ بُخُوثُ

وفيه هذا التغير في الأوزان شبيه بنظم الموشح .

ويمكن قراءته على صورة أخرى ليصبح على وزن « بحر الحفيف » .

وَعَزَالٍ مُشْتَفٍ      قد رَثَى لِي      بعد بُعْدِي      لما رَأَى ما لَقِيْتُ  
مِثْلَ رَوْضٍ مَفُوفٍ      لا أَبَالِي      وهو عِنْدِي      فِي حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ  
وَجْهَهُ الْبَدْرُ طَالِعاً      تَاهَ لَمَّا حَازَ      وَدِّي ،      فَإِنِّي قَدْ شَقِيْتُ  
..... إلخ

ويمكن قراءته على وزن مجزوء الحفيف هكذا :

وَعَزَالٍ مُشْتَفٍ      مثل رَوْضٍ مَفُوفٍ  
وجْهَهُ الْبَدْرُ طَالِعاً      فِي قَضَيْبٍ مُهْفَهَفٍ  
مانعٌ غير مُعْسِفٍ      جَائِئٌ غير مُنْصِفٍ  
وقراءته على بحر الجتث هكذا :  
لَمَّا رَأَى ما لَقِيْتُ      فِي حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ



فإِنِّي قد شَقِيْتُ      جَفَأُ فِكِدْتُ أُمُوتُ  
وَلَيْسَ إِلَّا السُّكُوتُ      إِنَّ الرِّصَالَ بَخُوتُ

والوزن الرابع مجزوء الرمل هكذا :

قد رثى لى بعد بُعْدِي      لا أبالي وهو عِنْدِي  
تاهَ لَمَّا حازَ ودَى      لذَّ فيه طُولَ وَجْدِي  
ليسَ يَأْبَى نَقْضَ عَهْدِي      مَالٌ عَمَّا كَانَ يُبْدِي

وأما الخامس فهو منهوك الرَّمْلُ — ولم يستعمله العرب . واستعمله  
المحدثون . يقول :

قد رَثَى لى	بعد بُعْدِي
لا أبالي	وهو عِنْدِي
تاهَ لَمَّا	حازَ ودَى
لذَّ فيه	طُولَ وَجْدِي
ليسَ يَأْبَى	نَقْضَ عَهْدِي
مالٌ عَمَّا	كان يُبْدِي

وهكذا يمكن أن يكون رائداً لهذا اللون من النظم الذى عرف عند بعضهم  
بالقصيدة ذات الأوزان . وكل هذه محاولات للخروج على الإيقاع التقليدى  
إلى إيقاعات أخرى متنوعة تناسب تنوع الحياة الحضرية ، وما تسمعه الأذن من  
تعدد الألحان .

وربما كان ذلك أثراً من آثار انتشار الموسيقى والغناء وتعدّد مصادرهما من  
المشرق والمغرب ، مما جعل الأذن العربية تعتاد هذا التنوع ، وتملّ رتبة إيقاع  
البحور المعروفة فى الشعر العربى .

ولم يكن الأندلسيون ولا المغاربة أول من حاول تلك المحاولات فى الشعر  
العربى بل سبقهم شعراء عباسيون فى القرن الثالث ومحاولات أبى نواس وأبى  
العتاهية واردة فى كثير من كتب الأدب ... كما أشار مؤرخو الأدب إلى  
محاولات شعراء آخرين فى هذا السبيل .

ومن مجزواته المطربة المرقصة قوله :

يا ذا الذي كل يوم      يزيد عقلي خبالاً  
دلّهتني بك حتى      رأيت رشدي ضلالاً  
أدعو عليك وقلبي      يقول: ياربّ لا، لا

وهو في شعره خفيف الظلّ ، أما ترى كيف نعت مغنياً لم يُعجبه فقال :

ولنا مُغنٌّ لا يزا      ل يغيطنا ما يفعل  
صَلَفٌ وتيه زائدٌ      وتبظرم وتمحل  
غنى ثقيلاً أولاً      وهو الثقيل الأول

وكنا نأمل أن نمضي مع شاعرنا لو أسعفنا الحظ بديوانه أو عثرنا على قدر  
أوفرٍ من شعرة .

## شعراء وافدون آخرون

لقد توافد على مصر من صقلية والمغرب والأندلس جماعة من الشعراء في هذه المرحلة من منتصف القرن الخامس وحتى منتصف القرن السادس بلغ عددهم كثرة ما يفوق الحصر ، فقد ذكر الحافظ السلفي جماعة منهم في معجمه ، كما ذكر العماد جماعة نقلًا عن ابن الزبير والقاضي الفاضل وأمية ابن أبى الصلت كما ذكر ابن سعيد المغربي جماعة في المغرب .

ولا يسعنا الحديث عن هؤلاء جميعاً ، فقد يتعذر ذلك لقلّة حديث المؤرخين عن حياتهم ، وشجعهم كذلك فيما يذكرون من أشعارهم .

ومن ذكرهم العماد<sup>(١)</sup> : محمود بن عبد الجبار الأندلسي الطرسوسي ، وأبا الحسن عبد الودود بن عبد القدوس القرطبي — قال : أورده ابن الزبير في كتابه من الطائرين على مصر . قال ابن الزبير :

« كان انتجع مصر معتقداً أنه يُحمّدُ بها المراد ، ويُتأل المراد ، فاتفق لنكد الزمان ، وخطّ الحرمان أن ورد بعض ثغور مصر ، وبها رجل يُعرف بإسماعيل بن حميد النبوذ بابن قادوس ، وكان ممن يهتم بالجمع والأدخار ، ويدين بعبادة الدرهم والدينار ، لا تندی حصائهُ ، ولا يظفرُ بغير الخيبة عُفائهُ ، ولا يرشّحُ له كَفٌّ ، ولا يُعرف له عرف ، إلا أن له رُواءً وجِدَةً ، وبينَ وحفدةً ، يُطِمِعُ العِرَّ في نواله ، ومنأل النجم دون مناله ؛ فقصدَه عبدُ الودودِ بمدايح أرقّ سلكها ، وأجادَ سبكها ، وتأنقَ في وشيها وحبكها ، وظنَّ أن سَهَمَه قد أصاب الغرض وقرطسَ ، وأنه يفوزُ بأكثر ما التمس ، فكانَ بارقهُ نَحْلًا لا يَجُودُ بقطرةً ، وشرابهُ سراباً بَقْفَرَةً . ولَمَّا تَحَقَّقَ إكداء كَدّه ، وصلود قَدجِه في مدجِه . قال :

شَيْبَى رِجَالٍ وَيَشْقَى آخِرُونَ بِهِم  
وَلَيْسَ رِزْقُ الْفَتَى مِنْ حَسَنِ حَيْلَتِهِ  
وَيَسْعُدُ اللَّهُ أَقْوَامًا بِأَقْوَامٍ  
كَالصَّيْدِ بِجَرْمِهِ الرَّائِي الْمَجِيدِ وَقَدْ  
لَكِنْ جُدُودٌ بِأَرْزَاقِي وَأَقْسَامٍ  
يَرْمِي فَيْرِزْقَهُ مِنْ لَيْسَ بِالرَّائِي

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب ١ / ٣٣١ طبع الدار التونسية سنة ١٩٦٦ م .

وقال في هجو ابن قادوس :

تسلُّ فللاً يام بشرُّ وتعييسُ  
صدئت على قربٍ وحلقك عسجدُ

ومنها :

ترحل إذا ما دئس العز ملبس  
وما ضناقت الدنيا على ذى عزيمة  
وكم من أخى عزم جفته سعوده  
ثقل السيوف البيض وهي صوارم  
ولولا أناس زينوا بسعادة  
ولكن في الأفلاك سير حكومة  
أفاضت سعوداً بالحجارة دونها  
وصار فلاناً كل من كان لم يكن  
فحقت ولا تغررك قول مدلس  
أفيقوا بني الأيام من سينة الكرى  
فى القسمة السيزى يحول جاهل  
ولرساء ذى جهل، واستخاط ذى جحى  
تخذ العلم قنطاراً بفلس سعادة  
ومذ لقب القرد القصير موقفا  
وقالوا: سديد الدولة السيد الرضى  
وآعجب من ذا أن يلقب قاضياً  
وأكثر ما نصر الحديث فكاذب  
وأعرف منه بالفرائض راهب  
وما الغنى إلا أن تحكم نعمة  
ومالى فوق الأرض مغير إبرة  
مصائب من يسكت لها مات حسرة

وأيقن، فلا التعمى تلوم ولا البوس  
وملت إلى لغوٍ ولفظك تقديسُ

وغيرك من يرضى به وهو ملبوس  
ولا غرقت فلک، ولا نفقت عيس  
يموت احتراقاً وهو فى الماء مغموس  
ويرجع صدر الرمح، والرمح دغيس (١)  
لما صر ترييح، ولا مر تسديس  
تخير بطليموس فيها وإدريس  
يطاف سبوعاً حولها الغلب والشوس  
ودان له بالرق قوم مناجيس  
فأكثر ما يدعو إليه نواميس  
وسيروا بسير الدهر، فالدهر معكوس  
وذو العلم فى انشوطه الدهر محبوس  
نعاج مياسير، وأسد مفاليس  
عسى العلم يقنى فيمتلى الكيس  
هدى الدهر واستولت عليه الوسويس  
فأكثر حجاب، وشدد ناموس  
وأكثر ما يجرى من الحكم تلييس  
وأظهر ما صلى الصلاة فمنجوس  
وأفقه منه فى الحكومة قسيس  
ونرغام أسد الغاب فى الغيل مفروس  
وتحمل دمياط إليه وتويس  
ومن ثقلها بتأيمت وهو منحوس

(١) دغيس : طمان .

(٢) بقصد بذلك مهجوه ابن قادوس .

وفي جورِ هذا الدهرِ ما بأقله  
ويتناغٍ مسكاً بالخرأٍ مُدلسٍ  
وقالوا: ابن قاثوسٍ تقدسَ كاسمه  
أيا مَنْ غدا ضداً لكل فضيلةٍ  
سِيضَرَبُ في أرجاءِ مكَّةَ ناقوسُ  
ويُعَبَّدُ خنزيرٌ ، ويُرسَلُ جاموسُ  
ومسِن هو قاثوسٌ؟ ، فلا كان قاثوسُ  
ومن نجمه في طالع السَّعيدِ منكوسُ  
ومنها :

وقد قُلْتها هجواً، وأثُفِكَ راغِمٌ  
أبا الفضلِ إن أصبَحْتَ قاضيَ أمةٍ  
فإنَّ قريضي بين أذُنِكَ ذِرَّةٌ  
تجمَعُ في الخَيْرِ والشَّرِّ جُملةً  
فلا يَدْخُلُن ريبٌ عَلَيكَ وتَلْبِيسُ  
وللحكَمِ في أرجاءِ ذَكَرِكَ تَعْرِيسُ  
وإن هِجائِي في دُمَائِكَ دَبُوسُ  
فخيري جبريلُ ، وشري إبليسُ

قال العماد : أطاعه في هذه القصيدة الطبع الجافي ، وجاد بالكدر خاطرهُ  
الصافي . وأبان فيها عن رقة دينه وتهلُّهُ ، وعدم عبوسِ بؤسِهِ بشرَ الفضلِ في  
تهلُّهُ .

ومنهم :

القاضي الرشيد أحمد بن قاسم الصقلي :

قال ابن العماد<sup>(١)</sup> : من الطارئین على مصر القاضي الرشيد ، وكان قاضي  
قُضائِها في أيام الأفضَل ، فدخَلَ يوماً إلى الأفضَل وبين يديه دواة من عاج  
مُحلَّاة بمرجان فقال :

ألينَ لداوودَ الحديدِ بقدرِةٍ  
ولأنَّ لك المَرْجانُ وهو حجارةٌ  
يُقَدِّره بالسَّردِ كيف يُريدُ  
على أَنَّهُ صعبُ المرامِ شديدُ

وكان الأفضَل قد أجرى الماء إلى قرافة مصر ، فكتب إليه يرجو إجراء الماء  
إلى دار له بها :

أيا مولى الأنام بلا احتشام  
لعبدك بالقرافة دارٌ نُزِّلُ  
لموجودٍ يعيشُ بها لوقتٍ  
وفي أرجائها شجرٌ ظمأٌ  
وسيدُهُم على رَغَمِ الحَسودِ  
لموجودِ الحياةِ أو الفَقيدِ  
ومفقودِ يُوارى في الصَّعيدِ  
عُدْمَنَ الحَسَنَ من ورقٍ وعودِ

فَمُدَّ غَدَّتْ المَصَانِعُ مَمْتَعَاتٍ  
يَقْلُنْ إِذَا سَمِعْنَ شَجَى السُّوَاقِي  
أرى ماءً ولى عَطَشٌ شَدِيدٌ  
وله في الغزل :

إِنَّ لَمْ أَزْرِكْ وَلَمْ أَقْنَعْ بِرُؤْيَاكَ  
يا ظِئِيَّةَ ظَلَّتْ مِنْ أَشْرَاكِهَا عَلِقًا  
رَعِيَتْ قَلْبِي وَمَا رَاعَيْتِ حَرَمَتَهُ  
أَتَحْرِقِينَ فَوَادًا قَدْ حَلَلْتِ بِهِ  
ما نَفْحَةُ الرِّيحِ مِنْ أَرْضِهَا شَجِينِي  
فَلِفُؤَادٍ طَوَافٌ حَوْلَ مَعْنَاكَ  
يَوْمَ الوَدَاعِ وَلَمْ تَعْلُقِي بِأَشْرَاكِي  
يا هَذِهِ كَيْفَ مَا رَاعَيْتِ مَرْعَاكَ  
بِنَارِ حُبِّكَ عَمْدًا وَهُوَ مَأْوَاكَ  
هَلْ لِلْمَحَبِّ حَيَاةٌ غَيْرُ ذِكْرَاكَ

وواضح مُمَاتِنْتَهُ لِلرَّضَى فِي قَصِيدَتِهِ « يا ظِئِيَّةَ البان » .

ومنهم :

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن زكريا القلعي الأصم<sup>(١)</sup> :

وهو ممن ذكرهم ابن الزبير فقال : كان جيد الشعر ، وارى زناد الفكر  
لكنه منحوس الجَد . ورد إلى الإسكندرية ومصر ، وأقام بها زماناً لا يجِدُ من  
يروى ظمأته ، ولا يسدُّ حاجته ، وعاد إلى المغرب في غير أوان سفر المركب ،  
فسار راجلاً نعله مطيته ، وزأده كذيتته إلى أن وصل إلى قوم يعرفون ببني  
الأشقر في طرابلس الغرب ، فامتدحهم بالقصيدة الميمية التي أولها :

« تُرى فاضَ شُوبُوبٌ مِنَ الغَيْمِ سَاجِمٌ »

فأحسنوا صِلَتَهُ ، وَعَظَّمُوا جَائِزَتَهُ . وَلَمْ أَدْرِ مَا فَعَلَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ .

فمن قصيدته الميمية تلك :

تُرى فاضَ شُوبُوبٌ مِنَ الغَيْمِ سَاجِمٌ  
وماذا التدى والوقت بالصيف حائِمٌ  
فما هذه مُزَنٌ ، وما ذى بوارق  
بنو الأشقر استعلوا بحق على الورى

(١) الخريدة ١ / ٣٣٧ قسم شعراء المغرب .

وهكذا يمتحن في مديحه التقليدي<sup>(١)</sup> .

ويبدو أنه قصد الأفضل بن بدر الجمالي ، لكنه لم يحظ عنده بما أراد ،  
فغادره وغادر البلاد ناعياً حظه ، وقله سعده . ويورد له العماديين في الأفضل  
يقول فيهما :

مَلِكٌ أَنْتَ أَمَ مَلِكٌ      حَاوَرَ حَرْفٌ تَأَمَّلَكَ  
أَنْتَ إِنْ أَسْعَدَ الزَّرَى      فَلَكَ مَسْعَدٌ فَلَكَ

ومن غزله قوله :

لما استرقتك من عيونك بابل  
بوجهك ماء الحسن في صفحاته  
خذوني على التجريب عبداً فإن أكن  
فما طويت إلا عليكم جوائح  
بما علمت من مقتليك المناصيل  
كذكرك مني في الضمائر جائل  
أخالف أمراً فاطراخ معاجل  
ولا بسطت إلا عليكم أنامل  
وله بشكو حاله وقله ذات يده<sup>(٢)</sup> :

مضى الناس يستسقون من كل وجهة  
فوافاهم الغيث الذي سمحت به  
وفي ظنهم أن قد أجيب دعاؤهم  
إلى كل مسموع الدعاء مجاب  
لهم بعد طول المنع كل سحاب  
وما علموا أني قد غسلت ثيابي

علي بن إسماعيل القلعي :

ومن مواطني أبي عبد الله المذكور علي بن إسماعيل القلعي أيضاً ويلقب  
بالطميش من الواردين على مصر كذلك في القرن السادس . وقد عاصر  
أحداث مقتل أحمد بن الأفضل الجمالي أيام الحافظ .

قال ابن الزبير — فيما نقله عنه العماد<sup>(٣)</sup> — : « من الواردين على مصر من  
أهل العصر وله حين قتل ابن الأفضل أبو علي بعد حبسه الحافظ ، وإلقائه في  
نفوس شيعته بذور الحفائظ ... واستيلائه على المملكة سنة يدعو إلى القائم

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٩ .

(٣) الخريدة ١ / ٣٤١ قسم شعراء المغرب .

المنتظر ، ونقش اسمه على الذهب الأحمر ، ثم احتيل عليه فاغتيل وجان القليل ، فكان القتل ، وأعيد الحافظ بعد ضياعه ، وأذن ذلك بتأهيل رابعه ، وتطوير باعه فنظم ( الطميش — لقب الشاعر ) فيه قصيدة منها<sup>(١)</sup> — قال :

ولا بدُّ من عَزْمٍ يُحْيِلُ أُنْبَى  
يَجُوبُ ظِلَاماً كَالظَلِيمِ إِذَا سَرَى  
وليل صحبت السيفَ يرعد حُدّه  
حملتُ به درعى وسيفى وإنما  
وأشقرَّ ورد اللّونِ لولا انتسابه  
إلى أن بدا وجه الصباح كأثّه

فَدَحْتُ عَلَى الظُّلْمَاءِ مِنْ بَدْرِهِ فَجْرَا  
إِذَا جَنَّ جَوْنٌ كَانَ بِيضْتَهُ الْبُدْرَا  
وقد شاب فيه مَفْرُقُ الصَّعْدَةِ السَّمْرَا  
حملتُ غدِيرِ الْمَاءِ وَالْعَصْنَ وَالتَّهْرَا  
إلى البرقِ سَيْراً أَخْلَنَهُ الْمَسْكُ وَالْحَجْرَا  
لحافظَ دينِ اللَّهِ آيَتِهِ الْكَبْرَى<sup>(٢)</sup>

ومنها :

وقد كان دين الله بالأمرِ عابساً  
وكان علياً حين كان الذى طغى

لجْرَاهُ حَتَّى لَاحَ فِي وَجْهِهِ بَشْرَا  
معاويةٌ والحارثُ له عَمْرَا

يشير إلى مقتل عليّ ابن أبى طالب ونجاة معاوية وعمرو بن العاص من القتل فى الفتنة الكبرى بعد صيفين .

ومنهم الفقيه أبو محمد عبد الله بن سلامة .

أصله من بجاية ، وكان مقامه بالإسكندرية ، ثم مصر والصعيد والريف وهو القائل :

لِ حُرْمَةِ الضَّيْفِ لَوْ كُنْتُمْ ذَوِي كَرَمٍ  
لكنكم يابنى اللّخناء ليس لكم  
كم لا أزال على حال أساء بها  
لأتركن لكم أرضاً بكم عرفت  
وما مقامى بأرض تسكنون بها

وَحُرْمَةُ الْجَارِ لَوْ كُنْتُمْ ذَوِي حَسَبٍ  
فَضْلٌ وَلَا أَنْتُمْ مِنْ طِينَةِ الْعَرَبِ  
منكم وأغضى على الفحشاء والشريب  
فأخبثُ البومِ يَأْوِي أَخْبَثَ الْحَرَبِ  
مِنِّي يَطِيبُ . وَلَكِنْ حُرْفَةُ الْأَدَبِ

(١) ذكر العماد أن ابن الزبير قال هى منسوبة إليه مما ادّعاها .

(٢) وعلق العماد على الأبيات بقوله : استغفر الله من ذلك ، فإنه لم يكن حافظاً وإنما كان مُضْتَبِعاً — ومعلوم أن العماد كان سنياً مخالفاً فى مذهبه للفاطميين .



ومنهم علي بن يقظان السبتي<sup>(١)</sup> .

من مدينة سبته ، قال عنه العماد : شاعرٌ أديبٌ ، متطبِّبٌ . ذكره بعض أهل الأدب بمصر ، وقال : ورد إلى البلاد المصرية سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ومضى منها إلى اليمن ، وسافر إلى المشرق في طلب الرزق ، وزار العراق ودار الآفاق .

ومن سبته وفد إلى مصر ابن شقرق السبتي.

ومن شعره وقد كتب به إلى صديق :

قلبي غداة التين جِدُّ مُودَعٍ  
كَيْدِي وَقَلْبِي بِجِرْيَانِ بِأُدْمَعِي  
لَمْ أُسْتَظِلْ بِظِلِّهِ فِي مَرْبَعِ  
أَسْفَاً عَلَي ذَاكَ الزَّمَانِ الْمَرْعِ  
بعد التاليف والوداد الممتع

دُعْنِي أَطِيلُ تَأْسُفِي . وَتَفْجِئِي  
ذَهَبَتْ بَيْنَهُمُ الْقَطَارُ فَأَصْبَحْتُ  
أَسْفَى عَلَي زَمَنِ الْوِصَالِ كَأَنِّي  
فَلَأَمْنَعَنَّ الْجَفْنَ مِنْ طَعْمِ الْكَرْرِي  
وَلَأُحْفَظَنَّ الْعَهْدَ مِنْ نِجْلِ نَائِي

ومنها يصف السفينة :

خَضْرَاءُ تَسْبِيحُ فَوْقَ لُجِّ مُتْرَعِ  
وَحَوْثُ قَوَادِمِ كُلِّ طَيْرٍ مُسْرِعِ  
وَعَمْرٌ مَرُّ الْعَارِضِي الْمَتَقَشَعِ  
مَهْمَا الْعَطَاشُ وَرَدَّنْ عَذَبَ الْمَشْرَعِ  
تُخْنُو عَلَيْهِمْ رَافَةٌ بِالْأَضْلَعِ  
يُمَضِي أَوَامِرُهُ لِأَوَّلِ مَوْقِعِ

فَارُكَبْ عَلَي اسْمِ اللَّهِ مَتَى رَكُوبِي  
تَخَذْتُ جَنَاحاً مِثْلَ قَلْبِي خَافِقاً  
تَسْرِي وَتَرْجِيهَا الرِّيَاحُ إِذَا سَرَّتْ  
تَسْتَعْذِبُ الْمَلْحَ الْأَجَاجَ لَدَى الظُّمَأِ  
وَكَأَنَّمَا رِكَابُهَا أَبْنَاؤُهَا  
وَكَأَنَّمَا الْمَلَاخُ فِيهَا أَمِيرٌ

(١) الخريدة ١/ ٣٤٤ .

## مجبر الصقلي ( توفي قبل سنة ٥٤٠ هـ )

هو مجبر بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن مجبر الصقلي .  
الصقلي المولد ومن الوافدين إلى مصر بعد الأحداث التي مرت بها صقلية  
بين النورمان والعرب والعرب أنفسهم .

وفد إلى الإسكندرية كغيره من المغاربة والصقليين بحراً ، والتقى ببعض  
علمائها ، وجلس إلى محدثها السلفي الحافظ ، وترجم له هذا في معجمه قال :  
إنه من أهل الأدب البارع والشعر الرائع .

وكان انتقله إلى مصر سنة ٤٨١ هـ في خلافة المستنصر ، وكانت سنة  
السابعة عشرة . وذكر السلفي أنه كان يحضر عليه ويأخذ عنه . وينشده مجبر  
بعضاً من شعره ، فيقيده السلفي عنه .

وشهد السلفي له وهو شاب بأنه كان صائناً لنفسه غير متبدّل ووصفه بأنه  
من فحول الشعراء .

وذكر العماد أن القاضي الفاضل ذكره بين شعراء المغرب والأندلس  
الوافدين إلى مصر ، وأنه « قُرْظُه بالفضائل » .

قال العماد<sup>(١)</sup> : « وهو صِقلِيُّ التُّجَّار ، مصريُّ الدار ، وهو قريب  
العصر ، توفي قبل الأربعين والخمسمائة . قال : قال ابن الزبير : يُنقل إلى  
المصريين بحكم أن نشوءه واشتهاره بمصر . غزير موارد الفكر ، وارى زناد  
القريجة » .

ولا ندري كم مكث بالإسكندرية ، ولنفترض أنه أتم بها القرن الخامس  
وانتقل إلى القسطنطينية والقاهرة في أوائل القرن السادس ، وكان سلطان الأفضل  
قد بلغ قمته ، فقد ولّى المستعلي ابن أخته الخلافة ، وحارب نزاراً بن المستنصر  
حتى اختفى من مسرح النزاع . وظل اتباعه النزارية يتعقبون الوزير الأفضل  
حتى قُتِل بيد أحدهم .

(١) خريدة القصر ٢ / ٨٣ قسم شعراء مصر .

وفي هذه الفترة من استبداد الأفضل بأمر السلطنة كان بلاطه مآلاً لكثير من الشعراء مصريين ووافدين ، وهكذا انضم مجير إلى ركبهم في رحاب الأفضل قال الصيرفي (١) : « أحد شعراء المجلس العالی المالکی ثبَّت اللهُ سلطانه » یعنی مجلس الأفضل .

وبعد مقتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ اتصل بالوزير الذي جاء بعده وهو المأمون البطائحي ومدحه .

واتصل ببعض كتاب المصريين ومدحهم (٢) .

ومن مدائحه في الأفضل التي رواها الصيرفي (٣) :

شعرٌ أرقُّ من التَّسِيمِ حواشياً	لم تَرَوْ حوشىَّ الكلامِ روائاً .
نُظِمَتْ لُشاهنشاهٍ منه قصائدٌ	قَصِدَتْ مَدائِحُهُ بِها وصفائهُ
فَأتى بديعاً في بديعٍ أطمعت	ألفاظُهُ ، وتمنعت طرقاتهُ
كالرُّوح يُدْرِكُ بالحقيقة فعلهُ	وتغيب عن أهل البصائر ذاته

ويقول في وصف خيمة الفرج التي أقامها في مناسبة وفاء النيل وكسر الجسر :

وبيض خيام يهتدي الركب في الدجى	بها حين تخفى النيرات وتحجب
تبوات منها خيمة الفرج التي	لراجيك قال في اسمها لا يكذب
فتاة على إيوان كسرى وتاجه	رواق لها في ظل ملكك يضرب
علا وعلت ، فاستوفت الجؤ هالة	بها منك بدر بالبهاء متحجب
يكاد من الأحكام صافين خيلها	يجول وساجي وحشيتها يتوثب
ويوم كيوم الجسر هولا وشدة	يرى الطفل فيه خيفة وهو أشيب
سقرت به عن وجه جدلان ضاحك	وللشمس وجه بالعجاج منقب
وأسمر عسال الأنايب قد سطا	على الأسد منه في يمينك نعلب
أخو الصل شينها ماله الدهر مذناي	عن الثرب إلا في الترائب مشرب

(١) الأفضليات ١٠٩ .

(٢) الذخيرة ٢ / ٨٢ .

(٣) الأفضليات ١٨٠ ، والذخيرة ٢ / ٨٦ .

ومنها قصيدة لم يذكر العماد — متعمداً غالباً — الممدوح ، لكن القول  
يرشح أنها في الأفضل ، وقد جاء ذكره تلميحاً في أثنائها . وبدأها بذكر  
الشراب مقتفياً صنيع أبي نواس ، يعقبه بالغزل ثم المدح فيقول :

إملاً كؤوسك بالمدام وهاتها  
أصرف عن المشتاق صيرف مدامة  
وأحل أشربتي وأحلاها التي  
ومريضة الأجنان رامت في الهوى  
مازلت أصفح في القلي عن جزمها  
حتى توهمت الصلود زيادة  
يقول فيها :

ما خلعت أن النفس ينكد عيشها  
أستودع الله القباب وأرجها  
والورد يخسد نرجساً وبنفسجاً  
تلك الرياض اللاء ما برحت يدي  
ولرب قافية شرود شردت  
حتى وردت من التأسف بعدها  
مازلت أنظم طيب ذكرك عنبراً  
حتى إذا نشر الصباح رداءه  
ومتلت عقداً تؤد كواكب الجو  
أعددتها للقاء مجدك سبحة  
ومدائح الكرماء خير وسيلة  
وأحقها بالثجح مدحك إنه  
فاليوم أنثها جواهر حكمة  
فالبس بها حلل الناء فائها  
وأفسيح لنا في لثم بسطك إن ابث  
قسماً بمن قسّم الحظوظ فلت  
وبنى العلاء ربياً فكنت بفضلِهِ  
حتى يكون الموت من شهواتها  
فيهن كالأقمار في هالاتها  
في شهل أعينها ونفس لثاتها  
تجني ثمار الوصل من وجناتها  
نومي فبت أجول في ألياتها  
ناراً دموعي الحمر من جمراتها  
أرجاً خلال الدر من كلماتها  
عن مثل نفع المسك من نفعاتها  
زاء عقدته على لباتها  
أدعو بها لأنال من بركاتها  
شفعت بها الآمال في حاجاتها  
للنفس عند الله من قرباتها  
عقمت عذارى الشعر عن أحواتها  
حلل تروق علاك في بدنائها  
يملك إلا شعلها بيناتها  
أولى من استولى على غاياتها

لَوْلَا وُجُودُكَ فِي الزَّمَانِ وَجُودُكَ الْخَبِيِّ الْمَكَارِمِ بَعْدَ بَعْدٍ وَقَاتِبَهَا  
 لَمْ يُعْرِفِ الْمَعْرُوفُ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ طَفْنَا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا  
 وَقَدْ شَكِيَ فِي هَذَا الْجُزْءِ أَوَّلَ الْأَمْرِ مِنْ ضَيْقِ الْعَيْشِ ، عَرْضاً ، وَجَاءَ بِهِ فِي  
 أَثْنَاءِ الْغَزْلِ وَالنَّسِيبِ ، وَغَزَلَهُ هُنَا غَزْلَ حَضْرِيٍّ ، وَإِنْ مَازَجْتَهُ بَعْضَ الْعِبَارَاتِ  
 وَالْأَلْفَافِ الْبَدْوِيَّةِ ، وَهَذَا طَبِيعِي فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، يَجْرِي عَلَى لِسَانِ الشَّاعِرِ مِنْ  
 مَحْفُوظِهِ .

وَحَدِيثُ التَّشْبِيهِ بِالْأَزْهَارِ فِي الْغَزْلِ حَدِيثٌ حَضْرِيٌّ ، وَرِثَهُ عَنِ مَبْدَعِي  
 بَغْدَادٍ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ ، وَعَنْ شِعْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ أُغْرِمُوا بِالطَّبِيعَةِ زُورُودَهَا  
 وَنُورَهَا وَزَهْرَهَا . وَكَذَا مَا اعْتَادَهُ الْمَصْرِيُّونَ مِنَ الْإِكْتِثَارِ فِي شِعْرِهِمْ عَنِ الطَّبِيعَةِ  
 مِنْ ذِكْرِ الزَّهْرِ وَالنُّورِ .

وَأُظْنَهُ اسْتَحْضَرَ ابْنَ الرَّومِيِّ فِي بَعْضِ آيَاتِهِ الَّتِي مَزَجَ فِيهَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ  
 وَالرُّوْحِ .

وَيَهْتَمُّ الشَّاعِرُ بِوَصْفِ قَصِيدَتِهِ بِأَنَّهَا عَذْرَاءٌ ، وَأَنَّهَا شَرُودٌ ، غَرِيبَةٌ ، لَا يَمِثَلُهَا  
 شِعْرٌ فِي غَرَائِبِهَا ، وَهِيَ عَقْدٌ يَنْتَظِمُ جَوْهَرَ الْمَعَانِي فِي مَدِيحِ الْمَمْدُوحِ ، وَتَوَدُّ  
 الْكُوكَبِ أَنْ تَكُونَ خَرَزَاتِ هَذَا الْعَقْدِ . وَكُلُّهَا مَعَانِي تَدَاوَلَهَا الشَّعْرَاءُ وَخَاصَّةً  
 أَبُو تَمَامٍ ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ أَغْرَبَ هُنَا فِي وَصْفِ قَصِيدَتِهِ بِالسُّبْحَةِ يَدْعُو بِهَا لَيْنَالٍ  
 مِنْ بَرَكَاتِهَا . وَبَرَكَاتِهَا بِالطَّبِيعِ مَا يَجُودُ بِهِ الْمَمْدُوحُ مِنْ عَطَاءٍ ! .

وَيُرْوَى الْعَمَادُ مِنْ شِعْرِهِ هَذِهِ الْآيَاتُ اللَّامِيَّةُ عَنِ مَجْمُوعِ ابْنِ الزُّبَيْرِ (١) :

أَثْرَى يُضِيقُ مِنَ الصَّبَابَةِ عَاشِقٌ	قَذَفَتْ بِهِ الْأَهْوَاءُ فِي الْأَهْوَالِ
مُعْرَى بِحَبِّ الْغَانِيَاتِ ، هَفَّتْ بِهِ	هَيْفُ الْخِصُورِ ، وَرُجِحُ الْأَكْفَالِ
غِرْسَ الْقَضِيبِ عَلَى الْكُثِيبِ بِقَدِّهَا	فَاتَتْ بِمِيَادٍ عَلَى مُنْهَالِ
تَتَرَدَّدُ الْأَبْصَارُ فِيهَا حَيْرَةً	فِي الْحَسَنِ بَيْنَ الْحَالِ وَالْحُلْخَالِ
عَرَاءُ غَرْنِهَا الشَّبِيبَةُ فَانْتَسَتْ	تِيَّةَ الدَّلَالِ وَعِزَّةَ الْإِذْلَالِ
مَمْكُورَةٌ مَكْرَثٌ بِقَلْبِي وَالْهَوَى	يَسْتَضْعِفُ الْمَحْتَالَ لِلْمَحْتَالِ

(١) الخريدة ٢ / ٨٢ .

حَلَّتْ مَوَاشِيَّ الرَّفَاءِ وَحَلَّتْ  
قَالُوا تَسَلُّ ، وَيَسَسْ مَا أَمُرُوا بِهِ  
قَلْبِي مِنَ الْأَجْوَادِ إِلَّا أَنَّهُ  
سُقِيَتْ لِيَالِينَا بَرَامَةً ، وَالْهَوَى  
وَلِجَدَّةِ الْعِشْرِينَ عِنْدِي تَرْوَةٌ

يقول فيها ؛ من المديح :

غَيْثٌ مِنَ الْإِحْسَانِ مَا يَنْفُكُ مِنْ  
وَسَحَابٌ جَوْدٌ كُلَّمَا ضَنَّ الْحَيَا  
نَادَى بِحَيِّ عَلَى النَّدَى ، فَأَجَابَهُ  
وَأَقْرَّ مَعْتَرَفًا بِشَابِتِ فَضْلِهِ

فِي الْحَبِّ قَتْلِي ، وَهُوَ غَيْرُ خَلَالِ  
بُؤْسُ الْمَحَبِّ ، وَلَا نَعِيمُ السَّالِي  
فِي الْحَبِّ مَعْدُودٌ مِنَ الْبِحَالِ  
حُلُوٌّ ، وَأَيَّامُ الشُّبَابِ حَوَالِي  
تُغْنِي هُنَيْدَةً عَنِ هُنَيْدَةِ مَالِي (١)

مَعْرُوفِهِ فِي وَايِلِ هَطَّالِ  
بِالْمَاءِ جَادَتْ كَفُّهُ بِالْمَالِ  
بِالْحَمْدِ كُلِّ مَخَالِفِ رُمُوَالِي  
مَنْ لَا يُفِرُّ بِمَبْدِعِ الْأَشْكَالِ

وصنعة البديع في هذه الأبيات واضحة ، وغرامه بالتجنيس لا يحتاج إلى  
تبيين وإشارة ، وقد لاحظ هذا الغرام ابن الصيرفي عندما عرض لقوله (٢) :

غَارُوا فَعَارَ الْحَيْنَى فِيهِمْ قَمَرٌ هَوَيْتُهُ ، أَفَلَا أَبْكِي وَقَدْ أَفَلَا  
قَالَ ابْنُ الصَّيْرَفِيِّ : وَالْمَتَقَدِّمُونَ يَسْمُونُ هَذَا تَجْنِيسَ الْمَمَاتِلَةِ ، وَقَوْمٌ يَعْبُرُونَ  
عَنْهُ بِتَجْنِيسِ اللَّفْظِ وَالخَطِّ .

ويبدو أن مجر قد حاذى أبا تمام في صنعة التجنيس ، وأراد تقليده ، وبخاصة  
عندما لقي هذا اللون من الصنعة ترحيباً في عصره ، وآثره بعض شعراء المرحلة  
وبخاصة شعراء الشام على ما أشرنا .

وجمع إلى التجنيس التورية ، وكان بعض شعراء المصريين قد أولع بها ونقل  
هذا القاضى الفاضل ، وصارت التورية فناً بديعياً غلب على المصريين خاصة ،  
كما غلب الجنس على الشوام خاصة .

ويشير ابن الصيرفي إلى التورية في قوله :

فَسَقَى مَحَلَّ الْجِرْعِ مِنْ مَحَلِّ بِهِ غَيْثٌ تَدَوَّرَ عَلَى الرَّبَا كَأَسَاتِهِ  
سَفْحٌ سَفْحَتْ عَلَيْهِ دَمْعِي فِي ثَرَى كَالْمِسْكَ ضَاعَ مِنَ الْفَتَاةِ فُتَاةٌ

(١) هنيذة الأولى تصغير هند من أسماء النساء ، وهنيذة الثانية اسم يطلق على المائة من الإبل .

(٢) الأفضليات ص ١١٠ .

قال ابن الصيرفي<sup>(١)</sup> : فقد ورى بضاع من الضياع عن ضاع من التضرع  
وإلى هذه التورية ، فاستخدامه الجنس واضح في محل ومحل ، وسفح  
وسفحت ، والفتاة والفتات .

ويروى له كذلك بيتاً من أبيات قالها بمناسبة زيارة ملك غانة لمصر في  
طريقه إلى الحج ، واستقبال الأفضل له واحتفائه به . قال :

كذا يجيب دعاء الله من عرفه من غانية غاية الدنيا إلى عرفه  
فانظر كيف جالس بين عرفه الفعل وعرفه اسم الجبل ، وبين غانية وغاية .  
ومن مديحه في الأفضل :

بأى لسان من معاليك أعرب وفي كل إحسان في معانيك تُعرب  
يقول فيها :

هصور له السرُّ المضاعف لئدة لدى الحرب ، والعضبُ اليمانيُّ ميخلد  
وهي التي وصف فيها خيمة الفرج كما أشرنا . وفيها تشبيهات مجددة لآلة  
الحرب .

ويعجب ابن العماد بقوله في أول قصيدة مشبها البرق :

أترى السحابَ الجونَ باتَ مشوقاً ييكي الثوى ويعاتبُ التفريقا  
فالبرقُ يلمعُ في حشاهُ كأنه قلبُ المحبِّ ثلهاً وخفوقا

وعلى ذكر البرق ، فإنه كرر ذكره في قصيدة أخرى ، وصوره صورة  
مخالفة بل صوراً متعددة متتابعة حيث يقول<sup>(٢)</sup> :

أرأيت برقاً بالأبارقِ قد بدا كيف اكتسى ثوبَ السحابِ مُمسكاً  
وأحاله شفقُ الرداءِ مُورداً وكأنما في الجوِّ كأسٌ كلماً  
فأث نمر البرقِ صاحٍ وعربداً أو مرهفٍ كشفت مداوسُ صيقل  
عن متبه صدءاً لكي يروى الصدى كالجبُّ أو رِقُّ اللجينِ يسيل من  
أفقي أحواله البوارقِ عسجداً وكلؤلؤٍ للغيثِ يأخذُه الثرى

(١) الأفضليات ص ١١٣ .

(٢) الخريدة ٢ / ٨٦ .

ويستحضر بهذه التشبيهات بعض التشبيهات المتوارثة في الشعر القديم تقول الشاعر يصف البرق :

يدو وتنجبه التلاع كأنه سيفٌ يُسَلُّ على الظلام ويُعمدُ  
وفي معاني الحب والتشوق نجد له ما يعجب من التصرف المبدع كأن يقول :

لَوْلَا الهَوَى ما عَبَّرْتَ عَبْرَاتِهِ عَنْ وَجْدِهِ وَتَصَاعَدْتَ زَفْرَاتِهِ  
فَرُقُ الفراقِ أَطَارَ حَبَّةَ قَلْبِهِ فَتَقَطَعْتَ بِمَدَى النَّوَى عَزَمَاتِهِ  
مَنْ كَانَ وَخَى الحُبِّ بَيْنَ ضُلُوعِهِ نَزَلْتُ بِفَيْضِ دَمُوعِهِ آيَاتِهِ  
لَا تَنْكُرُوا حَمْرَ الدَّمُوعِ فَإِنَّهُ جَمْرُ الأَسَى وَتَنْفُسِي نَفْحَاتِهِ

وله أبيات رقيقة في وزنٍ وإيقاعٍ خفيفين ، وقافية تنتهي بياءٍ مفتوحة وهاء ساكنة . يقول فيها<sup>(١)</sup> :

طرقتك غير مُختفية غادة بالحسن مُرتديـة  
ووشى طيبُ النسيم بها قَبْلَ أن تَبْدُو قُلْتُ هَيـة  
ثمَّ لما أَقْبَلْتُ طَلَعَتْ بِمِثْلِ قَرْنِ الشَّمْسِ مُعْتَلِيـة  
يا لقومي من لواجِظِها إِتْها بُرِّي وَعِلَّتِيـة  
واصَلْتُ ليلٍ وَنَفَرَّها أَنْ رَأَتْ صَبْحاً بوفرتيـة  
إِنْ صَبَحَ الشَّيْبُ أيقظني من كرى عيني وغفلتيـة

وهكذا ، فإن ما وصلنا من شعر مُجبر القليل ينيء عن شاعر مجيد ، تنشأ على فن الشعر في الأندلس ، ومزج بينه وبين فنونه بالشرق ، وتحلى بركة المصريين وإبداعهم .

(١) الخريدة ٢ ص ٨٧ .



## ملاح شعر الوافدين المغاربة والأندلسيين :

لشعر الوافدين من المغرب ملاح عامة تكاد تتكرر في كل أشعارهم ، ومن أظهرها الإحساس بالغبرة ، وألم الفقر والحاجة ، والشعور بالآلام الاضطرار للسؤال وطلب الجدوى .

ومنها وصف الرحلة ، والبحر ، والسفن وهول ركوب البحر ، وشكوى الزمان ، والشعور بعدم الاطمئنان إلى الحياة والناس ، وربما كان ذلك راجعاً إلى ما أصاب بلادهم من اضطراب ، واضطهاد وحروب وغارات للفرنجية والنصارى والتورمان في صقلية . وما أرتكب في المعارك من قتل وتعذيب وتشريد .

وقد استقبلت مصر منهم أعداداً كبيرة خلال القرون من الخامس إلى السابع . وجاءوا معهم بكثير من علوم الأندلس وآدابها ، كما جاءوا بفنونهم ، وبعض عقائدهم . وكان من بين ما جاءوا به إلى مصر التصوف المغربى .

كذلك وقد معهم الموشح ، وتأثر المصريون بموشح الأندلسيين فنظموا على شاكلته . وبدأ الموشح المصرى يأخذ طريقه إلى النظم منذ آخريات القرن الخامس ، وطوال القرنين السادس والسابع . وقد وقفنا على صور للموشح عند ظافر الحداد ، وهو سكندرى ، اختلط بالأندلسيين والمغاربة الذين كثروا بالإسكندرية على عصره ، وربطت بينه وبينهم روابط أدب وعلم .

وكان من بين من تعرف عليهم وتأثر بهم أمية بن أبى الصلت ، وكان لأمية تلاميذ آخرون من الإسكندرية أخذوا عنه .

ومن ملاح شعر الوافدين التجديد فى الصياغة ، على نحو يبدو غريباً فى بناء الصورة على غير المعهود فى الشعر العربى المشرقى ، والذى كانت تقاليد الفنية سائدة فى الشعر المصرى إلى القرن الرابع .

وكثرت فى تعبيراتهم الألفاظ والتراكيب العامية أو غير الفصحى . ربما كان ذلك تأثراً بالموشح والزجل . كما حاول بعضهم إيقاعات جديدة تخرج عن نمط العروض العربى المعروف بأوزانه وضوابطه التى حافظ عليها المشاركة .

وكثر تشبيههم بمظاهر الطبيعة من شجر وماء وزهر ونجوم وسماء وإن كانوا يتصرفون في تشبيهات القدماء واستعاراتهم الجارية في الشعر حتى تلبس ثياباً جديدة من اللفظ تخرج بها عن معتاد الصياغة في شعر المشاركة .

وقد أثرى الوافدون المغاربة الشعر المصريّ في هذه المرحلة ، بما أشاعوه فيه من هذه العناصر التجديدية في اللفظ والمعاني ، والأخيلة والتراكيب .

وأضافوا إلى التجارب الفنية في شعر المشاركة والمصريين تجاربهم الخاصة التي عاشوها في بلادهم الغنية بالثقافات والتي تغاير إلى حد كبير ثقافات المشرق ، واستطاعوا أن يصوغوا هذه التجارب في القوالب التقليدية للشعر وإن حاولوا أن يخرجوا على الأطر الموروثة من حيث التمسك الصارم بشكل القصيدة ، وإيقاعاتها ، وقواعد الوزن والقافية .

كذلك حاولوا الإفلات من أسر التجارب المشرقية التي غلب عليها الشعر الجاهلي بصياغاته ، وصوره الصحراوية وأخيلته وتراكيبه .

وكان أثر هذا كله واضحاً على الشعر المصري في القرون السادس والسابع والثامن .



## الفصل الثامن

### شعراء مصريون من القرن السادس

- ١- حسن بن زيد الأنصاري
- ٢- ابن النصر
- ٣- داود بن مقدم المخلبي
- ٤- ابن الضيف
- ٥- ابن الكيزاني



بدأ القرن السادس باضطراب أحوال الخلافة الفاطمية ، والذي بدأت أسبابه تظهر في أخريات القرن الخامس . وكان من عوامله الدسائس المتبادلة بين أنصار العباسيين والفاطميين ، وضغط الروم ، والصليبيين على الدولتين ، والخلل السياسى والإدارى الذى أصاب الخلافة بالضعف ، وأطمع كثيرين من المتطلعين للسلطة . وكان لبدر الجمالى وابنه الأفضل — على قدر ما سيطرا على مقاليد الحكم دور فى هذا الاضطراب الذى أصيبت به الخلافة الفاطمية ، لما أبدياه من المظالم والاستبداد ، والميل إلى الانفراد بالسلطة ، والتقليل من دور الخلفاء ، مما أطمع فيهم كل مغامر يقتنص الفرصة للظفر بالسلطة .

لقد قتل الأفضل بتدبير من الأمر كما يقال ، أو بتأمر النزارية انتقاماً . ومن بعده اضطراب الأمر وتعاقب الوزراء والقادة على السلطة ، وصار الخلفاء لعبة فى أيديهم كما كان الحال فى بغداد .

وكانت قوة السلاجقة وأتباعهم من آل زنكى قد بدأت تظهر بشكل واضح بالعراق والشام . حتى انتهى الأمر بمقتل زنكى وتولى السلطان محمود ، وفى عهده انتهت الخلافة الفاطمية بعد هزيمة أسد الدين شيركوه للصليبيين فى مصر واستيلائه عليها تحت إمرة نور الدين محمود . ومن بعده خلصت لصالح الدين .

وقد شهد القرن الخامس كثيراً من الشعراء المقيمين بمصر والوافدين ، بعضهم شارك فى الأحداث ، كابن منقذ وعمارة اليمنى ، وابن رزّيك . وقد سجّل شعر هذا القرن بعض أحداثه فى مصر وخارجها ، فضلاً عن الموضوعات التقليدية من مدح وهجاء ووصف وغزل .

وعرف فى هذا القرن كالقرنين السابقين جماعة ممن نظموا الشعر من كُتّاب الدولة، ولم يقتصر قول الشعر على المحترفين المجتدين . فقد كان من الشعراء فرسان كابن منقذ ووزراء كبار كابن رزّيك .

واستمر الشعراء الوافدون من المشرق والمغرب فى وفادتهم إلى مصر قاصدى الحج راغبين فى نيل الجائزة ، وكان أصحاب السلطة والجاه فى الدولة ، جنباً إلى جنب مع الخلفاء ينعمون على الشعراء ، ويجزلون العطاء ،

لأن الشعر كما قلنا كان أداة إعلام واسعة الانتشار ، يحرص كل صاحب مصلحة أو نفوذ على أن يلهج الشعراء يذكره فيسير في الآفاق مشرقاً ومغرباً .

ولما كان القرن السادس قسمة بين الفاطميين والأيوبيين في مصر والشام ، فقد كان الشعر والشعراء كذلك قسمة بين الدولتين ، بعضهم خلص للفاطميين ، وبعضهم الآخر خلص للأيوبيين ، وبعض ثالث شارك في الدولتين ومدح الحكام والقادة فيهما ، واضطر بعضهم أو رغب تقريباً أن يغير اتجاهه ، ويعارض أقواله وينكب عن ولاء كان قد أبداه للفاطميين فعاد منقلبا عليهم ، موالياً للحكام الجدد من الأيوبيين ونذكر من هؤلاء القاضي الفاضل ، وابن عنين .

إلا أن بعض شعراء المرحلة ممن ذاق أنعام الفاطميين حفظ الجميل ، ولم يتخل عن ولاءه لهم في محتهم ، ولقى في سبيل هذا الحفاظ على الجميل والوفاء نهايته مصلوباً كالشاعر الفقيه عمارة اليمنى .

وعلى هذا التغير الذى حدث في ولاء الشعراء وتغير خطاب المدح بأشخاصه وقيمه ومعانيه ، لم تتغير أشكال الشعر تغيراً واضحاً في أخريات القرن ، وظل التطور التدريجي يعمل بفضل اجتهاد الشعراء والتفاعل بين جماعات الوافدين من المشرق والمغرب والمصريين المقيمين .

## حسن بن زيد الأنصاري<sup>(١)</sup>

شاعر من بيت مصرى عريق ، جدّه لأمه المجيد ابن أبى الشخباء العسقلانى من مقدمى الكتاب فى عصر المستنصر بالله .

وقد عمل حسن بالكتابة كجدّه لأمه ، قال ابن العماد : كان من المقدمين فى ديوان الإنشاء بمصر . وصفه القاضى الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه فى فنه لم يسمع الدهر بمثله .

كان من شعراء الأفضل بن بدر الجمالى .

قتله حسن بن الحافظ الخليفة الفاطمى لدسيسة رتبها له ابن قادوس إذ نظم على لسانه أبياتاً هجا فيها الحسن . وشعره رصين الصياغة يذهب فيه مذهب مقدمى الشعراء العباسيين فى القرن الثالث . ومن ذلك قصيدته يمدح الأفضل ويصف خيمة الفرج التى سبق أن ذكرنا بعض من وصفها من شعراء . يقول :

وأبدت العجزُ منها هذهَ الهِمَمُ  
ويقظةً ما نراهُ مِنْكَ أَمْ حُلْمُ  
تسمو عُلُوًّا على أفق السُّها الحَيَمُ  
فى مَارِنِ الدَّهْرِ من تيهِ بها شَمَمُ  
أن احتوتك وأنتِ الناسُ كلُّهم  
حتى ليصيرَ علماً أنّها عِلْمُ  
أضحّت تجاورها الآسادُ والأجَمُ  
لما تحقّقنَ منها أنها حرَمُ  
مُصَوَّرٌ ، وكلا الجيشين مُزْدَجِمُ  
فمقيدمٌ بينهمُ فيها ومُنهَزِمُ  
فليس تُترغُ عنها الحزمُ واللجمُ  
فكلُّهم لغمارِ الحربِ مُقتحِمُ  
فقد تسالمتُ الأسيافُ واللّمَمُ

مَجْدًا فقد قصرتُ فى شأوكِ الأُممُ  
أخيمةٌ ما نصبتِ الآنَ أَمْ فَلَكَ  
ما كانَ يخطرُ فى الأفكارِ قبْلَكَ أن  
حَتَّى أتيتِ بها شَمَاءَ شاهِقَةَ  
إنّ الدليلَ على تكوينها فلِكَأ  
يُمَدُّ من فى بلادِ الصَّينِ ناظِرُهُ  
ترى الكِناسَ وأرامَ الطُّبائِ بها  
والطُّيرُ قد لَزِمَتْ فيها مواضِعَها  
لذيكِ جيشٍ ، وجيشٍ فى جوانِبِها  
إذا الصُّبا حركتها مَاجَ موكِبِها  
أنحِلُها خيلكِ اللّاقى تُغيّرُ بها  
عَلِمْتَ أبطلها أن يُقدِّموا أبداً  
أُمْنَتُهُمْ أن يخافوا سَطوَةَ لِرَدَى

(١) ترجمته فى مخبرة القصر قسم شعراء مصر .



كَأَنَّهَا جَنَّةٌ فَالْقَاطِنُونَ بِهَا  
عَلَّتْ فَحَلْنَا لَهَا سِرًّا تُحَدِّثُهُ  
إِنْ أَنْبَتَتْ أَرْضُهَا زَهْرًا فَلَا عَجَبٌ  
يَا نَحِيمَةَ الْفَرَجِ الْمَيْمُونِ طَائِرُهَا  
ومنها :

لَا يَسْتَطِيلُ عَلَى أَعْمَارِهِمْ هَرَمٌ  
لِلْفَرَقْدِينَ، وَفِي سَمْعَيْهِمَا صَمَمٌ  
وَقَدْ هَمَّتْ فَوْقَهَا مِنْ كَفْكَ الدَّيْمِ  
أَصْبَحَتْ فَأَلَّا بِهِ تَسْتَبِيرُ الأُمَمُ

مَا قَالَ لِأَقْطُ مَذْ شُدَّتْ ثَمَائِمُهُ  
لَوْ كُنْتَ شَاهِدَ شِعْرِي حِينَ أَنْظِمُهُ  
أَزْرَتُكَ الْيَوْمَ مِنْ فِكْرِي مَحْبِرَةٌ  
تَرَى النُّجُومَ لِلْفِظَى فِيكَ حَاسِدَةٌ  
ومن قصيدة أخرى يمدحه :

زَكَمَ لَهُ نَقَمٌ فِي طَيْهَا نِعَمٌ  
إِذَنْ رَأَيْتَ المَعَالِي فِيكَ تَخْتَصِمُ  
فِي نَاطِرِ الشَّمْسِ مِنَ الأَلَائِهَا سَقَمٌ  
تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا فِي المَذْحِ تَنْتَضِمُ

أَطَارِقُ طَيْفِ أُمِّ خِيَالٍ مُرْجَمٌ  
سَرَى وَكَانَ الأَفُقُ صَفْحَةً أُجَّةً  
وَكَمْ لِلْكَرَى مِنْ مِثَّةٍ قَبْلَ هَذِهِ  
وَمَا شَيْئٌ الأَيَّامِ أَنْ تَمْتَحَ المَنَى  
وَلَكِنْ رَأَتْ نَعْمَى شَهْنَشَاءَ فِي الْوَرَى  
ومنها :

أَرَاكَ بِه مَرَأَى الْيَقِينِ التَّوَهُمُ  
كَوَاكِبِهِ فِيهَا سَفَائِنُ عَوْمُ  
أَضَاءَ بِهَا وَجْهَ الدُّجَى وَهُوَ أَسْحَمُ  
وَيَسِيمُ مِنْهَا الكَالِخُ المَتَجَهِّمُ  
فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنْ جَوْدِهِ تَعَلَّمُ

إِذَا كُسِفَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَإِنَّهَا  
وَمَا أَطْلَعَ الأَفُقُ النُّجُومَ لَرِيَّةً  
وَلَيْسَ صَلِيلُ البَيْضِ إِلاَّ لِأَنَّهُ  
وَمَا غَرَّدَ ابْنُ الأَيْلِكِ إِلاَّ بِمَدْحِهِ

لَخَجَلْتِهَا مِنْ نُورِهِ تَتَلَقَّمُ  
وَلَكِنَّهُ عَجَبًا بِهَا يَتَبَسَّمُ  
بُنْصَرْتِهِ يَوْمَ الوَعَى يَتَرْتَّمُ  
لَوْ أَنَّ غَنَاءَ ابْنِ الأَرَاكِةِ يُفْهَمُ

ومدائحه للأفضل فيها ترديد لبأسه وصولاته في الحرب ، وقد يكون هذا منطقياً في هذا العصر الذي شغل فيه القادة بمصر بغارات الصليبيين بالشام ، وتعدتها إلى الغارة على مصر سنة ٥١١ بقيادة بلدوين صاحب بيت المقدس .

ومحاولات بعض فرسان الصليبيين المهجوم على الثغور الشامية وبها حاميات مصرية . لقد استعرت حرب الحياة أو الموت بين المسلمين والصليبيين في خلال هذا القرن السادس وأحس الناس في كل مكان وبخاصة في مصر بخطورة

الهجمة الشرسة التي يشنها الصليبيون من أوروبا على سائر البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب .

ومن هنا لم يكن غريباً الإكثار من الحديث عن الجهاد والقتال ، وشحن الهمم لصد الأعداء وهم ذوو بأس شديد ويجوسون خلال الديار يهددون مصائر الناس وحيواتهم .

ولم يعدم المسلمون في ذلك الوقت أبطالاً يخوضون المعارك ويصطون المغيرين ، ويقاومون الغزاة بكل ما يحملون في صدورهم من حقد وطمع في حضارة المسلمين الزاهرة وأرضهم العامرة .

ولم تقتصر مدائح الأنصارى على الأفضل بل مدح من رجالات مصر أبا محمد بن أبى أسامة أحد كبار القادة ، من رجال الأفضل . يقول فيه من أبيات :

لعل سنا البارق المتجيد	يُخَيْرُ عن ساكني تهديد
ويا حُبداً خطرةً للنسيم	تُجَدُّدُ من لوعة المكيد
وفي ذلك الحى تُحصاة	لها عنق الشاين الأغيدي
ثيبه لُغرةً بذر التمام	وسالفة الرشا الأغيدي
وتلحف عطف قضيب الأراك	رداء من الأسحم الأجيدي
أعاذل أمحيت لوماً على	يروح بعدلك أو يغتدي
تلوم زمانى على صمته	وصوتى من ضربه المعدي
ففضلى يبكى على نفسه	بكاءً ليبيد على أريد <sup>(١)</sup>
ولو كان حظى لون الشباب	لما حال عن صبغه الأسود
قلا تأيسن لمطل الزمان	فأنى منه على مويد
ولا تشك دهرك إلا إليك	فما في البرية من مُسيد
ولا تغترز بعطايا اللتام	فقد ينضح الماء من جلدي

وعجيب أن يرد في شعر مديحه البيتان الأخيران ، لكن أحوال الزمان السيئة أجرت على لسانه هذا الكلام ، كما أجرى عليه كلاماً آخر في مناسبات وأشعار أخرى بشكو ويلوم الزمان ، وينظر إلى الناس والدهر نظرة سوداء متشائمة .

(١) أريد هو أخو ليبيد الذي أكثر من رثائه .

وتلتقى في شعر الأنصارى الذى اختاره العماد بأبيات يَتمرّد فيها على الحياة وأوضاعها ، ونحس وهو يذكر القتل والقتال أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في عصر اللثام إلا إذا تسلّح ، وقاتل ، واغتصب حقّه بالسيف .

يقول على سبيل المثال :

منال الثريا دون ما أنا طالبُ  
وإنى وإن لم يسمخ الدهر بالمنى  
تقربُ لى مستبعداتِ مطالبى  
فما أنا ممن يقبض العجزُ خطوهُ  
إذا ما كسناك الدهرُ ثوباً من الغنى  
ولا تغترّرِ مِمَّنْ صفا لك وُدّه  
نلوّم على الغديرِ الزمانَ ضلالةً  
ويقولُ :

أطلب الرزق لا أنضى الرّكاب له  
وكيف أغضى على ضيمٍ وما رويث  
من لى بعودِ زمانٍ كنتُ أكرهه  
لا تفرسُ الأسدُ أو تنأى عن الأجم  
منى السيوفُ ولم تسق الصّعادُ دمى  
وكيف للميتِ بالرجعى إلى الألم

ونحس أحياناً ونحن نقرأ بعض شعر الأنصارى روح المتنبى في تمرده وضيقة بالبشر والعصر ، وبالحياة أحياناً . بل إنه قد يصطنع صياغته وخطابه الشعرى .

والأنصارى مثال من الشعراء المتمردين على العصر وأمله وهو يمثل هذا الإنسان الغاضب المتمثل لنفسه الطامح إلى أمل أبعد من قدرته ، في عصر يظن أن الغالب فيه بالغ ما يريد . ولم يزوده الله إلا بقدره البيان ، والغلبة لصاحب السيف والسلطان .

## ابن النَّضْر — الأديب (١)

القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن النضر  
من شعراء الصعيد في عصر المستعين والآخر — وقد اتصل بالأفضل  
شاهنشاه بن بدر الجمالي .

تولى قضاء الصعيد زمناً بإخميم . ذكره أمية بن أبي الصلت في الرسالة  
المصرية وأشاد به . وقال عنه العماد : من أهل صعيد مصر . من الأفاضل  
المعدودين من حسنات الزمان . ذو الأدب الجم ، والعلم الواسع ، والفضل  
الباهر ، والنثر الرائع والنظم البارع . وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى .  
نشأ بالصعيد ، وتلقى به العلم ، وكان يحفظ كتاب سيبويه ، وكان  
متصرفاً في علوم كثيرة ، وله في الأدب مادة غزيرة .

قال صاحب الطالع السعيد : وأكثر شعره في تشكّي الزمان والإخوان .  
وله مدائح في الأعيان ، وفي جماعة من بني الكنز أعيان أسوان .  
وقال عنه ابن حجر : أحد قضاة الصعيد . كان نحوياً أديباً . روى عنه ابن  
برى النحوى من رجال القرن السادس وغيره .

قال ابن أبي الصلت والعماد : وقد كان ورد الفسطاط يلتمس من وزيرها  
الملقب بالأفضل نصره أو خدمة ، فخاب فيه أمله ، وضاع رجاؤه ، وأخفق  
سعيه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ، ويشكو الحيبة والحرمان :

بين التعزّز والتذلل مَسَلَّكَ	بادى المنار لعين كلِّ مُوفِّقٍ
فاسلكهُ في كلِّ المواطنِ واجتنب	كبيرِ الأبيِّ وذِلَّةِ المتملِّقِ
ولقد جَنَيْتُ من البضائعِ خيرها	لأجلِّ مُختارِ ، وأكرمِ مُتَّقِي
ورجوتُ خفضَ العَيشِ تحتَ رواقِهِ	لأبَدِّ إنْ نَفَقَتْ وإنْ لم تَنفُقِ
ظَنًّا شبيهاً باليقينِ ولم أُحلِّ	أن الزَّمانَ بما سَقَانِي مُشْرِقِي

(١) راجع في ترجمته الرسالة المصرية في مجموعة نوادر المخطوطات بتحقيق عبد السلام هارون ص ٤٠ .  
والخرقة ٩٠/٢ شعراء مصر والطالع السعيد وبغية الوعاة للسيوطي .

ولعائبي بالجرصي قول بين  
 ما ارتدت إلا خير مرتاد ولم  
 وإذا أبقى الرزق القضاء على امرئ  
 ولعمر عادية الخطوب وإن رمت  
 لأقاربن الدهر دون مروءتي

لو كنت شئت سحابه لم يطرق  
 أصل الرجاء بجبل غير الأوتق  
 لم تُغن فيه حيلة المستزق  
 شملي بسهم تشتت وتفرق  
 وحربت غز النصر إن لم أصدق

قال : وله في سفرته هذه ، وقد قوى بأسه من بلوغ أمه ، ونيل بغيته ،  
 وعزم على الصّدر عن الفسطاط إلى مستقره ، يحض على الزّهادة ، ويحرض على  
 القناعة ، ويذم الضّراعة ، ويتأسف على إذالة خده ، وإراقة ماء وجهه :

لهفي للملك قناعة لو أنني  
 ولكني بأس كنت قد أحرزته  
 آليث أجعل ماء وجهي بعده  
 وأخ من الصبر الجميل قطعته  
 يا قاتل الله الضرورة حالة  
 كم بات مشكواً إليه تحيقت  
 وفم على قدم رمت ونواظري  
 ومسربل بالصبر والتقوى دعت  
 ظلت تصرفه كتصريف العصا  
 لا أنشأني الحادثات لمثلها

متعت فيه بعزة المملك  
 لو لم تعث فيه الخطوب وتفتك  
 كدم يهل به الحجيج بمنسك  
 في طاعة الأمل الذي لم يدرك  
 أي المسالك بالفتى لم تسلك  
 خلفاته قرعاً براحة منسك  
 كجالت محاجرهما بوطى سنسك  
 فأجابها في معرض المتسك  
 رأس البعير لمبرك عن مبرك  
 ورمت قبل وقوعها بالمهلك

وله مرثية في الشاعر القاضي الرشيد بن الزبير جدّ اثنين من شعراء مصر  
 ورجالها المشهورين ممن اتصلوا بالوزير طلائع بن رزيك . ويدل ذلك على أنه  
 كانت تربطه به صلة ما ، والشاعران من الصعيد . يقول :

يا مزنّ ذا جدت الرشيد فمّل معي  
 وأمسخ بأردان الصبا أركانه  
 فبودّ نفسي لو سقيت ثرابه

نسّفح بساحته مزاد الأدمع  
 كي لا يلمّ به شحوب البلقع  
 دم مهجتي ، ووقته بالأضلع

ومنها يخاطب القبر :

وَأَرَيْتَ جُمَّلَتَهُ بَيْرِدِ الْمَضْجَعِ  
بِنَسِيمِ مَسَلِكِ رِيَاضِهَا الْمَتَضَوِّعِ

عَلَيْتُ عَلَيْكَ مَرَاحِمٌ كَفَلْتُ لِمَنْ  
وَتَنَفَّسْتُ فِيكَ الصَّبَا مَفْتَوِّقَةً  
يقول فيها :

مستودع في ذى الثلاث الأذرع  
كيف ارتضى من بعدها باليرمع<sup>(١)</sup>

أَوْ مَا عَجِبْتُ لَطَوِيدِ عَزٍّ بِإِذِخٍ  
وَلَحْدٍ مِنْ وَطِيءِ الْكَوَاكِبِ رَاقِبًا  
ويقول :

وبها الذى لى من أسى وتوَجّع  
وذممت قلوبى كيف لم يَتَقَطَّعْ  
في كل حين وفادوة أو مَطْمَعِ

ولقد وقفت على ربوعك شاكياً  
فحمدت طرفى كيف أرشدنى بها  
وذكرت مُزْدَحَمِ الْوَفُودِ بِيَابِهَا

ومعظم ما اختاره العماد من شعر ابن النضر من هذا اللون من الشكوى  
والحكمة والسخط على الحياة والناس . كأن يقول وقد أوهنه العُمر :

ويا حياةً اهجرى ولا تُصَلِّبِ  
بين حُلُولِ وَبَيْنِ مُتَحَمِّلِ  
عِوَاظِفٍ مِنْ كَوَاذِبِ الْأَمَلِ

يا عَيْشِ إِنْ لَمْ تَطْبُفْ فَلَا تُطَلِّ  
كَمْ وَإِلَى كَمْ نَفْسِي مَقْسَمَةٌ  
يَصْرِفُنِي الْيَأْسُ ثُمَّ تُعْطِفُنِي

وقال وقد شعر بالغرابة عند فراقه وطنه بالصعيد في سفرته إلى القسطنطينية :

ولا قَطِينِكَ لِي أَهْلًا وَلَا سَكَنًا  
خَرِبْتُ فِيكَ الَّذِي عَمَّرْتَهُ زَمَانًا  
نَفْسِي، تَرَى الذَّلَّ فِي أَنْ تَسْكُنَ الْبِدْنَا

يَا دَارَ مَا أَنْتِ لِي دَارًا وَلَا وَطَنًا  
لَيْنُ تَنْكَرْتِ لِي عَمَّا عَهَدْتُ لَقَدْ  
أَتَشْتَكِينِ لَبِينِ حُمٍّ عَنْ بَلَدِ

ومن هذا الإحساس بالغرابة وفراق أهله وولده ينطلق قوله :

بِمَحَلٍّ لَا عَمٍّ لَهُنَّ وَلَا أُخٍ  
أَوْ يَعْتَصِمْنَ بِظِلِّ نَخْوَةٍ مُتَبَخِّخِ  
وَجَدَّ الْقَطَاةِ بِدَامِيَاتِ الْأَفْرَخِ

تَخَلَّفْتُ خَلْفِي لِلْحَوَادِثِ صَبِيَّةً  
يُعَلِّقَنَّ مِنْهُ بِجَبَلِ رَحْمَةِ رَاحِمِ  
وَلَقَدْ وَجِدْتُ لَهُنَّ إِذْ وَدَّعْتَنِي

(١) اليرمع الحجارة الرخوة .

ويبدو أن الرجل حين ضاق بالفسطاط والعاصمة حنَّ إلى بلده شأن كثير من أبناء الصعيد المغتربين ، فعادَ إلى بلده ليستقر ، وليقنع نفسه أن الحياة كلَّها قبض ربح ، وخيال زائل ، فارتضى لنفسه بالزهد ، وكفَّ الهمة عن التطلع والطمع خاصة وأنه قد بلغ من العمر حدًّا لم يعد يسعفه فيه البدن على مجاهدة الحياة والسعى في أحراشها . وحياة عصره تحكمها المغالبة ، وتسودها قوانين الغاب ، والسيادة فيها لمن غلب قوةً واقتداراً ، أو دسيسةً وغدراً وخداعاً . فيعزى نفسه وأمثاله بأن يقول :

بآداب القناعة والرَّهَادَة	جهاذ النَّفسِ مفترضٌ فَخْذُهَا
وخالفَتْ الهوى فهو الإرادة	فإن جنحتْ لذلك واستجابتْ
شكيمتها بمقَمَعَةِ العبادة	وإن جمحتْ بها الشهوات فاكْبَحْ
وترفعها إلى رَبِّ السَّعَادَة	عسك تُحلُّها درَج المعالي

## داود بن مقدم بن ظفر المحلى

ينسب إلى المحلة الكبرى .

من شعراء القرن السادس ، ذكره ابن الزبير في كتاب جنان الجنان ، ونقل عنه ابن العماد قال (١) : هو من أبناء الجند بأسفل مصر إلا أن همته سمت به من الأدب إلى دوحه يقصرُ عنها أمثاله ، ولا يطمعُ فيها أضرابه ، وأشكاله . وعضده على ذلك جودة الطبع ونفاذ القريحة ، حتى أدرك بعفو خاطره وسرعة بديهته ما لم يبلغ إليه كثرة من أبناء عصره من الدأب على اقتناء الأدب . وذكر ما معناه أنه كسدت سوقه ، وجحدت حقوقه .

وهو منحوسُ الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرقه الأدب منكوت . وقال عنه القاضي الفاضل : شاعرٌ ملءُ فكيه توفى في عصرنا هذا (٢) .

قال ابن الزبير : وما أنشدني لنفسه قصيدة مضمنة شرح حاله . وهى :

وقد بكرت تلوم على حُمولى	كأن الرزق يجلبه احتيال
تقدّر أنى بالحرص أحوى الشراء	وذاكم عين الحال
تقول إذا رأيت إرشاد قول	هليت ألا تمب إلى المعالي
(ومن لم يعشق الدنيا قديما	ولكن لا سبيل إلى الوصال)
فلو أدليت دلوك في دلاء	منحت به من الماء الرّلال
وكم أدليت من دلو ولكن	بلا بلل يرّد على قدالي
وكم علقت اطماعي رجاء	يحبب بأرق ووميض آل
فلا أنا بالكفاف التّزير راض	ولأنا عن طلاب الكثر سالى
ولكن ذاك من قبل اعتمادي	على عبد العزيز أبى المعالى

وهو يتخلّص إلى ممدوحه لعل وعسى أن يجزل له فيرضيه ، وعبد العزيز الذى يعنيه هو القاضى الجليس بن الحباب أحد كتاب الدولة المرموقين .

وينمى على كتاب عصره ممن يقصدهم يطلب رفدهم ، فلا يجودون بشيء يرضيه فينقلب عليهم هاجياً ليقول :

(١) الخريدة ٢ / ٤٦ قسم شعراء مصر .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥ .



تُعَدُّ لها الرِّقَى مثل الصَّلَاةِ  
 فعادته احتجاني واعتزالي  
 كأيدى الخيل أبصرت الخالي  
 أنمَّه ذلك جُلُّ مالي  
 مجالسهم فأرجع بالمُحالِ  
 يهون عليّ مقبلها سبالي  
 إلى أن خف من ثقل طحالي  
 بوطء نعالها مثل الهلالِ  
 وذالك يُعلني كأس المطالِ  
 ييأس أن سيصرفني ملالي  
 ومن باب التَّمْحُلِ قول حالي

وكتاب لهم أبدأ خمات  
 وكلهم يجزُّ إليه نفعاً  
 بأيدي تبتدرن إلى الرشاوى  
 ونست أزورهم إلا بشعرِ  
 فأغشى بالمِحَالِ الصِّرف منه  
 وكم قُبلت من كف ولكن  
 وأحضر من ركاب في ركاب  
 وأثرت السنابك فوق رجلي  
 وهذا يستطيل عليّ زهواً  
 وقد علموا وإن لم يصرفوني  
 وحالي كل يوم في انتقاص  
 ويقول منها :

فقد نُبِّهت منك أجَلُ كالي  
 فمنه نشأتى وله مالي  
 بكم عودَ النصالِ إلى التبالِ  
 رجوت الرى من سحِبِ ثقالِ  
 فإن الذنب للأيام لالي

فيا عَمَرَ الحوائج قم بأمرى  
 فها أنا قد رجعت إلى ذراكم  
 وعدت كما عهدت من اتصالِ  
 فإن أبلغ بكم أملي فإني  
 وإن أحرم فقد أبلغت عُذرى

وهذا النفس الشعرى صوت العامة من سواد الشعب ، لا صوت الخواص من طبقه العلماء واللائذين بأصحاب السلطة وذوى الجدد ، فصاحبه من الاجتاد أى من سواد الجنود لا الفرسان ولا القادة ، وهو صوت شعبي يشكو بنقض عامة الناس وييث ما يحسون به من استئثار السادة من الحكام والقادة ، من أصحاب السيف والقلم بكل خيرات البلاد ، ويفضلون على الأشقياء من عامة الناس بالكفاف وهم المناضلون الكادحون ، لكن عملهم وكدهم يذهب إلى غيرهم ينعمون به دونهم ، ويضطر هذا الجندى من عوام الناس أن يسأل بشعره . وترى في قوله نعمة الشعب ، ولفظه ودارج كلامه ، وهذا اللون من الخطاب تطور في الشعر المصرى وظهر بوضوح بعد ذلك في العصر التالى عصر الأيوبيين والمماليك ، وتمثل في شعراء من أضراب الجزائر ، والوراق ، والبوصيرى ، وغيرهم .

وتعد مثل هذا الشعر من الشعراء الذين يمكن أن نطلق عليهم الشعبيين فضلاً عما به من شكوى الحاجة يميل إلى النقد الاجتماعي ، وتصوير فساد بعض الحكام . وأولى الأمر من أمراء الولايات .

فالمحلى يقول في أحد الأمراء ويدعى بابن كازوك ، وكان يلى المشاركة بالغبية وقد تم عزله عن شغلته :

أيها المخلص المكين ومن كَفَّـاهُ في كل أزمة يكفان  
 بان عنا أهل المحبة واعتضنا بأهل البغضاء والشنان  
 نحن أشقى نعتاً واتعس خطأ إذ قضانا بصفقة الخسران  
 وأخس الورى وأهونهم بيـن الرعايا قدراً على السلطان  
 إذ رعانا بأبعض الخلق مُذْكَا نَ وكانوا، لكل قاصٍ ودان  
 رجل صبيغ من حمأ شيبب بالشُّـرة تخطأ والشوم والخذلان  
 ما ظننا من قبله أننا نلقى جميع السوءات في إنسان  
 يتلقاك كالحأ عابس الوجـه بقلب خالٍ من الإيمان  
 وله إخوة أفعالهم في الما ل فعل الذئاب بالحملان  
 حرّ قلبي على مثولى بالبا ب وقولى لصاحب الديوان  
 أيها الأعمى أعوزك الرغـيب أن حتى استرعت بالذؤبان  
 أى شيء غال الكفاة من الكـباب لولا عوائق الحرمان

ويقول فيها :

صاحب الخيل والجواشن والبيـض ويضو الطلأ وسمير اللدان  
 ما له والتكول عن سفر الشا م وصدم الأقران بالأقران  
 وطلاب المشارفات وتحقيق بقايا العمال والخزان  
 ليس هذا إلا لأن الخراف ال بيض في ديفنا بلا أمان  
 والرحيق الذى عهدناه لا يـد تاع إلا بالنقد أو بالرهان  
 يُجتلى في الكؤوس صيرفاً مع المـجـان والمسمعات بالمجان  
 والإجابات للمادب أشهى للفتى من إجابة الديوان  
 وطلاب الدليل بالرسم أولى من طلاب البراز للفرسان

ويقول :

فأثركونا معاشر الجند وأغثوا بدرور الأرزاق كل أوان  
والولايات والحمايات والغمر م وأخذ الأخبال من كل خان  
والمعاصير والسواق وتسويغ الضياع المفردات الحسان  
وارتعوا في جزور ذى الدولة الهامى نداها فى أطيب اللحمان  
واشغلونا بما به يُشغل الهى لرفع أو خيفة العذوان  
بالطخال المسود أو طرف التريفة ، أو بالمعلاق والمصران  
واغنموا هدنة كتهوية الركب سب وقتيم بها من الحدثان

والقصيدة صارخة الشكوى من استبداد الجند وقادتهم من أرباب السيف  
المتسلطين على العباد يأخذون أرزاقهم ، ويسترقونهم ، فيفوزون من جزور  
الدولة بأطيب اللحمان ، وينعمون منها بالأموال والنعم والحياة الرغدة ، ولا  
يدعون لعامة الشعب إلا ما فضل منهم من الذبيحة أنحس لحمها، من الرقة  
والمصران وهم مع هذا لا ينهضون بما ينبغي عليهم النهوض به من جهاد الأعداء  
بالشام وقد تكالب الصليبيون على أرض المسلمين وسلبوا منها واقتطعوا  
الامارات والاقطاعات وعاثوا . لقد تقاعس هؤلاء الجند عن الواجب المناط  
بهم وبدلاً من جهاد الأعداء جاهلوا الناس واستولوا على أرزاقهم ليعيشوا فى  
نعمة وترف على حساب الرعايا يتركونهم يشقون بشظف العيش ، ومكابدة  
الفقر .

ابن الضيف<sup>(١)</sup>

حيدرة بن عبد الظاهر بن الحسن بن علي الربيعي

قال عنه العماد : « كان من دعاة الأدعياء ، الغلاة لهم في الولاء . وكان في حدود خمسمائة في عهد أمرهم . وله فيه مدائح كثيرة . وقع إلى ديوانه بخطه وكنت عزمت لفرط غلوه على خطه ، لأنه أساء شعراً ، وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفراً ، فلم يستحق لإساءته كُفراً ، ولا غُفراً ؛ لكنني لم أر أن أترك كتابي منه صفراً ، لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر والفاجر ، يحمل الغناء كما يحمل الدر ، والمركب فيه يجمع العبد والحر وقد أوردت من مستحسناته كل ما يُعفى على سيئاته ، ويُغضى به على هفواته .

فما عُتبت بإثباته من قصائده ومقطوعاته قوله من قصيدة يعارض بها ابن هاني المغربي :

طلعت صباحاً مُشرقاً يتهلل	وراءها بالوَحيف ليل أليل
، ودنّت لها شمسُ الظهيرة تجتلي	نوراً، ومال للشمس طرفاً أكحل
وثنت قضيب الخيزرانة تحته	حقف يكادُ تسرعاً يتهلل
والخذ ضمخه حريق مُشعل	والشعرُ عطره رحيق سلسل

واختار له العماد أبياتاً في الغزل تبدو فيها شاعريته ، ورقة أحاسيسه ، وبديع صورته .

قمر لاث عليه مُطرفاً	لازوردياً رقيق الحاشية
وعليه صبغة من حُسنه	فهى في كل فؤاد سارية
يضحك القلب إذا عاينها	ولكم عين عليه باكية
طرفه جنة عدن أزلقت	وبخذه جحيم صالية
نمن الصدغين فيها طرراً	كبيت من ذهب في غالية
شبهته العين لما أن بدا	روضة ذات قطوف دانية

أو يقول :

(١) ترجمته في الخريدة ١/ ٣٨٥ ، المغرب لابن سعيد .

أذن قلبي بالهوى شادين      أيقظه من طرفه الثاعس  
 ألبسته الحسُن رداءً له      نفسى فداءً القمر اللابس  
 غرستُ في وجنتيه ورْدَةً      من نظرة المسترق الخاليس  
 فخاف أن أقطفها خُفِيَةً      بقبلة والغرس للغارس  
 فمير في ميدانه مسرعاً      يا ليتنى فارسُ ذا الفارس (١)

وكم رق في تعبيره عن حمرة الخجل في الخد ، وجاء بهذا البدع في التشكيل  
 وحلاوة الصورة .

ومن إبداعه في الوصف قوله في عازف على العود :

ومُسْمِع مبدع بصنعتيه      يُريك من فضلِ حُسْنِه عَجَبًا  
 حرَّك عوداً كالرعدِ مقترناً      بالبرقِ في كفه إذا ضرباً  
 تسرى قواه في نفس سامعه      فيكتسى كل مفصل طرباً

ونستشف من شعره أنه كان من شعراء الأفضل بن بدر الجمالي إذ يقول :

وتلاف الكريم في ذلة اللوعة      عز ، وراحته في كلال  
 مثلما يتلف الأجل جلال الملوك      أمواله بحفظ المعالي

من تخلص إلى المدح بعد مقدمة غزلية جميلة يقول فيها ، وقد جاء بالبدع  
 من المعالي :

ذاك مغنى يغنيك . مرأى عن السمنع . بتجديده الهوى وهو بالى  
 طالما أمكنت به فرص جا      ذبت فيها مغازلات الغزال  
 بين ورد كوردي نخديه في الحسن      ، ورؤوس كوجهه في الجمال  
 وندى كالدموع في مقل التثر      جس ، أو فيض عبيرة في دلال  
 يا لقومي من سيخر تفتير طرف      وقعة في القلوب وقع التبال

يتجلى أعلاه عن بدر تم  
 وعليه مجاسد ألبسته الـ  
 فإذا لآخ في السواد رأينا  
 ويبارى ردقاه دغص رمال  
 حسن من فرقه إلى الخللخال  
 شمس دجن أو هالة في هلال

(١) ورى بين فارس وفارس ففارس الثانية من قرس .

ويقول في وصف الشراب ومجلس طرب وأتس وهو :

بتنا بها نجلو عروس زجاجة	قد ألبست ثوب الرجيعي الذهبا
ئشرت عليها بالمزاج لآلء	عامت فعادت كالبرين نسرنا <sup>(١)</sup>
فصفاؤه يفتتر عنه ترقرقا	ويزوده يزاد منه تلهبا
ومغرد لي من فتور جفونه	سكرا، وسكرا إن شدا وتطربا
نبهته ويد النعيم تؤوده	لينا، وتكسو وجنتيه تخضبا
لأروض روضا بالتداني ممرعا	وأزور معني بالمغاني معشينا
وأشم ريحان الشعور مطيبا	وأعل خمرا بالشعور مشنبا
وأمص زمان الصدور مشربا	وأعض تفاح الحدود مكتبا <sup>(٢)</sup>

(١) البرين حلقات من معدن تضمها النساء في الأنف تزيفا .  
(٢) المكب المتلاء .

ابن الكيزاني  
الشاعر الصوفي الواعظ صاحب الطريقة  
( ت سنة ٥٦٠ هـ )

عرف ابن الكيزاني في مصر في أخريات العصر الفاطمي شاعراً واعظاً صاحب طريقة . سكن الفسطاط ، وتعبد في جبل المقطم ، وسلك في حياته مسلك الفقراء من أصحاب الطريق ، زهادة ، وبعداً من صخب الحياة وترفعا عن نهم المال ، ورغبة في اصطناع الأولياء ، واصطحاب الرفاق .

هو أبو عبد الله محمد بن ثابت إبراهيم الكيزاني<sup>(١)</sup> ، جمع بين علوم الشرع وعلم العقل حتى أنه عد عند بعض المؤرخين ممن أخذ بآراء المعتزلة ، ويرى بعضهم أنه كان من المشبهة المجسمة والقائلين بقدم أفعال العباد ، وهو ما يتناقض مع القول بآراء المعتزلة ، وإن أنفق رأى بعض الصوفية في مراحل من تاريخهم مع المبادئ العامة لأراء المعتزلة ، وبخاصة متصوفة الفكر لا متصوفة الطريقة .

وعلى أية حال فإن الشيخ ابن الكيزاني قد اتخذ لنفسه مذهباً في الزهد والتصوف وعرف به وتبعه فيه جماعة من المصريين عرفوا بالكيزانية وهو في مواعظه وشعره لا يخرج في صورته العامة عن أقوال الصوفية وبخاصة من أصحاب مذهب العشق الذي كان ابن الفارض في القرن السابع شاعرهم الأكبر ، إلا أن فرقاً كبيراً . يباعد بين كل من الرجلين في الشخصية والشعر ، ومضامين كل ومعانيه ، فشعر ابن الكيزاني ومواعظه من الضرب السهل القريب إلى أفهام العامة وتعبيراتهم ، وهو أقرب إلى المنظومات الشعبية التي تنشأ في الموالد والمواسم الدينية من فرق الصوفية ورجالها .

وكان ابن الكيزاني يعظ الناس بالفسطاط والقاهرة بعد صلاة الجمعة أيام الجمع وفي المناسبات الدينية المختلفة ، فيقف بين الجمع يعظهم في خطبة أو كلمات منثورة مسجعة منمقة اللفظ ، مدعمة بآيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة للتذكير والترهيب والترغيب ، أسلوبها مسجوع مقطوع

(١) راجع في ترجمته في : خريدة القصر قسم شعراء مصر ١٧/ ٢ والمغرب ( قسم مصر ) بتحقيق د. زكي محمد حسن ، د. شوقي ضيف ، وقد قام بدراسة لحياته وشعره الدكتور علي صالح حسين

يحرص فيه على الإيقاعات المترددة والجمل القصيرة في معظمها مع دعمها بكثير من مقاطيف القصص الديني .

وتارة يدعم مواعظه بتلك المنظومات التي تعرض صوراً منها من مثل قوله :

ق ف على الباب طالباً	ودع الدمع ساكباً
وتوسل به إليه	من الذنب تائباً
تلق من حُسن فضله	عند ذاك العجائباً
ثم خف منه أن يرا	ك على الذنب ركباً
فهو يجزي على اليسير	ويُعطي الرغائباً
زينة العبد بالتقسي	فاجعل الصدق صاحباً

وشعره الصوفي الذي يدور في موضوع « الوجد » و « الحب » شعر بسيط كذلك في لفظه وتعبيره من مثل قوله :

إذا نفحت رياح العذر يوماً	إفان الدمع يجذبني ويغري
تذكرني الذي قد غاب عني	فيلقاني وألقاه بذكر
نأى عني وقلبي مثل برق	وأجفاني سحب ذات قطر
ويا لهفي عليه ثم لهفي	نأى بنواه يوم البين صبري
أبيت معللاً بروحي بروح النسيم	من أرضه أيان يسرى
ولا والله ما ذاق جفوني	مناً ولا أخليت ذكرى
ووأسقي على أن ذبت شوقاً	وأحسبه بذلك ليس يدرى

قال العلماء والأدباء أقوالاً مختلفة ومتعارضة في شعر الكيزاني وقيمتة الفنية قال ابن سعيد المغربي<sup>(١)</sup> :

وقفت على ديوانه ، وهو مشهور عند الناس ، قريب من أفهام العامة غير مُرض عند صدور الشعراء ، وأصحاب عويص الكلام وفرسان النظم ولم أكتب من ديوانه ، وقد ضجرت من اختياره ومطالعه — شيئاً تهش النفس إليه ، وإنما أوردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيراً ما يباع في سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، وكان من لا عرف معاني الشعر المستحسنة وألفاظه

(١) المغرب قسم مصر ص ٢٦١ ، بتحقيق د . زكي محمد حسن ود . شوق صبت .



المستبدعة يحضني على الوقوف عليه ، فلما وقفت عميه أنشدن متمثلاً : ( أنا  
المعيدى فاستمع في ولا ترفي ) .

وأما العماد الأصهباني فقد أطرى شعره ، فقال (١) :

« وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله لما أودع فيه  
من المعنى الدقيق واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والنوع اللائق ، والتذكير  
الرائع ، والقافية آثار الحكم ، والكلمة الكاشفة أسرار الكرم » .

وكلام الأصهباني إطراء مسجوع لا سبر لغور الشعر كما سبره ابن سعيد  
وليس ذوق العماد كذوقه وهيات ، ومختارات كل منهما شاهدة على ذلك ، فلم  
يكن الأصهباني نقادة للكلام ولا شاعراً كابن سعيد يهتز للجمال .

ونقتبس مما اختاره العماد مقطوعات تصور اتجاهه وصنعتة ، فمن ذلك قوله  
متغزلاً — لعله غزل عادى أو غزل صوفى — قال :

اصرفوا عني حبيبي	ودعوني وحبيبي
عللوا قلبي بذكرا	هـ فقد زاد ليهبي
طاب هتكبي في هواه	بين وافر ورقيب
لا أبالي بهوان النفس	ما دام نصيبي
ليس من لأم وإن أظن	فيه بمصيب
جسدتي راضٍ بسقيبي	وجفوني بتجيبتي

ومن مواعظه قوله :

أسعد الناس من يكاتم سره	ويرى بذلك عليه معرة
إنما يعرف اللبيب إذا ما	حفظ السر عن أخيه فسرته
إن يجد مرة حلاوة شكوا	هـ سيلقى ندامة ألف مرة

ومن جيد غزله الذي تحس فيه بنفحة صوفية قوله :

أي طريق أسلك	وأي قلب أمليك
وأي صبر ابتغي	وهو بكم مستهلِك
أدَارَنسِي حُبَّكُمْ	كما يدور الفلك

(١) خريدة القصر — قسم شعراء مصر ٢ / ١٧ .

أَأَنْتَسَى وَكَلَّ عَضًا ————— مِنْكُمْ فِيهِ شَرَكٌ  
 أَخْلَصْتُ فِيكُمْ بَاطِنًا فِيهِ هَوَى لَا يُدْرِكُ  
 جَلَّ فَمَا فِي وَصْفِهِ شَوْبٌ وَلَا مُشْتَرِكُ  
 وَلَاؤُكُمْ لِي مَذْهَبٌ وَذِكْرُكُمْ لِي نُسْكُ  
 وَمُنْهَجِي مَمْلُوكَةٌ يَا حَبْدَا الْمَلِكُ  
 وَإِنْ أَرَدْتُمْ فَأَحِقْ ————— نُوا وَإِنْ أَرَدْتُمْ فَاسْفِكُوا  
 مَا أَنْتُمْ مِمَّنْ يَكْفُرُ لِي حَبَّةً وَيَتْرِكُ

ومما هو قريب من الابتهالات قوله :

يا مُنْصِفًا فِي كَلِّ أَحْوَالِهِ لَا تَخْرُجْ إِلَّا نَصَافًا عَنِ رَسْمِهِ  
 هَبْ أَنْتَى أَبْدِيْتُ جُرْمًا وَقَدْ يَعْتَدِرُ الْإِنْسَانَ عَنْ جُرْمِهِ  
 قَدْ كَثُرَ الْقَيْلُ وَحَاشَاكَ أَنْ تَسْمَعَ قَوْلَ الْحَصْمِ فِي تَحْصِنِهِ  
 انظُرْ إِلَى الْبَاطِنِ مِنْ أَمْرِنَا فَرَاخَةُ الْعَالَمِ فِي عِلْمِهِ  
 فَإِنْ رَأَيْتَ الْحَقَّ حَقِي فَلَا تَمَكِّنِ الظَّالِمَ مِنْ ظُلْمِهِ

وقيل إن صلاح الدين عندما جاء إلى مصر ومر بالفسطاط سمع بالكيواني وأشعاره وتعلق الناس به فافتنوا ديوانه، واختار منه العماد ما ضمنه خريدة القصر في مختاره من شعراء مصر .

يقول : واستعرت من الملك الناصر صلاح الدين — وقد لقيته قبل أن ملك مصر — قطعة بها من شعره في الغزليات وغيرها والزهديات، وأثبت منها هذه المقطوعات (١) .

ويقول القفطي : رأيت في بعض المجاميع أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لقي ابن الكيواني بمصر لما طلع في نصرتها، وقبل أن يلى على مملكتها، واستكتبه جزءاً من شعره (٢) .

ومهما يكن من أمر ابن الكيواني، فإنه شاعر له لونه الخاص الذي مزج فيه معاني التصوف بالزهد والحكمة والوعظ في لفظ سهل وتعبير شائع غير مستعصم، فراق لدى العامة وراج .

(١) خريدة القصر — شعراء — ١٨/٢ . \* \* \*

(٢) المهدون من الشعراء .



الفصل التاسع  
شعراء نهاية العصر  
ابن رزّيك وجماعته



## طلّاع بن رزّيك

الوزير القائد الشاعر ( ت سنة ٥٥٦ هـ )

ولد طلّاع سنة ٤٩٥ هـ بأحدى مدن أرمينيا ، وكانت خاضعة آنذاك لسلطين السلاجقة ، وتعلم ببلده وحفظ القرآن ، وأتقن علوم الدين واللغة والأدب على جماعة من شيوخ عصره ، كما اتصل ببعض رجال الشيعة ، فأخذ عنهم مذهبهم ، ووعاه وتمسك له ، وزار مع بعضهم النجف الأشرف ، وذكر ابن العماد الحنبلي تعصبه للمذهب بقوله « وكان في نصر التشيع كالسكة المحماة » (١) .

وذكر المقرئى زيارته للنجف ومشهد على بن أبى طالب به فقال (٢) :  
« زار مهد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه فى جماعة من الفقراء ( لعله يقصد الصوفية ) وأمام مشهد على رضى الله عنه يومئذ السيد ابن معصوم فزاره طلّاع وأصحابه وباتوا هناك ، فرأى السيد فى منامه الإمام صلوات الله عليه يقول له : قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً من جملتهم رجل يقال له طلّاع بن رزّيك من أكبر محبيننا ، فقل له اذهب ، فإننا قد وليناك مصر . فلما أصبح أمر أن ينادى : من فيكم من اسمه طلّاع بن رزّيك فليقم إلى السيد ابن معصوم ، فجاء طلّاع إلى السيد ، وسلم عليه ، فقص عليه رؤياه فرحل إلى مصر » .

وكأنّ صاحب هذه القصة أراد القول بأن ذهاب ابن رزّيك كان بناءً على توجيه غيبى من الإمام الوصى ، ليثبت لدى الرعية من الشيعة شرعية توليه الأمر فى مصر دون خلفائها من الفاطميين .

وهكذا وصل طلّاع إلى مصر على تلك الصورة ، واتصل فى مرحلة الشباب . وربما كانت سنة آتخذ فى حدود العشرين أو تعداها بقليل ، ولعله عاصر خلافة الأمر فى أخرياتهما ، والتحق بديوان الكتابة لما عرف فيه من النباهة . واتصلت أسبابه بالقصر على نحو ما ، وظلّ كذلك فى خلافة الحافظ عبد

(١) شذرات الذهب ٤ / ١٧٧ .

(٢) الخطط ٤ / ٧٣ - ٨١ .

المجيد . وربما كان تعيينه لتولى إحدى ولايات الصعيد في عهد الله الخليفة ووزيره الأرمني تاج الدين بهرام شاه . الذى ذكر صاحب المختصر أنه تحكّم واستعمل الأرمن على الناس . ( من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٣١ هـ ) (١) .

ذهب طلائع إذا إلى الصعيد ، وبقي بها حتى بعد سنة ٥٣١ هـ ، وتقلب في مناصب ولايات الصعيد ، فولى قوص ، ثم أسوان ، وربما جمع بين ولاية قوص وأسوان ، وتولى الأشمونين ومنية بنى خصيب ( المنيا الآن ) حيث يذكر المؤرخون أنه انتقل بعدها إلى القاهرة لإنقاذ الخلافة من الفوضى التى عمت العاصمة بعد مقتل الخليفة الظافر بأيدى عباس وابنه نصر .

وعليه فيكون طلائع قد بقى بالصعيد ما يقرب من عشرين عاماً بين قوص ، وأسوان والأشمونين ، وقد مهدت له هذه الإقامة بالصعيد كى يصبح نافذ الكلمة ، ولا شك أنه خلال تلك السنين الطويلة قد مكن لنفسه بين أبناء الصعيد ، ولعله اجتذب إليه جماعة منهم ، وكان لسياسته وحسن أدائه ، وتجيئه إلى رعيتهم أثر واضح فى ولائهم له . فتقوى بهم جنداً ، ومناصرين ، وعرف الخلفاء ، ومن التقى بهم من رجال القصر ونسائه ، وكبار رجال الدولة بالقاهرة بقوة طلائع وقدرته . وما يملكه من جند ومال فاتجهوا إليه حين حزبهم الأمر يستجدون به ضد طغيان عباس وابنه نصر بعد مذبحه القصر التى دبرها نصر وقتل فيها الخليفة الظافر وجماعة من الأمراء .

قيل إن نساء القصر استنجدوا بطلائع ، وكتب القاضى الجليس ابن الحباب يستدعيه ، ومع الكتاب خصلة من شعر بعض نساء القصر .

فهب ابن رزيك للنجدة ، ووجدها فرصة لارضاء تطلعه والإيقاع بأعدائه من المغاربة المستوزرين من أمراء الصنهاجين الأعداء التقليديين للخلافة الفاطمية ، والذين انقلبوا عليهم فى عهد تميم بن المعز بن باديس الذى يخرج على طاعة المستنصر ، وأعلن ولاءه للعباسيين ، وأعاد الخطبة لهم بالقيروان . كان

(١) راجع المختصر فى أحوال البشر فى حوادث سنة ٥٣١ هـ حيث يقول : « وفيها عزل الحافظ وزيره بهرام شاه النصرانى الأرمنى بسبب توليته الأرمن على المسلمين ، واهانتهم لهم ، فأنف من ذلك شخص يدعى رضوان وجمع جمعاً وقصد بهرام ، فهرب بهرام إلى الصعيد » .

عباس الصنهاجي إذا وابنه نصر قد ورثوا الحقد عن آباؤهم على الرغم مما أبدوه من قرف منذ تولى يحيى بن تميم ، وعلي بن يحيى حكم القيروان .

لقد كان عباسُ سنياً ، ووز للفاطميين الشيعة الإسماعيلية قسراً بالغلبة لا بالرضا بعد قتل ابن السلار الذي كان عباس ربيبه .

وبينا كانت هذه الأحداث كلها تدور بالقاهرة ، كان طلائع يرقبها من مكانه المكين الآمن بالصعيد . وقد عمل كما قلنا على أن يدعم مكانته حتى يتتيز الفرصة للوثوب . ولم تلبث أن واثته هذه الفرصة سنة ٥٤٩ هـ وجرت الأحداث الدامية التي أدت إلى استيلاء طلائع على زمام الأمور هكذا .

كان الظافر الذي تولى الخلافة شاباً حدثاً ، اشتغل باللهو لحدائثة سنه ، وتعلق بنصر ابن عباس الصنهاجي ، وقيل إن علاقة شاذة ربطت بينهما وكان نصر هذا شاباً مستهتراً ، متهوراً ، طموحاً ، حدثته نفسه بقتل أبيه ليتولى الوزارة للظافر صديقه ، فلما علم أبوه عباس بما يفكر فيه من دس السم له للتخلص منه ، أغراه بقتل الخليفة ليطمعه في الملك . ويكون بذلك قد ضرب عصفورين بحجر ، تخلص من الخليفة الفاطمي ، الذي كان يطمع لا شك في ملكه حتى يصبح صاحب مصر بعد أن ملك أخوه القيروان . من ناحية وليبعد ابنه عن التفكير في قتله .

وكان الظافر ينادم نصراً ، ويعاشره ، ويثق فيه ، وينزل بالليل من قصر الخلافة إلى داره بالسيوفيين بالقاهرة . وذات ليلة نزل الظافر ومعه خادم له إلى منزل نصر ، فشربا ، ونام الظافر ، فقام نصر إليه فقتله ، وألقى بجثته في بئر .

وعرف القصر بما حدث ، فثار من فيه يريدون الانتقام من القاتل فما كان من عباس إلا أن جاء بثلاثة من أمراء القصر بأخوى الظافر وابن أخيه قتلهم صبراً بين يديه .

وأخفى مقتل الظافر ، وتظاهر أمام أعيان الدولة ببراءته وابنه من دم الخليفة . وادّعى أن الظافر ركب في مركب فانقلبت به وغرق .

ولكن هذه الخدعة لم تجز على من بالقصر ، فثار جنده وخدمه من السودان ومعهم أهل القاهرة على عباس وابنه لفعلته الشنعاء . وطلبوا برأس عباس



وابنه . وتبثت عباس قليلاً وجمع من حوله بعض أعوانه ، وأراد مواجهة  
الناشرين ، ولكن الأمور تفاقمت ، وضاعت الحلقة حوله بتحريك ابن رزيك من  
الأشمونين ومنية بنى خصيب في جند كثيف إلى القاهرة .

ولم يجد أسامة بن منقذ ، وكان مصاحباً آنذاك لعباس وابنه بدأ من نصح  
عباس بالتوجه إلى الشام هارباً من مصر ، ليفلت برأسه .

وهكذا خرج الثلاثة متخفين مشرقين إلى الشام ، وقرب مدينة غزة داهتهم  
جماعة من فرسان الصليبيين ، فقتلوا عباساً ، وأسروا ابنه وتمكن أسامة من  
الإفلات قاصداً بلدة شيزر قرب حلب .

واختلفت المصادر في أخبار هذه الأحداث الدامية منذ شهر المحرم من سنة  
٥٤٨ هـ وحتى تولى الصالح طلائع مقاليد الوزارة . فابن الأثير يقول (١) : في  
هذه السنة في المحرم قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله . قتله ربيبه عباس  
بن أبي الفتوح يحيى الصنهاجي . أشار عليه بذلك الأمير أسامة بن منقذ ،  
ووافق عليه الخليفة الظافر بالله ؛ فأمر ولده نصرأ ، فدخل على العادل وهو عند  
جدته أم عباس فقتله ، وولى عباس الوزارة بعده .

قال : وكان عباس جاء مع أمه بعد وفاة والده ( يحيى ) وحلّ بالإسكندرية  
وبها العادل بن السلار ( ربما كان ذلك في حدود سنة ٥١٥ هـ - سنة  
٥١٦ هـ ) فتزوج بأم عباس حتى ولى الوزارة . وكانت الوزارة بمصر لمن  
غلب ، والخلفاء وراء حجاب . وقل أن وليها أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل  
وما شاكل ذلك .

وقال ابن القلانسي : « وكان الظافر قد ركن إلى أخويه وابن عمه ، وأنس  
بهم في وقت مسراته ، فاتفقوا عليه واغتالوه ، وذلك في يوم الخميس سلخ  
صفر وحضر العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة من الأمراء  
والمقدمين للسلام على الرسم ، فقيل لهم إن أمير المؤمنين مُلثت الجسم ، فطلبوا  
الدخول إليه ، فمنعوا ، فالتجوا في الدخول بسبب العيادة ، فلم يمكنوا

(١) الكامل ٩ / ٣٨٩ .

فهبجوا ، ودخلوا القصر ، وانكشف أمره ، فقتلوا الثلاثة ، وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنين ، ولقبوه بالفاتر بنصر الله ، وبايعوه وعباس الوزير إليه تدير الأمور .

ويبدو أن ابن القلانسي أراد أن يبرىء عباس وابنه نصر من قتل الخليفة الظافر .

وتعرض شهادة أحد المشاركين في الأحداث وهو أسامة بن منقذ كما دونها بنفسه في مذكراته « الاعتبار » (٢) . قال :

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار — رحمه الله — فإنه كان جَهَّزَ عسكرياً إلى بلييس ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس بن ألى الفتوح ( يحيى ) بن تميم ابن باديس لحفظ البلاد من الإفرنج ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس ، فأقام مع أبيه في المعسكر أياماً ، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور ، فأنكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى المعسكر ، وهو يظنُّ أنه دخل القاهرة للعبِ والفرجة ، وللضجر من المقام في المعسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ، ورثب معه قوماً من غلمانه يهجم بهم على العادل في داره إذا أبرد في دار الحرم ونام ، فيقتله . وقرر مع أستاذ من أستاذى دار العادل أن يعلمه إذا نام ، وصاحبة الدار امرأة العادل أم عباس وجدة نصر ، فهو يدخل إليها بغير إذن .

فلما نام العادل أعلمه ذلك الأستاذ بنومه ، فهجم عليه في البيت الذى هو نائم فيه ، ومعه ستة نفر من غلمانه فقتلوه ، رحمه الله . وقطع رأسه وحمله إلى الظافر وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . وفى دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو من ألف رجل . لكنهم فى دار السلام . وهو قتل فى دار الحرم ، فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رُفع رأس العادل على رمح ، فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين ، فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاعته ،

(١) ذهل تاريخ دمشق ص

(٢) الاعتبار ص ٤١ وما بعدها — تحقيق الدكتور قاسم السمرانى طبع مؤسسة دار الثقافة والنشر

بالرياض سنة ١٩٨٧ م .

وفرقه رمت السلاح وجاءوا إلى بين يدي نصر ابن عباس قَبَلوا الأرض ووقفوا في خدمته .

وأصبح والده عباس دخل القاهرة ، وجلس في دار الوزارة . وخلع عليه الظافر وفوض إليه الأمر ، وابنه نصر مخالطه ومعاشره ، وأبوه عباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنوهم ويجوزوا كل ما لهم حتى يتفانوا ، فأحضرائي ليلة وهما في خلوة يتعاتبان ، وعباس يردد عليه الكلام وابنه مطرق كأنه نمر ، يردُّ عليه كلمة بعد كلمة يشتاط منها عباس ، ويزيد في لومه وتأنيبه . فقلت لعباس : يا مولاي الأفضل ، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟. لإجعل الملامة لي ، فأنا معه في كل ما يعمل ، وما أتبرأ من خطيئه ولا صوابه . أى شيء هو ذنبه ؟. ما أساء إلى أحد من أصحابك ، ولا فرط في شيء من مالك ، ولا قدح في دولتك ، خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة . فأمسك عنه والده . ورعى لي ابنه ذلك .

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ، ويصير إلى الوزارة مكانه . وواصله بالعطايا الجزيلة ، فحضرته يوماً وقد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثم أغفله أياماً وحمل إليه من الكسوات من كل نوع ما لا رأيت مثله مجتمعاً قبله . وأغفله أياماً ، وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار ، وأغفله أياماً وبعث إليه ثلاثين بغلاً ، وأربعين جملاً ، بعددها وغرائرها وحبالها . وكان يتردد بينهما رجل يقال له مرتفع بن فحل ، وأنا مع ابن عباس لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً . أنام ورأسى على رأس مخدته .

فكنت عنده ليلة ، وهو في دار الشابورة ، وقد جاء مرتفع بن فحل فتحدث معي إلى ثلث الليل وأنا معتزل عنهما ، ثم انصرف . فاستدعاني وقال : أين أنت ؟ قلت : عند الطاقة أقرأ القرآن ، فإني اليوم ما تفرغْتُ أقرأ . فابتدأ يهاتخي بشيء مما كان فيه ليصير ما عندي في ذلك ، ويريدني أقوى عزمه علي سوء ما قد حمله عليه الظافر ، فقلتُ : يا مولاي ، لا يستتر لك الشيطان ويخدع لمن يغرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل ، فلا تفعل شيئاً تلعن عليه

إلى يوم القيامة فأطرق وقاطعني الحديث ، ونمنا ، فأطلع والده على الأمر ، فإلفه واستماله وقرر معه قتل الظافر .

وكانا يخرجان في الليل متنكرين ، وهما أترابٌ وسنهما واحدٌ ، ( يعني الظافر ونصر ) فدعاه أبا نصر إلى داره وكانت في سوق السيوفين ، ورتب من أصحابه نفرأ في جانب الدار ، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه قتلوه . وذلك ليلة الخميس سلخ الحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ورماه في جب داره .

وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه .

وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس فجلس في خزانة في مجلس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال : وما لولانا ما جلس للسلام ؟. فتبذل الزمام في الجواب ، فصاح عليه وقال : مالك لا تجاوبني ؟.

قال : يا مولاي مولانا لا ندرى أين هو ؟. قال : مثل مولانا يضيع ؟. إرجع فاكشف الحال !. فمضى ورجع وقال : ما وجدنا مولانا ، فقال عباس : ما يبقى الناسُ بلا خليفةٍ أدخل إلى الموالى إخوته يخرج منهم واحدٌ نبايعه ، فمضى وعاد وقال : الموالى يقولون لك نحن مالنا في الأمر شيء ، والده عزله عنا وجعله في الظافر . والأمر لولده بعده . قال : اخرجوه حتى نبايعه .

قال ابن منقذ : وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول : إخوته قتلوه ! ويقتلهم به ، فخرج ولد الظافر ، وهو صبيٌّ محمولٌ على كتف أستاذ من أستاذى القصر ، فأخذه عباس فحمله . وبكى الناس . ثم دخل به وهو حامله إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحافظ ، الأمير يوسف والأمير جبريل ، وابن أخيهم الأمير أبو البقاء .

ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين ، فما راعنا إلا فوجٌ قد خرج من المجلس إلى القاعة وصوتُ السيوف على إنسان فقلت لغلام لي أرمنى : أبصر من هذا المقتول ؟. فمضى ثم عاد وقال : ما هؤلاء مسلمون . هذا مولاي أبو الأمانة — يعني الأمير جبريل قد قتلوه . وواحدٌ قد شقَّ بطنه يجذبُ مصارينه .

ثم خرج عباس وقد أخذ رأس الأمير يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف ، وقد ضربه بسيف والدم يفور منه . وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عباس ، فادخلاهما في خزانة في القصر وقتلاهما ، وفي القصر ألف سيف مجرد . وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي لما جرى فيه من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق » .

تلك شهادة ابن منقذ وكان مخالطاً لعباس وابنه وهو شاهد عيان لما حدث ، وقد شهد بقسوة الرجلين ووحشيتهما . والحق إن هذا الحدث من الأحداث الدامية السوداء والتي يستحق عليها عباس وابنه كل ما لقيا من العقاب والنهاية الدامية ، والله لا يدع الظالمين يرتعون كما يشاءون وراء أطماعهم الدموية . لقد عبث الرجال بمصير الخلافة الفاطمية هذا العبث وكان لعباس بن يحيى الصنهاجي البربري على قول ابن رزّيك اليد الطولى فيما لقيه البيت الفاطمي من التنكيل والوحشية التي لم يسمع بمثلها على هذه الصورة البشعة . ومهما تكن الخلافات والأحقاد بين الناس ، ومهما تكن الأطماع في السلطة ، فإنها لا تجرد الإنسان من آدميته على هذه الصورة لتحوّله إلى حيوان ووحش ضار بل إن من الحيوان ما يعف عن مثل هذا .

لقد فعل إذا عباس وابنه نصر فعلتهما وقد تجرد كل منهما من آدميته حتى تأمر الابن على أبيه والأب على ابنه . وكانا يأملان الفوز بنتيجة هذه المذبحة إلا أن القدر لم يمهلهما . فثار بهم جند القصر وعبيده ، وبعثت نساء القصر نستغيث بالأمير القوى بالصعيد طلائع لينقذ البيت الفاطمي والخلافة الفاطمية .

وأحسّ الرجال بالخطر فطفقا يجمعان الأموال وكل ما يستطيعان حمله استعداداً للهروب من غضبة الناس بالقاهرة ، وزحف ابن رزّيك ورجاله من الصعيد .

قال ابن منقذ : « وأما الفتنة التي جرت بمصر ونصر فيها عباس وابنه على جند مصر ، فإنه لما فعل بأولاد الحافظ رحمه الله ما فعل جفت عليه قلوب الناس وأضَمَّروا فيها الغداوة والبغضاء . وكاتب من في القصر من بنات الحافظ

فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رُزَيْك — رحمه الله — يستصرخون به .  
وحشَدَ وخرج من ولايته يريد القاهرة . فأمر عبَّاسُ فعمَّرت المراكب وحمل  
فيها الزاد والسلاحُ والحزَّانة ، وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسير معه .  
وذلك يوم الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين . وأمر ابنه ناصر الدين  
بالبقاء في القاهرة . وقال لى ( لابن منقذ ) : تقيم معه .

فلما خرج من داره متوجهاً إلى لقاء ابن رُزَيْك خامر عليه الجند وغلَّقوا  
أبواب القاهرة ، ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والأزقة خيالتهُم تقائلنا في  
الطريق ، ورجَّالتهم يرموننا بالنشَّاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء  
والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات .

ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى النهار إلى العصر ، فاستظهر عليهم  
عبَّاس ، وفتحوا أبواب القاهرة وانهمزوا ، ولحقهم عبَّاسُ إلى أرض مصر فقتل  
منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره ونهيه ، وأمر بإحراق البرقية ( وهى محلة  
شرق القاهرة نسبت إلى جماعة من جند برقة ) لأنها مجمع دور الأجناد .  
فتلطفُت الأمر معه ، وقلت : يا مولاي إذا وقعت النار أحرقت ما تريد ومالا  
تريد ، وعجزت عن أن تطفئها ، ورددت رأيه عن ذلك . وأنخذت الأمان  
للأمير المؤمن بن أبى رمادة — من كبار رجال القصر — بعد أن أمر بإتلافه .  
واعتذرت عنه فصفح عن جرمه .

ثم سكنت تلك الفتنة وقد ارتاع منها عبَّاس ، وتحقق عداوة الجند والأمراء  
وأنه لا مقام له بينهم وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشام إلى الملك  
العادل نور الدين . رحمه الله . يستنجد به ، والرسل بين من في القصور وبين  
ابن رُزَيْك مترددة .

وكان بينى وبينه — رحمه الله — مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر  
فانفذ إليَّ رسولاً يقول لى : عبَّاس ما يقدر على المقام بمصر ، بل هو يخرج منها  
إلى الشام ، وأنا أملك البلاد ، وأنت تعرف ما بينى وبينك ، فلا تخرج معه ،  
فهو بحاجته إليك فى الشام يُرْعِبُكَ ويخرجك معه ، فالله الله لا تصحبه ، فأنت  
شريكى فى كل خير أنا له . فكأنَّ الشياطين وسوست لعبَّاس بذلك أو توهمه لما  
يعلمه بينى وبين ابن رُزَيْك من المودة .

ويعضى ابن منقذ في ذكر حاله مع عباس وابنه وأمر خروجهم من مصر قبل وصول ابن رزيك إلى القاهرة ، فيقول :

« فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقتله الإفرنج ، فإنه لما توهم من أمرى وأمر ابن رزيك ما توهمه أو بلغه أحضرتني واستحلفني بالأيمان المغلظة التي لا يخرج منها أني أخرج معه وأصخبه ، ولم يقنعه ذلك حتى أنفذ في الليل أستاذ داره الذي يدخل على حرمة ، أخذ أهلي ووالدتي وأولادي إلى داره وقال لي : أنا أحمل كلفتهم عنك في الطريق ، وأحملهم مع والدة ناصر الدين . واهتمتُ بأمر مسفره بخيله وجماله وبغاله ، فكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرّجالة كعادتهم بمصر . ومائتا بعلٍ رحل ، وأربعمائة جمل تحمل أثقاله .

قال ابن منقذ : وكان عباس كثير اللهج بالنجوم ، وهو معول على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول من السنة .

وواضح من مجربات الأمور أنه كانت بين عباس ونور الدين محمود صاحب دمشق والشام رسائل وتفاهم ، بل ربما كانت وقعة عباس وابنه بالخليفة الفاطمي وأمراه من وحى هذه الرسائل ، حتى يتقرب من نور الدين بالقضاء على أعدائه في المذهب والسياسة .

وواضح كذلك أنه أراد من ابن منقذ أن يلعب دوراً في التقريب بينهما وكذلك لاصراره على السفر معه إلى الشام على ما جاء من كلام ابن رزيك لابن منقذ في حثه على تركه والبقاء بمصر .

وهكذا غادر عباس وابنه نصر وابن منقذ مصر إلى الشام حيث قتل عباس وأسر ابنه كما ذكرنا وهرب ابن منقذ إلى بلده .

ولم يلبث ابن رزيك بعد توليه الأمر بالقاهرة أن اتفق مع الصليبيين على تسليمه نصر مقابل مبلغ كبير من المال فجاء نصر إلى القاهرة في قفص من الحديد لينتقم منه أولياء دم من قتلهم ، وليصلب على باب زويلة جزاء فعلته الشنعاء .

جاء إذا ابن رزيك إلى القاهرة بعد أن كتب إليه ابن الحباب رسالة جلّ لها

بالسواد ومعها بعض خصلات من شعر أخوات الظافر ، وفي الرسالة قصيدة لابن الحباب يقول فيها :

دهنتى عن نظم القريض عَوَادِي      وشَفَّ فَوَادِي شَجْوُهُ التَّمَادِي  
وَأُرَّقَ عَيْنِي وَالْعَيُونُ هَوَاجِعُ      هُمُومٌ أَقْضَتَّ مَضْجِنِي وَوَسَادِي  
بِمَصْرَعِ أَبْنَاءِ الوَصِيِّ وَعَتْرَةِ النَّبِيِّ      ، وَآلِ الذَّارِيَاتِ وَوَسَادِي  
فَأَيْنَ بَنُو رُزَيْكٍ عَنْهُمْ وَنَصْرَهُمْ      وَمَالِهِمْ مِنْ مَنَعَةٍ وَزِيَادِي  
أُولَئِكَ أَنْصَارُ الْهَدَى وَبَنُو الرُّدَى      وَسُمُّ الْعِدَى مِنْ حَاضِرِينَ وَبَادِي  
لَقَدْ هُدُّ رُكْنُ الدِّينِ لَيْلَةً قَتَلَهُ      بِخَيْرِ دَلِيلٍ لِلنَّجَاةِ وَهَادِي  
تَدَارَكُ مِنَ الْإِيمَانِ قَبْلَ دُثُورِهِ      حَشَاشَةٌ نَفْسِي أَذْنَتْ بِنِقَادِي  
وَقَدْ كَادَ أَنْ يُطْفِئَنِي تَالِقِي نُورِهِ      عَلَى الْحَقِّ عَادِي مِنْ بَقِيَّةِ عَادِي  
فَلَوْ عَايَنْتُ عَيْنَكَ بِالْقَصْرِ يَوْمَهُمْ      وَمَصْرَعَهُمْ لَمْ تَكْتَجِلْ بِرُقَادِي

وهي من قصيدة طويلة ، كلها على هذا النمط من طلب النجدة والاستصراخ لانقاذ ما تبقى من البيت الفاطمي .

وأعدَّ ابن رُزَيْكٍ عُذَّتَهُ ، وجمع جموعه ، وتحرَّك إلى القاهرة ليعيد إلى الدولة هيبتها بعد أن حطمتها هذه الأحداث المتتابعة ، وأدال من قدرتها عبث العابثين ، ومغامرات المغامرين ، وقد آتسوا من ضعف الخلفاء ، وصغر سبتهم ، وسيطرة نساء القصر ثغرةً ينفذون منها إلى مرادهم ، ويحققون بغيتهم .

ولما وصل ابن رُزَيْكٍ استقبال المنقذ ، فتعلقوا بجماله ، وكانت للقصر ورجاله به معرفة سابقة ، لا شتغاله به زمنياً عند وفوده ، كذلك كانت تربطه بكبار الكتَّاب والقادة صلوات مودَّة وزمالة . وكان من بين أهل مودته ابن الخلال ، صاحب ديوان الإنشاء ، والجلس بن الحباب القاضي وكبير الكتاب وصاحب النفوذ في القصر .

وصل إلى القاهرة ، وكفل الخليفة الصبي « الفائز » وساس الأمور فقضى على أصول الفساد ، وأعمل السيف في بقايا أنصار عباس وأعوانه وسار في الناس سيرة حسنة .



وصدر له السجل بتولية الوزارة وتلقيه بالملك الصالح ، وهو أول من لقب بلقب الملك من وزراء الفاطميين الكبار .

وهذه صورة السجل — المرسوم — بتعيينه ، كتبه أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال عن الفائز الخليفة في ربيع الثاني من عام تسع وأربعين وخمسمائة يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ فالحمد لله المنعم على المخلصين من أوليائه بسوابغ الآئه ، والمتكفل لمن نصره بنصره ، وتثبيت قدمه وإعلائه ، المهد لمن قام بحقه أرفع مراتب الدنيا والآخرة ، والموضح لمن حامى عن الدولة الفاطمية آيات التأيد الباهرة ، والجامع القلوب على طاعة من أطاعه في الدفع عن أهل بيت نبيه . والمحسن لمن أحسن إلى مهجته ، غيره لأئمة الهدى المصطفين من عتره وصيه ، والمذل للصعاب لمن رفع راية الإيمان ونشرها ، والميسر الطلاب لمن أحيا كلمة التوحيد ونشرها ، ممن حاد الله ورسوله ممن اصطفاه من أبرار عباده والمالحي إساءة من أعلن ببيان الحق ، وجهر بعبادته ، والمعرض من أسعده بالسبق إلى مرضاته لنيل غايات المسن الجسيم ، والمرتب من جاهد في ذاته في أرفع مراتب الإجلال والتفخيم ، والموجب لمن أخلص منهم وأحسن عملاً تعجيل مقام الفخر الكريم . وتأجيل الخلود في النعيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذى أوضح أنوار الحقائق بأنيائه الهداة ، وأبان برُسُلِهِ الأماناء لعباده مناهج النجاة ، وجعل العمل بمراشدهم ذريعة الموقنين إلى أعلى المنازل ، ورفيع الدرجات وختمهم بأفضلهم نفساً ومحتداً . وأحقهم بأن يكون لكفائهم سيداً . محمد حادى الأنام والداعى إلى الإسلام ، والمخصوص بانشقاق القمر وتظليل الغمام ، وأورث أخاه وابن عمه باهر شرفه ، وبارع علمه . وأفرده بإمامة البشر ونحص ، وأقرها فيه وفي عقبه إلى يوم القيامة بجلى النص . فأصبحت الإمامة للملة الحنيفية قداماً ، ولأسباب الشريعة بأسرها نظاماً . ونقل الله نورها في أئمة الهدى من نسله ، فتناولها الآخر عن الأول . وتلقاها الأكمل عن الأكمل . فكلما رام معانداً أن يحيف بنورها ، أو قصد منافق أخفاء ظهورها زاد أنوارها إشراقاً ، ووجد لبدورها كلاً واتساقاً ، وممكن

قواعد دولتها ، وإن زحزحها الغادرون ، وأحكم معاقدها ، وإن اجتهد في حلها الماكرون . ( يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَاللَّهُ مِتِّمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ) .

والحمد لله الذي حفظ بأمر المؤمنين نظام الخلافة واتساقها ، وحمى بيمينه دوحه الأمانة ، وأبقى نُضْرَتَها وإبراقها ، وأورث خصائص الأئمة الراشدين من آباءه وأودعه سرائر دينه المصونة في صدور أنبيائه ، وأيده بموارد الإرشاد والإلهام ، وجعل طاعته فرضاً مؤكداً على كافة الأنام . وخصه بالتوفيق والعصمة وأفاض للأمة به سيجال الرحمة ، وأبرم بأمانته أمر الأمة ، وجعله من الهداية . قال جل وعلا : ( وجعلنا منهم أئمة يهتدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين ) .

يحمده أمير المؤمنين على ما نقله إليه من خصائص آباءه الأئمة الأطهار وأيده في أخصار دعوته من العلو والاستظهار ، وانخذه من جنود السماء والأرض وأظهر له من معجزاته وآياته ، وأظهر من مزيته من مظاهر الظفر لألويته ورواياته ، ونسأله أن يُصَلِّيَ على جده محمد النبي الأمين ، ورسوله المبعوث في الأمين ، الهادي إلى جنات النعيم ، والمحيطه متابعه بالفوز العظيم . الذي جلا الله ظلمات الجهالة ببعثه ، وشرف الأئمة من ذريته بمقامه ومورثه ، ورد الناظر إلى الطاعة بالبر والإيناس ، وجعله خير رسول إلى خير أمة أخرجت للناس . وعلى أخيه وابن عمه أئمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قسيمه في المناسبات والفضائل ، وثالثه في تشفيح الذرائع والوسائل ومفرج الكرب عنه بمؤازرته وصدق كفاجه ، وباب مدينة علمه الذي لا يوصل إليه إلا باستفتاحه . وعلى الأئمة من ذريته الذين بلغ الله بهم الأرب والسؤال ، وأغنى الأئمة بهداهم عن التفتية بعده برسوله ، والعزرة المصطفين ، وأحد الثقلين ، وبحار العلم الذائرة والمرجوين لصالح الدنيا والآخرة . وسلم ومجد ، ووال ، وودد .

وإن أمير المؤمنين لما مهده الله من الشرف الباذخ ، وحازة لمنصبه من الفخر الأصيل ، والمجد الشاخص ، وأفرد به خلافته على العالمين ، وحباه به من ضروب الوجاهة والكرامة ، وأفاضه عليه من أنوار الإمامة ، وواصله إليه من العناية الشاملة والبر الحفي ، وجمعه له من الإحسان الجلي واللطيف الحفي ، وأقره من

مواهب الفضل والإفضال لديه ، وجعل في كل حركة وسكون دليلاً واضحاً يُشير إليه ، يُقدّر نعم الله حق قدرها ، ويواصل العكوف على الاعتداد بها ونشرها . ويبلغ في شكرها قولاً وعملاً ونيةً ، ويجهد نفسه في حمدتها اجتهاداً يرجو به ترك الأمتية ، ويتحقق أن أسماها محلاً وقدرأ ، وأولاها على كافة البرية ثناءً وشكراً ، وأعلاها قيمة ، وأعمها نفعاً ، وأعذبها ديمةً ، وأجمعها لضروب الجدل والاستبشار، وأجدرها بأن تؤثر في الأمم أحسن الآثار . وأوسعها في بضمّار الاعتداد مجالاً، وأعظمها على الرئيس والمرعوس نفعاً وجمالاً . النعمة بك أبا السيد الأجل ، والثغوث والدعاء ، إذ كنت نجدة الله المذخورة لأمنائه على خلقه ، والقائم دون البرية بما افترضه عليهم من مظاهرة أمير المؤمنين ، والأخذ له بحقه . واللطف الذي كان من الإمامية ومن أعلامها حاجزا . والنصر الذي أصبح أمير المؤمنين بعون الله به فائزاً وحزب الله القاهر الغالب ، وشهاب أمير المؤمنين الصائب الثاقب ، بفيه ظلّه الذي على العام والخاص ، ومنهل فضله الذي يصفو ويعذب لذوي الولاء والإخلاص . وسيفه الذي يستأصل شاقة ذوى الشقاق والتفاق ، ويده التي ينبعث منها ينابيع العطاء وسحائب الأرزاق . والولي الذي ارتضاه أمير المؤمنين للمصالح كفيلا ، والصفى الذي لا تبغى دولته عن مؤازرته تبديلا . فعلمو قدرك عند أمير المؤمنين لا يتبى إلى أمد محدود ، وقيامك بالأخذ بحقه يتجاوز كل سعى مبرور ومقام محمود . ودعائه بنصرك الله في طاعته يصغر عنده كل عظيم في مجافاتك . وشفائك صدر أمير المؤمنين من أعدائه أعجز القدرة عما يشفى غليله في إحسان مجازاتك .

ولقد حُزبت من المآثر ما فقت به أهل عصرك تقدماً وسبقاً ، وسموت بجلالك إلى ذرى مجد لا تجد الهمم العالية إلى تمنيا مرقى ، ومازلت في كل أزميتك سلطاناً مهيباً ، وفرداً في المجالس لا تُدرك له الأفكار ضربياً . ومقولاً تُباري ببيانه الأندية والمحافل ، وهماماً باسمه المهّاب تُذعنُ المحافل ، وسيداً تُلقى إليه مقاليد التقدّم والسيادة ، ومُعظماً ليس على ما خصه الله به من التعظيم موضع لزيادة . كشف الله أمرك في آلاء فدعائك لائمه ظهيرا ، وزاد في إنعامه على الأمة فارتضاك لهداة أهل بيته مُعيناً ونصيراً ، ووفر نصيبك من الفضائل والمناقب فوهبك منها ما أفاضه عليك شرفاً ، وأحظى الملوك بتمكنك

وكونك لهم فخراً وشرفاً ، فلا رتبة علا إلا فرعتها منزلاً ، ولا منزلة سناً إلا وقد سموت إليها منتقلاً . ولا مزية إلا احتويت عليها وحزنتها ولا منزلة فخراً إلا طلّتها بفضائلك وجزمتها ، ولا مأثرة إلا وكنت فاتح بابها ، ولا منزلة خطيرة إلا وأنت مستوحياً وأولى بها ، ولا أسماء مجد إلا وخصائلك طالعة في آفاقها أقماراً ، ولا موقف فضل إلا ولك فيه تقدم لا تُنازع فيه ولا ثمارى ، فما يوجد مقدّم إلا وقد فضّلته بآثارك وتقدمته ، ولا يُميّز إلا أسمته في جناب فضلك ورسمته .

تقلدت جلائل الأمور فلبستها نباهةً وتقويماً ، وباشرتها فاحرزت مناقبك جلالةً ووجاهةً ، وتفخيماً ، تُجرّجُ بك الرُتبُ أفيال الفخر والإجلال وترذهي بأفعالك التي يُبعثُ عليها ما أوتيته من شرف الخلال . ولم يزل تدبير أولياء الدولة ورجالها بفضائل سياستك . فتشبت لهم الأقدام ، وتكسيهم عزة النفوس . فليستينوا في حق الانتصار بك ملاقاتة الحِمام .

ورمى الله بك طغاة الكفار لتأييد الإسلام ، واختارك للمجاهدة عن الملة فأصّبحت بك مرفوعة الأعلام ...

.... فما يبلغُ التعدادُ ما جمعته من المناقب والفضائل ، ولا يستولى الإحصاءُ علي مالك من المفاخر التي لا يحيط بها أحدٌ من الملوك الأوائل . فتجمعُ زُهد الأبدال إلى هيم الأكَاسرة ، وتوفق في أعمالك بين ما يقتضيه صلاح الدنيا وحسن نواب الآخرة . فأنت البرُّ الثقي ، الثقيُّ الحسيب ، الطاهر ، المبرأ من كل دنسٍ وعيب .

.... وحويت من الأخلاقِ الملوكية ما قصرَ بعظماء الملوك عن مجاراتك . واقتنيت من الحكم والمعارف ما جعلَ كافة العلماءِ مُعترفين بعظيم فضيلة ذاتك ...

.... ولقد كان وقعُ التحاملِ على الحضرةِ ببعذك عن فناؤها ... على أنك لم تُحلُ من نُصرتها على بُعد الدار ، بل نصرت الحقَّ حيث كان ، ودُرت معه حيث دار .

وقد كان أمير المؤمنين حيث اشتدت الأمور، وحرجت الصدور، وحازت الأبواب واستشرف للارتياح يرجو من الله أن يفجأه منك بالفرج القريب، ويصمى أعداءه من عزيمك بالسهم المصيب. واستجاب الله دعاءه فيك بما مائل دعاء جده رسول الله ﷺ - وضاهاه. وحصل في ذلك على معنى قوله تعالى: ( قد ترى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ). ولما أذهب الله بك أيها السيد الأجل الملك الصالح عن دولة أمير المؤمنين غايات الغنى، وأدرك بها تآزر أولياء الله من ذوي الميمنة والبعى. وأحسن الله الصنيع بمؤازرتك، ... فقلدك من وزارته، وفوض إليك تدبير مملكته وكفالاته. وجعل لك إمارة جيوشه الميامين، وكفالة قضاة المسلمين، وهداية دعاه المؤمنين، وتدبير ما هو مردود إليهم من الصلاة والخطابة وإرشاد الأولياء المستجيبين، والنظر في كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين. وجنوده وعساكره المؤيدين، وكافة رعاياه بالحضر، وجميع أعمال المملكة دانيها وقاصيها، وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها، وكل ما تنفذ فيه أوامره، ويتوج بشعاره منابره. ورد إليك تدبير ما وراء سرير خلافته، وسياسة ما تحتوى عليه أقطار مملكته، وألقى إليك مقاليد البسط والقبض، والرفع والخفض، والابرام والنقض، والقطع والوصل، والولاية والعزل، والتصرف والصراف، والإمضاء والوقف، والغض والتنبية، والإخمال والتنويه، وجميع ما يقتضيه صواب التدبير من الإنعام والإرغام وما توصيه أحكام السياسة من الإبداء والإتمام تيمناً بما يحقق مبالغتك في متابعتك، واجتهادك في إعلاء منار دعوته. وعلماً بأن التوفيق لا يعدو وراءك والسعود لا يفارق أنعمتك. »

وفصل بعد ذلك الأمور التي فوضها إليه وأجزها من شئون الدولة الداخلية والخارجية وشئون الحرب والجيش، والشئون المالية والاقتصادية والإدارية، والأمور الدينية فيما يتصل بالقضاة ورجال الدين من الأئمة وخطباء المساجد... إلخ.

وهذا تفويض كامل بالحكم وشئون سلطانه ، بحيث لا يبقى شيء بعده للخليفة ليقول كلمته فيه ، فيصبح بهذا كما قيل صورة في القصر لا تقض بيده ولا إبرام .

وهذا السجل بهذا التفويض الجامع الشامل لم يحظ به أحد من وزراء الدولة الكبار من قبل ، ولا الوزير الأفضل بن بدر الجمالي على ما كان له من السلطة والاستبداد بالأمر .

وأصبح الملك الصالح طلائع بن رزيك بهذا السجل الحاكم الفعلي للبلاد . وربما استحق ذلك لأنه المنقذ للخلافة من الانهيار والضياع . وكان لإيمان طلائع بمذهب الشيعة وتحمسه له ما طمأن قصر الخلافة ورجاها ، فأودعوه ثقتهم لأن السابقين عليه ممن حاولوا التغلب على الأمر بالتطلع إلى الوزارة لم يخلصوا للمذهب بل كان منهم من كان من أعداء ممن يدين بالمذهب السنّي المعارض كالولكشبي وعبّاس ، بل وبعض أمراء البيت الفاطمي نفسه كالحسن بن الحافظ الذي قيل إنه عارض أباه ودان بالمذهب السنّي وأراد أن يسلب منه الخلافة .

لقد جاء طلائع إذا وصار متعصباً لإرساء قواعد المذهب مدافعاً عنه بالسيف والقلم ، وإن لم يعلن العدا للسنّة لعلمه بأنهم يملكون من القوة في الشام وبعض أنحاء مصر ما يمكنهم من حصاره ومضايقته . فآثر أن يسايرهم ، ويسعى إلى التخالف معهم ، وبخاصة ملوك الشام من آل زنكي ، وأقوام نور الدين محمود .

وهذا السجل الفريد في تعيين الوزراء ، قريب من قصيدة المدح لما يحويه من ألفاظ الإطراء على الرجل وحمته وأخلاقه . ولا شك أن كاتبه الخلال كان يستوحى خاطره وأحاسيسه الخاصة نحو الرجل إلى جانب استشعاره الحاجة إلى هذه الشخصية القوية التي تحفظ على البلد كيانه ، وتحوطه برعايته ونكبت أعداءه وكل من يترهبس به من الخارج أو الداخل .

وقد أضاف الفائز الخليفة نفسه على هامش السجل ما يفيد هذا التقدير في عبارات من التكريظ والتبجيل لشخص طلائع .

ولقد قام طلائع بالدور المنوط به وأمسك بجميع الخيوط بين يديه وأعاد للحكم هيئته ، وأعاد عهد الوزراء العظام ، وأجرى الدماء في عروق الدولة التي بدت قبل امساكه بالزمام وكأنها تلفظ أنفاسها ، وتمرّ بأخر أيامها .

ويبدو أن شخصية طلائع كانت شخصية محببة لخلطائه لما كان يجمع بين جوانحه من خصائل عدة ، فهو يتمتع بلباقة النطق والذكاء ، والأدب والشعر والحزم وحسن المعاشرة والكرم ، والمقدرة على اكتساب الأعوان والأولياء .

وقد دعت هذه الشخصية من سمع عنها ولم يخالطها إلى الإعجاب بها ، فهذا عماد الدين الأصبهاني معاصره ، وإن لم يره ولم يختلط به ، بل سمع عنه وعن سجاياه ، وأدبه وشعره فكتب عنه مقرظاً في أول حديثه عنه شاعراً مصرياً في تحريده ما لم يكتب عن أحد غيره ممن كتب عنهم من شعراء المصريين باستثناء القاضي الفاضل صاحبه ، علماً بأن طلائع كان مخالفاً لمذهب العماد ووزيراً لخلفاء الفاطميين ، جاء العماد كاتباً في دولة أخرى تعقبتهم ، وحاولت نحو آثارهم وقرظ ابن رزيك بكلام مطنب ، في الوقت الذي سخر فيه وقلل من شأن غيره من شعراء الفاطميين .

فمما قاله العماد(١) :

« سلطان مصر في زمان الفائز ، وأول زمان العاضد . ملك مصر واستولى على صاحب القصر ، وثفق في زمانه النظم والنثر ، واسترق بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ، واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصي بالعباء .

وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته ، وإحكام مباني حكمته ، وأقسام معاني بلاغته .

.... وفنك به في دهليز القصر في سنة ست وخمسين وخمسمائة بالقاهرة وانكسفت شمس الفضائل الزاهرة ، ورخص سعر الشعر ، وانخفض علم العلم ، وضاق فضاء الفضل ، واتسع جاه الجهل ، وانحل نظام أهل النظم

(١) الخريدة ١/ ١٧٣ قسم شعراء مصر .

وانتثر يعقد ذوى النثر . واستشعر الفاقة الشعراء ، وعدم البلغة البلغاء . وعُدَّ  
الفضلُ فضولاً ، والعقلُ عقولاً ... وعمَّ الرُّزءُ ... فلم تنزل مصر بعده  
منحوسة الحظ ، منسوخة الجدد ، منكوسة الراية ، معكوسة الآية إلى أن ملكها  
يوسف الثانى .

وقد أعاد دولة الشغفر والأدب إلى زاهر عصرها أيام الأفضل ، وصار بفضل  
تشجيعه لهم واجتماعه بهم مناراً فى هذه السُّنوات التى قضاهما فى السلطة ،  
وكان يجمع الفقهاء وينظرهم على الإمامة وعلى القدر .

ويبدو أنه كان يرى رأى المعتزلة قال ابن العماد : « صنّف فى ذلك كتاباً  
سمّاه « الاجتهاد فى الردّ على أهل العناد . قرّر فيه قواعد التشيع » (١) .

بنى جامع الصالح خارج باب زويلة .

كان طلائع يعقد مجلساً فى منزله ليالى الجمع (٢) ، يجتمع فيه مع جلسائه من  
العلماء والأدباء والشعراء ، والصفوة من رجال الدولة والمجتمع وأمرائه ،  
لسماع قراءة مسلم والبخارى وأمثالهما من كتب الحديث . وكان من جلسائه  
المهذب بن الزبير ، والقاضى الجليس بن الحباب وعمارة اليمنى .

قال عنه عمارة (٣) : كان مرتاضاً قد شَمَّ أطراف المعارف ، وتميّز عن  
أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة . وكان شاعراً محبباً للأدب  
وأهله ، ويكرم جلسيه ويبسط أنيسه . وكان كُرمه أقرب إلى الجزيل من  
الجزيل .

وقال (٤) : ولم تكن مجالسُ أنسيه تقطعُ إلا بالمذاكرة فى أنواع العلوم الشرعية  
والأدبية ، وفى مذاكرة مواقع الحروب مع أمراء دولته . وكانت أحواله طوراً  
له وتارةً عليه .

فمما هو عليه فرط العصبية فى المذهب ، ولو شرحت هذه الواحدة لكثرت

(١) شذرات الذهب ٤ / ١٧٧ .

(٢) راجع بدائع البداهة لعل بن ظافر ١٨٥ .

(٣) النكت العصرية ص ٤٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤٧ .



وظالت واتسعت وعالت . ومنها جمع المال واحتجازه . وهذه هي غرامه وأشجانه . ومنها الميل على جانب الجند وإضعافهم والقص من أطرافهم .

وكان يعرض شعره على من حضره من الشعراء ، من ذلك ما رواه عمارة قال (١) : ودخلت عليه ليلة السادس عشر من رمضان سنة ست وخمسين قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السماط ، ولم أكن رأيت من أول الشهر بليل ، فأمر لي بذهب وقال : لا تبرخ ، ودخل ثم خرج إليّ وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة وهما :

نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَنَوْمٍ وَلِلْمَوْتِ      بِتِ عَيُونٍ يَقْظَانَهُ لَا تَنَامُ  
قَدْ رَحَلْنَا إِلَى الْحَمَامِ سَنِينًا      لَيْتَ شِعْرِي مَتَى يَكُونُ الْحَمَامُ

ثم قال لي : تأملتهما وأصلحهما إن كان فيهما شيء . قلت : هما صالحان . وكانت دار الصالح بالفسطاط ، حيث كانت دار الوزارة ، وبها كان يجتمع بأصحابه .

وانضمّ عمارة إلى جلسائه سنة ٥٥٠ هـ بعد وفوده رسولا من وإلى الحرمين الشريفين . وذكر من جلسائه من أصحاب القلم الشيخ المجلسي ابن الحباب ، وابن الخلال ، والشاعر محمود بن قادوس ، والمهذب بن الزبير .

ومن أصحاب السيف ابنه رزّيك ، وصهره سيف الدين حسين ، وأخوه فارس المسلمين بدر الدين بن رزّيك ، وقريبه حسام . وهؤلاء من أهله ، وأما غيرهم من الأمراء فمنهم ضرغام الذي نال الوزارة من بعده ، وعلى بن الرّيد ، ويحيى بن الخياط ومحمد بن شمس الخلافة .

واتهم طلاب في شاعريته ، كما اتهم من قبله الأمير تميم بن المعز ، فقبيل إن المهذب بن الزبير وابن الحباب كانا يصنعان له شعره . ودافع عنه العماد الأصهباني فنفي هذه الفرية وكذلك ابن خلكان قبله . وقال ابن خلكان إنه رأى ديوان شعره في مجلدين . وذكر العيني في عقد الجمان أن أكثر أشعاره في مدح أهل البيت .

(١) المصدر نفسه ص ٤٩ .

وكان ابن رزّيك ينتسب إلى غسان القبيلة العربية التي كان منها أمراء الشام قبل الإسلام . وكان الشعراء يمدحونه بذلك .

واهتم ابن رزّيك بحرب الصليبيين بالشام ، وأكثر من الغارة عليهم ولم تهدأ له عين في جهادهم ، ولقب بأبي الغارات لذلك .

ولم تدم أيام طلائع كثيراً فقد اغتيل في رمضان سنة ٥٥٦ هـ . في أيام العاضد وقيل في مقتله إنه كان بتدبير من بعض الخواص أى من رجال القصر وعلية القوم من الأعيان لأنه ضيق عليهم في المال . وقيل إنه كان بتدبير من عمّة العاضد وكان طلائع قد زوجه ابنته . وكانت هذه السيدة الشريفة تسمى ست القصور وهى أخت الحافظ . وكانت لها كلمة مسموعة في قصر الخلافة منذ عهد أخيها ، وكانت تميز الشعراء وتبعث إليهم جوائزهم ، ووصلت الشاعر عمارة أكثر من مرة .

وروى المؤرخون حادثة قتله قالوا :

« وكان سب قتله أنه تحكّم في الدولة التحكم العظيم ، واستبدّ بالأمر والنهى وجباية الأموال إليه لصغر العاضد ، ولأنه هو الذى ولّاه ، ووتر الناس ، فإنه أخرج كثيراً من أعيانهم ، وفرقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه ، ثم إنه زوّج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحرّم في القصر ، فأرسلت عمّة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين . ودعتهم إلى قتله . وكان أشدهم في ذلك عليه إنسان يقال له ابن الداعى ، فوقفوا له في دهليز القصر ، فلما دخل ضربه بالسكاكين على دهش فجرّحوه جراحات مهلكة ، إلا أنه حُمِل إلى داره وفيه حياة ، فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله ، فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به . فقال : إن كنت بريئاً فسلّم عمّتك إليّ حتى أنتقم منها ، فأمر بأخذها ، فأرسل إليها فأخذها قهراً ، وأحضرت عنده فقتلها ، ووصى بالوزارة لابنه رزّيك ولقب العادل » (١) .

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٨٩ في حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

## شعره موضوعاته وصنعتة

وديون شعره مفقود ، ما بقي منه مفرق في مصادر متعددة ، ومعظمه كما ذكر يدور حول آل البيت وعلى والحسين ذكراً لمناقب أو رثاء وبكاء يليه أبيات في الحكمة والزهد والنصح ، وقد استغرقت الرسائل بينه والشاعر الفارس أسامة بن منقذ حيزاً من شعره ، تحدث فيها عن بلائه الصليبيين ، وربما شاركه أسامة في غارة كناثبه على بعض مواقع الفرنجة بالشام .

وفي الديوان مطارحات شعرية بينه وبعض من كان يجالسهم من الشعراء أمثال الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير .

ونبدأ الحديث عن شعره الذي بث فيه عقيدته الشيعية وولائه لآل البيت . من ذلك قصيدة هزمية في مدحهم ، يقول فيها<sup>(١)</sup> :

من الأحباب قرّنتي ولائي	ومن أعداى برأتى برأتى
ألا إني تجرثُ فكان يبعي	لغير أئمتى . ولهم شرأتى
جرثُ إليهم طلقا عنائي	وخلفتُ السوابق من ورأتى
ولما صحَّ لي بهم اعتقادي	بنور هداهم أستوقفت رأتى

يقول :

فيامن قد تقدّم لي بئصح	تأخرُ ، ما بجهلك من تخفاء
أمسى في مسائل مُبهمات	وأرجعُ وئلك عن سنن السماء
ولو أني رأيت كما تراه	وقد لمح السرابُ هرقُ مائي
وكيف سباحتي في بحر بحر	بعيد الشاطئين من الرواء
ولو اصغيتُ نوحك في سبيل الـ	تجملُ كأن يمنعي وقائي
هديتُ إلى الرُشادِ وأنت كابي	زنادِ الطرفِ ممتنع الحياء

حتى يقول :

ألا إني لأهل البيت عبّد	مطيعٌ ليسَ ينجح للإباء
بهم نلتُ السعادةَ ياشقياً	وكم بين السعادةِ والشقاءِ

(١) ديوان طلائع جمع وتوبيع وتقديم محمد هادي الأميني طبع النجف سنة ١٩٦٤ م .

ففى آل النبىِّ نظمتُ مدحى وشئتُ المسامعَ من ثنائى  
 وواضح من نظم الآيات فقرها الفنى ، ونثريتها ، وربما كان ذلك راجعاً إلى أنها  
 من أوائل ما صنع من الشعر ، وليست فى مرحلة نضجه . ربما كانت فى أول  
 حضوره إلى مصر وتوليه العمل بديوان الكتاب .

وتجىء هذه القطعة البائية الروى أجود صياغة ، وقد قالها فى مدح الإمام على  
 بن أبى طالب :

لذاذة سمعى فى قراع الكتائب      الذِّ وأشهى من عناقِ الحبايبِ  
 وأحسنُ فى عيني من البرقِ فى الدجى      ومبيضُ المواصبِ فى غبِّ المواقبِ

وفىها ما يدل على أنه قالها فى توليه منصب الوزارة ، وانشغاله بمحاربة الأعداء  
 المترصين بالدين والدولة . وفىها ردٌّ على أتهامه بالتهم فى جمع المال إذ يقول :

وما شغفى بالمال أبغى بقاءه      ولكن أريه حفته بالمواهبِ  
 وإنى لاتفى البخل عنى لبغضه      إلى كما أنفى إمام النواصبِ

وهو فى قوله الأول متعللاً فى جمعه المال برغبته فى انفاقه قريب من قول  
 الظفرانى :

أريد بسطة كف أستعين بها      على قضاءِ حقوقِ للعلا قبلى  
 ولا ينسى فى عجز البيت الثانى غمز الخليفة العباسى ، فهو إمام التصبى عند  
 الشيعة :

ومضى فى الحديث عن ولائه لآل على فيقول :

ألا إننى أمسكتُ أغصانَ دوحيةٍ      أثتُ بأفانينِ الثمارِ الأطايبِ  
 لقد لاح لى برقُ اليقينِ ولم يكنُ      ليخدعنى برقُ الأمانى الكواذبِ  
 ومما تتساوى الأرض فى المجد والسما      وكلُّ علا تربيته فى المراتبِ  
 بال رسول الله ناجيتُ خالقي      بصدق فأنجو من نيوب التوائبِ  
 قضدتُ بهم بين المسالكِ مظلماً      فما جيتُ ، لكنى بلغتُ مطالبى  
 بهم تُبلغُ الآمالِ من كلِّ أملٍ      بهم تقبلُ التوباتُ من كلِّ نائِبِ  
 أئمةٌ حقٌ لو يسرون فى الدجى      بلا قمرٍ لاستصحبوا بالمناسبِ

.....

.....

بَأْتَى بِهِمْ أَحْتَالَ فَوْقَ الْكَوَاكِبِ  
إِلَى غَيْرِهِمْ فَلْيَعْلَمُوا غَيْرُ رَاغِبٍ  
أَبَانَ غَمُوضَ الْمَشْكِلَاتِ الْغَرَائِبِ  
يَرَاهُ ذَوُو الْأَحْسَابِ ضَرْبَةَ لِأَرْبِ  
وَلَمْ تَرَهُ بَعْدَ النَّبِيِّ لِصَاحِبِ  
وَقَدْ رَدَّ عَنْهَا رَاغِمًا كَلَّ خَاطِبِ  
هُوَ الْبَدْرُ تِمَا فِي سَمَاءِ الْمُنَاقِبِ  
قَلِيلَ احْتِقَاءٍ بِالْقَنَاءِ وَالْقَوَاضِي

يُخَيَّلُ لِي لَمَّا امْتَدَحْتُهُمْ عَلَا  
رَغِبْتُ إِلَى آلِ الرَّسُولِ وَإِنِّي  
فَمِنْهُمْ إِمَامٌ اتَّخَذَ حَيْدَرَهُ الَّذِي  
عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَاؤُهُ  
عَلَيْهِ تَرَى الْإِجْمَاعَ لِاشْتِكَاقِهِ  
وَزُجُجَهُ الرَّحْمَنِ بِالطَّهْرِ فَاطِمًا  
عَلَيْهِ هُوَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فِي الضُّحَى  
عَلَى الَّذِي قَدْ كَانَ إِنْ حَضَرَ الْوَعْسَى

حتى يقول بأحقية علي وأبنائه في الخلافة ، وأنها صُرفت عنهم :

أَخَذْتُمْ عَلَى الْقُرْبَى خِلَافَةَ أَحْمَدٍ  
وَأَيْنَ عَلَى الْإِنصَافِ تَيْمٌ بِنَ مُرَّةٍ  
وَصَيَّرْتُمُوهَا بَعْدَهُ فِي الْأَجَانِبِ  
لَوْ اخْتَرْتُمْ الْإِنصَافَ مِنْ آلِ طَالِبِ

ويعمد في هذا اللون من الشعر الشيعي إلى معارضة بعض شعراء الشيعة  
السابقين من مثل السيد الحميري والكميت ودعبل بن علي الخزازي . فهو على  
سبيل المثال يعارض قصيدة دعبل البائية المشهورة :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تَلَاوَةٍ  
وَمَنْزِلٌ وَحْيٍ مَقْفَرٌ الْعَرَصَاتِ  
فَيَقُولُ طَلَائِعُ (١) :

فَمَا فَاتَ يَمْحُوهُ الَّذِي هُوَ آتٍ  
ذَهَابًا إِذَا أَتْبَعْتَهَا حَسَنَاتِي  
وَجَانِبَتْ غَرْقٍ أَيْحَرِ الشُّبُهَاتِ  
بِهِمْ يَصْفَحُ الرَّحْمَنُ عَنْ هَفَوَاتِي  
هَذَا قِيَامِي ، وَهُمْ فِي الْحَشْرِ سَقَنُ نَجَاتِي  
مَوَاصِلَ ذِكْرِ اللَّهِ فِي صَلَوَاتِي

الْأَيْمُ ، دَعَا لَوْ مَيَّ عَلَى صَبَوَاتِي  
وَمَا جَزَعِي مِنْ سَيِّئَاتٍ تَقَدَّمَتْ  
أَلَّا إِنِّي أَقْلَعْتُ عَنْ كُلِّ شُبُهَةٍ  
شَغِلْتُ عَنْ الدُّنْيَا بُحْبُحِي لِمَعَشَرِ  
إِلَيْكَ ، فَلَا أُخَشِي الضَّلَالَ لِكُونِهِمْ  
أُتَمَّةَ حَقِّ لَا أَزَالُ بِلَذِكْرِهِمْ

ويشير إلى من اغتصب حق العلويين وأنه سيلقى النبي ﷺ يوم القيامة  
خجلاً حين يسألهم : لم ضيعتم حق عترتي :

إِذَا قَالَ : لَمْ ضَيَعْتُمَا حَقَّ عَتْرَتِي  
وَكَيفَ اتَهَكْتُمْ جُرَاةَ حُرْمَاتِي ١٩

(١) ديوانه ص ٦٦ .

أسأئتم صنيعاً بعد موتى فغاصب  
ومن خصمه يوم القيامة أحمد  
فواخزني لو أننى فى زمانهم  
لأطعن فيهم بالأسنة كلما  
أقضى زمانى زفرة بعد زفرة  
وصندرى فيه حرقة بعد حرقة  
لذريتى حقاً ، وأخرعات  
لقد حل فى وادٍ من الثقات  
وواحر أحشائى ، وواحرأتى  
مضت حملة جاءت بمؤتفات  
فقلبي لا يخلو من الزفات  
فليس بمنفك عن الحرات

وهكذا يمضى مستشعراً الندم كغيره من الشيعة الذين يقيمون موسم عاشوراء لأظهار هذا الندم على عدم نصرة الحسين ، ويتحرقون لذلك ، فيعاقبون أنفسهم ويذرفون الدمع ، ويلبسون السواد ، ويقولون المرأى الموجهة تحفل بالنذب والبكاء . وبشارك طلائع بشيعيته الملتهبة فى مرأى آل البيت ، فيقول فى رثاء الحسين من أبيات وكأنها ولولة نادب :

متضاعف الحشرات مم	لوء الجوارح بالجراح
تعماً لجبارين أصل	واخيرهم حد السلاح
حملوا رءوسهم الكريمة	فوق أطراف الرماح
.....	.....
يا أمة غدرت ونو	ر الحق أبلج ذو التماح
وتعقبت سنن النبو	الطهر بالبدع القباح
وتأولت فى محكم القر	آن بالكذب الصراح
وغدت على ظلم الو	صبي وآله ذات اصطلاح
لا تقربوا منّا فجز	ب الإبل حتف للصراح

ويرد فى شعره ما يتردد فى أشعار الشيعة من رموز ، وإشارات كالحديث عن غدیر خم ، والوصية يوم هذا الغدير ، فيقول :

ويوم خم ، وقد قال النبى له	بين الحضور ، وشالت عضده يده
من كنت مولى له هذا يكون له	مولى أتانى به أمر يؤكده
من كان يخذله فالله يخذله	أو كان يعضده فالله يعضده
قالوا سمعنا وفى أكبادهم حرق	وكل مستمع للقول يمجده

كما تردد فى أشعاره ما اعتاد الشيعة نسبته إلى على كرم الله وجهه من مآثر

ومن معجزات حصه الله به فيما يروون تقترب في حوارها من معجزات  
الأنبياء ومنها باب حصن في خير ندى قيل إن عبداً اقتنعه

وَقَلَّعَ الْحَصْنَ فَارْتَاعَ الْيَهُودُ لَهُ      وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ عَمَلًا يُفَنِّدُهُ  
نَادَى بِأَعْلَى الْعَلَا جَبْرِيْلَ مَمْتَدِحًا      هَذَا الْوَصِيُّ وَهَذَا الطَّهْرُ أَحْمَدُهُ  
وَفِي الْفَرَاتِ حَدِيثٌ إِذْ طَغَى فَأَتَى      كَلَّ إِلَيْهِ لِحُوفِ الْهَلِكِ يَقْصِدُهُ  
قَالُوا : أَجْزَأًا فَقَامَ الْمَرْتَضَى فَرِحًا      بِالْفَضْلِ وَاللَّهُ بِالْإِفْضَالِ مُفْرَدُهُ  
وَقَالَ لِلْمَاءِ : غَرَطَوْعَا، فَبَانَ لَهُمْ      حَصْبَاؤُهُ حِينَ وَافَى يَهْدُهُ  
ويعد نفسه سيف دين آل احمد .

أناسيف دينكم ابن رزيك الذي      يرضيكم في كل وقت يئنسي

ولم يورد أحد ممن ترجم لطلائع شيئاً من هذا الشعر ، لأنه يخالف عقيدة  
معظمهم فقد ضربوا عنه صفحاً ، فيما عدا من تشيع منهم . فلم يختر صاحب  
معجم الأدباء ، ولا ابن خلكان ، والعماد ، وابن سعيد ، والصفدي سوى  
الأشعار التي تخلو من الإشارات الشيعية ، مع أنهم اعترفوا بأنه شيعي متحمس .  
واكتفوا بما جاء في شعره من غزل أو وصف للمعارك ، أو مطارحات بينه وبعض  
شعراء عصره وبخاصة الشعر المتبادل مع الشاعر الفارس أسامة بن منقذ .

ومثل هذا التجنب لجانب كبير من شعر الشاعر ضرب من الرقابة يفرضه  
العلماء على الشعراء . وحجبت بجانب من المعرفة عن القراء ، وهو تقصير  
لاشك ، بل لعل أقول إنه مجانية للأمانة العلمية ، وتعمية ، وإخفاء للحقائق ، مما  
يخفى معها ملامح الصورة ، بل ويضلل الباحث لأنه لا يملك ما يستطيع به قوله  
الحق .

وهذا جانب من جوانب التراث ينبغي على كل باحث فيه أن يراعيه ، ويتنبه  
لمراقبه .

ويعد أن عرضنا لهذا الجانب المهم من شعر ابن رزيك والذي يمثل غالبية ، لا  
يفوتنا أن نكمل الحديث بالموضوعات الأخرى . ومنها ما يأتي بعد موضوعات  
الحديث عن آل البيت من مدح وثناء ، وإثبات حق ، ودفاع عن المذهب ، وأعنى  
موضوعات الزهد والحكمة ، والنصح ، وقد شغلت جانباً لا يستهان به من

شعره ، من ذلك قوله في دار الوزارة بالفسطاط يذكر من تولى عليها من الوزراء وما انتهوا إليه ، وكان بالقرب منها القرافة مدينة الأموات ، فترى الشاعر يربط ربطاً غريباً بين هذه الدار ، وهي مطعم الأحياء ، والقرافة دار الموتى وقد استحالوا إلى عظام نخرة وتراب . يقول (١) :

يا قلب كم ذا الغرورُ	تخدعُ متى كذبٌ وزورُ
أو ما ترى الآمالَ يفضُ	حُ طولها العُمرُ القصيرُ
ويمثل ما صيرتُنا إليه إلّا	نَ يعتيرُ البصيرُ
لو دَامَ مُلْكُ لم يكنْ	بعد الملوكِ لنا نصيرُ
أنظرْ لهذي الدارِ كم	قد حلّ ساحتها وزيرُ
ولكم تبخترُ أمنا	بين الصُفوفِ بها أميرُ
ذهبوا فلا والله ما	بقى الصغيرُ ولا الكبيرُ
حتى ولا أضحتْ تُرى	بين القبورِ لهم قبورُ
ما استيقظوا من غفلتة	إلا وأرؤسهم تطيرُ
ولحومهم ممضوغة	ومن الوري أيضاً نُسورُ
فاصبرْ فلا حزنْ على الدُّ	نيا يدومُ، ولا سرورُ

وقد ينظم في معاني بعض السور القرآنية ، فيأتى بمطلع السورة أو آية من آياتها ويتم القصيدة أبيات في معناها . أو مولدة منها ، كأن يقول ؛ ويورد أبيات من سورة هل أتى على الإنسان حين من الدهر الآيات ٨ وما بعدها :

أنّ الأبرار يشربون بكأس	كان حقاً بمزاجها كافورا
ولهم أنشأ المهيمن عيننا	فجروها عباده تفجيرا
وهذاهم وقال: يوفون بالنذ	ر فمن مثلهم يوفى الثنورا
ويخافون بعد ذلك يوماً	هائلاً كان شره مستطيرا
يطعمون الطعام ذا اليتيم	والمسكين في حب ربهم والأسيرا :
إنما نُطعمُ الطعام لوجه اللـ	ه ، لا نبتغي لديكم شكورا
غير إنا نخاف من ربنا يوماً	عبوساً عصبصاً قمطيريا
فوقاهم إلههم ذلك اليو	م يلقون نضرة وسورا
وحزاهم بأنهم صبروا في الـ	سر والجهر جنة وحريرا

(١) ديوانه ص ٧٦ .



في أتكايتهم لا يرون لدى الجنِّ      شمساً، كلاً، ولا زمهريرا  
وعليهم ظلالها دانيات      ذللت في قظوفها تيسيرا  
وهكذا يمضى في معظم آيات هذه السورة . وله تجارب أخرى من هذا القبيل .  
ومن نصائحه :

يامريض القلب بالذنْب	ب ، متى بالعفو تبرا
كلما جدد يوم	توبةً ، ضيقت أخرى
تشتهى الأجر ولا	تفعل ما يكسب أجرا
أترى بعد ذهاب العم	ر تستأنف عمرا

ويقول من آيات أخرى في الموضوع :

ياراكباً ظهر المعاصي	أو ما تخاف من القصاص
أو ما ترى أسباب عمرك	في انتقاص وانتقاص؟

وقال ينصح من يتصان بعد المشيب :

مشيئك قد نضاً صبيغ الشباب	وحل الباز في وكري العراب
تنام ومقلة الحدثان يقظي	وما ناب النوائب عنك نايي
وكيف بقاء عمرك وهو كنز	وقد انفتت منه بلا حساب

ومن الأعراض التي أكثر فيها القول حديث القتال والغارة على الأفرنج في ثغور الشام . وكان الأسطول المصري في عهده قد أغار على بعض الثغور بالشام ، ودمر ممتلكات وتحصينات للعدو الصليبي ، ووافق ذلك زلزلة عظيمة وقعت هناك فهدمت بعض قلاعهم ، ومات منهم عدد . وكذلك في أوائل ربيع الأول من سنة ٥٥٣ هـ خرج فريق وافر من عسكر مصر إلى غزة وعسقلان ، وأغاروا على أعمالهما . قال ابن القلانسي (١) : « وخرج إليها من كان بها من الفرنج الملاحين فأظهر الله المسلمين عليهم قتلاً وأسراً بحيث لم يُفليت منهم إلا اليسير وغنموا وظفروا ، وعادوا سالمين . وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب . وهي مشحونة بالأفرنج ، فقتل وأسر منهم العدد الكثير والجثم الغفير . وحاز من أموالهم وعُددهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى وعاد ظافراً غانماً (١) .

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٥٣٧ .

وفي رمضان من نفس السنة كانت بين المصريين والفرنج وقعة قرب العريش انتصر فيها العسكر المصري ، وظفر بجملته وافرة من الافرنج بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلب (١) .

وضنع ابن رزّيك في هذه الغارات المنصورة أبياتا يفخر فيها بصنيعه وشجاعة جنده . يقول :

توالث علينا في الكتائب والكتيب  
بشائر تُهدى للموالي مسرة  
ففى كبد من حرّها النار تلتطى  
جعلنا جبال القدس فيها وقد حرث  
فقد أصبحت أوعارها وحزونها  
ولما غدت لا ماء في جنباتها  
وجادت بها سُحبُ الدروع من العدا  
وأجرت بحاراً منه فوق جبالها  
فقد عمّها خصبها من رعو سيههم  
وقد روعتها خيلنا قبل هذه  
وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها  
وأبطال حرب من كتامة دُوخوا  
وعادوا إلينا بالرعوس على القتا  
وإنّا بنى رزّيك مازال جارنا  
ونفتك بالأموال في السّلم دائماً

بشائر من شرق البلاد ومن غرب  
وتحدث للباغين رعباً على رعب  
وفي كبد أحلى من البارد العذب  
عليها عتاق الخيل كالتفتف السهب (٢)  
سهولاً تُوطأ للفوارس والرّكب  
سبيّاً عليها وإيلاً من دم سكب  
نجيعاً فأغتها العداة عن السحب  
ولكن بحار ليس تصلح للشرب  
بها، وكم خضب أضر من الجذب  
مراراً، وكانت قبل أمنة السرب  
فعاقت نواقيس الفرنج عن الضرب  
بلاد الأعدى بالسومة القب  
وأغناهم كسب الشاء عن الكسب  
يحلّ لدينا بالكرامة والخصب  
كانحن بالأعداء نقتك في الحرب

وفي الرسائل الشعرية المتبادلة مع أسامة بن منقذ تسود هذه النغمة الحربية ، إلى جانب تبادل الودّ وعبارات المحبة والشوق بين الشاعرين الفارسين . كتب أسامة إلى ابن رزّيك :

وما سكنت نفسي إلى الصبر عنكم  
ولا رضيت بعد الديار من القرب

(١) المصدر نفسه ص ٥٤٠ .

(٢) التفتف : المغازة : والسهب المستوية .

فأجابه طلائع بقوله (١) :

ولا أطلَبُ العُتْبَى من الجِبلِ بالعُتْبِ  
وأفنع منه بالرَّسَائِلِ والكُتْبِ  
ففارَقَكُم : جِسمِي وجاورَكُم قَلْبِي  
بِلا جِسمِي : ما أشبه العُذْرَ بالذَّنْبِ  
سُرَى العِيسِ ، بل ركضَ المطهِّمة القَبِ  
غداة اشترَيْتُم وحشة البعيدِ بالقُربِ  
لأعظُمُ ما قد كان من ذلك الخطبِ

من اليوم لا أُعْتَرُّ بَعْدَكَ بالحُبِّ  
ولا أرتضى بالبعيدِ عن ذى مودَّةٍ  
ولا سيما إن قال لي يتصنَّعاً :  
على أننى قد قلتُ حينَ أُجِبتُهُ  
أخلاقى لو دُمْتُم دُنُوناً لما أبى  
ولكنَّكُم بعتُم وفاءً بَعْدَرَةً  
عليكُم سلام الله إنَّ بَعادَكُم

يقول فيها :

عليلاً فلم يوقظ بها نائم التُّربِ  
كأيماننا لما همت بدم سَكِبِ

وما روضة غنَّاء هب نسيماً  
سقاها الحيا من آخر الليل مُزَنَّةً

ومن الرسائل بينهما الطائفة التى أعجبت العماد (٢) . قال أسامة :

ومنية نفسى أنصِفونى أو اشتطوا  
ومن أنجم الجوزاء فى نحرها سيمط  
تُظَلُّ ، ومن نسج الربيع لها بسط  
من السقم ، والأيدى تُقلِّبه حط  
عليه إذا زارت ، بأقدامها تُخطو  
يُجرُّ عليه من جلابيها مِرْط

أجيرة قلبى تدانوا وإن شطوا  
هى البذر لكن الثريا لها قرط  
مشت وعليها للغمام غلايل  
توم صريعاً فى الرجال كأنه  
فما اخضر ترب الأرض إلا لأنها  
ولا طاب نشر الروض إلا لأنه

حتى يقول فى تخلصه :

ولما نأت عنا على كلِّ حالةٍ  
نأذكرنا ذلك البعادُ معاشراً

.....  
أحباتنا بالشام عفتُم جوارنا  
وقد عشتم فيها زماناً ، فما اعتري  
فجاوركم فى أرضها الخوف والقحط  
رضامكم بها ، لولا تخوفكم سُحط  
وكنتم لنا دون الأقارب أسرة  
ونحن لكم من دون رهطكم رهطاً

(١) ديوان ابن رزك ص ٥٩ .

(٢) الخريدة ، ١ / ١٧٥ - ١٧٦ ، قسم شعراء مصر .

ويخلص مرة أخرى إلى الفخر فيقول :

وإنا أناسٌ، ليسَ يرحَ جَارُنَا  
وَبِتَاحِنَا زُوَارِنَا، فَكَأَنَّمَا  
وَيُصْبِحُ بَسْطُ الْمَالِ بِالْكَفِّ عِنْدَنَا  
وَتَحْرَقُ شَرْقُ الْأَرْضِ وَالْغَرْبَ حَيْلِنَا  
وِظَلْمَاءُ لِلشَّهْبِ الدَّرَارِي إِذَا سَرَّتْ  
كَأَوَّلِ الْفَجْرِينِ سَقَطَ يُسَلُّ مِنْ  
سَلَلْنَا بِهَا الْبَيْضَ السُّيُوفِ فَلَاحَ فِي  
سُيُوفِهَا فِي كُلِّ دِرْعٍ وَجَنَّةٍ  
ذَخِرْنَا سَطَاهَا نَلْفَرُجُ، لِأَنَّهَا  
لَهُمْ قَسَطُهُمْ فِي الْحَرْبِ فِيهَا، وَمَالَهَا

.....  
وَحَرْبُهَا الْأُرُوحُ زَاهِقَةٌ لَمَّا  
إِذَا أُرْسَلَتْ فِرْعَاؤُهَا مِنَ النَّعَقِ فَاجِحًا  
كَأَنَّ الْقِتْلَةَ فِيهَا أَنَامِلُ حَاسِبٍ  
رَدَدْنَا بِهَا ابْنَ (١) الْفَيْتَشِيِّ عَنَا وَإِنَّمَا  
.....  
تُعَايِنُ، وَالْأَصْوَاتُ مِنْ دَهَشٍ لَعَطُ  
فَأَسْتَأْنِ الرَّمَاحَ لَهَا مُشْطُ  
أَجَدُّ بِهَا فِي السَّرْعَةِ الْجَمْعُ وَاللَّقَطُ  
يُثْبِتُهُ فِي سَرِّجِهِ الشَّدُّ وَالرَّبْطُ

وفي هذه القصيدة الجيدة ، يشير إلى حقيقة موقف نور الدين من حرب الصليبيين بالشام، فقد رأى ابن رزيك أن يتعاونوا معاً على صد غارات الصليبيين، بأن يؤازر جند الشام جند مصر في هذه الحرب المقدسة ، وكرر ابن رزيك ذلك مرارا وألح على نور الدين بواسطة صديقه أسامة إلا أن نور الدين لم يستجب لإلحاح ابن رزيك لاسباب بعضها ظاهر ، وبعضها الآخر باطن مُتَّصِلٌ بأهداف نور الدين والزنكيين وأتباعهم عامة .

فأما الظاهر منها فهو ما انتاب نور الدين من متاعب صحية ، وأسرية فقد هاجمه المرض مرتين في سنوات ٥٥٢ هـ وسنة ٥٥٣ هـ ، وأوشك على الموت . وكان بينه وبين إخوته متاعب شغلته عن حشد طاقته العسكرية لمواجهة الصليبيين . كما أنه كان يتريث ولم يكن من طبعه المغامرة غير المحسوبة ولذلك كان

(١) أحد فرسان الصليبيين الذين كانوا يغيرون على الحدود المصرية .

يعقد الصلح حيناً بعد حين مع فرسان الصليبيين وقادتهم ريثما يعدُّ عُدته ، ويمكن لنفسه . وكان في طبع نور الدين ميل إلى الزهادة ، والعزوف عن الدنيا ، ولم يكن به تعطش للدماء . وكان رجلاً عابداً مجاهداً بالنفس والسيف .

والهدف البعيد الذي كان يعمل له ، ونكص به عن مؤازرة ابن رزّيك خشيته من الانتصار ، ويعتده أن تقوى شوكة ابن رزّيك ، وهو الذي يملك إمكانات منصر كلها بكل ما تدخره من غيٍّ وقوة، فيُعطي الفرصة للقوة الإسلامية الفاطمية المعارضة أن تمسك بالزمام ، وأن تستعيد سيطرتها على المنطقة بعد أن آذنت شمسها بمغيب ، وتأمل القوى الإسلامية الأخرى وهي قوة الزنكيين واتباعهم من الأكراد والسلاجقة والشوام ممن يخالفونهم في المذهب تأمل هذه القوى في التمكين لنفسها ، ولا تظهر الجفوة للفاطميين مرحلياً ، حتى تأتي الفرصة ليثبوا وثبتهم . وقد كان .

ولاشك أن نور الدين تخوّف من قدرة ابن رزّيك ، وحماسه لحرب الصليبيين وربما أشار عليه ناصحوه وأعوانه بالتريث وعدم الاستجابة لمطالبه في العون على حرب الصليبيين إلا بقدر محدود .

وهكذا يشهد التاريخ الإسلامي مرة أخرى تشزّم العصبة الإسلامية وتفريقيا أمام القوى المعادية لمطامع خاصة تضيع في تيارها وتفترق الأهداف العامة ومصصلحة المسلمين والإسلام .

يقول ابن رزّيك :

حابت إلا الكئي في الطبّ والبطّ  
لبيب إذا استولى على المدنيف الخلطّ  
بها بدا يُخطي سواهم ولم يُخطوا  
قدماً ، وكم غدير به نقض الشرط  
سألت وجهازنا الجيوش ولن يُنطو

فقولوا نور الدين: ليس لجائف الجرا  
وحسّم أصول الداء أولى لعاقلي  
فدغ عنك ميلاً للفريج وهذنة  
تأمل فكم شرط شرطت عليهم  
وشمر فإنا قد أعنا بكل ما

لقد اختار العماد أبياتا من هذه القصيدة ، لكنه تحاشى ما فيه ذكر نور الدين وأعجب بصنعة ابن رزّيك لا بضمون كلامه ، ودعوته إلى وحدة جند المسلمين ، وتعجب لهذا التعصب الطائفي المذهبي الذي يغلب على الناس ، فيتناسوا أنهم شيعة وسنة مسلمون في النهاية ، وأنهم ، والخطر الذي يترصد لهم لا يفرق بين

المذهبين ، وإنما يدهمهم جميعاً ، لكنها مأساة المسلمين في التاريخ جعلتهم يفضلون العصبية المذهبية ، ويقدمونها على مصلحة الإسلام عامة ، والأوطان خاصة .

والرسائل الشعرية بين الشاعرين الكبيرين ترتفع في شعريتها إلى مستوى فنّي لا يلحق به شعرهم الآخر ، وخاصة شعر ابن رزّيك ، ويكشف ذلك عن مدى الصدق في العلاقة التي ربطت بين الرجلين .

وتمثل بهاتين القصيدتين المتبادلتين على ذلك . يقول أسامة<sup>(١)</sup> :

أذكركمُ الودّ، إن صدّوا، وإن صدّقوا  
ولا تُرذُ شافعاً إلا هواك لهم  
به دَنَوْتُ، وإخلاصُ الهوى نَسَبُ  
رأى الحسودُ تداني ودنا فسعى  
وما البعيدُ الذي تنأى الديارُ به  
أجيرةُ القلبِ، والفسطاطُ دارُهُمْ  
أدنى التّداني الهوى، والدارُ نازحةُ  
فارتكم مكرهاً، والقلبُ يخبرني  
ولو تعوضتُ بالدنيا بختيتُ، وهل  
ولسنتُ أنكرُ ما يأتي الزمانُ به  
كم فاجأتني الليالي بالخطوبِ، فما  
واسترجعتُ ما أعارت من مواهبها  
ولا أسيفتُ لأمرٍ فات مَطلبه  
من كان لي من حماة نخيس ذى ليد  
من لم يزل لي من جدوى يديه غني  
الملك الضالُّع الهادي الذي شهدت  
ملك أقلّ عطاياهُ الغنى، فإذا  
أغرّ، أروعُ، في كفيه سحبُ ندى

إن الكرام إذا استعطفتهم عطّفوا  
يكفيك ما اختبروا منه، وما كشفوا  
كما نأيتُ، وإفراطُ الهوى تَلَفُ  
حتى غدت بين دارينا نوى قدف  
بل من تداني، وعنه القلبُ مُنصرفُ  
لم تُصقبِ الدارُ، لكن أصقبِ الكليف<sup>(٢)</sup>  
وأبعدُ البعدُ بين الجيرة الشنف<sup>(٣)</sup>  
أن ليس لي عوض منكم، ولا تخلف  
يُعوّضني من نفيس الجوهرِ الصدفِ؟  
كلّ الورى لرزايا دهرهم هدَفُ  
رأت فؤادي من روعاتها يجفُ  
فما هفا لي على آثاره اللَهْفُ  
لكن لفرقة من فارقه الأسفُ  
ضارٍ، ولي من نداء روضة أنفُ  
وفي ذراه من الأيام لي كنفُ  
بفضل أيامه الأنباء والصحفُ  
أدناك منه، فأدنى حظك الشرفُ  
تمتارُ سحُ الحما منها وتعترفُ

(١) ديوان أسامة ص ٨٥ ، وديوان طلائع ص ٩٨ .

(٢) أصقبت الدار : دنتُ — والكلف شدة الحب .

(٣) الشنف : البغض والكراهة .

وَيَمْضِي فِي مَدْحِهِ حَتَّى يَقُولَ :

طَوْعاً، وَفِيهَا عَلَى خُطَايِهَا صَلَفٌ  
زَالَتْ إِلَى مَجْدِهِ تَصَبُّو، وَتَشْتَرِفُ  
بِحَجْرٍ مِنَ الْعِلْمِ طَامٍ، لَيْسَ يَتَّزِفُ  
إِلَّا وَأَدْمَعُهُ مِنْ خِشْيَةِ تَكَيْفِ  
عَلَى التَّهْجِيدِ بِالْقِرَائِنِ مُعْتَكِفِ

سَعَتْ إِلَى زُهْدِهِ الدُّنْيَا بِرَغْبَتِهَا  
وَلَمْ تُزَفْ إِلَى كَفِّهِ سِوَاهُ، وَمَا  
صَبِرٌ، إِذَا اللَّيْلُ أَوَاهُ بِجِنْدِ سِيهِ  
وَمِخْرَبٌ، مَا أُنَى الْمِحْرَابَ مُتَبَهلاً  
مُسْتَهْلاً وَعَيُونََ الْخَلْقِ هَاجِعَةً

وَيَحْتَمُّ الأَبْيَاتِ بِطَلْبِ الْعَوْنِ لِقَلَّةِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَالِ ، فَيَقُولُ :

أَمْوَالِهِ مِنْ قَضَايَا جُودِهِ الْجَنَفُ  
يَزَلُ بِجُودٍ عَلَى مِثْلِي وَيَعْتَسِفُ  
جُودِي، وَشَتَّتْ شَمْلِي وَهُوَ مُؤْتَلِفُ  
وَفِي يَدَيْكَ الْعَيْنِي ، وَالْعَدْلُ وَالشَّرْفُ  
فَعَادَ بَعْدَ أَتْلَافٍ ، وَهُوَ مُخْتَلِفُ  
وَشَكَرٌ مِنْ هُوَ بِالْإِحْسَانِ وَمُعْتَرِفُ  
وَإِنْ أَتَتْ دُونَهُ الْغَبْرَاءُ وَالنُّطْفُ (١)  
فِي دَوْلَةٍ ، مَالَهَا حَدٌّ وَلَا طَرْفُ

إِلَيْكَ يَا عَادِلًا فِي حُكْمِهِ وَعَلَى  
أَشْكُو زَمَانًا قَضَى بِالْجُودِ فِيَّ وَلَمْ  
لَحَتْ نَوَائِبُهُ عُودِي ، وَأَنْفَدَمُو  
وَقَدْ دَعَوْتُكَ مَظْلُومًا وَمُؤْتَجِبًا  
فَاجْعَ بِجُودِكَ شَمْلًا كَانَ مَجْتَمِعًا  
وَأَنْشُرَ بِمَعْرُوفِكَ الْحُرُوفَ مَيْتَهُنَّ  
فَهُوَ الْقَرِيبُ مَوَالَاةً وَمَعْتَقِدًا  
وَعِشْ عَلَى رَغْمٍ مِنْ يَشْنَاكَ مَقْتَدِرًا  
فَأَجَابَ الصَّالِحُ بِقَوْلِهِ :

فِي كُلِّ سَمْعٍ إِبْدَاءٌ مِنْ حُسْنِهِ طَرْفُ  
هَذَا كِتَابٌ آتَى ، أَمْ رَوْضَةٌ أَنْفُ  
كَأَنَّهُ الدَّرُّ ، عَنْهُ فَتَحَ الصَّدْفُ  
وَإِنْ حَوَتْ عَطْلًا مِنْ جِلْيَةِ شَنْفُ  
فِيهِ، فَجَاءَ كَزَهْرِ الرَّوْضِ يِقْتَطِفُ  
قَدْ حَلَّ يَوْمًا بِمَدِّ النَّيْلِ مُغْتَرِفُ

آدَابُكَ الْغُرُّ بِحَجْرٍ مَالَهُ طَرْفُ  
نَقُولُ لَمَّا أَتَانَا مَا بَعَثَتْ بِهِ  
حِطَّ تَنْزَهَتْ الْأَنْظَارُ حِينَ بَدَا  
إِنْ نَظَّمُهُ طَرَقَ الْأَسْمَاعُ كَانَ لَهَا  
رَقَّتْ حَوَاشِي كَلَامٍ أَنْتَ نَاطِمُهُ  
وَرَدَّتْ بِحَجْرِ الْقَوَافِي فَاغْتَرِفَتْ كَمَا

فَأَنْتَ مِنْهُ عَلَى الْعَيْرِ تَشْتَرِفُ

إِذَا تَطَلَّعَ فَوْقَ الْأَرْضِ ذُو أَدَبٍ

حَتَّى يَقُولَ :

شَوْقٌ تَجَدَّدَ مِنْهُ الْوَجْدُ وَالْأَسْفُ

إِذَا ذَكَرْتَكَ مَجْدَ الدِّينِ ، عَاوَدَنَا

(١) النَّطْفُ : جَمْعُ نَطْفَةٍ الْمَاءِ الصَّافِي قَلَّ أَوْ كَثُرَ .

ودون ما وجدناه لفرقتكم  
ولو عرفت الذى فى القلب منك لما  
ولا عجيب إذا حاف الزمان على  
فلا تكن جازعاً ، إن التجاوز عن  
فإن حصلت على الصبر احتويت على الأجر  
يا من جفانا، ولو قد شاء كان إلى  
وحق من أمه وقد الحجاج، ومن  
إننا لثوى على حال البعاد، كما  
ونغفر الذنب إن رام المسي بنا  
وإن جنى من رأى أنا نعاقبه  
نعم وتحفظ عند العيب صاحبنا  
فما لإيعادنا يوم الوغى ميل  
فعدنا جنة تدنو التمار بها  
هذى مصاحبنا ضوء النهار، وكم  
فمل إلينا بأمالي محققة  
كفى اغتراباً، فعجل بالإياب لنا  
وقد أجبنا إلى ما أنت طالبه  
فرايتنا فيك قد أضحى علانية  
وقدمت لك تمهيداً، وبها  
كأننا حين تجرى ذكرة لكم  
فإن يُبالغ أناس في الثناء على

يحيط بالقلب من أرجائه التلّف  
أن حلت عنا على الأحوال تختلف  
حر، وكلّ قضاياه بها جتف  
إنفاقك الصبر فى شرع الهوى سرف  
الجزيل، وفى إحرازه شرف  
جانبنا دون أهل الأرض يتعطف  
ظلت إلى بيته الركبان تختلف  
نوفى لمن ضمه فى قربنا كنف  
عفوا، ونستره فى حين ينكشف  
يردنا الصفح، أو يعتاقنا الأنف  
وليس يدركنا كبير ولا صلف  
ولا لموعداً يوم الندى تخلف  
إذا دنا مجتن منها، ومقتطف  
قد ضل من فى ظلام الليل يعتسف  
وكف غرب دموع لم تزل تكف  
فمنك لا عوض، يلقى ولا تخلف  
فالآن كيف تروى فيه أو تقف؟  
والجند قد عرفوا منه الذى عرفوا  
وحش الفلاة إذا ما روعت ألف  
على اضطرام لهيب النار تعتكف  
أوصافكم قصروا فى كل ما وصفوا

وهذه الآيات والآيات الأخرى التى ردّ بها الصالح ، أو بدأ بها صديقه  
أسامه إنما سجل واضح لصداقة ومحبة بين قائدين من قادة هذه المرحلة  
وفرسانها تكشف عن علاقة إنسانية حميمة فضلاً عما يربطهما من عمل على  
مصلحة عامة فى ردّ عادية المعتدين من الصليبيين ، تلمح فيها الاخلاص من  
الجانين وصدق الحديث . اعتذار من أسامة عما حدث من ملايسات فى  
أحداث القصر التى أدت إلى مقتل الخليفة الظافر وثلاثة من أعوانه ، لم يكن له  
يد فيها ، وإنما وضعته الظروف رغماً منه فى أتون الأحداث للعلاقة التى ربطت



بينه وبين القاتلين عباس وابنه . مما جرَّ عليه غضب القصر رجاله ونسائه وغضب جند الخلافة وقد شاهدوه وعباساً ونصراً في شوارع القاهرة يحاربونهم . فالأتهم قائم ، وإن كانت يده لم تلوث بدم ، وإنما وقع عليه الظلم كما وقع عليه في ظروف عديدة في حياته ، ويعرف بطلائع مدى ما عاناه أسامه من جنف الحياة ، وحيف الأتارب والأصدقاء والأعوان . ويعرف ما في نفس صديقه من عزة ومن عفة ، ويعرف براءته مما ينسب إليه ، ويدرك كذلك موقف التردد الذى يقفه من دعوته وقبوله العودة إلى مصر ، فإن في نفس أسامة تخوفاً ، وشكاً ، لا من ناحية صديقه طلائع ، ولكن من ناحية القصر والجنود ، فهم مهمماً طمأنه ، واعتذر عنه ، وأوضح موقفه ، فإنه لا يأمل الغيلة .

وهذه الرسائل الشعرية المتبادلة فريدة في تاريخ الشعر العربى ، لأنها حوارٌ يحمل في طياته كثيراً من المشاعر والأحاسيس الإنسانية والمودة بين صديقين كما تحمل سجلاً لكثير من أحداث العصر وأسراره ، لا تكشف عنها مصادر التاريخ المعتادة والتقليدية . فضلاً عما تحمل من شاعرية متدققة لشاعرين من رواد الشعر في عصرهما ، وفارسين من فرسان الجهاد .

ولطلائع في هذه الحوارات الشعرية قصائد تسجل المعارك وتكشف عما قام به جند مصر من أدوار في تلك المرحلة ، ربما أغفلها التاريخ ، أو لم يركز عليها تركيزه على المرحلة التالية في عصر الأيوبيين والمماليك . فهذه القصائد تكشف عما أهمله التاريخ من مواقف مُضيئة لأبطالٍ خاضوا من أجل العقيدة والوطن معارك مهدت بعد ذلك للنصر :

فمن هذه القصائد ميميةً حماسيةً النبوة يقول فيها طلائع (١) :

ألا هكذا في الله تمضى العزائمُ وتمضى لدى الحرب السيوف الصوارمُ  
 وتُسْتَرَلُ الأعداءُ من طَوْدٍ عِزَّهُمْ وليسُ سِوَى سمرِ الرماحِ سَلالِمُ  
 وتُعْرَى جيوش الكفرِ في عُقرِ دارِها ويوطأ جِماها، والأثوفُ رِواغِمُ  
 ويوفى الكرامُ النَّادرونَ بِنَدْرِهمْ وإنْ يذَلَّتْ فيه النفوسُ الكِرامُ  
 نَدَرْنَا مَسِيرَ الجِيشِ في صَفَرٍ، فما مَضَى نَصْفَه، حتَّى انشَى وهو غانِمُ

(١) ديوان أسامة ص ٢٢٠ ، وديوان طلائع ص ١٣٥ .

بَعَثَاهُ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ، قَاطِعًا  
وَتَاهِيكَ مِنْ أَرْضِ الْجِفَارِ إِذَا التَّظِي  
وَصَارَتْ عِيُونَ الْمَاءِ كَالغَيْنِ عِزَّةً  
فَمَا هَالَهُ بُعْدُ الدِّيَارِ وَلَا تَنِي  
يُهَجِّرُ وَالْعَصْفُورُ فِي قَعْرِ وَكَرِهِ  
إِذَا مَا طَوَى الرِّيَابِ وَقَتَ مَسِيرِهِ  
تُبَارِي نُحَيْلًا مَا تَرَالُ كَأَنَّهَا  
فَإِنْ طَلَبْتَ قِصْدًا تَسَاوَيْنَ سُرْعَةً  
هِيَ الدَّهْمُ أَلْوَانًا وَصَيِّغٌ عِجَابَةٌ  
تَصَاحِبُهَا عِلْمًا بَأَنَّ سَوْفَ تَعْتَدِي  
كَأَنَّ وَحْشَ الْفَقِيرِ مَازَالَ مِنْهُمْ  
خِيُولَ إِذَا مَا فَارَقْتَ بِمِصْرَ تَبْتَغِي  
يَسِيرٌ بِهَا ضِرْغَامٌ فِي كَلِّ مَازَقِي  
وَرَفَقَتُهُ عَيْنُ الرَّمَانِ وَحَاتِمٌ  
مَضَى طَاهِرَ الْأَثْوَابِ مِنْ كُلِّ رِيْبَةٍ  
هَيْثَا لَهُ يُسْقَى الرَّحِيقَ إِذَا غَدَتْ  
وَلَوْ أَنَا نَبِكِي عَلَى فَقْدِ هَالِكِ  
وَلَكِنَّا بَعْنَا الْإِلَهَ نَفُوسَنَا  
تَهُونَ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ نَفُوسُنَا إِذَا لَمْ تُصَيَّبْنَا فِي الْحَيَاةِ الْمَائِمِ

ويذكر حشود فرق الجيش بأسمائها وقادتها ، ومن انضم إليهم من جند القبائل المؤيدة للمجاهدة مثل سنبس ، وتعلبة ، وجذام بالحورف الشرق من مصر وأرض سيناء . حتى يقول :

جِيُوشُ أَدْنَاهَا اعْتِرَامًا وَنَجْدَةٌ  
إِذَا مَا أَتَارُوا النَّقْعَ ، فَالْتَقُرُّ عَابِسٌ  
وَلَمَّا وَطُوا أَرْضَ الشَّامِ تَحَالَفَتْ  
وَوَاجِهِمْ جَمْعُ الْفِرْنِجِ بِحَمَلَةٍ  
فَلَقَوْهُمْ زَرْقَ الْأَسْنَةِ ، وَأَنْطَرُوا  
وَمَا زَالَتْ الْحَرْبُ الْعَوَانَ أَشَدَّهَا

فَطَاعِنَا مِنْهُمْ ، وَمَنَا ، الْعَوَائِمُ  
وَأِنْ جَرَدُوا الْأَسْيَافَ فَالْتَقُرُّ بِاسِمِ  
فَأُضْحَتْ جَمِيعًا ، غُرْبُهَا وَالْأَعَاجِمُ  
تَهُونَ عَلَى الشُّجْعَانِ مِنْهَا الْهَزَائِمُ  
عَلَيْهِمْ ، فَلَمْ يَنْجُمِ مِنَ الْكُفْرِ ، نَاجِمٌ  
إِذَا مَا تَلَقَى الْعَسْكَرُ الْمُتَصَادِمِ

بِلَجَّةٍ بِحَرِّ مَوْجِهَا مُتَلَاطِمٌ  
 مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا وَهُوَ لِلرَّيْحِ خَاطِمٌ  
 رُعُوسٌ، وَحَزْرَتْ لِلْفَرْنَجِ غَلَاصِمٌ (١)  
 وَلَا قَيْلٌ : هَذَا وَحْدَهُ الْيَوْمَ وَسَالِمٌ  
 وَلِلوَحْشِ أَعْرَاسٌ بِهِمْ مَا تَبِمٌ  
 بِدَاهِيَةٍ تَبْيَضُّ مِنْهَا الْمَقَادِمُ  
 تَدُوسُهُمْ مَنَا الْمَذَابِحِي الصَّلَاةِ

يُشَبِّهُهُمْ مِنْ لَاحِ جَمْعُهُمْ لَهُ  
 وَحَسْبُكَ أَنْ لَمْ يَتَّقِ فِي الْقَوْمِ فَارِسٌ  
 وَعَادُوا إِلَى سَلِّ السُّيُوفِ فَقَطَّعَتْ  
 فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ يَوْمَ ذَلِكَ مُخَبَّرٌ  
 كَذَلِكَ مَا يَنْفَكُ تُهْدَى إِلَى الْعِدَى  
 وَتَسْرَى لَهُمْ آرَاؤُنَا وَجُيُوشُنَا  
 نُفْتَلُهُمْ بِالرَّأْيِ طَوْرًا ، وَتَارَةً

ويشير إلى مهادة نور الدين للصليبيين ، مع احتلالهم لأرض شيزر وحصن حارم وغيرها من الثغور والحصون الإسلامية بالشام ، ويستحثه على النهوض لمناجرتهم متضافراً مع جيش مصر وأسطولها . ويقول إنه وجيشه لا يهدأون في قتال الأعداء .

وَنُحَلِّفُ جِهَادًا أَنَا لَا نَسَالِمُ  
 وَلَيْسَ يُنَجِّي الْقَوْمَ مِنْهَا الْهَزَائِمُ  
 إِلَيْهِمْ فَلَا حَصْنَ لَهُمْ مِنْهُ عَاصِمُ  
 وَتُحَوِّى الْأَسَارَى مِنْهُمْ وَالْعَنَائِمُ  
 نَفَاحِرُ أَمْلَاكِ الْوَرَى وَنَقَاوِمُ  
 وَطَاقَتْنَا ، وَاللَّهُ مَعِي ، وَحَارِمُ  
 تُزِينُ أَعْمَالِ الرَّجَالِ الْخَوَاتِمُ

فَنَحْنُ عَلَى مَا قَدْ عَهَدْتَ نَرُوْعُهُمْ  
 وَغَارَتْنَا لَيْسَتْ تَفْتَرُّ عَنْهُمْ  
 وَأَسْطُولُنَا أضعَافٌ مَا كَانَ سَائِرًا  
 وَنَرْجُو بَأْنَ نَجْتَاخَ بِأَقْبَهُمْ بِهِ  
 عَلَى أَنَا نَلْنَا مِنَ الْمَجْدِ مَا بِهِ  
 وَلَكُنَّا نَبغِي الْمُثُوبَةَ جُهْدَنَا  
 وَنَحْتَمُ بِالْحَسَنِ الْحَيَاةَ ، وَإِنَّمَا

لقد خلد المتبنى معارك سيف الدولة ضد الروم ، مع أنها كانت غارات ، تبادل فيها الفريقان الكرّ والفرّ ، حتى كانت الغلبة في النهاية للروم فاصابت إمارة سيف الدولة بحلب في مقتل وزعزت أركانها حتى جاء الفاطميون فأعادوا حلب إلى حوزة المسلمين .

وها هو طلائع يعيد وصف المعارك مع الصليبيين وإن اختلفت الدوافع والظروف ، فيطلائع هنا يحس بالخطر المحدق بالأمة الإسلامية ، ويعلم دعوة الجهاد التي ينبغي أن يتضافر تحت لوائها المسلمون بدأ واحدة ، وقوة متماسكة ليصلوا إلى غايتهم .

(١) الغلاصم : اللحم بين الرأس والعنق ، أو رأس الحلقوم .

ولكن يبدو أن دعوة طلائع ، كانت صحيحة في خلاء .. أو لم تلق الاستجابة على ما سبقت إشارتنا ، وبقي لنا بعد ذلك هذا الشعر ، الذي يكشف عن صفحة مجهولة ، ويرز جهداً كاد أن يضيع في طيات الأيام . كانت مصر قيادة وجنداً وإمكانات تعمل على بقاء الصرح . حتى أتيح لها بعد أن ترى رايات الانتصار ترتفع على بيت المقدس من جديد بقيادة صلاح الدين ، وبقوة مصر وجندها إلى جانب قوى الشام والمسلمين التي حشدتها القائد المظفر .

وقد استغرقت الموضوعات التي ذكرنا معظم ديوان ابن رزيك وما دونها قليل من الغزل ، والوصف ، وأبيات في مقطعات يصنعها بين يدي موقف ، أو جلسة من جلسات سمره مع الأدباء والعلماء . قال :

مُهَفِّهْفٍ ثَجِلِ الْقَوَامِ سَرَّتْ إِلَى	أَعْطَافِهِ النَّشَوَاتُ مِنْ عَيْنِيهِ
مَاضِيِ اللَّحَاطِ كَأَنَّمَا سَلَّتْ يَدِي	سَيْفًا غِدَاةَ الرَّوْعِ مِنْ جَفْنِيهِ
النَّاسُ طَوْعُ يَدِي وَأَمْرِي نَافِدٌ .	فِيهِمْ ، وَقَلْبِي الْآنَ طَوْعُ يَدِيهِ
فَاعْجَبْ لِسُلْطَانٍ يُعَمُّ بَعْدَلِيهِ	وَيَجُورُ سُلْطَانَ الْعَرَامِ عَلَيْهِ
قَدْ قَلْتُ إِذْ كَتَبَ الْعِدَارُ بِخَدِّيهِ	فِي وَرْدِهِ الْفَيْهِ لَا لَأْتِيهِ
مَا الشُّعْرُ لَاحَ بَعَارِضِهِ وَإِنَّمَا	أَصْدَاغُهُ تُفَضُّتْ عَلَى نَحْدِيهِ

وقال :

عَازِلِ عَدْلِكَ سَهْمٍ فِي الْحَشَا	كَيْفَ كَيْتَانِي وَسِرِّي قَدْ فَشَا
صَارَ مَا لِي مِنْ غَرَامٍ كَامِنٍ	ظَاهِرًا يَنْقُلُهُ وَاشِي وَشِي
مَنْ رَأَى قَبْلِي يَأْرِيَمَ الْفَلَا	أَسَدًا يَقْنِصُهُ لِحْظِ رَشَا

ومنها

وَجْهَكَ الرُّوضَةَ آتَتْ نَرْجَسًا	وَجَنِّي السَّوْرِدِ فِيهَا قُرْشَا
خَفْتُ أَنْ يُجَنِّي فَوَكَلْتُ بِهَا	عَقْرَبًا طَوْرًا وَطَوْرًا حَشَا

وشعره في الغزل وسواه من الموضوعات لا يرقى إلى مستوى فخره ووصف المعارك والغارات ، وإخوانياته .

(١) خريدة القصر ١/ ١٧٧

وصياغته بصفة عامة تقليدية ، ولا يميل إلى الإكثار من البديع، وصوره مشتقة أحياناً من حياته العسكرية ، ومحيطه العام . ويغرب أحياناً في بعض خيالاته .

وظلّ المتنبي يُطيف بعباراته أحياناً ومعانيه، فيحس قارئ شعره بنفس المتنبي يسائر الكلمات . وقد بدا هذا بوضوح في بعض قصائده في الفخر ووصف المعارك .

ويرى الصفدي أنه أخذ بعض معانيه من ابن هانيء الأندلسي ومنه قوله :  
ماضِي اللِحاظ كَأَما يَدِي سِيفِي غِداةَ الرُّوعِ من جَفْنِيهِ  
أَخَذَهُ — كما قال الصفدي — من قول ابن هانيء<sup>(١)</sup> :

ما كان أفتكني لو اخترطت يدي من ناظرِكِ على عَنوَلِي مُرَهَفاً

---

(١) الواقي بالوفيات ، ترجمته ١٢ / ٥٠٣ .

أسامة بن منقذ ( ٤٨٨ - ٥٨٤ هـ )

ولد في أسرة عريقة وليت امارة شيزر بالشام شمال غرب حماة في النصف الثاني من القرن الخامس وحتى منتصف القرن السابع إذ دهمها الزلزال المدمر الذي ضرب كثيرا من مدن الشام في عامي ٥٥٢ ، ٥٥٣ هـ .

وعرفت شيزر بقلعتها الشهيرة ، وتقع على هضبة مرتفعة يحيط بها نهر العاصي ، فيجعل منها حصنا منيعا ، حاول الصليبيون والروم الاستيلاء عليه مرات .

وكان والد أسامة رجلاً صالحاً يقضى وقته في الصلاة وتلاوة القرآن ونسخه ، ويخرج أحيانا للصيد في رَيْضِ شيزر ، وكان به فيما يروى على عهدِه أسوداً<sup>(١)</sup> .

وترى أسامة منذ صغره على التمسك بالدين واداء العبادات وحفظ القرآن ، كما نشأ جريماً ، شجاعاً ، لا يبالي بالأخطار ، وقد تدرب على الصيد ، ومارس صيد الأسود مع والده . وقد أعد للقتال فتدرب على أصوله ، وتعلم الفروسية ، واستخدام أدوات الحزب من سيوف ورماح ونبال .

وتدل ثقافته من شعره ، وكتاباته على سعة اطلاعه ، ومعرفته بعلوم الدين من حديث وفقه ، واطقانه لعلوم اللغة والأدب والنحو وقراءته وحفظه لكثير من الشعر القديم ، ومأثور كلام العرب في أمثالهم وخطبهم وحكمهم ، وألم بالتاريخ العربي والإسلامي ووعى وقائمه وأحداثه .

وكان عمُّ أسامة أبو العساكر سلطاناً حاكماً أو أميراً على شيزر ، ولم يكن له ولد فأحب أسامة وتبناه وقربه ، وظل كذلك زمناً ، حتى أنجب ، فتغيرت عواطفه نحو ابن أخيه أسامة . وأحس أسامة بهذا التغير ، فأثر الابتعاد عن عمه وولده .

---

(١) وقد ورد حديث صيد الأسود ببعض أرض الشام في الأخبار ، ولعل مما يسجل ذلك غير ما جاء في ترجمة ابن منقذ مدبح المتنبي لبدر بن عمار ووصف صيده للأسد في قصيدة مشهورة .

وحدثته نفسه بالخروج عن شيزر كلها إلى بلد آخر ، لما وجد من جفاء عمه فقصد الموصل ، والتحق بعماد الدين زنكى وصار رجلاً من رجاله وفارساً من فرسانه وحارب الصليبيين تحت قيادته في أكثر من معركة . وظل يمارس صناعة الحرب في « الرها » وبعض بلاد شمالى الشام حتى هاجم الفرنج والروم بلده شيزر عام ٥٣٣ هـ ، فاسرع للمشاركة في صد الروم عنها ، وأبلى في الدفاع بلاءً حسناً .

ولمّا عاد أسامة في هذه المرة ، كان قد بلغ من الفروسية والشهرة مبلغاً في القتال ، فتعلقت به نفوس أهل شيزر ، وخشى عمه على نفسه وإمارته أن يأخذها منه أسامة ، أو يرثها دون ولده ، فأمره وأسرته بمغادرة بلده ، وكان والد أسامة قد توفي قبل ذلك ، فخرج أسامة وأخوته وبقية أسرته من بلدهم ، وتشتتوا في البلاد ، رضوخاً لأوامر عمه .

ولم يمهل القدر عمه طويلاً ، فقد انتابت الشام هزات وزلازل كان أشدها عام ٥٥٢ هـ الذى دمر شيزر ، وذهب فيها عمه وأسرته فدفنوا تحت الأنقاض .

وكان أسامة قد قصد دمشق في خروجه الثانى من بلده حيث التقى بصاحبها معين الدين أنر أحد المجاهدين في حرب الصليبيين ، وعاونه أسامة في شئون السياسة والحرب ، ونجح في كل ما وكل إليه من أمورهما حتى علت منزلته عند معين الدين . إلا أن الأمور لم تجر كما يهوى ، ولعله لاحظ بعض التغير من صاحبه الأمير ، فأثر كعادته الابتعاد ، والحفاظ على النفس والكرامة . وتنطق أبياته التى بعث بها إلى أنر بما حدث من تضييع لحقه إذ يقول :

بَلِّغْ أَمِيرِي مَعِينِ الدِّينِ مَأَلِكَةَ      مِنْ نَازِحِ الدَّارِ ، لَكِنْ وَدَّهْ أَمُّمُ

.....

تَضِيْعُ وَاجِبِ حَقِّي ، بَعْدَ مَا شَهِدْتُ      بِهِ النِّصِيْحَةَ ، وَالْإِخْلَاصُ وَالْخِدْمُ  
وَمَا ظَنَنْتُكَ تُنْسِي حَقَّ مَعْرِفَتِي      إِنْ الْمَعَارِفُ فِي أَهْلِ النُّهْيِ ذَمُّمُ

ويلم في هذه الأبيات بقصيدة المتنبي في وداعه لسيف الدولة :

وَاحِرَّ قَلْبَاهُ مِنْ قَلْبِهِ شَيْبُمُ      وَمِنْ بَجْسَمِي وَرُوحِي عِنْدَهُ سَقْمُ

وربما كانت الظروف التي حكمت على الشاعرين بالفراق واحدة ، وهي تغير الأمير بمشورة أهل السوء ، والحسد في البلاط . ولأن الظروف واحدة ، فقد استعان أسامة بأبيات للمتنبي ضمنها قصيدته . كقوله :

ولأ اعتقدتُ الذي بيني وبينك من  
لكن يُفأثك مازالوا بغشهم  
والله ما نصحوا لئما استشرتهم  
كم حرفوا من مقالٍ في سفاريتهم  
ودُّ ، وإن أجلب الأعداء ينصرم  
« حتى استوت عندك الأنوار والظلم »  
وكلهم ذو هوى في الرأي متهم  
وكم سعوا بفسادٍ . ضل سعيهم

وكانت هجرته هذه المرة إلى القاهرة بعد مغادرته لدمشق . يم نحو الجنوب كما فعل أبو الطيب من قبل . فوصل إلى عاصمة مصر في جمادى الثانية عام ٥٣٩ هـ .

وصل أسامة إذا إلى القاهرة ، والتحق ببلاط الخليفة الحافظ ، جندياً فارساً ويبدو من حديث أسامة وترحيب الحافظ به أنه كان من المقرين يقول (١) :

« .. فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ فقرئني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع عليّ بين يديه ودفن لي تحت ثياب ومائة دينار » .

ولعله التقى بطلائع في القصر الفاطمي ، إذ كان قد سبقه هذا إلى مصر وعمل بالقصر زمناً قبل توليه إمارة قوص وأسوان بالصعيد ، وربطت صداقة ومودة بين الرجلين . وغادر طلائع صاحبه بالقاهرة إلى قوص وأسوان ، وبقي أسامة ليشهد الصراع بين القادة ورجال الحكم لتولى الوزارة بعد وفاة الحافظ ، وتولى ابنه الصبي الظافر .

فقد استوزر الحافظ في آخر أيامه نجم الدين بن مصال . وكان شيخاً كبيراً فطمع في منصب الأمير سيف الدين أبو الحسن عليّ بن السلار والى الاسكندرية فحشد أعوانه وتوجه إلى القاهرة يريد الوزارة . فجمع الظافر الأمراء في مجلس الوزارة وكان بينهم أسامة قال : « ونفذ إلينا زمام القصور — أي متولى شؤون القصر ، أو رئيس الديوان الخلفي — يقول : يا أمراء هلمنا نجم الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمثل لأمره » .

(١) الاعتبار ص ٢٩ ، طبع دار الثقافة والنشر والإعلام .



قال أسامة عن سكنه بالفسطاط .

« وأنزلني — الحافظ — في دار من دور الأفضل ابن أمير الجيوش في غاية الحسن ، وفيها بسطها وفرشها ، وآلتها من النحاس ، وأقمت بها مدة إقامتي في إكرام واحترام وإنعام متواصل وإقطاع » .

ويبدو أن الأمور لم تستقر بعد اجتماع الأمراء على إقرار ابن مصال مع رغبة الحافظ في وزارته ، وخرج بعض الأمراء على رأي الحافظ ، وأيدوا ابن السلار مما اضطر الحافظ إلى نصيحة ابن مصال بالخروج ومعه بعض جنود مصر .

واصطدم انصار ابن مصال بعبّاس ابن زوجة ابن لسلار وانهزموا وكان أسامة آنذاك قد لقي ابن السلار بعد استدعائه من منزله . قال : « ويبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعاني في الليل ، وأنا معه في الدار . وقال : هؤلاء الكلاب يعنى الجنود قد هاجموا عباساً ، ودخلوا القاهرة ، فقال أسامة : يامولاي نركب إليهم في سحر ، وما يضحى النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى (١) .

وهذا الاعتراف من أسامة يؤكد أنه اتصل بابن السلار الذي خرج على طاعة الحافظ ، وانضم إلى معسكره في مواجهة الخليفة ووزيره ابن مصال . ويؤكد تورطه في الانحياز لأعداء القصر .

وانتهت المواجهة بين ابن مصال وابن السلار وعباس في دِلاص حيث قتل ابن مصال الوزير وتمكّن ابن السلار من الوزارة يعضده عباس الصنهاجى ابن امرأته وابنه نصر .

وبعد هذا « لم يبق لسيف الدين بن السلار من يعانده ولا يشاقفه » على حد قول أسامة . فولى الوزارة قسراً .

وكان طلائع في هذا الوقت على ولايته بأسوان يرقب الأحداث من بعد ، وأدرك تورط أسامة صديقه مع ابن السلار وعباس في مواجهة الظافر . ولكن مرت الأحداث سراعاً ، ورضى الظافر والقصر بالأمر الواقع ، وخلع الظافر على ابن السلار خلع الوزارة ولقبه الملك العادل . وتولى الأمور (٢) .

(١) الاعتبار ص ٣٠ .

(٢) الاعتبار ص ٣١ .

قال أسامة : « كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كارهة له ، مضمر له الشر ، فعمل على قتله وقرر مع جماعة من صبيان الخالص ( حرس الخليفة ) وغيرهم ممن استألمهم ، وانفق فيهم أن يهجموا داره ، وأن يقتلوه . وكان شهر رمضان ، والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل ، وافتراق أصحاب العادل ، وأتا تلك الليلة عنده » .

قال أسامة ثم إن العادل أحس بمؤامرتهم وظفر بهم ، وهرب بعض هؤلاء إلى دار أسامة ، فقام بتهريبهم . وقد قتل في هذه الواقعة جماعة من المصريين والسودان ويبدو أن جند السلار كان معظمهم من المغاربة والأتراك . وكان معظم جند الخلفاء وحرس القصر من المصريين والسودان .

وفي وزارة ابن السلار قام أسامة ببعض المهام العسكرية ، منها تكليفه بقيادة كتيبة للذهاب إلى الشام ومناصرة نور الدين في حصار طبرية ومناوشة الصليبيين في بيت المقدس لينهض ابن السلار للهجوم على غزة وكانت بأيدي الصليبيين حتى لا يضايقوا عسقلان .

وفصل أسامة أخبار حملته تلك (١) في طريقة من مصر إلى نور الدين ، ولقى نور الدين وأسد الدين شيركوه . ولم يخبرنا ماذا تم .

ولكن يبدو أن نور الدين لم يوافق على خطة ابن السلار في حصار طبرية ، فأزمع أسامة على تنفيذ البديل الذي أوصاه به وهو مناوشة الصليبيين على عسقلان وبها حامية مصرية . قال أسامة : « ولقينا الأفرنج فرددناهم ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قرية من عسقلان » (٢) .

وقام هو وأخوه ، وكان فارساً من عسقلان يريدان الغارة على بيت جبيل وقتالها . قال : « فوصلناها وقتلناهم » .. وفي أثناء العودة — علموا بمحاصرة الأفرنج لعسقلان ، فتقدم أسامة ومن معه وعلم الأفرنج به فداهموه ، وقتلوا من فرقته من قتلوا ، ودافع أسامة وأخوه دفاعاً باسلاً حتى تمكنوا من النجاة . وظل بعسقلان لمحاربة الأفرنج أربعة أشهر يعد الغارات على بلاد الصليبيين المجاورة حتى استدعاه ابن السلار إلى مصر . فعاد وبقي أخوه بعسقلان ،

(١) الاعتبار ص ٣٤—٣٦ .

(٢) الاعتبار ص ٣٩ .

واستشهد في معركة بعد رحيلة . قال عنه : « وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعُبادهم » .

وجاء أسامة إلى مصر ليجد نفسه مرة أخرى متورطاً في فتنه قتل ابن السلار مع عباس الصناجعي وابنه نصر . قال أسامة إن نصر أرتب أمر مقتل ابن السلار مع الظافر وابيه عباس ، ودخل على العادل في بيته فقتله وقطع رأسه وحمله إلى الظافر . وذلك يوم الخميس السادس من المحرم سنة ٥٤٨ هـ .

وتوفي عباس الوزارة . قال أسامة : وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ليصير في الوزارة مكانه ، وواصله بالعطايا الجزيلة .

وحدث ما ذكرناه من قبل في كلامنا عن المؤامرة ، وموقف طلائع وخروج ابن منقذ وعباس ونصر من القاهرة .

وهكذا خرج أسامة من القاهرة مرة أخرى هارباً هذه المرة ، وخائفاً لتورطه مع قتلة الخليفة والأمراء الفاطميين الثلاثة . ونهب الفرنج أمواله ، ولجأ إلى دمشق حيث ملكها نور الدين ، عارياً من ثروته ، وأهله . وكاتب طلائع ليعث إليه بما بقي له في مصر من ثروة مع أهله وولده . ووفى طلائع ، فبعث إلى صاحبه أمواله وأهله في مركب ، إلا أنها عند عبورها أمام ساحل غزة شعر بها الصليبيون فاستولوا عليها ونهبوها .

وكان أسامة في مصر قد امتلك ثروة طائلة ، وخيلاً ، وعبيداً .

ويذكر جانباً من ثروته التي نهبت في الفتنة فيقول :

« فلما خرجنا من باب النصر وصلوا — أي جند الخلافة — إلى الأبواب فأغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، فأخذوا من قاعة دارى أربعين غرارة جمالية مخاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير ، وأخذوا من اصطبلي ستة وثلاثين حصاناً ، وبغلة سرّوجية ، نسبة إلى سروج بديار مِصْر — بسروجها وعدتها كاملة ، وخمسة وعشرين جملاً . وأخذوا من إقطاعي كوم أشفين<sup>(١)</sup> مائتي رأس بقر ، ومائتين والفس شاة ، وأهراء غلة » .

(١) بلدة بالقليوبية .

وكان طلائع كما أشرنا يرغب في عودة ابن منقذ إلى مصر ، فكتب إليه وهو بدمشق يؤمنه ويعدده بالدفاع عنه أمام القصر وأهله . قال ابن منقذ<sup>(١)</sup> :

« وكتب إلى يقول : ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر ، فتصل إلى مكة ، وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تقوى به على محاربة الحبشة ، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين ، وأسير إليك أهلك وأولادك » .

ولكن العادل نور الدين منعه عن تلبية طلب الصالح في العودة إلى مصر قال : « ففاوضتُ الملك العادل ، واستطلعتُ أمره ، فقال : يا فلان ما هددت متي تخلص من مصر وقتها ، تعود إليها ، العمر أقصر من ذلك . أنا أتخذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج ، وأسير من يحضرهم » .

ثم حدث ما حدث من تسيير الصالح له أهله في مركب ، نهبه الصليبيون ، وأخذوا كل ثروته وحلي نساته ، ووصل إليه أهله . وحزن وأسف ولكن نور الدين هون عليه الأمر بسلامة أولاده وأولاد أخيه .

وحز في نفسه ذهاب المال ، وأشد منه ذهاب الكتب فإنها بلغت كما قال أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة<sup>(٢)</sup> . قال : فإن لذهابها حزازة في قلبي ما عشت .

وهكذا مكث بدمشق وطلائع يوالى رسائله إليه ، ولا ندرى هل استجاب لدعواته فقد ذكر علي بن ظافر في البدايه<sup>(٣)</sup> أنه ذهب إلى مصر سنة ٥٥٢ هـ أي بعد مغادرته بثلاث سنوات أو أقل . والتقى في دار طلائع دلو الوزارة بالقاهرة بالشاعر المهذب بن الزبير . وليس في بقية المراجع ما يشير إلى هذه العودة .

وعلى أية حال فإن أسامة بعد أن قضى بدمشق عشر سنين بصحبة نور الدين شعر بوطأة السنين ، وثقل الحياة لبلوغه سنناً متقدمة ، فقد قارب الثمانين فأثر الاعتكاف . وترك القتل والقتال ، ورحل عن دمشق إلى حصن كيفا وهناك خلا للقراءة والتأليف ، مستعيناً بما بالبلد من مكتبات عامرة بالكتب

(١) الاعتبار ص ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨ .

(٣) بدائع البدايه ص

القيمة ، وظلّ كذلك في عزله حتى عودة صلاح الدين إلى دمشق بعد استيلائه على السلطنة بمصر .

واستقبله صلاح الدين وأنس به ، وبشعره . وأعطاه داراً واقطاعاً وكان يستشيرَه مفيداً من خبرته ومعرفة بالصليبيين ، وصحبه بعض الوقت في حله وترحاله . وعاش أسامة بقية حياته بدمشق حتى توفي في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥٨٤ هـ . وقد أرى على التسعين .

## شعره

### موضوعاته :

يغلب على شعر ابن منقذ أحداث حياته وعلاقاته بمن التقى بهم من الحلفاء والأمراء ، والقادة والوزراء ، وبذكر أحداث غربته ورحلاته بالشام ومصر ، وذكره الشكوى من الأيام وما فعلت به ، وثناء أهله والتشوق إلى أصحابه وأحبابه . والوصف والغزل . ويخلو من الهجاء وذكر الشراب والغزل بالذكر . ولعل ما وصلنا من الديوان هو ما تبقى من شعره ، لا كل شعره فقد اختار من شعره في آخر عمره ما يرى أنه مناسبٌ مستبعداً منه كل ما كان من إسراف الشباب وطيش الصبي ، واندفاعاته وثوراته .

وربما كان من شيم أسامة ، وترفعه عن بعض الموضوعات التي تنال من مروءة الإنسان ، وبخاصة مروءة فارس ملتزم ، ربما كان من هذه الشيم ما زجره عن الخوض في مثل تلك الموضوعات التي أكثر منها غيره من الشعراء المحترفين .

### غزله :

ونبدأ حديثنا عن غزله . وهو غزلٌ غير تقليدي في جملة ولا شبه بينه وبين النسيب القديم ، فهو أقرب إلى غزل المحدثين في نظرفه ، وإن كنا نحسّ في بعض أشواقه ، وعباراته الغزلية آثار حبّ قديم ، ولو عا صباة ربما عاناها ردحاً في شبابه أو في مرحلة من مراحل حياته .

وهو في هذا الغزل كثيراً ما يذكر الهجر ، وطيف الخيال ، وملال الحبيب كما نجد فيه رقة الخطاب والحوار ، وجمال أوصافه للحبيب والتدله في حبه

وقاموسه اللغوى فى موضوع الغزل ليس هو نفسه قاموس الغزل التقليدى بل كثيرا ما يدخل عليه عناصر تعبيرية جديدة أو مستجدة ، وإن اعتمدت على أسس تقليدية متداولة بين الشعراء .

ولم يلجأ إلى القوالب المعروفة ، ولا إلى الأشكال المصنوعة المتكلفة بل نراه يعبر عن صدق إحساس ، وعن شخصية ، شخصية الفارس التى ظهرت فى كثير من شعر الحب عند شعراء الفرسان أمثال عنترة والحمدانى أبى فراس . قوة فى الحرب وضعفاً أمام جمال المرأة وأنوثتها إلا أنه ضعف إرادى ، ولا يكون ضعف حيلة وعبث ، ولا تطلباً لرغبة ومنتعة بضرب من التذلل والأذعان . لكنه ضعف إنسانى من فارس مقاتل جرىء فى الحرب ضعيف فى الحب .

وفى غزله أحيانا نلتقى بتحسره على ذهاب العمر ، وذهاب متع الحب بذهاب الشباب . ويغلب هذا على غزله فى مراحل الهرم .

ومن شعره الجيد فى الغزل قوله<sup>(١)</sup> :

أما فى الهوى حاكمٌ يعدلُ	ولا من يكفّ ولا يعدلُ
ولا من يفلُ أسارى الغرامِ ،	والوجد من ثقل ما حملوا
ولا منصفٌ عالمٌ أنه	إذا قال بالظن يستجهلُ
إذا هو لم يدُر ما يلتقى	أخو الوجد من دائه يسألُ
ليعلم أن سَهَامَ العَرامِ	قبل إصابتها تقبَلُ

مساكينُ أهلُ الهوى ما لهم	مُجيرٌ ، ولا لهم مؤئلُ
قتيلهم ما له وإيرُ	ومظلومهم أبداً يُخدَلُ
وإعلانهم للهوى فاضحُ	قتولٌ ، وكتائبهم أقبَلُ
وإن جعلوا الحبَّ خوفَ الوشَا	قِ أقرتْ به أدمعُ تهملُ

إلى أن يقول :

بنفسى مُستَهترٌ بالصلو	د ، حَازَّ الجمال ، ولا يَجْمَلُ
------------------------	----------------------------------

(١) ديوانه ص ٣٤ .

جنونى به أند رائد  
بخيل على مقنتى بالرقا  
وماضى غرامى مستقبل  
د، ونست عليه بها أبخل

ويقول مظهراً آثار العمر في علاقة الحب وكان بلغ السبعين (١) :

سُبْحَانَ باري سهام من الواحظِهِ  
إذا رَمِينَ فَمَا دُونَ القلوبِ وَإِنْ  
كانت وليل الصبى تُخْفِي دِيارَهُ  
أَعْصِي النَّصِيحَةَ فِيهَا غَيْرَ مُعْتَدِرِ  
وأحمل الضغنَ في وجدى بها وأرى  
حتى إذا نادى السبعينَ حَسِبْتُ مِنْ

من الملاحه، لا من أسهم القرب  
حُرْمِنَ مِنْ جُنَّتِنِ تَحِيْمِي وَلَا حُجْبِ  
عَنِّي سَبِيلِ التُّهْمِي، والرشد من أربي  
وَأَرْكَبُ الغيَّ عَمْدًا، غير مُتَّكِبِ  
خَمَلِ الهوى من وقار الجليم أجدر بي  
تعليل قلبك بالأمال والكذب

لقد شعر الرجل بأن الحب وأحلامه وآلامه، وتعذيبه، ولذته وآثامه كل أولئك قد انصرف عنه وهو يخطو في السبعين، فعاد يسترجع ذكرياته، ويعود بخياله بعد أن عصته قدراته إلى مجالى الصبا ونشاطه.

وهو الفارس المحارب، المصارع للأسود، لا يخشى بأسها، ويهاب الحبيب :

وكذا الصبِّ فَخَسُنُ الجورُ في الحُبِّ  
لا يهابُ الأَسودَ في حومة الحَبِّ  
ويجازى عن النفار من الأحبا  
يا مليح القوام عَطْفًا فقد يعط  
لك قلب أقسى علينا من الصَّخِّ  
ويُحَكِّمُ العيُّوُ تَحَكُّمُ الحَا

سبُّ لديه، ويعذبُ التعذيبُ  
سرب، ويقتاذه الغزال الريبُ  
بِ بالقربِ إِنْ ذا العَجيبُ  
سَف من لينة القَضيبُ الرُّطيبُ  
سرى، وما هكذا تكون القلوبُ  
ظَلَّكَ في قَلْبِنَا، وَأَنْتَ الحبيبُ !!

ومع ميله إلى التجديد في حديث الغزل إلا أنه لا يفلت كما أشرنا من الصيغ المتداولة في خطاب الغزلين ممن سبق من الشعراء، والآلفاظ والتشبيهات هي هي أحياناً. يقول :

غصنٌ ودعصٌ، فالعُصْنُ من  
شمسٍ وليلٍ، فاعجب لشمس ضحى

هَيْفَ يَمِيسُ لِينًا، والدَّعْصُ مرتجٌ  
تُشْرِفُ، والليل رَاكِدٌ يَدْجُو

رحيق ريق عذب، فقى كيدى منه سعيّر، وفي فبى تلج  
في وجهها كعبة الجمال للعـ سبي إلى حُسن وجهها حج

فالمفردات هنا معروفة ، متكررة ، ولكن في الصياغة والتركيب ، يبدو  
خارجاً على المألوف في قوالب التشبيه ، وفي تشبيهه في البيت الرابع عوداً إلى  
تشبيهات في المعنى مررنا بها عند بعض شعراء مصر في القرن الماضي . وما  
يتصرف فيه تصرفاً حسناً من قوالب التعبير التقليدية قوله :

نفسى فذت بذر تمام، إذا عاتنسى بالجد أو بالمزاح  
سدت بالتقييل فاه على يسلك وذر، وعقيق وراخ  
كذلك قوله :

مُهْفَهْفَ صَحَّتْ عَلَى سَقْمِهَا جَفَوْنَهُ فِيهِ مَرَضٌ صِيحَاخُ  
لَطْرَفِي فَتَكَّةَ بِيضِ الظُّبَا وَقَدِهِ هِزَّةَ سُمْرِ الرِّبَاخِ  
شَمْسٌ نَهَارٍ تَرْتَدِي بِالذُّجَى غَصْنٌ بِرَاحٍ، فَوْقَ رِدْفِ رِدَاخِ  
طَافَ عَلَيْنَا وَالذُّجَى رَاكِدٌ يُظَلُّنَا مِنْ جُنْحِهِ بِالْجِنَاخِ

ويقول ويذكرنا بأبيات سبقت لتمام بن المعز (١) :

عقائل الحى أم سرب المها سححا أفسدن ما كان بالسلوان قد صلحا  
برزن كالبان في الكثبان حاملة شمساً أضاءت، وليلاً راكداً جناحا  
فاقتدن بالحب من أعطى مقادته طوعاً، ورُضن بحسن الدل من جمحا  
من كل غيداء بكسالي إذا انتهت تنفست عن نسيم الروضي إذ نفحا  
كانت منى النفس لولاً وأعظ لسن للشيب أسمعني، ناهيه إذ نصحا

فقاموس الغزل المعروف من أسماء وأفعال تتردد ها هنا بصورة أو بأخرى ،  
ويصوغها كما أشرنا صياغة يتنوع ويتفوق فيها ، كفعل المحدثين الحضريين .  
ولكن آثار الصنعة، والتقليد في غزل أسامة لا يقللان من صدق أحاسيسه  
وبخاصة عندما يتطرق للفرقة والهجران ، والرحيل ، كأن يقول :

(١) يقول تمام : « أسرب مها عن أم سرب جته » .



حَتَّى تَمَّ أَرْغَبُ فِي مَوْدَةٍ زَاهِدٍ  
وَالْإِمَّ التَّزِمُ الْوَفَاءَ لِعَادِرٍ  
وَعَلَامَ أَعْمَلُ فِكْرَتِي فِي سَادِرٍ  
وَأَرَوْضُ نَفْسِي فِي رِضَا مُتَجَرِّمٍ  
وَأَقُولُ هَجْرَتَهُ مَخَافَةَ كَاشِحٍ  
وَأُظَنُّ يَدِي الصَّدُودَ ضَرُورَةَ  
مَنْ لِي بِنَيْلِ مَوْدَةٍ مَمْدُوقَةٍ  
أَرْضَى بِبَاطِلِهَا ، وَأَقْعُ بِالْمُنَى  
يَا ظَالِمًا أَفْتَى اصْطِبَارِي هَجْرَهُ  
كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى وَصَالِكَ بَعْدَمَا  
وَيَلُومُنِي فِي حَمَلِ ظَلْمِكَ جَاهِلٍ

وَأُرُومُ قَرَبِ النَّارِ مِنْ مَتَابَعِيدٍ  
وَأُقِرُّ بِالْعُتْبَى لِحَانِ جَاحِدٍ  
سَاهٍ ، وَأَسْهَرُ مُقَلَّتِي لِرَاقِدٍ  
فَأَنْتَ مَوْدَتُهُ جِلَابُ النَّاشِدِ  
يُقْرِئُ بِنَا ، وَحِذَارُ وَاشِ حَاسِدِ  
فَإِذَا قَطِيعَتُهُ قَطِيعَةَ عَامِدِ  
مَنْهُ يَبْهَرُجُهَا اخْتِبَارُ النَّاقِدِ  
مِنْهَا ، وَأُدْفَعُ غَيْبَهَا بِالشَّاهِدِ  
وَابْتِزُّ ثَوْبَ تَمَاسِكِي وَتَجَالِدِي  
عَفِيَّتْ بِالهَجْرَانِ سَبْلَ مَقَاصِدِي  
يَلْقَى جَوَى قَلْبِي بِقَلْبِ بَارِدِ

هذا الخطاب الحوارى ، يحاور فيه نفسه ، ومحبوبه فى الهوى وما يلقاه ،  
والحبيب وما يعامله به من جفاء ، وهجران ، فيه رقة ، وعذوبة ، وخروج  
على النمط السردى فى الصياغة ، وفيه من المعانى والتجديد ما فيه ، كما لا يحرمه  
من ملححة البديع ، وحليته ، فيأتى شية حسنة تزين الحديث ، فيكسب التقابل  
والطباق معانيه حلوة ، كما يكسبها الجنس جرساً ، والأبنية المتقابلة ايقاعاً  
محبياً

ولأسامة فى شعره الغزل تفنن فى الجرس والإيقاع يكسبه مذاقاً خاصاً وتراه  
يتبع غيره من شعراء العصر فى هذا الوزن والجرس الذى يسود فيه صوت التون  
برئاته وأثاته ، وكأنه وترٌ يحرك ، أو رقى يدق . يقول (١) :

مُحِبًّا مَا أَرَى أُمَّ بَدْرُ دَجِنِ  
وَتَغْرُ أُمَّ سَنَانِ رَكْبُوهُ  
وَأَيْنَ مِنَ الظُّبَا الْحَاظُ ظَنِي  
وَبَارِقُ مَيْسِمِ أُمِّ بَرْقِ مُزِنِ  
بِأَسْمَرٍ مِنْ بِنَاتِ الحِطَّا لَدُنِي  
تُنَابِي عَنْ سُلُوى بِالشُّنِي

فِيَا مَنْ مِنْهُ قَلْبِي فِي سَعِيرِ  
حَبَاكَ هَدَاى مِئِي مُحْضٍ وَدِ  
وَعَيْنِي مِنْهُ فِي جَنَابِ عَدِنِ  
تَنْزَرُهُ عَنْ مُدَاجَاةٍ وَضِعْنِي

(١) ديوانه ص ٤٦ .

ومن مفردات معانيه في الغزل التي أكثر منها حديث الطيف ، وخيال المحبوبة فهو يشارك سابقيه البحترى والتهامى في هذا الحدث . يقول (١) :

ياويحه من جوى يغدر عليه ومن      جوى يروح ، إذا ليل الهموم دجا  
أفدى خيالاً سرى ليلاً فاشرقت      الدنيا بأنواره ، والصبح ما انبلجا  
عجبت منه تخطى الهول معترضاً      أرض العدى ووشاة الحى ، كيف نجيا؟  
وقوله (٢) :

لا غرو أن هجر الخيال الزائر      ما يستزير الطيف طرف ساهر  
دون الكرى خطرات هم ذذته      عن ناظرى فهو النوار الناير  
لا سورة الصباء تصرفه ولا      يلهى فوادى حين يطرق سائر  
ومن مفرداته قبله الوداع ، وهى من معانى الغزل عند تميم . يقول أسامة :

نفسى الفداء لمن قبلته عجلأ      والبين يعجب من وجدى ومن عجلأ  
فمال عنى بفيه ثم عرض لى      تحدا جرى فيه ماء الحسن والحجل  
فأخضلت أدمعى توريد وجنته      فزاد إشراق ذلك الورد بالعلل  
فارتاع من حر أنفاسى وحرقة      أحشائى ، ونهى فاه العذب بالقبل  
ورابه ما رأى من روعتى ، فبكى      وقال : لا كان ذا توديع مرنجل

وتحدث الشعراء من قبل عن دمعة الفراق التي تسقط على الخد ، واقتوا فيها ونذكر أقوالاً في ذلك لأبى تمام والمنتبى خاصة ، إلا أن صياغة هذين الشعارين بما فيها من رصانة وجزالة بناء ، قللت من رقة الحديث ، وإن اكسبت الكلام روعة كأن يقول المنتبى :

في الخد أن عزم الخليط رحيلاً      مطر تزيد به الخلود محولا  
أو قوله :

وقد صارت الأجفان قرحى من البكا      وصار بهاراً فى الخلود الشقائق  
ويقول أبو تمام :

(١) ديوانه ص ٥٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٨ .

وأجرى لها الاشفاق دمعاً مورداً من الدّم يَجْرِي فوق خدّ مورداً

وقوله المشهور :

أظن دموعها ستُنُ الفريد لها من لوعةِ البين التدام  
وهي نيلكاه من نحرٍ وجيد يُعيدُ بنفسجاً ورْدَ الخُلودِ

ومعانيه وصوره في رحلة الحبيب تقليدية في إطارها العام ، وإن غير في التعبير وتراكيب اللفظ . كأن يقول :

سأزوا بقلبٍ أسيرهمُ بعدهم غاضتْ دموعي في المنازلِ وارَعوى  
مُتَلدِّدٍ، فهو المقيمُ السائرِ صبري، وراجعي الرقادِ النَّافرِ

ومنها خطاب المطي (١) :

يا ناقَ شطّطِ دارهمُ فجنّني ما أرزمتَ وهنّا لِفَقْدِ إلفها  
تذكرتُ ألفتها فهُجِجتُ أبكى اشتياقاً، وتحنُّ وحشةً  
حسبك قد طال الأنينُ والأسى ولا تملئ من تسييرٍ وسُرّي  
أعْلِنِي الوَجْدَ الذي تُجنّني إلّا رمتَ جوارحي بوهنٍ  
لا عَجَّ شوقِي وذكرتُ بخذني فقد شجاني حُزْنُها وحُزْنِي  
وما أرى طولَ الحنينِ يُغني في مهمّةٍ سهلٍ ووَعْرِ حُزْنٍ  
سقى الحمى والبانَ صوبَ المزنِ حتى تُتأخّي تحت باناتِ الحمى

ومن معانيه التقليدية الوقوف بالديار :

فاضت دموعي في المنازلِ وارَعوى إن لم أسعّ بها سحائب أدمع  
صبري، وراجعي الرقادِ النَّافرِ ينجابُ خشيتها الغمامِ الباكِرِ  
وسحابُ دمعِي مستهلّ ماطرٍ إلى إذا بشنونٍ ذمعيّ باخِلِ  
وبعهد من سكن المنازلِ غادرُ

فالمضمون تقليدي لكن التشكيل بتصريف من الشاعر ، وقد أدخل هذا التشكيل اللفظي على المعنى عناصر مستحدثة ، وإن ظل المعنى الأساسي قائماً .

(١) ديوانه ص ١٠١ .

ويصور رحلة الطعائين عن البيوت فيحور في المعاني التقليدية والصيغات التي توارد عليها الشعراء فيقول (١) :

هذا وقوفك للوداع وهذه  
فاستبقي دمعك فهو أول خاذل  
مدد الدموع يُقل من أمد التوى  
ليت المطايا ما تُخلِقن فكم دم  
ما مات صبب إثر إلف نازح  
فلو استطعت أبحث سببى سوقها  
لو أن كل العيسى ناقة صالح  
ما حتف أنفسنا سواها إنها  
أطعان من تهوى، وتلك دياره  
بعد الفراق، وإن طما تياره  
إن لم يكن من لجة تماره  
سفكته يثقل غيرها أوزاره  
وجذابه إلا لذيها ثاره  
حتى يعاف دماءهن غراره  
ما ساعى أنى الغداة قداره (٢)  
لهى الحمام أتيح أو إنذاره

ونرى كيف دار مع المعنى العمودي أو الأساس دورة ، نأى بها عن صورته الأولى التي تردت في أشعار السابقين ، والتي تقصد إلى المباشرة في السرد . أو هو حاول التجديد في العرض مع الحفاظ على نواة المعنى .

وهكذا كان كثير من المحدثين في القرنين السابقين الرابع والخامس ممن لم يتخلصوا تماماً من أسر المعاني الشعرية التقليدية .

وندع هذا الحديث عن المنازل والرحيل أو الأطلعان ، والبكاء على البيوت ، أو البكاء للفراق من الشاعر أو صاحبه ، ندع هذا إلى ما وظفه الشاعر من عناصر الأحياء والجماد كالطير لمعانيه الغزلية ، أو معاني النسيب ونعرف أن بسع أثر الطير الحمام ، نجاه الشعراء وحاوروه بأسمائه ، من مطوقة وهديل .. وهذا صاحبنا يذكر بكاء الحمام لبكائه :

تبكى لأثيك الحمام، وطالما  
هأج الجوى لأخى الهوى تُقرئده  
ويقول (٣) :

بالوعنا لطائر ناج على  
أظفئه فارق الأفا، كما

(١) ديوانه ص ٧٠ .

(٢) قلار هو اسم الرجل من عمرد الذي عقر الناقة .

(٣) ديوانه ص ٦٧ .

وما عَلِمْتُ نَاحَ حُزْنًا أَمْ شَدَا  
إِذَا رَأَى عَلَى الْحَنِينِ مُسْعِدًا

أدعى جرحاً حاداً بقلبي للنوى  
لكن يبيح للحزين بثه

ويقول (١) :

عَلَى غَضْنٍ فِي غَيْضَةٍ يَتَرْتَمُ  
دُمُوعٌ ففَاضَتْ أَدْمَعِي مَرْجُهَا دَمٌ  
ووجدتُ فإني في البكاء مُتَمِّمٌ (٢)

وهاج لي الشوق القديم حمامة  
دعت شجوها مخزنة لم تفيض لها  
فقلت لها إن كنت خنساء لوعة

ويقول وقد دعاها ورقاء :

ورقاء ما دأ بها قضيبٌ مُورِقٌ  
شوق القلوب كأعجمي ينطق  
ودموعها حبيست ودمعي مُطلقٌ

ويهيئني بعد اندمال صبابتي  
عجماء تنطق بالحنين ولم يهج  
لي ما بها لكن كتمت، وأعلنت

ومن عناصره التعبيرية من الطبيعة « البرق » . في نار الجوى ، والمطر  
للدمع :

وإذا السحاب سرى فنارُ بُروقِهِ  
من زَفَرَتِي ومياهه من أدمعي  
شعر المارك والجهاد :

وقد استغرق كثيرا من قوله ، وغلب على ديوانه ، ويدخل فيه مديح قادة  
عصره وفرسانه ممن أبلوا بلاء حسنا في جهاد الصليبيين من أمثال العادل بن  
رزيك ، ونور الدين محمود ، ومعين الدين أنر .

وفي مديحه لهؤلاء القادة يشيد بمحاربتهم للفرنج ، ومواجهة قادة الصليبيين  
وفرسانهم من استتارية وداوية ، ونتائج المارك من أسر لبعضهم أو قتلهم  
البعض الآخر واستشهاد جند المسلمين وبعض قادتهم في سبيل الله ، وما  
سيُجزون عليه من جنة النعيم في الآخرة .

من ذلك هذه القصيدة الميمية التي تجمع بين مديحه للصلاح وفخره بنفسه  
وأفعاله وجهاده . يقول فيها (٣) :

(١) بمعنى الشاعرة الخنساء التي بكت أخاها صخرأ . ومتمم بن نورة الذي اشتهر بكاء أخيه مالك .  
(٢) ديوانه ص ١٩٥ .

للصالح الملك الميمون طائره

يقول فيه :

مغامرٌ ترهبُ الأجالَ سَطَوته  
يستقبلُ الحربَ بِسَامَا، وقد كَشَرَتْ  
يَلقى الألوْفَ، ويحبوها، ففي يده  
ما غرَمَ بَصُدوقِ الظنِّ يخبِرهُ الرِّ  
يرى الضَّعَّائِنَ في قلبِ الحَسودِ له  
فإن سَطَا عن يقين، أو عفا كراماً  
أدناكمُ فاعتليتمُ عن ذوى رَجَمِ  
وعمكمُ سيبُ جودٍ منه نَبهُ ذا الحُمولِ  
كم غَمَّةٍ كَشَفَتْ عنكم صوارمُهُ  
لولاةُ ما زالَ عنكم طَلَّةُ أبدأ  
يامالكا مالكا رفقى بأنعميه  
ما الشُّكْرُ كَفءٌ لما أوليتُ من نعمِ  
وإن أكن كزهيرٍ في الثناء، فقد  
وإن تكنُ مِدْحى وقفاً عليك فلا  
ففى يمينكُ منى صارمُ نخيمِ  
في حده حَتَفَ من ناداك وهو لمن  
فمرُ بما شئتُ منى، تلقى ممثلاً  
بجرباً طاعتى الأجرِيبَ مُختبرِ  
فبذلَ نفسى عندى فى رضاكُ فلا  
صرفتُ صرفَ الليالى دونَ غشمهمُ  
وأوصلتُهم بصلاتٍ من نَدالكِ إلى

بجديه طوق من غير متقصم

وتفرق الأسدُ منه فى حمى الأجمِ  
بها المنيةُ عن أنيابها الأرمِ (١)  
من العطا والسطا بجرا ندى ودمِ  
أى الصَّحيحُ بما فى الصِّد من سقمِ  
تدبُّ مثل ديبِ النارِ فى الفحيمِ  
فإنه خيرُ ذى عفوٍ ومُنْتَقِمِ  
وحاطكمُ فاعتديتمُ منه فى حرمِ  
منكم، وأغنى كل ذى عَدَمِ  
ولم يزل كاشفَ اللأواءِ والغَمِّ (٢)  
عَلِمْتُمُ كيف تاتى فجاةُ النقمِ  
وملكُ مثل لا يبتاغُ بالقيمِ  
وإن تسهَّلَ لى مُستوعرُ الكلمِ  
عَلَوْتُ مجداً، وجوداً عن مدى هَرَمِ  
تظنُّ أن ثنائى مُنتهى هِمَمِ  
يقرى إذا كل الصَّارمِ الخديمِ  
والاك منبجسٍ بالباردِ الشَّيمِ  
بهمَّةٍ ما اعتورتها فترةُ الهممِ  
إن التجاربَ تجلو شبهةَ التهمِ  
حُرْمَتُهُ، بعضُ ما أتويه من خديمسى  
أو كَفَ بأسكُ عنهمُ كَفَ مُهْتَضِمِ  
أرضِ الشَّامِ، لقد أغربت فى الكرمِ

وفى هذه الأبيات يعدد أسامة ما اسدى إليه صديقه ابن رزيك من الأيادى وكان أمها عنده وأستأها حفاظه على أسرته بعد فراره ، وحماتها وأمواله من

(١) الأرم : الفاتكة للمهلكة .

(٢) اللأواء : الشقة .

أن يبطش بها أعداؤه من اتباع قصر خلافة الذين تهموه بالاشتراك مع عباس وابنه ، وإرساله أهله وولده مع ما له إليه في مركب إلى الشام .

ويصف رسائله الشعرية والنثرية التي بعث بها إليه فيقول :

لله جرٌّ طروس ضُننْت دُررًا  
أضحَتْ على مفرقي تاجاً وفي عُقبِي  
لفظ أرق من الشكوى والطف من  
جرث لطائفه في قلب ساميه  
فصاحة سَمَعَتْ من كان ذا صَمَمٍ  
ووشى خَطَ حكي زهر الربيع وَشَتْ  
أكرمٌ بمشترٍ منها ومُنْتَظِمٍ  
تميمة من عواذِي الخطبِ والعَمِيمِ  
عُتْبِي ، وأشهى من الإبلال في الأَلَمِ  
مُجْرِي الهوى من فؤادِ العارِمِ السَلِيمِ (١)  
وحسنٌ معنَى أفادَ الفهمُ ذا اللَمَمِ  
أكأنه عن بديع اللفظ والحكَمِ

ومما كتبه مجابواً للصالح في قصيدته الطويلة :

أبى الله إلا أن يدين لنا الدهر ويخدمنا في ملكنا العز والنصر

وذكر فيها وقائعه وسراياه إلى الأفرنج وتسييره الجيوش ، فاطلع عليها العادل نور الدين محمود ، وطلب إليه — إلى أسامة أن يجاوبه مبيناً ما شارك به في حرب الصليبيين فكتب يقول :

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر  
وتخدمنا الأيام فيما نرؤمه  
وتخضع أعناق الملوك لعزنا  
بحيث حللنا الأمن من كل حادث  
بطاعتنا لله أصبح طوعنا الأ  
فأيماننا في السلم سحِب مواهب  
قضت في بنى الدنيا قضاء زمانها  
وما في ملوك المسلمين مجاهد  
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا  
دماء العدا أشهى من الراح عندنا  
لتحيا بنا الدنيا، ويفتخر العصر  
ويتقاد طوعاً في أزمنا الدهر  
ويُرهبها منا على بعدنا الذكر  
وفي سائر الآفاق من بأسنا دَعْرُ  
نأم، فما يُعصِي لنا فيهم أمر  
وفي الحرب سحِبَ وَبَلَّهَن دَمَ هَمْرٍ  
فسير بها شطر، وسيء بها شطر  
سوانا، فما يشيه حر ولا قر (٢)  
ولم يَلْهِنَا عنه السماع ولا الخمر  
ووقع المواضي فيهم الناي والوتر

(١) السليم : المهموم .

(٢) ينقل هذا على لسان نور الدين محمود .

نُواصلهم وصل الخبيب وهم عدا  
 وفي سجننا ابن الفئس خير ملوكهم  
 أسرناه من حصن العريمة راغما  
 وسل عنهم الزاوي بإقليس إنه  
 هم انتشروا فيه لرد رعلنا  
 ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن  
 وكان يظن الغر أننا نبيعه  
 فلما استبحنا ملكه وبلادته  
 كحلناه نغى الأجر في فعلنا به  
 ونحن كسرنا البغدوين<sup>(١)</sup> وما يمن  
 فسئل اللعين الخائن الذي  
 وقد ضاقت الدنيا عليه يرحبها  
 أفي غدره بالخيل بعدا يمينه  
 دعتة إلى نكت اليمين وغدره  
 وقد كان لون الخيل شتى فأصبحت  
 توهم عجزا حلما وأباتنا  
 فلما تمادى غيه وضلاله  
 وسرنا إليه حين هاب لقاءنا  
 وثير حشايانا السروج وقمصنا  
 ترى الأرض مثل الأفق وهي نجومه  
 وهم الملوك البيض والسمر كالدمى  
 صوارمنا حمر المضارب من دم  
 نسير إلى الأعداء والطير فوقنا  
 فباس يذوب الصخر من حر ناره  
 وجيش إذا لاقوا العدو ظنتهم  
 ترى كل شهيم في الوغى مثل سهيمه  
 هم الأسد من بيض الصوارم وألقنا

(١) هو بلدين أحد ملوك بيت المقدس الصليبيين .

(٢) يقصد بالأدم والغر الطباء وهي من صيد الأسود .

زيارتهم ينحط عنا بها الوزر  
 وإن لم يكن خير لديهم ولا بر  
 وقد قلت فرسانه فهم جزر  
 إلى اليوم فيه من دمائهم غدر  
 فمن ثربه يوم المعاد لهم نشر  
 ليخشى من الأيام نائبة تعرفو  
 بمال، وكم ظن به يهلك الغر  
 ولم يثق مأل يستباح ولا تغر  
 وفي مثل ما قد ناله يحرز الأجر  
 كسرناه إبلا يرعى ولا خير  
 له الغدر دين: ما به صنع الغدر،  
 فلم يتجه بر، ولم يحمه بحر  
 بإنجيله بين الأنام له غدر  
 بدمته النفس الخنيسة والمكر  
 تعاد إلينا وهي من دمهم حمر  
 وما العجز إلا ما أقي الجاهل الغر  
 ولم يشه عن جهله النهي والرجر  
 وبان له من بأسنا البوس والشر  
 الدروع، ومنصوب الخيام لنا قصر  
 وإن حسنتها عزها الأنجم الزهر  
 وهمتنا البيض الصوارم والسمر  
 قوائمها من جودنا نضرة خضر  
 لها القوت من أعدائنا، ولنا النصر  
 ولطف له بالماء ينبجس الصخر  
 أسود الشرى عنت لها الأدم والغر<sup>(٢)</sup>  
 نفوذا، فما يشبه خوف ولا كثر  
 لهم في الوغى الناب الحديد والظفر



يرون لهم في القتل لحدا فكيف باللقـ  
 إذا نُسبوا كانوا جميعا بنى أب  
 يظنون أن الكفر عصيان أمرنا  
 لنا منهم إقدامهم وولاؤهم  
 بنا أيّد الإسلام، وازداد عِزّة  
 قتلنا البريس حين سار بجهله  
 ولم يبق إلا من أسرتنا وكيف بالبقـ  
 فولى يبارى عاترات سيهنا  
 ونحلى لنا فرسانه ونحائه  
 وما تنثنى عنه أسنة خيلنا  
 إلى أن يزور الجوسلين مساهما  
 وترتجع القدس المطهر منهم  
 إذا استغلقت شمم الحصون فعندنا  
 وإن بلد عز الملوك مرأه  
 وأضحى عليه للسهم وللظبا  
 بنا استرجع الله البلاد وأمن العباد،  
 فتحنا الرهاحين استباح عدائنا  
 جعلنا طلا الفرسان أعماد بيضنا  
 ونحن افتحننا تلّ باشير بعدها  
 أتى ساكنوها بالمفاتيح طاعة  
 وما كل ملك قادر ذو مهابة  
 وتل عزازي صبحته جيوشنا  
 وملنا إلى برج الرصاص (١) وإنه  
 وأضحت لانطاكية حارم شجى  
 وحصن كفرلاتنا، وهاب، تدانيا  
 وفي حصن باسوطا، وقورص ذلك الصعـ  
 وفامية والبارة استنقذتها

ساء لقوم قتلهم عندهم عمر  
 فطعنهم شزر وضربهم هير  
 فما عندهم يوما لإنعامنا كفر  
 ومنا لهم إكرامهم والندى العمر  
 ودل لنا من بعد عزته الكفر  
 تحف به الفرسان والعسكر المجر  
 ساء لمن أختت عليه الظبا البتر  
 وفي سمعه من وقع أسيفنا وفر  
 فشطّر له قتل، وشطر له أسر  
 ولو طار في أفق السماء به التسر  
 له في دياج، ما ليلتها فجر  
 فلم يبق منها في ممالكهم شير  
 مفاتيحها بيض مضاربها خمر  
 ورمناه، ذل الصعب واستسهل الوغر  
 ووقع المذاكي الرعد والبرق والقطر  
 فلا خوف عليهم ولا قهر  
 جماها، وسنى ملكها لهم الختر  
 وملكتنا أبقارها الفتكة البكر  
 وقد عجزت عنه الأكاسرة العر  
 إلينا، ومسراهم إلى بابنا شهر  
 ولا كل ساع يستتب له الأمر  
 فلم تحمه عنه الرجال ولا الجدر  
 لكا لسد، لكن الرصاص له قطر  
 وفيها لها والساكين بها حصر  
 لنا، وذراها للأنوق به وكتر (٢)  
 لناهمة من دونها الفرع والعفر (٣)

(١) مكان بالشام .

(٢) لأنوق : العقاب طير جارح .

(٣) يقصد بالفرع الدلو، والفر منزل من منازل القمر هو والدلو .

ويمضى في ذكر المواقع التي نازل فيها زنكى وأبناؤه والعدل نور الدين  
خاصة الفرنج وأجلاهم عن أرض الشام التي ملكوها عنوة . حتى يقول :

رددنا على أهل الشام رباعهم وأملأكمهم ، فارتاح عنها بها الفقير  
وجاءتهم من بعد بأس وفاقه وقد مسهم من فقدوها البؤس والضر  
ومر عليها الدهر والكفر حاكم عليها ، وعمر من بعده عمر  
فنالهم من عودها الخير والعنى كما نالنا من ردها الأجر والشكر

فهذه ملحمة من ملاحم الإسلام الكبرى صاغها الشاعر الفارس مشيداً  
بأعمال نور الدين زنكى على لسان ابنه المجاهد نور الدين ليرد على طلائع اتهامه  
بأنه يهادن الصليبيين وهم لا يؤتمنون على ذمة ولا هدنة .

والقصيدة طويلة تظهر تمكن أسامة وشاعريته ، وقد اختار لها إيقاعاً متدفقاً  
حماسياً ، جعل روية الرأى المضمومة وسبأها السكون ، فتجاوبت القافية  
صوتاً مع إيقاع الأبيات الحماسي .

وهذه الملحمة تسجيل شعري لكثير من معارك الشام المشهورة التي خاضها  
عماد الدين زنكى وأبناؤه لتحرير الشام من مستعمرات الصليبيين ، وقلاعهم  
وحصونهم المنيعه ، التي استقروا بها وضايقوا المسلمين ردحاً من الزمان .  
وكان أول ما حرر على ما نعرف الرها وتلتها أماكن كثيرة .

هذه أمثلة من شعره في الفخر ووصف المعارك تتكرر في ديوانه وتستغرق  
جانباً من شعره الذي اختاره لنا . ويمثل هذا الشعر مع رصيفه من شعر طلائع  
جانباً مشرقاً من شعر الجهاد الإسلامي في القرن السادس .

شعره في الغربة والاعتراب :

ومن جيد شعره ما قاله في الغربة والاعتراب ، وقد عرفنا أنه تنقل من بلده  
وجاب بلاد الجزيرة والشام ومصر . ويقول من قصيدة له في التشوق إلى مصر  
بعد غربته عنها وقد قضى فيها ما يقرب من عشر سنين (١) :

وزورة الطيف سرى من مصر  
كم خاض بحراً وفلاً كبحر

ما هاج هذا الشوق غير الذكر  
من بعد طول جفوة وهجر

(١) ديوانه ص ١٧ .

حتى أتى ثلاثاً في قفر  
 حتى اغتدين كهلال الشهر  
 كأنه مُهَنَّد ذو أنسر  
 للجدِّ يسعَى، لا لكسب الوفر  
 ما كان إلا غرة في الدهر  
 وغاية المنية أم عمرو  
 بعيدة القرط، هضم الحضر  
 تفعل بالألباب ففعل الخمر  
 كأنه لالء في نحس  
 تنفست عن مثل رياء الزهر

بحويه الليل حليف الذعر  
 قد انطوين من سرى وضمر  
 يحملن كل ماجد كالصقر  
 بعيد مهوى همة وذكر  
 وإهاً له من زمن وعمر  
 إذ الصبا عند التصالي عذرى  
 غراء أبهى من ليالي البدر  
 أحسن من شمس بغب قطر  
 تبسم عن مثل نظيم الدر  
 إذا اثنت قبل نهوض الفجر

ويقول في نشوقه إلى طلائع واصدقائه بمصر (١) :

عن العيش والأيام لا تبعدوا سُحُطَ  
 غريق بحارٍ ما للجتها شَطُ  
 جوى الشوق لولأن تداركه الضبط  
 إياب، فقد طال التفرق والشحط  
 لكل فراقٍ من مدامعه قسُطُ

أيا ساكني مصر رضانا لبعدم  
 إذا عن ذكراكم ظلمت كأنني  
 وألزم كفى صدغ قلب أطاره  
 فهل لي إليكم أو لكم بعد بعديكم  
 أراكم على بعد الديار بناظر

ويقول للصالح (٢) :

حتى غدت بين دارينا نوى قدف  
 بل من ثدائى، وعنه القلب منصرف  
 لم تصيب الدار، لكن أصقبت الكلف  
 وأبعد البعد بين الجيرة الشنف  
 أن ليس لي عوض عنكم ولا خلف  
 يعوضني من نفيس الجوهـر الصدف  
 كل الورى لرزايا دهرهم هدف  
 رأث فوادى من روعاتها يحف

رأى الحسود تدانى ودنا فسقى  
 وما البعيد الذى تنأى الديار به  
 أجيرة القلب، والفسطاط دارهم  
 أوفى التدانى الهوى، والدار نازحة  
 فارقتكم مكرها، والقلب يخبرني  
 ولو تعوضني الدنيا غينت وهل  
 ولسبت أنكر ما يأتي الزمان به  
 كم فاجأتني الليالي بالخطوب فما

(١) ديوانه ص ٨٠ .

(٢) ديوانه ص ٨٥ .

واسترجعت ما أغارث من مواهبها فما هفا بي على اثاره المهف  
وما أسيفت لأمر فات مطلبه لكن لفرقة من فارقه الأسف  
ويشتاق لأصدقائه بالقاهرة والفسطاط غير طلائع ، مثل القاضي الرشيد بن  
الزبير وأخيه المهذب .

وعند ذهابه لمصر يتشوق إلى صديقه وجاره بالموصل نقيب الطالبين  
فيقول (١) :

ضياء الدين، ما شوق دَعَانِي	فأسمعني بمصر من العراق
بمحدود فأشرحه ولا في	قوى الأقلام تسطير اشتياقي
ولكنني سأرجعه وأرجو	مشافهتي به، عند التلاق
إذا ما كنت جارك ذا اشتياقي	إليك فكيف لي بعد الفراق

وكان القاضي الرشيد كتب إليه من مصر مشتاقا أبياتا يقول في أولها :

أحبابنا ما مصر بعدكم مصر	ولكنها قفر، إليكم بها فقر
وإن تخل يوماً بقعة من شخوضكم	فلم يخل يوماً من مودتكم صدر

فكتب إليه ابن منقذ (٢) :

تذكره أحبابه الأنجم الزهر	فياويحه ماذا به صنع الذكر
هم مثلها: بعداً، ونسورا، ورفعة	ولكن لها، إذ شبهت بهم الفجر
وقد كنت أشكوهم في دؤوهم	فمن لي لو دام التداني لا الهجر
سقى مصر جود الصالح الملك إنه	هو الوايل المحيي البرية لا القطر
ففيها كرام. أسعروا بجوانحي	يبعدهم جراً، به يحرق الجمر
ومن عادتي الصبر الجميل وليس لي	علي بعدهم لا در در النوى صبر
إذا ما أمين الدين عن اذكاره	ذهلت كأتى خامرت لبي الخمر
يذكرنيه الفاضلون، وإن غدوا	جداول إن قيسوا به، وهو البحر
إذا حضر النادى فرضوى رجاحة	وإن قال فاللر المنظم والسخر
ويعجبنى منه تدفق عليه	وأعجب منه كيف يجمعه صدر

(١) ديوانه ص ١٣٥ .

(٢) ديوانه ص ١٢١ .

تَنَاءتْ بِنَا الدَّارَانِ وَالوُدُّ مَصْفَتْ  
كَأَنَّ اللَّيَالِي إِذْ قَضَتْ بِمِرَاقِنَا  
أَحْلَ بِهَا إِنْ غَابَ عَنْهَا وَإِنْ أَغْب  
فَلَيْتَ تَلَاقِنَا وَلَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ  
لَأَحْظَى بِرُؤْيَاهُ، وَأَشْكُرُ مَنَّهُ .  
فَلِلقَرَبِ شَطْرٌ، وَالبَعَادُ لَهُ شَطْرٌ  
فَضَى جُوزُهَا أَنْ لَيْسَ تَجْمَعُنَا مِصْرٌ  
يَحُلُّ بِهَا، فَاعْجَبْ لِمَا صَنَعَ الدَّهْرُ  
يَتَمُّ وَشَبِيكاً قَبْلَ أَنْ يَنْفِدَ العَمْرُ  
وَإِنْ لَمْ يَقُمْ عَنِّي بِوِاجِبِ الشُّكْرِ

ترى متى كان هذا الحلول بمصر ولم ير فيه القاضى الرشيد ؟. أظنه كان في عودته التى أشار إليها على بن ظافر سنة ٥٥٢ هـ ، ولعلها كانت زيارة عاجلة لم يبق فيها ابن منقذ طويلاً ، ولا نتصور أن يكون حديثه عن مدة إقامته بمصر التى زادت على عشر سنين ، فإنه لاشك تعرف في اثنائها بالرشيد ، ودامت بينهما صداقة ، وقد يكون تعرفهما بأسوان أيام كان بها طلائع أو بالقاهرة أو القسطنطية قبل تولى طلائع الوزارة .

وله من أمثال هذا الشعر الذى يشترك فيه الأصدقاء مقطعات ، وقصائد بالديوان ومنها اشتياقه لابنه مرهف<sup>(١)</sup> . وأبيه<sup>(٢)</sup> وفد حديثه إليه إشارة إلى ضيقه بالمقام فى شيزر ، وأنه هاجر منها لأنه لم يطق المقام لما لقى من عمه وبعض أهله المقربين . يقول :

لَا تَلْزِمْنِي بِالهُوَانِ وَحَمَلِهِ  
دَعْنِي وَقَطْعِ الأَرْضِ ذُونَ مَعَاشِرِ  
تَغْلِي عَلَيَّ صُدُورَهُمْ مِنْ غِيْظِهِمْ  
تَعْشِي إِذَا نَظَرُوا إِلَيَّ عِيُونَهُمْ  
قَدْ أَفْسَلُوا عَيْشِي عَلَيَّ وَعَيْشَهُمْ  
فَأَسْمَحُ بِبِعْدِي عَنْهُمْ بِرِضَاكَ لِي  
فَلَعَلَّ بَعْضَ العَمْرِ، وَهُوَ أَقَلُّهُ  
فَضَّلَ الأَقَارِبَ وَدَهَمَ وَحَنُوهُمْ  
إِنْ أَحْتَمِلُ الهُؤَانَ ثِقَلُ مُرْهَقِ  
كَلَّ عَلَيَّ لِغَيْرِ جُرْمٍ مُحْتَقِ  
فَتَكَادُ مِنْ غِيْظِ عَلَيَّ تَحْرَقُ  
حَتَّى كَأَنَّ الشَّمْسَ دُونِي تُشْرِقُ  
فَأَنَا الشَّقِيُّ بِهِمْ، وَبِى أَيْضاً شَقَوُا  
إِنَّ الذِي تَرْضَى عَلَيْهِ مُوَفَّقُ  
أَلَا يُكَلِّرُ بِالهُمومِ، وَيُمَدِّقُ  
فَإِذَا جَفَوْنِي، فَالْأَبَاعِدُ أَرْفَقُ

وكتب إليه متشوقاً وعاتباً ومعتذراً لسماع أبيه أقوال أقرباه فيه . يقول :

أَمَّا كِفَاهُمْ نَوَى دَارِي وَبِعْدِكَ عَن  
عَيْنِي، وَفِرْقَةَ إِخْوَانِ الصَّبَا الصَّدِّقِ

(١) ديوانه ص ١٢٤ .

(٢) ديوانه ص ١٢٦ .

وموضعي منك لا تسمو الوشاة له  
 وإنما قالة جاءت، فضاق لها  
 كذبتها، ثم ناجتني الظنون، بأن  
 ولا يُغَيِّرُهُ كَيْسِي، ولا حُمُقِي  
 صَدْرِي، ولو غَيْرُكَ المَعْنَى لم يَضِيقِ  
 الدهر ليس بمأمون، فلا تَتَّقِ  
 وقصائده إلى والده من غربته عديدة ضَمَّنَهَا تلك المعاني التي أوردنا أمثلة  
 منها فيما عرضنا من قوله .

وكذا الحال فيما كتب إلى أشقائه .

وكتب إلى الأمير معين الدين أتر يعتذر عن فراقه له ومغادرته دمشق وهي  
 القصيدة التي حاذى فيها المتنبي، وضمن بعض شعره من مثل قوله :  
 وأنت أغدِل من يُشكى إليه ، ولي  
 شَكِيَّة ، أنت فيها الخصم والحكم  
 وقوله منها :

وما ظننتك تنسى حق معرفتي  
 إن المعارف في أهل النهى ذمم  
 وقوله :

لكن نقاتك مازالوا بغشهم  
 حتى استوت عندك الأنوار والظلم  
 لقد أشرنا من قبل أن ظل المتنبي ألقى بجرانه على شعراء مصر والشام من  
 بعده وطول القرون التالية .

ولم يكن تأثر ابن منقذ بالمتنبي وحده ، ولكنه تأثر بجماعة غيره من الشعراء  
 العباسيين والأمويين ، ويحظى ابن الرومي بجانب من بين هؤلاء حظوة المتنبي ،  
 ربما لاتفاق الحال بين الشاعرين ، والإحساس بالظلم ، ومطاردة الدنيا له ،  
 وضيق العيش ، ومن يقرأ قصيدته في طلائع التي يقول فيها (١) :

عَرَفْتُ لَامِيعَ السُّرَابِ وَهَذَا الْبَحْرُ دُونِي عَذْبُ الْمِيَاهِ شَرِيبُ  
 سَرْتُ اسْتَقْرَىءَ الْمُحَوَّلَ ، وَفِي أُرْ ضَيِّ مَرْعَى عَيْنِ وَوَادٍ قَشِيبُ  
 وَسِيحَابٍ مِنْهُ تَعَلَّمْتُ السُّحْبُ ، وَإِنْ لَمْ تُشْبِهُهُ كَيْفَ تَصُوبُ

يدرك مدى تأثره بابن الرومي بيائية مشهورة طويلة (٢) كتأثره بالمتنبي في

(١) ديوانه ص ١٦٢ .

(٢) راجع ديوان ابن الرومي .

ميمته السابقة . وهو يعنى فى القصيدة سوءَ حظه بضياح ثروته فى البحر فى طريقها من مصر بعد أن نهبا الصليبيون :

أذهبْ تالدى ، وطارق الطار      ىءَ فضاءَ الموروث والمكسوبِ  
فهو شطران بين مصرَ وبحرٍ      ذا غريقَ فىءَ ، وذا منهوبِ

وابن منقذ كما قلنا واسع الاطلاع على الشعر العربى قديمه وحديثه واسع الاطلاع على فنون الأدب واللغة ، وعلى التاريخ وعلوم الدين . تشهد له كتبه التى غرقت بالبحر ، ويشهد له عكوفه على الاطلاع والتحصيل وقد هرمت سنه لكنه لم يكف عن القراءة والتأليف فى حصن كيفا قبل عودته إلى دمشق للقاء صلاح الدين فى أخريات عمره .

ويوظف معارفه وثقافته فى شعره ، فترى استعانه بالقرآن والحديث والسيرة والتاريخ . وترى استعانه بمباني وألفاظ كثير من الشعراء ممن حفظ لهم أو وقف على دواوينهم فعلمت ذاكرته ببعض منها .

وابن منقذ بعد هذا شاعر متدقق الشاعرية ، لا يميل إلى التكلف فى الصنعة ، وقد تردُّ فى اثناء أبياته أصباغٌ بديعية من جناس ومقابلة وكناية وتشبيه واستعارة ومقابلة ، ولكنه لا يتكلفها ، بل تراها ترد طواعية تؤدى دورها فى سياق الكلام .

وفى شعره تدفق عاطفى إذا ما اتصل أو تأثر بموقف تراه يهدر كالسيل فتطول قصائده ، وتجرى الألفاظ منطلقة كيفما اتفق لتعبر عن المعنى بأقصر السبل دون تثقيب أو تعمد تحسين أو انتخاب . ونحن هذا ما نجد فى بعض لفظه من الغريب أحيانا ، وعدم الاختيار أو الأنتقاء أحيانا ، والخروج عن أصول البناء والتركيب أحيانا أخرى .

وبعد فهو شاعر ثرى الشعر ، ثرى العاطفة ، ثرى فى حياته وأحداثها ترى فى مؤلفاته ، ولا تقى بالإحاطة بكل جوانبه هذه الصفحات ، ويكفيننا هذه المحاولة للتعريف به وبقنه .

## القاضي الرشيد بن الزبير<sup>(١)</sup>

(ت ٥٦٩ هـ)

من العصابة الصالحية ، شاعرٌ مصريٌّ صميمٌ من الصعيد ، أسوانى المولد والنشأة . من أسرة عريقة تنتمى إلى غسان اليمنية التى حكم بعض ملوكها الشام قبل الإسلام من قبل روم بيزنطة . وإن كان الأدفوى أرجعها إلى قريش . وقد استقرت أسيرة الزبير فى أسوان منذ زمن ، وسواء أكان أصلها فرشياً أو غسانياً ، فإنها كانت ذات مكانة ، وظهر فيها جماعة من الأفاضل كان من أشهرهم آل الزبير أجداد الرشيد والمهذب أخوه وآبأؤهما .

وكانت أسوان قصبة الجنوب ، تزدهر بمكانها بوابة مصر الجنوبية ، وموطناً لبعض عائلاتها العريقة كالكنوز ، والزبيريين هؤلاء ، كما نشأ بها جماعة من العلماء ، ووفد إليها آخرون .

وتولى أحد أجداد الرشيد حكم قوص ، واسمه القاضي إبراهيم بن محمد بن الحسين . تولى سنة ٤٧٢ هـ ، وراثه الشعراء .

وكان والد الرشيد والمهذب عالماً فاضلاً هو على بن إبراهيم ، تزوج أخت ابن الخلال فأنجبت الشاعرين . ترجم له الأدفوى فى الطالع ، ونسب إليه شعراً ، وقال إنه كان شاعراً فاضلاً رئيساً . وهكذا نشأ والده أحمد ، الملقب بالرشيد ، وأخوه المهذب شاعرين .

وتنقل القاضي الرشيد فى مناصب الدولة ، وذهب إلى القاهرة ، فالتحق بقصر الخلافة وعمل فيه كأحد موظفيه ولُقِّب « سيد الدولة » فضلاً عن القاضي ، ولم يكن الرشيد ذا سمعة معجب ، ولا مظهر حسن ، فقد كان أسمر الوجه قصيراً دميمًا . لا يهتم بلباسه .

(١) راجع فى ترجمته الخريدة للعماد ٢٠٠/١ ، شعراء مصر ، معجم الأدباء لياقوت ٤/٥١ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٧٥ ، طبع إحسان عباس ، والطالع السعيد للأدفوى ، وشنرات الذهب ٤/١٩٧ .



روى أنه دخل مصر بعد مقتل الظافر وتولى الفائز ، وعليه أطمأرتة  
وطيلسان صوف ، فحضر مأتم المقتول ، وأنشد شعراً في رثائه يقول في أوله :

ما للرياض تميل سكرًا هل سقيت بالمزن خمراً<sup>(١)</sup>

حتى بلغ قوله :

أفكر بلاءً بالعرًا ق ، وكربلاءً بمصرٍ أخرى

. فذرفت العيون ، وضج القوم بالبكاء ، وأنهالت عليه الهبات من رجال  
القصر ونشائه . ويبدو أنه نال حظوة في القصر ، ودار الوزارة التي تولاها بعد  
طلائع ، وكان هو وأخوه من نجوم مجلسه .

ولثقة القصر والخلافة به عين في وظيفة هامة ، ثم نذب لسفارة باليمن .  
وبقى هناك زمناً ، وحدثت بينه وأحد دعاة الإسماعيلية جفوة ، ويبدو أن  
القصر الفاطمي بعث بالقاضي الرشيد للدعوة أو الهداية ، وقال شاعر يمني  
فيه :

بعثت لنا علم المهتدين ولكنه علم أسود

وفيه تعريضٌ بالرشيد لسواد وجهه .

وقيل إنه سجن باليمن بسبب هذا الخلاف المذكور ، فبعث إليه أخوه  
المهذب من مصر أبياتاً يبيكه « سميت النواحة » ، وفيها يطلب من داعي الدعوة  
هناك أن يعفو عنه ويطلق سراحه . يقول المهذب في هذه الأبيات :

ياربع أين ترى الأحبة يَمُمُوا هل أنجدوا من بعدها أم أنهموا

.....  
ما كان بعد أخى الذى فارقته  
هو ذاك لم يملك غلاة مالك  
أتوت معانيه ، وغطّل ربه  
ورمت به الأهوال همة ماجد  
يا راحلاً بالمجد عنا والغلا  
يقديك قوم كنت واسط عقدم

.....  
ليوح إلا بالشكاية لى فم  
كلا ، ولا وحدى عليه متيم  
ولربما هجر العرين الضيغم  
كالسيف يمضى عزمه ويصمم  
أترى يكون لكم إلينا مقدم  
ما إن لهم مذ غبت شمل ينظم

(١) قال العماد إنها في مدح طلائع .

ورد عليه الرشيد بقوله :

رَحَلُوا فَلَا خَلَّتْ الْمَنَازِلُ مِنْهُمْ وَنَآوَأَ، فَلَا سَلَّتْ الْجَوَانِحُ عَنْهُمْ

يقول معرضاً بالشكوى وبما يقاسيه من مرارة :

ونزلت مقهورَ الفؤادِ ببلدةٍ  
في معشرٍ خَلِقُوا شُخُوصَ بَهَائِمٍ  
إن كورموا لم يكرموا، أو علموا  
لا تنفقُ الآدابَ عندهم ولا الـ  
صمَّ عن المعروفِ حتى يسمعوا  
فإنه يُعْنِي عَنْهُمْ، ويزيدُ في  
قلَّ الصديقَ بها وقلَّ الدرهمُ  
يَصْنَدُهَا فِكْرُ اللَّيْبِ وَبَيْنَهُمْ  
لم يَعْلَمُوا، أو خُوطِبُوا لم يفهموا  
إِحْسَانٌ يُعْرَفُ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ  
هُجَرَ الْكَلَامُ فَيَقْدَمُوا وَيُقَدَّمُوا  
زُهْدِي بِهِمْ، وَيَفُكُّ أَسْرِي مِنْهُمْ

ويذكر ياقوت أنه بلغ باليمن درجة قاضي القضاة ، وأنه طمح إلى رتبة الإمامة وربما كان هذا ما أحس به أهل اليمن وأعيانهم وفي مقدمتهم داعي الدعاة هناك فدرس له عند الخليفة الناطمي بعد أن حبسه . وذلك بأن بعث إليه بأبيات من الشعر رغم أنها للرشيد ينوه بالقحطانيين ، ويعرض بالمصريين .  
تقول :

لئن أُجِدِّبْتُ أَرْضُ الصَّعِيدِ وَأَقْحَطُوا  
ومذ كَفَلْتُ لِي مَأْرَبٌ بِمَارِي  
وإن جَهَلْتُ حَقِّي زَعَائِفٌ خَنْدِفٍ  
وأرض قحطان هي أرض اليمن وهمدان قبيلة يمنية ، وأما خندف فهي مُضَرٌ  
وإليها تنسب قريش والفاطميون .

ولم يطل سجنه باليمن ، فقد سعى طلائع بن رزنيك إلى فكِّ أسره ، وعاد إلى مصر بعد عامين والتحق بالوزير ومجلسه ، ولزمه هو وأخوه المهذب ، وشارك جماعة من أعيان المصريين والوافدين من الشام وغيرها . شارك القاضي الجليس بن الحباب ، والشاعر ابن قادوس ، والشاعر عمارة اليمنى ، والشاعر أسامة بن منقذ .

وتبادل الرسائل مع أسامة بعد سفره إلى الشام يتشوق أحدهما إلى الآخر . وظلَّ يرأسه زمنا . ومن رسائله الشعرية إليه قوله :

آحبابنا ما مصرُ بعدكمُ مصرُ      ولكنها قفرٌ ، إليكم بها قفر  
رحلتم فعادَ الدهرُ ليلاً بأسره      وليس له إلا بأوتكم فجرُ  
تُرى فاضَ ما ألقى من الهمِّ والآسى      لبعدكمُ ، فاسودَّ من صبغِه الدهرُ  
وكيف أومَ الليلُ إن طال بعدكم      وقد غاب عني منكمُ الشمسُ والبدرُ

ونظن أن علاقة الرشيد وأسامة بدأت قبل لقائهما في مجلس طلائع ،  
ولعلهما لم يلتقيا في المجلس إلا بعد أن توثقت صلتهما ، ونعلم أن الرشيد عمل  
بالقصر زمنا وكذلك كان ابن منقذ مقرباً من المحافظ قبل تولى الفائز ومقتله  
على يد عباس وابنه .

ومن رد ابن منقذ على الرشيد نعلم أنه يشكره على ما أسدى إليه من يد  
وهو في دمشق بعيداً عن مصر حيث يقول أسامة :

وكيف أشكر من أسدى إليّ يداً      سرّت سرى الطيف من مصر وإلى الشام  
رأى مكاني على بعدى وقد عشيث      عني عُيونٌ أحلائي وأيامي  
محافظاً لعهودي حين أفردني ظلي ،      وأعرض عني ظيف أحلابي  
ولعل لهذه اليد صلة بما خلفه أسامة بمصر من مال وولد . فربما ساعد  
الرشيد في انقاذها والحفاظ عليها من المتربصين به بعد مغادرته مصر هارباً .  
وربما سعى مع الوزير الصالح طلائع في إنفاذ المال والأهل على المركب إلى  
الشام .

وأشار عمارة اليمنى في النكت<sup>(١)</sup> إلى من لقبه في مجلس طلائع من كبار  
القوم ، والشعراء ومن بينهم الرشيد وأخوه المهذب .

وبعد مقتل طلائع ، وتولى ابنه من بعده لفترة قصيرة اغتصب بعدها  
الوزارة شاور ، ثم ناواه ضربغام ، وحدث ما حدث من أحداث وتدخل نور  
الدين محمود والصليبيين ، ووفودهما إلى مصر أكثر من مرة لم يستقر الأمر  
للرشيد .

ويبدو أن الرشيد ذهب إلى الاسكندرية متولياً لإحدى الوظائف هناك ،  
وظل بها ، واتصل بالحافظ السلفي عالم الاسكندرية وأخذ عنه .. وساعد

(١) النكت العصرية ص

صلاح الدين عند حلوله بالاسكندرية وحصار شاور والفرنج له حتى صمد للحصار مما احفظ شاور ، وكان ذلك داعياً للانتقام منه . وهكذا انتهت حياة الرشيد بمقتله سنة ٥٦٢ هـ أو سنة ٥٦٣ هـ . ويقال إنه تشيع ، ويؤكد ذلك سفرته إلى اليمن ، ودعوته ، فلعله كان داعية إسماعيليا .

وقد أشار مؤرخوه بفضله وعلمه . قال العماد : « كان ذا علم غزير ، وفضل كثير » . وله رسالة « منية الأملعي ، وبلغه المدعى » وهي مطبوعة وتدل على معرفته بالفقه والنحو واللغة والانساب ، والمنطق والمهنية والموسيقى والطب<sup>(١)</sup> .

قال العماد عن هذه الرسالة : « وله الرسالة التي أودعها من كل علم مشكله ومن كل فن أفضله .

وما بقى من شعره نزر يسير ، بعضه مما قاله في مجلس طائع ، والآخر في الفخر والشكوى ، والمديح ، والهجاء .

فمما قاله في مدح الاغتراب<sup>(٢)</sup> :

فإن التذاني رُبما أخذت القلي  
فإني رأيت السهم ما زاد بعده  
ولن يستفيد البدرُ أكمل نُوره  
وإن التثاني ربما زاد في الوُد  
عن القوس الأزيد في الشكر والحمد  
من الشمس إلا وهو في غاية البعد

وقال في الشكوى<sup>(٣)</sup> ؛ والفخر :

جلت لدى الرزايا، بل جلت، هنمسي  
عبرى يغيره عن حُسن شيمته  
لو كانت النارُ للياقوتٍ مُخرقة  
لا تُغررَن بأطماري وقيمتهَا  
ولا تطنُّ خفاءَ النجم من صغير  
وهل يضرُّ جلاء الصايرم الذكرِ  
صرفَ الزمان، وما يأتي من الغيرِ  
لكان . يَشْتَبُه الياقوتُ بالحجرِ  
فإنما هي أصداف على دُررِ  
فَالذَّنْبُ في ذلك محمولٌ على البقرِ

(١) الخريدة ١/ ٢٠٠ .

(٢) الطالع السعيد ، ص ١٠١ .

(٣) وفيات الأعيان ١/ ١٦٢ .

ويقول في الغربة :

ولما تناءت أرضنا وديارنا  
كفانا معالي كل أمر أهمنا  
وأنزلنا من ربيع الرّحب حسنه  
لنعم الدرّى يلقي به الجار رحبه  
فكنا كأننا نازلون بأهلنا  
وجان زمان ناقض العهد غدار  
وحكمتنا فيما نحب ونختار  
يفيض بها من رحب كفيه أنهار  
إذا ما تبث بالجار عن أهله الدار  
ولم ثنا أوطان علينا وأوطار

ومما قاله في التشوق إلى صاحب نأى ؛ وهو ابن قلاقس (١) ، ويرد فيها على قصيدة بعث بها إليه :

يا مغرماً بنفيس الدرّ يجمعه  
أضحى ينافسنى فى قربه زمنى  
ولا أقول دنت منى منزله  
كذلك الدرّ فى الأصداف محتجب  
إن غاب بدر سماء المجد عن نظرى  
يذوب قلبى من وجود من أسف  
ومولعاً بجميل البرّ يصنعه  
فما يجود به إلا ويمنعه  
إلا غدا وكبعد النجم موضعه  
حيناً ، وحيناً على تاج يرصعه  
ففى فؤادى أفق منه مطلعته  
شوقاً إليه ، وقد حازته أضلعه

ومن قصيدته التى أجاب بها أخاه وهو محبوس باليمن ، يشكو فيها ما يعانیه هناك — وقد أوردنا منها آياتاً . قال :

رحلوا فلا تحلت المنازل منهم  
وسرّوا، وقد كتموا العداة مسيرهم  
وتبدّلوا أرض العقيق عن الحمى  
نزلوا العذيب، وإنما فى مهجتي  
ونأوا فلا سلّت الجوانح عنهم  
وضياء نور الشمس مالا يكتّم  
ردت جفونى أى أرض بممّوا  
نزلوا، وفى قلب المتيمّ خيموا

وما وصل إلينا من شعر يسير للرّشيد لا يمكننا من التعرف على صنعته .  
ونكتفى بحكم السابقين عليه والذين وصفوه بأنه أقل شاعرية من أخيه  
المهذب (٢) . قال العماد عن المهذب : « وهو أشعر من أخيه ، وأعرف  
بصناعته وإحكام معانيه » .

(١) شعر الرّشيد والمهذب ، ص ١١١ .

(٢) راجع الخريدة ١٠٤/١ .

ويبدو أن اشتغال الرشيد بالعلم وتأليف الكتب كان على حساب شاعريته .  
وقد انجب ابناً شاعراً هو علي بن أحمد بن الزبير ، مدح السلطان صلاح  
الدين (١) .

---

(١) المصدر نفسه ١/٢٠٢، ٢٠٣ .

## المهذب بن الزبير<sup>(١)</sup>

( ت سنة ٥٦١ هـ )

وهو أبو محمد الحسن بن علي ، شقيق الرشيد ، قال العماد : « هو أخو الرشيد . محكم الشعر كالبناء المشيد . وهو أشعر من أخيه ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه » . « ولم يكن في زمانه أشعر منه أحد . وله شعرٌ كثير ، ومحلٌ في الفضل أثير » . وهو وإن كان أشعر من أخيه إلا أن الرشيد كان أعلم منه في رأى المؤرخين .

ولم يذكر هؤلاء أى الأخوين كان أكبر ، وإن ظننا أن الرشيد هو الأكبر . أو لعلهما كانا توأمين ، لارتباطهما معاً في العاطفة ، وتشابيهما في بناء الجسد والصورة فقد كان المهذب كذلك ضئيل الجسم أسمر اللون ، بوجهه دمامة . ولد المهذب بأسوان كأخيه ، وكانت له علاقة بأسرة الكنز المشهورة بها ، وربما كانت هذه العلاقة امتداداً لعلاقة أسرته .

وكان الكنوز من أمراء ربيعة ، أهل فتوة ومكارم ومدحجين يقصدهم الشعراء من بلاد بعيدة على حد قول الأدقوى .

وكان المهذب ممن مدحهم بالشعر الكثير ، احتفظت لنا المصادر ببعضه في مدح كنز الدولة بن متوج يقول فيها :

بأى بلادٍ غير أرضى أجيمٌ ، وأى أناسٍ غير أهلي أيممٌ  
ورائى أرضٌ ما بها متأخرٌ ، أمامى أرضٌ ما بها متقدمٌ  
فها أنا اختار الثواء على الثوى ، ويكرهه الرأى الذى هو أحزمٌ

وقد تلقى علمه ، ونضج شعره ببلده ، ثم طمح إلى عاصمة البلاد ، ورمى بصره وهمته إلى القاهرة والفسطاط عله يجد هناك ما يأمله من مكانة لدى الوزراء وقصر الخليفة ، وأعيان الناس .

(١) راجع ترجمته في وفيات الأعيان ٦ / ٧٥ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٩ / ٤٧ ، والطالع السعيد .

(٢) الخريدة ١ / ٢٠٤ .

وأراد أن يقصد بشعره هؤلاء ، وأول من قصده من الوزراء على ما وصلنا من خبره رضوان بن الولخشى (تولى الوزارة من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٣٣ هـ) . يقول فيه :

إذا قابلته ملوك البلا      دِ خَرْتُ على الأرض تيجانها  
ولله في أرضه جنة      بصر ، ورضوان رضوانها  
واستغل اسم الممدوح ، ووظفه في معنى مديحه .

ولما قُتل ابن الولخشى بأمر الحافظ ، رثاه المهذب بقوله :

بِنَفْسِي من أبكى السماوات مَوْتَهُ      بغيثِ ظَنَنَّاهُ نوالَ يمينه  
فما استعبرت إلا أَسَى وتأسفاً      وإلا فماذا القَطْرُ في غير حِينِهِ  
وكانت السماء قد أمطرت ساعة مقتله على غير موعد ، فاستغل الشاعر ذلك لتوظيفه في رثاء ممدوحه .

وإلى القاهرة يفد الشاعر أسامة بن منقذ ، فيلتقى المهذب هذا الخير بسرور فيصحبه زمناً ، ويبعث إلى أسامة أبياتاً في ذكر الديار ، ولعله بعث بها بعد النكبة التي أصابت أهله في شيزر عقب الزلزال ، فيكون ذلك بعد رحيل أسامة إلى الشام ، ووقوع الزلزال هناك سنة ٥٥٢ أو سنة ٥٥٣ هـ . حيث يقول :

آحبابنا مال إذا ما ذكرتكم      وما أناناس—غال صَبْرِي غول  
يقول :

لئن أقفرت منا الديار ومنكم      وأمست مَعَانِيهِنَّ وهى طَلُول  
فإن لنا في آل منقذ أسوة      يهونَ لديها الخطبُ وهو جَلِيل  
نبت بهم أوطانهم فترحلوا      وللمجد في ذاك الرحيل رَحِيل  
ولغة التعزية واضحة في الأبيات .

وللمهذب أبيات كثيرة ، بعث بها إلى ابن منقذ بعد رحيله إلى الشام تدل على ما كان بينهما من مودة وعلاقة وثيقة ، ونحس هذا كذلك في أبيات أسامة التي جاوبه بها .



وقد تكون هذه العلاقة توثقت بعد وصول أسامة للقاهرة، وكان الأخوان الرشيد والمهذب قد استقروا بالقاهرة، وعمل الرشيد زمناً بقصر الخلافة على ما عرفنا . وفي هذا الوقت نفسه تعرفا على الوزير ابن السلار، وطلّاح بن رزيك وعباس الصنهاجى .

ومنها مديحه لابن السلار ولقبه سيف الدولة بمناسبة نصرته على ابن مصال بمشاركة عباس وطلّاح فى موقعة دلاص . يقول :

أبى الله إلا أن تعان وتُنصراً	وتظفر حتى لقبوك المظفراً
وتصبح سيفاً مثل نعتك قاطعاً	مُحلى بأصناف الفخار مجوهرًا
يرك حديد الهند أشرف قيمة	وأعظم آثاراً، وأكرم عنصرًا

و دارت الأيام ، وتولى ابن رزيك الوزارة بعد الأحداث التى ذكرنا ، فأصبح المهذب من أقرب جلسائه إلى نفسه ، وقد ذكرنا أن تعارفهما ربما تم بالقاهرة ، ثم توثقت الصلة عند تولى ابن رزيك أسوان وقوص . وأصبح هو وأخوه الرشيد صاحبين ملازمين فى دار الوزارة بالقاهرة والفسطاط .

تولى المهذب بعض الوظائف فى الدولة ، ولقب بألقاب أصحاب تلك الوظائف على عادة ذلك العصر مثل القاضى ، وصفى الدين ، وعميد الدولة .

وأهله ثقافته ومكانته ، ومكانة أسرته لتولى هذه المناصب ، وبلوغ مكانة خاصة فى دولة الفاطمية . وقد ساعد على ذلك شيعيته ، واعتناقه مذهب الإسماعيلية ، مذهب الخلفاء ، أو التشيع عامة دون التزام بالإسماعيلية . وقد وردت فى شعره أقوال ترجح هذا الاعتقاد . منها ما ذكره العماد وعلق عليه مستنكراً من مثل قوله فى مديح ابن رزيك (١) :

فلو يكون لهم أمثاله عضداً  
فيما مضى ما غدت مغصوبة فداً

قال العماد : « لقد أبطل فى هذا القول المؤتفك ، وغفل عن سير الشريعة فى فداك وفضل ممدوحه على السلف فى الشرف ، وأدت به المبالغة فى الضلال إلى السرف » . وابن العماد السننى ساءه أن يذكر المهذب هذا الحدث معرضاً بأبى بكر وعمر . فإنه يشير إلى ما كان من رأى أبى بكر وعمر فى أن فاطمة الزهراء لا ترث فداك التى تركها الرسول ﷺ — لقوله : نحن معاشر الأنبياء (١) الخريذة — قسم شعراء مصر ( ترجمته ) .

لا تُورث ، ما تركناه صدقة . والشيعه يرون أن أبا بكر وعمر أخطأ ، وأنه كان ينبغي أن يتركها لفاطمة .

وتتردد اعتقادات الشيعة وأقوالهم كثيراً في شعره . كما قال في مدح الخليفة العاصد :

وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَذَكَرَهُ      قَرِينَانِ لِلْأَمِيِّ الْمُنَزَّلِ فِي الذِّكْرِ  
لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ: تَلْقَوْنَ عِتْرَتِي      مَعاً، وَكُتِبَ اللَّهُ فِي مَوْرِدِ: الْحُسْرِ  
إِذَا مَا إِمَامِ الْحُسْرِ لَاحَ لِنَظَرِي      فَوَالْعَصْرِ إِنَّ الْجَاهِلِينَ لَفِي خُسْرِ

وهي تحكى ما يعتقدُه الشيعة من قول النبي ﷺ : « إني تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : الثقلين ، وأحدهما أكبر من الآخر ؛ كتابُ الله ، حَبْلِ اللَّهِ الْمَمْدُودِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي ، إِلَّا أَنْهَمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا الْحَوْضَ » .

ومن ذلك قوله في الإمام علي رضي الله عنه :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَخَيْرَ مَلْجَأٍ      يُسَارُ إِلَى حِمَاةٍ ، وَخَيْرُ حَامٍ  
كَأَنِّي إِنْ جَعَلْتُ إِلَيْكَ قَصْدِي      قَصَدْتُ الرُّكْنَ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ  
وَأُخَيِّلُ لِي بَأَنِي فِي مَقَامِي      لَدَيْهِ بَيْنَ زَمَزَمَ وَالْمَقَامِ

وقد يكون هذا التحمس للفكر الشيعي مما قربه من طلائع بن رزيك الذي عرف بتحمسه للمذهب علي ما ذكرنا . وسنرى أنه كان يدعو الشاعر عمارة اليمنى إلى مذهبه وعمارة يتمسك بسنته شافعيًا ، ولا يرى ذلك مقللاً من حبه لابن رزيك وتقديره لماثر الفاطيين . وكان لسجاياه الحميدة ما ساعده على حب الناس وتقديرهم له .

نجح إذا المهذب في بلوغ ما يريد ، وأصبح نجماً في سماء الدولة ، وظل كذلك حتى قتل صديقه ، الوزير ورجل الدولة القوي طلائع . بعدها تفرقت به السبل ، فلم يعد للمهذب بعد سنة ٥٥٩ هـ شأن ، وبخاصة بعد العادل ابن رزيك ، فلم يلبث شاور أن أودى به إلى الموت سنة ٥٦١ هـ .

## شعره وشاعريته :

ذكر ابن خلكان أن شاعريته تفتحت أكامها وهو في السادسة والعشرين وخمسمائة وربما كانت سنة آنذاك لم تتجاوز العشرين .  
وقرظ شعره العماد ، وأشاد به قائلًا : لم يكن في زمانه أشعر منه أحد .  
وكان معجباً بشعره ، يسأل عنه من يحفظه ، ويعلق عليه بما يكشف عن وقوعه من نفسه موقعاً طيباً .

فمما علق به على لاميته التي اختار معظمها وهي قوله :

أَقْصِرْ فِدَيْتَكَ عَنْ لَوْمِي وَعَنْ عَدْلِي      أَوْ لَا فَخْذِلِي أَمَانًا مِنْ ظَبَا الْمُقْبِلِ

« للشعراء المهذبين ، المذهبين المذهب على هذا الوزن المعجز المعجب قصائد فرائد ، قلائد ، وهذا مهذبٌ مُهَدَّبُهُمْ ، إذ هو وحيد العصر مجيدُ النظم والنثر » (١) . وكان لاجابته به أثره في الإكثار من إختيارات شعره .

والحق أن المهذب بن الزبير هو أمير شعراء مصر في عصره ، لما أبدى من المقدرة الشعرية التي تجلت في أكثر من جانب من جوانب قوله الشعرى .  
وشعره فيما يبدو كثير ، إلا أن ديوانه ضاع فيما ضاع من آثار الفاطميين ، ذلك إذا كان له ديوان مجموع .

وما وصلنا من شعره يدور معظمه في موضوعات المدح والثناء والوصف والشكوى والتشوق والغزل . ولم يقل في الهجاء ترفعاً ، وصيانة للسانه من أن يخوض في الأعراض . اعترف بذلك في أبيات له وجهها إلى طلائع ، وقد أغرى بعض شعراء مجلسه به . يقول :

يا أيها الملك الذي أوصافه      لا تطمع الشعراء فيّ فإنتي  
لو شئت لم أجبن ولم أتخشع      فليمسكوا عني ، فلو لا أنتي  
أبقى على عرضي إذا لم أجزع      .....

ولو أنه ناجى ضميري في الكرى      وإذا بدا لي الهجر لم أر شخصه  
طيف الخيال برية لم أهنج      .....

(١) الخريدة ١/ ٢٠٨ .

والتَّاسُّ قَدْ عَلِمُوا بِأَنِّي لَيْسَ لِي      مَذَكَّنْتُ فِي أَعْرَاضِهِمْ مِنْ مَطْمَعٍ

وظهرت خصائصه النفسية ، وملاخح همته في شعره ، فقد واجه في حياته ظروفاً متنوعة ، حيث قست عليه الحياة أحياناً ، ثم عادت فسألته ، وأرخت له الزمام ، وأعدت . لكنها لم تلبث أن عاندته في أخريات حياته ، لهذا نجد في شعره الفرحه والتَّرحه ، الرضا والسعادة أحياناً ، والغضب والضيق والشكوى من الزمان وأهله أحياناً أخرى .

كان المهذب ذا نفس مرهفة ، وشاعرية صادقة ، فانعكس على شعره إحساسه بأحداث قومه وعصره ، وما رآه ، وما ابتلاه ، وعبر عنه بصورة تكشف عن تلك الرهافة النفسية والصدق الفني .

وكانت لثقافته ومحفوظه الكثير والمتنوع آثارها في صياغته ، وألفاظه وصوره ومعانيه على ما سنفصله بعد .

ونمثل على قدر ما يسمح المقام بما جدد من معاني الشعر ، وما قلدها فيها على اختلاف موضوعاته .

ففى المدح يطرق المعاني المعهودة من صفات الممدوح بالكرم والشجاعة ويضيف بعض المعاني المتعلقة بمنصبه أو عمله ، وقد يعرض لنسبه كما فعل في مديحه لطلائع ، فقد أشاد بنسبه في غسان . ونذكر في هذا المقام انتساب آل الزبير إلى الغساسنة كذلك . يقول في نونته :

أَعْلَمْتُ حِينَ تَجَاوَرِ الْحَيَّانِ      أَنَّ الْقُلُوبَ مَوَاقِدَ التِّرَانِ  
مَادِحاً طَلَائِعَ وَمَشِيداً بَرِيقَاتِهِ فِي الصَّلِيبِينَ بِالشَّامِ :

يَا كَاسِرَ الْأَصْنَامِ قَمِّ فَانْهَضْ بِنَا      حَتَّى تَصِيرَ مُكْسِرَ الصَّلْبَانِ  
الشَّامِ مُلْكَكَ قَدْ وَرِثْتَ تَرَاثَهُ      عَنِ قَوْمِكَ الْمَاضِينَ مِنْ غَسَّانِ  
فَإِذَا شَكَّكَتَ بِأَنَّهَا أَوْطَانُهُمْ      قَدِمَا ، فَسَلِّ عَنْ حَارِثِ الْجَوْلَانِ  
أَوْرُمْتَ أَنْ تَتَلُو مَحَاسِنَ ذِكْرِهِمْ      فَاسْنَدِ رَوَايَتَهَا إِلَى حَسَانِ

ويحسن في مديحه توظيف أسماء الممدوحين وألقابهم في سياق معانيه الشعرية كما أشرنا في مديحه لرضوان الوخشي ، وسيف الدين ابن السَّلال وسيف الإسلام ابن رزيك ، ومنه قوله في مدحه :

كَأَنَّ فِي سَيْفِ سَيْفِ الدِّينِ مِنْ حَجَلٍ      مِنْ عَزْمِهِ مَا بِهِ مِنْ حُمْرَةِ الْحَجَلِ  
هُوَ الْحَسَامُ الَّذِي يَسْمُو بِحَامِلِهِ      زَهُواً فَيَفْتَكُ بِالْأَسْيَافِ وَالدُّوَلِ  
إِذَا بَدَأَ عَارِيّاً مِنْ غَمْدِهِ تَخَلَّعَتْ      غِمْدَ الدِّمَاءِ عَلَيْهِ هَامَةٌ الْبَطْلِ  
إِذَا تَقَلَّدَ بَحْرًا مِنْ أَنَامِلِهِ      رَأَيْتَ كَيْفَ اقْتَرَانَ الرَّزْقُ بِالْأَجَلِ  
مِنَ السُّيُوفِ الَّتِي لَاحَتْ بِوَارِقِهَا      فِي أُنْمَلٍ هِيَ سَجْبُ الْعَارِضِ الْهَطْلِ

وهو في توظيف اسم الممدوح يجارى المتنبي أحياناً في توظيفه لاسم ممدوحه سيف الدولة ابن حمدان .

ونلاحظ هنا إلمامه بمعنى من معاني البحتری في المديح بوصفه كفه في البطش والعطاء بالبارق والسحاب .

كذلك توظيفه لبعض الأحداث كالزلازل الذي أصاب الشام وقت غزوات ابن رزّيك هناك . يقول :

مَا زُلْزَلَتْ أَرْضُ الْعِدَا بِلِ ذَلِكَ مَا      بَقْلُوبِ أَهْلِهَا مِنَ الْخَفَقَانِ  
وَأَقُولُ إِنْ حُصُونَهُمْ سَجَدَتْ لِمَا      أَوْتَيْتَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ سُلْطَانِ  
وَالنَّاسُ أَوْلَى بِالسُّجُودِ إِذَا غَدَا      لِعَلَاكَ يَسْجُدُ شَامِئُ الْبِنْيَانِ

ويسمى علماء البديع هذا اللون من التعبير « حسن التعليل » . وهو أن يغفل الشاعر العلة الأساسية للحدث ، ويأتي بعلة من عنده توافق سياق معانيه ، وتدعم موضوع أبياته .

ويلجأ إلى الاشتقاق والتوليد على طريقة أبي تمام أحياناً ، وابن الزومى أحياناً ، فيقول :

وَتَلَلْتُ فِي يَوْمِ الْعَرِيشِ عُروَشَهُمْ      بِشَبَا ضَرَابِ صَادِقِ وَطَعَانِ  
أَلْجَأْتَهُمْ لِلْبَحْرِ لَمَّا أَنْ جَرَى      مِنْهُ وَمِنْ دَمِهِمْ مَعَا بَحْرَانِ

ويلجأ إلى التضمين من شعر القدماء أو السابقين من محدثي الدولة العباسية ومن بعدهم كأن يقول مضمناً بشعر لامرئ القيس والمتنبي . يقول :

مِنْ كُلِّ طَرَفٍ مَرِيضَ الطَّرْفِ تَنْشِدُنَا      أَلْحَاطَهُ « رَبِّ رَامٍ مِنْ بَنِي نَعْلٍ »  
إِنْ كَانَ فِيهِ لَنَا ، وَهُوَ النَّسِيمُ شِفَاءً      « فَرُبَّمَا صَحَّتْ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَالِ »  
وَكَأَنَّ بِيضَاءَ لَوْ مَسَّتْ أَنَامِلَهَا      قَمِيصَ يُوْسُفَ يَوْمًا قَدَّ مِنْ قَبْلِ

وتُورد قصيدته الالامية التي أعجبت العماد مثلاً لمديحه ، وفيه وصف  
لمعارك طلائع مع الصليبيين بالشام . يقول :

أَقْصِرْ - فِدَيْتُكَ - عَن لُومِي وَعَن عَدْلِي      أَوْلَا فَخُذْ لِي أَمَانًا مِّن يَدِ الْمَقِيلِ  
مِن كُلِّ طَرْفٍ مَرِيضِ الْجَفَنِ تَنْشِدُنَا      الْحَاظُهُ « رَبِّ رَامٍ مِّن بَنِي ثَعْلَبِ »  
إِن كَانَ فِيهِ لَنَا ، وَهُوَ السَّقِيمُ شِفَاءً      فَرَبَّمَا صَحَّحْتَ الْأَجْسَامَ بِالْعَيْلِ  
إِنَّ الَّذِي فِي جُفُونِ الْبَيْضِ إِذْ تَنْظَرْتُ      نَظِيرٌ مَا فِي جُفُونِ الْبَيْضِ وَالخِجَلِ (١)  
كَذَلِكَ لَمْ يَشْتَبِهْ فِي الْقَوْلِ لَفْظُهُمَا      إِلَّا كَمَا اشْتَبَهَا فِي الْفِعْلِ وَالْعَمَلِ  
وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى الْأَطْلَالِ أَحْسَبُهَا      جِسْمِي الَّذِي بَعْدَ بَعْدِ الظَّاعِنِينَ بَلَى  
أَبْكِي عَلَى الرَّسْمِ فِي رَسْمِ الدِّيَارِ فَهَلْ      عَجِبْتُ مِّنْ طَلَلِي يَبْكِي عَلَى طَلَلِ  
وَكُلِّ بِيضَاءٍ لَوْ مَسَّتْ أَنَامِلُهَا      قَمِيصَ يُوسُفَ يَوْمًا قَدَّ مِّن قَبْلِ  
يُعْنِي عَنِ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَبْسُومًا      لِحُسْنِهَا ، فَلَهَا حَلَّتِي مِّن الْعَطَلِ  
بِالْحَدِّ مَنَى نَارَ الدَّمُوعِ كَمَا      لَهَا عَلَى الْحَدِّ آثَارٌ مِّن الْقَبْلِ  
كَأَنَّ فِي سَيْفِ السِّيفِ الدِّينِ مَن خَجَلِ      مِّن عَزْمِهِ مَا بِهِ مِّنْ حَمْرَةِ الْخَجَلِ  
هُوَ الْحُسَامُ الَّذِي يَسْمُو بِحَامِلِهِ      زَهُوًّا فَيَفْتِكُ بِالْأَسْيَافِ وَالِدُولِ  
إِذَا بَدَأَ عَارِيًّا مِّنْ غِمْدِهِ خَلَعَتْ      غِمْدَ الدَّمَاءِ عَلَيْهِ هَامَةُ الْبَطْلِ  
وَإِنْ تَقَلَّدَ بَحْرًا مِّنْ أَنَامِلِهِ      رَأَيْتَ كَيْفَ اقْتَرَانَ الرَّزْقِ بِالْأَجْلِ  
مِنَ السُّيُوفِ الَّتِي لَاحَتْ بِوَارِقِهَا      فِي أَنْمَلٍ هِيَ سَحْبُ الْعَارِضِ الْهَظْلِ  
فَجَاءَنَا لِبْنِي رَزَيْكَ مَعْجُزُهَا      بَأْيَةَ لَمْ تَكُنْ فِي الْأَعْصَرِ الْأَوَّلِ  
تَبْدُو شُمُوسًا هَمُّوْ أَعْمَارُهَا وَتَرَى      شَهْبَ الْقَنَا فِي سَمَاءِ النَّفْعِ لَمْ تَقَلِ  
قَدْ بَجَّيْرْتُ فِيهِمُ السُّمْرُ الرَّقَاقِ رِقَاقِ      الْبَيْضِ خَلَفَ سَجُوفِ النَّفْعِ فِي الْكَيْلِ  
إِنْ عَانَقُوا هَذِهِ فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ      لَاحَتْ لَهُمْ بَتَلْطَلَى تَلَكَّ كَالشُّعْلِ  
وَقَدْ لَقُوا كَلَّ مِّنْ غَارُوا بِمَشْبِهِ      حَتَّى لَقُوا النَّجْلَ عِنْدَ الْعَرْضِ بِالنُّجْلِ  
وَضَارِبِ الرَّوْمِ رَوْمٌ مِّنْ سِيُوفِهِمْ      وَطَاعَنَ الْعَرَبُ أَعْرَابٌ مِّنَ الْأَسْلِ  
وَهُوْمٌ لِّصَهِيلِ الْخَيْلِ تَحْتَ صَهِيلِ      الْبَيْضِ مَا هَزَّ أَعْطَافَ الْقَنَا الْخِطْلِ (٢)  
فَالدَّمُ حَمْرٌ ، وَأَصْوَاتُ الْجِيَادِ لَهُمْ      أَصْوَاتُ مَعْبَدٍ ، فِي الْأَهْرَاجِ وَالرَّمْلِ  
وَالخَيْلِ قَدْ أَطْرَبَتْهَا مِثْلَ مَا طَرَبُوا

(١) يقصد بالبيض السيوف ، والخجل أجفانها .

(٢) الحظيل : المضطرب .

من كلِّ أُجْرَدٍ مُخْتَلِ بِفَارِسِيهِ  
وكلِّ سَلْهَبِيَةٍ لِلرَّيْحِ نَسْبَتُهَا  
أفَارِسَ الْمُسْلِمِينَ أَسْمَعُ، فَلَا سَمِعْتُ  
مَقَالَ نَائِي غَرِيبِ الدَّارِ قَدْ عَدِمَ الـ  
يَشْكُو مَصَائِبَ أَيَّامٍ قَدْ اتَّسَعَتْ  
يَرْجُوكَ فِي دَفْعِهَا بَعْدَ الْإِلَهِ، وَقَدْ  
وَكَيْفَ أَلْقَى عَلَى الْآيَّامِ مَرْزُوقَةً  
لَوْلَاهُمْ كُنْتُ أَفْرَى الْحَادِثَاتِ إِذَا  
وَكَيْفَ أَخْلَعُ ثَوْبَ الدَّلِّ حَيْثُ كَيْفِيْلُ  
فَمَا تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي وَكَمْ رَضِيْتُ  
إِنِّي أَمْرٌ قَدْ قَتَلْتُ الدَّهْرَ مَعْرِفَةً  
إِنْ يَرَوْ مَاءَ الصَّبَا عَوْدِي فَقَدْ عَجِمْتُ

تَجَاوَزْتُ بِي مَدَى الْأَشْيَاحِ تَجْرِبَتِي  
وَأَوَّلَ الْعَمْرِ خَيْرٌ مِنْ أَوَاخِرِهِ  
دُونِي الَّذِي ظَنَّ أَنِّي دُونَهُ فَلَهُ  
وَالْبِدْرُ تَعْظُمُ فِي الْأَبْصَارِ صُورَتُهُ  
مَا أَضْرَّ شَعْرِي أَنِّي مَا سَبَقْتُ إِلَى  
فَإِنْ مَدَحِي لِسَيْفِ الدِّينِ تَاهَ بِهِ

واضح من البيتين الأخيرين في القصيدة أن المهذب استدعى في ذاكرته  
قصيدة أبي الطيب التي ذكر مطلعها (١) :

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلِ دَعَا فُلْبَاهُ قَبْلَ الرُّكْبِ وَالْإِبِلِ  
وكانت القصيدة في ذهنه وهو ينظم قصيدته ، كذلك ربما استدعى مع أبي  
الطيب لامية الطغرائي على الوزن والروى ، ومطلعها :  
أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَاتَتْ بِي مِنَ الْخَطَلِ وَزِينَةُ الْخَلْمِ زَانَتْ بِي لَدَى الْعَطَلِ

(١) ديوان أبي الطيب ، شرح البرقوق ٣ / ١٩٨ .

فأما قصيدة المتنبى فهي في مديح سيف الدولة، بعد أن نهض إليه، وخلع عليه، ويذكر فيها غاراته على الروم. وأما لامية الطغرأى فكانت بعد أزمته وخروجه من الوزارة وعطله.

والمهذب يلم في قصيدته بمضمون قصيدتي الشاعرين الكبيرين السابقين، وقد ربط بينه وبينهما تشابه المواقف، والأحاسيس، وجارى الوزن والقافية.

وقصيدة المهذب لا تقل عن لاميتي الشاعرين صياغة ورسالة، وإبداع معاني، وصدق أحاسيس. وقد أجرى المهذب في قصيدته بعض ألفاظ القصيدتين، ومعانيهما. ولعله من أجل هذا ألمح العماد في تعليقه على القصيدة الذي سبق ذكره.

ومن فرائد المهذب في المديح ووصف المعارك، عن ذكر الأسطول المصري ووقائعه في ثغور الصليبيين بالشام قوله:

أَعْلِمْتُ حِينَ تَجَاوَرِ الْحَيَّانِ	أَنَّ الْقُلُوبَ مَوَاقِدَ النَّيْرَانِ
وَعَرَفْتُ أَنَّ صُدُورَنَا قَدْ أَصْبَحَتْ	فِي الْقَوْمِ وَهِيَ مَرَايِضُ الْغَزْلَانِ
وَعِيُونَنَا عَوْضَ الْعِيُونِ أَمْدَهَا	مَا غَادَرُوا فِيهَا مِنَ الْغُدْرَانِ
مَا الْوَلْحُدُ هَزَّ قِبَابَهُمْ بَلْ هَزَّهَا	قَلْبِي عَشِيَّةً سَارَ فِي الْأَطْعَانِ
وَبِمَهْجَتِي قَمَرٌ إِذَا مَا لَاحَ لِلسُّمْرِ	أَرَى تَضَاعَلْ دَوْنَهُ الْقَمْرَانِ
قَدْ بَانَ لِلْعُشَّاقِ أَنَّ قِوَامَهُ	سَرَقَتْ شَمَائِلُهُ غَصُونُ الْبَانِ
وَأَرَاكَ غُصْنَا فِي التَّعِيمِ يَمِيلُ إِذْ	غَصْنُ الْأَرَاكِ يَمِيدُ فِي نَعْمَانِ
لِلرَّمِيحِ نَصَلٌ وَاجِدٌ وَلِقْدَهُ	مَنْ نَاطِرِيهِ إِذَا رَنَا نَصَلَانِ
وَالسَّيْفِ لَيْسَ لَهُ سِوَى جَفْنٍ وَقَدْ	أَضْحَى لَصَارِمِ طَرْفِهِ جَفْنَانِ
وَالسَّهْمُ تَكْفَى الْقَوْسُ فِيهِ وَقَدْ غَدَا	مَنْ حَاجِيهِ لِلْحِظَّةِ قَوْسَانِ
وَلرُبُّ لَيْلٍ خَلَتْ خَاطِفَ بَرْقِهِ	نَاراً تَلْفَحُ فِي الدُّجَى بَدُخَانِ
كَالْمَائِلِ الْوَسْتَانِ مِنْ طَوْلِ السَّرِيِّ	جَوْزَاؤُهُ، وَالرَّاقِصِ السَّكْرَانِ
مَا بَانَ فِيهِ مِنْ ثَرِيَّاهُ سِوَى	إِعْجَابِهَا وَالذَّلَالِ فِي الدَّبْرَانِ (١)
وَتَرَى الْمَجْرَةَ فِي النُّجُومِ كَأَنَّهَا	تَسْقِي الرِّيَاضَ بِجَدُولِ مَلَانِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ نَهْرًا لَمَا عَامَتْ بِهِ	أَبْدًا نَجُومُ الْحَوْتِ وَالسَّرَطَانِ

(١) الدبران منزل من منازل القمر.



نَادَمْتُ ، فِيهِ الْفِرْقَدَيْنِ كَأَنِّي  
وَتَرَفَعَتْ هِمَمِي فَمَا رَضَى سِوَى  
وَأَنْفَتُ حِينَ فَجَعْتُ بِالْأَحْبَابِ أَنْ  
وَاعْتَضْتُ عَنْ جُودِ الْوَزِيرِ مَوَاهِبًا  
يَقُولُ فِيهَا :

—دون الوري— وَجَذِيمَةُ أَخْوَانِ (١)  
شَهَبِ الدُّجَى عِوَضًا عَنِ الْخِلَافِ  
أَلْهُو عَنْ الْإِخْوَانِ بِالْخَوَانِ  
أَسَلْتُ عَنِ الْأَوْطَارِ وَالْأَوْطَانِ

مَا زَلَزَلْتُ أَرْضَ الْعِدَا بَلْ ذَاكَ مَا  
وَأَقُولُ إِنَّ حِصُونَهُمْ سَجَدَتْ لِمَا  
وَالنَّاسُ أَجْدَرُ بِالسُّجُودِ إِذَا غَدَا  
وَلَقَدْ بَعَثْتُ إِلَى الْفَرْنَجِ كِتَابِيًا  
لَيْسُوا الدَّرُوعَ وَلَمْ تُخَلِّ مِنْ قَبْلَهُمْ  
وَتَيَمَّمُوا أَرْضَ الْعَدُوِّ بِقَفْرَةٍ  
عِشْرِينَ يَوْمًا فِي الْمَغَارِ وَلَيْلَةً  
حَتَّى إِذَا قَطَعُوا الْجَفَارَ (٤) بِمُخْفَلٍ  
أَغْرَيْتَهُمْ بِجَمِي الْعِدَا فَجَعَلْتُهُ  
عَجَلَتْ فِي تَلِّ الْعُجُولِ قِرَاهُمُ  
لَمَّا أَبَوَا مَا فِي الْجَفَانِ فَرَيْتَهُمْ  
وَتَلَّتْ فِي يَوْمِ الْعَرِيضِ عُرُوشَهُمْ  
أَلْجَأْتَهُمْ لِلْبَحْرِ لَمَّا لَنْ جَرَى

بِقُلُوبِ أَهْلِهَا مِنَ الْخَفَقَانِ  
أَوْتَيْتُ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ سُلْطَانِ  
إِلْعَلَّاكَ يَسْجُدُ شَامِخُ الْبَيْتَانِ  
كَالاسِدِ حِينَ تَصُولُ فِي خِفَانِ (٢)  
أَنَّ الْبِحَارَ تَحَلُّ فِي غَدْرَانِ  
جُرْدَاءَ خَالِيَةٍ مِنَ السَّكَّانِ  
يَسْرُونَ تَحْتَ كَوَاكِبِ الْخِرْصَانِ (٣)  
هُوَ فِي الْعَدِيدِ وَرَمَلِهِ سَيَّانِ  
بِسُطَّاكَ بَعْدَ الْعِزِّ دَارَ هَوَانِ  
وَهُمْ لَكَ الضِّيْفَانُ بِالذِّيْفَانِ (٥)  
بِصَوَائِرِمِ سَلْتُ مِنَ الْأَجْفَانِ  
بِشَبَابِ ضَرَابٍ صَادِقٍ وَطِعَانِ  
مِنْهُ وَمِنْ ذَمِّهِمْ مَعًا بِحِرَانِ

مُدَّحِ الْوَرَى بِالْبَاسِ إِذْ خَضِبُوا الظُّبَا  
وَلَأَنْتِ تَخْضِبُ كُلَّ بَحْرِ زَاخِرٍ  
حَتَّى تَرَى دَمَهُمْ وَخَضْرَةَ مَائِهِ  
وَقَالَ يَصِفُ الْأَسْطُولَ :

- (١) جذيمة الأبرش ملك الحميرة ، كان لتكبره عن الناس لا ينادم إلا الفرقدين كما جاء في الأخبار .  
(٢) خفان : مأسدة قرب الكوفة .  
(٣) الخرصان : الرماح .  
(٤) الخيل كانت تطلق على الصحراء بين العريض ومصر .  
(٥) الذيفان : السم .

وكانَ بحر الروم مُخلَقَ وجهُه وطفَت عليه منابِثُ المرجانِ  
ولقد أتى الأسطولُ حينَ غزا بما لم يأتِ في جينٍ من الأحيانِ  
أحبُّ إلىَّ بها شوانِي أصبَحَتْ من فتكها ولها العداةُ شوانِي (١)  
شَبَهَنَ بِالغِرْبَانِ فِي ألْوَانِهَا وَقَعَلَنَ فِعْلَ كَواسِرِ العِقبَانِ  
أوقرتها عُدَدُ القِتَالِ فقد عُدَّتْ فيها القِنَا عوضاً عن الأَشْطَانِ  
فأتتكَ مُوقرةً يَسْبِي بَيْنَهُ أسْرَاهُمُ مغلولةً الأذْقَانِ  
حربٌ عَوَانٌ حَكَمَتِكَ مِنَ العِدَا فِي كلِّ بَكْرٍ عِنْدَهُمْ وَعَوَانِ  
وأعدتْ رُسُلَ ابنِ القَسِيمِ (٢) إليه فِي شِعْبَانِ، كَتَى يتلاءَمُ الشِعْبَانِ  
والفَالِ يشهدُ باسمه أن سَوفَ يَغُـ — لُو الشَّامُ وهو عليكما قِسمَانِ

ويصف مقتل البرنس — أحد قادة الصليبيين — ويصف رأسه على الرمح  
بمعنى بديع — كقول العماد :

قَتَلَ الرُّسَّسَ وَمِنَ عِساهُ أَعَانَهُ لَمَّا عَتَا فِي البَغْيِ والعُدْوَانِ  
وَأَرَى البَرِيَّةَ حِينَ عَادَ برَأْسِهِ مُرَّ الجَنَى يَتَدَوُّ عَلَى المُرَانِ (٣)  
وتعجَّبوا من زرقَةٍ فِي طَرْفِهِ وَكَانَ فَوْقَ الرُّمْحِ نَصْلاً ثَانِي  
فليهنه أن فاز منك بسيدٍ أوفى برتبته على كيوان (٤)  
قد ضاع من أرماجه لمسامع الأُمِّ سَلَكَ أَقْرَاطاً مِنَ الخِرْصَانِ  
والخَيْلُ تَعَلَّمُ فِي الكَرْبِيةِ أَنَّهُ قَدِ حَطَّ هَيْكَلُهَا عَلَى الفِرْسَانِ  
عجبا لجود يديه إذ تبنى العُلا وَالسَّيْلُ يَهْدُمُ ثَابِتَ الأَرْكَانِ

وغزل المهذب في معظمه نسيبٌ بدوى الطابع والروح يعمد فيه إلى العود  
للمنودج الجاهل فيقول من رائية رقيقة — على بداوتها :

هَمُّ نُصْبُ عَيْنِي، أَنجَلُوا أَوْ غَارُوا وَمُنَى فَوَادِي، أَنْصَفُوا أَوْ جَارُوا  
وهم مكان السر في قلبي وإن بَعُدَتْ نَوَى بِهِمْ وَشَطَّ مَزَارُ  
فارتهم، وكانهم في ناظري مِمَّا تَمَثَّلُهُمْ لِي الأَفْكَارُ

(١) الشوانى الأول نوع من السفن الحربية في زمانهم ، والثانية من شتا أى حاقنون .

(٢) يعنى بابن القسيم نور الدين محمود صاحب دمشق يومئذ .

(٣) المران الرماح .

(٤) كيوان هو نجم زحل عند العرب ويمثلون به في البعد .

إلا القلوب منازل وديار  
منهم ديار الأنس وهي قفار  
فلهم بأجواز الفلا أمصار  
جاران : فيض الدمع والتذكار  
هجرتهم الأوطان والأوطار  
تبدو، ولكن فوقها أعمار  
ألا يقر لهم عليه قرار  
عنى، وهل بعد النهار نهار؟

تركوا المنازل والديار فما لهم  
واستوطنوا البيد فأصبحت  
فليين غدت مصر قلاة بعدهم  
أو جاوروا نجداً فلي من بعدهم  
ألقوا مواصلة الفلا والبيد مذ  
بقلائص مثل الأهيلة عندما  
وكأنا الآفاق طراً أقسمت  
والدهر ليل مذ تئأت دأهم  
ويقول فيها :

فلنا اعتبار فيك واستيعبار  
أوقاته فجميعه أسخار  
طالت لي الأيام وهي قصار  
إني على غير الهوى صبار

أمنازل الأحباب غيرك البلى  
سقى لدهر كان منك تشابهت  
قصرت لي الأعوام فيه فمدت ناوا  
يا دهر لا يغرك ضعف تجلدى

وله في الوصف شعر جيد، وما صور فيه بعض ملاهي عصره من  
راقصات، ومغنيات ومجالس خمر وشراب. فيقول؛ وقد أبدع وصف  
الشموع :

ترانا نمنح أركانها  
وطوراً أنادم غزلانها  
فضضنا عن الشمس أدنانها  
قرأت بأنفك عنوانها  
جعلنا من الروح فرسانها  
تفضح خداه ألوانها  
أحال إلى التبر مرجانها  
در يفصل عقبانها  
عروض ثقيد أوزانها  
وجرت دياجيه أردادها  
صنعنا من النار تيجانها

حججنا بها كعبة- للسرور  
فطوراً أعانق أغصانها  
على عاتق إن خبت شمسنا  
وإن ظهرت لك محبوبة  
كميت من الراج لكنما  
يطوف بها بابلي الجفون  
بكأس إذا ما علاها المزاج  
كان الحباب وقد قلده  
وراقصة رقصها للحنون  
ولما طوى الليل ثوب النهار  
جلوتنا عرائس مثل اللجين

وصاغت مدامها جلية  
 رماحاً من الشمع تجلو الدجى  
 بها ما بأفدة العاشقين  
 وقد أشبهت رقباء الحبيب  
 وفيها دليل بأن الثفور  
 ومن قوله في الشمعة كذلك :

وُصْفَرَةٌ لا عن هوى غير أنها  
 شجوناً وسقماً، واصطباراً وأدمعاً  
 إذا جمشتها الريح كانت كمعصم  
 وذكر العماد أن من أوصافه في الخمر ما سار واشتهر وهو قوله :

فبتُّ منها أرى النار التي سجدت  
 راح إذا سفك الندمان من ذمها  
 فقل لمن لام فيها إننى كلف  
 لها المجوس من الإبريق تسجد لي  
 ظلت تفهقه في الكاسات من جدل  
 مُعْرِى بها فعل ما أغريت بالعدل

وهو في الوصف ذو خيال مخلق يجلب الصور الغريبة غير المألوفة فيما  
 جرت عليه المعاني كتلك الصور والأخيلة الكثيرة التي مرت بنا في مدائحه ،  
 وغزله ، ووصفه مجالس اللهو والشراب ومن غرائبها صورة الشموع والخمر  
 فهي على غير مثال سابق . وتحسب من إبداعاته .

وشاعرية المهذب كما شاهدنا دافقة ، فطول النفس ، وانسياب القول في  
 سلاسة دون تعقيد ولا تكلف . ولا يعدُّ من أصحاب الصنعة ، وإن اتفق في  
 شعره ألوان من صبغ البديع ، فهو قد يستخدم الجناس حلية ، واقتنائاً في  
 عرض المعنى ، وقريب منه التوشيح ، وهو البدء بلفظ وختام البيت باللفظ  
 نفسه أو مشتقه وجنسه . وهو ضرب من الرباط اللفظي ، يوقر النسق  
 الصوتي ، والأحكام المعنوي . ومن هنا سمى توشيحاً لأنه يضم بالصوت  
 أفراد المعنى ، كما يضم الوشاح أعضاء الجسم .

ومن أمثلة جناسه في آخر البيت :

قصرت على شكرها منطقاً  
 رطيب اللسان ندى الندى

ولعله اقتضى آثار أئى تمام فى صنعة الجنس هذه كما قلنا .

ومن صوره البديعية ومعانيه الطريفة قوله :

وليلة كاعتراض الطرف قصرها      وصل الحبيب ، ولم تُقصِرْ من الأمل  
بتنا يُجاذِبُ أهدابَ الظلام بها      كف الملام وذكر الصند والملل  
وكلما رام نُطقاً فى مُعاتبتي      سدّدتُ فأه بطيب اللثم والقيل  
وبات بدرُ تمام الحسن معتنقى      والشمسُ فى فلك الكاسات لم تقل

ويجمع قاموس شعره بين ألفاظ الشعر القديم ، ومحدث اللفظ ، ويجرى فيه بعض أسماء النجوم ، والأحجار الكريمة ، ومصطلح العلوم كالكيمياء وغيرها .

وتتنوع أوزان الشعر فى ديوانه ، فهو لم يؤثرأ وزناً على آخر ، وينظم فى مجزوءات البحور كغيره أحياناً فى مقطعاته أو بعض موضوعات الغزل واللهو والخمر .

وقوافيه محكمة غالباً ، وقد نند منه أحياناً إذا طالت القصيدة بعض القوافي ، فتأتى قلقة فى موضعها ، أو غير مناسبة . ويعمد أحياناً إلى الضرورة فيتحول اللفظ ، أو يأتى به على غير اشتقاقه المعتاد . كما قد يغرب أحياناً فى اختيار اللفظ إذا اضطره الوزن .

ويوفر غالباً لتنظيمه سلاسة الأيقاع ، بمراعاة النسق بين أصوات الحروف ومخارجها ، وهو يجمع بين جزالة الصوت ، وروانة البناء ، والرقّة كل فى ما يناسبه من المعانى .

## عمارة اليمنى (١)

( ت ٥١٥ هـ — ٥٦٩ هـ )

وهو عمارة بن علي بن زيدان الفقيه .

أصله من زييد أو مرطان باليمن ، ولد بها سنة ٥١٥ هـ ، وبه تفقه ، ودرس ، وكان شافعي المذهب ، خرج من بلده اليمن سنة ٥٤٩ هـ قاصداً الحج ، ومكث في مكة زمناً اتصل فيها بأميرها قاسم بن هاشم ، وبعثه هذا رسولاً إلى الخليفة الفاطمي الفائز بالقاهرة .

ونشأ نشأة دينية في مكانٍ من أماكن اليمن المرعة يدعى وادي وساع . قال في النكت «بها المولد والمرن، وأهلها بقية العرب في تهامة لأنهم لا يسكنهم حضريٌّ ، ولا يناكحونه ، ولا يُجيزُونَ شهادته .. ولذلك سلمت لغتهم من الفساد» .

وكانت أسرة عمارة أسرة سيادة بين قومه ، فقد كان والده سيدهم بعد وفاة عمه وخاله ، وكان كذلك من السادة .

قال : « وتماسكت أحوال الناس بوالدي إلى سنة تسع وعشرين وخمسمائة ( ٥٢٩ هـ ) وفيها أدركت الحلم . قال وخرجت عنها — أي عن بلده — سنة ٥٣٠ هـ ونحن أحسن الناس حالاً وفيها بعض التماسك بسبب مالٍ كانت والدتي ورثته عن أبيها » (١) .

ويقول : « وفي سنة إحدى وثلاثين دفعت لي والدتي مصوغاتها بألف دينار ، ودفع لي أبي أربعمائة دينار وسبعين ، وذهبت بالمال إلى زييد » .

ونصحه والداه بأن يتصل في زييد بالوزير ، ويُنفق المال على نفسه لاصلاح حاله وقال له : لا ترجع حتى تفلح ، فقد احتسبناك عند الله وصيرنا عنك .

قال : « فأنزلني الوزير مسلماً في داره مع أولاده » .

(١) راجع ترجمته في الخريدة شعراء ، ص ١٠١/٣ ، وفيات الأعيان ٤٣١/٣ ، فوات الوفيات مرآة الزمان ٣٠٢/٨ ، وحسن المحاضرة ٤٠٥/١ ، النكت العصرية .

(٢) النكت العصرية ص ٢١ .

ولازم في زيد الطلب ، وظل أربع سنين لا يخرج من المدرسة إلا للصلاة يوم الجمعة وفي السنة الخامسة زار والديه ، ورد المصوغ إلى والدته ، فلم يحتج إليه .

وفي زيد تلقى أصول الفقه الشافعي ، والفرائض والموارث .  
قال : « ولي في الفرائض مُصنّف يُقرأ في اليمن » .

وفي سنة ٥٣٩ هـ زاره والده وخمسة من أخوته بزويد ، فانشده شيئاً من شعره . فاستحسنه ، وكانت سنة أربعاً وعشرين سنة . وقال له أبوه بعد سماع شعره : تعلم والله أن الأدب نعمة من نعم الله عليك ، فلا تكفرها بدم الناس . قال : واستحلفتني ألا أهجو مسلماً قط بيت شعر ، فحلفت على ذلك ، ولطف الله بي فلم أهج أحداً والله المحمود ، ماعداً إنسان هجاني بحضرة الملك الصالح ( طلائع ) بيتي شعر ، فأقسم الصالح علي أن أجيبه ففعلت (١) .

وعرفنا أن الصالح بن رزيك كان يغري الشعراء بعضهم ببعض في مجلسه .

وخرج عمارة من زيد إلى مكة كما قلنا حيث أرسله أميرها في سفارة إلى مصر يقول : « فقدنا — إلى الدولة المصرية — في شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسائة والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك » .

قال : ولما أحضرتُ للسلام عليهما في قاعة الذهب في قصر الخليفة أنشدتهما قصيدة أولها (٢) :

الحمدُ للعيس بعد العزمِ والهَمِّمِ  
لا أجحدُ الحقَّ، عِنْدِي للركابِ يَدُ  
قَرَبِينَ بَعْدَ مَزَارِ العِزِّ من نظري  
ورحمتُ من كعبةِ البطحاءِ والحِزَمِ  
فَهَلْ دَرَى البيئَةُ أتَى بَعْدَ فُرْقَتِيهِ  
حمداً يَقُومُ بما أوَلتُ من النَّعَمِ  
تَمَنَّتُ اللَّجْمُ فيها رُتْبَةَ الحَطَمِ  
حَتَّى رَأَيْتُ إِمَامَ العَصْرِ من أَمِّمِ  
وفداً إلى كعبةِ المعروفِ والكرَمِ  
ما سَبَرْتُ من حَرَمِ إلَّا إلى حَرَمِ

(١) النكت ص ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢-٣٣ .

وذكر أن الصالح أعجب بالقصيدة ، واستعاد انشادها منه مراراً ،  
والأستاذون ، والكبراء في المجلس يذهبون في الاستحسان كل مذهب . ودفع  
الصالح له خمسمائة دينار . قال : « وإذا بعض الأستاذين قد أخرج لي من عند  
السيدة الشريفة — عمة الفائز — وبنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار أخرى .

قال : وحملتُ المالَ معي إلى منزلي ، وأطلقت لي من دار الضيافة رسومَ لم  
تُطلق لأحد من قبلي . وتهادتني أمراءُ الدولة إلى منازلهم للولائم . قال :  
واستحضرني الصالح للمجالسة ونظمني في سلك أهل الموائسة ، وانتالت عليَّ  
صلاته ، وغمرني بره ، ووجدتُ بحضرتِه من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس  
أبا المعالي ابن الجباب ، والموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا الفتح  
محمود بن قادوس ، والمهذبُ أبا محمد الحسن بن الزبير . وما من هذه الحلبة  
أحدٌ إلا ويضربُ في الفضائل النفسانية ، والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب .

وبعد أن مكث في صحبة ابن رزيك بقية عام ٥٥٠ هـ غادر مصر إلى مكة  
في أخريات السنة إلى مكة ، فعدن باليمن ، ثم عاد من اليمن إلى مكة مرة أخرى .  
وعبر إلى مصر ، فتوقف بقوص ، ويبدو أن عبوره كان عن طريق جدة عيذاب  
عبر البحر الأحمر .

ومكث بقوص زمناً ، وكانت آنذاك عامرة بالعلم والعلماء . ورحل من  
قوص إلى القسطاط وأذن له الملك الصالح بالمثل مرة أخرى بحضرتِه .

وكان ابن رزيك فيما يرويه عمارة قد غضب عليه لتأخره عنه ، وبرر ذلك  
عمارة بأن الحجاج المصريين نهبوا ذلك العام بالحجاز بواسطة أمير مكة ، فظن  
الصالح أن عمارة كان يعلم بذلك إلا أنه اعتذر بأن لا علم له ولا دخل فيما  
حدث . وأنشد ابن رزيك قصيدة يبرأ فيها مما ظنُّ به .

وكان مما أغضب الصالح منه ما نقل عن عمارة أنه طعن في مذهب  
الإمامية .

ومما استعطفه به قبل أن يصفح عنه قوله في بيتين بعث بهما من قوص :

ولي تحت دار الملك يومان لم تلح  
ولعيني علامات الكرامة والبشر  
وقد أخذت أيام قوص نصيبها  
فهل نُقلت تلك السجايا إلى مصر



قال عمارة : فخرج أمره بانزالي وإكرامى . وإيصالى إليه . فأنشدته عند السلام عليه قصيدة أصف فيها وقعة العرش مع لإفرنج ، وأشرت فيها إلى البراءة مما تُسبب إليّ من القول في مذهبه منها :

فاعلم وأنت بما أريدُ مقالهُ	متى ومن كلّ البريّة أعلمُ
أُمّي حُسيذتُ على مقالتيك التي	من أجليها في كلّ أرضٍ أكرمُ
وبدون ما أسديته من نعمة	سُدّي الرّجال الحاسِدون والحُمّوا
إن كان ما قالوا، وليس بكائين	فأنا امرؤٌ ممّن سعى في الأمّ
غذّر كما اختار الحسودُ وموقف	ألزمتُ نفسي فيه ما لا يلزمُ
كذبٍ وحقك، لو حلمتُ بذكره	أقسمتُ أني بعده لا نُحتمُ
راجع جميل الرأي في بنظرة	تُضجى عواطفها تسبح وتُسجُمُ
فالليل إن أقبلتُ صبحٌ مُسفرٌ	والصبحُ إن أعرضتُ ليل مُظلمُ
بدأتُ صنائعك الجميل ومثلها	بأجل من تلك البداية تُختمُ

قال : فزال ما كان عنده ، وعاد إلى أفضل عوائده « (١) » .

وعاد إلى المجلس ، قال وأمرني الصالح بملازمة الخدمة في المجالسة ، والمواكبة والمدح له . وتأكدت الحرمة ، وتضاعفت المزية والاختصاص . وكانت تجرى بحضرته مسائل ومذكرات يأمرني بالخوض مع الجماعة فيها ، وأنا بمعزلي عن ذلك لا أنطقُ بحرفٍ واحد ، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدتُ عند ذكره وسماعه قول الله عزّ وجل ( فلا تقعدُ معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره ) . ونهضتُ فخرجتُ ، فأدركني الغلمان ، فقلتُ : حصاةٌ يعتادني وجعها فتركوني ، وانقطعُ في منزلي أياماً ثلاثة ، ورسوله كل يوم والطيبُ معه . ثم ركبتُ بالنهار فوجدته في البستان المعروف بالمختصّ في خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبتى ، وقال : خيراً . فقلت : إنى لم يكن لي وجع ، وإنما كرهتُ ما جرى في حقّ السلف وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلا فلا ، وكان لي في الأرض سعة ، وفي الملوك كثرة . فعجب من هذا وقال : سألتك بالله ما الذي تعتقد في أبي بكر وعمر ؟ . قلت : أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا

(١) النكت ص ٤٣

عليكم . وإنه ما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه ، ثم قرأت قوله تعالى :  
( ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ) فضحك . وكان مرتاضاً  
حصيماً ، قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم .

وطابت الحياة لعمارة في رحاب الصالح ، واتصل بكثير من أعيان مصر  
وأمرائها وكبار رجالها في حياة طلائع وبعد مقتله .

ومن مدحه من رجال الدولة الموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء .  
قال فيه (١) :

ما هاج مزنة دمه المترق  
برق يذكركي وميض مباسم  
من كل تغر منك تغر مخافة  
نسج الغفاف عليه ثوب صيانة  
سقى لأيام الشباب فإنها  
أيام يصطحب الغواني والغنى

إلا تآلق باري بالأبرق  
يسرى الهوى في ضوئها المتآلق  
عاف طريق رضايه لم يطرق  
هم الخيانة عنده لا يرتقى  
روض الحياة وزهرها المستشق  
في ظل أعضان الشباب المورق

وله مدائح كثيرة في رجال العصر غيره ، ولما استولى صلاح الدين على  
الحكم ، مدحه بقصيدة طويلة يقول فيها :

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي  
وعى كل صوت تسمعين نداءه  
تقاصر لي خطو الزمان وباعه  
وأخرجني من موضع كنت أهله  
بسيف ابن مهدي ، وانباء فاتله  
تيممت مصرأ أطلب الجاه والغنى  
وزرت ملوك النيل أرتاد نيلهم  
وفزت بألف من عطية فائز  
وكم طرقتني من يد عاضدية  
وجاء ابن رزيك من الجاه والغنى  
وأوحى لي سمعي ودائع شعيره

لنفثة مصلور وأتية موجع  
فلا خير في أذن تنادي فلا تعي  
فقصر من ذرعى ، وقصر أذرعى  
وأنزلى بالجور في غير موضعي  
أقض من الأوطان جنبي ومضجعي  
فناشتهما في ظل عيش ممتع  
فأحمد مرتادي ، وأخصب تربعي  
مواهبه للصنع لا للتصنع  
سرت بين يقظي من غيون وهجج  
بما زاد عن عزمي رجائي ومطمعي  
فخبرته متى بأكرم مودع

(١) الرواى للصندى ٢٢ / ٣٨٨ .

وكان كما قلنا قد تعرف على جماعة من الأعيان ، مدحهم بشعره ، وذكر في النكت بعضاً ممن مدحهم من هؤلاء ، ومدائحه فيهم ، وما أعطوه من الجوائز . ومن بين هؤلاء الملك العادل رزيك ابن الصالح . وأخوه ، وصهره ، وضرغام وأهله ، وولده ، وشاور وابنه طي . وكانت له مع كل هؤلاء علاقات ، وصدقات ، وقد أولوه رعايتهم ، وأغرقوه بانعامهم من المال ، والجواري والمتاع والخيل ، والدور .

وكان من بين ما أهدى إليه دار لأحدهم على الخليج انتقل إليها بعد سكنه أول الأمر بالفسطاط ثم بدار بالقاهرة انتقل إليها بعد مقتل الصالح ، وقد احترقت داره التي على الخليج ، واحترق فيها كثير من متاعه وشعره .

وكان عمارة يخدم بشعره ، وكان له راتب معلوم على هذه الخدمة ، فطلب من شاور بعد توليه الوزارة أن يعفيه من الخدمة بالشعر . قال في النكت :

« ورأيت يوماً وقد انشرح صدره ، فقلت له إن لي مدة تنازعني النفس في الحديث معك في حاجة ، وقد عزمتم أن أقولها لك ، فإن قفيتها ، وإلا كنت أبليت عند نفسي عنراً . قال : وما هي ؟ . قلت : تُعفيني من عمل الشعر ، وتنقل الجارى علي على الخدمة راتباً على حكم الضيافة ، فإنني أرى أن التكبُّب بالشعر والتظاهر به نقيصة في حقي . قال : فما منعك أن تستغفي في أيام الصالح وابنه ؟ . قلت : كانت لي أسوة وسلوة بالشيخ الجليس ابن الحياض ، وبابن الزبير ؛ الرشيد والمهذب . وقد انقرض الجيل والنظراء .

قال : تُعفي . ثم أمر بإنشاء سجل بإعفائي ، وأخذ عليه خط الخليفة وخطه بذلك ، فقلت أشكره من قصيدة :

تغدو مهائبه حجاباً دونه      ونداهُ عنناً ليس بالمحجوب  
سكنتُ محبته وهيبه بأسيه      متاً سوادى ناظرٍ وقلوب .

وكانت خدمته هو وشعراء عصره للخلافة ، والوزراء والكبراء شبه إجبارية لأنهم يتقاضون عليها راتباً . فكان لا بد لهم من نظم الشعر في كل مناسبة ، وكان هؤلاء الرسميون في الدولة يطمعون منهم في ذلك ، بل ويتنظرونه ، ويميزون عليه فوق الراتب عطاءً . فالشعراء حينئذ أشبه بالجرائد والصحف اليومية تنشر أبناء الأحداث وأخبار الناس .

ومعظم هذا الشعر الرسمي نظم متكلف متكرر المعاني يخرج بتكلفه عن معنى الشعر والشاعرية . ولا نتوقف منه إلا عند بعض الأجزاء التي انطلقت فيها شاعريته عن إحساس صادق تلقائي ، كالشعر الذي قاله يعبر عن علاقات مودة ، أو امتنان أو وصف لما أعجبه ، وأسعده ، أو ذكر لأشجانه وآلامه وشكواه وحسرتة ويقع في هذه الدائرة مراثيه ، وبخاصة لطلّاح بن رزّيك وابنه . وقد كان يكنُّ لهما محبة ، ويدين لهما بالكثير مما وصل إليه من مكانة وغنى . ومنه قوله عقب مقتل الصالح :

أفي أهلٍ ذا النّادى عليّمْ أسأئلهُ  
سمعتُ حديثاً أحسدُ الصّمِّ عندهُ  
فقد رابني من شاهيدِ الحالِ أنّني  
وأنتي أرى فوقَ الوجوهِ كآبَةً  
دعوني فما هذا بوقتِ بكائه  
ولم لا تُبكيه ونندبُ فقدَهُ  
فيا ليت شعري بعدَ حُسْنِ فعّالهِ

فإني لِمَا بي ذاهبِ اللَّبِّ ذاهلةُ  
ويذهلُ واعيهِ ، ويخرسُ فأئلهُ  
أرى الدّستَ منصوباً وما فيه كافلهُ  
تدلّ على أن الوجوهَ ثوابلهُ  
سيأتِيكمُ طلّ البكاءِ وورائلهُ  
وأولادنا أيتامه وأراملهُ  
وقد غاب عنّا ما به الدّهرُ فاعلّهُ

ويقول :

تنكّذ بعد الصّالِحِ الدّهرُ فاغتدت  
أيجدُبُ خدي من ربيعِ مدايعي  
وهل عنده أنّ الدخيل من الجوى  
وإن برقتُ سنّتي لذكرِ حكايةِ

مجالسُ أيامي وهنّ غيوبُ  
وربعي من نغمي يديهِ خصيبُ  
مقيم بقلبي ما أقام عسيبُ  
فإن فؤادي ما حيت كئيبُ

وظل كئيباً بعده ، وإن ضحكت سنه مع من لازم من الوزراء الذين تقلبوا على الوزارة في هذه المرحلة المضطربة من تاريخ الفاطميين . فقد كثر فيها الطامعون واقتتل الأعوان واغتال الخدم والأصحاب بعضهم بعضاً . لقد شارك خضير غام في قتل ابن الصالح ، وكان من أقرب أعوان أبيه طمعاً في الوزارة ، وقتل ضرغام ، وتولى شاور ، وقتل ابن شاور ثم قتل شاور بعد تغلب الغزّ من رجال نور الدين وصلاح الدين .

واضطّر عمارة أن يجارى الأحداث ، وأن يدهن أحياناً ، لكنه ظل على ولائه للفاطميين ولطلّاع وابنه وعشيرته حتى مقتله بأمر صلاح الدين ، وكان وفاؤه سبباً في نهايته المؤلمة .

لقد مدح صلاح الدين ، ومدح أباه نجم الدين ، وأخاه وعشيرته ، ومدح نور الدين محمود ، لكن هذا المديح لم يحمل حرارة الصدق ، وإن شارك هؤلاء في المذهب ، فقد كانوا شافعية سنّية ، وكان هو شافعيّاً سنّياً ، وكان ابن رزيك إمامياً متعصباً . ومع ذلك فقد كان شعره فيه وفي التحسر على الدولة بعد سقوطها وعزل الخليفة العاضد شعراً صادقاً ، لا صنعة فيه ولا تكلف . وقد ذكر له المؤرخون ذلك وأشادوا به .

قال ابن واصل (١) : « وكان عمارة شديد التعصب لهم — أى الفاطميين ، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه ، وتولّوه ، فرعى ذلك ووفى لهم ، والإنسان كما قيل صنّيعه الإحسان . ولم يكن على مذهبه ، وإنما كان شافعيّاً سنياً ، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر ، وذبّ عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليد . ثم لما تحرك جماعة في عود الأمر إليهم كان من جملة المساعدين على ذلك شكرا لهم على إحسانهم إليه ، فأدّى به ذلك إلى أن شقّق .. فمن جملة قوله فهم يرثيهم قصيدة ذكرتها بجملتها لفرط حسنها . وهي (٢) :

وجيده بعد حُسنِ الحَلِيّ بالعطَلِ  
قدَرْتُ من عَثْرَاتِ الدَّهْرِ فاستَقِلِ  
يُنْفَكُ بين أمرِ الشَّيْنِ والحَجَلِ  
سُقِيَتْ مُهْلًا، أما تمشى على مَهَلِ  
على فجيعتها في أكرم اللُّوَلِ  
من المكارم ما أرى على أُمَلِي  
كألها أنها جاءت ولم أسَلِ  
رأسُ الحِصَانِ بهاديه على الكفَلِ  
وئحْلة حُرِسَتْ من عارضِ الخَلَلِ

رَمِيَتْ يا دَهْرُ كَفِ الجِدِّ بالشَّلَلِ  
سَعِيَتْ في منهجِ الرُّأْيِ العُثُورِ فإن  
جَدَعْتَ مَارِئَكَ الأَقْتَى، فانفَكْ لا  
هدمتْ قاعلة المعروف عن عَجَلِي  
لهفي ولهفِ بنى الآمالِ قاطبة  
قَدِمْتُ مصر فأولاني خلائفها  
قومٌ عرفتُ بهم كسبِ الألوْفِ ومن  
وكنْتُ من وزراء الدُّسْتِ حين سَمَا  
وئلْتُ من عظماء الجيشِ تَكْرِمَةً

(١) مفرج الكروب ١/٢١٢ .

(٢) مفروج الكروب ١/٢١٢ .

يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة  
 بالله زر ساحة القصرين وابك معي  
 وقل لأهليهما : والله ما التحمت  
 ماذا ثرى كانت الإفرنج فاعلة  
 هل كان في الأمر شي غير قسمة ما  
 وقد حصنتم عليها واسم جدكم  
 مررت بالقصر ، والأركان خالية  
 فملت عنها بوجه ، خوف منتهيد  
 أسبلت من أسف دمعي غداة خللت  
 أبكى على مآثرات من مكارمكم  
 دار الضيافة كانت أنس وافدكم  
 وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم  
 وكسوة الناس في الفصلين قد درست  
 وموسم كان في يوم الخليج لكم  
 وأول العام والعيدين كم لكم  
 والأرض تهتر في يوم العدير كما  
 والخيل تعرض في وشي وفي شية  
 وما حملتم قري الأضياف من سعة  
 وما خصصتم بئر أهل ملتكم  
 كانت رواتبكم للوافدين وللضيـ  
 ثم الطراز بتيس الذي عظمت  
 وللجوابج من أحباسكم نعم  
 وربما عادت الدنيا فمقلها  
 والله لا فاز يوم الحشر ميغضكم  
 ولا سقى الماء من حر ومن ظم  
 ولا رأى جنة الله التي خلقت  
 أمتي وهديتي ، والذخيرة لي  
 تالله لم أوفهم في المدج حقهم  
 ولو تضاعفت الأقوال واستبقت

لك الملامة إن قصرت في عدلي  
 عليهما ، لا على صغين والجمل  
 فيكم جروحي ، ولا قرحي بمنديل  
 في نسل آل أمير المؤمنين علي ؟  
 ملكتمو بين حكم السبي والتغل  
 محمد ، وأبوكم خير متعل  
 من الوفود ، وكانت قبلة القبيل  
 من الأعدى ، ووجه الود لم يجل  
 رخابكم ، وغدت مهجورة السيل  
 جال الزمان عليها وهي لم تحل  
 واليوم أوحش من رسيم ومن طلل  
 تشكو من الدهر أضيافاً غير محتمل  
 ورث منها جديد بعدهم وبلي  
 يأتي تجملكم فيه على الجميل  
 فيهن من وبل جود ليس بالوشيل  
 يهتر ما بين قصرينكم من الأسيل  
 مثل العرائس في حلى وفي خلل  
 الأطباء إلا على الأكتاف والعجل  
 حتى عمتم به الأقصى من الميل  
 في المقيم ، وللطاري من الرسل  
 منه الصلات لأهل الأرض والثول  
 لمن تصدّر في علم وفي عمل  
 منكم ، وأضحت بكم محلولة العقل  
 ولا نجا من عذاب النار غير ولي  
 من كف خير البرايا خاتم الرسل  
 من خان عهد الإمام العاضد بن علي  
 إذا ارتهنت بما قدمت من عمل  
 لأن فضلهم كالوايل الهطل  
 ما كنت فيهم بخند الله بالحنجل

بابُ النجاة، فهم، دنيا وآخرة  
نور الهدى ومصباح الدجى ومع  
وحيهم فهو أصل الدين والعمل  
لئ الغيب إن وثت الأنواء في المحل  
أئمة خلقوا نوراً، فنورهم  
من نور خالص نور الله لم يقل  
والله لازلت عن جبي لهم أبداً  
ما أئخر الله لي في مدة الأجل

قالها عمارة وهو في دولة معادية قامت بعزل آخر خلفاء الفاطميين ، ويعلم  
أنه سيقتل جزاء قولة الوفاء . وقد ألمح إلى ظلم صلاح الدين للعاضد وابناؤه  
وعشيرته ، وما نهب من أموالهم ومتاعهم وفرق على أخوة صلاح الدين  
وأهله ، وبعث بعضه إلى نور الدين .

وهذه القصيدة والقصيدة الأخرى التي مدح بها صلاح الدين أو تظاهر  
بمدحه والتي ذكرنا منها أياتاً لم يخلها من غمز ولز وسماها « شكايه المتظلم ،  
ونكايه المتألم » . يقول فيها ذاكراً فضل الفاطميين ورجالهم ، وداعياً صلاح  
الدين أن يرفق بهم وبمن لاذ بهم فيقول :

ملوك رَعُوا لِي حَرَمَةً صَارَ نَبْتُهَا  
وردت بهم شمسُ العطايا لو فدهم  
هشيماً رَعَتْهُ النَّائِبَاتُ وَمَا رُعِيَ  
كما قال قومٌ في عليٍّ ويوشع (١)  
وإن خالفوني في اعتقادِ التَّشْيِيعِ  
من الحَاكِمِ الْمُصْغِي إِلَيَّ فَادْعِي ؟  
إذا حَلَقَاتُ الْبَابِ غَلَقْنَ فَاقْرَعِ  
أَتَانِي بِعَفْوِ الطَّبِيعِ لَا بِالطَّبِيعِ  
فأذلت إدلالَ الحبِّ وقلتُ ما  
سكَّتْ فقلتُ ناطقاتُ ضُرُورَتِي  
فأدلت إدلالَ الحبِّ وقلتُ ما  
وبقوله مخاطباً صلاح الدين :

فيا راعي الإسلام كيف تركتنا  
دعوناك من قربٍ وبعيدٍ فهب لنا  
فريقي ضياع من عرايا وجوع  
جوابك ، فألباري يجيب إذا دعي  
ويقول :

ألم ترعيتي للشافعي فإنه  
ونصرى له في حيث لا أنت ناصرى  
أجل شفيح عند أغلى مُشَفِّعِ  
بضرب صقيلاتٍ ولا طعن شرع

(١) ويوشع بنى اسرائيل الذي دعا ربه أن يؤخر غروب الشمس

ليالي لا وقت العراق بسجسج بمصر، ولا ربح الشام بزعرع  
 كأني بها من آل فرعون مؤمن أصرع عن ديني وإن خان مصرعي  
 حتى ينتهي إلى هذا الرجاء الذي يطلب إليه فيه أن يحفظ عليه نفسه ، وأن  
 يعامله معاملة كريمة تليق بمكائنه ، وألا تناله نعمته على الفاطميين .

فيازرع الاحسان في كل تربة ظفرت بأرض ثبت الشكر فازرع  
 وقد صورت في طي ذا النظم رقعة غدا طمعي فيها إلى غير مطمع  
 أريد بها إطلاق ديني وراتبي فاطلقهما والأمر منك فوقع  
 ويحتمها بقوله :

إلى ها هنا أمي حديثي وانتهى وما شئت في حقي من الخير فاصنع  
 وكان تعليق الصفدي على هذه القصيدة التي تبدو في ظاهرها مدحاً إلا أنه  
 مدح مطوئ على الذم ، ورجاء مغلف بالضيق والهجاء . قال الصفدي (١) :  
 « الذي أظنه وتقضى به المعنى أن هذه القصيدة كانت أحد أسباب شنقه ،  
 والله أعلم ، لأن الملوك لا يخاطبون بمثل هذا الخطاب ، ولا يواجهون بهذه  
 الألفاظ ، وهذا الإذلال الذي يؤدي إلى الإذلال . وأظن أن هذه القصيدة ما  
 أحدثت شيئاً .

قال الصفدي : فمال عمارة حيثذ وانحرف ، وقصد تغيير الدولة — والله  
 أعلم ، وكان من أمره ما كان . وعلى الجملة فقتل مثل هذا الفاضل قبيح من  
 الفاضل إن كان ذلك عن رأيه .

والصفدي ينتقد صلاح الدين والقاضي الفاضل الذي أشار بقتله ولم يشفع  
 له وقد عرف فضله أكثر من غيره لمعرفة به في دولة الفاطميين حين كان  
 الفاضل يعمل في ديوان الإنشاء مع ابن الخلال .

وهكذا قضى الفقيه الشاعر نجمة مقتولاً مصلوباً جزاء وفاته ، وصرachte .

وشعر عمارة : بعد هذا لا يحتاج إلى إيضاح أو تعليق ، فهو صورة  
 لحياته ونفسيته ، وسجل لأحداث عصره ، يصوغه متدققاً ، لا يصنعه ، فأثار  
 الصنعة قليلة به .

(١) الوافي ٢٢ / ٢٩٣



ويجربى فيه على انعط الجزل ، لا يلين في لفظه ، ويبدع أحياناً في معانيه وإن لم يخرج به عن المعاني التقليدية . وجمال شعر عمارة في صدقه وانطلاقه وينم عن مقدرته وثقافته ، وسعة اطلاعه .

ومن بديع معانيه التي جدد فيها معاني سابقه قوله :

مأ هاج مزنة دمعه المترقري	إلا تآلق باري بالأبرق
برق يذكرنى وميض مباسم	يسرى الهوى في ضوءها المتألق
في كل ثغر منك ثغر مخافة	عاف ، طريق رضاءه لم يطرق
نسج العفاف عليه ثوب صيانة	هم الخيانة عنده لا يرتقى

وقوله وقد أحال المعنى في الأطلال بصنعتة إلى جديد طريف :

بات يرعى السهي بطريف مورق	وفؤاد من الغرام محرق
ليت أيامه السوالف يرصف	من ، ويجمعن طيب عيش مفرق
دمن أنبت الجمال تراها	ورعى الشوق غصنها حين أورق
فتح الطل زهرها وتولى	نشرة راحة النسيم الذي رق

والمتبع لشعره في أوله أيام كان في بلده اليمن أو في أوليات حياته بمصر ، ثم شعره بعد أن أقام بين المصريين وطالت إقامته ، وعاش الحياة في القاهرة والفسطاط والاسكندرية وشرب من النيل ، وتنقل في ربوع مصر وخالط أهلها يجد فرقا بين أوله وآخره ، فقد اكتسب كما قال بعضهم فيمن جاء إلى مصر حلاوة النيل ، ولطفا ورقة من شمائل المصريين .





وقال في هجاء شاعر :

لو كان يُتصَف حين يُتَشَرُّدُ شِعْرُهُ وسط القلَا  
صفوه عِدَّة كلِّ حَرِّ في فيه لكن جَمَلًا  
أى ما يساويه كل حرف من حساب الجَمَل .

ومن تطرقه على هذا النحو :

ابن فلان رجلٌ صالحٌ فامتحنوه واقبلوا رَأَى  
إرموه في البحرِ لكي تنظروا فإِنَّه يمشى على الماءِ

وله في هجاء رجلٍ كبير الأنف متظرفا :

عليك لا لك أنْفٌ ظلَّ مشرفًا حتَّى غدا بنجوم الأفقِ مُلتصِقًا  
فلا تُقلَّ خلقَةُ الله . ارتدَّرت بها فقد يُعاذُ به من شرِّ ما خلقا

فتعجبُ كيف وَظَف الآيَةَ القرآنية في السخرية من أنْف الرجلِ .

وكان يقصد زميله وجليسه الكاتب القاضي الجليس ابن الحباب ، فقد كان  
معروفًا بكبر انفه مما أغرى بعض الشعراء بالسخرية منه .

القاضي الجليس ابن الجباب ( ت سنة ٥٦١ هـ )

أبو نعيان عبد العزيز بن الحسين بن جباب الأغلبي السعدي التميمي من  
سنة الأغلبة أمراء أفريقية تولى ديوان الإيالة للخليفة الفاتح مع ابن الخلال .  
وكان من جلساء طلائع بن رزيق وكان مشهوراً بكبر أنفه مما جعله مادة  
لتندر الشعراء . وكثيراً ما كان طلائع يُغريهم به كعادته في إغراء الشعراء  
بعضهم ببعض . ولقب بالجليس لمجالسته الخلفاء . والجباب لأنه كان يجلس في  
سوقهم ( يعني سوق الجباب ) .

قال عنه العماد<sup>(١)</sup> : « جليس صاحب مصر فضله مشهور ، وشعره  
مشهور وقد كان أوحد عصره نظماً ونثراً ، وترسلاً وشعراً » .

وذكر عمارة أنه ذهب إلى اليمن في سفارة

قال الصفيدي : وسمى الجليس لأنه كان يعلم الظافر وأخويه أولاد الخافظ  
القرآن الكريم والأدب ، وكان عاداتهم يسمون مؤدبهم الجليس .

وشعره كشعر ابن قادوس ، وابن الخلال ، غالبه مقطعات كشعر الكتاب  
ويغلب عليه الصنعة ورقة اللفظ . ومن صنعته في المديح قوله :

ومن عجب أن السيوف لديهم      تحيض دماء . والسيوف ذكور  
وأعجب من ذا أنها في أكفهم      تأجج ناراً ، والأكف بحور

ومن شعره المصنوع قوله متممكا بطيب :

وأصل بليتي من قد غزاني	من السقيم الملاح بعسكرين
طيب طبه كغراب يين	يفرق بين عاطفتي ويني
أني الحمى وقد شانت وبانت	فرد لها الشباب ينسختين
ودبرها بتديير لطيف	حكاة عن سئين أو حنين
وكانت نوبة في كل يوم	فصيرها بحذق نوبتين

(١) ترجمته في الخريدة ١/ ١٨٩١ شعراء مصر والنك العصرية عمارة . والراق ح ١٨ ٤٧٣

نوات الوفيات لابن شاكر ٢٧٨ . النجوم الزاهرة د ٢٩٢

(٢) الخريدة ١/ ١٨٩١

ومن صنعته في الغزل قوله :

رَبِّ يَبْضُرُ سَلْلَانَ بِاللَّحْظِ بِيضاً  
وخلودٍ للدمع فيها خلود  
وقوله :

حَبْدًا مِيعَةً الشَّبَابِ الَّتِي يُغْفَرُ  
إِذْ بَدَأَتْ الحِمَارِ أَمِيعُ لَيْلِي  
والغواني لا عَنْ وَصَالِي غَوَانِ  
والبوارير إلى جوارير جَوَارِي

قال العماد : وقال وقد جمع ثمانى تشبيهات في بيت واحد :

بدا وأرانا منظراً جامعاً لما  
تفرَّق من حسن على الخلق مُوزِنًا  
أفاحًا ، وراحًا تحت وردٍ ورنجس  
وليلًا وصباحًا فوق غصن على نقا  
لعله أراد ثمانى استعارات ، فالمشبه هنا مطوَّى غير مذكور .

وربطت بينه وبعض الشعراء من أصحاب طلائع مودة . ومنهم المهذب  
ونقل له العماد أبياتاً كتبها إليه مع طيبٍ أهدها :

بَعَثْتُ عِشَاءً إِلَى سَيِّدِي  
بِمَا هُوَ مِنْ خَلْقِهِ مَقْتَبَسٌ  
هَدِيَّةَ كُلِّ صَاحِبِ الإِخَاءِ  
جَرَى مِنْهُ وَتَكَ جَرَى النَّفْسِ  
فَعَجْدًا بِالْقَبُولِ وَأَيُّقُنُ بَأَنَّ  
لَفَرَطِ الحَيَاءِ أَتَتْ فِي القَلَسِ

كما حدثت بينه وبين بعضهم نفرة ، فقد هجا عمارة بيتين يقول فيهما :  
وكم في زييدٍ من فقيهٍ مُصَدِّرٍ  
وفي صَدْرِهِ بَحْرٌ مِنَ الجَهْلِ مُزِيدٍ  
إِذَا ذَابَ جِسْمِي مِنْ حَرِّ وِرْدِ بِلَادِكُمْ  
عَلَقْتُ عَلَى أَشْعَارِكُمْ أَتِيرِدُ  
يذم شعر عمارة ، ويصفها بالبرود .

وهجاه بعض الشعراء ومن بينهم من يُسَمِّي ابن الصياد ، فقد أغرى بأنفه  
الكبير وأكثر من السخرية منه . ودافع عنه صاحبه ابن قادوس فقال :

يَا مَنْ يَعِيبُ أَنْوَفَنَا الـ  
شُمَّمُ الَّتِي - لَيْسَتْ تُعَابُ  
الأنف خَلْقَةُ رَبَّنَا  
وقروئك الشَّمُّ اِكْتِسَابُ

ونقل العماد شعراً له في طلائع بمناسبة وقعة عباس وابنه نصر في مقتل الخليفة الظافر وبعض أخوته وعمه يستنفره . يقول :

فأين بنو رزيك عتاً ونصرهم وما هم من منعة وزياد  
فلو عاينت عينك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برفاد  
تدارك من الإيمان قبل دثوره حشاشنة نفس آذنت بنفاد  
فمزق جموع المارقين فإنها بقايا زروع آذنت بحصاد  
وبعث بشعر له مع خصلات شعر بعض نساء القصر .

ويشير إلى نهوض ابن رزيك من الصعيد إلى القاهرة لملاقاة عباس وابنه وفرار هذا لعدم قدرته على المواجهة إلى الشام . قال الجليس :

ولنا ترامي البربري ببجمله إلى فتكة ما رامها قط رائم  
ركبت إليه متن عزمتك التي بأماها تلقى الخطوب العظام  
وقدت له الجرد الجياد كأنما قوائمها عند الطراد قوادم  
وتنصل منها والعجاج خضابها هواد لأركان البلاد هوادم  
تجالت عن الماء القراح فريها دماء العدى فهي الصوادي الصوادم  
وقمت بحق الطالبين طالبا وغيرك يفضي دونه ويسالم  
أعدت إليهم ملكهم بعدما لوى به غاصب حق الأمانة ظالم  
فما غالب إلا ونصرك غالب وما هاشم إلا وسيفك هاشم  
فأذرك بثار الدين منه ولم تنزل عن الحق بالبيض الرقاق تُحاصم

وقال بمدحه :

سُيُوتُكَ لا يُقَلُّ لها غِرارٌ فنوم المارقين بها غرار  
يُجَرِّدُها إذا أحرجت سُخطٌ على قوم ويعمدها اغتفار  
طريدك لا يفوتك منه نازٌ وخصمك لا يُقال له عثار

فمر يا صالح الأملاك فينا بما تختاره ، فلک الخيار  
فقد شفعت إلى ما تبغيه لك الأقدار والفلک المدار  
ولو نوث النجوم له خلافاً هوث في الجؤ يذروها انتشار  
وله غزل حضري مثل قوله :

داح فجلاؤه مُحْيَاهُ  
والبدر لا يُكْتَمُ مَسْرَاهُ  
كما وشى بالمسك رِيَاهُ

زار وجنح الليل محلولك  
مُلْتَمِئاً يَئِدِيهِ لِأَلَاؤُهُ  
نَمَّ عَلَيْهِ طِيبُ أَنْفَاسِهِ

وقوله :

فكسأه لون الحزن من أزهاره  
خديه لا يُطْفِي تَلْهُبُ ناره  
نار الحشا، وتزيد في استعاره  
وإذا انشى فالطرف في آثاره  
وجوانحي للحين من أنصاره

قد طرزت وجنائه بعداره  
وتألفت أضداده فالماء في  
وحكيته فمدامعي تهجي على  
وإذا بدا فالقلب مشغول به  
فمتى أعان على هواه بنصرة

ويجيد في الوصف بين وصف المعارك ووصف الرياض والزهور . يقول في

معركة :

تناكر أحياناً ، وإن قرب النحر  
وإن لمعت أسياقه طلغ الفجر  
وقتلى يعاف الأكل من هامها النسر

تكاد من التقع المثار كمائها  
عجاج يظل الملتقى منه في دجى  
وخيل يلف النسر بالترب عدوها

ويصف النرجس فيقول :

يحكي العيون فقد حباها نفسها  
شغفاً إذ الأشياء تعشق جنسها  
كم مئة في أنسه من أنسها  
واحش على حدق الحدائق كأسها

وفد الربيع على العيون بنرجس  
علقت على استحسانه أبصارنا  
يلهي ويونس من جفاه خليله  
فأرض الرياض بزورة تلهو بها

ولا نستطيع مما انتقاه ابن العماد أن نلم بكل ما قال الشاعر ولا بأحسن ما قال فنحن نعرض لما اختار من خلال ذوق غير ذوقنا وموقف غير موقفنا ، فللعماد موقف معروف يتكرر من شعراء الفاطميين ، فهو لا يختار من أقوالهم إلا ما يتفق مع عقيدته ولا يتعارض مع أهواء ساداته من الأيوبيين أعداء الفاطميين التقليديين . ذلك إلى ميل العماد في حكمه على الشعر إلى الشعر الذي به صنعة البديع . ونلاحظ على كثير من اختياراته اهتمامه بهذا اللون .



وشعر الكتاب عامة في هذا العصر لا يخلو من البديع ، وهو من جنس  
إنشائهم فيه الصنعة ظاهرة . وقد تعلم القاضي انفاضل في ديوان الإنشاء ،  
وتأثر بهم ، وحفلت كتاباته بضروب من صنعة البديع ، افتنَّ فيها حتى  
أعجبت معاصريه ومن بعدهم وكذلك كان شعره من اللون نفسه ، وهو ابن  
هذه المدرسة نفسها من شعراء كتاب الفاطميين .

## مصادر ومراجع

آدم متر :

١ — الحضارة العربية في القرن الرابع — ترجمة أبو رييدة ، طبع مصر .

إحسان عباس .

٢ — الوزير المغربي — طبع دار الشروق بعمان ، الأردن سنة ١٩٨٨ م .

أحمد أحمد بدوى

٣ — الحياة العقلية في عصر الحروب بمصر والشام — طبع نهضة مصر .

الأدقوى :

٣ — الطالع السعيد الجامع لأنباء أبناء الصعيد — تحقيق سعد محمد حسن ،  
ومراجعة الدكتور طه الحاجرى ، طبع دار الكتب بمصر سنة

١٩٦٦ م .

أبو الفداء :

٤ — المختصر في أخبار البشر — طبع القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

أحمد أمين :

٥ — ظهر الإسلام — طبع لجنة التأليف .

إدريس عماد الدين :

٦ — عيون الأخبار في أخبار الفاطميين — تحقيق دكتور مصطفى غالب ،  
طبع دار الأندلس ببيروت سنة ١٩٨٥ م .

ابن الأثير — نجم الدين أحمد بن اسماعيل :

٧ — جواهر الكنز — تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ، طبع منشأة  
المعارف بالإسكندرية .

ابن الأثير : عز الدين على

٨ — الكامل في التاريخ .

ابن أبى أصيبعة :

٨ — عيون الأنب، فى طبقات الأصباء

أسامة بن منقذ :

٩ — ديوانه — تحقيق د . حامد عبد المجيد .

١٠ — الاعتبار .

١١ — المنازل والديار — طبع القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

أمية بن أبى الصلت :

١٢ — الرسالة المصرية — تحقيق محمد عبد السلام هارون — مجموعة نوادر

المخطوطات .

طبع لجنة التأليف سنة ١٩٥١ م :

١٣ — شعره — جمع محمد المرزوق — طبع دار الكتب الشرقية بتونس .

الأمين العاملى : السيد محسن

١٤ — أعيان الشيعة — طبع دمشق سنة ١٩٤٦ م .

الباخرزى :

١٥ — دمية القصر وعصرة أهل العصر — طبع مصر .

ابن بسام :

١٦ — الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة — تحقيق إحسان عباس ، طبع

بيروت .

التجيبى :

١٧ — المختار من شعر بشار — تحقيق لجنة وطبع لجنة التأليف بالقاهرة .

ابن تغرى بردى :

١٨ — النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة — طبع دار الكتب المصرية

بالقاهرة .

١٩ — المنهل الصافى — طبع دار الكتب المصرية .

٢٠ — النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة — تحقيق د . حسين نصار ،

طبع دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م

نعم بن المعز :

٢٠- ديوانه - صبع دار الكتب المصرية .

التهامي : علي بن محمد

٢٢- ديوانه - تحقيق الدكتور محمد عبد الرحمن الربيع ، طبع مكتبة المعارف بالرياض سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٢ م .

ديوانه - تحقيق رسالة ماجستير مخطوطة ، بإشراف د . محمد زغلول سلام ، كلية الآداب بالإسكندرية سنة ١٩٧٨ م .

التعالبي :

٢٣- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبع السعادة بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م .

الجاحظ : عمرو بن بحر

٢٤- البيان والتبيين - تحقيق محمد عبد السلام هارون ، طبع لجنة التأليف سنة ١٩٤٨ م .

ابن حجة الحموي :

٢٥- ثمرات الأوراق - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم سنة ١٤٠٠ هـ .

٢٦- خزانة الأدب - طبع مصر سنة ١٣٠٤ هـ .

حسن إبراهيم حسن :

٢٧- تاريخ الدولة الفاطمية - طبع القاهرة سنة ١٩٣٢ م .

الحصري القيرواني : إبراهيم بن علي ( أبو اسحاق )

٢٨- زهر الآداب - ضبطه ، دكتور زكي مبارك ، طبع مصر .

حسين نصار ( دكتور )

٢٩- ظافر الحداد .

ابن حيوس :

٣٠- ديوانه - تحقيق خليل مردم ، طبع المجمع العلمي بدمشق سنة

١٩٥١ م .

داعى الدعاة : هبة الله بن موسى الشيرازى

٣١ — سيرة المؤيد — تحقيق د . محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصرى  
بمصر سنة ١٩٤٩ م .

٣٢ — المجالس المؤيدية — تحقيق د . مصطفى غالب ، ط . دار الأندلس  
بيروت سنة ١٩٧٤ م .

ابن دقماق

٣٣ — الانتصار لواسطة عقد الأمصار .

داعى الدعاة :

٣٣ — ديوان داعى الدعاة — تحقيق د . محمد كامل حسين ، ط . دار  
الكاتب المصرى سنة ١٩٥٠ م .

الدينورى : أبو حنيفة — أحمد بن داود

٣٤ — الأخبار الطوال — تحقيق عبد المنعم عامر ، طبع القاهرة سنة  
١٩٦٠ م .

الرقيق القيروانى :

٣٥ — تاريخ أفريقيا والمغرب — تحقيق المنجى الكعبى ، نشر وطبع تونس .

٣٦ — قطب السرور فى أوصاف الخمور — طبع المجمع العلمى بدمشق .

ابن رشيق

٣٧ — الأنموذج فى شعر القيروان — طبع تونس .

٣٨ — العملة فى الشعر .

ابن سعيد المغربى :

٣٧ — المغرب — الجزء الأول من قسم مصر — تحقيق د . زكى محمد

حسن ، د . شوق ضيف ، طبع جامعة فؤاد سنة ١٩٥٣ م .

السيوطى :

٣٨ — بغية الوعاة — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طبع القاهرة سنة

١٩٦٥ م .

٣٩ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .

٤٠ — تاريخ الخلفاء .

ابن شاکر الکنی :

- ٤١- عیون التواریخ - ح ١٢ ، تحقیق دکور فیصل السامر ، ط . العراق  
سنة ١٩٧٧ م .  
٤٢- فوات الوفیات - تحقیق د . إحسان عباس ، طبع بیروت سنة  
١٩٧٣ م .

الشابثی :

- ٤٣- الدیارات - طبع دار الکتب بمصر .

الشریف العقیل :

- ٤٤- دیوانه .

ابن الصیری :

- ٤٥- الوزراء المصرية - طبع مدبولی بالقاهرة .  
٤٦- الوزراء المصرية - طبعة أورویة .  
٤٧- قوانین الدواوین - طبع القاهرة .  
٤٨- قوانین الدواوین - طبع مدبولی بالقاهرة .  
٤٩- الأفضلیات - تحقیق د . ولید قصاب ، ود . المانغ ، طبع دمشق سنة  
١٩٨٢ م .

الصوری : عبد المحسن

- ٥٠- دیوانه - محقق . طبع بغداد سنة

الصفدی : صلاح الدین

- ٥١- الوافی بالوفیات - مجموعة أجزاء ، طبع معهد المستشرقین الألماني .  
٥٢- الفیث المسجده ، شرح لامية المعجم ، طبع بیروت .  
٥٣- نکت الهمیان -

طه حسین

مع أمی العلاء فی سجنه

طلایع بن رزیک :

- ٥٤- دیوانه جمع د . أحمد أحمد بدوی - ط . مكتبة نهضة مصر بالقاهرة  
سنة ١٩٥٨ م .

٥٤ — ديوانه جمع محمد هادي الأمين — نشر المكتبة الأهلية بالتحقيق بالعراق  
سنة ١٩٦٤ م .

ابن الطوير :

٥٥ — نزهة المقلتين في أخبار الدولتين — حققه د . أيمن فؤاد السيد ، طبع  
بمصر سنة ١٩٩٢ م .

ظافر الحداد :

٥٦ — ديوانه بتحقيق د . حسين نصار ، طبع مكتبة مصر بالفجالة سنة  
١٩٦٩ م .

ابن ظهيرة :

٥٧ — الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة — تحقيق مصطفى السقا ،  
ط . دار الكتب سنة ١٩٦٩ م .

عبد الرحمن ياغى :

٥٨ — حياة القيروان — طبع المكتب الإسلامى بدمشق .

عادل زعيتير ( مترجم ) :

٥٩ — نجالى الإسلام .

علي إبراهيم أبو زيد

٦٠ — وسائل ابن أبى الشخباء — طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩١ م .

علي بن خلف :

٦٠ — مواد البيان — طبع الجامعة الليبية بطرابلس .

عبد اللطيف حمزة : دكتور :

٦١ — أدب الحروب الصليبية — طبع دار الفكر سنة ١٩٤٨ م .

٦٢ — الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكى — طبع دار  
الفكر سنة ١٩٦٨ م .

علي بن ظافر :

٦٣ — بدائع البدائه — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبع مكتبة الأنجلو  
بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٦٤ — تاريخ الدولة السلجوقية .

٦٥ — أخبار الدولة الحمدانية — تحقيق تمية السروات — طبع دار حسان .

عماد الدين الأصبهاني :

٦٥ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥١ م .

٦٦ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام — طبع المجمع العلمي بدمشق .

٦٧ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب — طبع تونس .

أبو العلاء المعري :

٦٨ — رسالة الغفران — تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، طبع المعارف بمصر سنة ١٩٥٠ م .

٦٩ — ديوان سقط الزند .

٧٠ — ديوان اللزوميات .

ابن العماد الحنبلي :

٧١ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب .

العاملی : بهاء الدين

٧٢ — الكشكول — تحقيق أحمد الزواوي ، طبع الحلبي بالقاهرة سنة

العباسی : عبد الرحيم

٧٣ — معاهد التنصيص على شواهد التلخيص — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط . السعادة بمصر سنة ١٩٤٧ م .

عمارة اليمنی :

٧٤ — النكت العصرية في الوزراء المصرية .

الفارقي :

٧٥ — تاريخ الفارقي — تحقيق د . بدوي عبد اللطيف ، ط . دار الكتب اللبنانية بيروت سنة ١٩٧٤ م .



أبو الفرج الأصبهاني :  
٧٦ — الأغاني طبع دار الكتب المصرية .

القفطى : على بن يوسف  
٧٧ — إثبات الرواة على أنباه النحاة — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .  
٧٨ — المحمدون من الشعراء — تحقيق رياض مراد ، طبع دمشق سنة  
١٩٧٥ م .

القلقشندي :  
٧٩ — صبح الأعشى في صناعة الإنشا — طبع دار الكتب المصرية .

محمد عبد الغنى حسن :  
٨٠ — مصر الشاعرة في العصر الفاطمي — طبع مصر .

٨١ — تميم بن المعز الأمير الشاعر — طبع دار الرفاعي بالرياض سنة ١٩٨٠ .  
محمد كامل حسين :

٨١ — في أدب مصر الفاطمية — ط . دار الفكر العربى سنة ١٩٧١ م .

محمد عبد الله عنان :  
٨٢ — الحياة الفكرية في مصر حتى آخر الدولة الفاطمية — طبع النهضة  
العربية .

محمد عبد الحميد سالم . دكتور  
٨٢ — شعر المهذب — تحقيق ودراسة ، طبع دار هجر بالقاهرة سنة  
١٩٨٨ م .

٨٤ — الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية — نشر الخانجي سنة ١٩٨٣ .  
المقريزى :  
الخطط :

٨٣ — البيان والإعراب — تحقيق د . عبد الحميد عابدين ، طبع القاهرة سنة  
١٩٦١ م .

٨٤ — اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا — تحقيق ونشر د . جمال .

٨٥— كتاب النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم — تحقيق د. حسين مؤنس — طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٠ .

٨٥— الدين الشيال — ط . دار الفكر العربى سنة ١٩٤٨ م .

المقدسى : شهاب الدين

٨٦— كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين — تحقيق د . محمد حلمى بالقاهرة سنة ١٩٦٢ م .

محمد مصطفى رضوان :

٨٧— المهذب بن الزبير حياته وشعره — طبع دار الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٨٤ م .

الحاسبى :

٨٨— أخبار مصر فى سنين — طبع المجمع العلمى .

المسبحى :

٨٩— أخبار مصر — تحقيق وليم ميلورد ، طبع الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

المقرى :

٩٠— نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب — تحقيق إحسان عباس سنة ١٩٦٨ م .

النويرى :

٩١— نهاية الأدب — طبع دار الكتب المصرية .

النعمان القاضى : ( مترجم ) .

٩٢— دعائم الإسلام — تحقيق آصف فيظى ، نشر دار المعارف بمصر .

ابن هالى :

٩٣— ديوانه — طبع بيروت سنة ١٩٦٤ م .

ابن واصل : جمال الدين محمد

٩٤— مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب — تحقيق د . جمال الدين الشيال طبع مصر سنة ١٩٥٣ م .

الوطواط :  
٩٥ — مناهج الفكر ومباهج العير — تحقيق عبد العال الشامي ، طبع الكويت  
سنة ١٩٨١ م .

اليافعي :  
٩٦ — مرآة الزمان — ح ٣ ، طبع بيروت .

ياقوت الحموي :  
٩٧ — معجم الأدباء .  
٩٨ — معجم البلدان .

Lane Poole: History Of Egypt In Middle Ages.

## فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
٧	الفصل الأول : حال الشعر والشعراء
٩	حال الشعر
١٤	موضوعات الشعر
٣٨	شعراء العصر
٤٣	الفصل الثاني : شعراء مصريون في القرن الرابع
٤٥	١- تميم بن المعز
٨٧	٢- الرّسيون
٩٦	٣- ابن وكيع التنيسي
١٠٢	٤- الشريف العقيلي
١١٥	٥- شعراء مصريون آخرون في القرن الرابع
١٢٥	الفصل الثالث : شعراء وافدون في القرن الرابع
١٢٧	١- أبو الرقعمق الأنطاكي
١٣٧	٢- الرقيق القيرواني
١٤٤	٣- صريع الدلاء البغدادي
١٤٧	٤- عبد المحسن الصوري
١٥٩	الفصل الرابع : شعراء مصريون من القرن الخامس
١٦١	١- ظافر الحداد
١٩٦	٢- ابن مكنسة
٢٠٥	الفصل الخامس : شعراء وافدون من المشرق في القرن الخامس
٢٠٧	١- التهامي
٢٤٠	٢- داعي الدعاة شمس الدين
٢٤٧	٣- ابن حيوس

٢٥٥	الفصل السادس : شعراء معاصرون بالشام
٢٥٧	١- أبو العلاء المعري
٢٩٦	٢- ابن سنان الخفاجي
٣٠٣	٣- ابن الحياط
٤١٥	٤- إبراهيم الغزي
٣٢٣	الفصل السابع : شعراء وافدون من المغرب
٣٢٥	١- التحجيبى
٣٢٨	٢- ابن القطاع الصقلى
٣٣١	٣- أمية بن أبى الصلت
٣٤٢	٤- ابن أبى البشائر
٣٤٨	٥- شعراء وافدون آخرون
٣٤٨	٦- محمود بن عبد الجبار الطرسوسى
٣٥٠	٧- الرشيد الصقلى
٣٥١	٨- التلعلى الأصم - محمد بن عبد الله
٣٥٥	٩- مجبر الصقلى
٣٦٥	الفصل الثامن : شعراء مصريون فى القرن السادس
٣٦٩	١- حسن بن زيد الأنصارى
٣٧٣	٢- ابن النضر
٣٧٧	٣- داود بن مقدم الحلبي
٣٨١	٤- ابن الضيف
٣٨٤	٥- ابن الكيزانى
٣٨٩	الفصل التاسع : شعراء نهاية العصر ( ابن رزىك وجماعته )
٣٩١	١- ابن رزىك
٤٣١	٢- أسامة بن منقذ
٤٥٧	٣- القاضى الرشيد بن الزبير
٤٦٤	٤- المهذب بن الزبير

٤٧٩

٤٩١

٤٩٤

٤٩٩

٥- عمارة اليمنى

٦- ابن قادوس

٧- القاضي الجليس

المصادر والمراجع